mngool.com

ديانة مصر القديمة

نشأتها وتطورها ونهايتها في أربعة آلاف سنة

تأليف

أدولف إرمان

ترجمة

الدكتور عبد المنعم أبو بكر
الأستاذ بكلية الآداب
بجامعة الإسكندرية

الدكتور محمد أنور شكري
الأستاذ بمعهد الآثار المصرية
بجامعة القاهرة

مكتبة مدبولي
القاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

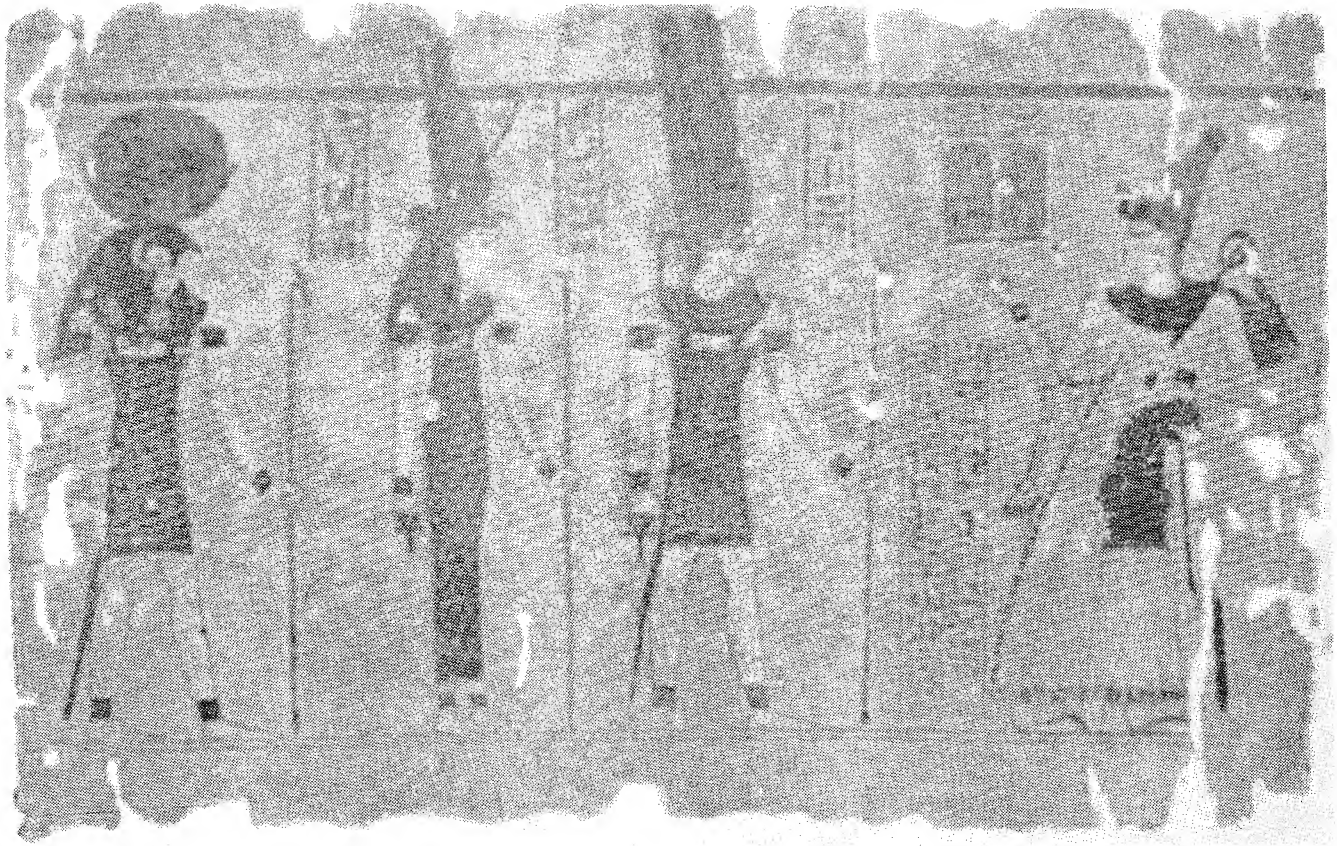
الناشـــر

مكتبة مدبولى

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٥٧٥٦٤٢١

لوحة ١



أمون وموت وخنسو، آلهة طيبة، ومن أمامهم الملك يقدم القربان. من بردية هارس التي يكثر ذكرها، والتي تخبر بما فعله رمسيس الثالث لآلهة مصر.

تصـــدير

أريد بهذا الكتاب أن أعرض فيه الديانة المصرية في أخصّ صفاتها، وأن أقص حياتها الطويلة مستعيناً في ذلك بما يبدو لي مفيداً مما بين يديّ من مادّة لا حصر لها، إذ من حقّ المؤرّخ، بل من واجبه، أن يطرح جانباً ما ليست له أهمية وما من شأنه أن يثير الارتباك. وليس من قصدي أن يكون كتابي شاملاً. لا يفتقد فيه العالم المختصّ شيئاً، ولكن القارىء إذا ألفى فيه ما يزيد كثيراً على القطاط المقدسة والمومياوات، وإذا وجد في بعض الأحيان أن في العقيدة المصرية من الأفكار والمشاعر ما لا تخجل منه الديانات السامية، فقد أدّى كتابي الغاية منه. ولقد سبق أن عالجت عام ١٩٠٤ مادّة هذا الموضوع. وظهر الكتاب إذ ذاك تحت عنوان «الديانة المصرية»[١]، ضمن مجموعة «كتيبات المتاحف الملكية»[٢]، التي أنشأها ريشارد شني، الذي كانت لديه فكرة جليلة عن وظيفته، إذ كان يعتقد أن المتاحف إنما هي قبل كل شيء أماكن تثقيف، وأن هذه الكتب ينبغي أن ترشد من غير عناء إلى الحضارات القديمة الأجنبية كل زائر للمتاحف يحاول فهم ما يراه. وكان كتابي الصغير يتفق حقاً وهذا الغرض، حتى لقد أصبح من الضروري طبعه مرّة ثانية عام ١٩٠٩ . وهو يظهر الآن للمرة الثالثة، ولكن في شكل جديد خارج تلك المجموعة، إذ غدا أضخم من أن يتناسب معها. وقد

(١) Die aegyptische Religion.

(٢) Handbuecher der KoeniglichenMuseun.

وجد ذلك الكتاب في الخارج كذلك استحساناً، فما كاد يظهر حتى نقله جرفث إلى الإنجليزية، وفيدال إلى الفرنسية، وبلِّجريني إلى الإيطالية.

وإذ لم يغب عن ناظري هذا العمل مذ ذاك، فقد جمعت فيما انصرم من ربع قرن حتى الآن أثناء اشتغالي بأعمال القاموس وقواعد اللغة المصرية كثيراً مما يفي بالكشف عن الديانة. ولهذا لا يجمع هذا الكتاب بسلفيه في عامي ١٩٠٤، ١٩٠٩ شيء كثير ـ فيما عدا فقرات معينة، على أني أرجو أن يكون قد ظلّ بذلك واضحاً سهل المعنى.

وعليَّ أن أذكر قبل كل شيء أن من الكتب التي أفدت منها والتي أثارت تفكيري، الطبعة الثانية من «تاريخ العصور القديمة»[١] لإدوارد ماير؛ فقد عالج فيه بما جبل عليه من صفاء النظر وصحة الحكم، مسائل الديانة المصرية أيضاً. وأذكر بعد ذلك كتاب برستد القيم «تطوّر الديانة والفكر في مصر القديمة»[٢]، ثم ما كتبه في هذا الموضوع كيس ورش. أما كتاب برستد «فجر الضمير»[٣] فيسوءني أنه لم يتيسر لي أن أفيد منه. هذا ويعتمد كثير مما يرد في كتابي على أبحاث زيتا الدقيقة ومؤلفات يونكر الهامة. أما ما أدين به لأبحاث لفيفر وأتُّو وشوبرت بصفة خاصة فيما يتصل بالكهنة فهو في غير حاجة إلى تنويه.

وقد أبقيت أسماء الآلهة والملوك على صيغها المعروفة بها، وذلك لأنه ليس من الميسور ردّ أغلبها إلى صيغته الصحيحة؛ كما أنه لا يزال من المستحسن الاحتفاظ بالصيغ الخاطئة المعروفة مثل سكر ونوت، أو شو وإسسي أو بيبي، من أن نستبدل بها صيغاً جديدة غير صحيحة، فيما يظنّ، على نحو الصيغ القديمة سواء بسواء. وفي أسماء المدن تعرض صعوبة أكبر، فإلى جانب صيغها الإغريقية، التي يشيع استخدامها الآن، أوردنا الأسماء المصرية التي لا

---

(١) Ed. Meyer, Geschichte des Altertums.

(٢) H. Breasted, Development of Religion and Thought in Ancient Egypt.

(٣) H. Breasted. Dawn of Conscience.

نكاد نعرف نطقها الصحيح، ثم الصيغ القبطية، وذلك فضلاً عن الأسماء التي يستخدمها السكان العرب في الوقت الحاضر ـ وقد أوردنا الأسماء الأخيرة في رسم تعسفي حقاً[١]. ولذلك لا يدهش القارىء إذا تكلمت مرّة عن هرموبوليس وأخرى عن شمون، أو مرّة عن ددو وأخرى عن بوزيريس، أو إذا اختلطت الأسماء الجديدة كأهناسيا والأقصر بالأسماء القديمة. وكل هذا يبدو قليل الجمال، على أن اتباع طريقة موحدة إنما يؤدّي إلى تصوّرات خاطئة.

وإني لأرجو ألا ينظر إلى ما يرد في كتابي من تواريخ بأكثر مما يمكن أن تكون عليه. حقاً لقد أمكن تحديد أزمنة بعض أحداث التاريخ المصري، على أنه تتخللها أحداث أخرى كثيرة لا يزال توقيتها غير محقق حتى الآن. ولحسن الحظّ ليس تقديم أو تأخير حدث بضعة عشرات من السنين بأمر ذي بال في أغلب الأحيان بالنسبة لموضوعنا ـ وقد عرضنا في صفحة م ما جرت به العادة من تقسيم تاريخ مصر القديم إلى دول وأسرات ـ. وإني لأحيل القرّاء، الذين يرغبون في معلومات أدقّ عن التاريخ المصري إلى كتاب برستد، «تاريخ مصر»[٢]، الذي ترجمه هرمان رانكه عام ١٩١٠. وما سقته من ترجمة حرفية من النصوص المصرية قد ميزته بخط مقوّر[٣]. وكثير مما اقتطفته من نصوص يرد في صيغته الكاملة في كتابي «أدب المصريين»[٤]. ولمن شاء أن يعرف كذلك شيئاً عن الكتابة المصرية ـ وهي التي تعتمد عليها حياة مصر العقلية جميعاً ـ أن يرجع إلى كتابي الصغير «الهيروغليفية»[٥]، الذي ظهر في طبعة جشن في ١٩١٢ و ١٩١٧.

ولقد كانت زوجتي سندا لي في طبع هذا الكتاب، وقام السيدان جرابُو وإركسن بالعمل المضني في مراجعة جميع الاستشهادات، كما ساعداني كذلك

---

(١) راعينا كتابة الأسماء العربية للمدن حسب رسمها في الوقت الحاضر، المعربان.

(٢) Breasted, History of Egypt.

(٣) أوردناه في الترجمة العربية من داخل شولات في أغلب الأحيان.

(٤) A. Erman. Literatur der Aegypter, Leipzig, Hinrichs 1923.

(٥) A. Erman, Die Hieroglyphen, Goeschen.

دون كَلل في تصحيح تجارب المطبعة، وإني لأشكر لهما من كل قلبي هذه الخدمات التي تنمّ عن حبّ وإخلاص.

أدولف إرمان

برلين ـ دالم
عيد العنصرة

أقسام التاريخ المصري[*]

اعتدنا تقسيم التاريخ المصري إلى عهود، نسميها دولاً أو أسرات، وذلك لنقص معرفتنا التواريخ الدقيقة. وهاك أهمها:

١ ـ ما قبل التاريخ (وكان ذا حضارة راقية):

٢ ـ الدولة القديمة ـ ٣٢٠٠ ـ ٢٢٥٠ ق. م تقريباً.

أ ـ الأسرات الثلاث الأولى. (وعلى رأسها الملك مينا، مؤسس منف؛ حوالي ٣٢٠٠ ق. م. ـ وفي نهايتها الملك زوسر «باني الهرم المدرّج»).

ب ـ الأسرة الرابعة: ٢٧٢٠ ـ ٢٥٦٠ ق. م. (ومن ملوكها خوفو وخفرع ومنقرع، بناة الأهرام العظيمة).

جـ ـ الأسرة الخامسة: ٢٥٦٠ ـ ٢٤٢٠ ق. م. (وملوكها ساحورع ونيوسر رع وغيرهما، وعهدها عهد ازدهار).

د ـ الأسرة السادسة: وملوكها تيتي وببي وغيرهما. ـ وقد أعقبها انهيار حكومي تامّ حوالي ٢٢٥٠ ق. م.

٣ ـ الدولة الوسطى:

أ ـ بعد فترة اضطرابات قامت حكومات ملكية جديدة في هرقليو بوليس (ومن ملوكها مريكارع) وفي طيبة (الأسرة الحادية عشرة).

ب ـ الأسرة الثانية عشرة: ٢٠٠٠ ؛ ١٧٩٠. وملوكها يحملون اسم امنمحات وسيزوستريس؛ وهذا العهد هو العهد الكلاسيكي للبلاد.

جـ ـ الأسرة الثالثة عشرة: حتى ١٧٠٠ ق. م. تقريباً، وذلك عندما استولى على مصر الهكسوس، ذلك الشعب المتبربر.

٤ ـ الدولة الحديثة:

أ ـ تحرير أمراءء طيبة للبلاد (الأسرة السابعة عشرة والملك أحمس).

ب ـ الأسرة الثامنة عشرة: ١٥٥٥ ـ ١٣٥٠ ق. م. وفيها كانت مصر دولة عظمى. الملوك يحملون اسم أمنوفيس (امنحوتب) وتحوتمس؛ وأهمهم الملكة حاتشبسوت والملك نحوتمس الثالث.

وفي نهاية هذه الأسرة عهد الهرطقة.

جـ ـ الأسرة التاسعة عشرة: ١٣٥٠ ـ ١٢٠٠ ق. م. وملوكها سيتي ورمسيس وغيرهما، ومنهم رمسيس الثاني ١٢٩٢ ١٢٢٥ ق. م.

د ـ الأسرة العشرون: ١٢٠٠ ـ ١٠٩٠ ق. م، ومن ملوكها رمسيس الثالث (١١٩٨ ـ ١١٦٧ ق. م) ثم خلفاؤه وكانوا يحملون اسمه.

٥ ـ عصر الانحطاط:

أ ـ الأسرة الحادية والعشرون: (الملك الكاهن حريحور في طيبة وملوك آخرون في تانيس).

ب ـ الأسرة الثانية والعشرون: ٩٥٠ ـ ٧٤٠ ق. م.، وملوكها ليبيُّون (شيشنق وغيره).

جـ ـ سيطرة الأثيوبيين (شاباكو) والأشوريين على مصر.

د ـ الأسرة السادسة والعشرون: ٦٦٣ ـ ٥٢٥ ق. م. وقد قام ملوكها في سايس وعلى رأسهم أبسماتيك ثم خلفاؤه.

هـ ـ سيطرة الفرس على مصر: ٥٢٥ ـ ٣٣٢ ق. م، ويتخللها الملوك المصريون المضادّون.

٦ ـ العهد اليوناني، ٣٣٢ ـ ٣٠ ق. م.

الإسكندر والملوك البطالمة.

٧ ـ العهد الروماني، منذ ٣٠ ق. م.

المقـدّمَة

لا يثير اهتمامنا بالديانة المصرية قدم عهدها فحسب، إذ لا يعنينا كثيراً أن نضيف إلى تاريخ الديانات الطويل ألف عام أو أكثر من ذلك أو أقل - بل إن أقوى ما دفعنا إلى ذلك أن دراستها تتيح لنا تتبع حلقات التطوّر الديني المتصلة، الأمر الذي يعسر علينا الاهتداء إليه إذا حاولناه مع غيرها من الديانات القديمة الأخرى. فنحن نعرف ديانة المصري القديم منذ نشأتها البدائية في العصور السحيقة، حين تخيل الإنسان الإله ماردا أو كائناً رهيباً حتى ذلك الوقت الذي فيه بدأ الإنسان إدراك الصلاة الروحية بينه وبين الإله، فاعتمد عليه وجعله محطّ آماله، بل أحبه وخشي بطشه ووعيده.

نعم، نحن نعرف هذه الديانة حين بلغت أوج المجد والقداسة، وتغلغلت في نفوس المصريين القدماء. كما نعرفها أيضاً عندما حاول الكهنـة إدخال بعض الإصلاحات عليها، وكيف أخفقت هذه المحاولة إخفاقاً ذريعاً، أعقبها فترة اضمحلال طويلة المدى، تخللتها بعض المحاولات للنهوض ولكنها انتهت جميعها إلى الزوال. تلك النهاية التي كان من أكبر عواملها التعصب الشديد والإيغال في التقوى والورع. وعندما حلت الديانة المسيحية بأرض مصر كانت نذيراً بزوال الديانة المصرية القديمة.

وإن مما يجعلنا لا ننظر بعين التقدير العظيم إلى الديانة المصرية أنها في مظهرها الرسمي على الأقل قد حوت كل الأغلاط التي ترجع إلى عصورها

الأولى. وليس في استطاعة أحد أن يدفع الناس إلى التحمس لمثل هذه الأفكار البدائية التي ـ وإن كانت تسترعي نظرنا نحن ـ فإنها في حقيقتها لم تكن بالنسبة إلى مصريّ العصور المزدهرة إلا بعض التقاليد المتوارثة التي لم تلعب دوراً مهماً في حياته الدينية الحقيقية، ومثلها في مثل بعض الطقوس المتوارثة للديانات الأخرى.

وما من شك في أنه توجد طرق مختلفة لإعطاء صورة للديانة المصرية، فمن أراد التمسك بقواعد البحث العلمي الدقيق فعليه أن يدرس كل العناصر الدينية المختلفة التي ورد ذكرها في طقوس المصريين القدماء وما حوت من آلهة غامضة، وكائنات غريبة، وعادات وحفلات مختلفة، مما يستلزم ملء مجلدات لا حصر لها.

أما من لا يرى اتباع هذه الطريقة العلمية فعليه أن يدقق في بعض المظاهر التي وردت في تاريخ هذه الديانة الطويل؛ أي عليه أن يبدأ بدراسة: ـ كيف تصوّر الشعب آلهته البدائية وجعل منها كائنات حية قدّسها بطرق ساذجة، ثم كيف أنه بعد ذلك بنى المعابد الضخمة لآلهته التي أصبحت بعيدة غريبة عنه، فاستبدلها بأشياء أخرى قريبة منه تسرع إلى نجدته. ـ ويدرس أيضاً كيف أراد أحد ملوك مصر أن يقوم بمحاولة جريئة ليحرّر شعبه من تلك المعتقدات القديمة، وكيف تبرز من وسط ذلك الخضمّ العظيم من التصوّرات المختلفة للحياة بعد الموت فكرة تظهر لنا أن ما يصيب الإنسان من عدالة هو أهمّ وأعظم قدراً عند المصري من تلك التعاويذ والطقوس الدينية. ولا نشك مطلقاً في أن الوصول إلى مثل هذه النتيجة لأهم وأجدى لنا من التعرّف على أسماء ورموز وأيام احتفالات الآلهة والآلهات.

وإني لأرجو القارىء أن يعذرني إذا اضطررت من حين لآخر أن أذكر ذلك التضارب والخلط الغريب في المعتقدات المصرية، فإنها وإن كانت في ذاتها غريبة ثقيلة، إلا أنها بالنسبة إلينا نحن الذين نعيش في القرن العشرين مثيرة لدهشتنا أكثر مما ينبغي. ولكن أليس الغموض والتناقض هما الظاهرة الرئيسية

لكل ديانة؟ إن كل من يحاول أن ينشر ديانة واضحة المبنى[1] إنما ينزع منها سرّ الحياة، ويجنبها ناحيتها الروحية وراء الطبيعية؛ وهي تلك الظاهرة التي تجعلها محببة إلى الإنسان، وذلك لأنها ليست وليدة تفكير، بل هي وليدة شعور.

إذن فكل المحاولات التي بذلت لدراسة أو وصف ديانة أيّ شعب من الشعوب لم تعتمد على وسائل أساسية؛ فهي ليست إلا وصفاً لجميع الآلهة واستعراضها لنواحي طقوسه الدينية بدقة، وليست إلا متابعة لما حِيك حول هذا الدين من القصص والأساطير والخرافات. ولكننا في هذا البحث لم نتعرّض إلا للمظهر الخارجي للدين.

فإذا عرفنا الأشكال التي تحيط بالديانة فإن المعنى الحقيقي الذي كان يقصده مبدع الديانة لم نعثر عليه بعد. وإن ما يعنينا هي المؤثرات والشعور الذي يربطنا بتلك الأشياء المقدسة. وهذه المؤثرات هي التي ترتفع بالإنسان عن سفاسف الأمور وهموم العيش على الأرض، وتجعل الديانة أكبر عامل في الحياة الإنسانية، ولهذا السبب نرى أن تكون الآلهة بهذا المظهر أو ذاك، ولا يكون هذا إلا حسب اختلاف المستوى الثقافي لكل عابد.

فإذا عرفنا بطريق الصدفة ما يشعر به المؤمن نحو معبوده أمكننا أن نصل إلى لبّ الديانة، ولكن ذلك لم يحدث إلا نادراً.

لهذا نرجو القارىء أن يضع نصب عينيه هذا النقص في معلوماتنا، وأن يتلمس فهم ما نعرضه له من معنى عميق للديانة. وليس من شكّ في أن أغرب تماثيل الآلهة وأبعد الطقوس الدينية عن فهمنا تبدو واضحة مفهومة لا تمكنا من معرفة تلك الأحاسيس التي تجيش في صدر المتعبد نحو هذه التماثيل، أو ما يفهمه هو عن هذه الطقوس.

---

(١) إن من يشرّح الديانة بطريقة منهاجية على نحو ما يحدث في كثير من الحالات فإنه ينتهي إلى نتائج عقيمة غير صحيحة؛ «إن الحياة والروح لتفر من المبضع الخشن».

الفصل الأول

كلمة عامة

لقد استطاع الإنسان أن يميز نفسه عن الحيوان بصفات عدّة استمدّها في أول الأمر مما يحيط بالحيوان من انفعالات: فصراخ الحيوان ومناداة الذكر للأنثى، تطوّرتا عند الإنسان وجعل منها لغة التخاطب، كما أن غريزة التجمع عند الحيوان في قطيع هي التي دفعت الإنسان إلى إنشاء الأسرة، ومنها تكوّنت الدولة. أما ذلك الدافع المبهم عند الحيوان للإبقاء على النسل فهو الذي أنمى العاطفة ودفع الإنسان إلى الزواج، وكذلك كان الشعور الغريزي بالخوف والفزع عند الحيوان من كل ما هو مجهول سبباً دفع الإنسان إلى احترام كل القوى التي تؤثر في حياته دون أن يتعرّف كنهها. ومن هذا الشعور بعينه نشأت الديانة التي لم تكن إلا الاعتقاد المسيطر على ذهن الإنسان من أن هناك قوى تحيط بالإنسان وتؤثر فيه.

ومع أن الإنسان لم يرَ هذه القوى إلا أنه كان يعتقد في وجودها، وكوّن في مخيلته صوراً لها، وأخذ يعطي كلاً منها شكلاً معيناً واسماً خاصاً، بل أخذ يتمثلها على طريقته الخاصة؛ فجعل من بعضها أصدقاء أوفياء، ومن البعض الآخر أعداء ألداء. فهو لا يعرف أشكالها وأماكنها، وأخذ يتصوّر الأشياء التي تدخل السرور إلى نفسها كما عرف ما يثيرها، وبالفعل بذلك جهوداً لكي يرتب أعماله على هذه النتائج.

وليس من شكّ في أن ما اعتبرناه هنا أساساً لنشأة الديانة لم يتكوّن إلا بين

البشر الذين عاشوا في مستوى وضيع جداً. وعندما وصل بنو الإنسان إلى حضارة أكثر تقدماً أخذت أهدافهم الدينية تسمو شيئاً فشيئاً وتركزت حول التعرّف عما يحويه ذلك العالم البعيد عن حياتهم اليومية. فالإنسان لم يرد فقط أن يلجأ إلى سند يحميه، بل أراد أن يوجد لنفسه معبوداً إذا ما فكر فيه سما بنفسه فوق كل ما ينتاب الإنسان من اضطرابات مختلفة في حياته اليومية. ولقد دفعت الطبيعة البشرية الإنسان دائماً أن يخلق لنفسه معبودات أعطى لها أشكالاً مختلفة، وقد اندفع في هذا المضمار اندفاعاً لا إرادياً.

ولقد كانت الصدفة وحدها هي التي شكلت هذه الآلهة؛ فنرى الإنسان يتمثل معبوداً معيناً على أنه إلّه واحد، وأحياناً يتمثل معبوداً آخر على أنه عدة آلهة، كما أعطى البعض من معبوداته شكلاً مجسماً، ورأى في البعض الآخر أنها أشياء روحانية غير مجسدة. وفي غالب الأمر يمتّ الشك المعين لمعبود ما إلى عصور سابقة وألا يتفق هذا الشكل مع المستوى العالي التي وصلت إليه عقائد الشعب في عصر متأخر ولكن هناك من الأمثلة في دياناتنا الحالية ما لا تختلف عما ذكرت، فنحن الآن نبجل بعض الأشياء التي في واقع الأمر تملأ صدورنا بالخوف والرعب ولكن نشأتها الأولى أكسبتها قدسية وأصبحت تعتبر من بين الرموز المقدسة في عقيدتنا.

وفي الواقع لقد حوت كل الديانات أشكالاً مختلفة تنمّ عـن رموز تتركز حولها عقائد المؤمنين بها. وهذه ملاحظة كان من الواجب أن نبرزْها لسبب واحد، هو أن بعض الناس يلومون المصريين لتقديسهم بعض الآلهة التي رمزوا لها بأشكال غريبة توارثوها منذ القدم وحافظوا عليها بأمانة كبيرة، ليس لأنهم رأوا فيها جمالاً، بل لأنها الأشكال التي قدّسها أجدادهم.

وديانة أيّ شعب تتأثر بطبيعة البلاد التي يسكنها والحياة التي يحياها. فبيئة الإنسان الذي يسكن شواطىء البحار تختلف كل الاختلاف عن بيئة ذلك الذي يسكن الغابة أو السهل، وليس من شكّ في أن الشعب الذي يعيش مستقراً في حقوله الخصبة يفكر في آلهة تختلف في كنهها عن تلك التي يتخيلها شعب فقير

يتنقل بين مكان وآخر لا يعرف الاستقرار ولا يستسيغ إلا الكفاح. ومن هنا اتخذت الديانة المصرية لنفسها طابعاً خاصاً يتفق مع الحياة الهادئة والعمل المستمرّ الذي تحتمه البيئة التي يعيش فيها المصري الذي تعوّد أن يزرع حبوبه ويربي قطعان ماشيته، ويرى نيله يفيض كل عام على حقوله فيترك غرينه الذي يكسب الأرض خصوبة وحياة. وبجانب ذلك حوت مصر ظاهرة أخرى استرعت انتباه سكانها، وهذه الظاهرة هي الشمس التي تشرق فجأة من وراء جبال الصحراء والتي كانت تعتبر بمثابة الصديق لشعب مصر فتغمره في أيام الشتاء القارصة، ولو أنها كانت تأتيه بحرارة الصيف المحرقة. كذلك لاحظ المصري النجوم التي تملأ ذلك الفضاء اللانهائي أثناء الليل ومن بينها القمر الذي يتضاءل يوماً بعد يوم ثم لا يلبث أن يختفي ثم يعود إلى الظهور فيزداد حجماً حتى يكتمل. وكانت تنتاب مصر من حين لآخر بعض العواصف الشديدة مصحوبة بالصواعق كما هو الملاحظ الآن، فترعد السماء وتبرق، وتنساب السحب في سرعة فائقة، وتبدو الشمس من بينها كما لو كانت هناك معارك عنيفة تحدث بين مخلوقات غريبة في السماء. ولم يكن من السهل ألا تثير كل هذه الأشياء اهتمام المصري في ذلك الوقت؛ فاعتقد أن كل هذه الكائنات ليست إلا آلهة كبرى، بل هي أكبر الآلهة التي تهيمن على العالم، وهنا تساءل المصري: أيمكن لهذه الآلهة الكبرى التي تحيا في السماء والتي تهيمن على العالم أن تعني بأمر حياة البشر كل فرد على حدة؟ ويجب ألا نعجب لهذا التساؤل، فكثيراً ما يساورنا مثله فيما يتعلق بالديانات الأخرى. وتساءل المصري أيضاً: هل في استطاعته أن يلجأ إلى إله الشمس أو إلى إلهة السماء إذا ما دهمه الخطر أو إذا مرضت إحدى بقراته؟ ورأى أن هذه الآلهة بعيدة عنه كل البعد وأن من الأفضل لديه أن يلجأ إلى آلهة أخرى أقلّ من تلك شأناً لتساعده، ولقد وجد ضالته بسهولة. فخيال المصري أوجد كثيراً من الأشياء في كل مكان وتحيط به في كل ساعة، من خصائصها إما أن تدخل الرعب في قلبه، أو تأخذه بجمالها. فكانت هناك الحيوانات التي تسكن نيله الفياض أو أرضه أو الصحراء التي تحيط بمصر؛ فمثلاً هناك التمساح والثعبان والأسد؛ كما كانت تنبت على حدود الصحراء أشجار

ترجع إلى العصور الأولى التي لا يتذكرها ولا يعرف عنها أيّ إنسان متى زرعت أو من أين جاءت؛ ثم رأى أنواعاً كثيرة من الأحجار لها أشكال متباينة غريبة لا يمكن أن تنمّ إلا على أنها تحوي قوى سحرية تدعو إلى القلق. هذه الكائنات التي كانت تعيش بجانب مساكن الإنسان كانت هي التي تسارع إلى نجدته إذا ما التجأ إليها عند الحاجة، كما كانت تنتقم لنفسها إذا ما أسيئت معاملتها... وهكذا تكوّنت من هذه الكائنات عدة آلهة أحاطت الإنسان ولعبت دوراً هاماً في حياته اليومية، ولو أنها لم تَسْمُ في مكانتها عنده إلى مكانة تلك الآلهة العظمى التي تسكن السماء. وتعلق الإنسان بهذه الآلهة الصغرى وتأثرت بها حياة الأسرة سواء في القرية أو في الإقليم. ولكن المعتقدات الدينية يمكن أن نشبهها بالأمراض المعدية؛ إذ أن تقديس بعض هذه الآلهة المحلية انتشر بين الناس في أماكن بعيدة عن مواطنها الأصلية، ولا غرابة في ذلك فمصر لا تشبه في طبيعتها أي بلد آخر، إذ أن في الاستطاعة اجتياز هذه البلد من أقصاها إلى أقصاها بسفينة تعبر مياه النيل دون أيّ عائق. وإذا لم تساعد الظروف هذا أو ذاك المعبود من أن ينتقل من موطنه فقد كانت هناك بعض العادات والأفكار الدينية تنتقل من موطنها وتنتشر في المواطن الأخرى، وهكذا تكوّن في مصر كنز لا يفنى من معتقدات دينية تنوّعت أفكارها وتعدّدت مذاهبها؛ فهناك من الآلهة ما عبد في موطن واحد، وأخرى عبدت في مواطن مختلفة. كما كانت هناك آلهة اختلفت أوصافها واتحدت في شكلها، وكذلك آلهة اتحدت في اسمها واتخذت أشكالاً مختلفة. وليس في استطاعتنا في نتعرّف الأسباب التي دفعت المصري إلى هذا الاختلاف المتشابك في شتى عقائده. ومن الغريب أن الآلهة العظمى لم تنجَ من هذا الخلط. حقاً إن كل مصري رأى في الشمس والقمر والسماء ما يرمز إلى آلهة عظمى، ولكن في بلد مثل مصر لها امتدادها كما تخيلها زميله الذي يسكن منطقة من مصر تبعد عن منطقته. وسوف نتحدث فيما بعد عن هذه الظاهرة، ونذكر هنا على سبيل المثال كيف أن هناك عقيدة صوّرت إلّهاً على هيئة الصقر يسكن السماء عيناه هما الشمس والقمر؛ بينما هناك عقيدة أخرى صوّرت الشمس والقمر كنجمين يتجوّلان في السماء داخل قارب كبير. وهكذا انتشرت مثل هذه

العقائد المختلفة في طول البلاد وعرضها؛ ولقد ساعد على انتشارها ما وضع عنها من أناشيد وأشعار. ولقد توطنت بعض هذه العقائد في أماكن ليس بينها وبين موطنها الأصلي أية صلة، ومن الغريب أنها ـ أي هذه المعتقدات ـ عاشت واستقرّت بجانب العقائد المحلية المتوارثة دون أن يشعر أهل هذا المكان بأيّ تناقض بينهما. وفي آخر الأمر تكوّنت في البلاد، عقيدة واحدة يمكن أن نسميها العقيدة المصرية، وقد حوت خليطاً غير متناسق بين كل ما أنتجه العقل المصري من صور مختلفة لمجموعة معبوداته، ولو أن من المناطق ما احتفظ أهله بعقيدة معينة وتمسكوا بها لسبب أنها هي العقيدة التي توارثوها عن أجدادهم القدماء.

ولعلّ الأحداث التاريخية هي التي جمعت هذا الخضمّ المتناقض من المعتقدات وأضفت عليه الشكل النهائي. وليس من شك في أن الديانة المصرية قد تأثرت كثيراً بظهور بعض الدويلات الصغيرة في جزء من أجزاء مصر، وأعني بالدويلة تلك المقاطعة التي تتكوّن في العادة من مدينة كبيرة مضافاً إليها ما يحيط بها من أراضٍ واسعة، فيصبح إله هذه المدينة هو الإله الأول للمقاطعة، كما يرى فيه عبّاده ما يجعله في مستوى يعلو كثيراً عن معبودات المقاطعات الأخرى. وهكذا يكون في مصر نوع من الآلهة الكبرى يمكن أن نسميها آلهة المقاطعات تختلف عن غيرها من المعبودات بتسميتها منسوبة إلى المدن التي نشأت فيها. ونضرب لذلك مثلاً الإله «ست» الذي سمى «رب أمبوس» أو «ذلك الذي من أمبوس»، ومعنى ذلك أنه قد تكوّنت بين الآلهة ما يشبه طبقة الأرستقراطية.

ومرّت السنون وتقدمت مصر نحو الاتحاد، وتكوّنت من مقاطعاتها المختلفة دولتان كبيرتان: إحداهما في الدلتا والأخرى في صعيدها. وحدث ذلك حوالي القرن الأربعين قبل الميلاد، بيد أن المصري نفسه لم يستطع تخيل ذلك العصر (عصر الدولتين) إلا بصورة مضطربة غير ثابتة، ولو أنه في الوقت نفسه احتفظ بالشكل الخارجي لهذا التقسيم ولم ينسَ مطلقاً أن يسمي مصر «الأرضين» وأن ملك مصر يجمع في شخصة بين سلطتين مزدوجتين. ومن المرجح أن هذين البلدين تقاتلا، وهناك نصّ قديم يذكر ما كان من حروب

بينهما، ولدينا فيما احتفظت به الديانة عن هذه العصور السحيفة الموغلة في القدم ما يثبت ما قام من نزاع بين المملكتين. وكان لكل من المملكتين آلهته التي تحميه، وقامت بينهما الحروب ثم تهادنتا، ولو أنه في واقع الأمر لم تختفِ الفرقة بينهما، ولا بد أن تكون تلك الحروب بين المملكتين هي التي دفعت الإله «حورس» حامي مصر السفلى أن يمثل في جميع البلاد كرمز الملكية. ويجدر بنا ألا نتعرّض لهذه المعتقدات لا لشيء سوى جهلنا بها. لأننا إذا ما حاولنا أن نفهمها فسوف نركب الشطط؛ وسنحاول على كل حال في الفصول الآتية شرح ما تثبتنا من معرفته.

وقبل أن نبدأ بالحديث المفصل عن هذه المعتقدات ينبغي لنا أن نعرض لبعض النقط التي تعتبر من أهمّ الأُسس لتفهّم الديانة المصرية القديمة. لقد سلفت الإشارة إلى نوع الحيوان الذي حرص المصري في كثير من الأحوال أن يرمز به لبعض آلهته وكثيراً ما اختار بعض الحيوانات المفزعة مثل التمساح والثعبان، كما اختار أحياناً بعض الحيوانات النافعة مثل التيس والثور والبقر من قطعانه. وكثيراً ما اختار أنواعاً أخرى من الحيوانات شغلت تفكير الرجل الساذج بحركاتها وأعمالها كابن آوى الذي يتسلل ليلاً من الصحراء متجهاً نحو الأماكن التي اختارها المصري لدفن موتاه. واعتقد عباد هذه الحيوانات أنها تحوي شئاً إلهياً في نفسها، بمعنى أنه إذا أراد أحد الآلهة أن يجسِّد نفسه للبشر فإنه يختار حيواناً ترمز بعض صفاتها إلى ما لهذا الإله من صفات. ولكن من المعروف أن الإله لا يكون مجسداً في كل بقرة أو في كل تمساح، وبرغم كل الاحترام الذي يحيط به المتعبد تلك الحيوانات فإنه يمكن أن يأتي يوم يذبح فيه البقرة ويقتل التمساح ولا يرى في هذا عملاً إجرامياً. وفي بعض الأحيان تحتفظ مدينة ما بنموذج واحد من هذه الحيوانات كمثل للإله، معتقدة أن جزءاً من الشخصية الإلهية تسكن فيه بصفة مستمرّة. كما أن الإله يختار عادة مسكناً آخر له. فهو يسكن بيته في معبده حيث يحفظ تمثاله المقدس الذي تنزل عليه روح الإله. والذي يمثله في شكل حيوان أو آدمي. ويحدث أيضاً أن التقديس لا يوجه نحو

تمثال للإله، بل نحو أيّ شيء آخر من الجماد تكون قدسيته قد اكتسبها لسبب من الأسباب.

وحافظ الناس على تماثيل الآلهة في محاريبها كما وصلت إليهم في أشكالها الخشنة لا لسبب سوى قدسيتها ولأنه محرّم عليهم أن يتناولوها بأي تغيير. ولكن حدث بالنسبة إلى بعض الآلهة أن اضطرّوا إلى مراعاة طريقة جديدة في تمثيلها؛ فبدلاً من الصور الحيوانية البحتة ظهرت الصور النصف آدمية. وكان ذلك متوقع الحدوث فعلاً. أم يقولوا عن الإله إنه يحب ويكره ويحمي ويعاقب ويعطي ويأخذ؟ فمن الواجب أن يظهر الإلّه لهؤلاء على هيئة آدمي، لأن هذه الأوصاف لا يمكن أن تنطبق على تمساح أو كبش أو صقر. ولكن في الوقت نفسه كانت هناك آلاف الروابط التي تلزمهم بالإبقاء على التقليد القديم ذي المظهر الحيواني. فاختاروا الوسط بين الحالتين، فأعطوا الإله جسماً آدمياً حتى يستطيع التقبيل والإعطاء والحماية واحتفظوا له برأس الحيوان. حقيقة بقي حورس وخنوم على هيئة الصقر والكبش ولكنهما على ذلك استطاعا أن يقوما بكل الأعمال الآدمية إشباعاً لرغبة المؤمنين بهما. إنه من العجب حقاً بأية مهارة استطاع المصريون أن يوجدوا هذا المزج بين الإنسان والحيوان إلى حد لا نرى نحن فيه أيّ تناقض!!.

وهناك تغيير أكثر أهمية مما يتصل بمظهر الآلهة الخارجي، هو ما خلعو على هذه الآلهة من أوصاف؛ وسبب ذلك أن بعض الآلهة مدوا سلطانهم خارج حدودهم الأصلية، ومن ثم أصبح لزاماً ألا يكتفي المتعبدون بما كان لهم من أوصاف كآلهة محلية في المقاطعات، فاتجهوا إلى أن يكسبوا معبوداتهم أوصافاً على نطاق أوسع بأن جعلوهم متصلين بالزراعة والحرف والحرب والتناسل ودفن الموتى. بل أكثر من هذا طمع كل إلّه في أن تصبح له صلة فعالة في حكم الطبيعة فيما يتصل بالسماء والأرض والماء والشمس والقمر. وتغالوا في ذلك إلى درجة أنه لم يصبح هناك إلّه ليست له صلة بالنسبة إلى عبّاده على الأقل بمثل هذه القوى الطبيعية. وفضّل المصري أن يجعل إلهة أنثى هي رمز السماء، وإلهاً

ذكراً كرمز للشمس أو للقمر دون أن يلاحظ أن هناك آلهة أخرى اعتبرت كآلهة لهذه القوى الطبيعية، كما لم يقلقه أن يسند لأحد هذه الآلهة التي سبق ذكرها مهامّ أخرى؛ فمثلاً لم يكن المعبود «خنوم» هو صانع وخالق البشر فقط، بل كان أيضاً إله «الماء البارد» بمعنى منابع النيل، وكان لزاماً على المصري أن يوجد تناسقاً بين هذه المهامّ المختلفة.

وقد مكّن موقع البلاد الجغرافي المحصن أهل مصر أن يعيشوا حياة هادئة. ومن البديهي أنه قد حدثت بعض الحروب والمعارك اعتبرها المصري إحدى المصائب التي حلت بالشعب ولم يهتمّ بها كثيراً(١). ولم يتعطش المصريون نحو الأخذ بالثأر كما كانت الحال في الشعوب الأخرى، ولذلك بقيت هذه العادة غريبة عنهم(٢). ومن أجل هذا بقيت ديانتهم خلواً من الطقوس المخيفة التي تحيد بالديانات الأخرى عن الطريق المعتدل. ولم يكن فيها مكان لآلهة ظمأى نحو الدماء، ولا طقوس تسرف في السرور أو الشراهة(٣). وكانت الطقوس الدينية تؤدى بشكل هادىء رزين. وعومل الإلّه معاملة الرجل القويّ الذي يسعى الكل إلى تأكيد مظاهر احترامه، فيقدمون له المآكل والمشارب والزهور والملابس والحلى، ويشّيدون له مسكناً يحرصون على نظافته يشيع فيه عبق البخور. وكان الإله يسرّ لكل هذا فيعوّض الناس ببركاته عن كل هذه الأعمال.

وساد هذه الطقوس البساطة والكمال، ولكنها تضاعفت بمرور الزمن حتى وصلت في آخر الأمر إلى أبعد الحدود. ونتج عن ذلك أن أضيفت إلى طقوس الديانة المصرية وما يحيط بها من حفلات وعادات مختلفة الكثير من المستحدثات التي انتهت بأن قلبت الديانة المصرية رأساً على عقب.

---

(١) ومن الغريب أن لفظة «جنودنا» لم ترد إلا مرة واحدة في النصوص المصرية القديمة التي لا تحصى، وذلك في مقبرة أحد الضباط.

(٢) لم يكن لديهم كلمة صريحة يعبرون بها في لغتهم عن هذا الشعور.

(٣) ربما كانت هناك شواذ، على أية حال فإنها لم تلعب أي دور في العبادات المصرية قارن: Ed. Meyer, I. 23, 68.

ولقد لعبت «البدع» الدينية دورها المهم في صبغ ديانة المصريين بصبغة أخرى، ولو أننا لا ندري مدى تأثر الديانة بهذه البدع إلا أننا نعرف تماماً أنها أضافت أنواعاً جديدة من الآلهة، فمثلاً اختاروا الطائر إيبس (أبي منجل) ليرمز إلى إله القمر، كما جعلوا إله القمر هو الإله العالم كاتب الآلهة.

إن الصورة التي حاولنا رسمها لتطوّر الديانة المصرية هي بعينها الصورة التي يمكن رسمها لتطوّر أيّ دين من أديان الشعوب. فالخطوط الرئيسية لديانة ما، تتحوّل وتتشكل ما دام هناك عرق ينبض في قلوب الشعب. وتشترك الديانات كلها في عدم استطاعتها التخلي عما وصل إليها من تقاليد قديمة، بل أكثر هذه الديانات تقدماً وتطوّراً لم تستطع التحرّر من معتقدات وتصوّرات قديمة، إذ أن الزمن وحده هو الذي أكسب هذه المعتقدات قدسيتها، وأصبح المؤمنون بها لا يجدون غضاضة في التعلق بأهدابها. وليس من شك في أن الديانة المصرية امتازت بين الديانات القديمة في الجمع بين الحديث والقديم.



١ ـ الصقر المقدس.

ونحن نلاحظ بإعجاب كيف استطاع هذا الشعب أن يجمع بمهارة فائقة ويوفق بين الحديث والقديم والغارق في القدم، واستطاع أيضاً أن يصل إلى هدفه هذا بأن أكسب هذه العقائد القديمة قدسيتها دون أن يستعمل المنطق في مناقشتها. ويجدر بنا هنا أن نذكر أن أولئك الذين أقدموا على هذا التوفيق كانوا علماء الكهنة المتفقهين الذين عرفوا كل شيء وفهموا كل شيء. واستطاعوا أن يحافظوا على معتقدات شعبهم طوال آلاف السنين كما حرصوا على الإبقاء على ما وصل إليهم من أجدادهم. وكان من الطبيعي على شعب زراعي مثل الشعب المصري أن يتمسك بكل هذه العقائد، ولكن الإبقاء عليها بكل ما تحويها من

دقائق بسيطة مختلفة لم يكن إلا كنتيجة لتفقه أولئك الكهنة في علوم الكهنوت. ولعل من الأسباب الأولى التي دفعت الكهنة إلى هذه السياسة أنهم لمسوا طبيعة المصري التي تدفعه باستمرار ألا ينسى شيئاً مطلقاً. هذا الشعب قد واتته الفرصة بأن يخترع الكتابة في أول عصوره، وبذلك اكتسب مركزاً ميزه عن الشعوب الأخرى، ولكنه دفع لذلك ثمناً غالياً. إن كل مرحلة من مراحل تاريخه الطويل قد أنتجت له معتقدات دينية جديدة عاشت بجانب القديمة دون أن تؤثر عليها. ولا غرابة في ذلك فالقديم محفوظ في مدوّناته وكتبه كتراث مقدس إذا سببت بعض الظروف أن يتوارى في الظلام، فإن ذلك لم يكن إلا فترة قصيرة لا يلبث بعدها أن يظهر ويأخذ مكانه اللائق بين المعتقدات الجديدة. وحتى بعض المعتقدات القديمة التي لم يبقَ منها سوى ما دوّن على بعض الأوراق البردية المنسية في مكتبات بعض المعابد كانت تـدب فيها الحياة مرة أخرى فتظهر متقدمة الصفوف. وهكذا كانت كل فترة من فترات التاريخ المصري تضم إلى ذلك الخليط الكبير من المعتقدات الدينية أجزاء أخرى، كان كهنة هذه الفترة يتلقفونها بسرور وإن كنا نجزع لها لأنها تزيد من غموض الديانة المصرية في نظرنا. ويفاخر الشعب المصري جميع الشعوب الأخرى بتلك المجموعة الهائلة من المخطوطات الدينية التي ترجع في كثير من الأحوال إلى أقدم العصور، ثم زادت وتكاثرت بمرور الزمن حتى العصر الروماني، وامتازت بعض هذه المخطوطات بقدسية خاصة على أساس أنها «كلمات الإله» ألفها «تحوت» نفسه ربّ الحكمة. ومن الغريب أن المصريين لم يستطيعوا أن يجمعوا كتاباً مقدساً يشبه إلى حد ما واحداً من كتبنا المقدسة التي نعتبرها نبراساً لنا يحدد الكمالات الخلقية للبشر، **ومن أجل ذلك لم يكن الدين المصري في يوم من الأيام ذا صبغة موحدة ولم يتصف هذا الدين بصفة العقيدة ذات الأصول الثابتة؛ كما أنه لم يحاول في يوم من الأيام أحد الحكماء أو الرسل أن يرجع إلى هذه الديانة أو أن يتفهم أصولها.**

لقد تحدثنا في أول هذا الفصل عن المعتقدات التي سادت الطبقة الوسطى عند المصريين، وأنها تكونت من عناصر مختلفة كل منها يمتّ إلى منطقة خاصة

تجمعت وتكتلت نتيجة لسهولة الانتقال بين ربوع مصر، وساعد على اندماج هذه العناصر الدينية المختلفة توثق عرى المناطق المصرية بعضها مع بعض وتثبيت أقدام الملكية فيها. ونتج عن ذلك ما يمكن أن نسميه دين المصريين العام. حقيقة لم تحدد عناصره كما لم تنسجم أجزاؤه، ولكن أصبح في الاستطاعة لمصري الدلتا إذا زار مصر العليا أن يجد هناك آلهة سمع باسمها وأحياناً كثيرة تشبه في صفاتها آلهته.

وإذا أردنا أن نتتبع تطور الديانة المصرية فيجب علينا أن نبدأ بأصولها الأولى، وهذا ما سنحاول الوصول إليه على صفحات الفصول الآتية.

وايم الحقّ إن مهمتنا هذه لا تعتبر سهلة؛ إذ أن ما خلفه لنا المصريون من مدوّنات هائلة العدد، سواء على جدران معابدهم أو مقابرهم أو على صفحات أوراق البردى والتي ترجع إلى جميع عصورهم المختلفة قد اختلطت وأصبح من الصعب علينا أن نتعرّف القديم منها، بل مما حفظ من وثائق كتبت في العصر الروماني، ما حفظ لنا معتقدات ترجع إلى العصور الأولى مما لم تتح لنا الفرصة أن نعثر عليها مكتوبة على وثائق أخرى. ومن أجل ذلك سوف تصبح الصورة مشوّهة للديانة المصرية إذا تحرّجنا ونظرنا بعين الحذر إلى كل وثيقة وصلت إلينا من عصر من العصور المتأخرة. لهذا فلا مناص لنا من أن نستعمل هذه الوثائق ولكن بحذر على أننا في الوقت نفسه لن نستطيع أن نستخلص منها الصورة الواضحة للمعتقدات المصرية في عصور التاريخ الأولى وإنما سوف نصل إلى العقائد المهمة التي كانت تسود مصر في عصر الدولة الوسطى، أي حوالي عام ٢٠٠٠ ق. م. أجل إذا أتيح لنا أن نستجوب مصرياً من مصريي عصر الدولة الوسطى فيما وصلنا إلى معرفته من ديانته لتعرّف على القليل منها، ورأى في البعض الآخر بعض ما كان أجداده يقدسونه، ومن المؤكد أنه سوف يفتقد الكثير مما كان يقدسه أو يهزّ رأسه عجباً لما قد وصلنا إلى معرفته مخطئين، ولكنه في آخر الأمر سوف يرى فيما نقوله بعض ما كان يقدسه أو يعتقد فيه.

* * *

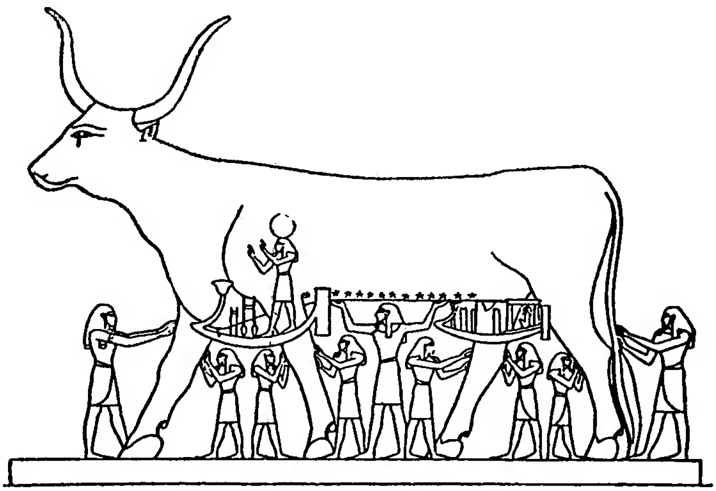
الفصل الثاني

العالم وآلهته

إذا أراد رجل من عامة الشعب أن يفكر في شيء لا يدركه ولا يستطيع فهم عناصره فهو لا يستعين في تفكيره بالمنطق بل يعتمد على الخيال. فمثلاً نراه لا يحاول أن يبحث مدققاً في ماهية السماء وما هو كنه الأرض، بل يعمد بماله من شاعرية متوثبة أن يقارن السماء بشيء مما تعوّده في بيئته دون أن يتساءل عما إذا كان هناك أيّ تقارب بينهما. فهو يسمي السماء بالبقرة، وفي ذلك لم يفكر مطلقاً أن يحقق هذه المقارنة تحقيقاً دقيقاً، بمعنى أنه لا يتساءل إذا كانت السماء تشبه بطن البقرة، فأين الشعر الذي يكسوها، وأين الثدي، وأين مكان أرجلها الأربع. بل أكثر من ذلك نجد أن هذا التشبيه قد ثبتت أقدامه في اللغة وتعوّده الشعب، ومن ثم تلقاه الفن وأصبح الفنان لا يحاول رسم السماء إلا على أنها بقرة جميلة دون أن يفكر في حقيقة هذا الفضاء اللانهائي الذي يبدو للرائي كقبة عظيمة؛ وبهذا أصبح من المعتاد التحدث عن السماء على أنها بقرة، بل ورسمت باستمرار على هذا الشكل. وتعوّدت عقول البسطاء السذج على هذا التمثيل سواء في اللغة أو في الفن، واعتقدوا بالفعل أن السماء هي البقرة دون إن يحاولوا السؤال عن الشعر الذي يغطي بطن البقرة، وعن مكان الثدي. ولم هذا التساؤل؟ ما دامت المقارنة قد أعجبته، وما دامت البقرة تعتبر من أجمل الحيوانات التي يحبها المصري.

وهكذا أثرت شاعرية المصري وغريزته الفنية على تصوراته الأخرى التي

تخيلها عن العالم وعن الآلهة التي تسكنه، ويرينا المثل الذي أوردناه فيما سبق إلى أيّ حدّ تشبث الشعب المصري بهذه التصوّرات. وإذا حدث أن تخيل أهل عصر صورة أخرى للسماء فمثلوها على هيئة امرأة قد انحنت فوق الأرض فإنهم يعطونها رأس بقرة، أو على الأقل يزينون رأسها الآدمي بقرون بقرة. هذه هي ربة السماء «حاتحور».

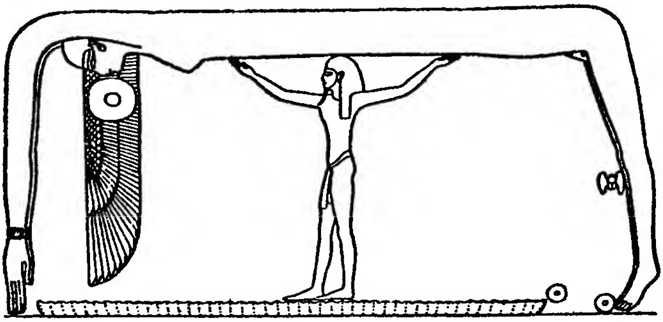


٢ ـ السماء على هيئة بقرة يمسكها إله الهواء «شو» وآلهة أخرى.
وعلى بطنها النجوم وسفينة الشمس (مقبرة سيتي الأول).

وإذا كانت الصورتان اللتان تخيلهما المصري للسماء لهما صفة الأنوثة فقد تخيل الأرض على أنها ذكر، ويرجع السبب في ذلك إلى أن كلمة السماء في اللغة مؤنثة وكلمة الأرض مذكرة. وصور إله الأرض «جِبْ» مستلقياً على بطنه وقد نبتت المزروعات فوق ظهره. أما المرأة التي تنحني فوق إلهة السماء «نوت» فقد اعتبرها زوجته[١]. وأما الفضاء الذي يفصل بين الإلهين فهو الإله «شو» وتعني الكلمة في اللغة «الفضاء» وقد صورته اللغة والفن على أنه رجل يقف فوق الأرض ويسند بيديه إلهة أو بقرة السماء[٢].

(١) قارن Pyr 316.

(٢) Pyr 1471.



٣ ـ السماء على هيئة امرأة يحملها «شو» وعليها الشمس على هيئة جعل أو قرص (مقبرة رمسيس الرابع).

ولما كانت تنقلات المصري كلها بوساطة السفن فوق سطح نيله الفياض، نراه وقد تخيل أيضاً أن الشمس والقمر والنجوم تتحرّك في السماء فوق سفن، وفي هذه الحالة لا بد وأن تكون السماء بحراً خضماً «هي الماء البارد» أو «البحر الذي يجري تحت بطن الإلهة «نوت»»[١]. وهكذا نرى كيف انسجمت هذه التصوّرات بعضها مع البعض الآخر، وإذا كانت السماء عبارة عن بحر كبير فقد بقيت في الوقت نفسه في خيال المصري هي بطن البقرة أو بطن الإلهة. أما المطر فكان يأتي بطبيعة الحال من تلك «المياه الحية الموجودة في السماء»[٢].

وهناك تصوّر آخر للسماء يمتّ إلى العصور الحديثة ويتخيل المصري فيه السماء قائمة فوق أربعة جبال كل جبل منها يقع في ركن من أركان العالم الأربعة، وأحياناً يتصوّروها محمولة على أربعة أعمدة[٣] أو على أربع قوائم، بينما توجد الأرض مستلقية على ظهرها[٤].

(١) Pyr. 802.

(٢) Pyr. 2063, 1146 وهناك تفسير آخر للمطر في pyr. 2065 على أنه البول الذي تتبوله كل من الإلهة «تف نوت» والإله «شو».

(٣) Pyr. 1143.

(٤) Papy. Leiden 347 5,9 ووردت أيضاً في قصة الفلاح.

أما الأرض فقد صوّرها وقد أحاط بها محيط كبير «الدائرة الكبرى»[١] وقد انقسمت الأرض إلى قسمين: أحدهما جدب «الأرض الحمراء» حيث يسكن البرابرة المتوحشون الذين يعيشون على الأمطار؛ أما القسم الثاني فهي «الأرض السوداء»، وفي الواقع لم يتخيل المصري أن هناك أرضاً سوداء غير أرضه حيث تسكن الآلهة، والتي وهبها الآلهة نيلها الفياض «الذي يجلب الخير للناس» واعتقد أن فيضانه يأتي إليه من الدنيا السفلى فمصدره «من الماء الحيّ الموجود في الأرض»[٢] وينبع من فتحتين موقعهما بين صخور الشلال الأول.

ونحن نعذر المصري إذا كان قد أفسح لخياله المجال نحو تقديس النيل؛ تلك القوّة التي تأتيه بالأعجوبة السنوية والتي تهيمن على حياته فلا غرابة إذا كان قد ألّهه وجعله واحداً من بين آلهته العظمى، ومع ذلك عومل النيل معاملة أخرى. فلو أنهم اعتادوا تقديم القرابين له وتأليف الأناشيد لتمجيده إلا أنهم لم يضعوه في ذلك المستوى الذي وضعوا فيه آلهتهم الأخرى، وإذا كانوا قد لقبوه في بعض أناشيهم «بأبي الآلهة» فإن هذا اللقب قد استعاره من الإله «نون» ربّ الماء الأزلي. والسبب في ذلك أنه ذكر في نصّ من النصوص الدينية على أنه ينبع من هذه المياه. ومن بين الأناشيد التي دبجها المصري في وصف النيل[٣]: «هو الذي يذهب في وقته ويأتي في وقته، الذي يحضر المآكل والمؤن، هو الذي يأتي بين الأفراح، المحبوب جداً، ربّ الماء الذي يجلب الخضرة. يتفانى الناس في خدمته ويحترمه الآلهة. هو إلّه صغير خلقه «رع» من أحسن عناصره.

وفي مكان آخر قالوا عن النيل وقد أعطوه بعض صفات أوزيريس ما يأتي[٤]: «كل من يرى النيل في فيضانه تدبّ الرعشة في أوصاله، أما الحقول

---

(١) راجع مدينة هابو (W. B. 423, 487).

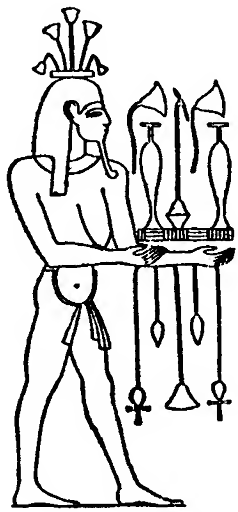
(٢) Pyr. 2063.

(٣) Lacau, Testes religieux XIX (p. 44,45).

(٤) Pyr. 1553.

فهي تضحك، وأما الشواطىء فتكسوها الخضرة، وتتساقط هدايا هذا الإله وتعلو الفرحة وجوه البشر، أما قلوب الآلهة فتخفق من السعادة».

ومن الغريب أن النيل قد تبوأ بين الآلهة منصب الخادم لهم، فصوّروه على جدران المعابد بزي البحار أو صياد السمك على هيئة بشر نصفه أنثى والنصف الآخر ذكر يقدم منتجاته إلى الآلهة الكبرى[1].



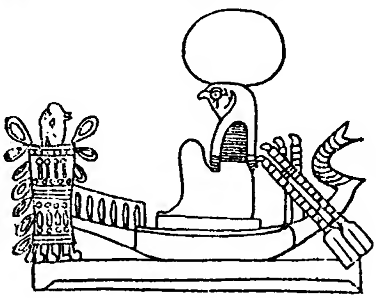
٤ ـ النيل.

وهناك قسم ثالث للعالم غير السماء والأرض وهو الدنيا السفلى حيث يخيم الظلام وحيث يعيش الموتى، وسوف نصور في الفصل الرابع عشر الخيالات المختلفة التي دبجتها عقول المصريين عن هذا العالم. ونكتفي هنا بأن نذكر كيف أن المصري لم يرَ في الدنيا السفلى العالم الذي يسكنه الموتى فقط، بل رأى فيه المكان الذي تغيب فيه الشمس في المساء وتعبره طوال الليل لتشرق من الشرق في الصباح التالي، ومعنى ذلك أن هذا العالم السفلي لا بد له من نهر عظيم تجتازه سفينة الشمس كما تجتاز السماء، وفي آخر الأمر رأى

(١) لقد صوروه وله ذقن وثديان كبيران ولست أدري السبب في تصويره على هذا الشكل.

المصري في الدنيا السفلى سماء أخرى تعادل سماء الأرض ولو أنها تمتاز بالظلام «تصعد إلى السماء وتنزل إلى السماء السفلى» قالوا ذلك بالنسبة إلى تحركات الشمس[١].

وبطبيعة الحال كانت الشمس هي أهمّ ما استرعى نظر المصري في السماء، فعرف الإله «رع» أهل مصر في الشمال والجنوب، فتخيلوها ذلك القرص الأحمر المتوهج الذي يعبر السماء في قاربه؛ ومن ثم لعب الفنّ وما امتاز به عقل المصري من خيال خصب دوره المهمّ في تصويره هذا الإله على أشكال مختلفة، فمرة صوّروه على شكل جعل عظيم «خبر رع» وهو يدفع قرص الشمس أمامه فوق صفحة السماء تماماً كما يفعل زميله الـذي يحيا فوق الأرض عندما يدفع كرة الروث أمامه. ومرة أخرى تخيل الشمس على هيئة عجل ذهبي تلده أمه بقرة السماء في الصباح[٢]، وينمو أثناء النهار حتى يصبح ثوراً سموه «كاميفيس ثور أمه» لأنه يلقح أمه البقرة حتى تلد في اليوم التالي شمساً جديدة. أما في الأحوال التي تخيل فيها السماء كامرأة فهنا نجده يتحدث عن طفلها الشمس الذي ينمو أثناء النهار ويصير رجلاً كهلاً في المساء ويختفي في الدنيا السفلى. وتصوّر الشمس في شكلها الهرم كإله له جسم الإنسان، وسموه «آتوم» الذي يعبد في هليوبوليس» بينما رأوا في الجعل «خبر» رمز الصباح، ومعنى ذلك أن المصري ميز بين شمس الصباح «خبر» وشمس الظهر «رع» وشمس الغروب «آتوم»[٣].

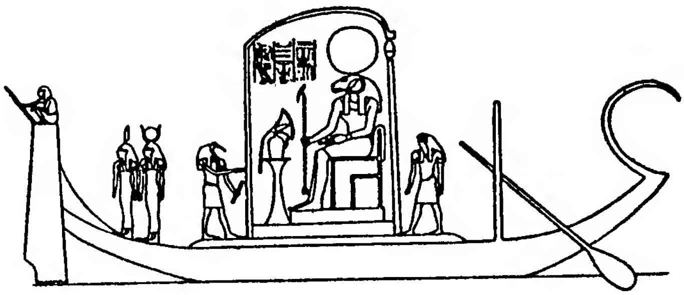


٥ ـ سفينة الشمس وقد علق على مقدمها بساط

(١) Pyr. 149.

(٢) Pyr. 1029.

(٣) ويمكننا أن نقول أن كلمة «رع» في الأصل أطلقت على النجم نفسه، بينما «آتوم، وخبر، =



٦ ـ سفينة الشمس، وهي المكان الذي يحكم منه العالم، حيث يجلس الإله على عرشه في مقصورة ويقف أمامه وزيره «تحوت» ويتخذ الإله رأس كبش على نحو ما يتخذ في رحلته بالليل في العالم السفلي (من معبد وادي السبوعة L. D. III, 181).

وزاد المصري على ما تقدم صوراً أخرى للشمس، فتخيلها على هيئة الصقر، أو كإله له رأس الصقر هو «حوريس» الذي يعني اسمه «البعيد» لأن إله الشمس «بعيد عن الآلهة»[١] فهو يطل على الآلهة وليس هنا إليه يطلّ عليه[٢]. واعتقد المصريون في أوّل الأمر أن الإله حوريس هو حاكم السماء، له عينان متوهجتان إحداهما الشمس والأخرى القمر.

وما دام المصري قد تخيل الجعل وهو يدبّ فوق سطح السماء، ويرفرف فوقه الصقر بجناحيه، فإنه من الواجب أن يكون لإله الشمس الذي على شكل آدمي قارب يسبح فيه فوق سطح محيط السماء[٣]، وبالفعل كان له قارب جميل

= وحوراختي هي أسماء إله الشمس الذي عرف أيضاً باسم «رع» (Pyr, 348, 1694) أما التفرقة بين خبر في الصباح ورع في الزوال وآتوم في المساء (Paps. Turin 133.10) فنجدها مذكورة أيضاً في Pyr, 1695 ومن الغريب أن نجد في Pyr. 888 أن رع يشرق في الصباح وخير يغرب في المساء. قارن أيضاً Urk, IV 19,3 أما في Urk. IV. 19 فنجد أن آتوم قد ذكر كشمس الصباح.

(١) Pyr. 1694.

(٢) Pyr. 1479.

(٣) وهنا نجد أيضاً تضارباً عجيباً، فمثلاً هناك نص يتحدث عن الجعل وهو يركب القارب (Totb 134,3).

صنع من الذهب[1]؛ طوله ٧٧٠ ذراعاً، وقام ببنائه الآلهة أنفسهم[2]، تشرف على تسييره النجوم[3] وتصاحب الآلهة العظمى الشمس فيه[4] «إنه الإله العظيم ربّ السماء» الذي يحكم العالم من قاربه هذا، ولا غرابة في ذلك فإن إله الشمس هو سيد الآلهة أجمعين[5].

واعتقد المصري أن هناك ثعباناً يلتف حول قرص الشمس الذي يحمله الإله على رأسه. هذا الثعبان هو الخادم الخطر الذي يحرق أعداءه بأنفاسه النارية، وهو بعينه الثعبان الذي يزين جبين الملك الأرض والذي يعرف باسم الصل، والذي اعتبر كرمز لإسمى ما وصلت إليه القوة.

أما الأعداء الذين يقابلهم الإله أثناء رحلته فهم بطبيعة الحال السحب، ولكن «رع يمزّق الصواعق ويبعد الأمطار ويفتت البرد»[6]. وامتاز الثعبان «أبو فيس» بأنه أشدّ أعداء الشمس قوّة وخطراً، ومن أجل ذلك اعتبر رمزاً لكل مكروه دنيء[7]، وبطبيعة الحال لن تستطيع هذه الأعداء أن تمسّ الإله بمكروه، فالآلهة الأخرى تدافع عنه كما تصاحب القارب تلك السمكة التي تتنبأ بما سيحدث والمسماة «ابدو»، فتسارع بتبليغ أصحاب القارب بدنوّ أحد الأعداء منه[8]، وتصل الشمس في المساء آمنة مطمئنة إلى الغرب فترحب بها إلهة الغرب التي تقف لاستقبالها عند سلسلة الجبال التي اعتقد المصري أنها بمثابة الحدود

---

(١) Pyr. 602.

(٢) Pyr. 1209.

(٣) فمثلاً راجع كتاب Pyr. 1209; Lacau, Textes religieux p. 13,65.

(٤) Pyr. 906.

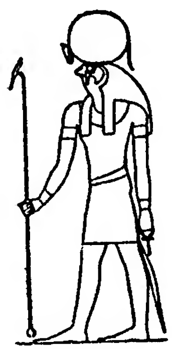
(٥) ولقد ذكر بهذا الوصف في نصوص الأهرامات نفسها كما ذكره «باعنخي» على لوحته سطر ٧٥ على أنه سيد النجوم.

(٦) Pyr, 500.

(٧) لم نعثر على ذلك في نصوص الأهرامات.

(٨) قارن Totb. 15, A (Pap. Berlin, 3006, 5), Meternichstele 78.

التي تفصل عالمه عن العالم السفلي(٧). وعندئذ تترك الشمس قارب النهار وتستقلّ قارب الليل وقد خيم عليها الظلام، وذلك لتبدأ رحلة الليل مخترقة العالم السفلي. وهناك «يضيء رع للإله الكبير الذي يحكم هذا العالم المظلم كما يضيء للموتى المساكين الذين يعيشون في كهوفهم والذين يحيونه بقلوب تملؤها السعادة رافعين أذرعهم مبتهلين باسمه شاكين له كل أحوالهم. . . فتفتح عيونهم عند رؤيتهم له كما تدق قلوبهم فرحاً عند أول نظرة يلقونها عليه. أما هو فيستمع إلى جميع طلباتهم أولئك الذين يضطجعون في توابيتهم فيخفف من آلامهم ويقلل من عذابهم. ويملأ أنوفهم بنسيم الحياة».



٧ ـ إله الشمس.

ولما كان نسيم الشمال الذي ينتشر في دنيا الأرض لا يصل إلى دنيا الموتى «هادس» لذلك تصوّر المصري الموتى وقد تجمعوا حول الحبل المربوط في مقدمة القارب يتعاونون على سحبه تماماً كما يحدث على الأرض عندما تقف

(١) وتصور المصري في أقدم عصوره الشمس وقد خرجت في الصباح من فرج أمها إلهة السماء، بينما تبتلعها في المساء. (راجع هذا المنظر ـ في الصورة التي عثر عليها حديثاً ممثلة إلهة السماء ـ في كتاب Frankfort - De Buck, The cynotaph of Sétei' 1 st. at Abydos, vol II, pl, 81 (London 1933).

الرياح ويسحب المصريون سفنهم على سطح النيل[١].

وعندما يترك الإله في الصباح العالم السفلي فهو يغتسل أولاً في بحيرة «إيارو»[٢] حتى يزيل عن نفسه ذلك اللون القاتم المدلهمّ الذي اكتسبه أثناء الليل[٣]، ويتقدم متحلياً «بملابسة الحمراء»[٤] إلى باب السماء[٥] ثم يظهر في ذلك الجبل الخرافي المدعو «بش» ويهب كل الكائنات الحياة والسرور، وإذا كنا نلاحظ كيف تقفز الأسماك في الصباح وكيف تضرب الطيور أجسامها بأجنحتها عند استيقاظها فقد أرجع المصري ذلك إلى أن هذه المخلوقات تحيي إلّه الشمس وهذا هو السبب الذي يدعو القردة إلى الصياح عند شروق الشمس، فهم يرتلون أناشيد تمجد هذا الإله[٦]، وكذلك البشر فهم يرفعون أيديهم إلى أعلى ويبتهلون إلى الشمس قائلين[٧]: «المجد لك أنت عندما تشرقين من اليمّ الذي يحيط بالسماء لتنشري الضوء على مصر بشروقك. الشكر لك تلهج به ألسنة الآلهة أجمعين. . . . أيها الطفل الجميل المحبوب الذي إذا ما أشرق دبت الحياة في

---

(١) وفي كتاب «في العالم السفلي» ذكرت تفصيلات كثيرة عن هذا سوف نشرحها في الفصل الرابع عشر، ويكفينا هنا أن نذكر نهاية هذه الجولة التي تنتهي بدخول الشمس في ذيل ثعبان كبير ثم تخرج من فمه في الصباح على شكل الجعل.

(٢) Pur. 1421.

(٣) وقد لونت شمس الليل باللون الأخضر الذي يميل إلى الاصفرار على التوابيت التي ترجع إلى عصر الأسرة ٢٢ والمحفوظة في متحف برلين.

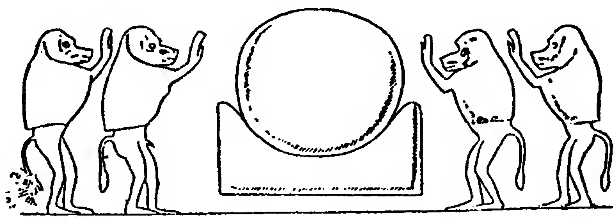
(٤) Pyr, 285.

(٥) Pyr, 526.

(٦) إن علامات الفرح التي ذكرت عن السمك والطيور في الصباح الباكر وصلت إلينا مذكورة في وثيقة ترجع إلى العصر المتأخر؛ أما ما تقوم به القردة من ابتهالات للشمس فقد نص عليها، في وثيقة قديمة، والدليل على ذلك أن القردة لم تعرف في البيئة المصرية إلا في العصور التي سبقت العصر التاريخي واختفت بعد ذلك.

(٧) كلمة «دوا» بمعنى يمجد ولا بد أنها كانت في الأصل تعني «التعبد في الصباح» هذا مع العلم أن الصباح عند المصريين كان بمثابة الفترة المقدسة للعالم.

البشر وتتعاون آلهة العاصمتين على رفعه. أما القردة فتلهج بشكره أيضاً كما تتفق جميع الحيوانات على تقديسه. ويفتك ثعبانك بأعدائك، وتغمرك السعادة في قاربك، ويملأ الفرح قلوب رجالك. أما أما يا سيد الآلهة فقد ظهرت بشائر الفرح عليك. أما الآلهة فتشيد بذكرك، وربة السماء تزيد زرقتها وهي بجانبك»[1].



٨ ـ القردة تتعبد الشمس (برلين ٧٣١٥).

على هذا النحو تمثل المصريون عادة ما يحدث للشمس في كل يوم، ولكن هناك صور أخرى غيرها ترجع في نشأتها إلى أقدم العصور. ومن الغريب أنها لا تتفق عن بعد أو قرب مع تلك التي شرحناها فيما سبق. فهناك الصورة التي تخيلها المصري عن ولادة الشمس. ففي المساء تدخل فم إلهة السماء، ثم تعبر أثناء الليل جسمها، وتولد في الصباح[٢]، كما أن هناك فكرة أخرى تقول بأن الشمس إذا ما اختفت في الغرب تظهر من جديد في الشرق، ولكن لكي تصل إلى هذا الشرق يجب عليها ـ حالها في ذلك حال كل مصري ـ أن تعبر النهر، ومن أجل ذلك كان يلزمها حزمتان من البوص لمساعدتها على السباحة[٣]. ومن الغريب أن المصري ولو أنه تخيل الشمس في حركة مستمرة بين الشرق والغرب، وبالعكس طوال النهار والليل، فإنه رأى أيضاً أن يجعل لها

---

(١) Totb. XV A, 11.

(٢) قارن كتاب «Rusch, Himmels - Göttin Nut, 44».

وكذلك مقبرة «زانوفر» في جبانة طيبة.

(٣) Pyr. 1103, 1084, 1705.

مسكناً في جزء من أجزاء السماء وسماه «آخت» وتصوره أول الأمر كجزيرة وسط ماء السماء وفيما بعد، فسره بالمكانين حيث تغرب وتشرق الشمس، ومن أجل ذلك اعتدنا نحن إما عن خطأ أو صواب، أن نترجم هذه الكلمة بالأفق، وكنتيجة لذلك سميت الشمس باسم «حور أختي» (حوريس الأفق) ومن ثم اعتبر هذا الإله واحداً من بين الآلهة الرئيسية وصور على شكل إلّه ذي رأس الصقر وعبد في هليوبوليس.

ويتحدثون في بعض الأحيان عن قصر خاص للشمس في السماء مكانه في حقول «ايارو»[١] أو في المنطقة الباردة[٢]، ويطلقون على هذا القصر اسم «قاعة آتوم»[٣] أو «دار حوريس»[٤]، ويعتبرونه بمثابة قصر حاكم العالم تتردد عليه الآلهة ليتلقوا الأوامر كما يبقون فيه حيث تقدم لهم المآكل[٥] ـ تماماً كما يحدث في بلاط ملك الأرض بالنسبة إلى رجالات الدولة. ويبقى علينا الآن أن نذكر صورة أخرى تخيلها المصري عن الشمس، وذلك بالنسبة إلى الاعتقاد القديم الذي يجعل من إله السماء معبوداً له عينان متقدتان[٦]. ومن الغريب أن حوريس نفسه لم يذكر إلا نادراً على حين كثر الحديث عن «عينيه اللتين يحملهما ما في جبينه» وهما الشمس، وسميت عين الشمس، والقمر وسمي عين حوريس[٧]، وغالى المصري في نسج الأقاصيص المختلفة عنهما، مع أنها لا تمتّ بصلة معقولة بهما، ولكن المصري تعلق بها وردّدها باطمئنان. وبطبيعة الحال ربط

---

(١) Pyr. 1984.

(٢) Pyr, 1180, 2035.

(٣) Pyr, 1984، وقارن عن قصر آتوم ما ورد في بردية Harris 1,4, 11.

(٤) Pyr, 1026, 1027.

(٥) Pyr, 1026, 1027.

(٦) وفي بعض الأحيان تصوروها على أنها إلهة للسماء لها عينان، قارن Pyr, 823.

(٧) ولقد حدث هنا أيضاً خلط كبير فذكر عن عين حوريس أشياء لا تتعلق بها، بينما صلتها كبيرة بعين الشمس.

المصري بين هاتين العينين وبين جبين الإله الذي تصوروه ككائن خطر لأنه يحرق أعداءه. ولما كان خيال المصري قد تصوّر فيما سبق أن الثعبان الذي يعلو جبين الإله «رع» يقوم بنفس الوظيفة[١] لذلك نجده قد ربط بين العينين وذلك الثعبان. ثم ما دام هناك عينان، إذاً يجب أن يكون هناك ثعبانان، وقالوا في ذلك: «الإله له عينان على هيئة ثعبانين»[٢]. ولكن الثعبان اعتبر عند المصري بمثابة رمز القوّة للملك، وبما أن الملك يضع على رأسه تاجين: واحد منهما يمثل الجنوب، والآخر يمثل الشمال، لذلك تساءل المصرى لماذا لا نقارن هذين التاجين بما لهما من قوّة سحرية بالثعبانين، بل وأيضاً بالعينين[٣]. ومن الغريب أن المصري لم يكتفِ بكل هذه المقارنات بل اعتبر التاجين كإلهتين حاميتين للملك هما العقاب والثعبان اللذان اعتبرهما المصري في مناسبة أخرى مساويين للثعبانين. وما دام الحال هكذا لماذا يتردّد المصري في مساواة هاتين الإلهتين الحاميتين للملك بعيني الشمس؟. وتطورّ الأمر وأصبحت عين الشمس كلقب يعطى لكثير من الآلهات الكبرى، فمثلاً «حاتحور» إلهة السماء منحت هذا اللقب مع ملاحظة عدم وجود الصلة بينهما. وكنتيجة للجمع بين العين والثعبان والتاج وعدة آلهات حدث اضطراب وخلط عجيب في الديانة المصرية، فمثلاً يقولون إن «رع» أرسل عينه لتقتل أعداءه[٤] أو أن الثعبان الذي يحمله رع فوق جبينه يغذي الملك الميت من ثديه[٥]. أو أن الإلّهة الحامية لمصر العليا هي أيضاً التاج ثم عصابة الرأس للملك التي في واقع الأمر تمثل على هيئة العقاب هي أيضاً بقرة وحشية، وكذلك يمثلونها على هيئة امرأة بثديين كبيرين بارزين

---

(١) Pyr, 1568.

(٢) Pyr, 1287, & also Totb. XVII7. وفي بعض الأحيان كانت سفينتا الشمس توصفان بذلك أيضاً، انظر Pyr. 198 A.

(٣) Pyr. 1795, 1832, & also 823, & Edfou, I, 406.

(٤) قارن القصة المذكورة في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

(٥) Pyr. 1108.

يرضع منهما الملك[1]. وهناك عدد آخر لا يحصى من هذه الأمثلة التي يجب ألا ننظر إليها بعين الجدّ لأنها تمثل الإزادات التي لم يعرها معظم المصريون أهمية كبرى، ولا يجب علينا نحن أن نفكر فيها طويلاً.

ووجه المصري ـ وحاله في ذلك حال كل الشعوب البدائية ـ أهمية كبرى نحو القمر وعين حوريس هذه كانت تصغر رويداً رويداً ثم لا تلبث أن تنمو بشكل عجيب حتى تكتمل، ولا يمكن للخيال البسيط غير المعقد أن يفهم هذه الظاهرة إلا بأن هناك كائناً شريراً يعتدي على هذه العين فيجرحها، ثم يسارع كائن آخر طيب فيعالجها. وكان هذا الإله العدو هو «سِت»، وعداؤه لحوريس استمرّ مع مرور الزمن، أما الإلّه الطيب فكان «تحوت» على شكل الطائر «إيبس» الذي أصبح فيما بعد هو نفسه إله القمر، بل «الممثـل الليلي لرع» «الثور بين النجوم»[2]، وعين حوريس هذه أو كما سموها «الصحيحة» سوف يأتي ذكرها أكثر من مرّة فوق صفحات هذا الكتاب، وذلك لأنها لعبت دوراً مهماً في معتقدات المصريين دون أن نفهم السبب الذي أعطاها كل هذه الأهمية، بل تطورت وأصبحت تمثل رمزاً مقدساً استعمله المصري كتميمية  ملأت نماذجها متاحف العالم، وهي في هذه الحالة تسمى عين «أودچات»، بل أكثر من هذا استعملت على نحو غريب لا نستطيع أن نهمله في هذه المناسبة: ما دامت العين الصحيحة تمثل القمر الكامل، رأى الموظفون القائمون على كيل الحبوب أن يقارنوا بين عين «أودچات»[3] ووحدة الكيل الكاملة، بل قسموا هذه الوحدة إلى أقسام مختلفة مثل النصف والربع والثمن وغير ذلك ورمزوا لها بالأجزاء المختلفة لهذه العين في كتاباتهم، وهكذا نرى ظاهرة جديدة وهي استعمال العناصر الدينية البحتة في أغراض يومية جافة.

وعرف المصري عن النجوم أنها أيضاً «تسبح فوق اليمّ الموجود في بطن نوت»[4]، وكانت إلهة السماء هذه تلدها من جديد في كل ليل، وفي الصباح

---

(١) Pyr. 729.

(٢) Berl. Ægyp. Inschr. 11,40.

(٣) Môller, A. Z. 48,99.

(٤) Pyr 802.

تدخل هذه النجوم في فم هذه الإلهة[١]. وتنوّعت النجوم، فأحسنها كانت تلك التي سموها «التي لا تنعدم» أي النجوم التي تبقى دائماً مرئية. وهناك نوع ثانٍ سموه «التي لا تستريح» واعتبرت من النجوم الراقية نظراً لأنها مع التي سبقتها لها الحقّ في أن تصاحب إله الشمس في قاربه[٢]، كما اعتبر نجم الصباح من النجوم المقرّبة إلى إلّه الشمس «فهو الذي يحيي الإله في الصباح» وهو أيضاً «الذي يشرق بعد رع»[٣]، وجعلوا من وظائف هذا النجم أن يغسل الشمس في الصباح[٤]، كما أنه كان النجم الوحيد الذي يقدم الطعام إلى الشمس[٥]. ولقبوه بهذه المناسبة «صاحب الخطوات الواسعة الذي يحضر كل يوم طعام الطريق إلى ربع»[٦]. ولم يكن نصيب كل النجوم من الاحترام كنصيب تلك التي ذكرناها، إذ كان هناك نجوم حقيرة سموها «المتعفنة» أو «تلك التي تسقط على الأرض من السماء»[٧]. ولا غرابة في ذلك إذ لاحظ المصري كيف تسقط بعض النجوم من سمائه الوضاءة أثناء الليل المدلهمّ. ومن هنا برزت الفكرة عن بعض النجوم أنها تحمل صولجاناً ترتكز عليه[٨].

ومن بين العدد الكبير من النجوم والبروج التي وصل ذكرها إلينا لا نستطيع أن نحقق إلا القليل منها، وإننا لنكتفي هنا بذكر نجمين منها كانت لهما بعض الأهمية عند المصريين، وتبوّءا مكاناً بارزاً في ديانتهم. النجم الأول هو «سوتيس» الشعرى اليمانية (التي نسميها نحن النجم «Serius» أو نجم الكلب)

(١) Piolh. inscr. 111,60.
(٢) Pyr. 1171.
(٣) Pyr. 2005.
(٤) وذكر هنا على أنه يقوم مقام الشمس في الظهور في السماء كأحد الموتى. Pyr. 2042.
(٥) Pyr. 2051.
(٦) Pyr. 263.
(٧) Pyr. 2058.
(٨) Pyr. 1456.

وعندما يظهر هذا النجم في آخر شهر يوليو في السماء صباحاً يكون ذلك بمثابة البشير لوصول الفيضان. واعتبر هذا رمزاً لبدء السنة الجديدة للمزروعات[١].

وكذلك لعب دوراً كبيراً ذلك النجم المسمى باسم «ساح» (صاحب الخطوات الواسعة) الذي يمكن أن يكون هو النجم «Orion» وكان ظهوره بمثابة بشير لحصاد العنب[٢] والذي يوافق في مصر شهري يونيو ويوليو، أي بمعنى آخر يوافق أوّل العام الجديد. واعتبر هذان النجمان من بين الكائنات المقدسة، وجعل المصريون منهما إلهين عظيمين. حدث هذا في ذلك الوقت كما سيأتي بالتفصيل في الفصل الرابع عشر عندما تخيل المصري دنيا جديدة للموتى في السماء، وترتب على ذلك أن أصبح ذلك الجيش العرمرم من النجوم يمثل الموتى الذين حمل كل منهم مصباحه وأخذ يتجوّل في السماء. أما نجم الجوزاء «Orion» فاعتبر إله الموتى: أي كأوزيريس[٣]. وأصبحت الشعرى اليمانية هي زوجة أوريون؛ أي إيزيس، وتتم الحلقة بأن أفردوا مكاناً بين هؤلاء لأحفاد إيزيس وهم «أولاد حوريس»[٤].

وليس في استطاعتنا الآن أن نتحدث عن كل ما كانت تحويه السماء مثل «الدفة»[٥] وبقرات السماء[٦] و«ثور السماء» وغير ذلك من بحار وجزر. وعلى كل فسوف نتحدث عن بعض هذا عند الكلام على رحلة السماء للموتى.

---

(١) Pyr. 965 .

(٢) Pyr. 1524, Pyr, 820.

(٣) Brugsch, Thesaurus, 85.

(٤) Pyr. 1092, L. D., III, 170, Totb. XVII, 42.

(٥) Totb, 148 وربما تخيل المصري السماء تدور كما تحرك السفينة بواسطة دفتها.

(٦) Pyr. 550 وربما تفسر على أنها كانت سحب المطر.

الفصل الثالث

الآلهة العظمى

لقد تبين من حديثي السابق عن العالم وعن مظاهر الطبيعة التي ألهها المصريون أن هذه الآلهة كانت تكوّن النطاق الخارجي للديانة المصرية التي إذا أردنا تفهمها فلا سبيل إلى ذلك إلا بالتعرّف على آلهتها التي كانت تعبد في المعابد وتقدم لها القرابين ويحتفل الناس بأعيادها. ولقد بلغ عدد هذه الآلهة الفعلية حداً خرافياً، وامتزج بعضها ببعض، إلا أنها لم تبلغ في تنافرها وتعارضها ذلك الحدّ الذي بلغته إلهة السماء أو إله الشمس. وكثيراً ما يحدث أن يتعذّر على الشخص أن يفهم أيّ الآلهة يعنونه، أيقصدون الإلّه «سوكاريس» أم «أوزوريس»، هل هي الإلهة «ساخمت» أم «باستت»، أو هل هي الإلهة «حاتحور» أم «إزيس». وعلى ذلك أصبحت هناك أسماء وصور مختلفة تعني إلهاً واحداً[١].

آلهة منف وهليوبوليس

وسنبدأ الآن بتلك الآلهة التي عبدت في ذلك الجزء من مصر الذي كان ولا يزال بمثابة المنطقة التي تتوسط وادي النيل والتي لعبت دوراً كبيراً في تطوّر الديانة المصرية القديمة. ونعني بذلك المكان الذي تشغله الآن مدينة القاهرة،

---

(١) قارن Pyr. 556 حيث يبدو أن هناك ثلاثاً من الآلهة هن: إزيس، ونفتيس، وإلهة ثالثة يطلق عليهن اسم واحد.

والذي شغلته فيما سبق عاصمة البلاد منف، ثم انتظم مدينة هليوبوليس القديمة المقدسة أيضاً.

وأهمّ آلهة منف الذي حاز شهرة كبيرة وقدّسه معظم المصريين هو الإله «بتاح» والذي كان في أحيان أخرى يسمى أيضاً «تاتنن» (صفحة ٣٠) وكان يمثل على شكل إنسان برأس عارية لا تحمل أية شارة خاصة، واضعاً يديه فوق صدره وممسكاً بصولجان. ونعتقد أن هذه الصورة ترجع في أصلها إلى عصور غابرة ولو أنها لا ترينا مطلقاً الأصل الذي يودّ المصري أن يرجع هذه الصورة إليه. واعتقد المصريون أنه خالق الفنانين وصانع الفخاريين[١]، وعلى ذلك فهو المثل الأعلى للفنانين وحامي حماهم (سيدهم) وسماه الإغريق باسم «هيفايستوس». وعلى ذلك فقد كان في اعتقادهم أنه هو الذي خلق الدنيا. ثم تطوّر هذا الاعتقاد فيما بعد ورأوا فيه ذلك المحيط «نون» الذي منه خرجت جميع المخلوقات، فهو «أب لجميع الآلهة، الإله العظيم صاحب البداية الأولى «أول من كان وأوّل إله في الخليقة»[٢]. وبذلك كان هذا الإله بمثابة الإله الذي عاش عصوراً لا حدّ لها، أو كما يقول المصري القديم: احتفل بعدد لا يحصى من الأعياد الفضية. ومن أجل ذلك أصبح مثلاً يتشبه به كلّ ملوك مصر الذي حكموها مدداً طويلة.

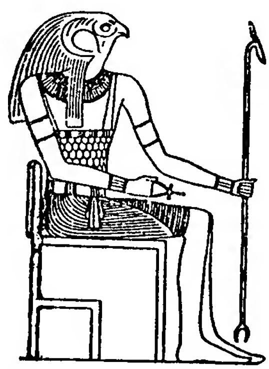


٩ ـ بتاح في مقصورته

(١) قارن Edfu II, 37.

(٢) قارن L. D. III, 254 C; Harris I, 44,7; 44.4.

وعبد في منف إله آخر غير بتاح صوروه على شكل آدمي برأس صقر وسمي «سوكاريس» واعتبر إلهاً للموتى، وكانت منطقته المقدسة تسمى «رستاو» أي باب الممرات، ومن هذه التسمية نتبين بوضوح أنهم يقصدون الدنيا السفلى. إلا أن الظروف لعبت بمصير هذا الإله «سوكاريس» إذ اندمج في جاره الكبير وأصبح يسمى «بتاح سوكاريس»(١). وبعد ذلك عندما أصبح أوزريس هو إله الموتى الوحيد سمى «سوكاريس» باسم آخر «أوزريس سوكاريس» وأحياناً أيضاً «بتاح سوكاريس أوزريس».



١٠ ـ سوكاريس (برلين ٧٢٩٩)

أما الإلهة التي عبدها الناس في منف فكان اسمها «سخمت» وسوف يأتي الحديث عنها. وقبل أن ندع الحديث عن آلهة ممفيس ينبغي لنا أن نتحدث عن إله آخر صغير لا يمتّ بصلة إلى الآلهة الكبرى، أي الإله «أبيس» العجل المقدس الذي احتفظ به المصريون في معبد بتاح دون أن يكون هناك علاقة ما (على الأقل في العصور القديمة) بين الإلهين(٢). ومن الملاحظ أن الجمع بين إلّه وبين

(١) كل منهما اعتبر كإله منفرد. قارن Urk. 1, 81; Urk. IV, 12 ثم كإلهين مندمجين، قارن مثلاً Urk. I, 124.

(٢) ولم يعتبر أبيس كروح للإله بتاح إلا في عصر الدولة الحديثة، قارن Harris I, 44,9 =

حيوان مقدس في معبد واحد لم يكن كنتيجة لعقيدة، بل كثيراً ما كان لمجرّد صدفة، ثم بعد ذلك يجمع بين الإثنين بشكل ديني بعد مرور حقب طويلة من الزمن وبعد أن يتعوّد الناس على ذلك، (أو بحكم العادة). ومن أجل ذلك لم يتمتع أبيس في العصور القديمة بعبادة ذات طقوس معينة[١] يقوم بها كهنة خصوصيون[٢]. أما في العصور الحديثة فقد تغير الحال وأصبح لهذا الحيوان المقدس عدد لا يحصى من الأتباع.



١١ ـ أبيس (برلين ٢٥٧٤)

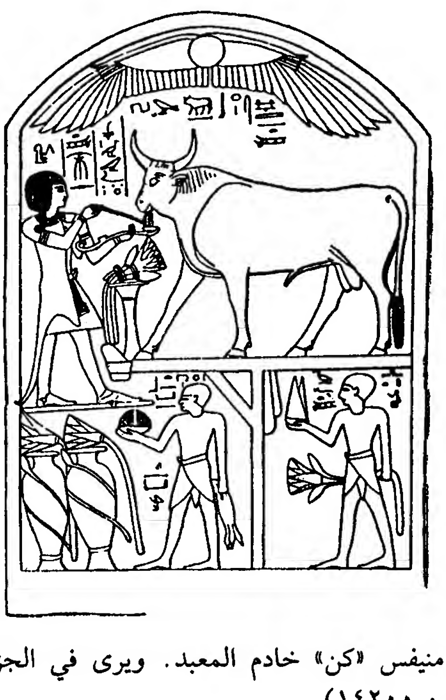
وفاقت المدينة المقدسة «أون» أهمية مدينة «منف»، وهي التي تسمى أيضاً «هليوبوليس». وكان يعبد فيها منذ أقدم العصور الإله «رع» الذي كان بمثابة إله عبده كل المصريين وأقاموا له معبداً ذا طابع خاص؛ إذ لم يكن في هذا المعبد صورة لهذا الإله، بل حوى قطعة من الحجر مقدسة تسمى «بن بن» توضع في فناء مكشوف. واعتقدوا أن الشمس يجب أن ترسل أشعتها الأولى على هذا الحجر. ولم يعثر على معبد واحد من هذه المعابد فقد اختفت كلها، ولكننا

= Vatikan 127، وقارن كذلك Wilcken, Pholemaer Urkunden I, 18.
وهناك اعتقاد يجعل من أبيس ومن عجل هليوبوليس المسمى منيفس رسولين يقومان على تبليغ الرسائل إلى إليهما وهذا الاعتقاد يرجع إلى عصر الدولة الحديثة أيضاً (قارن Sitz. Ber. Berl. AK. 1916, 1148).

(١) إن عادة «إطلاق العجل أبيس للجري» من بين الطقوس القديمة التي وردت على حجر بالرمو من عصر الأسرة الأولى، ويحدث ذلك في الاحتفال الذي يعدو فيه الملك ويجانبه العجل أبيس، قارن Sitz Ber. Berl. AK. 1916, 1150، ولعل ما يسمى «احتفال أبيس» (Urk. I,20) هو بعينه الاحتفال السالف الذكر.

(٢) وكانت مهمة «خدم أبيس والعجل الأبيض» هي القيام على خدمتهما والعناية بهما.

نستطيع أن نتصوّرها إذا ما قارناها بمعابد الشمس التي شيدها ملوك الأسرة الخامسة على نمطها. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإننا نعرف أن الناس أحياناً صوّروا إله الشمس في هليوبوليس أيضاً على شكل آدمي كما هي الحال مع الآلهة الأخرى، وأحياناً أخرى سمي هذا الشكل الآدمي باسم «آتوم» الذي رأى فيه المصري كما أسلفنا شمس المساء[1]، وأحياناً ثالثة سموه أيضاً «حوريس الأفقين» أو «رع حور آختى» الإله العظيم الذي كان رأسه يمثل صقراً يعلوه قرص الشمس. وهنا حدث ما كان يحدث في مثل هذه الأحوال إذ اندمج الإلهان معاً وأصبحا كأنهما إله واحد مع اختلاف في الشكل. وكان الكهنة أثناء قراءة طقوسهم الدينية يتحدثون عن «آتوم رع حور اختى» على حين نقش فوق صورته في المعبد اسمه كرع حور أختى في المعبد اسمه كرع حور أختى تمييزاً له



١٢ ـ نصب أهداه إلى منيفس «كن» خادم المعبد. ويرى في الجزء العلوي الكاهن الأعلى الأمير أحمس (برلين ١٤٢٠٠).

(١) وتعني أيضاً كلمة «آتوم»: «ذلك الذي انتهى» (من عمله اليومي).

عن الإله الآخر آتوم(١). وخليق بنا أن نعجب إذا ما عرفنا أن هذه الإله المزدوج سمي أيضاً بأسماء إله الشمس الأخرى.

ولا نودّ هنا أن نتحدث عن الآلهة الأخرى التي عبدت في هليوبوليس مثل «يوزاس Jusaas» وآخرين، ولكننا في الوقت نفسه نودّ أن نذكر باقتضاب إلهين صغيرين، أحدهما مثله المصريون على شكل الثور، والآخر على شكل طائر، والأول اسمه «منيفس» والآخر «بنو»، وهذا الأخير لا يزال يعيش حتى الآن ويعرف باسم Phônix. واعتبر هذا الإلهان من أهمّ الأشياء التي تتمم المعبد في هليوبوليس. وبلغت أهمية «منيفس» درجة لم ير أمينوفيس الرابع المصلح معها بدا من ضمه إلى معبد الشمس الذي أقامه في تل العمارنة، مع أنه لم يكن يتلاءم مطلقاً مع الديانة الجديدة الناضجة التي نادى بها هذا الملك. وأحب أن أذكر هنا أن ما قلته عن الإله أبيس في الصفحات السابقة ينطبق تماماً على الإله منيفس في مصر.

واعتبر العلماء الكهنة أن السمندل (Phônix) هو أزوريس(٢) أو هو روح الإله «رع»(٣)، وما نعرفه نحن عن هذا الطائر هو أنه ولد فوق شجرة في معبد هليوبوليس(٤) ولعلّ هذه الشجرة المقدسة هي بعينها تلك الشجرة القديمة التي اعتاد آلهة مصر أن يكتبوا أسماء الملوك على أوراقها. وكان السمندل يلقب «سيد الأعياد الفضية»(٥) ـ بمعنى ربّ الحقب الطويلة من الزمن ـ. ولعل ذلك يفسره الاعتقاد عند الإغريق القدماء بأن الـ (Phônix) لا يعود إلا بعد مدة طويلة

---

(١) قارن Harris I, 25, 24 وكذلك قارن لاندماج رع وآتوم Pyr. 1686 واندماج آتوم مع خبر رع Pyr. . 1652.

(٢) قارن Totb. ed. Naville 17, 13 - 14.

(٣) Totb. ed. Nav 29 B, 2.

(٤) قارن Metternich Stele 77 وكذلك Faijum Pap. ed. Pleyte 1 - 11, 18، وهو كذلك كروح أوزوريس يحط على الشجرة النابتة فوق مقبرته (Wilkenson, III, 349).

(٥) قارن Faijum Pap. ed. Pleyte 1 - II, 18.

من الزمن يقدرونها أحياناً بـ ٥٠٠ عام، وفي أحيان أخرى بـ ١٤٦١ سنة. وليس من شك في أن هذا الطائر كان من بين الأشياء التي يتعذّر على الناس رؤيتها في المعبد، ونودّ أن نعتقد أن كل ما حاكه المصريون من قصص حول هذا الطائر يرجع إلى أصل بسيط (ساذج) لا يتعدى أكثر من أن طائراً من هذا النوع حطّ فوق الشجرة المقدسة في المعبد وبنى لنفسه عشاً هناك. وربما كان وجود هذا الطائر راقداً فوق عشه لم يثر فضول الزائر الخالي الذهن في أول الأمر. ولعل الناس اعتادوا رؤية هذا الطائر سنين طوالاً فوق الشجرة، ثم حدث أن غاب هذا الطائر عن مكانه مدة طويلة أخرى. ولا بد أن المصري كان قد رأى في رجوع طائر من هذا النوع بعد مدة طويلة من الزمن إلى الشجرة المقدسة حادثاً كبيراً يسترعي الانتباه ويدعو إلى الفرح والابتهاج. وهكذا يمكننا أن نعتبر أن كل الأشياء التي خرجت عن أصل مماثل، لم يذكر الناس كيف نشأت، بل اعتقدوا أن من الواجب نسبتها إلى قوّة كبيرة سماوية.



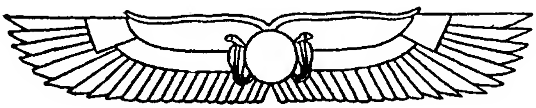
١٣ ـ السمندل

آلهة حوريس

لم يكن إله الشمس حوريس الذي مثل برأس الصقر والذي تحدثنا عنه من بين آلهة هليوبوليس وسميناه «خور أختى»[١] مشهوراً وقوياً في هذه المدينة شهرته وقوّته في أماكن أخرى من مصر.

(١) ومن الواضح أنه ليس هناك من فرق بين حوريس وحور أختي، ويؤكد ذلك النص الوارد في Pyr. 348.

وكان الموطن الأصلي لحوريس هو الدلتا، ومن هنا يودّ البعض أن يرى فيه الإله القومي للدلتا، ويقابله في ذلك الدور الإله «ست» الإله القومي لمصر العليا. ويتمثل في هذين الإلهين حاكما مصر، ولو أن حوريس وحده يعتبر هو الحاكم على مصر مجتمعة، نظراً لأن البعض يرى أنه في وقت ما حكمت مصر السفلى مصر العليا، وما دام حوريس قد أصبح إلهاً للقطرين فمن الواجب أن تكون له في مصر العليا مدينة، وكانت هذه المدينة تقع بالقرب من العاصمة وقتئذ وسميت «نخن» أو كما سماها الإغريق «هيرا كونبوليس»؛ أي مدينة الصقر.



١٤ ـ إله الشمس في إدفو

وأقدم معبد لحوريس بني في مدينة «بهدت»، أو «بحدت» وهي دمنهور الحالية، ومن أجل ذلك سمي بِهدتي أو بِحدتي؛ أي هو الذي من بحدت. وفي الوقت نفسه كانت هناك مدينة في مصر العليا سميت بالإسم ذاته وهي إدفو الحالية، وكان لها أيضاً «حوريس بحدتي» أي هو الذي من بحدت؛ أي هو الذي من إدفو. وكان هذا الإله يصوّر في إدفو على شكل الشمس المجنحة. وكما يبدو ليس هناك أي شبه بين صورة هذا الإله وصورة حوريس الحقيقية. فكما قلنا صوّر إله إدفو على شكل قرص الشمس بجناحين كبيرين ذي ألوان مختلفة وصفاً بأنهما الجناحان ذوا الريش المختلف الألوان التي تتمكن بهما الشمس أن تطوف السماء. ولا يزال المعبد الخاص بهذا الإله قائماً حتى اليوم ومكتملاً كما تركه ملوك العصر اليوناني الذي أرجعوا إليه عظمته وأعادوا بناءه. وصورة هذا الإله الخاص بإدفو نعرفها جيداً إذ نراها منقوشة فوق مداخل معابد مصر لأنها تعتبر حارساً يحول دون دخول الأشرار المعبد.

غير هذه الآلهة نجد هناك عدداً كبيراً من الآلهة التي سميت بهذا الإسم

يخصّ البعض منها إله الشمس[١] أو نجم في السماء، ومن هذه الحالة نستطيع أن نفهم هذه التسمية، ويخص البعض الآخر أشياء أو معبودات لا تمتّ بعلاقة للإله حوريس. وليس في وسعنا هنا أن نبحث كل اسم على حدة. وهناك حوريس آخر نال شهرة بين المصريين؛ وهو ذلك الإبن الذي فقد أباه أوزريس والمعروف باسم «حور سايزيس» - أي حوريس بن إيزيس الذي ورد اسمه في قصة أوزريس المشهورة والذي يجعل من يقرؤها يرثي له.

ثم هناك حوريس المحارب في مدينة «ليتوبوليس» وفي أماكن أخرى والذي كان يسمى حوريس الكبير[٢] مقابل حوريس الرضيع (ابن إيزيس) وليس من شكّ أنه لا علاقة بين حوريس المسمى كنتشتاوي معبود أتريبس في الدتا وبين حوريس سبودو، وكلا الإلهين عبدا في شرق الدلتا في المنطقة التي كان يخترقها الطريق الموصل إلى فلسطين. وخلاصة القول أنه لم يكن هناك إله كبير لم يرِد أن تأتيه الفرصة دون أن يغتنمها للتمثل بحوريس أو التسمي باسمه.

الإلاهات السماء

وكما كانت الحال مع الآلهة المسماة بحوريس نجد هنا أيضاً الأمر نفسه مع آلهة السماء التي لم تحظَ بعبادة منظمة منتشرة عندما كان اسمها «نوت»[٣]. وعلى العكس من ذلك قد حظيت بأسمى درجات التقديس عندما سميت

---

(١) ويبدو ذلك واضحاً من الأسماء المتعددة التي وردت بكثرة في نصوص الأهرامات، قارن Pyr, 981 ff; 1084 ff,; 1132 ff.; 1478 ff.; 1207 ff. وهي مصحوبة بأوصاف ثلاث أو أربع تخص «حوريس» كإله الشمس، ولا بد أن ترمز هذه الأوصاف إلى ساعات النهار المختلفة.

(٢) قارن Kees A. Z. 64, 106 عن «حوريس العجوز» (سمسو).

(٣) لقد ورد من الدولة القديمة ذكر كاهن للإلهة نوت (Berl. Aeg. Inschr. I S. 92. Kairol 1431)، ومن الدولة الوسطى (Berl. aeg. Inschr I, S, 177) ومن العصر المتأخر (Louvre Serapeum 427).

«حاتحور». وهذا الإسم «بيت حوريس»[١] يرجع في أصله إلى تلك النظرية القديمة الخاصة بالصقر حوريس الذي يحلق في السماء. على حين أن صورتها التي تمثلها بقرني البقرة وأذنيها[٢]، وأحياناً تمثلها أيضاً برأس بقرة كاملة[٣] فهي ترجع إلى العقيدة التي تصوّر السماء على شكل بقرة، وفيما بعد أخذت هذه الآلهة تفقد رويداً رويداً مميزاتها الخاصة بإلهة السماء. ومن العسير أن نفهم السبب الذي من أجله مثّلت بقرة السماء الشمس. أو كما يقول المصريون عين الشمس[٤] التي تحملها هذه الإلهة بين قرنيها، وعلى هذا الأساس سميت حاتحور نفسها «بعين الشمس» وأصبحت هذه التسمية من بين ألقابها المشهورة. وبعد ذلك احتفظت حاتحور بالقليل من مميزاتها القديمة. وكان من بين هذا القليل أنها أصبحت سيدة الإلهات كما احتفظت أيضاً بدورها المهم الذي يجعل منها ذلك المكان الذي تختفي فيه شمس المساء، وهذا هو السبب في أنها أصبحت إلهة الغرب التي تقف وراء جبل عالٍ وتسمح للشمس وللموتى أن يدخلوا الدنيا السفلى. وكذلك جعل المصري من حاتحور إلهة للحبّ[٥] وأصبحت الإلهة الطروب عند النساء وسمينها بالذهب. وهذا هو الذي يجعلنا نفهم السبب الذي من أجله سماها الإغريق في العصور المتأخرة بالإلهة «أفروديت»، وقام النساء على خدمتها وأحيوا[٦] حفلاتها بالرقص والغناء والموسيقى.

---

(١) بيت حوريس الموجود في السماء، قارن Pyr. 1026.

(٢) ونحب أن نلاحظ أن «نوت» ظهرت منذ عصور متقدمة بشكل نصف آدمي، قارن Pyr. 1344 حيث يتحدث النص عن أن لها يدين وقرنين طويلين.

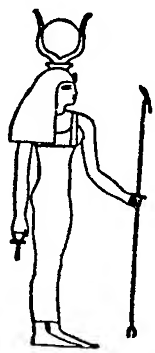
(٣) قارن Urk V 235 ومثلت كذلك على شكل بقرة كاملة في المقصورة المحفورة في الصخر في معبد الدير البحري وهي ترضع الملكة الصغيرة.

(٤) قارن Pyr. 705.

(٥) ظهر ذلك في عصر الدولة الحديثة في أغاني الحب.

(٦) غالباً في عصر الدولة القديمة كما أن هناك لقب «كاهنة حاتحور في كل أمكنتها» قارن Rougé Inscr. Hiér. 64.

وإذا كـانت، حاتحور بجانب هذا كله صورت على أنها إلهة حرب فيرجع ذلك إلى تسميتها بعين الشمس التي تحارب وتناضل أعداء الإله «رع». ونظراً إلى أنّ حاتحور كانت إلهة مقرّبة إلى قلوب النساء لذلك كان لزاماً عليها أن تصبح أما ذات طفل فأعطوها ولداً إلهياً هو «ايحى» الذي يجلس في حجرها[١]. ولعل ذلك كان تشبهاً بحوريس الطفل ابن ايزيس. ومن الملاحظ أن «ايحى» هذا لم يتمتع مطلقاً بتلك الشهرة الشعبية التي تمتع بها حوريس الطفل، ومع ذلك فقد تمكنت حاتحور من أن تعوّض هذا النقص عند الشعب المصري بأن أصبح لها عدة أبناء انتشرت شهرتهم بين طبقات الشعب في العصور المتأخرة، نقصد بذلك «الحاتحورات السبع» اللاتي كنّ مثل «ايحي» يدخلن السرور على قلب حاتحور الكبيرة بالموسيقى والرقص[٢]، واللاتي كنّ يحمين الإنسان ويتنبأن بمستقبل كل مولود جديد[٣].



١٥ ـ حاتحور

وكانت مصر العليا الموطن الأصلي لحاتحور، وسميت في أطفيح «الأولى بين البقرات». وهذه التسمية ترجع بالطبع إلى ذلك الدور القديم الذي كانت تلعبه في شكلها الحيواني المعروف. وإلى الجنوب من معبد بتاح في ممفيس عبدت حاتحور أخرى سميت أو لقبت بسيدة الجميزة[٤]، وربما كانت هذه الإلهة

(١) Lacau, Textes Relig. P. 13, 132.

(٢) Mar. Dend. III 76 a; Chassinat, Mammisi 29, 33.

(٣) Berl. Med. Pap. 21,8.

(٤) Erman, Aegypt. Litt. S. 210, 204.

في أول الأمر ليست إلا شجرة مقدسة حاطها المصري القديم كما هي الحال في مصر الحديثة بالكثير من عنايته واحترامه. وعلى كل حال لم تكن سيدة الجميزة في مركزها أكثر من إلهة شعبية انتشر نفوذها بين السيدات[١].



١٦ ـ رأس حاتحور (من أحد تيجان الأعمدة من بوبسطا)

وإذا تحدثنا اليوم عن «حاتحور» فنتجه إلى معبدها الكبير الموجود في دندرة، الذي يعتبر مكان عبادتها، ولو أن هذا المعبد يرجع إلى العصر اليوناني مثل معبد إدفو وغيره من المعابد.

ولقد بلغ انتشار عبادة حاتحور بين طبقات الشعب حدّاً جعل المصريين يطلقون اسم حاتحور على كل إلهة أجنبية[٢]. واعتبرت الألهة «موت» كسيدة السماء أيضاً، وقد عبدت هذه الآلهة في طيبة واسمها يعني الأم، ولقد لقبت في النقوش التي ترجع إلى عصور متأخرة بلقب «أم الشمس» التي تشرق منها[٣]. أما الدور العادي الذي تلعبه «موت» فقد كان مماثلاً للإلهة «سخمت» إلّهة الحرب.

ومن هنا أصبحت «موت» ترسم برأس أسد. وعندما أصبحت طيبة عاصمة البلاد حظيت هذه الإلهة كزوجة لآمون إله الدولة بأسمى درجات الشهرة

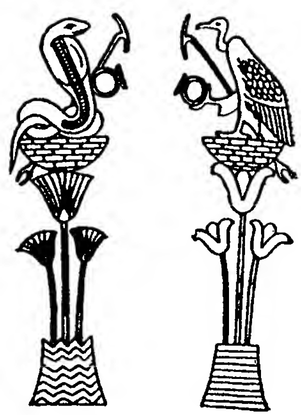
---

(١) قارن Urk. I. 80.

(٢) Urk. I, 126.

(٣) قارن Aeg. Zeitschrift, 38, 124.

والتقدير، ومثلت على شكل ملكة تزين رأسها بالتاج الذي كان يلبسه حكام هذه المدينة (قارن اللوحة رقم ١). ومثلت هذه الإلهة كالعقاب. يحلق في السماء[١]. وليس من شكّ في أن المصريين قارنوها في تلك الصورة بالإلهة «نخبت» التي تمثل شكل العقاب والتي لم يكن لها اسم معين، فهي لا تسمى إلا التي تتبع «مدينة نخب» ـ وهي العاصمة القديمة لمصر العليا. وعندما أصبحت «موت» إلهة للعاصمة اعتبروها حامية حكام هذه المدينة تحلق فوقهم وتدفع عنهم الشر[٢]، وفي الوقت نفسه نجد في مصر السفلى أن الملك في عاصمته كان يحتمي في إلّهة أخرى اسمها «أوتو» أو كما سميت خطأ من الإغريق «بوتو». وقد صورت هذه الإلّهة الأخيرة على شكل ثعبان، ومن هنا أتت العادة التي جعلت المصري يصور هاتين الإلهتين الحاميتين للملك تارة على شكل ثعبانين، وتارة أخرى على شكل عقابين. ولقد رأينا فيما سبق كيف أن هاتين الإلهتين اندمجتا أيضاً في ذلك الخليط الكبير من الآلهة التي صوّرت على شكل



١٧ ـ الإلهتان الحارستان «بوتو ونخبت»

(١) ويكتب المصري كلمة «موت» بمعنى الأم بصورة «العقاب» وهي نفس الصورة التي ترمز للإلهة «موت».

(٢) وتقدم هذه الإلهة التي يطلق عليها أيضاً اسم «البيضاء» (أي التاج)المساعدات لكل أم عند الوضع (قارن Urk. IV, 225) ولقد سماها الإغريق Eileithya.

ثعابين أو عيون، كما أنهما اندمجتا في التيجان الملكية التي أُلِّهت عند المصريين وسميت بإسم سيدات السحر[١].

وإيزيس هي أشهر الإلهات المصرية نشأت أول الأمر في الدلتا[٢]، ويبدو أنها ترجع في أصلها إلى إلهة سماوية[٣]، وورد ذكرها في قصة أوزيريس، ومنذ ذلك الوقت فقدت طابعها هذا وبقيت محتفظة بصفتها كزوجة للإله وأوزيريس والأم الرؤوم لحوريس. وبما أن ابنها كان يسمى باسم إلّه الشمس، فهذا يدلّ على أن إيزيس في الأصل وفي وقت ما كانت تعتبر إلهة للسماء التي تلد الشمس مرّة كل يوم.



١٨ ـ أيزيس تحمل فوق رأسها العلامة التي يكتب بها اسمها

أما الإلّهة «نايت» الكبيرة التي كان موطنها الأصلي مدينة سايس (صالحجر) فقد كانت تلعب أدواراً مختلفة في الديانة المصرية. فمن المعروف أنها كانت تمثل إلهة الحرب، فرمزها المعروف يتكوّن من قوسين ودرع. وإذا

---

(١) قارن Erman, Hymnen an des Diadem, p. 11، وكذلك Pyr. 729, 823.

(٢) من النص الوارد في Pyr. 309 نستدل على أن هذه الإلهة كانت تعتبر مساوية للإلهة «بوتو».

(٣) ويمكن أن يفسر اسمها «مسكن» الشمس كما اقترح ذلك ماير.
Ed. Meyer, Geschichte des Altertums, 1,2² § 187.

كان من بين ألقابها «التي تمهد الطريق» فمعنى ذلك كما يبدو من النصّ المصري القديم أنها كانت تتقدم الملك في المعركة الحربية[1]، وفي الوقت نفسه كانت تزين رأسها بتاج الوجه البحري، أي أنها تعتبر ممثلة لهذه البلاد، ولكنها كانت أيضاً إلآهة الفيضان التي تسكن شواطىء النيل حين ترقد التماسيح على شواطئه الطميية (الغرينية)[2]. ولأن المصري كان يرى أن الكون هو المحيط الذي خرجت منه بقرة السماء لذلك سميت الإلهة نايت «بالبقرة» التي ولدت الشمس[3]، أو «الأم التي ولدت الشمس» والتي ولدت لأول مرّة عندما لم يولد أيّ شيء آخر[4]. ومن الغريب أنها في العصور القديمة عبدت من النساء كحاتحور، فقمن على خدمتها وسمين بأسمائها[5].

آلهة على شكل أسد

إن الإلهات الكثيرة التي ظهرت لنا برأس أسد أو لبوءَة كانت في الأصل كائنات مخيفة تبيد الأعداء، ولما كانت مصر بلداً يسود فيها السلام فقدت هذه الكائنات رويداً رويداً صفاتها السالفة، فمثلاً الإلهة «باخت»[6] التي عبدت في بني حسن، أو الإلهة «محيت» ربة ثيس لم تكونا سوى إلهتين في مناطقهن مثل جميع الإلهات الأخرى. فباخت كانت تسكن الصحراء الشرقية وتجول في وديانها، وكانت هي التي تسيّر سيول المطر التي تحدث بعد العاصفة وتدفعها إلى الصحراء.

---

(١) قارن Ed. Meyer, A. Z. 41, 105.

(٢) قارن Lacau Textes Relig. p. 7.

(٣) قارن Champ. Not. II, 28.

(٤) قارن Brugsch Thes 637.

(٥) ولقد أطلق اسم هذه الإلهة على خمس عشرة زوجة من بين زوجات أحد ملوك الأسرة الأولى، وكن قد بلغن الخمسين عداً.

(٦) قارن Urk. IV, 386.

أما الإلهة «تفنت» فقد احتفظت في قصتها بخصبها في حين اتخذت لنفسها صفة أخرى في علاقتها مع زوجها الإله «شو» الذي اعتبر عند قدماء المصريين - كما أسلفنا - إلهاً للهواء الذي يحمل السماء[١] (راجع صفحة ٣١). أما كيف تزوّج شو بتفنت وصوّر بصورتها فهذا ما لا نستطيع تعليله. وعلى كل حال عبد الإثنان على شكل الأسد وزوجته في ليونتوبوليس Lèontopolis في الدلتا. وشاركت تفنت زوجها في أعباء مهمته السلمية وعاونته في حمل الأفق. ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الإله «شو» - كما سنرى ذلك فيما بعد - قد احتفظ لنفسه بمهمة أخرى في القصص الإلهي وسمي من أجل ذلك باسم «أونوريس Onuris»، وهذه المهمة الجديدة جعلت منه إلهاً شعبياً حظي باحترام كبير وخاصة في عصر الدولة الحديثة.

أما الإلهة «سخمت» القوية التي عبدت في منف والتي مثلت على شكل لبوءَة فقد احتفظت بشخصيتها المخيفة[٢]. وكانت تعتبر إلهة المعارك الحربية. ونحن لا نفهم تمثيلها بالصل الملكي الذي يبصق النار على الأعداء[٣]، ولو أن ذلك قد ورد فعلاً في النقوش المصرية.



١٩ - سخمت

(١) ومعنى هذا الإسم هو «الفضاء».
(٢) قارن Lacau, Testes Relig. p. 101 واعتبرت كممثلة لملكية مصر العليا.
(٣) قارن Pap. Sallier III, 9,4.

ومن الغريب أن الإلهة «سخمت» كانت تختلط في بعض الأحيان مع الإلهة «باستت»[(١)]، والسبب في ذلك أن الفنّ المصري لم يكن يميز في وضوح بين رأس القطة ورأس الأسد، بينما صفات «باستت» تختلف اختلافاً تاماً عن تلك التي اتصفت بها «سخمت»، وكذلك شعر المصريون بهذا الاختلاف، وكانوا يتحدثون عن باستت كأنه شخص ودود، وعن سخمت كأنها شخص مخيف، وعلى ذلك كانت باستت أقرب الآلهة إلى حاتحور إذ اعتبرت إلهة المرح، تقوم احتفالاتها على الرقص والموسيقى، ويصوّرونها على شكل آدمي برأس قطة، تحمل بإحدى يديها سستروم الراقصات وفي اليد الأخرى صورة رأس الأسد الخاص بالإلهة «سخميت» وتتدلى من ذراعها سلة صغيرة. ولعل صورة رأس سخميت» التي تحملها في يدها تدل على أن هذه الرأس المخيفة توافق مزاجها. واسم هذه الإلهة لا يدلّ على معنى خاص، بل يدلّ على أنها إلّهة مدينة «باست»[(٢)].



٢٠ ـ باستت (برلين ١١٣٥٤)

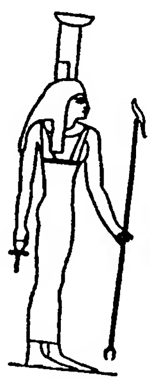
---

(١) وقليلاً ما ظهرت باستت كمحاربة، قارن العبارة «ممسكاً بيده القوس كباستت» (Karnak Ramses II nach absthrift Sethe).

(٢) «بوباستس» كإسم أطلقه الإغريق على الإلهة والمدينة التي تقع حالياً في جنوب الدلتا بجوار الزقازيق.

وهناك إلهة أخرى ذكرت في القصص على أنها أخت إيزيس وهي «نفتيس» التي لا نعرف شيئاً عن أصلها، ومعنى اسمها «سيدة المنزل» كما أننا نعرف عنها أنها تسمى أحياناً بإلهة الكتابة. وكذلك كان الحال في الغموض الذي يكتنف إلهة العقرب «سلكت».

وإذا ما اختتمنا حديثنا بذكر تلك الإلهتين اللتين كانتا تسكنان جزر الشلال الأول وهما «ساتيس» و «أنوكيس» فنكون بذلك قد انتهينامن ذكر اهم الإلهات المؤنثة، ولو أننا لم نذكرهن جميعاً. وسنبدأ الآن بذكر بعض الآلهة التي لعبت دوراً كبيراً عند المصريين والتي لم نتعرّض لها فيما أسلفنا من حديث.



٢١ ـ نفتيس وهي تحمل فوق رأسها العلامة التي يكتب بها اسمها

آلهة أخرى عظيمة

سنبدأ بالإله «مين» الذي يستحقّ عناية خاصة. فهذا الإله الكبير الذي عبد في تلك المنطقة التي تقع بين إخميم وقفط وبين طيبة وأرمنت، ويمثل هذا الإله واقفاً وقضيبه منتصب، وعلى رأسه ترتفع ريشتان عاليتان، رافعاً ذراعه الأيمن وقابضاً على السوط المثلث الفروع وكان يعتبر إله الإخصاب الذي يسرق النساء وسيد العذارى[١]. وإذا كان هذا الإله قد أخصب أمه[٢] فإن هذه الصفة كان

(١) قارن Brit. mus, 911.

(٢) قارن L. D. III 162 ولأنه ورد في أنشودة الاحتفال فهذا يدل على قدمه. قارن أيضاً Edfu, ed. Rochem. I. 398.

يتميز بها في الأصل إلّه الشمس. وهكذا نجد باستمرار كيف أن الآلهة في مصر تتصف بصفات بعضها البعض، وكيف يؤثر الواحد على مميزات الآخر.

وكان إله الإخصاب هذا أو كما سماه الإغريق «پان» Pan يعتبر أيضاً إلهاً لخصوبة الأرض. وتدلّ طقوس احتفاله الكبير على أنها كانت بمثابة شكر على محصول زراعي طيب. علاوة على هذا لقد اعتبر «مين» أيضاً ربّ البلاد الأجنبية الشرقية، وعبد في جميع الأماكن التي اقترب فيها النيل من البحر الأحمر في مصر العليا، وحيث كانت طرق القوافل تخترقها إلى البلاد الشرقية وإلى المناطق الجنوبية. وكان لزاماً على كل من يودّ اختراق هذه الطرق أن يتعبد للإله «مين» قبل أن يترك قفط لكي يحميه من القبائل المتبربرة (Trogodites) التي كانت تجوب هذه المناطق، وهكذا أصبح هذا الإله رباً للصحراء الشرقية صاحب اللازورد والكحل والخضاب وسيد البلاد الأجنبية طرا، تفوح منه رائحة الطيب الزكية عندما يأتي من بلاد المازوي، وهو صاحب المكان المرموق في بلاد النوبة[1]. ولقد عبده اليونانيون تحت اسم Pan Euhodos أي الإله الذي يساعد على رحلة طيبة. ويبدو أن هذه الصفات تميز بها «مين» منذ أقدم العصور. فتمثاله الذي عثر عليه بترى في أساس معبد قفط ويرجع إلى عصر مبكر جداً رسمت على حزامه أصداف وأفيال وجبال، أي كل المظاهر التي يتعرّف عليها المسافر في طريق قفط ـ البحر الأحمر. ومن الملاحظ أن لهذه الإلهة معبد قديم بُني عند مدخل الطريق الموصل للجبال، والدليل على ذلك تلك الصورة التي اعتاد الفنان رسمها بجانب صورة التمثال والتي تمثل هيكلاً منحوتاً في صخرة ذات قمة مدببة. ومن الملاحظ كذلك أنه من بين طقوس الاحتفال بالإله «مين» ظهور أحد المتبربرين في الوقت الذي يتسلق آخرون من جنسه قوائم خشبية مرتفعة. ونميل إلى الاعتقاد بأن أفراداً من القبائل المجاورة التي كانت تسكن الصحراء كانت تشترك بطريقتها الخاصة في هذا الاحتفال[2].

---

(١) قارن (Lovre (C. 30 M. R..

(٢) ولا يزال غامضاً علينا السبب الذي من أجله وصف «مين» أنه ينشر الرعب في السنة التي يحضر فيها قارن Urk. IV, 18.

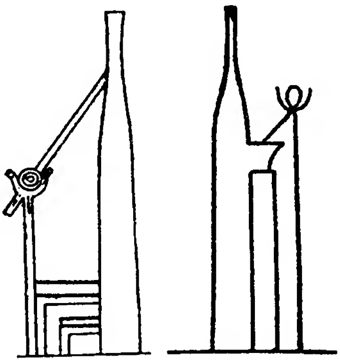


٢٢ ـ مين (برلين ٢٤٣٩)

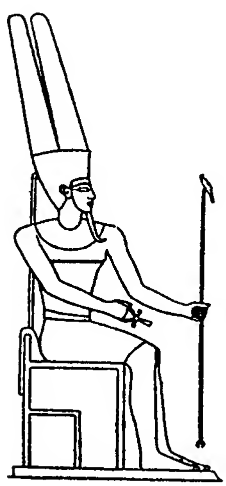
وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الإله «مين» كان يعبد في وقت ما بطيبة. والدليل على ذلك أن كثيراً ما نجد إلهاً يشبهه تمام الشبه ويعتبر إلهاً للإخصاب وهو «كاميفيس» ويلقب بـ «ثور أمه» ويبدو أن اسمه القديم قد هجر، وذلك لأننا سوف ندرك مما سيأتي ذكره مستقبلاً أنه بعد أن أصبحت مدينته عاصمة كبيرة للبلاد، اضطرّ هو أن ينزوي ليحلّ مكانه إله جديد هو «أمون العظيم» الذي احتفظ ببعض صفات هذا الإلّه الذي سبقه. ولو أنه في مجموعه يمثل إلهاً آخر ذا صفات جديدة. وفي الوقت نفسه يسمع بين الحين والآخر لقباً من الألقاب التي تعيد ذكرى الإله الأول مثل «ذو الذراع العالية» أو الذي تنمو فوقه النباتات عالية مغطية جميع حقوله الجميلة[١]. وسوف يأتي ذكر هذا الإله من حين لآخر

(١) قارن Urk. IV, 990.

على صفحات هذا الكتاب. أما الثور الأبيض الذي يمتّ بصلة إلى الإله مين فقد ترك ولم تصبح له علاقة مع الإله آمون في طيبة. ولو أن هذا الثور كان في العصور المتأخرة يعبد تحت اسم «بوخيس» في المناطق المجاورة مثل مداموود وأرمنت.



٢٣ ـ مقصورة مين المنقورة في الصخر من أمام مدخلها ساري يعلوه قرنان بينهما الشمس (حسب آثار الدولة الوسطى).



٢٤ ـ آمون (أنظر أيضاً صورته في أول الكتاب)

وقد كان في استطاعتنا أن نتحدث طويلاً عن إله آخر من آلهة طيبة وهو «مونتو» لولا أن بعض الدخلاء قد هدموا معبده في القرن التاسع عشر ليقيموا على

أرضه مصنعاً للسكر. وعلى ذلك فكل ما نعرفه عن هذا الإله[١] أنه كان يصوّر برأس الصقر وأنه كان إلهاً للحرب، وأن الملوك اتخذوه رمزاً للإنتصار في الحروب.

لقد سبق أن تحدثنا عن الإله العظيم «ست» وقلنا عنه إنه يمثل معبود الوجه القبلي وأنه يمثل كائناً يخافه الناس ولا يحبونه. ولو أن هذا الإله لم يتصف بصفاته الكريهة التي اشتهر بها في العصور الحديثة والتي تميز بها بعد أن اشترك اشتراكاً فعلياً في قصة أوزيريس[٢] إلا أنه كان أيضاً في أول الأمر معبوداً يمثل العواطف[٣]. فهو الذي يعلو صريخه في السماء[٤]، وصوته هو الرعد[٥]، وهو الذي يهزّ الأرض هزاً[٦]، ثم بعد ذلك أصبح ذلك الكائن الذي يسلب القمر أي عين حوريس.



٢٥ ـ ست (برلين ١٣١٨٦)

وإذا كان ست يعبتر باستمرار العدوّ الأكبر لحوريس فإن في هذه العداوة

---

(١) قارن Pyr. 1081 حيث يقال عنه إنه يصعد ثم يسير.
(٢) قارن Pyr. 832, 865.
(٣) ويستعين المصري بصورته للتدليل على كلمة «عاصفة».
(٤) Pyr. 1150.
(٥) Math. Handb N° 87 b.
(٦) Pyr. 581, 1855.

مرآة تعكس بعض الذكريات التي ترجع إلى عصر كان فيه ملوك مصر السفلى يتحاربون تحت حماية إلههم حوريس مع ملوك مصر العليا الذين كان يحميهم الإله «ست». ثم بعد ذلك اتحد القطران، فاعتقد الناس أيضاً أن هذا الاتحاد كان معناه انتشار السلام بين الإلهين اللذين أصبحا بمثابة إلهَيْ (سيّدَيْ) مصر[١]. ويتبع ست مصر العليا[٢] «مديريات ست»[٣]. ويتبع حوريس مصر السفلى «مديريات حوريس»، ولو أنه في الحقيقة، كان حظ حوريس أحسن من حظ ست لأنه اعتبر في الواقع إلهاً للدولة المتحدة، على حين أن أخاه اختفى قليلاً ولم تصبح له أهمية[٤]. ونتيجة لذلك مثل الملك الحيّ بحوريس ولم يحدث ذلك إلا في القليل النادر بالنسبة إلى «ست»[٥] ثم هناك لقب اختصت به الملكات اللاتي كنّ يلقبن «بالتي ترى حوريست وست» ولا يمكن أن نفسر هذا اللقب إلا بأن الإلهين قد احتفظا بزوجة ملكية واحدة. وأكثر من هذا فإنه يظهر بوضوح في الألقاب الملكية انتصار حوريس على ستّ، واعتاد المصري إذا ما أراد أن يظهر انتصار الملك على أعدائه أن يصوِّره كصقر يقف فوق العلامة الهيروغليفية الخاصة بالذهب. وهذه العلامة بالذات تعتبر كمدلول للإله الخاص بمدينة «امبوس»، أي الإله ست. ومعنى هذا كله أن حوريس يقف مزهوّاً بنصره على عدوه[٦]. وأحياناً نجد أن الإله ست يعتبر رمزاً للقوّة كمحارب قويّ[٧] ـ

---

(١) Pyr. 204 ff.; 390, 473, 683, 850.

(٢) Pyr. 204.

(٣) Pyr. 487, 948, 2011.

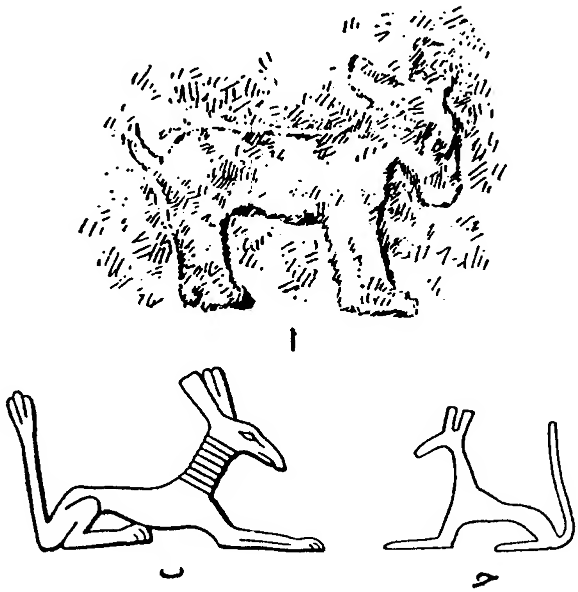
(٤) والمعنى في Ebers I, 13 يدل على أنه زميله فقط.

(٥) وحدث ذلك بالنسبة إلى الملك القديم «بر ـ ايب ـ سن» من الأسرة الثانية ولعل مرجع ذلك إلى أسباب سياسية (Royal Tombs II, XXi) أما خليفته فقد نسب إلى نفسه الإلهين، كما أطلق على نفسه اسماً يدل على انتمائه للقوتين «حوريس وست». ولم يحدث أن سمي ملك من بعده نفسه بإسم ست.

(٦) وكتابة علامة الذهب تحت اسم الملك تدل أيضاً على نفس المعنى.

(٧) Pyr. 1145.

يعلّم الملك كيف يستعمل القوس والنشاب. ثم كان هذا الإله أيضاً يتمثل بالإله «رع» فيحتفظ بثعبان يقف بجانبه أثناء الحرب.



٢٦ ـ حيوان الإله ست:
أ ـ كما ورد على شاهد قبر من الأسرة الأولى (برلين ١٥٤٨٤).
ب ـ من الدولة القديمة. جـ ـ من الدولة الحديثة.

أما الحيوان الذي عبده الناس أوّل الأمر على أنه الإله ست فهو غريب جداً. فصورته لا نعثر على مثيل لها بين الحيوانات التي تسكن أفريقيا. وإذا كان المصريون في العصور المتأخرة قد اعتبروه حماراً فإن أقدم صوره تشبه في الواقع هذا الحيوان[1]. ومن المحتمل أنهم تمثلوا قصداً هذا الحيوان إلّهاً للأعداء.

(١) بل في بردية «إبرس» نجد أن الكاتب قد استعمل صورة «ست» كمخصص للحمار، ولقد شاع هذا في العصور المتأخرة، فمثلاً نجد في الكرنك (باب العيد) حوريس يطعن حماراً أمام أوزيريس، وكتب الأستاذ رودر مقالاً: Roeder: A. Z. 50, 85 ff: يؤكد أن حيوان «ست» يعتبر من الحيوانات الخرافية فهو أقرب إى الزرافة منه إلى الحمار.

واستبدلوا ذنبه في بعض الأحيان بسهم رشقوه في مؤخرته. وثمة شيء آخر يجدر ذكره في شأن هذا الإله الغريب. فلونه هو اللون الأحمر، وهو من الألوان المكروهة لدى المصريين. فقد كان أحمر اللون وعيناه حمـراوان(١)، وما كان يصنعه من أعمال شريرة إنما كان «أشياء حمراء»(٢). فإذا كانت قد نسبت إليه مرة أعمالاً خضراء (رمزاً للأعمال الطيبة)(٣) فقد كان ذلك تلطفاً في التعبير على نحو ما جرت به العادة في المقابر القديمة، إذ كان لا ينبغي إزعاج الملك المتوفي في قبره بعلامات أو صور غير سارة.

وإذا كان ست بتقدم الأزمنة يعتبر عدواً للخير، فهناك إله آخر كان هو الصديق الوفي للآلهة وبني الإنسان، وهو الإله «تحوت» الذي عبد في أول الأمر على شكل الطائر إيبيس (أبي منجل) في الدلتا، ثم بعد ذلك وجد لنفسه موطناً جديداً في الأشمونين بمصر الوسطى، واعتقد الناس فيه أنه إله القمر، وأنه هو الذي يعيد هذا النجم إلى اكتماله بعد اختفائه، أي يعيده، فيصبح هو العين الكاملة لحوريس. وهو أيضاً الذي يدير الوقت (الزمن) ويشرف على نظام العالم. ثم هو أيضاً المحاسب وكاتب الآلهة. ومن هنا ـ كما سنرى ذلك فيما بعد ـ أصبح راعي كل أولئك الكتاب في مصر وكان الكتاب في موضع احترام الجميع. لذلك تجد اسمه مسطوراً أيضاً في كل من قصتي «خلق العالم» و «أوزيريس».

ولا ندري لم صوّره الناس على صورة أخرى غير إيبيس هي صورة قرد مفكر؛ ولعل ذلك يرجع إلى أن القرد كان يمثل إلهاً آخر اندمج في الإله «تحوت» فيما بعد. وعلى كل حال لم يكن تحوت هو الوحيد الذي يعتبر إلهاً للقمر، إذ أنه في طيبة عبد الناس القمر تحت اسم الإله «خونسو» ومعناه الذي

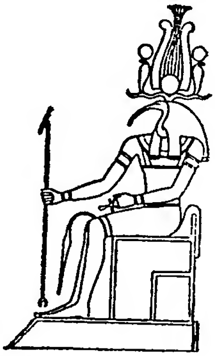
---

(١) Edfu, Düm. Geogr. Inschr. II, 87, 88.

(٢) قارن مثلاً Ebers, I, 14.

(٣) قارن Pyr. 1595.

يجوب السماء[١]. وقد صوّره الناس كطفل آدمي، ويرجع ذلك إلى أنه أصبح ابناً للآلهة المحلية التي تمثل السماء، وهي «موت» ولكن «خونسو» لم يكن له ما لتحوت من الشهرة.



٢٧ ـ تحوت

وما دمنا قد وصلنا في كلامنا عن الآلهة العظيمة إلى النهاية، فمن الواجب أخيراً أن نذكر كلمة موجزة عن ذلك الإله أوزيريس الذي يراه بعض المؤرّخين محور الديانة المصرية. فهو لم يكن إلهاً معظماً في أول الأمر، ولكن قصته وعلاقته بالحياة والموت جعلته يحتل مكان الصدارة بين الآلهة فأصبح من أهمّ الآلهة المصرية. وسوف نتحدّث عنه بإسهاب في الفصل الخامس. ولو أننا نجد لزاماً علينا أن نذكر في هذه المناسبة بعض الصفات البارزة الخاصة بهذا الإله ذي المزايا العديدة، وهل كانت تلك المميزات معروفة عنه في عصوره الأولى، أم أنها ظهرت وتكوّنت على أثر ظهور قصته المشهورة؟ فالإله أوزيريس ينسب إليه كل التطوّرات التي تحدث على سطح الأرض طوال العام[٢]. فإذا ما أتى الفيضان فأوزيريس هو الماء الجديد[٣] الذي يكسب الحقول خضرة. وإذا ما جفّ النبات وفني، فمعنى ذلك أن أوزيريس قد مات. ولكن موته هذا ليس

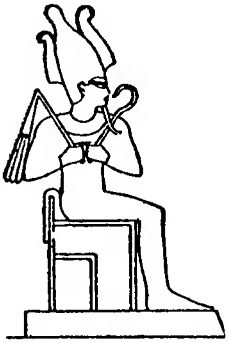
---

(١) لقد قصد فعلاً أن يكون هذا هو المعنى لذلك الإسم، قارن: Edfou, ed. Rochem. I, 269.

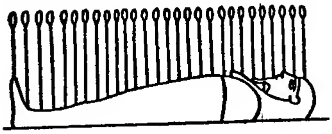
(٢) قارن Ed. meyer, Geschichte 1^2 § 178 وراجع أيضاً Schafer, A. Z. 41, 109.

(٣) قارن Pyr. 25; 589, 767.

أبدياً، لأنه إذا ما نبتت البذور في العام الجديد فإنما نبتت من جسده الذي لا يزال على قيد الحياة، فقد اعتقدوا أن الحياة تعود إليه كل عام، وبعودتها تنبت المزروعات يعيش بها الإنسان والحيوان[١]. وليس أدلّ على وجود هذه العقيدة عند المصريين من احتفالهم بأحد أعياد أوزيريس وتمثيله (وقد عادت إليه الحياة) ببذور نابتة. وكانوا يصوّرونه ميتاً مستلقياً على الأرض وقد ملأت جسمه حبوب ترطب الماء فتنبت وتنمو. وهكذا تعود الحياة إلى الإله. ومن أجل الحياة والموت اعتبر أوزيريس بعد ذلك إلّهاً للموتى وسيداً لهم. وهذه الصفة أبرز الصفات التي عرفت عنه، ومن أجل ذلك أصبح في العصور التاريخية عند المصريين إلهاً للموتى.



٢٨ ـ أوزيريس



٢٩ ـ من جثة أوزيريس ينزغ النبات

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن أوزيريس اعتبر إلهاً للقمر[٢] وذلك لأنه يختفي ثم يعود مرّة ثانية إلى الحياة، بل أكثر من ذلك مثّل عندهم الشمس الغاربة والمشرقة. ولكن من الملاحظ أن كل هذه الصفات التي برزت في العصور المتأخرة لم تبلغ ما بلغته الميزة الأولى التي أسلفناها، فقد كان باستمرار بمثابة

(١) Philae (3352) Eurgetes vor Osiris.

(٢) Pyr. 732.

«الحبوب الجديدة»[١] طعام الإنسان[٢]، ثم «المياه الجديدة» التي[٣] تكسب الأرض خصبها، فهو الذي يكتسب الشباب بمياهه المتحددة. تخرج منه المياه[٤] بل تعتبر البحار والمحيطات دولتيه[٥]. وكان يسمى «الكبير الأخضر» لأن المصريين سمّوا البحار باسم «الأخضر الكبير» ثم أطلق عليه أيضاً «الأسود الكبير» لأن المصريين كانوا يسمون البحيرات المرّة باسم «الأسود الكبير».

وكذلك اعتقد المصري أنه هو الحقول التي تطفو فوق مياه الفيضان إذا ما بدأت المياه تنحسر عن وجه الأرض وتصوّرها عائمة فوق الماء[٦]. ثم مثلوا أوزيريس بالأرض الجاثمة فوق صدر عدوّه «ست» الذي يحمله، وفي العصور المتأخرة نجد أوزوريس الذي يحكم دنيا الأموات كأنه نائم تحت الأرض، والأرض من فوقه والماء ينبع من قدميه[٧].

وأن أجمل هذه الفقرات هي تلك التي كتبها مصري عاش في عصر الدولة الحديثة متحدثاً فيها عن بعض هذه الصفات فيقول:

«ترقد الأرض قاطبة، على أوزيريس الميت وتزلزل زلزال زلزالها إذا تحرّك، ويجري النيل من عرق أصابع يديه، يهب الناس (الحياة) من أنفاسه، وتنمو فوق الأشجار والنباتات والحبوب وجميع الثمار، ويجثم فوقه كل ما تشيده يد الإنسان من قنوات ومنازل ومعابد وآثار ومقابر وغير ذلك من الأشياء

---

(١) ويطلق عليه اسم «نفري» بمعنى «حبوب» وذلك في مقبرة سيتي قارن Sh. rp u. Bonomi 18,5.

(٢) قارن Bibl. Nat. 20. Osiris hymn. 4.

(٣) Pyr. 589, 767.

(٤) Pyr. 848, 868.

(٥) Pyr. 628 ff., 847, 1631.

(٦) Pyr. 388.

(٧) قارن Mar. Dend. III, 35 وراجع أيضاً Edfu 1,567, Dum. Geogr. Inschr. III, 18.

العديدة التي ليس من اليسير تدوينها دون أن يئنّ أو يتضجر من العبء الذي يحمله»[1].

والمعروف حتى الآن أن موطن أوزيريس كان في مدينة «ددو» التي سماها اليونان «بوزيريس» أي بيت أوزيريس، ومن هذه المدينة انتشرت عبادة هذا الإله إلى جميع أطراف البلاد، وزيادة على ذلك فإن هذه العبادة طردت معبودات كثيرة من مواطنها؛ ففي ممفيس مثلاً اندمج سوكاريس في أوزيريس، كما تغلب على الإله الأصلي في أبيدوس إله الموتى المسمى «أول أهل الغرب»[2] والذي كان يرمز إليه ويعبد على شكل ابن آوى. ويبدو أن هذا حدث آبان عصر الدولة القديمة، (أي حوالي ٣٠٠٠ ق. م) ومنذ ذلك العصر أصبحت أبيدوس أهمّ المدن التي تعتبر المركز الرئيسي لعبادة أوزيريس. وبديهي أن أوزيريس منذ اعتبر ملكاً للموتى أصبح يصوّر على هيئتهم؛ بمعنى أنه ما دام ميتاً فيجب أن يكون مومياء في أربطتها، ولكنه ربما عاد ودبت فيه الحياة مرّة أخرى لذلك صبغوا وجهه باللون الأخضر، ووضعوا فوق رأسه التاج وفي يديه عصا الحكم والصولجان.

أما في عاصمته الشمالية «ددو» (في الدلتا) فقد صوّر على شكل آخر ليس بالآدميّ، وليس في استطاعتنا أن نفسر هذا الشكل فإنه كان يمثل عاموداً ثقيلاً قمته العليا مقسمة إلى أقسام[3]. وكانوا يحتفلون في عيد هذا الإله بإقامة ذلك العمود، وربما كان قصدهم من ذلك أن يشيروا إلى أن الحياة قد دبت في الإله مرّة أخرى. وهذا الرمز يسمى عامود «د د» من أقدس الرموز عند المصريين،

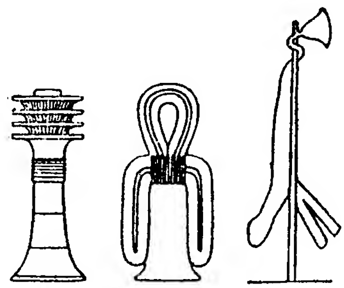
---

(١) قارن Erman, Litt. S. 376.

(٢) قارن Petrie, Royal Tombs راجع أيضاً Pyr. 745, 1833, 2198، وكتب عن ذلك أيضاً Ed. Meyer, A. Z. 41, 67, ff.

(٣) شرحها بعض الناس على أنها جزع لشجرة، والبعض الآخر يرى فيها مجموعة من سيقان نباتات (قارن Schàfer, in der Fest schriften von Griffith) وعلى كل حال فمن الواضح أنها شيء ثقيل كبير الحجم يحتاج الناس لرفعه في الهواء إلى حبال سميكة.

وأصبح يدل في الكتابة المصرية على معنى الاستمرار (البقاء) ولعل ذلك كان لاعتقادهم بأن الإله ولو أنه ميت إلا أنه باقٍ. ومن المعروف أن المصريين قد أضافوا إلى رمز أوزيريس هذا رمزين آخرين: الأوّل لزوجته إيزيس، والآخر لصديقه أنوبيس ولقد اشتهر المصريون بحبهم العظيم لمثل هذه الإضافات التي لم يفهم لها من سبب.



٣٠ ـ رموز أوزيريس وإيزيس وأنوبيس

آلهة الموتى

إذا كان أوزيريس قد ظهر لنا كإله للموتى عند المصريين أجمعين، فمن الصعب علينا أن نعتقد أن هذه الصفة لازمته منذ أول العصور. لأن موتى كل مدينة يرقدون مجتمعين في جبانة واحدة تقع بالقرب من هذه المدينة. ولا بد أنهم كانوا تحت رعاية إله محلي خاصّ بهذه الجبانة[١]. وغالباً ما تأخذ مثل هذه الآلهة المحلية للموتى شكل ابن آوى، أي الحيوان الذي يجوب المناطق الصحراوية ليلاً حيث تقع هذه المقابر باحثاً عن فريسة (طعام). وهذا هو الشكل (الرمز) الذي اتخذه سيدُ أهل الغرب[٢] (أي الموتى)، ولو أن أوزيريس في أبيدوس قد انتزع هذه الصفة لنفسه، وأنوبيس الذي كان يرمز له بابن آوى والذي كان إلهاً للدفن منذ عصور الدولة القديمة[٣] وصل إلى مكانته هذه لأنه ذكر في

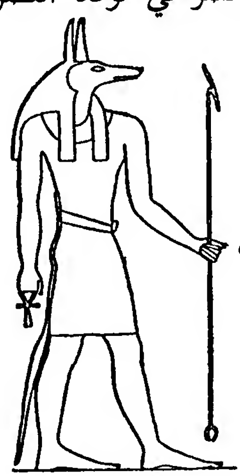
(١) كان وفي أول الأمر هذا هو رأي ماسبير.

(٢) قارن Pyr. 220، وراجع أيضاً Ed. Meyer, A. Z. 41, 97 ff.

(٣) Urk. I, 120; 123.

قصة أوزيريس، ولأن جميع الآلهة الذين ورد ذكرهم في هذه القصة ظهروا في الصورة الآدمية، نجد أنوبيس أيضاً قد صوّر بهذا الشكل، ولكن الرأس فقط هي التي كانت تمثل ابن آوى. وكان موطنه الحقيقي على الأرجح مصر الوسطى.

وظهر في نفس المنطقة إله آخر على شكر ابن آوى وهو «أوب وات»، وعلى وجه التحقيق ظهر اثنان من الـ «أوب وات» يشبهان كل الشبه «أنوبيس» ولا يختلفان عنه إلا في أمر واحد، وهو أن «أنوبيس» يصوّر كحيوان قابع (ومن أجل هذا يسمى «الذي يرقد على بطنه»). بينما يمثل الـ «أوب وات» وهو يسعى فوق أرجله. وربما كان هناك اختلاف آخر بينهما، نظراً لأن اليونان الذين عرفوا المصريين في ذاك الوقت أكثر منا، يقسمون ما نسميه ابن آوى إلى نوعين: الأول أنوبيس ويعرّفونه بأنه كلب، و «أوب وات» بأنه ذئب، ولقد لعب الإلهان الـ «أوب وات» دوراً في قصة أوزيريس، فكانا كما يدلّ إسماهما «فاتحي الطريق» زميلا أوزيريس في كفاحه، يتقدمانه في المعركة، ومن أجل ذلك نجد أحياناً أن هذين الإلهين قد صوّرا ومع كل منهما دبوس حربي وقوس. ولقد ورد من بين ألقابهما «المتسلحان بالسهام... المنتصران... القويان فوق جميع الآلهة[١]» واللذان تغلبا على مصر في موقعة النصر الحاسم. ومن أجل هذا نشأت



٣١ ـ أنوبيس

(١) قارن 233 -232 ,Siut I ولا ندري سبباً لماذا أطلق الإغريق على «أوب وات» اسم Makedon قارن Diodor, I 18.

العادة فيي العصور المتأخرة أن يتقدم الملك رجل يحمل شارة تمثل الإله «أوب وات» الذي يعبد الطريق له بين الأعداء.



٣٢ ـ أوب وات (نقش من أبو جراب في برلين)

الكباش والتيوس

إن نفس الالتباس الذي وقع بين الآلهة التي مثلت على شكل ابن آوى وقع أيضاً فيما يتعلق بالآلهة التي نعتقد أنها مثلت على شكل الكباش، ونحن لا نستطيع أن نفرّق بينها إلا في حالتين: الأولى الخاصة بالحيوانات المقدسة للإله آمون في طيبة التي تتميز بقرون ملتوية إلى أسفل ومستندة فوق الرأس، والنوع الثاني الذي يتميز بقرون أفقيه تمتدّ في انحناءات متعددة فوق الرأس. وكان اليونان أنفسهم يقسمون هذا النوع الأخير قسمين: أولهما الكبش، والثاني التيس. ونحسن صنعاً لو أننا أخذنا بهذا التقسيم. وأهمّ الآلهة التي مثلت على شكل الكبش هو الإله «حور سافس» معبود مدينة هرقليو بوليس الواقعة حالياً بالقرب من أهناسيا، والذي أراد عُبَّاده أن يجعلوا منه في العصور المتأخرة إلهاً للعالم، عيناه الشمس والقمر ويخرج من أنفه الهواء[١]. وكان اسمه «الكائن فوق البحيرة». ومن هذه التسمية نستدلّ على أن معبده كان يقع عند المدخل الموصل إلى أرض بحيرة الفيوم. وتتصف الآلهة الأخرى التي لها شكل الكبش والتي تحمل اسم خنوم بصفات مختلفة، فأحياناً يعتقد البعض أن خنوم هو الإله الذي يخلق ويكوّن، مثَله في ذلك مثل الإله بتاح إله ممفيس. فخنوم يعمل عمل

(١) قارن Urk. II, 3.

الفخارى فيجلس إلى دولابه(١) يخلق البشر، وكل طفل يولد هو من صنع يديه يتقدّم بالشكر له على خلق أعضائه السليمة(٢) ويسكن الإله خنوم ومعه آلهة كثيرة تحمل هذا الإسم جزيرة الفنتين(٣)، واعتبروا هناك بمثابة أسياد (أصحاب) المياه الباردة(٤) التي تنبع من هذا المكان، وهي عقيدة قديمة ترجع إلى أول العصور. ويبدو لنا أن أتباع هذا الإله كانوا في أول الأمر مستوطنين للحدود المصرية الجنوبية، وهم الذين أعطوا هذه الصفات لإلههم هذا المحلي.



٣٣ ـ خنوم

أما التيوس فقد كانت في شمال مصر. فمثلاً التيس الذي عُبِد في منديس اعتبر معبوداً امتدّ تقديسه حتى العصر اليوناني. ومما تجدر ملاحظته مع هذا النوع من الآلهة أنها لم تكن مثل الحيوانات المقدسة الأخرى التي تسمت بأسماء خاصة، بل اكتفى المصري بأن أطلق عليها اسم التيس(٥) ولم يحدث أن صوّرت على شكل آدمي. وربما يمكن أن نعلل هذه الظاهرة بأن الشعب بالنسبة إلى هذا النوع من المعبودات لم يسمح بتطوّر أشكالها، بل أبقاها كما عرفها منذ أقدم العصور. وسوف نتحدّث عن الأدوار المهمة التي لعبتها هذه الآلهة في الديانة المصرية.

---

(١) L. D. IV. 70 ff.

(٢) Pap. Westcar 10,2.

(٣) Urk. 1,69.

(٤) Urk. 1, 110, 111.

(٥) Ed. Meyer, I 2^2, 178.

الآلهة على شكل التمساح

وهناك إله يجدر بنا أن ننوّه عنه بإيجاز سمي باسم «سوبك» وهو التمساح الذي ظهر كمعبود محلي في مناطق مختلفة حاملاً نفس الإسم والشكل. فعبد في الدلتا في مدينة سايس حيث «يعطي الحياة للنباتات فوق الشاطىء»(١) واعتبر هناك ابن إلهة المياه «نايت(٢) العظيمة» يضحك عندما يأتي الفيضان(٣)، ولم يخجل الفنان من أن يصوّر هذه الإلهة ترضع تمساحاً من كل من ثدييها.



٣٤ ـ سوبك

وأهمّ مكان انتشرت فيه عبادة «سوبك» كان أرض البحيرة في الفيوم، ثم في مدينة أمبوس الجنوبية، إذ اعتاد الناس الاحتفال هناك بظهور الفيضان كل عام، ومن هذا نرى أنه كان إلهاً للماء. وقد عثر على صورة له قديمة لا ترتبط بأيّ مكان في مصر تمثله في محراب صغير(٤) فوق شاطىء رملي كمعبود يقدّس

---

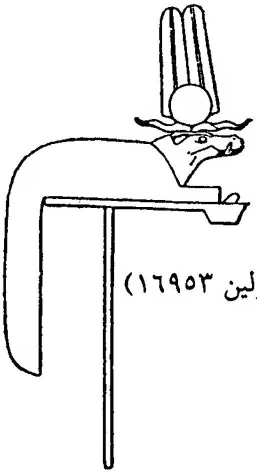
(١) قارن Pyr. 507, 510 ويجدر بنا أن نلاحظ بأن المصري اعتاد رؤية التماسيح مستلقاة فوق الشاطىء فاعتقد أنها تكسبه الخصب.

(٢) Pyr. 510.

(٣) قارن Erman, Litt. S. 195 عن أنشودة النيل.

(٤) قارن Relief aus dem Sonnentempel von Abou Gurab in Berlin.

في كل مكان من وادي النيل. وإذا كنا نرى أن قدسية هذا الحيوان المفترس بلغت حداً جعلت المصري أحياناً يلقبه بصاحب الوجه الجميل(١) فليس من شك أن السبب الحقيقي لهذه العبادة يرجع إلى الخوف منه والرعب الذي يشيعه في نفوس أهل شاطىء النيل.



٣٥ ـ سوبك من معبده في الفيوم (برلين ١٦٩٥٣)

الثعابين وآلهة صغرى أخرى

وكان الخوف والرعب أيضاً هما العاملان اللذان دفعا المصريين إلى تقديس كائنات مرعبة مؤذية أخرى مثل العقرب والحشرة السامة الكبيرة ذات الألف قدم، ثم أخطر الثعابين السامة المعروفة باسم «الناشر»، فالعقرب هي الإلهة الكبيرة «سلكت». أما الحشرة ذات الألف قدم فقد عبدت في هليوبوليس تحت اسم الإله «سبا». أما الثعبان السامّ فقد عبد في شكلين مختلفين كما عرفنا ذلك من قبل: أولهما هي الإلهة «بوتو» حامية ملك مصر، والثاني هو الصلّ حامي إله الشمس وزميله. وانتشرت الثعابين المقدسة في مصر إلى درجة أنه في العصور القديمة أصبح اسم كل إله يخصص برسم ثعبان مثل الصقر الذي اعتبر مخصصاً لكلمة الإله (في الكتابة المصرية القديمة) بل أكثر من ذلك صوّرت

---

(١) قارن Morgan, Ombos II, 78, 627 C.

الإلهة الصغيرة الطيبة «رنن أوتت» إلهة الحصار على شكل ثعبان[١]. ثم بعد ذلك أصبحت العادة تحتم أن يحوي كل معبد نموذجاً حياً من هذه الثعابين. وعلى كل حال فقد كانت كل مديرية تحتفظ بعدد كبير من الحيوانات والأشياء التي لم تعتبر آلهة، ولكنها كانت ذات صفة إلهية. فمثلاً مدينة هليوبوليس قدست غير الآلهة التي سبق أن ذكرناها حيوان النمس الذي تشكل آتوم بشكله عندما بدأ العراك بينه وبين أبـوفيس[٢]. وفي غير ذلك من المدن المصرية قدّس الناس أنواعاً مختلفة مثل الأسماك والطيور والفئران والأشجار وغير ذلك، ولو أن الصور التي تظهر لنا على جدران المعابد، والتي تمثل الديانة القديمة لم تظهر لنا شيئاً من هذا النوع من المعبودات الدنيا إلا أننا لا نشكّ مطلقاً في أن هذه المعبودات كانت منتشرة بين أفراد الشعب.

وسوف نتحدّث عن بعض هذه الآلهة الصغيرة مثل «بس» و «تويريس» عند الكلام على الآلهة الشعبية في عصر الدولة الحديثة. ومما تجدر ملاحظته أنه كلما طال الزمن على الديانة المصرية وامتدّ بها الدهر كلما سمحت الظروف لهذه المعبودات الدنيا أن تتسرّب إلى المعابد وأن تجد لها مكاناً منزوياً بين آلهة الديانة الرسمية.

وكثيراً ما اعتبرت هذه الآلهة الصغرى كمساعدين للكبرى، فمثلاً «آبيس» و «ميفيس» (راجع صفحة ٤٩، ٥٠) و «مافيديت»[٣] المرعبة التي ظهرت منذ أقدم العصور، وكذلك الـ «أوب وات» الذي سبق الحديث عنه، كلها تعتبر من هذا النوع من الآلهة. وكذلك أوزيريس ربّ الموتى كانت له رسل[٤] يرسلها من

(١) وكانت قديماً تعتبر أيضاً إلهة النسيج، قارن Pyr. 1755, 1794.

(٢) قارن A. Z. 63,5وقارن أيضاً Daressy, Ann. du Serv. 18,176.

(٣) قارن Griffith in Royal Tombs II, 50.

(٤) ويظهر ذلك جلياً في قصة حوريس وست Horus und Seth, 15,5 ff. Gard. J. E. A. IX, 12، وكذلك Totb. 29, I; Totb. 125, Einleitung 16، وراجع أيضاً Pap. Smith 19.12، وكذلك Bauer; nach Pap. 3023, 119 حيث وصف أنه رسول الإله التمساح.

عالمه الثاني إلى الناس لكي يعلنونهم بالموت.

ولا نشكّ مطلقاً في أن هذه القائمة الطويلة من المعبودات المختلفة التي وصلنا هنا إلى آخرها سوف تترك في نفس القارىء فكرة عن ذلك الخلط الذي لا حدّ له. وهذا الالتباس هو في الحقيقة مبالغ فيه، إذ أننا هنا نحاول أن نشرح دنيا قديمة امتدّ بها التطوّر طوال آلاف السنين، والصورة التي نحاول أن نعطيها هي لعصور يتميز كل منها بحضارة مختلفة؛ بل نشأت كل من هذه الحضارات في منطقة مختلفة. ولقد بقيت بعض هذه الحضارات دون تغيير بينما حاول البعض أن يغير من هذه الحضارات بضم حضارتي منطقتين بعضهما إلى البعض الآخر، فكان أن أزاد ذلك في عدم وضوح الحضارتين، أو قل عدم فهمنا نحن لهما.

وليس من السهل علينا أن نعين في إسهاب متى وكيف حدث هذا التطوّر، ولو أننا نعرف العوامل القوية التي أثرت على الدين وغيرت من أصوله، وما دمنا نتتبع بوضوح هذا التطوّر في العصور التاريخية فليس من شكّ أن هذ العوامل بعينها أحدثت نفس الأثر على الدين إبان عصور فجر التاريخ، وسوف نتحدث في الفصول القادمة عن هذه العوامل وأثر الأحداث الخارجية على التاريخ والأثر الذي نتج عن المحاولات التي قام بها رجال الكهنوت في نسج القصص الديني.

* * *

الفصل الرابع

تتبع التطورات التي حدثت للديانة المصرية

إن الأحداث الكثيرة التي استهدف لها الشعب المصري طوال تاريخه الممتدّ لا بد وأن أثرت هي الأخرى على ديانته. إن مصر كانت دولة متحدة قوية، ثم اضمحلت وانقسمت إلى إقطاعيات، وانزوت أسرات ملكية، وحلّ محلها بيوتات أخرى اختارت لنفسها عواصم أخرى. وحدثت تلك الثورة الجامحة التي هزّت مصر هزاً وقلبت الأوضاع فيها قلباً، فغزتها أمم متبربرة، ثم ما لبثت مصر أن غزت هي بدورها أمماً أجنبية. كل هذه الأحداث أثرت على الديانة المصرية، سواء في مظاهرها الخارجية أو في أحاسيس الأفراد. ومما يؤسف له أننا نتصوّر كل هذه الأشياء ولا نتلمسها، ونراها واضحة حية إلا في حالة واحدة ألا وهي الإصلاحات التي قام بها أمنوفيس الرابع. وسوف نكتفي بالحديث عن هذه الأحداث التاريخية في حينها، ولكنها نودّ هنا أن نتعرّض للتغيرات التي أخذت تدخل الديانة المصرية دون تأثيرات خارجية.

وإذا وجد في مدينة واحدة معبودات عديدة تحظى بتقديس الناس فليس من شكّ أن هؤلاء لا بد وأن يتصوّروا وجود علاقة ما بين هذه المعبودات. فإذا كانت إحداها إلهة كبيرة والآخر معبوداً صغيراً فلا مندوحة هناك من أن يعتقد الناس أن الإلهة هي الأم والمعبود هو الابن، ففي طيبة أصبح خنسو ابنا للإلهة «موت»، وفي دندرة أصبح «ايحى» ابنا لحاتحور يجلس على حجرها[1]، وفي

---

(١) Lacau, Text. Relig, S. 133.

سايس اضطرّت «نايت» أن تقبل تمساحاً «الإله سوبك» ابناً لها. وإذا حدث أن كان في نفس المدينة إله آخر كبير يحظى بتقديس الناس فليس من بد أن يكون هو الزوج والأب أيضاً. وهكذا أصبح آمون زوجاً للإلهة «موت» وأبا لخنسو، واتخذ بتاح معبود مفيس من ساخمت «التي كانت رأسها على شكل رأس الأسد» حبيبة له، وأصبح ابنه ذلك المعبود الصغير «نفر ـ تم» الذي لم يكن سوى زهرة. ونجد أمثلة كثيرة لهذه الأسرات الإلهية منتشرة في كل مكان، وأشهرها هي عائلة أوزيريس التي سنتحدث عنها عند الكلام عن قصته.

وإذا حدث أن اتحدت آلهة بعضها مع بعضها الآخر دون أن يربط بينها أيّ رابط، فهناك حالات أخرى يندمج فيها إله في إله آخر مجاور لشهرته ويفقد بذلك كيانه المستقلّ، فمثلاً «سوكاريس» إله الموتى في ممفيس لم يكن إبان عصر الدولة القديمة إلا بمثابة اسم آخر «لبتاح» يدل على صورة معينة من صور «بتاح» فأصبح «بتاح سوكاريس» بل أكثر من ذلك قد أدمجه الناس في إله آخر أجمع المصريون على تقديسه ألا وهو «أوزيريس»، فكانت النتيجة أن تكون من



٣٦ ـ الإله نفرتم
(برلين ١١٠٠١)

ذلك إله اسمه «بتاح ـ سوكاريس ـ أوزيريس» ونرى بوضوح من هذا المثل أن الإندماج لا يحدث غالباً بأن يسطو إله قويّ على جاره الضعيف، بل يمكن جداً أن يكون الإله المتغلب من الذين أصبحوا ـ لأمر ما ـ محبوبين بين الشعب، ويكاد يكون هذا هو السبب في معظم الحالات، وكثيراً ما يحدث أن يفقد الإله القديم اسمه ويبدو ذلك هو السبب في وجود آلهة مختلفة سميت باسم واحد مثل حوريس وحاتحور، ولو أننا لا نستطيع إثبات ذلك. ومن الأمثلة التي تضرب لهذا النوع من الآلهة الدخيلة هو الإله «أونوريس» ويعني اسمه «ذلك الذي يحضر البعيد». وترجع نشأة هذا الإله إلى قصة «عين الشمس» ثم نجده بعد ذلك قد ثبت أقدامه في كثير من الأماكن وحلّ محل إله الهواء «شو». وهناك مثل آخر لذلك وهي إيزيس زوجة أوزيريس التي أدمج الناس فيها منذ عصور مبكرة إلهات مختلفة. فسميت مثلاً «سيدة بوتو» كما لو كانت هي بمثابة الإلهة الأصلية على شكل الثعبان[١].

ومن الحالات التي كان لها نتائج خطيرة اندماج عدد كبير من الآلهة في إله الشمس. وأول إله اندمج فيه هو «آتوم» إله هليوبوليس القديم كما ذكرنا ذلك فيما سبق، وسوف نعود إلى ذلك في مناسبات عدة على صفحات هذا الكتاب.

ولقد أخذت عبادة الشمس تنتشر منذ عصر الدولة القديمة، ولعل السبب في ذلك أن ملوك الأسرة الخامسة الذين حكموا مصر من عام ٢٥٦٠ إلى ٢٤٢٠ ق. م ينتمون إلى كهنة هذا الإلّه؛ فأصبح هذا المعبود أكثر المعبودات تقديساً عندهم. وعلى كل حال نلاحظ مدى الألف السنة التالية كيف أن الناس قد أضافوا في كل مكان اسم «رع» (الشمس) على أسماء الآلهة القديمة، وهكذا أرادوا أن يضفوا على الآلهة «سوبك ـ رع» و «مونت ـ رع» و «خنوم ـ رع» وغير ذلك نصيباً من القوّة التي تمتع بها إلّه الشمس الذي كان يتصرّف في مقادير العالم أجمع، ولو أنها في حقيقتها لم تزد عن تلك المعبودات التي يمثلها التمساح والصقر والكبش. وأصبح أيضاً آمون الإله المحلي لطيبة منذ عصر

---

(١) قارن Pyr. 309, 313، ويشعر القارىء أن في هذا ذكرى لأماكن قديمة لإيزيس.

الأسرة الحادية عشر (حوالي) ٢١٠٠ ق. م «آمـون ـ رع». وبلغ إله الشمس في شخصيته الجديدة «كملك للآلهة»[1] أسمى درجات التقدير والشهرة. ولا غرابة فـي ذلـك فقـد كـان «آمـون رع» منـذ عصـر الأسـرة ١٨ (١٦٠٠ ق. م) إلـه الإمبراطورية المصرية.

وكما سببت الملكية في مصر ذلك الانتشار الواسع لعبادة إله الشمس نراها أثرت أيضاً تأثيراً واضحاً في صياغة الأُسس الدينية. كانت مصر كما أسلفنا منقسمة إلى دولتين: مصر السفلى وعاصمتها «بوتو»، ومصر العليا وعاصمتها «نخن»، وهذا التقسيم الذي يرجع إلى عصور فجر التاريخ له مظاهر أخرى؛ فهناك إلهان رمزيان هما: حوريس وست، وإلهتان حاميتان لملكي القطرين وهما: الثعبان «بوتو» والعقاب «نخبت»، ثم تاجان: الأحمر لمصر السفلى، والأبيض لمصر العليا وقد ألههما المصريون. ولقد حدث أن تمكن حاكم لمصر العليا في الألف الرابعة قبل الميلاد من أن يوحد القطرين. ويعتبر هذا الحادث بمثابة بدء عصر جديد للديانة المصرية اختلطت فيه المعتقدات الدينية، وكلما زاد اختلاطها تقارب بعضها من بعض. ولا نودّ أن نقول بأن البعض منها قد تلاشى أو هجر، بل على العكس من ذلك فما كان يمتّ إلى القديم بقي حياً محترماً بجانب ما أدخله العصر الجديد من مبتكرات على هذه المعتقدات. فمثلاً أسس الملـوك منـذ أول عصـر الـدولـة القـديمـة عـواصمهـم فـي المنطقـة بيـن ممفيس وهليوبوليس والقاهرة الحالية، ولكنهم ما فتئوا يتحدثون في معابدهم عن العاصمتين «بوتو» و «نخن»، كما أن إلهتي هاتين العاصمتين هما اللتان تحميان الملك، ولو أنهما كانتا قد اندمج بعضهما في بعض وأصبحتا تصوّران كثعبانين وغير ذلك، فلا زالت مصر في عرفهم منقسمة إلى قطرين، والملك هو «سيد القطرين» بل إن ألقابه تظهره كما لو كان صاحب شخصيتين، فهو ملك مصر السفلى وملك مصر العليا، يلبس لكل شخصية يمثلها التاج الخاصّ بها مع العلم أن هذا لم يمنعهم في نفس الوقت من أن يضموا التاجين ويجعلوا منهما تاجاً

(١) ومنذ أقدم العصور اعتقد المصري في «ملك الآلهة» قارن Pyr. 1458.

مزدوجاً واحداً. ولقد اختلف الحال مع آلهة القطرين، إذ تضاءل مركز «ست» معبود مصر العليا بالنسبة إلى «حوريس» معبود مصر السفلى وانزوى. ولا يمكن أن نفسر هذا التضاؤل إلا أنه تأثر بحدث تاريخي نرجح أن يكون ما ورد في النصوص المصرية خاصاً بظهور دولة غارقة في القدم سمي ملوكها «خدم حوريس». ويغلب على الظن أن هذه الأسرة الملكية خصت حوريس بتقديس يبز كلّ ما عداه من الآلهة ومن هنا نشأ هذا الامتياز الذي انفرد به حوريس من دون جميع الآلهة في العصور التاريخية، وأصبحت صورة الصقر في الكتابة المصرية «كمخصص للإله» و «للملك» وأصبح حوريس قبل كل شيء المثل الأعلى للملك، فهو الإله الذي كان أول من حكم الناس، وبذلك كان كل من أعقبه من الملوك خلفاءه وممثليه. وكان الملك يلقب بحوريس[١]. أما إذا أرادوا أن يفرّقوا بينه وبين الإله لقب بحوريس الذي يسكن القصر. وكذلك نراهم يذكرون «الرعب الذي يلقيه حوريس بين سكان البلاد الأجنبية[٢]»، وفي أنشودة من عهد الدولة الوسطى سمي الملك «حوريسنا»[٣]، وينبغي ألا نعتقد أن الملك كان إلهاً مثل بقية الآلهة تشيد له المعابد وتقدم له القرابين، فلم يبلغ تأليهه هذا الحدّ، فإذا ما سمي بحوريس أو الإله الطيب[٤]، أو إذا ذكر أثناء الحديث باسم الإله[٥] فلا يعدو ذلك طريقة مهذّبة للتعبير عن خضوعهم التامّ له، حتى إذا ما شاع هذا الاستعمال اللفظي لم يفكر أحد في معناه الأصلي. وقد بالغ المصريون

---

(١) لقب حورس هو أعظم الألقاب، أما لقباً ملك مصر العليا ومصر السفلى فلم يكونا غير لقبين لوظيفته الدنيوية.

(٢) Urk. I, 124.

(٣) Kahun Hymnus, Erman Litt, S 179.

(٤) أطلق عليه في أقدم العصور «الإله العظيم» وهو لقب لم يستعمل فيما بعد إلا عند الحديث عن الآلهة الحقيقيين Urk. I, 8.

(٥) فمثلاً ورد ذلك في اللقب القديم «رئيس خزانة الإله» أو في التعبيرات التي يطلق على الملك فيها «الإله» Urk. IV, 20.

بالذات في استعمالهم لمثل هذه الألقاب مع الملك فقالوا عنه إنه «الشمس الحية» الذي إذا تحدث كان «أتوم هو الذي يتحدث من فمه» أو «هو صورة حية للإله تعيش فوق الأرض»، وهكذا لا يمكن أن تحوي ألقابه «حوريس» و «الإله» من معنى حقيقي يختلف عن الأمثلة التي سردناها فيما سبق.

وهناك لقب آخر أضافه ملوك الأسرة الرابعة على ألقابهم، ومن العجيب أنه يرمز أيضاً لشخصيتهم المؤلهة، وهذا اللقب هو «ابن رع» أو «ابن رع من جسده» ومن ثم بقي هذا اللقب ثابتاً من بين الألقاب الملكية[1]. ونكاد نعتقد أن في استطاعتنا تفسير السبب الذي من أجله نشأ هذا اللقب ونرجعه إلى ذلك الاعتقاد الذي يسود بعض الشعوب الأخرى وفي عصور مختلفة، والذي يقول بأن الملك ولو أنه ابن لأبيه من الناحية الفعلية إلا أنه في نفس الوقت هو ابن لأكبر الآلهة وأكثرها تقديساً. وليس في استطاعتنا طبعاً أن نفسر مرجع هذا الاعتقاد وكيف يكون ذلك، خصوصاً ولأن أسباب فهمنا للعقائد المصرية لا زالت قليلة بسيطة.

ويظهر لنا بوضوح كيف استمرّ الشعب متمسكاً بفكرته هذه في القصة التي كتبت حوالي عام ١٧٠٠ ق. م والتي تتحدث عن ملوك الأسرة الخامسة، وكيف أنهم ينتمون إلى محتد إلَهي فتقول إن «رع» كان غير راضٍ عن الملك خوفو الذي بنى الهرم الأكبر، وإذا ما تفضل وسمح لابنه وحفيده «صاحبي الهرمين الثاني والثالث» بالحكم فإنه أراد أن يحكم مصر من بعدهم ملوك يفوق تقديسهم للإله تفكيرهم في تشييد مقابرهم الضخمة، «ملوك يشيدون المعابد ويقدمون القرابين على المذابح ويكدسونها على الموائد ويجعلونها كثيرة وافية»[2]. وهكذا اختار زوجة كاهن من كهنته واسمها «رود ـ ددث» وجعلها تحمل منه وتلد بمساعدة الآلهات ثلاثة أطفال كانوا بمثابة باكورة جيل جديد. فأعطاهم خنوم الذي يصنع الناس أعضاء قوية، وأعطتهم إيزيس أسماءهم، وتبينت مسشنت إلهة الولادة أنهم ملوك حقيقيون «سيتقلدون شؤون الملك في هذه البلاد بأجمعها».

---

(١) قارن Ed. Meyer, Geschichte des Altertums II 2,250.

(٢) Mârchen des Westcars, Erman, Litt. S. 73.

وهؤلاء هم الملوك؛ أوسركاف، وسحورع، وكاكاي ـ أوّل ثلاثة ملوك من الأسرة الخامسة الذين لم يولدوا كتوائم، ولكنهم كانوا بالفعل مقرّبين إلى إله الشمس بدليل أن كلاً منهم ـ كما سنتحدث عن ذلك في الفصل السابع ـ قد بنى معبداً خاصاً لهذا الإله بالقرب من عاصمته قام فيه هو وعظماء رجالاته بالخدمة.

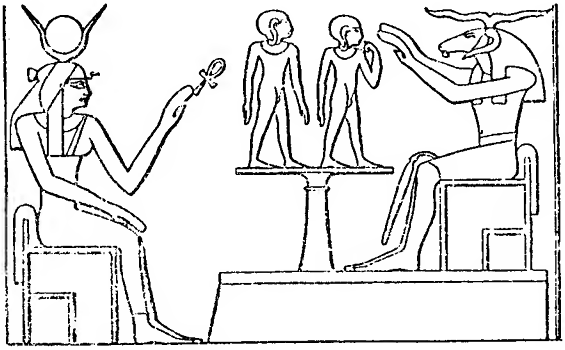
وهذه القصة الخرافية حبكها وأخذ يسردها رجل من الرجالات الموالين لأحد الملوك القدماء، ويبدو أنها حازت إعجابه وإعجاب رجال بلاطه إلى درجة أنهم نقشوها ورسموا حوادثها فوق جدران المعبد[1] وانتشرت هذه القصة، إذ نجد مثيلاً لها منقوشاً فوق جدران معابد طيبة من عهد الدولة الحديثة، وكان الإله طبعاً هو آمون. ثم نجدها أيضاً في معبد من معابد الفيوم وكان الإله هو سوبك.

وكما كانت الحال في القصة الخرافية نجد في طيبة أن الإله آمون أراد أن ينجب ملكاً يقوم بتشييد «منازل» للآلهة وتكثر على يديه القرابين التي تقدم لها وهو يعلن هذا إلى الآلهة أجمعين الذين يعدونه بحماية الملك المرتقب. ويبدو أن الإله آمون رأى شابة وجد فيها غايته، فأرسل «تحوت» لكي يستعلم عن أحوالها، فرجع تحوت وأبلغه ما يأتي: «هذه الشابة التي تحدثت لي عنها اسمها أحمس وهي أجمل من أيّ امرأة في هذه البلاد، وهي زوجة الملك تحوتمس» وعندئذ «تقمص آمون شكل زوجها الملك تحوتمس» وقاده تحوت إلى الملكة التي وجداها مستلقية تستريح في قصرها الجميل «فاستيقظت الملكة على عبير الإله، وضحكت لجلالته، فتوجه إليه الإله وجسده يحترق بنار الحبّ وأفصح لها

(١) وأسلوب هذه القصة يدل على أنها دبجت وكتبت في عصر الدولة القديمة Pyr. IV 241 ff. وهذه القصة في مجموعها تعتبر نموذجاً جميلاً لأسلوب النثر، ولكنها اتخذت هذا الشكل المختلف الذي وصلت به إلينا بعد أن أراد الفنانون سردها مصحوبة بصور ورسوم لنقشها على جدران المعبد، ولا ندري تماماً المعبد الأول الذي زينت جدرانه بهذه القصة، وأول نموذج وصل إلينا هو ذلك الذي نقش على جدران معبد لا منمحهات الثالث (Berlin, Aeg. Insch. I, 268) ومن عصر الدولة الحديثة وصل إلينا نموذجان: الأول للملكة حتشبسوت (Naville, Der el Bahari II, 46 ff, Urk. IV, 216) والثاني للملك امنحوتب الثالث (Gayet, Luxor 63 ff).

عن نيته وأظهر لها جماله الإلهي. . . . ففرحت عندما رأت جماله هذا، وامتلأ جسمها بحبها له وغمر عبير الإله جوّ القصر وكأنّ عطره الذكيّ من بلاد البخور».

وأتمّ الإله معها كل ما أراد، وتركته يسعد بها وقبلته «ثم تحدثت الملكة أحمس» إلى جلالة هذا الإله آمون قائلة: «يا سيدي، ما أعظم قوّتك، وما أحلى أن يرى الإنسان جمال طلعتك، لقد أسبغت على جلالتي من عظمتك فتسرّب نداك في كل أعضائي»، وبعد أن أتمّ جلالة هذا الإله كل ما أراده معها تحدّث آمون إليها قائلاً: ««خنمت آمون حتشبسوت» هو اسم هذه الإبنة التي وضعتها في جسدك وذلك تبعاً للكلمات التي نطقت بها الآن». وذلك لأن الملكة عندما كانت تتكلم مع الإله استعملت لفظي «خنم» بمعنى «يزود» و «شيس» بمعنى «عظمة»، ومن هاتين الكلمتين اشتقّ الإله اسم الطفل الذي سيولد. ثم أعلن الإله بعد ذلك «أن ابنته ستشغل هذا المنصب العالي في جميع البلاد، وستستمدّ من روحه وقوّته وستحمل تيجانه، وسوف تحكم القطرين وتقود الناس أجمعين». وما دامت البذرة قد وضعت فيجب أن يخلق الطفل، ولذلك كلف آمون «الإله خنوم» وهو الفخاري أن يصنع فوق دولابه طفلاً ملكياً من نموذجين: الأول للطفل، والثاني للكا «روح الطفل» وهكذا كتب لهذا الطفل أن يكون من أهل الحظّ والسعادة والصحة، تطيعه كل الأمم والشعوب، ويملك القوت



٣٧ ـ خنوم يشكل على دولابه الفخاري الملك وقرينه وإلى الجانب حاتحور تقدم رمز الحياة .((Gayet, Luxor pl. 63)

والغذاء. وكتب له أن يجلس على «عرش حوريس» يحيط به جلال «رع» كملك، وكما أمر بذلك أبوه «آمون رع» الذي يحبه، وصاحب «خنوم» الملكة الحبلى ومعها القابلة الإلهية «حقت» إلى مكان الولادة التي تشرف عليها الإلهة «مسشنت» وهكذا رأى الطفل نور الدنيا مزوّداً بأحسن ما يمكن لمصري أن يتمناه لملكته، وظهر كملك لمصر العليا والسفلى الذي سوف يحتفل بعدة أعياد فضية.

وكشأن كل انسان على الأرض يولد له طفل فيسرع لرؤيته نجد في حالتنا هذه أيضاً أن «حاتحور» أعظم الإلهات شأناً تحضر «آمون» لكي يرى ابنته المحبوبة الملكة «حاتشبسوت» بعد أن ولدت. فانشرح لذلك صدره بمولدها. وأيد أن هذه هي ابنته التي هي من صلبه، «فقبلها وطوقها بذراعيه وأحبها أكثر من كل شيء ورعاها وقال لها: مرحباً، مرحباً بابنتي حبيبتي من صلبي». ولا يعنينا هنا كيف أن آمون طلب إلى آلهات عدّة أن يرضعن ابنته، وكيف أن البقرة السماوية قد أرضعتها، وكيف ترعرعت ورحب بها من آلهة البلاد، وكيف أنها في آخر الأمر قد جلست على عرش البلاد بين تهليل الشعب المصري. وذلك لأن هذه الفترة من حياتها الأرضية لعب أبوها الآدمي الدور المهمّ فيها.

وقد نقشت عبارات وصور هذه القصة ـ كما أسلفنا ـ كمستند رسمي فوق جدران المعابد. ونكاد نجزم بأن الملك والملكة الأم لم يريا بأساً في هذا. ولم تكن هذه هي القصة الوحيدة التي دوّنت، بل هناك قصص أخرى كتبت بطريقة سافرة. فمثلاً نرى أن «بتاح تاتن» قد أكد لرمسيس الثاني أنه قد تنبأ بالأعمال العظيمة التي سيصنعها له هذا الملك فقال: تقمصتُ صورة «تيس منديس» واضطجعتُ بجانب أمك الجميلة لكي تلدك وأصبحت أعضاؤك كلها إلّهية»[١]. هذه القصة دوّنت فوق جدران معبد أبي سمبل الجميل[٢] الذي بناه رمسيس

---

(١) قارن Rougé Inscriptions Hieroyl. 131, 3.

(٢) قارن L. D. III, 194 كما قام رمسيس الثالث بنقش هذه القصة فوق جدران معبده بمدينة هابو.

الثاني من القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وليس من شك في أن تعبير الإله أنه تقمص صورة التيس قد نبا عن الذوق.



٣٨ - ولادة الابن الملكي ومن الآلهة الذي يساعدون الملكة خنوم، ورأسه على هيئة رأس كبش وحقت ورأسها على هيئة رأس ضفدعة (صورة في معبد الأقصر) انظر: **Gayet, Luxor, pl. 66**.

وما دام الملك قد ولد كإبن للإله فلا بد أنه لا يموت ميتة الآدمي، فإذا ما انتهت حياته السعيدة فهو يصعد إلى السماء ويندمج في كرسي الشمس التي خرج منها[١].

وهناك أشياء أخرى اكتسبها الملوك من تلك الحقيقة التي اعتبروها من خصائصهم كأولاد للإله وكائنات إلّهية؛ فهو يحمل فوق رأسه الصل مثله في ذلك مثل إله الشمس. والصل كما قلنا فيما سبق هو ذلك الثعبان الذي يحرق الأعداء بزفيره الناري، وأصبح الصل هو الرمز الملكي يضعه الملك فوق جبينه أو فوق تاجه. وأهمّ من ذلك أيضاً أن أصبح الملك كنتيجة لهذه الاعتقادات الرسمية يتصل خاصة بالآلهة؛ فهو منهم وهم آباؤه وهو ابن لهم. ومن الطبيعي أن علاقة البنوّة بينه وبين الآلهة لم تكن تعتبر أمراً جدياً، وكان كل إله أو إلهة في المعبد يخاطبه على أنه ابنه أو ابنها كما كان يدعوهما على أنهما أبوه وأمه. وقد جاء حتى في الزمن القديم أن التاسوع بأكمله وهو مؤلف من تسعة أشخاص

(١) قارن Urk, IV, 54.

قد أنجب الملك؛ حقاً إننا هنا في مجال ليست الكلمة فيه للعقل(*)، وعلى كل حال كان لهذه المعتقدات تأثير قويّ على الدين، ونخصّ بالذكر الملك كنصف إله، إذ كان سبباً في أن أصبحت الطقوس الدينية التي تتبع في المعبد غير مفهومة لدى الشعب بعيدة عن إدراكه. فالآلهة لم تكن آلهة الشعب بل كانت آلهة الملك ابنها. فهو الذي يشيد لها المعابد ويحضر لها القرابين، وهو صاحب الحقّ في رؤيتها، وإذا قام الكهنة بهذه الأعمال فإنما يقومون بها كممثلين له. وإذا ما أسبغت الآلهة على مصر طيباتها فلا يحدث ذلك من أجل الشعب بل حباً في ابنهم. وسوف نعود إلى هذه النقطة المبهمة من الدين المصري في الفصل الثاني عشر من كتابنا هذا.

وإذا كان هذا هو تأثير الملكية القوية على الدين بحيث أصبحت جزءاً منه، فهناك أيضاً بعض طبقات الشعب التي اتصلت بالدين ولعبت دورها المهمّ في تطوّره، ونخصّ بالذكر تلك الطبقة التي اعتبرت في مصر القديمة صاحبة النفوذ الأعلى في الدولة طبقة الكتاب أو قل الموظفين وأفرادها هم الذين يكتبون ويحسبون ويقاضون، ولقد اتخذوا من الإله تحوت إله القمر حامياً لهم. وهذا الإله هو الذي يقسم الزمن إلى شهور وهو الذي ينظمها. أي بمعنى آخر هو الذي ينظم شؤون العالم. وإذا كان إله الشمس هو حاكم العالم فإن «تحوت» هو أعظم الموظفين شأناً هو الوزير الذي يقف بجانبه على سطح سفينته ليتلو عليه شؤون الدولة[1]. هو «القاضي الذي يحكم في السماء»[2] ويقضي في منازعات الآلهة، ويتنبأ للآلهة والبشر بما سيحدث لهم، هو الذي يشيد المدن ويضع حدودها. ثم هو أيضاً العالم «سيد الكتب»[3] وربّ كلمات الآلهة، أي الكتابة

* وقد حدث في بعض الأحيان أن أحد حكام الأقاليم ممن لا يمتون للملكية بصلة ادعى بأنه ابن «تحوت» وأن التاسوع أنجبه وأنه من نطفة الإله رع.

(١) قارن الصورة على ص

(٢) Berlin, Aeg. Inschr II 41.

(٣) Pyr. IV 53.

المقدسة. فهو الذي أعطى الناس الكلمات والكتابة. ومن أخلص له يجزيه أحسن العطاء بأن يمنحه المعرفة ويعلم الكتَّاب الحساب[(١)] الصحيح، وهكذا كان «تحوت» ممثلاً لأعظم الناس شأناً في مصر، ومن أجل ذلك اعتبر (كما سنتحدث عن هذه النقطة في الفصل الحادي والعشرين) «هرميس مثلث العظمة» أعظم آلهة مصر طُرّا.

وكان للإله «تحوت» زميلة تقاسمه وظيفته ككاتب وعالم هي الإلهة «سشات» الكاتبة وسيدة دور الكتب - أي المكتبات[(٢)] - وكانت هي الإلهة الأولى

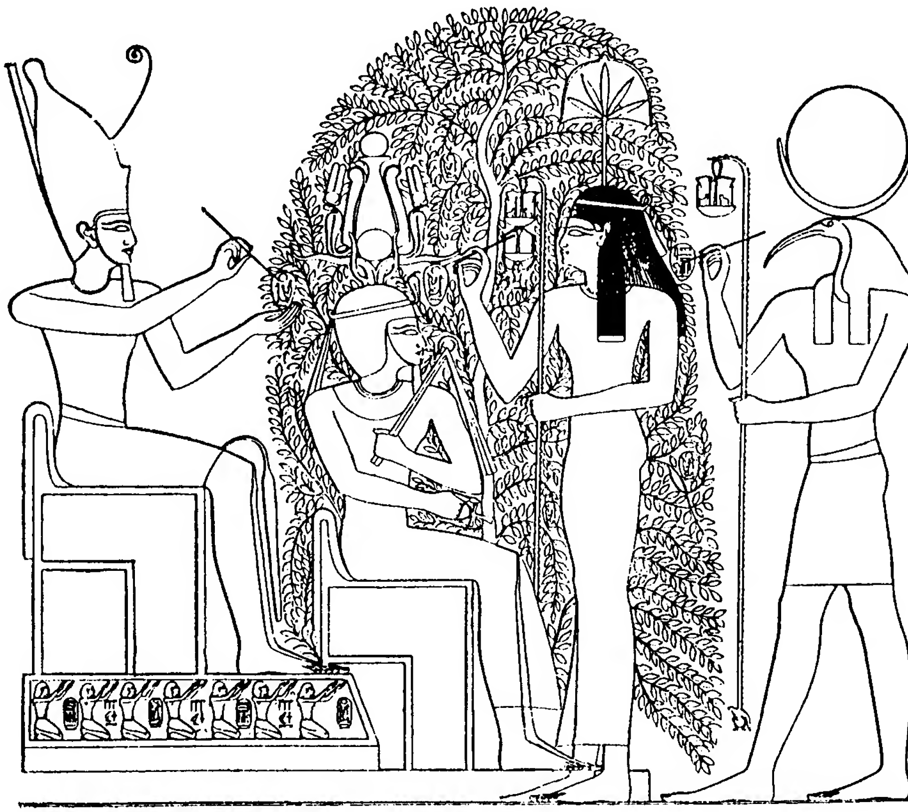


٣٩ - سشات من معبد سخورع
(الأسرة الخامسة)

التي كتبت[(٣)]، وقد كانت في الأصل هي الإلهة «نفتيس»[(٤)] ووظيفتها أن تسجل أعمال الملوك[(٥)] وتنقش أسماءهم على شجرة في معبد «هليوبوليس»[(٦)] بينما يقوم «تحوت» بتسجيل سني كل ملك على غصن طويل (راجع لوحة رقم ٢). وهناك زميلة أخرى تفوق الإلهة «سشات» في الأهمية هي الإلهة «ماعت» ربة

(١) Urk, IV, 20.
(٢) Urk. IV, 252.
(٣) وكذلك في معبد دندرة Düm. Geogr, Inschr, IV, 134.
(٤) Pyr. 616 حيث أطلق عليها لقب «رئيسة البنائين» ولا ندري سبباً في هذا الخلط لأن نفتيس لم نعرفها إلا في صورتها التي شهرت بها في قصة أزوريس، وعلى كل حال فقد خلط المصريون بين سشات وبين حاتحور وإيزيس.
(٥) قارن Borchardt, Grabmal des Sahure Taf, I.
(٦) L. D. III, 168.

الحقيقة التي تعرف أهل الطبقة الممتازة على آلهتهم - وهذه الإلهة لا تعتبر كائناً من لحم ودم، بل هي ذلك الشيء المجرّد «الحقّ والحقيقة» ولذلك نعتبرها من مظاهر الديانة المصرية التي تبعث على الاهتمام - ويصوّرونها كإلهة[1] تحمل شارة على شكل ريشة عقاب، ولا ندري السبب الذي جعلهم يختارون هذه الشارة بالذات[2]. ولم يصل تقديسها في العصور القديمة إلى درجة تشييد معبد



لوحة ١ - أتوم وسشات وتحوت يكتبون أسماء رمسيس الثاني على الشجرة المقدسة في هليوبوليس (من الرمسيوم L D. III 169).

(١) ويرجع عدم تصورها كإله إلى أن الإسم يعتبر مؤنثاً.
(٢) راجع Mariette, Dendara, 1.73 A; II, 26; III, 38.

لها تقام فيه الطقوس وتقدم القرابين، ولكنها حظيت بتقدير كبير في أوساط المتعلمين، ولا غرابة في ذلك «فالحقيقة» هي باستمرار أهمّ دعامة للكمال الخلقي في عالم تسوده الفضيلة. ولقد قال عنها أحد الملوك المصريين: «هي خبزي، وإني أشرب من نداها»[١]. وكان القاضي الأوّل والوزير يسمي نفسه كاهنها، ويحمل صورتها فوق صدره كشارة لوظيفته. ثم في آخر الأمر اندمجت في تلك المجموعة التي سميت بحاتحور ولقبت «ابنة رع» سيدة السماء، حاكمة القطرين، «عين رع التي لا مثيل لها»[٢]. ومع هذا يجب أن لا ننسى بأنها كانت في الأصل فكرة اصطنع الناس منها شخصية ـ حالها في ذلك حال فكتوريا عند الرومان ـ. وهناك طبقة أخرى متعلمة، غير طبقة الموظفين اتخذت لنفسها من مجموعة الآلهة حامياً خاصاً لهم. نقصد بذلك الأطباء الذين تمتع فنهم بشهرة كبيرة عند المصريين. فلو أنهم اتخذوا من تحوت قائداً لهم «فهو الذي يمنحهم الكلام والكتابة والذي يصنع لهم قوائم الأدوية (التذاكر الطبية)، ويكتب النجاح لكل من اتبعه من العلماء والأطباء[٣]، إلا أنهم اختاروا راعياً خاصاً بهم هي الإلهة «سخميت» إلهة منف على شكل الأسد[٤]. وفي العصور المتأخرة عندما أصبح الوزير القديم «أي أم حتب» إلهاً للأطباء جعلوا من سخميت أمّاً له.



٤٠ ـ معات (برلين ٩٤٦٨)

---

(١) Urk, IV 385.

(٢) من عصر رمسيس الثاني Berl. Aeg. Inschriften II, 317.

(٣) Ebers I, 8.

(٤) Ebers 99.2 وهناك طبيب الملك سحورع الذي أُطلق على نفسه اسماً يحوي اسم «سخمت».

وكذلك اختار الفنيون والصناع الذين لا تزال أعمالهم تفوز بتقديرنا وإعجابنا حتى الآن إلهاً يحميهم؛ فقد رعاهم بتاح إله ممفيس الذي كان هو نفسه فناناً بين الآلهة. وكان رئيس كهنته بمثابة القائد الأعظم للفنانين. ولقد وجههم هذا الإله بالفعل وخصوصاً إبان عصر الدولة القديمة حينما لعبوا دورهم المهمّ في حياة ملوك هذه الأسرة[١].

وإذا كنا لم نعثر على علاقات مماثلة لتلك التي ذكرناها بين بعض الطبقات الأخرى من الشعب وبين آلهة لهم، فإن لهذا ما يسوّغه، فمثلاً الجنود لم يلعبوا دوراً هاماً في مصر في العصور القديمة، كما أن الفلاحين وهم السواد الأعظم من أفراد الشعب لا بد أن كانت لهم آلهتهم التي تحميهم وترعاهم، ولكنهم لم يتركوا لنا وراءهم عمارات مشيدة أو آثار حجرية. ولكن الحال تغير في الدولة الحديثة وبدأنا نلاحظ تغلغل أفراد هذه الطبقات في الحياة الدينية.

ومما يبعث على الدهشة أن المصريين كثيراً ما تحدثوا ـ علاوة على آلهتهم المعينة عن «إله عام» ويحدث ذلك عادة في الأدب عندما يفكرون في تلك القوّة التي تتحكم في مصائر الناس. فمثلاً يقولون: «ما يحدث هو أمر الله»[٢]، «صائد الطيور يسعى ويكافح ولكن الله لا يجعل النجاح من نصيبه»[٣]، «ما تزرعه وما ينبت في الحقل هو عطية من عند الله»[٤]، «من أحبه الله وجبت عليه الطاعة»[٥]، «الله يعرف أهل السوء»[٦]، «إذا جاءتكم السعادة، حقّ عليكم شكر الله»[٧]. وربما كان المقصود بالله في كل حالة من هذه الحالات على حدة هو «إله

(١) قارن Urk. I, 38.

(٢) Erman, Litt, S. 89.

(٣) Erman, Litt, S. 104.

(٤) Erman, Litt, S. 9 i.

(٥) Erman, Litt, S. 97.

(٦) Erman, Litt, S. 112, 100.

(٧) Erman, Litt, S. 111, Urk. I. 39.

الشمس»[1] مثلاً أو «الملك»[2] أو «الكا»[3] التي سنتحدث عنها في الفصل الرابع عشر. ولكن على العموم لا بد وأن ساورتهم تلك الفكرة الغامضة عن الله وقدرته وجبروته. وهناك فقرة وردت في كتاب قديم من كتب الحكمة[4] تقول: «إن الله خفيّ ولذلك وجب على الناس تقديس صورته كبديل ه»، هذا إذا كان المصريون قد قصدوا ما فهمنا نحن من هذه العبارة.

هؤلاء القوم الذين كان هذا هو شعورهم وحديثهم لم يكونوا بمنأى عن العقيدة الحقة، ولو أنهم في واقع الأمر تعلقوا أيضاً بدينهم الموروث وبقوا عباداً أمناء لآلهتهم.

(١) Erman, Litt, S. 119.

(٢) Erman, Litt, S. 9 i.

(٣) Op. Cit S. 90.

(٤) Op. Cit. S. 118.

الفصل الخامس

أساطير الآلهة

تحدثنا فيما سبق عن الأساطير التي حيكت حول تلك المعبودات البسيطة فأبرزتها وغيرت من معالمها. وإن ذلك الفيض الكبير من الإرشادات والتعليقات التي نجدها في كل معبد والتي تفسر أعياده وتقصّ قصة لكل صورة من صوره لترينا إلى أيّ حدّ بلغت تلك الأساطير من ذيوع. ولأن المصريين منذ أقدم العصور يعشقون القصص الخرافي؛ لذلك نجد أن هذه القصص قد حيكت وتداولها الناس كأساطير محببة إلى نفوسهم قريبة إلى قلوبهم، لأن الآلهة فيها تشبهوا ببني الإنسان فهم يتعاملون ويحبون ويكرهون، ومن ثم فقد خلعوا عنهم ذلك الرداء الذي يجعلهم بعيدين عن متناول يد الإنسان، ويبدو أن القصاصين قد استجابوا إلى رغبة عامة الشعب وانزلقوا في هذه الإستجابة إلى أنهم ألصقوا بمعبوداتهم صفات لا تتفق مع جلالها وعظمتها، وهذا مما يثير دهشتنا إلى حدّ بعيد. وإذا حدث أن تحدث الناس بقصة معينة عن إله في مكان معين فلا تلبث هذه القصة أن تنتشر في البلاد تختلط تارة وتمتزج أخرى بقصص الآلهة الأخرى الخاصة بالأماكن المختلفة التي تنتشر فيها كما يحدث أيضاً أن تصبح بعض هذه الأساطير مشاعاً بين جميع المصريين.

وفي آخر الأمر لم يستطع الدين الرسمي الذي يعتنقه الكهنة ويمارسونه في المعابد أن يصمد لهذه الأساطير، فتسرّبت إليه الواحدة بعد الأخرى ولكن بعد أن نزع عن الكهنة بعض الأوهام التي ألصقوها بالآلهة، ولو أنهم لم يستطيعوا

انتزاع كل الصفات التي حاكتها هذه الأساطير حول الآلهة. فالإله «ست» مثلاً بقي معتبراً في المعبد كقاتل أزوريس، ولكن هذا الأخير لم يستطع أن ينزع من «ست» صفته كإله جبار قويّ. وبدأ تسرّب هذه الأساطير إلى الدين الرسمي منذ العصور القديمة واستمرّ بعد ذلك، وكلما ظهرت أسطورة جديدة بين الشعب وكتب لها الانتشار والذيوع كلما طالب أهل التقوى من الشعب ألا يحرموا منها في المعبد.

ولقد وصلتنا هذه الأساطير بصور مختلفة؛ فهناك الصورة التي قبلها الدين الرسمي وعلى أساسه تسرّبت إليه، وهي صورة بسيطة قصيرة ولهذا لم تكن واضحة. أما الصورة الأخرى فهي التي احتفظت بشعبيتها ولكن للأسف غالباً ترجع هذه إلى العصور المتأخرة، وأخيراً هناك تلك الأساطير التي أفقدها قصاصوها لونها الديني؛ فمن يقرأ قصة الأخوين الممتعة لا يستطيع أن يتصوّر أن هذين الفلاحين «أنوبيس» و «باتا» هما في الحقيقة ليسا إلا إلّهين، وذلك لأن ما بقي لهما من هذه الصفة لا يتعدّى اسميهما.

ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن هذه الأساطير جعلت من الآلهة كائنات حية لكل منها صفاته الخاصة. بل هي التي دفعت الناس إلى الشعور نحو البعض منها بالحبّ ونحو البعض الآخر بالكره والبغضاء؛ فالأساطير هي التي جعلت من «إيزيس» إلهة طيبة ومن «ست» إلهاً مكروهاً.

وإذا تساءل الإنسان عن العالم ونشأته فليس من شكّ أنه حاول الإجابة على ذلك متأثراً بما كان يلاحظه من مظاهر الطبيعة التي تتغير وتختل طوال العام. فتختفي حقول مصر مرّة عام في لجة من المياه لا تلبث أن تنحسر عنها رويداً رويداً، فاعتقد المصري أن الأرض أيضاً قد برزت من الماء، وتصوّروا أن مكاناً عالياً من الأرض كان أوّل ما ظهر على سطح ذلك الخضمّ القديم الذي سمـوّه «نون» وكان هذا المكان بمثابة بدء العالم، فهو التلّ الموغل في القدم أو كما قالوا: «التل المزدهر الذي ظهر في أوّل العصور» وحدّدوا مكانه في مواقع مختلفة من مصر.

وفوق هذا التل القديم ظهرت المعالم الأولى للحياة؛ إذ سكنت فيه الضفادع والثعابين وهي من الكائنات التي تتفق مع ما يغمر هذا المكان من ظلام ورطوبة، وسميت هذه الكائنات بأسماء استمدّت من طبيعة هذا المكان: الليل، الظلام، الاختفاء، الذبذبة وغير ذلك، وكان عددها ثمانية، ومدينة شمون تحمل أسماءها فاسمها يعني «الثمانية». وكان هناك شيء آخر فوق هذا التلّ الطمبي. شيء يتناسب مع طبيعة هذا العالم الطيني المجدب، هذا الشيء هو بيضة طائر مائي[١] خرجت منها أوزة استحال بخروجها الظلام الدامس إلى نهار واضح فهي الشمس التي طارت صائحة (ومن أجل ذلك سميت: «الصائحة الكبيرة») فوق سطح الماء. فكان ذلك بمثابة الضوء الأول والصوت الأوّل الذي أضاء الظلام الدامس، وانطلق في ذلك الصمت الأزلي الذي خيم فوق العالم.



٤١ ـ إله الشمس الشاب في زهرة اللوتس

وهناك أسطورة أخرى تقول بأن زهرة لوتس نبتت من الماء الأوّل[٢] وكان يجلس فيها طفل الشمس، ثم تضيف أسطورة ثالثة على ذلك فتقول: إن بقرة كانت تسبح في الماء[٣] وجلس فوق ظهرها إله الشمس الطفل. وهذه كلها

(١) Lacau, Textes Relig. S. 133.

(٢) Kees, Ag. Z. 57, 116 ff.

(٣) لعلهم هنا قصدوا بقرة السماء.

تخيلات استمدّها المصري من بيئته أثناء الفيضان. وفي هليوبوليس ظهرت تلك الأسطورة التي تقول بأن الشمس ظهرت هناك على الحجر المسمى بالبنين. أما ما حدث من تطوّر لهذه الأسطورة وكيف أن إله الشمس قد أخصب نفسه فولد الآلهة الأولى، ثم كيف تزاوجت هذه الآلهة فتكاثرت، وكيف خلق إله الشمس البشر من عينه، كل هذه سوف نسردها ونبحثها في الفصل المقبل عند حديثنا عن «اللاهوت» فهي كلها أشيـاء لا تعني الشعب بمثل ما تعني طائفة العلماء الكهنة.



٤٢ ـ شو يرفع نوت بينما يرقد جب إلى أسفل وعلى نوت سفينة الشمس (برلين ٨).

ولقد كان العالم الذي برز من الماء الأزلي لا يزال مضطرباً إذ لم تكن السماء قد انفصلت عن الأرض وكانت إلهة السماء نوت مستلقية فوق زوجها إله الأرض «جب» ولكن أباهما «شو» إله الهواء زجّ بنفسه بينهما ورفع السماء إلى أعلى ورفع معها كل حيّ خلق، أي كل إله «ومعه سفينته» فاستحوذت عليها نوت وقامت بتعدادها وجعلت منها نجوم السماء[١] ولم تستثن منها الشمس وأصبحت جميعاً يجبن بسفنهن جسم «نوت».

وهكذا كانت نشأة عالمنا هذا، إذ أنه منذ انفصال السماء عن الأرض اتخذ الكون وكائناته الشكل الذي نعرفه، ولم يكن هناك من اتصال بين العالم العلوي

(١) قارن Pyr. 785.

والآخر السفلي سوى «عظام شو[١] الذي تحمل ذراعاه الجميلتان نوت»[٢].

وبعد أن انفصل إله السماء عن الأرض عين إله الأرض حاكماً عليها «أعطى كب ما ورثه وسلمه التاسوعة بأكملها» (أي الآلهة الكبرى) وهكذا قالت الآلهة عن «كب» أميرنا، أمير الآلهة. إذا نادانا نهرع إليه ونصبح زملاء له يقضي بين الآلهة (كزعيم للتاسوعة) آباءه وأمهاته، وهو أقوى من كل إله[٣]. وهكذا حكم «كب» الآلهة فوق الأرض كما استقلت نوت بالسماء «فمدت سلطانها على الآلهة وعلى أرواحها وما ورثوه وعلى أقواتهم وما يملكونه»[٤].

ومن الغريب حقاً أن سيادة إله الشمس (الذي كان حاكم العالم) لم تعتبر من القضايا المسلم بها، فمنذ العصور الأولى اعتاد أطفال «الضعفاء» أن يكفروا بسيادته هذه[٥] وكانوا ينتظرونه في الصباح عند الشرق أي عندما يكون طفلاً ليمزّقوه إرباً فنشب قتال عنيف في كل مكان «في السماء وفوق الأرض» كان النصر فيه إلى جانب إله الشمس وقدمت له أفواج الأعداء في جزيرة اللهب في شمون، وهنا تستطرد الأسطورة[٦] فتزيد أعجـوبة لا نفهم مغزاها نحن: بعد أن انتصر رع على أعدائه ووضع الحقّ مكان الباطل دسّ بأنفه في زهرة لوتس ولم تكن هذه الزهرة سوى «نفر ـ تم» أحد الآلهة الصغرى في معبد ممفيس.

وفي هليوبوبيس عرف الناس أيضاً أن رع قد قتل الأعداء هناك ولكنه كان متقمصاً صورة قط كبير، وأن ذلك حدث بالقرب من شجرة لا شكّ أن الناس قد صوّروها في المعبد فيما بعد[٧].

---

(١) Pyr. 208, 393.

(٢) Pyr. 1471.

(٣) Pyr. 1618, 1619, 1645, 1834.

(٤) Pyr. 824.

(٥) Totb. 17. وقارن رسالة جرابو Grapow's Dissertation S. 36.

(٦) Pyr. 265. 266.

(٧) Totb. 17, 54.

وهناك ثورة أخرى حدثت أثناء حكم رع تعتبر أسطورتها أكثر حيوية وأكثر قرباً لما يحدث بين البشر(١).

لقد حدث أن بسط رع سلطانه على الآلهة والبشر. وبعد أن تقدم الزمن برع ودبت فيه الشيخوخة «فأصبحت عظامه من فضة، وأعضاؤه من ذهب وشعره من اللازورد الحقيقي» لاحظ الناس ذلك ودبروا له سوءاً، ولكن نواياهم هذه لم تخف عن الإله وقال لأحد أتباعه «ناد لي عيني» وكذلك «شو» و «تفنوت» و «كب» و «نوت» وكذلك كل الآباء والأمهات الذين كانوا معي عندما كنت في الماء «نون» وكذلك الإله «نون». . . . وعليك أن تقودهم إليّ في صمت حتى لا يراهم الناس فتهرب أفئدتهم، وعليك أن تحضر مع هذه الآلهة إلى القصر «وعندما أحضرت هذه الآلهة إلى هناك ورأته ارتمت على الأرض أمام جلالته قائلة «تحدث إلينا لنسمعك» فقال رع لنون: «أنت يا أقدم الآلهة، الذي منه خلقت، وأنتم أيتها الآلهة الأجداد. هل رأيتم بني الإنسان الذي خلقتهم من عيني كيف يأتمرون ضدي، صدقوني ماذا أنتم صانعون بهم. لم أود قتلهم قبل أن أسمع منكم ماذا ستقولونه أنتم». فتحدث جلالة الإله نون فقال: ابني رع، الإله الذي هو أعظم من أبيه وخالقه، ابق أنت جالساً على عرشك فإن الخوف منك لعظيم، وخصوصاً إذا ما صوّبت عينك نحو المتآمرين عليك».

وعندما صوّب رع عينه نحوهم هربوا إلى الصحراء وقلوبهم كانت تخشى عاقبة ما بدر منهم، ولكن الآلهة نصحوا رع بعد ذلك أن يرسل إلى المتآمرين عينه لتبطش بهم، فأرسل عينه التي نزلت إلى الأرض على هيئة الآلهة حاتحور، ثم رجعت هذه الإلهة بعد أن قتلت البشر في الصحراء، فحيا جلالة هذا الإله قائلاً: «أهلاً بحاتحور. . . .» فأجابته هذه الآلهة: «وحياتك لقد كنت جبارة مع الناس وهذا يسعد قلبي».

---

(١) هذه القصة وردت في كتاب «هلاك البشر» وهو كتاب يتعلق بأمور سحرية ورد مكتوباً على كثير من مقابر الملوك من عصر الدولة الحديثة كما ذكرت هذه القصة في حكم مري كارع قارن Erman, Litt, S. 119.

ولكن رع خشي أن تبيد حاتحور في اليوم التالي البشر ولذلك قال: «نادوا لي على التوّ رسلاً مسرعين يجرون مثل الظلّ». وفي الحال أحضروا له رسلاً من هذا النوع، وقال لهم جلالة هذا الإله: «أسرعوا إلى اليفنتين وأحضروا لي كثيراً جداً من «الديدى»، (ويبدو أنها مادة تصبغ إلى اللون الأحمر) وأعطوا هذا الديدى إلى الإله «ذي الضفيرة في هليوبوليس» وقام هذا الإله بطحنها على حين قامت خادماته بتحضير الجعة «البيرة» من الشعير، وخلطوا بعد ذلك الديدى مع الجعة فأصبح سائلاً يشبه «دم البشر» فملئوا ٧٠٠٠ إبريق من هذا الجعة، وحضر جلالة الملك رع مع الآلهة ليروا هذه الجعة، وعندما أصبح الصباح الذي ستقتل فيه هذه الآلهة الناس قال: «سأحمي الناس منها... فاحملوا هذا إلى المكان الذي تنوي قتل الناس فيه» فنفذوا هذا الأمر وصبوا الجعة هناك حتى غمرت الحقول وارتفعت عنها بمقدار أربعة أمتار. وفي الصباح خرجت الآلهة ووجدت المكان مغموراً ورأت وجهه معكوساً على السائل بشكل جميل فشربت منه واستطابت طعمه وقفلت راجعة وهي ثملة فلم تتعرّف الناس».

وإذا كان الإله العجوز قد حفظ بني الإنسان من الهلاك إلا أنه لم يرغب في البقاء سيداً على هذه المخلوقات الناكرة للمعروف ولقد قال متململاً «وبحياتي لقد تعب قلبي من وجودي معهم» وهنا تدخل نون العجوز في الأمر ونادى على ابنته «نوت» التي على شكل بقرة وجلس رع على ظهرها فرفعته إلى السماكين وتكوّنت بذلك السماء، ولكن عندما ألقت نوت بنظرها إلى أسفل «ارتعشت من شاهق الارتفاع» فنادى رع الإله «شو» وقال له: (ابني «شو» ضع نفسك تحت ابنتي «نوت» وخذها فوق رأسك) فنفذ «شو» ما أمر به وسند منذ ذلك الحين بقرة السماء التي تلمع النجوم على بطنها وتتحرّك الشمس فوقها في قاربها هنا وهناك.

ويحدثنا كتاب التعاويذ نفسه (الذي نقلنا عنه هذه الأسطورة) عن القمر ونشأته فيقول بطريقته التي عرفناها فيما سبق: «عندما كان رع يسكن السماء قال مرّة: نادوا لي تحوت، فأحضروه إليه في الحال، فتحدث جلالة هذا الإله إلى

تحوت قائلاً: «فلتكن أنت في السماء في مكاني إبان تلك الفترة التي أُضيء فيها الدنيا السفلى. . . فأنت في مكاني هذا كنائب عني، ولسوف يدعوك الناس بنائب رع» ويصاغ حديث رع هذا في أسلوب يعتمد على اللعب بالألفاظ فينشأ عن ذلك أشياء مختلفة فهو يقول: «وسوف أجعلك تحتضن (ionh) السماء بجمالك وبأشعتك فينشأ عن ذلك القمر (ioh)»، ثم في مناسبة أخرى خاصة بتحوت كنائب لرع، يقول: «سأرسل (hob) إليك من يفوقك عظمة، فنشأ «ايبس» (hib) طائر تحوت».

وانتشرت في كثير من الأساطير المصرية طريقة اللعب بالألفاظ وهي التي أدت إلى نشأة أشياء كثيرة، ويمكن لنا أن ننسب هذه الظاهرة إلى اهتمام المصريين وتعلقهم بتحميل اللفظ الواحد معاني كثيرة يحوي كل معنى شيئاً من كنه هذا الإسم، فمثلاً «إله الشمس» كإسم أعطى صاحبه صفتين «الذي خلق نفسه» و «الذي أنشأ اسمه»[١].

والتاريخ الذي نسرده هنا يتعلق بأسطورة «عين الشمس»، وعين الشمس هذه كما شرحنا ذلك فيما سبق كانت هي النجم نفسه، ورأى فيها الناس أيضاً ذلك الكائن المخيف الذي أوقف نفسه على خدمة رع، وأحياناً كانت عندهم كواحدة من الآلهات العظمى.

ولقد لاحظنا وسوف نلاحظ ذلك أيضاً على الصفحات التالية أن هذه العين كانت تعتبر مستبدة، وهناك قصة وصلت إلينا ولكن للأسف لم نفهم منها إلا نصفها[٢] تتحدث عن هذه الصفة: وحدث ذات يوم أن أرسل رع عينه في مهمة (لا بد وأن كانت مكافحة بعض أعدائه) ولكنها لم ترجع فأرسل «رع» لإحضارها

---

(١) Totb. ed. Naville 17.6.

(٢) قارن Budge, Nesiamsu S. 168 if. هذا الكتاب وضعه بعض رجال السحر في العصور المتأخرة، وكانوا أنفسهم لا يفهمون المصادر التي نقلوا عنها فهماً تاماً، ومن أجل ذلك راجع النص القديم في Totb. 17 وكذلك Grapow, s Dissertation S. 30 ff.

كلاً من «شو» و «تفنت» فأغضبها ذلك كل الغضب، فبكى «رع» ومن دموعه كانت البشرية ـ وهنا نجد لعباً بالألفاظ بين «رميت» بمعنى دموع و «رميت» بمعنى البشر، ثم «زاد حمق العين عندما رجهت ووجدت عيناً أخرى قد نمت في مكانها» وعندئذ (كما أحاول أن أفهم ذلك من النص) وضعها الإله على جبينه كثعبان ـ ومنذ ذلك الوقت حكمت عين الشمس العالم بأجمعه، ولا غرابة في ذلك فإن هذا الثعبان الذي حمله «رع» فوق جبينه هو رمز قوّته. أما «شو» فأصبح هو الآخر منذ ذلك الحادث يسمى «أونوريس» أي الذي أحضر البعيدة[١].

وهناك نصّ جميل يتحدث عن أسطورة اعتبرت فيها عين الشمس بمثابة بنت للإله؛ فأحياناً يسميها مدفوعاً بحبه العظيم لها «درتي» وأحياناً أخرى «عيني» ولما ماتت[٢] طلبت إلى أبيها في موتها أن يسمح على الأقلّ لصورتها أن ترى الشمس مرّة في كل عام. هذه الأبنة كانت هي «حاتحور» ـ أي عين الشمس ـ واعتاد الناس حمل صورتها في معبدها بدندرة والصعود بها إلى سطح المعبد لكي ترى إله الشمس.

ومن الأسطورة التي ذكرناها، والخاصة بعين الشمس التي أرسلت في مهمة ثم أعيدت مرّة أخرى، اشتقت قصة وصلت إلينا من المعابد التي ترجع إلى العصر اليوناني[٣] في مصر، ويبدو أنها كانت قد انتشرت بين الناس انتشاراً كبيراً: سكنت الآلهة «تفنت» في صورتها كلبوءة متوحشة الصحراء النوبية وكانت تمزّق أعداءها إرباً والنار تشعّ من عينيها وتخرج من فمها، ثم أراد «رع» أن تكون بالقرب منه، فأرسل إلهين في طلبها هما أخوها «شو» الذي كان أيضاً على شكل أسد جبار و «تحوت» إله الحكمة والطلاسم ـ وتقمص هذان الإلهان صورة

---

(١) راجع Sethe, Sonnenauge S. 26, Junker Onurislegende S. 5.

(٢) Dekret Von Kanopus Z. 28, 55, Herodot II, 129 - 132.

(٣) اكتشفها يونكر وطبعها في Abh. Berl. AK. 1911 وراجع أيضاً Sethe, Sage von Sonnenauge von وكذلك Junker. Onurislegened.

قردين ورحلا إلى بلاد النوبة حيث تقابلا مع اللبؤة في الصحراء، وتقدم «تحوت» في صورة قرد صغير أمام ذلك الحيوان الجبار (كما يظهر ذلك في منظر على جدران «معبد «دكه») وبدأها بحديث ودي عن الحياة وجمالها في مصر وعن استعداد المصريين تقديم أنواع صيد البرّ والنبيذ إليها، فرقت الآلهة لحديثه



لوحة ٣ ـ تحوت في هيئة قرد، يغري تفنوت بالعودة إلى مصر
(لخاف من عهد الدولة الحديثة، برلين ٢١٤٤٣)

ورافقتهما إلى مصر، وفي «فيله» أقصى الحدود الجنوبية لمصر أطفأت نارها[1] في مياه المكان المقدس فتحوّلت من لبوءة إلى إلهة جميلة ـ وهلل الجميع لها واستقبلوها وأقاموا لها الحفلات ثم رحلَت شمالاً على ظهر سفينة وتوقفت في أماكن عديدة وفي كل مكان استقبلت بالتهليل والفرح، فنزلت في «أومبوس» وفي «ادفو» وفي «الكاب» و «إسنا» وخصوصاً في «دندرة» التي أصبحت منذ ذلك الوقت مكانها المختار. ولا غرابة في ذلك فهي ليست إلا الإلهة «حاتحور» أي الإلهة التي احتفل بها الناس تارة كـ «سخمت» الشريرة، وتارة أخرى كـ «باستت» الطيبة.

ومما يدل على اعتزاز المصريين بهذه القصة في العصور المتأخرة أنهم جعلوها إطاراً لمجموعة شعبية من قصص الحيوان، حفظت لنا عَلى بردية من العصر الروماني[2] وفي هذه القصص تقطن أيضاً الإلهة «ابنة رع» وتُعتبر أيضاً «قرص الشمس الكبير» بلاد النوبة، وكانت تظهر على شكل الأسد في حالة غضبها، وإلا فإنها تتخذ شكل القطة «باستت». أما «تحوت» وهو يظهر على شكل القرد (وهو الحيوان الذي يتفق معه راجع ص ٧١). وتسبب مهمته له حرجاً كبيراً؛ إذ أن الآلهة تهدد هذا الرسول المسكين بالموت وذلك لغضبها الشديد على أبيها الذي من أجله اضطرت إلى ترك مصر، ومن الغريب أنها احتفظت بصورتها على شكل القطة مع أنها كانت غاضبة، فأخذ «تحوت» يكرّر لها خطأها أن تقتل كائناً ضعيفاً لأن الإنسان لا يعرف ما يجيئه به القدر. وربما تحتاج إلى معونته. وضرب لها الأمثال. ومنها قصة الأسد والفأر، وحدثها بأن لكل سيئة عقابها، ثم نوّه أيضاً بمصر وطنها حيث عاشت مرّة عيشة طيبة كإلهة عبدها الناس أجمعين وحيث يسود الناس الآن الحزن والقلق، وأقلع الجميع عن الفرح والموسيقى، وعندئذ بدأت القطة في البكاء وانهمرت دموعها غزيرة كالمطر ـ ولكن ما فتئت أن انتابتها ثورة غضب مرّة أخرى وتحوّلَت إلى لبوءَة

---

(١) قارن Jurken, Abaton S. 78.

(٢) Spiegelberg Mythus vom Sonnenauge.

«يتصاعد من حرارة معرفتها الدخان وأصبح ظهرها بلون الدم، وكان وجهها يبرق كالشمس وعيونها تتقد من النار. . . وغمرت الصحراء بأتربة تصاعدت من ضرب ذيلها إياها، ولكن القرد عرف كيف يزيد هذه الثورة بتملقه، فتحوّلت مرة ثانية إلى قطة أخذ يقصّ عليها أساطير أخرى هدأت من نفسها وطيبت مزاجها، وانتهى الأمر بها أن رضيت مرافقته إلى مصر، وما وصلت إلى هناك حتى اتخذت الإلهة في كلّ موطن من مواطنها الصورة القديمة لها. فتحوّلت في مدينة الكاب إلى العقاب «نخبت» (ص ٨٥) وفي طيبة إلى الإلهة «موت» (ص ٥٨) وفي آخر الأمر تحوّلت إلى «تفنوت» وتصالحت مع أبيها رع. ولقد حدث أن تهددها خطر كبير في مصر؛ ففي أثناء نومها دنا منها الثعبان الضخم «أبو فيس» فخلصها منه القرد الذي كان يجلس عند رأسها قائماً على حراستها، وهكذا كان في ذلك تحقيق للعبرة التي قصها عليها في أسطورة الأسد والفأر.

ووصلتنا هذه الأسطورة ـ كما أسلفنا ـ عن طريق نصوص ترجع إلى العصر المتأخر، ولكن لا بد وأن تكون هذه الأسطورة منتشرة على الأقل في عصر الدولة الحديثة؛ إذ أن هناك رسماً على قطعة خزفية يرجع إلى عهد هذه الدولة وحاول الفنان أن يصوّر عليها القطة وقد جلس أمامها القرد يغريها على العودة إلى مصر.

وأسطورة الإله أوزيريس تفوق كل الأساطير التي تحدثنا عنها فيما سبق، إذ تغلغلت في الدين منذ العصور الأولى[١]، بل وأثرت على بعض نواحيه، ولو أن هذه الأسطورة في أصها بسيطة لا تتعدّى قصة ملك طيب قتله أخوه الشرير،

---

(١) وهناك دليل غريب يثبت لنا إلى أي عصر مبكر ترجع هذه الأسطورة. فعندما بدأ المصريون ينظمون «تقويمهم» حوالي عام ٤٢٤١ ق. م سموا أيام النسيء الخمسة بأسماء الآلهة الخمسة الواردة في قصة أوزيريس. ولقد حدث ذلك في مدينة هليوبوليس. وفي الواقع لقد استقر هؤلاء الآلهة الخمسة في مدينة هليوبوليس في عصر مبكر جداً، وذلك لأن تاسوع هليوبوليس لم يتكون إلا من إضافة آلهة أسطورةأوزريس إلى الآلهة المحلية (راجع كتاب إدوارد ماير Chronologie ص ٩٠).

فأحضرت زوجته جثته ونجحت في أن تردّ إليه الحياة ولكن ليست كاملة، ثم عكفت على تربية ابنه في كتمان مطلق، حتى إذا ما ترعرع وصلب عوده انتصر على قاتل أبيه وجلس على عرشه. وهي كما نرى قصة جميلة فهم الشعب مغزاها الطيب. ويبدو أن هذه القصة انتشرت من موطنها الأصلي وهو شمال الدلتا[1] على أفواه القصاصين إلى جميع الأرجاء المصرية وأصبحت من بين التراث القومي للشعب المصري مثلها في ذلك مثل أساطير حرب طروادة عند الإغريق، وكذلك أثرت أسطورة أوزوريس على الديانة المصرية تأثيراً بيناً، بحيث أصبحنا لا نتصوّر هذه الديانة بدون قصة أوزوريس.

والآن ما هي العوامل التي أكسبت أسطورة أوزوريس كل هذه القوّة؟ العامل الأول كان بلا شك هو الاعتقاد بأن الاستبداد والتعسف ليسا هما القوّتان اللتان تسودان العالم، بل الحقّ والإخلاص. ثم العامل الثاني كان الاعتقاد بانتصار الإله المقتول على الموت. فلو أنه قد مات حقاً إلا أنه قد استرجع الحياة، ولو أنه تنازل عن حقّ السيادة على الأحياء إلى ابنه حوريس إلا أنه أصبح سيداً على الموتى، أولئك الذين كانوا مثله يستحقون التمتع بحياة ثانية. ومن الواضح أن هذه كلها كانت أفكاراً يتمسك بها الشعب المصري منذ أول عصوره، ولكن هذه القصة كانت بمثابة المثل الواضح الذي تبلورت فيه هذه الأفكار وأصبحت لهم بمثابة الحقيقة الواقعة وأخذ كل مصري ينسج لنفسه حياة على منوال أوزوريس وإيزيس.

ولقد حدث أن اختلطت بعض الأشياء بقصة أوزوريس في عصور مبكرة لا تمتّ بصلة ما لها. فمن البديهي مثلاً أنه إذا كان الاسم الذي أطلقته القصة على

---

(١) ومما يرجح نشأتها في الدلتا أسماء الأماكن الواردة فيها، كما أن إيزيس كانت قد أخفت رضيعها في مستنقعات الدلتا، وكذلك مدينة «ددو» مسقط رأس عبادة أوزوريس هي إحدى مدن الدلتا، بل مقاطعة عنجدتي هي إحدى مقاطعاتها.

* عن تفاصيل هذه الأسطورة في صيغتها التي سادت في منف، انظر الفصل السادس (صفحة ١٠٧).

الأخ الشرير لأوزوريس هو «ست» وعلى الابن المظفر له هو حوريس، فذلك يرجع إلى الإلهين القديمين «ست» سيد أومبوس و «حوريس» سيد بحيدت، وخاصة لأن كليهما كانا من بين الآلهة المحبة للقتال. وما دام الأمر كذلك فيجب أن يدمجا في القصة. وكذلك كان الحال مع «العين» التي قدمها حوريس إلى أبيه فهي في الأصل «عين حوريس» أي القمر الذي اعتقد الناس يوماً ما أنه عين إله السماء حوريس. وهكذا لقد حدث لقصة أوزوريس ما يحدث عادة لكل أسطورة شعبية كلما انتشرت بين الناس واستتب بها الأمر كلما استوعبت فيها الكثير من المعتقدات التي تفيض بها قلوب الشعب، ولو أنها لا تمتّ بصلة لقصتنا هذه.

ولو قدّر لقصة أوزوريس أن تحيا بين الشعب مدة طوية دون مؤثرات لاتخذت شكلاً مغايراً لما عرفناه عنها، ولكن هذه القصة اعتبرت من صلب الديانة الرسمية للبلاد في عصر مبكر، وهكذا وقف تطوّرها وأصبحت منذ ذلك الوقت ثابتة الأصول ولو أن بعض تفصيلاتها تغيرت على مـرّ آلاف السنين، وعلى المرء ألا يسأل عن القواعد التي بنيت عليها هذه القصة كأسطورة؛ كما أننا سوف لا نتساءل نحن هل كان هناك حقيقة ملك بشري يحمل هذا الإسم، أو إلى أيّ حدّ تتعلق هذه الأسطورة بمظاهر الطبيعة: أي بجفاف الحقول ثم بدبيب الحياة فيها بعد الفيضان مرّة كل عام.

ولقد تحدثنا في ص ٧٢ عن الصور المختلفة الخاصة بأوزوريس بعد أن أصبح إلهاً؛ فتارة صوّروه كماء الفيضان، وتارة اعتبروه هو الأرض ثم عبدوه كإله للموتى. ولا نودّ هنا أن نتحدث عن هذه الصور، بل سنقصر الحديث على قصته كما وصلت إلينا من عصور مختلفة.

ولقد وردت في أقدم المتون الدينية بعض التلميحات لهذه القصة لا تتفق مع ما عرفناه عنها؛ فمثلاً نجد أوزوريس ابناً للإله «كب» والإلهة «نوت»، وأن أخوه «ست» الشرير كان يتعقبه، وشاركه في هذه المؤامرة[1] أخ آخر هو

(١) راجع Pyr. 163, 173, 175.

«تحوت» وتمكن «ست» من أن يهزم[١] أخيه وقتله[٢] ثم رمى به في النيل فسبحت جثته في الماء وكان لونها أخضر وأسود، ومن هنا أتت تسمية البحار تارة «بالأخضر الكبير» وتارة أخرى «بالأسود الكبير»[٣]، وعندما اختفى أوزوريس حزنت الآلهة بأجمعها وبكت إيزيس وصرخت نفتيس. أما إلهة مدينة بوتو - وهي موطن أوزوريس الأصلي «فقد أخذت تضرب لحومها وأذرعتها ونفشت شعورها»، والإلهان الوحيدان اللذان لم يبكيا هما «ست» و «تحوت»[٤]. أما الجثة فقد بليت، ولكن «نوت» أم أوزوريس انحنت عليها «فضمت عظامها بعضها إلى بعض وأعادت القلب إلى الجسم ثم وضعت الرأس في مكانه[٥]. أما إيزيس ونفتيس فقد بحثا في كل مكان حتى عثرا على الجثة الملقاة في الماء، فأمسكت إيزيس بها وأخرجتها[٦] وأسرعت الآلهة لمساعدتها، فرفع رع رأسه[٧] وأمروه بأن يستيقظ فاستيقظ أوزوريس واستقبل حياة جديدة، فهو «الذي هجر النوم وكره التعب»[٨] وهكذا لم يتعفن جسد أوزوريس ولم يَبْلَ[٩].

أما عن حوريس وكيف وضعت بذرته، فقد تصوّرها الناس كما يأتي: تحوّلت إيزيس إلى طائر حطّ فوق جثة زوجها وحملت منه[١٠]، ثم وضعت

---

(١) Pyr. 1007.

(٢) Pyr. 1477.

(٣) Pyr. 628 ff., 1630.

(٤) Pyr. 163.

(٥) Pyr. 318, 825, 828. وفي الواقع أن ضم أجزاء الجسم بعضها إلى بعض، وكذلك «إزالة التراب» عن الفم بواسطة الإله جب، إنما ينتمي إلى صيغة أخرى ورد فيها أن الجثة تبلى في الأرض.

(٦) Pyr. 1630, 584.

(٧) Pyr. 1500, 72 i.

(٨) Pyr. 72 i, 260.

(٩) Pyr. 1500.

(١٠) Pyr. 632, 1636 وقارن الرسوم المنقوشة فوق جدران معبدي أبيدوس ودندرة Mar. Dend. IV 88.9.

حوريس وتعاونت مع نفتيس على تربيته، وترعرع حوريس الطفل «الذي يضع إصبعه في فمه»[١]، وتقاتل مع قاتل أبيه الذي انتزع منه عينه - وهنا تلميح إلى القمر كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق - كما انتزع حوريس منه خصيته[٢]. ولكن بعد أن انتصر حوريس فإنه استرجع عينه من ست[٣] «وألصقها بأبيه أوزوريس وفتحها له لكي يرى بها»[٤]، وهذه التضحية كنتيجة للحبّ البنوي جعلت أوزوريس يحيى ويقوى[٥] حتى أوقع الرعب في قلوب أعدائه[٦]. وهناك رأي آخر يقول بأن الإبن أعطى الأب ليأكل أيضاً[٧]. وعندما دعى كب الآلهة للاجتماع في قصر الأمراء بهليوبوليس للمحاكمة لم يقرّ ست بالحقيقة[٨]. ولقد شهدت إلهتا الحقّ المحاكمة كما دعي شو كشاهد. «وقرّرت إلهتا الحقّ أن عرش كب هو له»[٩]. أما حوريس فقد جعل ست ينحني تحت أوزوريس[١٠] فيحمله بذلك إلى الأبد[١١]، واستولى أوزوريس على كل تيجانه وأجلسه كب على عرشه[١٢]، وهكذا حكم كإله ليس له أعداء[١٣] «وانتهى الحزن وعاد الضحك»[١٤].

---

(١) Pyr. 663.

(٢) Pyr. 1463.

(٣) Pyr. 1242.

(٤) Pyr. 609 / 643.

(٥) Pyr. 578.

(٦) Pyr. 614.

(٧) Pyr. 192.

(٨) Pyr. 957, 958.

(٩) Pyr. 317.

(١٠) Pyr. 650.

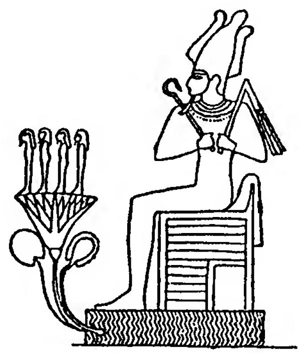
(١١) Pyr. 1,99.

(١٢) Pyr. 845,649.

(١٣) Pyr. 25,765,1607.

(١٤) Pyr. 1989, 1009.

بقي علينا أن نتعرّض لقصتين فقط من تلك المجموعة الهائلة من القصص التي حيكت حول أسطورة أوزيريس. وتتحدث إحدى هذه القصص عن أن إيزيس قطعت أيدي حوريس وقذفت بها في الماء[1]، وعندما أرادوا استعادة هذه الأيدي دعوا سوبك وهو الإله على شكل التمساح ولكنه لم يتمكن في بادىء الأمر العثور عليها واضطرّ أخيراً أن يستعين بشبكة الصيد ليلتقطها. وكانت هذه الشبكة تعتبر كنز سرّي محفوظ في معبد هيراكونبوليس.



٤٣ ـ أبناء حورس على زهرة في بحيرة، يجلس على حافتها أوزيريس (Totenb. ed. Nav. I, 136).

وأهمّ من هذه قصة أولاد حوريس الأربعة وهم: أمستي وحابي ودواموت. اف وكبح سنو. أف. ويقولون إن حوريس قد أنجبهم من أمه نفسها[2]، ولقد عهد إليهم أنوبيس بالقيام بدفن أوزوريس «فغسلوا أوزوريس ثم بكوه وفتحوا فمه بأصابعهم النحاسية ليتمكن من أن يأكل ويتحدّث ثانية»[3]، ولقد كان أولاد حوريس هؤلاء حقلاً واسعاً ترتع فيه تخيلات الشعب المصري فاعتقدوا أنهم

(١) Totb. 113 naeh Sethe A. Z. 58, 57 folg. وهذه هي نفس القصة التي يرجع إليها بلوتارك (Plutarch, de Is. cap. 20).

(٢) Totb. ed. Nav. 112 nach Tb. (A. Z. 58,4).

(٣) Pyr. 1983, Totb. 17.37.

كنجوم يمكن العثور عليهم في السماء[١]، وكما سترى فيما بعد في الفصل الخامس عشر اعتبرت الأحشاء في رعايتم. ويبدو واضحاً من بعض الرسوم التي تصوّرهم أنهم اعتبروا في أساطير أخرى قد نشأوا في زهرة لوتس ثم تفتحت عنهم.

وتعتبر النماذج التي وصلتنا من العصر المتأخر عن حياة أوزوريس ونصيبه منها أقوى وأمتع مما تحدثنا عنه من أساطير مقتضية من العصور القديمة. لقد أنجب إله الأرض «كب» وإلهة السماء نوت أربعة أطفال: ولدين هما أوزوريس وست، وابنتين هما إيزيس ونفتيس، تزوّجت الأولى من أوزوريس، والثانية من ست. وحكم أوزوريس العالم كملك وعلم الناس كل طب مفيد «وورّثه كب فأعطاه ملك القطرين[٢] . . . . وأسند إليه قيادة البلاد لسعادته وسلمه هذه الأرض في يده: ماءها وهواءها ونباتها وقطعانها وكل ما يطير وكل ما يسبح في الفضاء وديدانها ووحوشها، كل ذلك أعطى لابن نوت وسعدت مصر بذلك. وكان أوزوريس ملكاً عظيماً، ، وسطع على عرش أبيه كالشمس عندما تشرق في السماء فترسل بأشعتها لكل من يعيش في الظلام» وكان عادلاً «ثبت من أقدام الحقيقة في مصر» وحيثما تكون الحرب يظفر بإنهائها لأنه كملك يلقب بـ «الذي يسوّي المعارك الدامية»[٣]، ثم بجانب ذلك كان بطلاً من أبطال الحروب «واسع الشهرة إذا ما أوقع بأعدائه، قويّ الشكيمة إذا ما أردى عدوه قتيلاً. وكان أعداؤه يرتجفون أمامه، وعمل على توسيع رقعة بلاده» وكذلك كان مبرزاً في سيادته على الآلهة «كمرشد لكل إله بأوامر صائبة مدحته التاسوعة الكبرى (من الآلهة) وأحبته التاسوعة الصغرى» ولم يتحدث هذا النصّ عن السبب الذي أوغر صدر «ست» منه. وربما اعتبر السبب منطقياً لا يحتاج إلى تنويه، فما دام هناك في

---

(١) .L. D. III 170 - 17 i, Totb. 17,42

(٢) ولقد اعتمد في كل ما نقوله في هذا الموضوع على أنشودة أوزوريس المنقوشة على لوحة رقم ٢٠ المحفوظة في المكتبة الوطنية، راجع Legrain 21 - 28.

(٣) راجع (m. R) Lovre C 2.

أسرة ملكية أخوان أحدهما يملك فليس من شكّ في أن يصبح الثاني عدواً له. وكلّ ما نعرفه أن «أوزوريس» حجب «ست» ويبدو أن ست لم يستطع أن ينال أخاه بسوء لفترة طويلة، ولا غرابة في ذلك فإيزيس كانت تحميه «فهي حاميته التي تدفع أعداءه عنه وكانت ذكية؛ لسانها سليط وبديهتها حاضرة، وكانت أوامرها محكمة»، ولذلك تحايل ست على قتل أخيه ونجح في ذلك. وإذا صدقنا ما قاله «بلو تارك» فقد استدرج أخاه ودعاه ليضطجع في صندوق على سبيل المزاح ثم يقفل الصندوق ويقذفه في البحر.



٤٤ - إيزيس تحمي أوزيريس بجناحيها (برلين ١٣٧٧٨)

وهكذا بقيت إيزيس وحيدة مسكينة لم تعرف حتى أين المكان الذي استقرّت فيه جثة زوجها «وبحثت عنه دون ملل، وجابت الأرض كلها والهموم تملأ صدرها ولم تدع للقنوط سبيلاً آلى قلبها إلى أن عثرت عليه. ثم جلست مع أختها نفتيس بجانب الجثة وأخذتا تولولان بالنشيد الآتي[1] الذي أصبح فيما بعد أنموذجاً لكل الأناشيد الجنائزية، وهو: «ارجع إلى منزلك! ارجع إلى منزلك! أيها الإله «أون» عُدْ إلى منزلك، أنت الذي لا أعداء لك. أيها الشاب الجميل.

(١) راجع .Pap. 3008 des Berl. Mus

ارجع إلى منزلك، لتراني، فإني أختك التي تحبها. ويجب ألا أفقدك. أيها الطفل الجميل عُدّ إلى منزلك. . . . إني لا أراك الآن ومع ذلك فقلبي يفيض حباً لك، وعيناي تتلهفان عليك. . . . عُدْ إلى تلك التي تحبك. التي تحبك يا «أون نفر» المبرور أو المنعم. عد إلى أختك، عد إلى زوجتك. إلى زوجتك أنت الذي جمد (وقف) قلبك. عُدْ إلى زوجتك فإني أختك من أمّ واحدة فجيب ألا تبعد عني فالآلهة وبنو البشر يتوجهون إليك باكين إياك. أناديك وأبكيك حتى يسمع صوتي في السماء ولكنك أنت لا تسمع صوتي. وبينما أنا أختك التي أحببتها على الأرض ولم تحبّ غيرها يا أخي، يا أخي».

وهكذا ندبته وعطف عليها أسمى الآلهة مكاناً؛ إذ أرسل إليها رع ابنه الرابع أنوبيس فنزل إليها من السماء[1] لكي يدفن أوزوريس، فجمع أشلاء الإله التي لم يبقَ منها غير العظام (كما ورد في بعض النصوص المتأخرة) أو التي مزّقها «ست» ثم طواها في لفائف وأتمّ كل المراسيم التي أصبحت فيما بعد نموذجاً يحتذي به المصريون. أما إيزيس فروّحت بأجنحتها فهبّ الهواء ودبت الحياة في جسم الإله الميت[2] وحرّك ذراعه ثم انقلب على جانبه ورفع رأسه، ولما كان من الصعب عليه أن يحيا فوق الأرض حياته الأولى، لذلك أصبح لزاماً عليه أن يحيا حياة ثانية. وبذلك صار مَلِكاً للموتى بعد أن كان ملكاً للأحياء. ولكن النصر كان حليفه أيضاً فوق الأرض(إذ ترك لها وريثه الذي أنجبه من إيزيس.

فعندما حملت إيزيس هربت من مطاردة «ست» لها إلى أحراش الدلتا، وهناك وفي هذا المكان الموحش حيث ظهرت فيما بعد مدينة Chemmis وضعت ولداً هو: حوريس الذي «رضع في هذه الوحدة ولا يدري إنسان أين

(١) راجع Mitt. aus den Oriental - Samml. IX, II, 17 ويعتبر أيضاً أنوبيس ابن أوزوريس من زوجته نفتيس.

(٢) .Mar. Dend. IV 63 ff., 88 ff.

مكانه» ولقد عطفت عليها الإلهة «بوطو» حامية الدلتا وكم هددت الأخطار هذا الصبيّ حوريس ولكن كان باستمرار ينجو منها بيقظة وعناية أمه «إيزيس» ولم يكن أحبّ إلى المصري من تلك الصورة التي تمثل الإلهة الأم وعلى حجرها رضيعها. وهكذا ترعرع حوريس في الخفاء حتى «إذا ما اشتدّ ساعده قام يقاتل ست» ولقد كان قتالاً رهيباً فقد فيه حوريس عينه وتشوّه فيه «ست»، ولكن «تحوت» خلصهما من بعضهما البعض وطببهما.



٤٥ ـ إيزيس مع حوريس مختفيان في أحد الأحراش

وعندما انتصر حوريس قادته أمه «إيزيس إلى قاعة كب» فحياه الآلهة المجتمعون هناك فرحين قائلين: «أهلاً بك حوريس يا ابن أوزوريس. أيها الشجاع. مخلص حقه ابن إيزيس ووريث أوزوريس» ولكن ست رفع أمره إلى المحكمة طاعناً بشدة (كما ورد ذلك في الوثيقة اليونانية) في صحة ميلاده، وأيضاً في أحقيته في الوراثة. فعقد الآلهة الكبار جلسة «في قاعة كب» وفحصوا الشكوى، إلا أنهم أداروا ظهورهم للباطل. إذ أنهم وجدوا أن الحقّ بجانب حوريس فأعطوه ما كان لأبيه «فخرج متوّجاً تبعاً لأمر كِب وأصبح حاكماً للقطرين وبقي التاج فوق جبينه»، ولقد كانت هذه القضايا تنظر باستمر في «القاعة الكبرى بهليوبوليس»؛ فمثلاً تؤكد المصادر المصرية أن أوزوريس قد تقدم أمام هذه المحكمة للدفاع عن تهم وجهها إليه «ست» وأعداؤه الآخرون، إلا أن تحوت دافع عنه وأظهر براءته، فحكمت الآلهة على ست وأعلنت نصر أوزوريس الذي وضع قدمه فوقه ثم ارتفع أوزوريس إلى السماء حيث حكم هناك ـ وإذا اعتقد الإنسان أن العالم الثاني كان تحت الأرض فيكون مكانه في الأعماق حيث حَكَم الموتى «كذلك الذي يأتي إليه الجميع ممن كانت تدبّ فيهم الحياة فهو الوريث

المحبوب للإله كب ملك مصر العليا والسفلى «أون نِفر»[1] المرحوم[2] فهو أول أولئك الذين سكنوا الغرب أي «الموتى» بينما كان ابنه حوريس أوّل الأحياء الذين حكموا الأرض. وبه يبدأ عصر الدنيا الحالية. ولا غرابة فكل ملوك مصر ليسوا سوى خلفائه الذين جلسوا على عرشه.

وليس من شك في أن القارىء سوف يلاحظ من هذه الكلمة القصيرة إلى أيّ حدّ اختلفت قصة أوزيريس عن القصص الأخرى ولماذا كانت أحبها إلى قلوب المصريين الذين ارتاحوا إلى ما فيها من مشاعر بشرية وإلى نزوع أوزيريس إلى الحقّ وإلى ولاء إيزيس لزوجها وحبها لابنها ثم إلى تقوى حوريس الطفل.

والفصل الأخير من هذه الأسطورة والتي يتعلق بالكفاح بين حوريس وست قد وصفته لنا قصة كتبت في العهد المتأخر من عصر الدولة الحديثة[3] غير أن هذه القصة لا تتحدث عن الكفاح الأصلي الذي أصيب فيه كل منهما بجروح، وإنما تعرض الأمر ـ على نحو ما ورد في الرواية القديمة ـ كأنه نزاع قانوني، أو قل إنه قضية أقامها أحدهما ضد الآخر بكل ما يتبع ذلك من إجراءات قانونية، وبمعنى آخر قد كان هذا إجراء بعيد عن القوّة والخشونة يفهمه المصري الذي قطع شوطاً بعيداً في التحضر والتمدن. وفي الحقّ يبدو كل شيء في هذه القضية وقد طبع بطابع الإنسانية المتحضرة، كما تبدو الآلهة كأنها بشر[4] ـ وفيها صوّر لنا حوريس كابن فقد أباه، ولولا ما اتصفت به أمه من مكر ودهاء لتعقدت الأمور أمامه وأصابه مكروه. أما «ست» فصوّر كرجل حقير متعسف يخافه

---

(١) هذا الإسم هو اسم أوزيريس كملك لعالم الموتى، ثم بعد ذلك أصبح يطلق على الأفراد، ولقد شاءت الصدفة أن يبقى هذا الإسم لأحد القديسين (سان أنوفريو).

(٢) Siut, I, 234.

(٣) حفظتها بردية بيتي (قصة حوريس وست) وقد علق عليها ونشرها جاردنر. وسنرى فيما بعد أن هذه القصة لم تنشأ في وقت متأخر وهو ما يمكن أن تدل عليه نغمتها.

(٤) فمثلاً يملك «ست» حديقة يقوم على خدمتها بستاني ويزورها «ست» كل يوم وذلك علاوة على بيت.

ويخشاه كل الآلهة إلا «رع حوراختى» «سيد الجميع» الذي رأس جلسات المحكمة، فقد كان يميل إلى انتصار «ست» واعتبره كساعده الأيمن في سفينة الشمس يقتل الأعداء أثناء رحلتها.



٤٦ ـ حوريس على هيئة ملك

وتكونت المحكمة من كلا التاسوعين، أي من أكثر الآلهة جلالاً واحتراماً (انظر ص ١٣٧) وكان يقود مناقشتها «شو أونوريس» ودوّن محاضرها «تحوت» أما «اتوم» إله هليوبوليس ـ وهو الذي يأتي ذكره أحياناً بجانب «رع. حور آختى» ـ فنعتبره كدرجة عليا تقف على الحياد أثناء نظر القضية، ومثله في ذلك مثل الملك بالنسبة إلى الوزير.

ولقد استمرّ انعقاد المحكمة ثمانين عاماً دون أن تستطيع إصدار الحكم، والواقع أن المسألة كانت دقيقة، فهي تتعلق بمعرفة ما إذا كان حوريس الذي ولد بعد وفاة أبيه هو حقيقة ابن له[١].

وعندما اقتنع شو أنوريس، ابن رع، بأحقية حوريس نادى آمراً بأن يُعطي له منصب أبيه، وعندئذ أعلن تحوت أن ذلك «صحيح مليون مرة»، ثم صاحت

(١) Plutarch, de Iside Kap. 19.

إيزيس عالياً من الفرح ونادت الريح الشمالي قائلة: «اذهب إلى الغرب، وأبهج نفس «أون ـ نفر» (أي أوزوريس) بهذا الخبر»، ولكن رع كرئيس كان له رأي آخر، فلاذ بالصمت وكان الغضب يتملكه من التاسوع، بيد أن ست صاح طالباً أن يطرد خارجاً مع حوريس وسيريه حينئذ ماذا يستطيع أنِ يفعله، وفي الحقّ فإنه قد أطبق عليه بيده، ولكن تحوت قال: إنه ليس في الإمكان إعطاء منصب أوزوريس لأخيه ما دام يوجد ابن له من صلبه، فغضب «رع. حور. آختى» غضباً شديداً لأنه كان يرغب في إعطاء المنصب لست.

ولقد صاح أنوريس: ماذا نحن فاعلون؟ وعندئذ اقترح أتوم إحضار كبش منديس لكي يكون حكماً، ولا شك أن سبب ذلك يرجع إلى أن هذا الإله الخاصّ بالنسل هو خير من يستطيع أن يعرف ما إذا كانت صحة نسب حوريس تستند إلى أساس صحيح، ولكن كبش (تيس) منديس لم يرد أن يتدخل في هذا الأمر، واقترح إخراج الطرفين وطردهما وكتابة خطاب إلى نيت العظيمة، أمّ الإله، على أن ينفذ بعد ذلك ما تشير به، فوافق الآلهة على ذلك وعهد إلى تحوت بالكتابة إلى نيت باسم أتوم.

وجلس تحوت وكتب خطاباً بأسلوب القصر ختمه بهذا السؤال: «ماذا سنفعل بهذين الرجلين اللذين ظلا واقفين طوال ثمانين عاماً أمام هذه المحكمة؟»، فكان الجواب الذي وجهته نيت للآلهة واضحاً غاية الوضوح: «اعهدوا بمنصب أوزوريس لابنه حوريس ولا ترتكبوا ظلماً كبيراً، وإلا فإني سأغضب وستسقط السماء على الأرض»، واقترحت فوق ذلك أن يأخذ سيت بصفة تعويض عنت وعشترت الابنتان الأجنبيتان لرع.

وعندما وصل خطاب نيت قرأه تحوت أمام الآلهة فأعلن الجميع في صوت واحد: «أن هذه الآلهة على حق». بيد أن سيد العالم غضب على حوريس وقال له: «إن جسمك ضعيف جداً، وإن هذا المنصب لثقيل جداً عليك أيها الغلام السيء».

وعندئذ استاء أونوريس جداً وكذلك التاسوع كله في طبقتيه، وبقي رع

حور آختى وحيداً، واجترأ «بابا»، وهو إله ضئيل الشأن، على السخرية منه بأن قال له: «إن محرابك فارغ» فأثارت هذه الدعاية غضب الآلهة الأخرى فصاحت: «اذهب»، ثم تركوا المحكمة وذهبوا إلى مخيماتهم.

ولكن نفس رع كانت مليئة بالحزن، فألقى رع بنفسه على الأرض من فرط استيائه، وأمضى الإله العظيم يوماً بأكمله مستلقياً على ظهره في قاعته والحزن يملأ قلبه، والوحدة تحيط به. على أن حتحور، سيدة شجرة الجميز الجنوبية حضرت إلى والدها سيد الجميع ومكثت عنده وكشفت عن عورتها، فانفجر الإله ضاحكاً وقام واتخذ مكانه في وسط التاسوع العظيم.

وقال لحوريس ولست: «تكلما»، وعندئذ قال ست. عظيم القوّة، ابن نوت: «ألست أنا أقوى من في التاسوع؟ إني أقتل كل يوم عدوّاً لرع حور آختى، واقف في مقدمة سفينة الملايين، وهذا ما لا يستطيع إله آخر أن يفعله، وإني لحريّ إذن أن آخذ منصب أوزوريس». وعندئذ قالت الآلهة: «إن ست لعلى حقّ» ولكن أوزوريس[1] وتحوت صاحا صياحاً عالياً وهما يقولان: «أيُعطى المنصب لأخ الأم، على حين يوجد ابن من صلبه على قيد الحياة؟». فأجاب كبش (تيس) منديس، الإله العظيم الحيّ: «أيعطى هذا المنصب لهذا الشاب، على حين أن ست أخاه الأكبر لا يزال موجوداً؟» فصاح التاسوع في مواجهة سيد العالم: «ما هذا الكلام الذي تقوله، إنه جدير بألا يسمع». وقال حوريس: «إنه ليس عملاً طيباً إن تهوّن من شأني هكذا أمام التاسوع وأن أجرد من منصب أبي» وعندئذ غضبت إيزيس من التاسوع وأقسمت «بحقّ حياة أمي نيت، وبحقّ حياة بتاح تاتنن، صاحب الريش المرتفع، سوف توضع هذه الأقوال أمام أتوم، ذلك العظيم المقيم في هليوبولس، وكذلك أمام خبري الذي يقيم في سفينته» وعندئذ قال التاسوع لها: «لا تغضبي فإن الحقوق ستعطى لمن يستحقها، وسيعمل بكل ما تقولين» وعندئذ غضب ست من التاسوع لأنه قال هذه الكلمات لإيزيس،

---

(١) هكذا في الأصل الألماني، وربما كان المقصود هو أنوريس ـ المعرب.

وقال له: «سآخذ صولجاني الذي يبلغ طوله ٤٥٠٠ ذراع، وسأقتل كل يوم واحداً منكم» وأقسم ست لسيد الجميع بأنه لن يبقَ في المحكمة ما دامت إيزيس باقية فيها.

وبعد هذا القسم قرّر رع حور آختى أن ينقل المحكمة إلى «الجزيرة الداخلية» وأمر ملاح الجزيرة بألا يسمح بعبور أية امرأة يمكن أن تشبه إيزيس، وبعدئذ انتقل التاسوع إلى الجزيرة وجلست الآلهة تتناول طعامها.

ولكن إيزيس اختفت في شكل امرأة عجوز تسير وقد انحنى ظهرها وتحمل في أصبعها خاتماً من الذهب واقتربت من الملاح وقالت له: «إني أحضر إليك ومعي إناء من الدقيق لصغير يرعى الماشية في الجزيرة منذ خمسة أيام وقد اعتراه الجوع».

لم يرغب الملاح الملاح أن يعمل شيئاً لأنه تلقى أمراً بألا يسمح بعبور أية امرأة، ولكن إيزيس قالت له: «أهذا بسبب إيزيس؟ سأعطيك هذا الخبز». ولما استمرّ الملاح في إصراره على الرفض أعطته خاتمها الذهبي، فنقلها بالرغم من قرار الحظر.

وعندما مرّت إيزيس تحت أشجار الجزيرة لمحت التاسوع يتناول طعامه مع سيد الجميع في قاعته، وعندئذ لمحها ست من بعيد، فتلت صيغتها السحرية وتحوّلت إلى شابة جميلة ذات قسمات ومحاسن رائعة جميلة لا يوجد مثيل لها في جميع أنحاء البلاد، وعندئذ وقع الإله في حبها وترك الأكل واتجه نحوها، لأن أحداً لم يرها سواه، ثم أخفى نفسه وراء شجرة ونادى: «إني هنا أيتها الفتاة الجميلة» فأجابت: «يا سيدي العظيم، لقد كنت زوجة راعي قطيع وأنجبت له ولداً، غير أن زوجي توفي وتولى ابني رعي ماشية أبيه، ولكن أجنبياً حضر وجلس في حظيرتي وقال لابني: «سأضربك وسآخذ ماشية أبيك وأطردك»، هكذا قال، ولكني أودّ أن تكون له حامياً ومعيناً». فقال لها ست: «أتُعطي الماشية لرجل أجنبي، على حين يوجد ابن الرجل على قيد الحياة؟» وعندئذ تحوّلت إيزيس إلى طائر وطارت واستقرّت في أعلى قمة شجرة سنط وصاحت

به: «الخزي لك، إن فمك نفسه قد قالها، وإن مهارتك نفسها قد حكمت عليك، فماذا تريد بعد ذلك؟» عندئذ ارتبك ست وذهب والعار والخزي يجللانه إلى رع حور آختى، فقال له الأخير: «هل لديك من جديد؟» فأجابه ست: «إنها هذه المرأة الشريرة التي عادت من جديد لتسيء إليّ» وقصّ عليه قصته واعترف له أيضاً بأنه قال: «لا تعط الماشية(*)، لرجل أجنبيّ ما دام الابن لا يزال موجوداً، ويجب أن يضرب الأجنبي على وجهه بالعصا ويطرد خارجاً»، وعندئذ قال رع حور آختى: «أجل إنك أنت الذي حكمت على نفسك بنفسك، فماذا تريد بعد ذلك»؟

وبناء على تعليمات ست أحضر أيضاً الملاح، وكان إلهاً صغيراً، أمام التاسوع وعوقب وأصبح الذهب إلى هذا اليوم ملعوناً مكروهاً في مدينة هذا الإله بسبب خاتم الذهب.

وبعد ذلك غادر الآلهة الجزيرة واستقرّوا فوق جبل الشاطىء الغربي، بيد أن رع حور آختى وأتوم (وقد أشير إليهما هنا بوضوح على أنهما شخصان) كتبا معاً كتاباً إلى التاسوع قالا فيه: «لماذا تجلسون هنا؟ وماذا تعملون هنا؟ إنكم تتركون الشابين يقضيان حياتهما في المحكمة. عندما يصلكم كتابي عليكم أن تعطوا حوريس التاج الأبيض وأن تنصبوه في مكان والده». فاغتاظ ست، ولكن التاسوع قال له: «لماذا تغضب ألا يجب أن نفعل ما يشير به أتوم ورع حور آختى؟» وعندئذ وضع التاج الأبيض على رأس حوريس، ابن إيزيس. فأخذ ست يصرخ وقال غاضباً: «أتعطون المنصب لأخي الأصغر على حين أني أنا أخوه الأكبر ما زلت موجوداً؟». وأقسم قائلاً: «إنه سينزع التاج الأبيض من على رأسه ويلقي به في الماء حتى يمكنني أن أقاتله بشأن السلطة». ولقد وافق رع حور آختى من جديد على الاقتراح، وعندئذ تحوّل الإثنان إلى فرسي بحر وكان

* الكلمة التي استخدمت هنا للماشية لها معنى مزدوجاً، فهي تعني أيضاً «وظيفة»، وقد قصدت إيزيس هذا المعنى.

عليهما أن يقفزا ويغوصا في عرض البحر، والذي لا يستطيع منهما أن يبقى تحت الماء أكثر من ثلاثة شهور يخسر الرهان. ولكن إيزيس بكت وقالت: «إن ست يقتل ابني» وعملت بنفسها سنّارة ورمتها في الماء، ولكن السنارة أمسكت بخناق حوريس، فصرخ ورجا إيزيس أن تأمر سنارتها بتركه، فاستجابت إلى طلبه وعملت ما أراده، ثم ألقت بالسنارة من جديد في الماء، ولكن في هذه المرة أمسكت بست، فصاح: «ماذا فعلت لك يا أختي إيزيس؟» ورجاها أن تخلصه من السنارة أيضاً فهو أخوها بحقّ، من نفس أمها، وأن إيزيس لا يمكن أن تفضل عليه الأجنبي (ويشير هنا ست بلا شك إلى الابن غير الشرعي المزعوم) فأشفقت عليه إيزيس وأمرت السنارة بأن تتركه أيضاً.

ولكن حوريس غضب من أمه وخرج من الماء وهو ينظر بشراسة كالفهد وقطع بسلاحه رأس إيزيس وأخذه تحت ذراعه وصعد إلى الجبل، وعندئذ اتخذت إيزيس شكل ملكة من الصوان من غير رأس(*). ورأى ذلك رع حور آختى فسأل تحوت: «ما هذا الذي يأتي إلى هنا من غير رأس؟» فأجاب تحوت: «إنها إيزيس العظيمة، أمّ الإله، لقد فصل ابنها رأسها عن جسدها»، وعندئذ صاح رع حور آختى بالتاسوع: «دعنا نذهب ونعاقبه بكل قسوة»، ثم صعدوا إلى الجبل وبحثوا عن حوريس وكان قد استلقى مستخفياً تحت شجرة في بلد الواحة ونام، ولكن ست وجده وضربه وانتزع عينيه ودفنهما في الجبل فنبتتا في شكل زهرتين.

وأعلن ست لرع حور آختى أنه لم يجد حوريس، على حين أنه قد وجده. فذهبت حاتحور ووجدت حوريس نائماً في الصحراء يبكي. فاصطادت غزالة وحلبت منها لبناً وضعته في العين اليمنى وفي العين اليسرى فشفي. وعندما أبلغت حاتحور الخبر لرع حور آختى استدعى التاسوع حوريس وست أمام

---

* يتفق هذا مع أية صخرة كانت تبدو كأنها «إيزيس بغير رأس». وفضلاً عن هذا ينقص هذه القصة جزء هام تعرفه من بردية Sall. IV 2.6 - 3,6 ومن بلوتارك، فقد منح تحوت إيزيس رأساً جديدة، وهي رأس بقرة، وقد تعودت حملها بصفتها إيزيس ـ حاتحور.

المحكمة ووجه رع حور آختى الكلام إليهما معاً قائلاً: «اذهبا، فقد سمعنا ما كان عليكما أن تقولاه. كلا واشربا فإننا فرحون قانعون وضَعا حداً لهذه المعركة التي ما فتئتم تبدأونها كل يوم». وعندئذ دعا ست حوريس إلى منزله، وعندما أقبل الليل أُعدّ لهما فراش، ولكن ست اعتدى على الشاب اعتداء منكراً.

وهذه الفعل المنكر الذي اقترفه ست، والحيلة التي أفلحت بها إيزيس في إنقاذ ابنها من هذه الفضيحة والخزي، كلّ هذا مشروح بدقة وتفصيل لا يمكن سرده هنا[١].

وعندئذ اقترح ست اقتراحاً جديداً لتسوية النزاع وإنهاء المعركة، بأن يبني قاربان من الحجر يبحران بهما، فمن يبلغ منهما نهاية الرحلة بسلام يحصل على منصب أوزوريس. أما حوريس فقد صنع لنفسه قارباً من خشب الأرز وطلاه بالجير وألقى به مساء في الماء دون أن يلاحظ ذلك أحد، ولكن ست كان يعتقد أنه من الحجر، فذهب إلى الجبل واقتطع قمته ونحت منها قارباً طوله ١٣٠ ذراعاً، وعندما صعدا على ظهر سفينتيهما أمام التاسوع فإن سفينة ست غاصت في الماء وتحوّل هو إلى فرس بحر دمر سفينة حوريس، غير أن حوريس تمكن من أن يطعن خصمه بوساطة مزراق بطريقة بلغ من عنفها أن تدّخل التاسوع طالباً الرحمة والعفو عنه.

وعندئذ أبحر حوريس على سفينته حتى بلغ سايس وذهب لزيارة نيت العظيمة، أم الإله، والتمس منها المعونة لأن قضيته قد استغرقت ثمانين عاماً واعترف بصحة دعواه ألف مرّة، ولكن ست لم يهتم بحكم التاسوع. ولا نعلم بماذا أجابت نيت على هذه الشكوى، وأخيراً اقترح تحوت كتابة خطاب إلى أوزوريس وذلك لكي يحكم بينهما، ووافق الجميع على ذلك،، وعندئذ كتب تحوت خطاباً لأوزوريس زينه بكل عبارات البلاغة والبيان الخليقة برسالة ملكية

(١) إذا استثنينا هذه القصة، فإن اللواط يكاد لا يظهر في مصر القديمة، فيما يبدو أن الغرض هو تصوير «ست» تصويراً سيئاً للغاية.

سائلاً الإله عما ينبغي اتخاذه بشأن حوريس وست، وعندما وصل الخطاب إلى أوزوريس صرخ عالياً وكتب الردّ الآتي في الحال إلى الآلهة: «لماذا تخطئون في حقّ ابني حوريس؟ ألست أنا الذي أقوّيكم وأخلق القمح والشعير لكي يكون غذاء للآلهة، والماشية بعد الآلهة؟ ولم يستطع أيّ إله آخر أو آلهة أخرى أن يفعل ذلك».

وعندما وصل جواب أوزوريس هذا إلى رع والتاسوع كتب رع لأوزوريس على جناح السرعة: «آه! إذا كنت لم توجد وإذا كنت لم تولد فإن القمح والشعير كانا يوجدان وينموان مع ذلك»، وقد أجاب أوزوريس على خشونة رع حور آختى بنفس السخرية معلناً أن كل ما يفعله رع وكلّ ما يبدعه التاسوع حسن جداً وجميل، ولكنه (مشيراً بذلك إلى حظه ونصيبه هو) يضيف إلى ذلك أنه إذا اختفت الحقيقة وغرقت في العالم السفلي، فإن رع يجب عليه مع ذلك أن يفكر فيما يتعلق به على وجه خاص. ألا يوجد في البلد الذي يقيم فيه أوزوريس رسل لها نظرات مرعبة لا تخاف أيّ إله أو آلهة. وقال: «إني سأجعلهم يخرجون ليرهبوا قلوب أولئك الذين يقترفون الشرّ، وعندئذ سيكون عليهم أن يكونوا هنا معي، وفي الحقّ ما فائدة وجودي هنا وبقائي في الغرب، على حين تظلون جميعكم في الخارج، من منكم أقوى مني؟، ولكنهم يخطئون ويكذبون، فعندما خلق بتاح السماء ألم يقل لنجوم السماء: «سوف تستريحون في كلّ ليلة في الغرب حيث يحكم أوزوريس كملك» وفضلاً عن الآلهة فإن الناس والشعب يجب عليهم أن يستريحوا حيث تكون أنت، هذا ما قاله لي».

وعندما وصل خطاب أوزوريس لسيد الجميع وللتاسوع قرأه عليهم تحوت فقالوا: «إن كل ما قاله صحيح جداً، فهو سيد الطعام».

وأخيراً أعلنت المحكمة أحقية حوريس، وعندئذ كلف أتوم إيزيس أن تحضر ست مقيداً بالأغلال ولامه على عدم إذعانه لقرارات المحكمة، فأذعن ست وترك لحوريس منصب أبيه، فاعتلى حوريس عرش أوزوريس وتوّجوه بالتاج الأبيض وحيت إيزيس ابنها كملك طيب على البلاد.

وأخيراً تساءل بتاح فيما عسى أن يكون من أمر ست، وقد ظفر حوريس بالعرش، فأعلن رع حور آحتى بأن عليهم أن يعهدوا إليه بست لكي يضعه في منزلة الإبن وأن يُسمع صوته في السماء وأن يخشاه الجميع[١]. وهكذا انتظم كل شيء وابتهجت السماء والأرض بأكملها.

وكل من يقرأ هذه القصة الطويلة بكل ما فيها من دعابات وفحش، من حقه أن يتساءل عما إذا كان يحقّ لنا أن نقربـها حقاً من أسطورة أوزوريس التي كانت تستمتع بأهمية عظيمة في نظر الشعب المصري. بيد أننا لا نعرف هذه القصة إلا من مخطوط من القرن الثاني عشر، ولذلك فقد يداخلنا الشك في أنها لم تكن إلا مجموعة من قصص ساخرة لمؤلف واحد، استخدم فيها أشخاص آلهته.

على أن هذا الشك لا يكاد يستند إلى أساس صحيح، إذ أن بعض أجزاء من هذه القصة وصلت إلينا عن طريق مصادر أخرى في صورة مماثلة تماماً، فمثلاً الجزء الخاص بأفراس البحر وقطع رأس إيزيس[٢]، وكذلك قطعة أخرى من القصة أطول حفظت لنا في بردية ترجع إلى عهد أقدم بستة قرون[٣]، وهذه القطعة تتضمن بالضبط ذلك الجزء من القصة الذي اخترنا أن نغفل ذكره بسبب ما فيه من فحش في القول، ولهذا فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى الاعتقاد بأن هذه القصص كانت تتعلق بالأساس وتتناقلها الأفواه فماً عن فم، إنما تتناسب وتتفق مع حاجات المستمعين، فالطبقات الدنيا من الشعب تجد لذتها في غير ما تجد فيه الطبقات الراقية. وهكذا تشمل الأسطورة الجَدّ والسخف والطيب والخبيث، وتلك صفات ينتمي كل منها إلى الأسطورة سواء بسواء، وترينا أسطورة

---

(١) وفي رواية أخرى (Sall. IV, 9,4 - 6) ينال ست الأرض الحمراء، أي بلاد الصحراء، نصيباً له.

(٢) Sallier, IV, 26 ff. وكذلك راجع Plutarch de Iside Kap. 20.

(٣) Pap. Kahun, Taf. 3.

أوزوريس بنوع خاص في أحدث صيغة لها وهي ترجع إلى العصر اليوناني كيف تقبلت الطبقات المختلفة من الشعب فصولها المختلفة. وفي الكتاب الذي خصصه لها بلوتارك[1] حذف كثيراً من التفصيلات التي رآها غير لائقة بل نابية، ومع ذلك فقد كان أحد كبار المخلصين لعبادة إيزيس، وإنه إذا كان كل شيء قد حدث حقاً كما هو مكتوب، فإنه لا يتبقى لنا ـ إذا اتبعنا أسلوب آشيل في الكلام إلا أن نبصق ثم نطهّر فمنا. والشيء الذي أعجب بلوتارك واستثار شوقه على وجه أخص في هذه الأسطورة هي الحوادث والمظاهر التي يمكن تفسيرها بأسلوب وطريقة فلسفية.

وسنرى في الفصل الثاني والعشرين مظهر أسطورة أوزوريس في ثوبها الأكثر رقياً وتهذيباً عندما نتكلم عن انتشارها في أوروبا.

ولنستعرض في إيجاز في خاتمة هذا الفصل الطويل قصة آوزوريس كما قرأها بلوتارك في الكتاب الذي زوده بالأساس الذي اعتمد عليه في تصويره لعقيدة إيزيس[2].

لقد لعن رع نوت حتى لا تستطيع أن تلد في أي شهر من شهور السنة، ولكن هرمس ترفق بها فخلق أيام النسيء الخمسة[3] التي لا تدخل ضمن أيّ شهر من الشهور، وبهذا تمكنت من أن تلد في هذه الأيام أبناءها الخمسة: أوزوريس وحوريس وست وإيزيس ونفتيس.

وعند ولادة أوزوريس ارتفع صوت من معبد طيبة معلناً أن الملك العظيم

---

(١) .Plutarch de Iside Kap. 20

(٢) سنحتفظ هنا لكل من ست وتحوت بالإسمين اللذين استخدمهما بلوتارك وهما تيفون وهرمس.

(٣) من العقائد القديمة أن الآلهة الأوزيرية الخمسة ولدت في أيام النسيء الخمسة، انظر مثلاً Pyr, 1091 وفي هذا دليل ملحوظ على قدم أسطورة أوزوريس، وعندما ابتدع التقويم عام ٤٢٤١ ق. م كانت هذه الآلهة معروفة في هليوبوليس. راجع $Ed. Meyer 1^2, 197$.

الخير قد ولد. وعندما استولى على السلطة عني بالناس وغير الطريقة البدائية في الحياة التي كان الناس قد ألفوها من قبل حتى ذلك الوقت، وأدخل زراعة الفواكه وأعطى الناس القوانين وعلمهم كيف يعبدون الآلهة ويقدسونها، وأخذ يجوب البلاد جميعها دون حاجة إلى حرب، وكان لا يجتذب الناس إلا بالتلطف والإغراء والموسيقى[1].

ولم يحدث في غيبته أيّ شرّ، لأن إيزيس زوجته كانت يقظة ساهرة، بيد أن تيفون الذي كان يتقد صدره بالغيرة، دبر مؤامرة ضد أوزوريس اشترك فيها اثنان وسبعون رجلاً وأخذوا في تنفيذها عقب عودة أوزوريس، فقد صنع صندوقاً رائعاً بحجم أوزوريس تماماً وعرضه في خلال مأدبة ووعد مداعباً بإهدائه لمن يستطيع أن يملأه تماماً، فلم يوافق الصندوق تماماً أحداً إلى أن جاء الدور على أوزوريس فنام فيه، وعندئذ أسرع في الحال أتباع «ست» المتآمرون ووضعوا الغطاء وأغلقوه بالمسامير وألقوا بالصندوق في النيل، وظل عائماً حتى بلغ البحر. وعندما اختفى أوزوريس، هكذا حزنت عليه إيزيس حزناً عظيماً وأخذت تجوب البلاد بحثاً عنه ودلها بعض الأطفال على الجهة التي انساق إليها التابوت لأنهم كانوا قد رأوا بطريق الصدفة كيف ألقى أتباع تيفون بالصندوق في البحر. ولقد علمت إيزيس فوق ذلك بأن الصندوق قد جنح إلى شاطىء فينيقية عند مدينة جبيل (ببلوس) ونبتت شجرة نمت بسرعة واحتوته في داخلها، بيد أن ملك جبيل أعجب بضخامة هذه الشجرة واتخذ من جذعها الذي يضم الصندوق عموداً يدعم سقف قصره. وعندما بلغت الإشاعة إيزيس سافرت إلى جبيل وجلست باكية في حالة شديدة من الذلّ والمسكنة بجوار نبع. وكانت لا تكلم أحداً ولا تلاطف إلا خادمات الملكة. فكانت تصفف شعورهن وتعطرها بالطيب الجميل الساطع الخاص بها. فعندما لاحظت الملكة الطيب الذي يفوح من خادماتها

---

(١) راجع Plutaréh, de Is. الفصل ١٣. وهناك مصدر آخر يوناني يتحدث عن غزوات أوزوريس.

أمرت بإحضار المرأة الأجنبية واتخذتها نديمة لها ومرضعة لطفلها. بيد أن إيزيس كانت تعطي الطفل إصبعها لا ثديها، وعندما جنّ الليل حرقت الأجزاء الفانية من جسمه وتحوّلت هي نفسها إلى عصفورة اخذت تحلق نائحة حول العمود الذي يخفي جثة أزوروريس. وحدث أن الملكة[1] اكتشفت أن طفلها يرقد في النار أثناء الليل، فصرخت وبذلك فقد الطفل خلوده. وعندئذ كشفت الإلهة عن نفسها ونزعت العمود من تحت السقف وأخرجت الصندوق من باطن الشجرة، ولفت الشجرة في الكتان وغطتها بالدهون، ولا تزال تعرض حتى اليوم في معبد جبيل على أنها «خشب إيزيس».

وانطرحت إيزيس على التابوت وأخذت تبكي وتندب بحسرة على أن الإبن الأصغر للملك قد مات وأخذت الإبن الأكبر والتابوت وعادت بهما إلى مصر. وهناك في عزلة، فتحت الصندوق ووضعت وجهها على وجه الميت وقبلته وهي تبكي وتنتحب، وعندئذ فاجأها الصبيّ فوجهت إليه إيزيس، ونفسها تفيض بالغضب، نظرة بلـغ من رهبتها أن مات من الخوف.

وعندما ذهبت إيزيس إلى ولدها حوريس الذي كان يربى في بوتو، خبأت الصندوق الذي فيه جثة أوزوريس، ولكن تيفون الذي كان يصطاد ليلاً كشف عن مكانه فقطع جسم أوزوريس إلى أربعة عشر قطعة وبعثرها. وعندئذ أخذت إيزيس تجوب المناقع بقارب من سيقان البردى باحثة عن أشلاء الجثة، فعثرت عليها جميعاً ما عدا عضو التناسل، لم تعثر عليه لأن نوعاً خاصاً من السمك كان قد التهمه، ومن ثم فقد أصبح هذا النوع من السمك مكروهاً ومحرماً عند المصريين. ثم دفنت جميع أجزاء الجسم الأخرى على انفراد، كل جزء حيث وجدته، وهذا هو السبب في تعدد مقابر أوزوريس في مصر.

وبعدئذ خرج أوزوريس من العالم السفلي ليعدّ حوريس للقتال. وقد سأله عن أجمل شيء في الوجود فأجابه الصبيّ: إنه هو علاج الظلم الذي حاق

---

(١) وكانت تسمى عشترت، على اسم الإلهة الفينيقية التي وجدت سبيلها كذلك إلى مصر.

بالوالد[١]. وعندما اتخذ حوريس أهبته للقتال كان تيفون قد هجره عدد ليس بالقليل من رفاقه ومن بينهم نويس خليلته، وهي فرسة البحر التي سنعرض لذكرها في الفصل العاشر.

وبعد قتال استمرّ عدّة أيام انتصر حوريس على تيفون، بيد أن إيزيس التي كانت تسلمت تيفون من ابنها حوريس مقيداً بالأغلال عفت عنه وفكت قيوده وأغلاله. فلم يحتمل حوريس ذلك وأطاح بالتاج من على رأسها. ولكن هرمس استبدله بقناع على شكل رأس البقرة.

وعندئذ اتهم تيفون حوريس بأنه ابن غير شرعي، ولكن هرمس ناصر حوريس فاعترفت به الآلهة ابناً شرعياً لأوزوريس، وفي خلال معركتين تاليتين غُلب ست على أمره تماماً.

وهكذا تنتهي رواية بلو تارك، ونحن إذا قارناها بالروايات الأقدم عهداً التي أوردناها فيما سبق، فإننا سنلاحظ أن هذه الرواية الأحدث من الأسطورة البدائية تلائم من حيث الشكل ذوق القارىء اليوناني. وفوق ذلك فإن من بين المظاهر المهمة التي توحي بها طبيعة أوزوريس، هو ذلك المظهر الذي يجعل من أوزوريس الشكل المثالي الأول للميت الذي تتخذ له طقوس جنازية لدفنه. فالصندوق الذي كان ينام فيه يذكرّ بالتابوت. وجميع حوادث جبيل (ببلوس) تشير أيضاً إلى الدفن وإعداد الجثة، لأن كل ما يستخدم في هذه الظروف من خشب وزيت أرز يستورد من هذه الميناء. وهناك كتاب قديم للحكمة يؤكد أيضاً هذا الأمر[٢]. «فإذا لم تعمل الرحلة إلى جبيل «ببلوس» فإن خشب الأرز ينقص للموميات وزيت الأرز لا يوجد لتحنيطها».

ومع ذلك فإنه مما يستلفت النظر أنه لم يرد ذكر الإله الذي دفن أوزوريس إلا عرضاً، فقد ظهر مرّة واحدة سم أنوبيس وهو طفل وُلد من علاقة غير شريفة

---

(١) علاوة على هذا امتدح حوريس الجواد، أكثر من الأسد، لأنه يمكن به مطاردة الهاربين.
(٢) قارن Erman, Litt, P. 135.

بين أوزوريس ونفتيس. وخوفاً من تيفون ألقت به نفتيس في جهة ما، ولكن إيزيس وجدته بعد أن أرشدتها عن مكانه طائفة من الكلاب، فربته إيزيس وصار هذا الطفل حارسها وتابعها. وكان أنوبيس هو الذي يتولى حراسة الآلهة كما تتولى الكلاب حراسة الإنسان.

وشخصية أخرى أكبر خطراً أيضاً، وهي حوريس الطفل التي لم تذكر إلا عرضاً ولم تكن تمثل إلا إلهاً صغيراً معيناً، وهو حربوقراط ـ كما يسميه الإغريق ـ أي «حر. يا. خرد». وحوريس الطفل. وكان ينظر إليه على أن إيزيس قد ولدته بعد موت أوزوريس، وأنه لهذا السبب قد ظل هزيلاً.

وإنه ليمكن ذكر أحدث صيغة لأسطورة أوزوريس، فقد عادت هذه الأسطورة من جديد في القرن الثاني عشر الميلادي، وذلك في أوروبا على الأقل. وقد زادت مقطوعة «الناي المسحور» في نشرها وذيوعها بين الناس حتى لقد صرخ جوته في حنق وغيظ قائلاً: «أي إيزيس وأوزوريس لو أني أستطيع التخلص منكما؟».

ولكننا نحن الذين نعرف هذه الأسطورة من مصادرها القديمة الخالصة وهي أقدم ما في العالم من أساطير، فإننا ننظر إليها نظرة مختلفة كما نستطيع أن نبتهج بها في غير تحزّب.

الفصل السادس

اللاهوت

إذا كنا قد عالجنا في الفصل السابق التطورات، والأساطير التي تعتبر في مجموعها ذات طابع إنساني قريبة إلى الفهم فإننا في هذا الفصل سنعالج أكثر نواحي الديانة المصرية غموضاً مما يتعلق بالتأويلات والتخيلات التي أخضع الكهنة لها عقائدهم. وقد آثر الكهنة اتخاذ هذه الطريقة منذ أقدم عصور التاريخ، وإن اشتهار المصريين القدماء بالحكمة العميقة حتى يومنا هذا ليعتمد ـ قبل كل شيء ـ على هذا النوع من المعرفة.

وكما هي الحال في كل مكان فإننا نرى الناس يفكرون في أغلب الأحيان فيما لا يفيد كثيراً جوهر الدين، ولكي نعطي مثلاً يقرّب إلى الأذهان ما أعنيه فإنه لا يؤثر على العقيدة المسيحية موقف كل شخص من الأقاليم الثلاثة، ولو أنه قد يحدث أحياناً كنتيجة للتعمق في هذه النقطة أن يعتنق الكافة هذه النظرية.

وقياساً على ذلك فإن بعض ما حاكه الكهنة حول آلهتهم، من أقاصيص قد بلغ الشعب وذاع في طبقاته. ولقد بقيت هذه القصص مجهولة حتى كشفت في عصرنا منقوشة فوق جدران المعابد ومدوّنة في النصوص كجزء من المقدسات المحاطة بالأسرار وإن لم تبلغ دوراً مهماً في حياة أفراد الشعب. وإذا كان هؤلاء يسمون أولادهم باسم الإله «بتاح» العظيم مثلاً وإن كانوا يفزعون إلى هذا الإله في ساعات حرجهم فإنهم أهملوا شأن الإله «تاتنن» الذي اخترعه الكهنة وجعلوه

صورة من صور الإله «بتاح»، ولو أنهم ما ذكروه في أحاديثهم واعتبروه إلّهاً أبدياً خالداً.

ولقد احتفظ الكهنة بسرّ تعاليمهم الدينية إلى درجة جعلتنا نعجب مما ورد في بعض النصوص المنقوشة فوق المعابد الدينية ولم ندرك لها معنى إلا بعد أن قرأنا ما يقصد بها منقوشاً على معابد العصور المتأخرة؛ فمثلاً كل من يزور المعبد الصغير في مدينة هابو لا يستطيع أن يفسر لماذا سمى منذ أول العصور باسم «المكان المقدس لآلهة الأبدية»[(١)]، ولم ندرك فحوى هذه العبارة إلا من نص يرجع إلى العصر اليوناني ظهر منه أن الكهنة كانوا قد اعتبروا هذا المكان بمثابة الجبانة التي يرقد فيها أولى الآلهة المصريين.

وكان لكل معبد بطبيعة الحال تعاليمه، ولو أنه قد حُفظت لنا جميع معابد مصر لتيسر لنا ترسم العقائد المصرية حسب مدارسها المختلفة، ولكن ضاعت جميع معابد الوجه البحري تقريباً وكثير من معابد الوجه القبلي، ويجدر بنا هنا أن نذكر بأنه مع وجود هذا النقص الكبير فقد تمكن علماء الآثار المصرية بدأبهم واجتهادهم أن يصلوا إلى نتائج فتحت أمامهم الطريق إلى الكثير مما غمض من تعاليم الكهنة المصريين. وسوف نتحدث هنا عن التعاليم الخاصة ببعض المعابد الكبرى التي كانت ذات أثر في الديانة المصرية لسبب واحد هو أنها كانت المعابد المشيدة في المدن التي كانت عواصم للحكم في بعض العهود وتنتهي كل هذه التعاليم غالباً عند نقطة واحدة لأن هدف هؤلاء الكهنة أن يصلوا إلى نتائج دينية يكون مسلّماً بها عند الجميع، ولقد حاولوا أن يعرفوا كيف تكوّن العالم غير قانعين بما اعتقده البسطاء من أن الأرض طفت يوماً من الأيام فوق سطح الماء... فالكهنة في منف ـ مثلاً يقولون بأن الأرض الطافية (تا ـ تنن) هي بعينها الإله «بتاح» نفسه، ومن أجل ذلك سمي هذا الإله باسم «تا. تنن». ثم أراد الكهنة بعدئذ أن يدفعوا بإله مدينتهم إلى الصدارة فلما لم تسعفهم الفرصة ـ إذ كان هناك إله آخر انتشرت تعاليمه وتغلغلت في نفوس عدد أكبر من أنصار

---

(١) Sethe, Amoun, 103.

إلههم أضفوا على ذلك الإله ذي العبّاد الكثيرين من صفات ومناقب إلههم المحلي[١].

وكذلك الحال في تعاليم المدينة المقدسة «هليوبوليس» وأول ما عنيت به هذه التعاليم هو تاريخ بدء الخليقة، فقالوا: «عندما تكوّن إله الشمس (أو كما سموه في هليوبوليس الإله أتوم) في المياه الأبدية «نون» قبل أن تتكون السماء والأرض وقبل أن تخلق الدودة أو العلقة، لم يجد مكاناً ما يقف فيه[٢]. فوقف فوق تل، ثم صعد فوق حجر الـ «بن بن» في «هليوبوليس»[٣]. وبعدئذ وجد نفسه وحيداً وفكر في أن يخلق له زملاء (رفقاء) فحمل من نفسه[٤]. وبعد هذا الحمل تفل[٥] فكان الإله شو والآلهة تفنوت. ويبدو واضحاً من أسمى هذين المعبودين أنهما خلقا بالطريقة التي ذكرناها فيما سلف؛ فالإسمان اشتقا من كلمتين قديمتين بمعنى (البصق) الكلمة الأولى: إشش، والثانية: تف.

وأنجب شو وتفنوت الإلهين كِب إله الأرض ونوت إلهة السماء، كما أنجب هذان الأخيران أوزوريس وسوف وإيـزيس ونفتيس. ثم تكاثر أبناء الزوجين الأخيرين.

ولقد حكم هؤلاء العالم في أول الأمر قبل أن تتجمع السلطة في يد حوريس فكانوا الآلهة العظام ولأن عددهم كان قد بلغ التسعة فقد سماهم المصريون التاسوع، أو التاسوع العظيم لهليوبوليس. ولكن هذه التسمية قد سببت بعض الإضطراب لأنه بجانب هؤلاء الأبناء كان هناك أحفاد وأحفاد أحفاداً لإله أتوم الذين امتازوا بتقديس الناس إياهم واعُتبروا آلهة، فاضطر الكهنة أن

---

(١) ومن الأمثلة الواضحة عن ذلك أن الكفاح بين حوريس وست قد أصبح في الفيوم كفاحاً بين «الإلهين سبك وتحوت. Fayoum Papyrus II, 38.

(٢) Budge, Nesi Amsu, p. 147, 156.

(٣) Pyr, 1652.

(٤) Pyr. 1248, 1652.

(٥) Pyr. 1652, A. Z. 67,34.

يؤلفوا من بينهم مجموعات منها التاسوع الصغير الذي يتكوّن من حوريس بن إيزيس وتحوت ومعات وأنوبيس ولكي يكملوا العدد أضافوا إليهم بعض الأسماء لآلهة غير مشهورين. ولقد حظيت فكرة كهنة هليوبوليس بتقدير كهنة بعض المدن الكبرى الأخرى، وأرادوا أن يكونوا من آلهتهم المحلية تاسوعاً فوضعوا معبودهم الأكبر في مقدمة هذا التاسوع ثم أضافوا إليه عدداً من الآلهة كان أحياناً يزيد عن التسعة، ومثل ذلك تاسوع طيبة[١] الذي جمع ما لا يقل عن خمسة عشر معبوداً، وأحياناً نجد عدداً من الآلهة يكون تاسوعاً ليس من بينهم معبود ممن قدس في هليوبوليس، ومثل ذلك في مدينة أبيدوس التي تألف تاسوعها من إلهين باسم خنوم ثم تحوت، ثم إلهين باسم حوريس وإلهين باسم أوب أوات[٢]. ومما يثير العجب أن المصريين منذ العصور الأولى أخذوا يتحدثون عن هذه المجموعة من الآلهة الذين اخترعوهم ليكونوا تاسوعاً كما لو كانوا يمثلون إلهاً واحداً. فقالوا مثلاً: إن التاسوع قد ولد إلهاً[٣]، أو أنه قد خرج من بين فخذي التاسوع[٤]. وواضح أنهم قد رأوا في هذه المجموعة من الآلهة معبوداً واحداً، ولو أننا نميل إلى الاعتقاد بأن هذا لم يكن إلا نوعاً من أنواع الجناس كما هو واضح في كثير من النصوص المصرية.

ويجدر بنا هنا أن نؤكد أن تعاليم هليوبوليس هذه رغم أنه تبدو عريقة القدم قد ظهرت في عهد كانت عقيدة أوزيريس فيه قد دخلت وامتزجت بمعتقدات هذه المدينة.

وعندما جعلت تعاليم هليوبوليس الإله «أتوم» على رأس جميع الآلهة لم تستطع جارتها مدينة منف الأخذ بهذه الحقيقة، وبخاصة لما لإلهها «بتاح» من

---

(١) Sethe, Amoun, 41.

(٢) Urk. IV, 99.

(٣) Pyr. 258.

(٤) Pyr. 1087, 262.

شهرة وتقديس بين أهلها، ولأنها كانت في الوقت نفسه مقرّ الملوك، وفي ذلك الوقت ـ أي في أول عصور الدولة القديمة ـ وضع كهنة منف وثيقة أكدوا فيها أن «بتاح» ومنفيس تفوق منزلتهما ما لأتوم وهليوبوليس من منزلة ولكن القدر تحكم في مصير هذه الوثيقة التي نسميها (تعاليم منف الكهنوتية) والتي اعتبرت من أهم الوثائق التي حفظت بين كنوز معبد منف آلافاً من السنين، ثم أتت الأرضة (ديدان) عليها فاختفت منها معظم القطع المكوّنة لبدايتها ونهايتها، وعندما حكم الملك النوبي «شباكا» مصر حوالي عام ٧١٠ ق. م تقدم إليه كهنة منف وطلبوا منه أن ينقذ من الفناء ما بقي من كتاب الأجداد هذا؛ إذ كان يعتبر دليل الشرف لمعبدهم. فأمر «شباكا» أن يحفر ما بقي من هذا الكتاب على لوح من الحجر الجرانيت الأسود، وقد دفع الورع بكتبة «شباكا» أن يخلدوا كذلك على هذا الحجر بقية من كتاب آخر، وعلى هذا الشكل الغريب وصل لنا هذا الكتاب[١].

والحكمة التي يحويها هذا النصّ هي أن «بتاح» خلق من نفسه ثمانية آلهة أخرى سميت باسم بتاح، ولقد أطلق عليها البشر غالباً أسماء أخرى، ولا غرابة فهذه هي آلهة مصرة الكبرى أو قل إنها خالقة مصر. ومن أجل ذلك أرجعوا كل آلهة مصر إلى «بتاح» حتى إنهم قالوا بأن المعبود الصغير «نفر تم» ـ وهو تلك الزهرة التي تُدخل السعادة على قلب إله الشمس كل يوم ليس إلا «بتاح». وإذا كانوا قد نادوا بوجود ثمانية أشكال مختلفة لبتاح فلم يكن ذلك إلا ليُكوّنوا مع بتاح الأصلي تاسوعاً يعادل تاسوع هليوبوليس.

وأطلقوا على الإلهين الثاني والثالث من هذا التاسوع «بتاح ـ نون» المياه الأزلية وزوجته «بتاح ـ ناونت» وقد أنجبا الإله أتوم. ومعنى ذلك أن أصبح هذا الأخير وهو أعظم آلهة هليوبوليس أقل شأناً من الإله بتاح المنفيتي. فكل ما اتصف به أتوم من خصال استمدها من «بتاح» بل إن شفتيه وأسنانه التي تفل بها

---

(١) ومن الغريب أن هذا الحجر تعرض للتلف مرة أخرى، فقد وجد بعض أهالي منف أنه يصلح قاعدة لرحى، فاستعملوه في هذا الغرض فانمحى جزء كبير من النقوش، ومنذ عام ١٨٠٥ توجد هذه الوثيقة الغريبة في المتحف البريطاني.

شو وتفنوت قد استعارها من بتاح؛ بل سلبوا أتوم من قدرته على أن يخلق ويبدع، إذ أن قلبه ولسانه ليسا إلا من بتاح. ومن هذا نرى بوضوح كيف أن القلب واللسان هما اللذان كانا يخرجان كل شيء إلى الوجود: «إذا ما رأت العين وسمعت الأذن ونشقت الأنف الهواء بعثت هذه» ما رأت وسمعت ونشقت إلى القلب الذي يبدأ في اتخاذ قراراته، أما الإنسان فينطق بها. واعتُبر القلب واللسان للإله أتوم كطيفين من أطياف بتاح عرف الأول باسم تحوت والثاني باسم حوريس. ولقد خلق اللسان كل شيء حيّ بوساطة «الكلمة[1] التي خلقت كل قوى الحياة وكل ما يؤكل وكل ما يحبه أو يكرهه الإنسان» كما أخرجت القوانين، فهي «التي أعطت الحياة لمن يحبّ السلام والموت للأشقياء كما سببت نشأة الفنون» أي كل عمل وكل فن تصنعه الأيدي، فإذا ما أمرت الكلمة سعت الأقدام وتحركت الأعضاء.

وخلاصة القول، هو أن بتاح خالق أتوم بل خالق كلّ الآلهة «وسعد قلب بتاح بعد أن خلق الأشياء كلها وخلق كلمة الإله».

وهيمن بتاح أيضاً على الأرض «فقد كون الآلهة وشيد المدن وأنشأ المديريات ووضع الآلهة في معابدها وسمح للقرابين التي تقدم لهم أن تتكاثر وتتزايد كما زوّد مقاصيرها المقدسة بمحتوياتها، ثم صنع لها أجسادها ليسعد أفئدتها، ثم دخلت الآلهة إلى أجسادها التي صنعها من مختلف الأخشاب والأحجار والمعادن وازدهرت المحصولات المختلفة وجمعت في صوامع الإله بتاح ـ تاـ تنن، وهي تلك الأماكن الكبيرة التي أسعدت آلهة معبد بتاح».

وهكذا كشف كهنة بتاح عن حكمتهم العميقة في كلمات رنانة، إذ من الواضح أن ما أتـى في آخر النصّ يدل على أن ما يصيبهم من نفع مادي في هذه الدنيا التي خلقها بتاح قد ادخروه في أمكنة أمينة.

---

(١) واعتبر فيما بعد أن كلمة المعبود هي التي تخلق الأشياء Pyr. 1146, Berlin Papyrus .3055, 6, 9

ولقد تأثرت المعابد الأخرى بتعاليم منف، فسارع الكهنة في كل مكان وقالوا إن الآلهة التي تعبد في المعبد هي أعضاء للإله الأول فيه وسواء كان ذلك الإله بتاح أو أمون أو رع[١] كما جعلوا من «تحوت» القلب الذي يفكر في كل شيء، ثم جعلوا «اللسان» بمثابة الناطق بما يجب أن يكون. ولقد ورد في نصّ حديث يرجع إلى العصر اليوناني أن هذه من بين التعاليم التي تنادي بها حكمة المصريين: «القلب هو الذي يقود الجسد أما اللسان فيسمونه مبدع الكائنات»[٢]. وينبغي لنا ألا نغفل هنا كيف أن تعاليم منفيس قد انتظمت أصولاً دينية غريبة؛ وهي أن هناك إلهاً واحداً خرجت منه الآلهة الأخرى، وأن القلب هو الذي يقود هذا الإله الواحد.

وفي الوثيقة نفسها التي هوّن فيها كهنة منف من الإله أتوم على النحو الذي شرحناه نجدهم قد شرحوا موقفهم من إله آخر هو أوزوريس ولو أنهم لم يجسروا أن يجعلوا منه طيفاً من أطياف بتاح، إلا أنهم جعلوا منه واحداً ممن يتكوّن منهم بلاط بتاح وأنه آخى الآلهة التابعة له[٣] ثم جعلوا من منف الميدان الذي جرت فيه أهم الأحداث لهذا الإله.

ففي منف توجَّه أوزوريس إلى الدنيا السفلى، وكان ذلك بعد أن انتشلته أيدي إيزيس ونفتيس. وفي هذه المدينة أيضاً حاول كب أبو أوزوريس أن يصلح بين حوريس وست المتعاديين، فأعطى للأول مصر السفلى وللثاني مصر العليا. وفي منفيس أعطى حوريس حفيده من ابنه الأول حكم البلاد بأجمعها.

وهناك بعض التعاليم الخاصة بمدينة الأشمونين ومدرستها الدينية تعتبر أيضاً من تخريج منف، ولو أنها لم ترد في الوثيقة التي كثر الحديث عنها فيما

(١) قارن ما ورد في أنشودة أمون المحفوظة بمتحف «ليدن»: «إن التاسوع قد تجمع في جسدك» وقارن كذلك A. Erman. Literatur P. 369.

(٢) Horapollo I, 2i.

(٣) ولو أنه ورد في نص أنه قد خلق من بتاح Berliner Inschiften II, 149.

سلف. فلقد اعتبر تا ـ تنن هو خالق الآلهة الثمانية الأولى فيها[1] كما أنه اعتبر خالق البيضة التي انبثق منها إله الشمس، وبذلك أصبح «والد آباء (جد) كل الآلهة، وبدء كل ما كان في البداية» فهو صانع كل ما في الكون.

لقد بحثنا في الفصل السابق تلك القصة التي تحدد بدء الخليقة في مدينة الأشمونين على هيئة الضفادع والثعابين وكان عددها ثمانية، وعلى هذا سميت المدينة «مدينة الثمانية» أي «شمون» وإذا تعذّر علينا معرفة دقائق هذه التعاليم وكيف تصوّرها كهنة مدينة شمون وذلك لقلة ما تخلف من معابدها، فإننا في الوقت نفسه نعرف الكثير عما تركته هذه التعاليم من تأثير في مدينة أخرى عنها في عصور تالية، ألا وهي طيبة... إذ حدث في أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد أن تسرّبت بعض معبودات شمون إلى طيبة واستقرّت فيها، ونخصّ بالذكر واحداً من الآلهة الثانية الأولى أي أمون الذي تلألأ وعلا شأنه في طيبة كما استقرّ أيضاً فيها الكثير من تعاليم ديانة «شمون» وحكمة كهنتها، وهكذا وصلتنا هذه الحكمة وعرفنا الكثير من تعاليم هذه الديانة عن طريق معابد طيبة في العصور التالية. وأهم ما سعت هذه المحاولات إلى إبرازه هو عدم الاكتفاء بالآلهة الثمانية، بل يجب محاكاة لمنفيس أن يوضع إله قبلهم يكون هو الذي خلقهم، وبالفعل جعلوا أمون الذي كان واحداً منهم هو خالقهم ويدل اسمه على أنه «الكائن الخفيّ». وعلى هذا النحو لم يكن لأمون هنا أيّ أهمية لأنه صوّر على هيئة ثعبان اسمه «كم ـ اتف» ويعني هذا الإسم «ذلك الذي أكمل زمانه».

وهكذا كان هذا الإله غير ذي موضوع لهذه الدنيا فانتهى أمره وأنجب «كم ـ اتف» ولداً على هيئة الثعبان اسمه «إير ـ تا» خالق الأرض الذي خلق بدوره الآلهة الثمانية الأولى، ومنها نشأت الخليقة. ولأولئك البسطاء الذين لم يتعرّفوا على هذه الحكمة ذات المعاني العميقة كان «كم ـ اتف» عندهم هو «أمون العظيم» معبود الكرنك، وهو أيضاً أمون إله التناسل وخالق الأرض ومعبود الأقصر.

---

(1) Sethe Amun, 200, Anm. 2, Taf, II.

وعندما خلقت الآلهة الثمانية كانت الدنيا لا تزال في ظلام دامس، ولكن الآلهة الثمانية اندفعوا مع تيار المياه الأولى ووصلت إلى شمون ـ وهناك من يقول إنها وصلت إلى منف أو إلى هليوبوليس ـ وهناك خلقت الشمس، ومن ثم رجعت إلى طيبة. ولما كانت قد أتمت صنيعها بخلق العالم انتهى أمرها ولحقت بالثعبان «كم ـ اتف» في عالم الموتى بطيبة واستراحوا جميعاً في ذلك المكان حيث بنى المعبد الصغير بمدينة هابو، يتردد عليهم أمون الأقصر مرّة كل عشرة أيام ليقدّم لهم القرابين واعتبروا بالنسبة لعالمنا هذا كالموتى يهرع إليهم الناس بما يقدمون إليهم، على حين كانوا قوّة لا يستهان بها في العالم السفلي، فهم الذين يدفعون الشمس إلى الشروق والنيل إلى الأرض. وإذا كانت فكرة موت الإله تبدو لنا غريبة فإنها لم تكن كذلك لدى المصري[1]، ولا غرابة في ذلك فقد اعتقد أن إلهه الكبير أوزوريس كان يحيا حياة بشرية ثم مات.

ولقد تمادى أهل المعرفة من رجال طيبة في تنفيذ فكرتهم هذه حتى أنهم جعلوا من أوزوريس إلهاً هو «كم ـ اتف» الذي يتفق في معنى اسمه «الذي قد أكمل وقته» مع أوزوريس، ثم ليزيدوا في إحكام الحلقة جعلوا من أمون «الروح» لأوزوريس وقالوا إن جسد أمون يوجد في الدنيا السفلى، وإنه أي أمون كإله للشمس يزور جسده هذا عندما يتجوّل في الدنيا السفلى أثناء الليل.

وليس من شك أننا في عصرنا هذا لا نستطيع مطلقاً تفهم دقائق هذه التعاليم، ولكنا نكاد نعتقد أيضاً أن أكثر الكهنة تعمقاً في هذه التعاليم لم يكن يعيرها أهمية ما أثناء حياته الكهنوتية العادية؛ فإنهم لم يروا في أمون الكرنك إلهاً ميتاً منتهياً، بل كان هو أكبر آلهتهم وأقواهم، هو ملك الآلهة الذي يسوس العالم ويتحكم في مقاديره كما أنهم في واقع الأمر لم يروا في أوزوريس ذلك الإله الذي تظهر روحه باسم أمون بل كان إله الموتى فقط.

---

(١) وهكذا ورد أيضاً أن «تسعة أبناء لرع» قد دفنوا في إدفو وكان لهم عيد خاص وكان يقدم لهم القربان كل يوم Edfu, Rochem. I 137. 289, II 51.

ومن تلك التعاليم التي تقول بأن الآلهة قد خلقوا من إله أول واحد نتجت فكرة أخرى وهي أن كل ما تخلقه الآلهة من أشياء، فإن هذه الأشياء تحوي بعض صفات تلك الآلهة. وقد قالوا في ذلك «إنها خرجت من أعضائها» وليس من شك في أن هناك علاقة ما تربط بين كنه هذه الآلهة وبين تلك الأشياء التي تخرج منها، وكثيراً ما سموا الماء «أعضاء أوزوريس» ولعل هذه التسمية يفسرها ذلك الاعتقاد القديم الذي يجعل من أوزوريس إله الفيضان الجديد، ولكننا لا نكاد نفهم السبب الذي جعل المصري يقول بأن الماء هو ذلك السائل الذي يجري من جثة أوزوريس. ولعل السبب الذي جعلهم يسمون «الهواء» «أعضاء أمون»[١] هو أن هذا الإله العظيم كان يعتبر ـ وهو في حالته الأولى كأحد الآلهة الثمانية ـ إله للهواء والرياح[٢] كما اعتبرت زوجته «أمونت» إلهة الرياح الشمالية[٣]، وكذلك نفهم أن اللبن يخرج من حاتحور[٤] لأنها كانت تعتبر في وقت ما «بقرة السماء» ولكن لا ندري سبباً للعلاقة بين الجعة التي جعلوها تخرج من حاتحور[٥] والزهور من أوزوريس[٦] والظران من ست[٧]. ومن المعروف أن المصريين على وجه عام أحبوا أن يرجعوا كل الأدوات التي استعملوها في طقوسهم إلى أصل إلهي حتى يكسبوها نوعاً من التدشين فيرجعوا المرّ والبخور إلى أصلها كأعضاء الآلهة حاتحور أو حوريس عندما يحرقونها كتقدمة لهذين الإلهين[٧] كما أحبوا تسمية البخور «عرق الإله»[٨].

---

(١) هكذا ذكر في معبد رمسيس الثالث بالكرنك، وقارن Brugsch, Grosse Oase 25,3.

(٢) راجع Spiegelberg, A. Z. 49, 127.

(٣) راجع في كل ذلك Sethe, Amun.

(٤) Mariette, Dendera II, 37 a.

(٥) راجع Philae, 1545.

(٦) Philae, 967, 898.

(٧) راجع Pyr. 1999 وذكر في Plut. de Iside. 62 أن الحديد هو بمثابة عظام ست.

(٨) راجع مثلاً Philae, 1096 وكذلك Edfu II, 42.

(٩) راجع مثلاً الطقوس التي تقام لأمون حيث يقال عن البخور هو رائحة عرق جسم الإله.

ولقد وهب هذا العرق[1] العالم عند تدفقه إلى الأرض شيئاً آخر، إذ منه نشأ الكتـاب الذي استحقّ أن يكون من أصل إلهي، إذ استعمل المصريون الكتان في صناعة أقمشة غطوا بها تماثيل الآلهة واحتاجوا إليها في لف مومياتهم[2]، ولقد اعتقدوا أيضاً بأن كل المواد التي تستعمل في التحنيط ترجع إلى أصل إلهي مثل الزيوت والعسل والقار[3].

وإذا كنا فيما سبق قد ذكرنا أن روح أوزوريس قد بقيت على قيد الحياة كأمون فإننا بذلك فقد تعرضنا لموضوع آخر تعلق به المصريون واعتبروه من أهم معتقداتهم، ولذلك تشعبت نظرياتهم عنها تشعبها فيما يتعلق ببدء الخليفة. وسوف نتحدث في الفصل الرابع عشر عن اعتقاد المصري بأن لكل إنسان روحاً سموها «با» تسكن الجسد ما دام حياً وتصوّروها على هيئة طائر بعد الموت، وعن أنه هناك غير «البا» ما أسموه «القرين» أي كا. ولقد طبقوا على الآلهة ما اعتقدوه عن البشر، فكان لكل إله «با» و «كا»، ولكن لم تجر المسائل مع الآلهة بمثل السهولة التي جرت عليها مع البشر.

فأولاً كان لكل إله «با» تسكن كما تصوّروا ذلك تمثاله الموجود بالمعبد، ولكن لم تسكن فقط المعبد بل كانت تتجوّل في أمكنة أخرى وبخاصة في السماء.

وهكذا تصوّر لنا نقوش معبد دندرة التي ترجع إلى عهد متأخر كيف كانت تهبط روح حاتحور من السماء إلى معبدها الجميل لتسعد نفسها.

كما اعتقد المصري أن روح الإله تسكن الحيوان المقدس في معبده، وقد أعطى هذا الاعتقاد رجال الدين المتفقهين فيه فرصة طيبة لكي يضموا في

---

(١) عدا هذا لم يكن هذا الأصل الإلهي يبدو دائماً في شكل ظريف، فقد جاء أن أنف جب أذمى فما الأرز وتجشأ رع فنشأ البردى (Pap. Salt. 825, II, 7).

(٢) Salt, 825 II, 7.

(٣) Fiuel de L'embaumement, Maspero, Pap. du Louvre N 3 PL. 7,10.

تعاليمهم هذه الحيوانات المقدسة، فتمتعت العجول والتيوس والبقر والصقور والتماسيح والثعابين بقداسة لا شك فيها، ولقد اختلف الأمر عندما بدأ المصري يعتقد بأن هذه الحيوانات كانت تدبّ فيها الروح بوساطة الإله، أو ما سموها «أرواح إلهية» ولنضرب لذلك مثلاً أنهم اعتقدوا أن عجل أبيس هو روح الإله بتاح[١] ـ كما كما ورد في نصّ متأخر هو أيضاً روح أوزوريس[٢] ـ وأن الطائر الخرافي «فنيكس» هو روح رع[٣] والتماسيح كانت أرواح الإله «سوبك»[٤]، وأن تيس مدينة منديس يمثل أربعة أرواح لأربعة آلهة مختلفة هي رع وأوزوريس وكب وشو. وانتهى الأمر بهم أنهم لم يكتفوا بجعل روح واحدة لكل إله، بل زادوا العدد[٥]؛ فمثلاً رع كانت له سبع أرواح وأربعة عشرة «كا»[٦] ولو أننا لا نعرف شيئاً عن هذه الأرواح السبعة إلا أننا استطعنا أن نتفهم شيئاً عن هذه الأربعة عشرة «كا» التي كانت ذكوراً لها نفس العدد من الإناث والتي تتمثل في: قوّة السحر ـ البهاء ـ النصر ـ القوّة ـ النموّ ـ الطعام ـ الاستمرار ـ النظر ـ السمع ـ الشبع وغير ذلك كثير[٧] ثم في الوقت نفسه اعتبرت الكا في تعددها وكذلك مع إناثها كائنات تنشر الخير مثلها في ذلك مثل النيل والحقل[٨].

ولما كان الملك في اعتقادهم ذا صفات إلهية، لذلك وجب أن يكون له

---

(١) راجع Sitz. Ber. Berl. Ak. 1916, 1148.

(٢) راجع Plutarch de Is. 20.

(٣) راجع Totb. 17, vgl. Grapw Dessertation 45.

(٤) Destruction, I, 86.

(٥) ومن الأمثلة التي تبين سخف هذا التفكير أنه حسب أنشودة تاسوع الحبيبة، فإن لإله الشمس أربعة رؤوس كل منها على هيئة رأس الكبش تقوم جميعاً على عنق واحد، وله عذا ذلك ٧٧٧ أذناً ومئات الألوف من القرون، وتمثل رؤوس الكباش الأربعة آلهة الرياح الأربعة (عن مقالة لم تنشر بعد: Roeder, Urgôtterlied aus Hibis).

(٦) راجع Edfu. ed. Rochem. I, 441.

(٧) راجع Pichl, Edfu, Inscrip. 128, 130.

(٨) راجع Brugsch, W. B. Suppl. P. 997 and Pyr. 396.

أرواح كثيرة وأكثر من «كا» واحدة[١]، ولكن هذه فسرت بالنسبة إليه على وجه آخر؛ فإذا ما تحدّث المصري عن «أرواح الملك» فإنه كان لا يقصد إلا التعبير عن سلطته القوية.

وإذا تحدث المصري عن «أرواح» إحدى المدن أو الأماكن المقدسة وكثيراً ما يحدث ذلك فإنه يعني شيئاً آخراً مختلفاً، فأرواح مدينة «بوتو» أو مدينة هليوبوليس هي آلهتها[٢].

وليس في استطاعتنا هنا أن نتحدث عن كل ما نسجه المصري القديم من تخيلات غريبة عن أرواح الآلهة، ويكفينا أن نختتم هذه الكلمة بحقيقة أخرى وهي أن الإله يمكن أن يكون بمثابة روح لإله آخر، فمثلاً «أمون» كان روح «شو»[٣] أو روح أوزوريس، وعندما عانق أوزوريس إله منديس الممثل على شكل التيس تكوّن من هذا العناق روحاً مزدوجة[٤].

وليس من شك في أن الصورة التي أعطيناها هنا عن معتقدات المصريين وتعاليمهم الدينية هي صورة محزنة، كما أن ما نعرفه غير ذلك عنها لا يدفعنا إلى تحسين هذه الصورة على أيّ شكل من الأشكال. فمثلاً الفكرة البسيطة التي بدأت باعتقادهم أن الشمس تسير في قاربها أثناء الليل في الدنيا السفلى وفي عالم الموتى، هذه الفكرة جعلوها نواة لما ملأوا به صفحات كتب متعددة تحدثوا فيها بتوسع كبير عن إله الشمس وما يلقاه أثناء تجوّله الليلي (قارن الفصل

---

(١) وفي حالات استثنائية كان للفرد العادي كذلك أكثر من «كا» واحدة، أنظر: Mar. Mast. F 2; Rougé J H 38.

(٢) راجع Pyr. Text. Spruch 474, 575, 580, Sethe A. Zeit, 57.

(٣) راجع Brugsch, Grasse Oase, 16,40.

(٤) راجع Grapow, Dissertation S. 39, Mammisi d'Edfou, ed. Chassinat 96 وفي إدفو كان يعتقد أن روح أوزيريس تتألف من أربع أرواح هي روح «رع» في إدفو وروح «شو» وروح «كب» وروحه هو نفسه.

الرابع عشر) كما أنهم حاولوا تنظيم ذلك الخليط العجيب من التعاليم الدينية، ويبدو ذلك واضحاً من تلك الصفات المختلفة التي تعطي لعدد من الآلهة سميت باسم واحد، ومثل ذلك هو معبد الكرنك فقد أقيم فيه معبد صغيير للإلهة «موت» كان من بين معبوداته عدد كبير سمي باسم «سخمت» إلهة الحرب فرقت صفات كل منها الواحدة عن الأخرى: «سخمت» محبوبة «بتاح»، سخمت سيدة الصحراء الغربية، سخمت في بيت «باستت»، سخمت الكبرى، سخمت المحبوبة من «سوبك» وغير ذلك[١]، ونحن نعرف أيضاً من نصوص معبد دندرة أن هناك مئات من الإلهات «هاتحور» عبدت في مناطق متفرّقة من مصر.

ووجه علماء الكهنة المتفقهين في الدين نفس العناية إلى قصص الآلهة فنظموه ولكن ليس بالطريقة التي تقرّبه إلى الأذهان، فما ارتبط منه بحياة الشعب أهملوه وجعلوا منه موجزاً مشوّهاً، ثم سعوا إلى تحقيق ما بدا لهم مهما محاولين تفسير ما أطلق عليه من أسماء، ووجدوا ضالتهم دائماً فيما نسبوه إلى الإله من أقوال وأعمال. فإذا وجدوا مثلاً أنه قد قيل في نصوصهم أن الإله رع قد تنازل لأوزوريس عن ملكه فنجدهم قد أضافوا إلى ذلك قصتين تعتورهما الحماقة والسخف[٢]: لقد فزع ست أمام عظمة غريمه إلى درجة أن نزف الدم من أنفه، فأسرع ودفن هذا الدم في الأرض فنشأ عن ذلك ما أطلقوا عليه حرث الأرض وهو عيد احتفل به في مدينة «إهناسيا» (هيراكليو بوليس) وفي بعض المناطق الأخرى. ثم عندما ثبت رع تاجه على رأس أوزوريس، مرضت هذه متأثرة من حرارتها الملتهبة، ولكن رع أخرج الدم والقيح من الرأس وشفي أوزوريس وتكوّن من هذا الدم والقيح تلك البركة بجوار معبد هيراكليوبوليس.

ونذكر هنا مثلاً آخر يدل بوضوح إلى أيّ درجة مسخ هؤلاء المتفقهون القصص القديم. كان أهل إدفو يقصون أن إلههم وهو فرص الشمس المجنح

---

(١) راجع: A. Zeit. 58,44.

(٢) راجع Totenbuch 175 nach. Kees A. Z. 65 ff..

الذي أطلقوا عليه اسم حوريس قد حارب أعداء رع. ولما كانت العادة عند الحديث عن حوريس أن يذهب الذهن إلى حوريس ابن إيزيس لذلك أدمج الناس قصة الكفاح المرير الذي حدث بين حوريس هذا وبين ست في قصة قرص الشمس المجنح وأصبح يظن أن الأعداء هم ست وجماعته الذين تشكلوا على هيئة التماسيح وأفراس البحر، على حين ضم حوريس إليه علاوة على المعبودة الأجنبية عشتروت مجموعة من الآلهة حملة الخطاطيف. واعتماداً على هذه القصة ألف أحد كهنة إدفو ممن عاشوا في عهد الدولة الحديثة[1] حكاية مطوّلة عن الكفاح وما وقع إبانة من أحداث كما يلي:

سافر رع وحوريس إدفو وتحوت في سفينة وجابو مصر من حدودها النوبية إلى البحر، وبكل مكان عثروا فيه على أعداء شريرين تقدم حوريس وانتصر عليهم وقتلهم، واعتاد تحوت أن يبدي ملاحظة إلى رع بعد كل انتصار وفي كل مكان، وكانت هذه الملاحظة هي الأصل الذي ترجع إليه تسمية هذا وذاك من مدن وقنوات ومعابد وأعياد وأشجار وسفن وكهنة ومغنيات أطلق على كل منها اسمه بعد كل معركة ونتج عن ذلك من ٦٠ إلى ٧٠ اسماً عرفها ذلك الكاهن المجدّ. وإذا أبدى لنا هذا التفقه في العلم سخيفاً فإنه قد أثر على الكثيرين ووجد بينهم عشاقاً معجبين إلى درجة أن أحدهم عاش في القرن الأوّل قبل الميلاد قد رأى في هذه القصة وثيقة ثمينة تشيد بعظمة إله هذا المكان[2] فنقشها على الجدران الداخلية للسور المحيط بمعبد إدفو.

وفي آخر الأمر ألف هؤلاء العلماء المتفقهون قصة عن التاريخ الأوّل للعالم حاكوا أطرافها مما تجمع لديهم من قصص وحكايات، وتقول هذه القصة إن الآلهة في أول الأمر كانوا ملوكاً لمصر السفلى، وإن الناس عرفوا مدة حكم

---

(١) مما يدل على أن هذه الصيغة في الأسطورة تنتمي إلى الدولة الحديثة أنه قد ورد فيها ذكر الإلهة الإجنبية عشترت.

(٢) Brugsch, Sage von der Geflügelten Sonnenscheibe (Abh. d. Goettinger Gesellschaft der Wissenschaften 1870).

كل مدة، ولقد ورد على بردية تورين أسماء هذه الآلهة مبتدئة بالإله كب، ثم أوزوريس وست وحوريس ثم تحوت ومعات ويتبع ذلك أسماء بعض الآلهة الأقلّ شأناً، وتأتي في آخر القائمة أسماء «خدم حوريس» أي أسماء الملوك العشرة الذين حكموا في العصور الأولى. وانقاد العلماء في هذا الطريق إلى درجة أنهم كوّنوا لكل إله ألقاباً تشبه ألقاب الفراعنة، ولقد عثر على لوح حجري[1] أقيم في مقبرة بأبيدوس ترجع إلى عهد الدولة الوسطى وكتب عليه اسم أوزوريس مصحوباً بلقبين من ألقاب ملوك مصر: «حوريس الذي هدأ من المذابح في قطري مصر ـ ملك الشمال والجنوب ـ أوزوريس ـ أون ـ نفر».

وسمي ست في وثيقة ترجع إلى عصر الدولة الحديثة:

«ملك الشمال والجنوب ـ ست القوى ـ ابن الإله رع المحبوب منه، نوبتي محبوب الإبه حور أختى»[2].

وكان من واجبات علماء اللاهوت أن يقوموا بتفسير النصوص الدينية القديمة. وعثرنا على تفسير لما نسميه الفصل السابع عشر من كتاب الموتى. وفي هذا النصّ العريق في القدم يعلن الميت أنه ذو كنه إلهي ويفاخر بأنه أصبح هذا أو ذاك الإله، فمثلاً يقول: «أنا مين» في خروجه وثبتُّ الريشتين العاليتين على جبيني» وفي هذا القول ما يرجع في الأصل إلى ذلك الاحتفال الذي يظهر فيه تمثال هذا الإله، وقد ثُبِّتت فوق رأسه الريشتان اللتان تعتبران من العلامات المميزة لهذا الإله. وإذا رجعنا إلى التفسير القديم نجد أن «مين» هنا هو الإله حوريس بن أوزوريس. ولأن تمثال حوريس لا تميزه الريشتان فسرت هذه على أنهما: «الصّلان الكبيران اللذان يحليان جبين أبيه أتوم». وفي تفسير آخر يرجع إلى عصر الدولة الحديثة نجد أن «مين» قصد به أيضاً حوريس ولكن لجأ صاحبه إلى التغلب على صعوبة تفسير الريشتين بشكل آخر فقال إن «الخروج» معناه

(١) Louvre. C. 2.

(٢) A. Z. 65, 87.

«ولادة» حوريس وذكر القارىء بقصة تحدثت عن إيزيس ونفتيس اللتين ثُبتا على جبين حوريس كعُقابين وإليهما ترجع الريشتان. ويبدو أن هذا التفسير لم يكفه فأورد تفسيراً آخراً. كما لو كان للقارىء أن يختار بينه وبين ما سبقه، وهو أن هاتين الريشتين هما في الأصل عينا حوريس. وفي موضع آخر من هذا الفصل يقول الميت عن نفسه:

«كنت البارحة وأعرف الغد» ويقصد بذلك أنه كإله لا يعرف الوقت، ولكن أصحاب التفسير يقدمون لنا هنا معنى آخر لقوله هذا. فالبارحة معناها «أوزوريس» والغد معناه «رع» في ذلك اليوم الذي أفاد فيه أعداء «أوزوريس» وتقلد فيه ابنه حوريس مقاليد الحكم.

ويرى المرء من هذه الأمثلة كيف حوت رؤوس هؤلاء العلماء المتفقهين في الدين عقول أطفال.

* * *

الفصل السابع

الحوادث التاريخية وأثرها

تحدثنا حتى الآن عن القوى الخفية التي تُؤثر باستمرار في الديانة وتشكلها. . . ولكن بعض الحوادث الخارجية قد أثرت فيها أيضاً وقطعت سلسلة هدوئها. ومع عدم إحاطتنا بالتاريخ المصري إحاطة تامة فإننا نعتقد أنه يمكننا معرفة هذه الأحداث التي تفرد لها هذا الفصل.

ففي طليعة ما تواتر لنا من روايات نجد حدثاً كان له أكبر الأثر على الديانة؛ إذ اتحدت مملكتا مصر العليا والسفلى لتكوّنا دولة واحدة صار مقرّ حكمها منف. وقد تحدثنا غير مرّة عما كان لهذا من أثر في الديانة، فحسبُنا عنها حديثاً، ولقد غدت الديانة بعدئذ شبيهة بالحكومة، أي أصبحت ذات صبغة موحدة تؤلف عقيدتا هليوبوليس ومنف نواتها.

وفي نحو عام ٢٥٦٠ ق. م. كانت الأسرة الحاكمة التي ابتنت لنفسها الأهرام الكبرى قد انتهى حكمها وخلَفها ما يسمى بالأسرة الخامسة، وينتمي ملوك هذه الأسرة إلى أحد كهنة إله الشمس، وكانوا يعبدون هذا الإله بنوع خاصّ حتى إن كلاً منهم ابتنى لنفسه في مقرّه معبداً للإله رع على نمط معبد هليوبوليس الأكبر.

ومن أكبر علامات الشرف[١] التي تمنح لشخص ما هو السماح له بالقيام

(١) مثلاً Urk. I, 175.

بخدمة رع في ذلك المعبد الخاص بالملك، وهكذا أصبح رع الإله المفضل لدى الطبقات العليا. وفي المدن الأخرى كذلك حرص الناس على تقديم العبادة إلى هذا الإله النبيل، فإن لم يكن لدى هذه الجهات آلهة للشمس فإننا نجد من غير شك إلهاً آخر عظيماً ذا طبيعة كبيرة الشبه بطبيعة الإله رع، حتى إنه إذا أقام أحد الكهنة المتعمقين في العلم ليحققه بدقة فلن يشك في أن هذا الإله هو أيضاً إله الشمس في صميمه. وعلى ذلك فإنه حدث على مرّ السنين أن كثيراً من هؤلاء الآلهة ـ مع استثناء الإله بتاح وحده[1] ـ تحوّلوا إلى إله شمس. وإننا لندرك المظهر الخارجي لهذا التحوّل من إضافة اسم رع إلى أسمائها القديمة: منتورع، سوبك رع، خنوم رع، أمون رع. وفي هذه المرحلة من تطوّر الديانة المصرية نرى ميلاً واضحاً إلى الاتحاد في عبادة شمسية كان يتألق فيها إله الشمس خلال صور عديدة قديمة للمعبودات. وقد بلغ الأمر في النهاية إلى حد اندماج أوزوريس ـ إله الموتى الطيب ـ في إله الشمس. ولم تكن هذه الفكرة بعيدة كل البعد عن الصواب، إذ أن الشمس كانت ترتحل كل ليلة في العالم السفلي حيث يكوّن رع وأوزوريس ـ طبقاً لمعتقدات اللاهوتيين ـ «الروح المتحدة»[2]، وهذا الاتصال بين الإلهين يتمثل فيما بعد في الكتابة حيث يكتب اسم أوزوريس أوزي ـ رع وليس أوزيري كأنما يحتوي اسمه اسم إله الشمس.

ولكن هذا الهيام بإله الشمس أفاد شخصاً آخر هو الملك، فمنذ الأسرة الخامسة ـ كما رأينا في الفصل الرابع ـ كان يعد ابناً للإله رع. وكان كل ملك يختار لنفسه عند اعتلائه العرش اسماً له صلة برع ليشارك رع في طبيعته، ثم ـ حين يموت ـ يصعد إلى السماء ويتحد مع أبيه وهكذا يعود إلى الكائن الإلهي الذي ينتمي إليه.

وعند انهيار الدولة المصرية حوالي عام ٢٢٥٠ ق. م. كان بين الدويلات

(١) Ed. meyer $1,2^2$, 272.

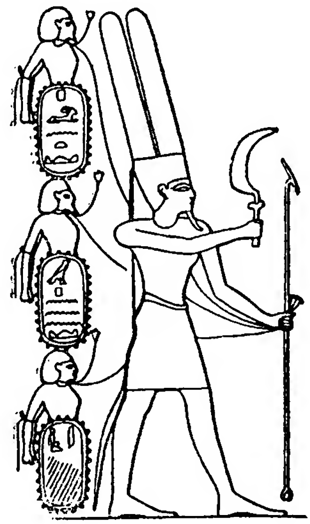
(٢) Totb. 17 Thèse de Grapow, P. 39.

التي تمكنت من الارتقاء إبان العصور التالية، دويلة مركزها مصر العليا وعاصمتها طيبة. وقد كان يعبد في هذا الإقليم بصفة خاصة منتو ومين، ولكن كان إلى جانبهما إله آخر ـ كما رأينا في صفحة ١٠٩ وهو الإله أمون أحد آلهة شمون الثمانية الأولين، ويرجح أنه لم يكن إلهاً شعبياً أبداً لأننا لا نعرف أيّ قصص قديم يرتبط به، وهو لم يكن في طيبة سوى صورة أخرى لـ «مين» وكان ـ مثله ـ يصوّر منتصب القضيب رافعاً ذراعه وكان يحمل سوطاً، وعلى رأسه قلنصوة تعلوها ريشتان كبيرتان، وكان لون جلده أزرق. وما ساعد أمون على الارتقاء إلى مرتبة إله عظيم، إن أسلاف الأسرة الثانية عشرة قد اختاروه إلهاً عائلياً فترى أول ملوك الأسرة وقد حكم مصر حوالي ٢٠٠٠ ق. م. يتخذ الإسم المميز أمون ـ أم ـ مات، أي «أمون في المقدمة[1]». ونظراً إلى الدور الذي كان على أمون أن يؤديه كإله للآلهة صار لزاماً عليه أن يتحوّل إلى إله شمس تحت اسم أمون رع، وهكذا اتخذ مركزاً ممتازاً بالنسبة إلى جمهرة آلهة المقاطعات الصغيرة، وقد اتخذ لهذه المناسبة مظهراً آخر أكثر احتشاماً، فمن ذلك الحين صار يمثل جالساً على عرشه كملك ولم يحتفظ من مظهره الأول بغير القلنصوة ذات الريش ولون الجلد الأزرق، ولكن ارتفاع شأن أمون رع الذي كان يجب أن يضعه في نهاية الأمر على رأس الآلهة جميعاً توقف فجأة.

وحوالي عام ١٧٠٠ ق. م غزا مصر شعب أجنبي يعرف عادة باسم الهكسوس ولسنا ندري على وجه التحقيق إلى أي جنس كان ينتمي هؤلاء الغزاة، كما أننا نجهل أية آلهة كانوا يعبدون، وإن كنا ندرك تماماً أنهم لم يكونوا يعبدون على كل حال الآلهة المصرية. وعندما قام الملك خيان الهكسوسي بزخرفة معبد بوبسطة لم يلقب فيه بلقب المحبوب من آلهة هذا المعبد كما كان معهوداً من قبل، أي باستت، بل أطلق عليه لقب «ذلك الذي تحبه «كا»»، ولم يفاجأ المصريون بهذه التسمية لأنهم كانوا يدركون أنّ لكل منهم روحاً مماثلة، وأن الملك الهكسوسي له الحقّ مثلهم أن يتخذها إلهاً شخصياً.

---

(١) Hymne à Amon de Leyde, verset 100.



٤٧ ـ أمون رع يقدم للملك السيف وبعض الشعوب الأجنبية (من معبد مدينة حابو)

ثم عندما اتخذ الهكسوس عاصمة لملكهم[(١)] في شرق الدلتا عبدوا الإله سوتخ، وقد تواتر أن الملك أبو فيس «لم يعبد إلهاً آخر في كافة البلاد»[(٢)].

ولنرجع الآن إلى أمون رع لأنه سيصل إلى قمة مجده بعد طرد الهكسوس، وقد تمكن أمراء طيبة من تحرير مصر من النير الأجنبي، وعندما امتد حكم الأسرة على مصر كلها دون أن تهجر مقرّها طيبة صار من المحتوم أن يصبح أمون رع إلهاً للمملكة وأكبر إله في البلاد. ومنذ ذلك الوقت اتخذ لقب ملك الآلهة، بل وأكثر من ذلك ـ شاء القدر أن يتمتع ملوك الأسرة الثامنة عشرة التحوتمسيون والأمنوفسيون ـ وهم الذين رفعوا إلههم أمون عالياً ـ بعظمة لم تعرف لها مصر مثيلاً من قبل. فمن الفرات إلى السودان كانت جميع البلاد تدفع الجزية، وقد انتشرت عظمة إلههم في كل هذه الأرجاء الشاسعة، وقد أقام فراعنة

(١) وهي أفاريس، التي أصبحت فيما بعد تانيس، والإله سوتخ هو نفسه الإله ست في مصر العليا، على أن اسمه كتب في شكل همجي.

(٢) Sallier I, 1.: ef. Litt. P. 214.

القرنين السادس عشر والخامس عشر والأسرات اللاحقة معابد طيبة الضخمة للإله أمون رع بوساطة هذه الأموال التي تدفقت على مصر رمزاً لتقديرهم وعرفانهم بسبب ذلك النصر الذي قادهم إليه. وقد أقاموا في البلاد الأخرى من امبراطوريتهم هياكل جديدة حتى يستطاع خدمة إله ملكهم في كل مكان. وهكذا أصبح أمون رع حقيقة ـ ولمدة طويلة ـ أول إله للمصريين. ولكنه لم يكن أحد الآلهة الكبار القدامى، بل إنه أخذ كل مظاهر طبيعته تقريباً من الآلهة الآخرين. وكل من يقرأ الأنشودة الكبيرة التي يمجد فيها هذا الإله صاحب الأسماء المتعددة[1] يلاحظ سريعاً أنه إذا استثني اسمه وذكر الكرنك لا يوجد سوى القليل مما يتصل مباشرة بأمون. والحقيقة أنه ليس هناك غير تلاعب بالألفاظ حول اسمه كرئيس للناس الذي يختفي اسمه (أمون) عن أولاده. وكذلك كان في لقب «الذي يوجد في كل شيء» ما يمكن تفسيره بالطبيعة الأصلية للإله القديم الأول أمون الذي رُمز به للهواء[2]، وإنما كل ما يقال عنه يرجع إلى إلهين آخرين دون غيرهما. واسم هذين الإلهين مضافاً إلى اسمه «مين»، «رع»، فهو مثل «مين» يحتفل به لأنه يحمل ريشتين عاليتين. وهو مثل «مين» كذلك يحمي طرق الصحراء رغم أن طيبة لم تكن أبداً واقعة على الطريق المؤدية إلى البحر الأحمر. وهكذا يقولون عن أمون إن الآلهة تحبّ رائحته حينما يأتي من بنت (بلاد البخور) وهو غنيّ بالعطور حينما ينزل من بلاد المازوي وهو حوريس الشرق الذي تجلب له الصحراء الفضة والذهب واللازورد حباً فيه. كما تجلب له كل أنواع البخور من بلاد المازوي والمر الطازج لإنفه. وتذكر عادة كل هذه المنتجات تمجيداً لجاره «مين». أما تقريب شخصيته من «رع» فيذهب إلى أبعد من ذلك، فإن الإله يسمى رع ـ خبري أو أتوم ويلقب بـ «ثور هليوبوليس» أو الذي يتألف في بيت حجر Benben وهو يعبر السماء بسلام وهو صاحب سفينة المساء وسفينة الصباح، وهو كذلك يحارب التنين أبو فيس، وهو مثل رع فإن

(١) Hymne à Amon du Caire.

(٢) ef. Sethe, Amon 217 ff.

عينه هي التي تصرع الأعداء ويفرح قومه حين يرونه يصرع عدوّه «أبو فيس» وكيف تقطع أعضاؤه بالسكين وكيد تلتهمه النار وكيف تعاقب نفسه أكثر مما يعاقب جسده. هذا الأفعوان يمنعون مجيئه ـ الآلهة في نشوة وحاشية رع مسرورون فإن أعداء «أتوم» مصر وعين وطيبة راضية وهليوبوليس قريرة.

وقد كان ما يحكى عن إله الشمس من أساطير ينسب كذلك إلى أمون، فهو قد قام بمحاكمة حوريس وست في الصالة الكبرى بصفته رئيس التاسوع الأكبر. ويعتبر أمون رع ـ كإله الشمس ـ خالق كل شيء هو الذي عمل كل ذلك. هو الوحيد صاحب الأيدي الكثيرة ـ هو أب الآلهة الذي صنع الناس وخلق الحيوانات وفرق بين الناس حسب ألوانهم. خرج الناس من عينيه والآلهة من فيه. ولكن أمون رع هو أيضاً عضد وعائل كل الكائنات الحية ـ وتمجد الأنشودة خاصة هذه الناحية من طبيعته ـ وهو يسهر في الليل حين ينام الناس أجمعون. وكالراعي الصالح يبحث عن الأفضل لقطيعه. وهو يُنبت الحشائش لقطعانه وشجر الفاكهة للناس. وهو يخلق ما تعيش منه الأسماك في النهر والطيور في السماء. وهو يعطي نسمة الحياة لمن لم يخرج بعد من البيضة ويطعم ابن الدودة. وهو يخلق ما يعيش منه البعوض والدود والبراغيث. وهو يضع ما يلزم للجرذان في جحورها ويطعم الطيور على كل الأشجار. النيل الطيب المحبوب يأتي حباً فيه ـ وحينما يأتي يحيا الناس.

هذا القادر رئيس كل الآلهة، الذي تقعى الآلهة عند قدميه كالكلاب، له رغم ذلك قلب مستجيب حينما يدعى. وهو منجي الخائف من اعتداءات السفيه ويسمع دعاء ذلك الذي في كرب وضيق. ولهذا فإن كل واحد يحبه ويعظمه مهما علت السماء وانبسطت الأرض وازداد البحر عمقاً. الآلهة تخضع أمام جلالك وتمجد خالقها. هم في نشوة حين يقترب خالقهم. «المجد لك» تقولها كل الحيوانات المتوحشة و«التسبيح لك» تقولها كل صحراء. جمالك يأسر القلوب وحبك يشلّ الأذرع وصورتك الجميلة تجعل الأيدي لا تقوى على الحركة والقلب ينسى من كثرة التأمل فيك.

وسنرى في الفصل التاسع بالتفصيل إلى أيّ درجة صار أمون شعبياً بوصفه مساعداً وصانع خير للناس. ولكننا ندرك من النظرة الأولى أن هذه الظاهرة من طبيعته أقل أهمية لنا من تلك التي تظهره كإله للشمس، ذلك لأنه هو في الأصل سبب هذه الثورة الكبرى التي نسميها الآن بعصر الهرطقة.

ويتضح جلياً من أنشودة من عصر أمنوفيس الثالث (١٤١١ ـ ١٣٧٥) ـ أي العصر الذي يسبق مباشرة عصر الثورة الكبرى ـ كيف تغيرت عبادة أمون رع تدريجياً إلى عقيدة خالصة في إله الشمس. وفي الواقع أن أمون رع لا يحتفل به في هذا الوقت إلا بصفته الشخصية، وليست هناك إشارة إلى أية صفة أخرى مما ذكر في الأنشودة الكبرى لأمون. ولكن الأخوين التوأمين حور وسوتي اللذين تحمل لوحتهما هذه الأنشودة كانا بلا شك عابدين صادقين لأمون، لأن الاثنين كانا يمجدانه بصفتهما من كبار مهندسيه المعماريين أحدهما على الضفة اليمنى والآخر على الضفة اليسرى للنيل، وهاك أهمّ ما تحتوي عليه أنشودة أمون حينما يشرق بصفته حوراختي:

التسبيح لك إنك رع الجميل كل يوم. الذي يطلع في الصباح دون توقف.
خبري الذي تجهد نفسك، في العمل.
الأشعة أمام أعين الناس ولكنهم يتجاهلونها. الذهب لا يشبه لمعانك.
أنت بتاح وقد كوّنت أعضاءك. أنت معطي الحياة الذي لم يولد.
أنت الوحيد من نوعك الذي يعبر الأبدية كلها. لمعانك شبيه بلمعان إلهة السماء ولونك يتألق أكثر مما يتألق جلدها.
أنت تسبح فوق السماء. والناس جميعاً يتأملونك. ولكن مسراك خفي عليهم رغم ذلك.

ثم يشار إلى المسرى السريع البعيد الذي تقوم به الشمس كل يوم، وهو طريق مكوّن من ملايين ومئات الآلاف من الأميال في لحظة واحدة. وحينما يذهب ليستريح تنتهي بالمثل كل ساعات الليل ويضبطها دائماً دون توقف. ثم يستمر التسبيح بهذه العبارات. فبفضلك ترى جميع العيون ولا تقوم بأداء شيء

بعد أن تنام جلالتك. تقوم مبكراً لتظهر في الفجر، نورك يفتح الأعين ولكنك حينما تغرب في جبل مانون Manoun فإنهم ينامون كالأموات.

وإذا كانت الفقرة الأولى موجهة إلى «رع الجميل في كل يوم» فإن هناك فقرة ثانية تمدح الشمس تحت اسم «أتون» وهي ذات الكلمة التي ستصير بعد ذلك بمدة يسيرة علماً لعصر الثورة... هكذا تعبر الفقرة التالية:

«المجد لك أي شمس النهار التي خلقت كل الكائنات الحية وتكفلت بما يحتاجون إليه. أنت أيها الصقر الكبير ذو الريش المختلف الألوان الذي ولدت لتنشىء نفسك الذي جئت من نفسك بنفسك دون أن تولد.

أي حوريس المسن في وسط آلهة السماء. ذلك الذي تصعد نحوه أصوات البهجة في شروقه وغروبه معاً.

أي خالق ما تنتجه الأرض. خنوم وأمون الناس. الذي تملك القطرين من أكبر الأشياء إلى أصغرها. أنت الأم الرائعة الممتازة للآلهة والناس، أنت الخالق الطيب الذي يتعب نفسه من أجل مخلوقاته العديدة.

أيها الراعي القوي الذي يقود قطعانه. أنت ملجؤهم الذي تحفظ عليهم الحياة. إنه ذلك الذي يسرع. ذلك الذي يجري. هو الذي ينهي دوراته. «خبري» صاحب المولد الجليل الذي يأخذ من جسم نوت جماله هو الذي ينير القطرين بشمسه. الإله الأصيل الذي خلق نفسه.

هو الذي يصل كل يوم إلى حدود البلاد وينظر إلى الذين يتجوّلون فيها. هو الذي يشرق في السماء. هو يقسم الفصول إلى شهور، وينتج الحرارة حينما يريد والبرودة حينما يشاء. هو يطوي الأعضاء ويحتضنها. كل بلد تتوسل إليه عند طلوعه يومياً كي تعبده.

ها هي ذي محتويات الأنشودة ولسنا نستطيع أن نقول كيف قامت الثورة الكبرى التي يشار إلها منذ الآن، ولكننا إلى حد ما نلاحظ أن ساعتها قد أذنت.

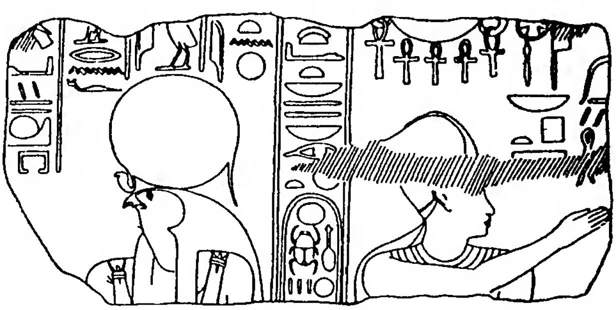
الفصل الثامن

عصر الهرطقة

إذا تساءلنا عن الوقت الذي وصلت فيه إمبـراطورية مصر الحديثة إلى أوج عظمتها، فإن علينا أن نذكر عصر أمنوفيس الثالث قبل كل شيء (١٤١١ ـ ١٣٧٥) ففي عهده كانت مصر لا تزال تتمتع خارج حـدودها ببسطة نفوذها. وكانت حينذاك أول دولة في العالم. وأما في الداخل فقد كانت تتمتع بثرائها وتنعم بالحضارة التي يجلبها الثراء. وكان الفنّ المصري في ذلك الوقت في أوج ازدهاره، ولم يوجد من قبل ولا من بعد ما يمكن أن يقارن في بساطة جماله بمعبد الأقصر، ولم يستطع النحات منذ ذلك الوقت بلوع ما بلغ ذلك الفنّ من جمال ودقة ومهارة عالية. ولكن عهد ازدهار وفخامة وأبهة كذلك العهد لا خلو من خطر الانتكاس الذي يكون مصدره البَطَر، حين يزهد المرء فيما يملك ويتوق إلى إشباع نهمه بشيء جديد، ولذا فنحن نستقبل في عصر أمنوفيس الثالث أشياء معينة ليس لها كبير صلة بما كان خاصاً بمصر القديمة. فإذا كان الملك حتى ذلك الوقت يعتبر في المعابد نصف إله فإن النصف الإنساني منه كثيراً ما يتغلب على النصف الإلهي. ففي تسجيل للحوادث ذات الشأن في عصره نراه يقص لنا على جعلان كبيرة أمه قتل عشرة ومائة من الأسود، وأنه طارد قطيعاً من الأبقار الوحشية، وأنه احتفر بحيرة كبيرة للملكة وافتتحها رسمياً، كما أرسل إليه ملك ميتاني إحدى بناته ومعها حاشية مكوّنة من ثلاثمائة وسبع عشرة فتاة. ولكنه يهمه قبل كل شيء أن يذكر الأجيال المقبلة أنه وهو الملك العظيم قد تزوّج من تي ابنه يويا وتويا، أي امرأة ليست من الدم الملكي والقارىء المفكر يقدر كيف لا

تليق مثل هذه الحوادث بالملكية المصرية. وأن الملك الذي كان يحب أن يظهر بهذا المظهر الجديد كان في طريقه إلى أن يصير حاكماً دنيوياً كما كان جيرانه في بابل وميتاني.

ومن ناحية أخرى كانت كثيراً من الأفكار قد بدأت تتخمر في عقلية الشعب المصري لأن الثورة الكبرى التي اندلعت في عهد خلفه لا يمكن فهمها بخلاف ذلك... كان الناس يضيقون بالحياة في ظروف موروثة عن العهود السابقة والتي تظهر كأكاذيب لقوم أحسن استعداداً. لم يعد الناس يريدون الكتابة بلغة شاخت منذ أمد طويل ولم يعودوا يريدون تصوير الناس على هيئة لطيفة بوجوه ذات ابتسامة محببة... إنهم صاروا قادرين على تصوير تقاسيم الوجه على حقيقتها ـ وقبل كل شيء ـ كانوا قد ملوا خدمة ديانة تجرّ وراءها أشياء لا تعني شيئاً لأناس يعقلون[١]. وكانوا يودون عبادة وحبّ الآلهة التي يرونها ويحسون بإفضالها ـ أي الشمس ـ إن هذا الجيل الجديد كان يسير إذن نحو الحقيقة.



٤٨ ـ من مبنى لأمنوفيس الثالث في طيبة.

إلى اليمين الملك وهو يتعبد ومن فوقه الشمس؛ وإلى اليسار إله الشمس في شكله القديم ولكن باسمه الجديد (برلين ٢٠٧٢)

وأمر بناء معبد للشمس في الكرنك عند نهاية حكم أمنوفيس الثالث يثبت

---

(١) يرى إدوارد ماير في كتابه Geschichte des altertums t., II^2 S. 326 كذلك أن في هذه الحركة ثورة من الطبقات المثقفة.

إلى أيّ حدّ يرجع الاتجاه الجديد إلى هذا العهد[١]، ولا شك أن هذه الحركة كانت عامة[٢]، ولو أن العلماء ـ كما سنرى فيما بعد ـ كانوا في طريقهم إلى تنفيذها. وكل المفكرين أيدوا من غير شك وريث العرش الجديد حينما جرؤ عند اعتلائه العرش على بدء العهد الجديد. ولا يمكن تقدير عمق الهوّة التي سيحفرها مثل هذا القرار.

ما هي المميزات لهذه العقيدة الجديدة؟ نحن نعرف صيغة عبرت عنها بوضوح، وهي الإسم الغريب الذي أعطي منذ ذلك الوقت إلى إلّه الشمس: يعيش حور اختى ـ الذي يتهلل في الأفق ـ في اسمه شو الذي هو أتون (الشمس) واسمه موضوع على هيئة اعتراف بالمعتقد الذي لم يكن يعني شيئاً في واقع الأمر بالنسبة للرجل العادي.

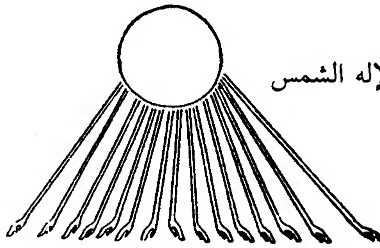
كان يجب أن يكون أقرب إلى أذهان الشعب ألا يمثل إله الشمس كسابق العهد على هيئة إنسان ذي رأس صقر، بل على صورة الكوكب نفسه فحسب. ومن الشمس تخرج أشعة تنتهي بأيدي. وهذه الأيدي معناها أن الشمس تعطي الإنسان الحياة وكل ما هو طيب. وفي بعض الأحيان كان يثبت في الطرف السفلي للقرص شعاره القديم ـ الصل ـ كأثر أخير للتصويرات القديمة. وقد وصلت إلينا محتويات هذه العقيدة الجديدة الحقيقية عن طريق تسبيحات وأدعية مختلفة نستطيع قراءتها في مقابر تل العمارنة. ولا يوجد فيها شيء متصل بالعقائد أو اللاهوت. وليس إله الشمس فيها سوى الخالق المحببّ عند كل الأحياء. وأجمل هذه التسبيحات عثر عليها في قبر الكاهن «آي» وسنتكلم عنه كثيراً فيما بعد. وهذا هو نصها:

---

(١) يملك متحف برلين كتلة حجرية من هذا الأثر رقم ٢٠٧٢ ـ قارن Schâfer في كتابه Amarna in Relégion und Kunst وكذا مقالة لبورخاردت Borchardt n° 57, 18 S. في Mitt, der Deutsch. Or. Gesell. s.

(٢) يذكر إدوارد ماير (Geschichte I², 80) بحق أن مثل هذه الحركات العظيمة لم يقم بها الكهنة أنفسهم.

٤٩ ـ الصورة الجديدة لإله الشمس



إن ظهورك جميل في أفق السماء أيتها الشمس الحية أولى الأحياء.

إنك طلعت في الأفق الشرقي من السماء وتملأ كل البلاد بجمالك.

أنت جميل وكبير تتألق وأنت فوق كل البلاد.

إن أشعتك تحيط البلاد بقدر ما خلقت منها.

أنت رع وأنت تخترقها حتى نهايتها[1] وتأسرها بحبك من أجل ابنك (أي الملك).

أنت بعيد ولكن شعاعك على الأرض... نراك ورغم ذلك لا نعرف مسراك.

عندما تختفي في الأفق الغربي تصبح الأرض في ظلام كما لو كانت مائتة.

ينامون في حجراتهم ملفوفي الرؤوس ولا ترى عين عيناً أخرى.

إذا سرقت منهم حاجياتهم جميعاً من تحت رؤوسهم فإنهم لا يحسون.

كل أسد يخرج من وجاره وجميع الزواحف تلدغ.

والأرض في سكون لأن من خلقها يستريح في أفقه.

عندما يطلع النهار وتبزغ عند الأفق وتتألق في النهار كونك شمساً تطرد الظلام وتهدي شعاعك، القطران[2] يفرحان. إنهم يستيقظون من النوم ويقفون

---

(١) في هذا مجاز لفظي مع كلمة رع.

(٢) أي سكان القطرين.

على أرجلهم عندما توقظهم، فيغتسلون ثم يرتدون ملابسهم وترتفع أيديهم علامة على التعبد عندما تظهر، ثم تنهمك البلاد كلها في أعمالها.

القطعان كلها فرحة بمراعيها. الأشجار والنباتات تخضر. الطيور تخرج من أعشاشها وتسبحك بأجنحتها. جميع الحيوانات تقفز على قوائمها وكل ما يعيش ويرفرف يحيا عندما تشرق من أجله.

القوارب تهبط وتصعد النهر. كل طريق مفتوحة لأنك طلعت. الأسماك في النهر تقفز أمام وجهك وأشعتك في وسط البحر.

أنت الذي تجعل أحشاء المرأة تثمر وتضع النطفة في الرجل. أنت الذي تطعم الابن في بطن أمه وتهدئه حتى لا يبكي، كمرضع في بطن الأم.

أنت الذي تعطي الروح لمن تخلقه حتى تحييه. عندما يخرج من بطن أمه في يوم ولادته تفتح فمه للكلام وتقوم بما يلزمه.

الفرخ يزقزق وهو ما زال في البيضة. فيها تعطيه روحاً حتى يبقى على قيد الحياة وعندما تعطيه القوّة ليكسرها يخرج ويعدو على رجليه بمجرّد خروجه.

كم عديدة هي أعمالك أيها الإله الوحيد الذي لا يوجد آخر إلى جواره... لقد خلقت الأرض حسب رغبتك أنت فقط برجالها وقطعانها وجميع حيواناتها. كل ما على الأرض يمشي على أقدامه، وجميع ما في الهواء يطير بأجنحته.

البلاد الأجنبية... سوريا والنوبة وبلاد مصر.. أنت تثبت كلاً في مكانه وتعمل ما يلزمه.

كلّ له طعامه وأيامه معدودة وألسنتهم مختلفة مثل أشكالهم. وجلدهم مختلف لأنك ميزت الشعوب.

أنت تخلق النيل في العالم السفلي وتسيره كما تشاء لإطعام الشعوب.
أنت سيدهم جميعاً ـ تشقى من أجلهم.

أنت تخلق البلاد جميعاً وتشرق من أجلها. . . كشمس النهار القوية.

أنت تعنى بالبلاد البعيدة جميعاً. وضعت نيلاً في السماء حتى ينزل لهم.

أنت تحدث أمواجاً في الجبال مثل البحر ليروي حقولهم.

كم هي طيبة أفكارك يا سيد الأبدية.

نيل السماء تعطيه للشعوب الأجنبية وللحيوانات في كل صحراء. . . تلك التي تمشي على أقدامها، أما النيل فينبع من العالم السفلي من أجل مصر.

أشعتك تغذّي كل الحقول. وعندما تتألق يحيون وينمون من أجلك.

أنت تخلق الفصول فتحفظ كل ما خلقت. الشتاء لترطبها والحرارة ليتذوّقوك.

أنت صنعت السماء البعيدة لترتفع إليها وتتأمل كل ما خلقت.

أنت وحيد. . . أنت تشرق في هيئة الشمس الحية: عندما تظهر وتتألق وتبتعد ثم تعود.

أنت تخلق ملايين الكائنات منك وحدك.

المدن والأماكن والحقول ـ الطريق والنهر. كل عين تراك أمامها حين تكون شمس النهار فوق الأرض.

أنت في قلبي ولا يعرفك أحد إبنك الملك. . . أنت تفهمه بطبيعتك وقوّتك وكل ما يحدث للعالم فهو بإرشادك لأنك أنت خالقه.

أنت تشرق فيعيشون وتغرب فيموتون.

أنت نفس دوام الحياة ونحن نعيش بفضلك.

الأعين تتأمل جمالك حتى تغيب فيقطع كل عمله عندما تغرب عن اليمين[١].

---

(١) كان المصري يعتبر الغرب أنه عن يمينه.

وعندما تشرق تنمى. . . من أجل ابنك الذي خرج من أعضائك.

حينما تقارن هذه الأنشودة الجميلة بأناشيد أخرى لإله الشمس وبالأنشودة الكبيرة للإله أمون (ص ١٥٧) فإن الفروق الأساسية لا يمكن أن تغيب عنا مع ذلك، فإن كلاً منهما تعترف بالإله كخالق يعين على الحياة، ولكن الأنشودة الجديدة تمرّ كلها دون ذكر أسماء إله الشمس القديمة وتيجانه وصوالجه ومدنه المقدسة. وهو يغفل كل شيء من سفنه وبحارته وعن التنين أبو فيس وعن الرحلة في مملكة الأموات وعن سرور ساكنيها. وعلى العموم فلا يبقى إلا القليل من مجموع المعتقدات المصرية المتوارثة. . . وهي حقيقة أنشودة يستطيع التغني بها السوري أو الأثيوبي تمجيداً للشمس. والواقع أن هذه البلاد وساكنيها مذكورون كما لو أن نظرة الكبرياء التي كان ينظر بها المصريون نحو تلك الشعوب التعسة أصبحت شيئاً قديماً، فإن الناس كلهم أبناء الله أعطاهم ألواناً مختلفة ولغات متباينة ووضعهم في أقاليم متميزة ولكنه يعطي كلاً بطريقة واحدة، فهو إذا أعطى لأحد نيله فإنه يعطي الآخر على سبيل التعويض مطراً من لدنه.

ولقد كان في استطاعة هذه العقيدة التي تؤثر كثيراً في نفوسنا اليوم أن تظهر مثل هذا إذا أتيح لها الوقت لتنتشر بهدوء بين الشعب، ولكن الأمر لم يكن كذلك، فإن الملك الشاب الذي كان معتلاً من الناحية الجسمية كما تظهره لنا صوره، كان ذا روح قلقة، وقد قام بانقلابه منذ أول الأمر باهتمام بالغ كان لا بد معه من إلحاق الأذى به. وفي بدء حكمه تراه يسمي نفسه الكاهن الأكبر لإلهه و «وحيد رع»[١]، ويتابع قبل كل شيء بناء معبد الكرنك الذي كان قد بدىء فيه كما رأينا في عهد والده.

وتظهر لنا العقيدة الأولى - في مرحلتها الأولى - كمتممة للتعليم

---

(١) معنى هذا من غير شك «محبوبه» ومثل هذه الألقاب التي تلصق بالإسم الرابع تقابلها مع الملوك الآخرين أحياناً. وأما من ناحية «أمنوفيس الرابع» فإن اللقب «وحيد رع» تقابله متصلاً باسمه منذ البداية.

الهليوبوليتاني فإن الإله ما زال حوراختي ويستمرّ تمثيله على هيئة رجل له رأس صقر. وفي المعبد الشمسي الجديد بالكرنك نرى أن أهمّ شيء فيه هو حجر Benben الذي يمثل الصخرة التي طلعت عليها الشمس قديماً. ويحمل الكاهن الأكبر نفس اللقب «أور ـ ماو» الذي يحمله كاهن هليوبوليس، وكذلك لم يكن يجوز أن يخلو المعبد الجديد من العجل المقدس «منيفس» الذي كان من المعتاد وجوده في هليوبوليس[١]. وحتى القردة ـ التي تتعبد للشمس عند طلوعها كانت تمثلها في المعبد الجديد تماثيلها[٢] ـ وعلى هذا النحو ظهرت العقيدة الجديدة التي بشر بها الملك في بدء حكمه بصفته الكاهن الأول لحوراختي الذي يتهلل في الأفق[٣]. وعلى العموم فإن اسم إلهه يكشف عن شيء غريب يكمن تحت هذه الظواهر العادية، فالإسم القديم حوراختي الذي تهلل في الأفق[٤] يفسره ما يقابله «في اسمه شو الذي هو أتون» وشو وأتون اسمان من أسماء الشمس. وهذه الأفكار ولا شكّ عميقة وهي كذلك عسيرة الفهم. وإن مظهراً خارجياً يبين لنا كم كانت صدمة عنيفة صورة الإله ذي رأس الصقر في هذا الدور الأول من تطوّر الديانة. لقد كان رع يرمز إليه منذ آلاف السنين في الإسم الملكي برمز الشمس فقط ⊙.

أما هنا فقد أدخل استعمال العلامة الهيروغليفية[٥]  ، وفي كل هذا لم يظهر بعد ما يناقض أمون أو ما يمنع من بناء المعبد الأكبر الذي يزاد على هيكله، وقد افتتح رسمياً محجر لقطع حجر Benben وفي البناء التذكاري لهذا

---

(١) وقد كان ذلك بغير شك في السنة الرابعة عند تأسيس تل العمارنة.

(٢) Gauthier L. des Rois II, P. 349 nº XIX.

(٣) يسمي نفسه كاهن حوراختي. «ذلك الذي يتهلل في الأفق».
قارن Gauthier, L. des Rois II, P. 346 VIII et 349, XIV كما أننا نجد هذا اللقب كذلك في Totb. 133.5.

(٤) مثلاً Davis. Amarna XI, 27,1.

(٥) مثلاً Gauthier L. des RoisII, P. 349, XVII b.

المشروع ظهر بكل وضوح كيف يقدم الملك التسابيح لآمون ويسميه هناك بـ «محبوبه»[1].

وفي الواقع إنه ليس هناك في عبادة إله الشمس الجديد ما يناهض أمون، لأنه منذ تحوّل هذا إلى أمون رع لم يكن في واقع الأمر سوى صورة جديدة لإله الشمس القديم. وكان كل شيء يعبده الناس تقريباً فيه موروثاً عنه. ولذا فإن الملك لم يظنّ أنه ارتكب إثماً نحو إله أجداده حين أرجع من جديد إله الشمس نفسه. ولكن هذا الهدوء لم يدم طويلاً وإننا لنجهل السبب الذي دعا إلى الاضطراب[2] ولكننا لا نخطىء من غير شك إن نحن قرّرنا أن كهنة أمون كانوا قد كشفوا في المعتقد الجديد عن هرطقة لا تحتمل، وأنهم حاولوا القضاء عليها بشتى الطرق.

وتتفجر فجأة في ثورة عاصفة ضد أمون حركات نرى آثارها إلى اليوم في كل أنحاء مصر بعد ثلاثة آلاف وثلاثمائة سنة. فحيثما يوجد اسم أمون نراه مشوّهاً، ولسنا بمستطيعين أن نصدق أن اضطهاد أمون هذا كان من صنع الملك وحده. فقد كانت هناك من غير شك مجموعة متعصبة اقتحمت كل المعابد والمقابر لمحو اسم أمون الكريه، غير ملقين بالاً للأضرار التي ألحقوها بأجمل المباني. . . وكما هي العادة ـ فإن الناحية الطريفة تبقى كذلك بعد أن تنقضي فترة الجنون هذه ـ. أليس من المضحك أن كاتب الملك العالم يراجع في مكتب سجلاته الخطابات المكتوبة بالكتابة المسمارية والمرسلة من الملوك الآسيويين ليرى إذا كان من الواجب محو اسم أمون من مكانه بها، رغم أنه لـم يكن هناك من يستطيع قراءتها غيره؟ وليس أقلّ سخرية أن أيّ كلمة لا خطر لها ولكنها تتصل بسبب ما بإسم أمون كان يجب تضحيتها في سبيل إرضاء نزوة تعصب

---

(١) Braested, Ancient Records II, 932, ef. L. D., III, 110 Legrain, Annales III, 263.

(٢) على لوحة الحدود للسنة الرابعة إشارة إلى ما حدث من «شرّ» حدث ما يماثله كذلك في عهد تحوتمس الرابع، ولكن العبارة مشوهة والمعنى غير واضح بما لا يسمح بمعرفته.

أصحاب المذهب الجديد... وكان من أكثر الأمور إثارة مطاردة الآلهة «موت» زوجة أمون. فلقد شاء سوء الحظّ أن يكتب بنفس الطريقة التي كانت تكتب بها كلمة «أم» وحينئذ فلم يبقَ شيء أمام من يريد إظهار بغضه لآلهة طيبة سوى أن يكتب كلمة «أم» بطريقة أخرى... وكان من أشد آثاره كذلك ما تعرض الملك نفسه له... فإن اسمه كان (امن حتب» أي «أمون مسرور» ولكنّ اسماً كهذا لم يعد مقبولاً فلم يبقَ أمامه إذن إلا أن يتخلى عن اسمه فتسمى باسم «أخن أتون» أي «هذا يرضي الشمس»[١]، ويلاحظ إلى أيّ حدّ أصبح الملك الشاب متعصباً، لأنه بتغيير اسمه لا ينكر أمون فقط، بل ينكر أيضاً اسلافه الأمجاد.

وبعد أن كان التحمس لإله الشمس مقصوراً على أقصاء أمون إلا أنه تطوّر بعد وقت كما يحدث عادة في مثل هذه الحالات. ما دام أتون أصبح يسمى كذلك الآن «خالق كل شيء» فإن من المستحيل بعد ذلك أن تقوم إلى جانبه آلهة أخرى. فهو يجب أن يكون الإله الواحد الحقيقي، ومن الكفر الاعتقاد بوجود غيره إلى جانبه.

وهكذا نرى أنهم لا يحذفون اسم أمون فقط ولكنهم يحذفون كذلك في حالات كثيرة أسماء آلهة أخرى، ففي معبد بتاح في الكرنك شوّهت أسماء بتاح وحاتحور[٢]، وفي بهو أعمدة تحوتمس الثالث في الكرنك لحق بهذا المصير جميع الآلهة أوزوريس وإيزيس وحوريس وأتوم ومنتو وكب... وغيرهم. وحتى العقاب نخبيت المحلق فوق الملك لحمايته لم يغفل أمره[٣]، ومحي كذلك اسم التيس المقدس[٤]. أما كلمة إله فإن جمعها آلهة يعتبر كذلك غير

(١) وقد هجر كذلك اللقب القديم: المتوج بالريشتين العاليتين، وذلك ـ لأنه مشتق من الإلهين آمون ومين.

(٢) L. D. texte III, 8.

(٣) Idem, III, 31.

(٤) Urk. IV, 224.

مقبول ولا محتمل[1]. ولكن اضطهاد الآلهة الأخرى لا تظهر له نتائج قوية كاضطهاد أمون، ونستطيع أن نحبذ الرأي القائل بأنها لم تحدث بناء على أمر الملك المباشر. وعلى العموم فإن الأمر لم يأخذ صبغته الرسمية البعيدة بعد. فنحن نرى أنه سُلم للملك في العام الخامس من حكمه تقرير إداري يخبره فيه مرسله أن معبد بتاح في حالة جيدة، وأن التقدمات لكل الآلهة والآلهات تقدم بانتظام وتقبل بنفس طيبة[2]. ولهجة التقرير لا تظهر أيّ تغيير حدث في الديانة.

وإذن فليس هناك بعد أيّ اضطهاد للآلهة الأخرى، ولكن الملك قام حينئذ بخطوة حاسمة وقطع صلته بكل ما كان له قيمة في الماضي. فأعطى لمصر عاصمة جديدة لمملكة إلهية لا يسمح فيها بوجود إله سوى إله الشمس. ومع ذلك لم يهدم الملك مدينة آبائه ولكنه لم يطق العيش أكثر من هذا في مدينة أمون، فاختار لنفسه ولإلهه مكاناً جديداً في المنطقة التي نسميها اليوم تل العمارنة، وهي تتوسط مصر إذا قيست كل مساحتها. وقد كان يوجد على الضفة الشرقية للنيل سهل واسع صحراوي، وكان مكاناً مثالياً لتشييد العاصمة العظيمة التي كان الملك يريدها والتي سميت «أخت أتون» أي أفق الشمس.

وانتقل إليها الملك مع كل حاشيته (في السنة السادسة على الأغلب) وقدم التقدمات ودعا أصحابه وكبار رجال القصر والقوّاد. وأعلن أن هذا المكان هو المكان الذي اختير لإقامة العاصمة الجديدة. وهو لم يأخذ الفكرة عن واحد من مستشاريه ولكن الإله نفسه أراد هذا. كما إنه وهو الفرعون قد وجد كذلك أن هذا المكان لم يكن لأيّ إله أو آلهة أو ملك أو ملكة... ولم يكن لأحد حق فيه. وقد وافق الكبراء على هذا ورفع الملك يده إلى السماء نحو أبيه وأشهده على قسمه: «سابني أخت أتون لأتون أبي في هذا المكان، ولن أبني أخت أتون أقرب إلى الجنوب أو إلى الشمال أو إلى الشرق أو إلى الغرب. ولن أتجاوز

---

(١) قارن Breasted Æ. Z. 50, 109.

(٢) Griffith, Kahun Pap., pl. 38.

علامات الحدود لا في الجنوب ولا في الشمال. ولن أبني كذلك في الغرب، ولكنني سأبني في الشرق حيث تظهر الشمس أي في المكان الذي أحاط نفسه بالجبال فيه. وإذا قالت لي الملكة إنه يوجد في مكان آخر موقع أجمل من هذا يليق بأخت أتون فلن ألتفت إلى كلامها، وإذا قال لي المستشارون أو أيّ شخص آخر مثل ذلك فلن أستمع إلى كلامهم... وإذا كان هناك موقع في الشمال أو في الجنوب أو في الغرب أو في الشرق فلن أقول أبداً إني سأترك أخت أتون، أو سأذهب لأبني أخت أتون أخرى في هذا المكان الأفضل. ولكن هذه أخت أتون لأتون، وهو الذي أرادها لكي يستطيع التمتع بها دائماً، ويعدد الملك المباني الكبرى التي يريد إقامتها في مدينته للإله ولنفسه وللملكة. ولا يفوته أن يعلن أنه حين يموت هو أو الملكة فإنه يجب أن يدفنا في أخت أتون.

وفي يوم آخر أقسم الملك قسماً ثانياً أصبحت بمقتضاه المساحة الواقعة بين نصب حدود أخت أتون ـ وهي مساحة عرضها ثلاثة عشر كيلومتراً وطولها عشرون كيلومتراً ـ ملكاً لأتون جبالاً وصحارى وحقول من كل الأنواع... مياه وقرى وشواطىء وأناس وقطعان، أي كل ما خلق أبي أتون»[١].

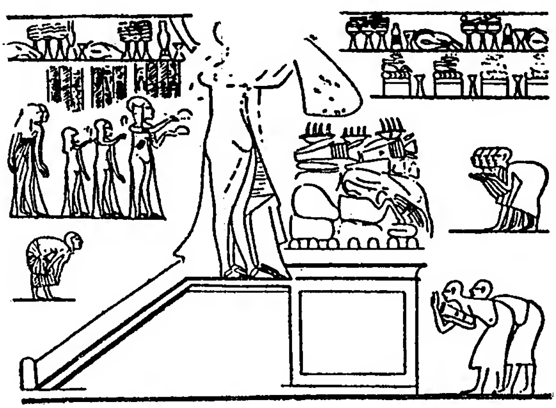
ثم بدأ في مكان لم يكن فيه شيء من قبل ـ بناء مدينة كبيرة[٢] بمعابد وقصور وشوارع طويلة على جوانبها بيوت وحدائق. وقد اشترك جميع المهندسين والنحاتين في هذا العمل الضخم. وقد وجد الفن أمامه الطريق خالياً لينمو كيفما أراد غير عابىء بالتقاليد ومحاولاً الوصول إلى الحقيقة. وقد ظهرت هذه الحقيقة بطرق مختلفة حسب طبائع الفنانين، فقد وجدت بجانبُ التماثيل

(١) لوحة الحدود، أنظر: Davies El Amarna V pl. 28.

(٢) لم يبقَ شيء من المعبد الكبير الذي كان يبلغ طوله ٨٠٠ متر وعرضه ٣٠٠ متر، ولسنا نستطيع أن نكون فكرة عنه سوى عن طريق صور جدران مقابر تل العمارنة. وكان الجزء الرئيسي فيه عبارة عن مذبح ضخم يؤدي إليه درج وكان يوضع عليه وعلى المذابح الصغيرة الأطعمة الوافرة. ويظهر أن العبادة بأكملها إنما كانت تؤدى في الهواء الطلق. انظر: Davies, El Amarna I, II.

العجيبة التي عثر عليها بورخارت في معمل نحات بعض الرسوم الكاريكاتورية، وتلك نتيجة طبيعية لتحرّر الفن. هذا، وليس ههنا المجال لبحث مثل هذه المسائل[١]، ولسنا نستطيع كذلك أن نصرّ على أن اللغة العامية حلت محل اللغة الأدبية، وأن هذه بطل استعمالها، ولكن علينا أن نوضح أن في تغييرات الفن واللغة هذه تطوّرت بالمثل موضوعات الصور والنقوش، وقد تمّ هذا حيث كان الأمر يتعلق بالملك وبالملكية.

وأما الأسلوب الرسمي الذي فرضته التقاليد من قبل فقد ترك جانباً وكان يؤمل أن يعيش الملك في تل العمارنة «حتى يَسْود البجع ويَبْيض الغراب، وحتى تروح الجبال وتجيء، وحتى يسري الماء نحو المنبع»[٢].



٥٠ ـ أمنوفيس الرابع يقدم القربان على المذبح لأتون. (Davies, Amarna II, 18).

(١) انظر كتاب: Schaefer, Die Religion und Kunst von El Amarna 1923.
نشأت الفكرة الخاطئة من أنه كان هناك قبل هذا الفن فن آخر أكثر اعتدالاً وأقل بعداً عن التقاليد من إحلال اسم الملك الجديد مكان اسم أمنوفيس الثالث على صوره. (Borchardt. Mitteil der D. O. G 57). ولقد كان يحدث ما يماثل ذلك في كثير من الأحيان في مصر، ولكن إحلال اسم الابن مكان الأب هو عمل سيء لا يتفق ونشدان الحقيقة.

(٢) El Amarna, ed. Davies II, 30. III, 3, III, 29. ef Litt. P. 363.

ويجب أن يكون لدى الملك كنوز بقدر حبات الرمال على شاطىء البحر وبقدر الفلوس على السمك وبقدر الشعر على الثيران[١]، وعليه أن يحتفل بيوبيلاته بقدر ما للطيور من ريش وما للأشجار من ورق. . .[٢] وأن مثل هذه التمنيات لا شك أصرح وألطف بكثير من الإصطلاحات التقليدية القديمة التي تتمنى أن يحتفل الملك بأكثر من يوبيل كالإله بتاح. تاتنن. ولكن كل من اعتاد طريقة الحياة القديمة كان يرى في أمثال هذه العبارات إخلالاً بالإحترام وكان يشعر بهذا خاصة أمام صور الملك.

وقد رأينا أنه منذ عصر أمنوفيس الثالث أبي الملك كانت حياة الملك الخاصة واضحة للعيان أكثر مما كانت العادة عند الفراعنة. وفي عهد ابنه يظهر هذا الطابع أكثر وضوحاً، لأن زواج الملك السعيد أصبح موضوعاً لدى الفنانين، فزوجته الشابة الجميلة «نفرتيتي» توجد إلى جانبه في كل مكان يلعبان مع بناتهما الصغيرات وتصبّ ابنته له النبيذ ليحتسيه ويجلسها على ركبتيه ويقبلها. وللملك قسم عظيم هو «بقدر ما يسرّ قلبي بالملكة وأولادها»[٣] كل هذا لطيف، ونحن نسرّ بهذه الإنسانية وبالرزانة التي توحي بها، ولكن. . . أهذا كان يجمل بملك امبراطورية عظيمة أن يفعله؟ ماذا كان رأي المستشارين القدامى والقوّاد والشيوخ حينما كانوا يرون منظر الحياة اللاهية التي يحياها فرعون الصغير إلى جانب زوجه وأولاده حيث السعادة والسعة بينما كانت مصر مهتزّة بالإنقلابات؟ إن وجودهم بعيدين عن بلاط تل العمارنة يكشف تماماً عن آرائهم لأنه في مقابر هذه المدينة لا يرقد الرجال الكبار الذين خدموا على النظام القديم بل يوجد ـ بقدر ما نستطيع الحكم ـ أولئك الذين خلقهم الملك الجديد فهو الذي بناهم (أي خلقهم) وحولهم. وهم يسمون ملكهم بأنه الإله الذي يخلق الناس. . . الذي

---

(١) El amarna III, 3, III, 29.

(٢) Idem VI, 29, 19 - 20.

(٣) لوحة الحدود V. 27.

يصنع كباراً ويخلق صغاراً[١]، ويمدحونه لأنه أغناهم. وهو - في رأيهم - النيل لكل الناس الذي يشبعهم بأطعمته[٢]، وهو الأمّ التي تصنع كل العيش في العالم والذي يطعم الملايين بأطعمته، وليس هناك فقر لمن يحبه الملك. وهو لا يحتاج إلى أن يقول «لو كان عندي»[٣] وكثيرون من هؤلاء الأغنياء الذين يثيرون العجب يتحدثون بصراحة أكثر فيذكر أحدهم أن الملك جعل منه رجلاً وسمح له بالاختلاط بالممدوحين والنصحاء والمستشارين، ولم يكن يظن أبداً أنه سيأتي يوم يتصل فيه بالمستشارين ولكنه صار الآن كاتم سرّ الملك الذي جعله غنياً بعد أن



٥١ - أمنوفيس الرابع مع زوجه وأولاده (برلين ١٤١٤٥)

(١) وبالمثل El amarna IV, 28, VI, 15,6.

(٢) Idem II, 7, III, 19.

(٣) El amarna IV, 35.

كان فقيراً[١]. ويحكي لنا آخر أسراره في سذاجة أكثر... كان في حالة وضيعة ـ من ناحية أبيه وأمه ـ ولم يكن يملك شيئاً، وكان من حثالة الشعب يلتمس خبزه... وقد جعل الملك من هذا المتسوّل ورجاله (يعني بلا شك مواطنيه) يرمقونه بعد أن صار الآن سيد المقاطعة[٢].

وعندما يفخر العظماء أنهم عصاميون فإن ذلك يدل على الأقل أنه كان من المستحبّ في بلاط تل العمارنة أن يكون الشخص من خلق الملك، وهذا يدلنا كذلك عن ماهية حاشية الملك، فإن نبلاء أبيه قد ابتعدوا عنه، فاستوجب ذلك البحث عن رجال آخرين[٣]، وكان من البديهي أن يختارهم من بين أعوانه... من بين من كانوا يحبذون مبادئه... لأن الملك كان يقاوم كل من يجهل مذهبه، ولكنه كان يكافيء من يعرفه[٤]، ولذا كان الجميع يفخرون بالاستماع إلى مذهبه[٥] مذهبه الجميل في الحياة[٦]، مذهب فرعون[٧]، أو كما يقال بحماس «المذهب ـ نعم المذهب»[٨].

إنهم سمعوا مذهبه وعملوا بمقتضى قوانينه[٩] أو بمعنى آخر تابعوا العقيدة[١٠]. وأما أحدهم فقد علمه الملك بنفسه فاعتنق مذهبه أما الآخر فيقصّ

---

(١) Erman, Litt, 7, 8.

(٢) Idem V, 4.

(٣) عثر في منحت النحات الذي أشرنا إليه من قبل على كثير من الصور الصادقة التي تمثل بغير شك عظماء البلاط. وفي ملامح وجوههم الجافة مما يوحي بضعة أصلهم.

(٤) El Amarna V, 21, 27.

(٥) Idem I, 8, V, 2, VI, 25.

(٦) Idem VI, 25, 16.

(٧) Idem I, 30.

(٨) Idem I, 8, VI, 19, VI, 25, 16 ـ لا تكفي الكلمة البسيطة لشيء رائع كهذا.

(٩) Idem VI, 32, cf. VI, 34.

(١٠) Idem V, 2, VI, 33, 10 w.

أن الملك اهتمّ بتعليمه كل صباح لأنه كان يتصرف طبق ما يوحي له به مذهبه[١].

ولسنا نريد أن نعتقد أن هذا مجرّد كلام إذا كان المذهب من عمل الملك وحده. إن الأُسس التي قام عليها هذا المذهب ترجع من غير شك إلى شخص آخر، ولكن كان من فضل الملك أنه عممه ودافع عنه ولذا نراه يسمي نفسه ابتداء من السنة الخامسة من حكمه «ذلك الذي يحيا من الحق»[٢] وبعد ذلك بعام أطلق على نفسه ـ بطريقة أكثر وضوحاً ـ «ذلك الذي يعرّف اسم أتون»[٣] فهو إذن نبيّ الإله كما نستطيع أن نقول ومن واجبه أن يبصّر بجمال أتون ويمجد اسمه وينشر في البلاد المعرفة بخالقه، ويجعل اسمه واضحاً للناس، لأن أباه الإله تجلى له وأعطاه هو وحده حقّ فهم أفكاره وقوّته[٤]، وقد زاد هذا المذهب الذي كان الملك يدعو له. . . زاد انتشاراً منذ الاستقرار في تل العمارنة. ألم يكن في ذلك بقايا أثر للعبادة القديمة التي توبعت فيها عبادة إله الشمس القديم حوراختي في مظهره الإنساني كرجل برأس صقر؟ ثم كيف أن هذه العلامة الهيروغليفية القديمة  التي كانت ترمز له ظلت في اسم هذا الإله؟ لقد أصبح من الضروري حذفه كما سبق أن حذف العقاب  من كلمة أم، وقد كتب بدلاً من الصقر علامتان أبجديتان هما ح، ر[٥]، ولم يستطع أشد المتعصبين للمذهب الجديد الاحتجاج على ذلك، وفي واقع الأمر أن القراءة الجديدة للكلمة لم تعد سهلة[٦].

---

(١) Idem. VI, 25, 14 وقارن كذلك Idem. VI, 15, 10, VI, 21, 23 وذكر المذهب كذلك في 1,35,II, 8 VI, 15, VI, 21, 14.

(٢) Gauthier L. des Rois II, 345 ss.

(٣) El Amarna VI, 16, II, 34, V. 27 وفي جهات أخرى.

(٤) الأنشودة الكبرى I, 12 ولسنا نعرف على التحقيق إن كانت Sekher تعني الأفكار ـ أفكار الإله ـ أو هي تعني «كيانه» فقط إذا أخذنا معنى آخر للكلمة.

(٥) Schâfer: Relegion Kunst von El Amarnra P. 27.

(٦) تبدو لنا التفسيرات الأخرى في الكتابة سخيفة تماماً، فعلامة «مري» بمعني محبوب كانت =

ولكن هذا التغيير لرمز حور في اسم الإله لم يكن إلا اضطراراً. وفي العام الثامن خطا الملك خطوة أخرى إلى الأمام، فأعطى صورة جديدة لاسم الإله إذ استبدل أولاً اسم حوراختي بعبارة أخرى هي «سيد الأفقين» وهكذا يزداد اسمه معنى جديداً منقولاً عن أحد ألقاب الملك. ومنذ ذلك الحين يصبح اسم الإله هو «يحيا ـ رع ـ سيد الأفقين ـ الذي يتهلل في الأفق ـ باسمه كأب لرع ـ الذي أتى بصفة أتون» ولسنا ندري إذا كنا نترجم على وجه الصواب هذه الكلمات الغامضة. والمصري الذي لم يكن قد درس هذا المذهب بتعمق لم يكن في وسعه الوصول إلى مدى المعنى المقصود. فإن هذه الكلمات كانت تخفي من غير شك إنكاراً أكثر عمقاً مما صادفناه حتى الآن.

وإننا إذا حاولنا فهم هذا المذهب على وجه الدقة في تحليله الأخير فإننا نلاحظ أنه يتجه الآن ـ على عكس ما كان عليه في البدء ـ نحو الاعتقاد بالتوحيد. فإنه يوجد إله واحد ليس له شريك. وكل ما كانت تقوم به جمهرة الآلهة الأخرى ينفرد هذا الآن بعمله لأن فيه ملايين المخلوقات... لقد خلق نفسه بنفسه، وهو يعاود في كل صباح خلق نفسه. وفي خلال النهار يجوب السماء ولكن لا ندري كيف يحدث ذلك، لأنه إذا كان التعبير القديم الذي يذكر أن الشمس «تسبح» ما زال مستعملاً فإنه لم يعد يذكر في أيّ مكان شيء عن سفينته أو عن التمثيلات المتصلة بهذه الرحلة، ولا يذكر بالضبط كذلك في أيّ مكان تستقرّ الشمس ليلاً، وهي ربما تكون في العالم السفلي، ولكن ليست هناك إشارة صريحة إلى العالم الآخر كما سنلاحظ ذلك فيما بعد.

ولم تعد للإله صفات مشتركة مع الصور القديمة لإله الشمس أتوم وخبري وحوراختي. ولم يحتفظ له سوى بإسميّ أتون ورع اللذين يمثلان الشمس نفسها. وهو في الحقيقة الكوكب نفسه وليس إلهاً على الطريقة القديمة، واعتقد

= تكتب في مقابر عدة بعلامة «شن» كما كان يضاف إلى الرغيف في علامة «حتب» كذلك كعكتان.

المصري قبل كل شيء أن هذا الكوكب هو الموزّع الأكبر للنعم على كل من يحيا.

وإلى هذا الحدّ نرى العقيدة الجديدة مفهومة ومنطقية وهي ـ بقدر ما نحس ـ تفوق بكثير تعدد الآلهة الذي كان يدعو قديماً إلى الإرتباك والحيرة. وهذه العقيدة تمنع هذا التعدد. وفي رأينا أن تصرف الملك كان له ما يبرّره حتى إذا فكرنا في أولئك البسطاء الذين حرمتهم الثورة من أقدس شيء كانوا يملكونه... ولكن ظهرت بسرعة ـ مع الأسف ـ في العقيدة الجديدة التي أرادت أن تكون طاهرة ومعقولة علامات الضعف وعدم التبصر، فأصبح هذا الإله الواحد يتجلى على أشكال ثلاثة[١].

فهذا هو إله الشمس العام المشترك للعالم كله «الإله الطيب الذي يحبّ الحقّ سيد السماء والأرض أتون الكبير الحيّ الذي ينير القطرين».

ولكن يظهر بجانبه شكل آخر لإله الشمس كما يعبد في تل العمارنة «أتون الحيّ في بييت أتون في تلك العمارنة» ولقد فهم على أنه ملك واسمه مكتوب كالأسماء الملكية وهو يحمل كملك لقب «الممنوح الحياة الأبدية» ويظهر أنه كان يجب ـ طبقاً للعادة القديمة ـ أن يكون هناك إله محلي خاص بالعاصمة، وأما الشكل الثالث الذي تتجلى فيه الألوهية فهو الملك نفسه. ذلك الذي طرد الآلهة الأخرى وأصبح من حقه أن يعبد هو نفسه كإله. ولقد كان العرف شائعاً منذ العصور السابقة أن يعترف بالملك كإله، ولكن هذه العادة لم تخرج أبداً عن مجال الألقاب والعبارات التقليدية. وحيث إن كل تقليد كان يجانب الآن. فإن في استطاعة الملك دون تردّد أن يعبد كإله. وحتى في صلاة الموتى القديمة كان يعترف به كإله[٢] وهو لا يمدح فقط باعتباره الشمس أو ابنها الطيب ابن الأبدية الذي جاء من الشمس، ولكنه عرف كذلك كيف يجب أن تُتخيل الصفة الإلهية

(١) لقد لاحظ Davies هذا الأمر: إن الثلاثة ممسكون جنباً إلى جنب على أبواب المقابر El Amarna II, 5, VI 32 وكذا لوحة الحدود El Amarna V pl. 27.

(٢) Idem III, 19, II, 9 VI 25, 27.

للملك. فكما أن الشمس تخلق نفسها كل صباح فإنها كانت تلد يومياً ابنها[١] الملك. «وهي تلد بغير انقطاع ابنها العظيم[٢] والشمس تجدّد باستمرار طبيعته الإلهية. ولكي نتعرف على المدى الذي وصلت إليه عقيدة الناس في ألوهية الملك ـ ولو في الظاهر على الأقل كما ذكرنا ـ نقول بأن الصلاة الجنزية في شكلها القديم ظهرت على جدران المقابر ولكنها لا تخاطب الآن الإله الشمسي وحده، بل تخاطب كذلك الملك والملكة[٣].

ويلاحظ القارىء في كل ما عرضنا له عن العقيدة الجديدة أن شيئاً واحداً لم يذكر قط ولو أن المصريين كانوا يعطونه أكبر الأهمية وهو مملكة الموتى... وفي الواقع أن هذا الشيء لم يذكر في مجموعة نقوش تل العمارنة ومعظمها مأخوذ من المقابر، لأن هذه العقيدة الصافية لا تتفق بسهولة مع ذكر الموت والدفن، ولس بمستطاع إهمالها، كما أنه لا يستطاع كذلك إظهار الاغتباط بها. فإذا كانت هناك مقابر كبيرة قد حفرت في الصخر، فهذا لأن العادة تقضي بذلك، ولأن الموتى يجب أن يستقرّوا في المكان اللائق بهم، ولكن العاطفة الدينية القوية التي دفعت قديماً إلى بناء الأهرام تنقصنا هنا، وحتى قبر العائلة المالكة لا نراه متسعاً اتساعاً كبيراً. وفي كل مقبرة تقريباً لا يكاد يوجد كاملاً سوى الصالة الكبرى التي تستعمل للاحتفالات أيام الأعياد لأنه ـ حتى في المقابر ـ كانوا يفضلون التفكير في الحياة بدلاً من الموت. كما ذكروا النهار في أناشيد الشمس وأهملوا الليل.

وجدير بالذكر أن الملك كان يتكلم عن تأثيث مقبرته دون الاستعانة بالإصطلاحات والتورية المعتادة[٤] فهو لا يتحدث عن «الطيران إلى السماء» أو عن «الرسو» ولكن يتكلم بمنتهى البساطة عن الدفن. وهو يذكر مقبرته الخاصة

---

(١) Idem VI, 19, 21.

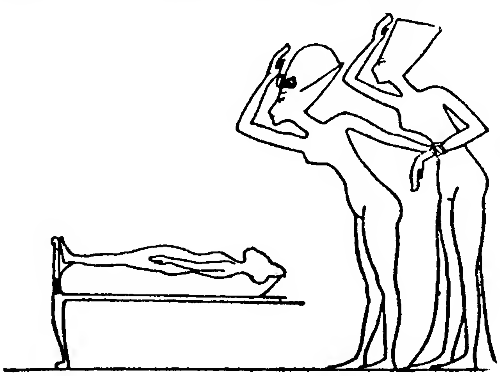
(٢) Idem VI, 33, 8.

(٣) Idem II, 9, III. 16.

(٤) لوحة الحدود: Idem V, 30, 17.

بطريقة مبسطة ليس فيها تعقيد. ولم تندثر العقيدة القديمة التي تقول بأن الأموات يسكنون في العالم السفلي[١] ولكن يتكلمون عنهم عادة كأنهم يسكنون مقابرهم. «هنا في الجيل يتحوّل الميت إلى روح حية»[٢]، كانت تمثل حسب الطريقة القديمة على هيئة طائر وهو يجثم عادة فوق الجثة التي كان قد خلقها إله الشمس[٣] ولكنها تستطيع الخروج من المقبرة والعودة إليها لأنها تريد التمتع بالشمس والدنيا، ويتقبل الميت كذلك المأكولات[٤] ويدعى كذلك إلى المأدبة التي يقدمها له الملك أو أفراد أسرته، وينال كذلك نصيبه مما يتبقى في المعبد[٥]، فإذا كانت هذه بالذات هي المعتقدات القديمة فإنهم يتصوّرون من ناحية أخرى حياة المتوفي التي تشبه الحياة التي كان يحياها أشراف تل العمارنة[٦].

فحينما تطلع الشمس توقظ الميت فيقوم هذا ممتلئاً سروراً ثم يغتسل ويرتدي ملابسه. وعند باب المقبرة يصلي للإله ويذهب إلى صالة المعبد الكبرى ليخدم الشمس ثم يتنزّه في الحديقة التي زرعها بنفسه يشرب الماء على شاطىء بحيرته.



٥٢ ـ الملك والملكة إلى جانب جثة ابنتهما الصغرى

---

(١) Idem I, 34, IV, 39.

(٢) Idem VI 33 w.

(٣) Idem VI, 33.

(٤) Idem III, 2, IV, 3.

(٥) Idem I, 39, IV, 3, IV, 39, VI, 25.

(٦) ما يلي مأخوذ من El Amarna IV, 4, VI, 1.

وثمة شيء آخر يدهشنا في نقوش تل العمارنة هذه إذا أنها لا تذكر أبداً في أيّ مكان منها شيئاً عما كان يشغل بال المصريين عن اعتقادهم في أوزوريس ومملكته، فنحن لا نجد أثراً للمحاكمة التي يتعرض لها الناس بعد موتهم والتي يأملون الخروج منها مبررين.

ولكن كلمة «مبرر» تظهر أحياناً[١] وهي لا تتضمن بالضرورة المحاكمة. وهي هنا ـ كما كان الأمر من قبل ـ عبارة تقليدية لا تعلق عليها أهمية أكثر مما تعلق أهمية على عبارتنا «المرحومون» ومن ناحية أخرى نرى في المقابر ألواناً كثيرة من العادات الموروثة عن العصور القديمة (قارن ما جاء بفصل ١٥) والتي لا تتفق ونظريات العصر الحديث. ولم يعد يوجد أوزوريس وليست هناك محاكمة أموات ولكنهم لا يزالون يضعون على المومياء الجعل الكبير الذي كان عليه مساعدتهم في هذه المناسبة. كما كان ينقش دعاء لأتون[٢]، وكذلك فإن التماثيل الصغيرة التي كان عملها خدمة الميت في العالم السفلي احتفظوا بها[٣]، وحتى قبر الملك حوى مثل هذه التماثيلل وقد كتب عليها دعاء لأتون. ولم ينس كذلك الهرم الصغير إذ أصبح يحمل الآن صورة ورسم الإله الجديد[٤] وقد احتفظ بالتابوت الحجري الكبير في هذا العصر بهيأته العادية: في الزوايا الأربعة إلهات ما زالت موجودة مادة أذرعها علامة على الحماية، ولكنها لم تعد تمثيلات لإيزيس ونفتيس، بل حلت محلهما آلهة جديدة هي الملكة[٥].

وحين نلقي الآن نظرة ـ بعد آلاف السنين ـ على مملكة تل العمارنة فنحن مدفوعون نحو رؤية عالم تظلله السعادة وتباركه أشعة الشمي. زوجان ملكيان مع بنات صغيرات لطيفات. مدينة مليئة بالمعابد التي تسري بها الأنعام وقصور

---

(١) Idem IV, 39, V, 21, VI 116, VI 27.

(٢) برلين ١٥٠٩٩ قارن Schaefer Æ. Z. 38, 45.

(٣) Petriee, Amarna, 17 - 18, Culte d'atounre I, 6 ss.

(٤) برلين ١٤١٢٣.

(٥) قارن Schâfer, Æ. Z. 55.3 ـ تابوت الأميرة برلين (١٤٥٢٤).

ومساكن وبحيرات... كل هذا محاط بهالة من الإيمان المرح الذي لا يعرف إلا الصلوات لشكر الخالق المملوء طيبة ولا يعرف إلا العدل نحو الغير... حتى إذا كان من شعب غريب ـ وكان هذا شيئاً عجيباً نادراً في العالم ـ ولكن هذا السناء لم يعهده العالم من قبل، ولم يكن الفقر والهموم بعيدين عن بلاط تل العمارنة. وبالرغم من جهود الملك فإن غالبية الشعب قد رفضت العقيدة الجديدة وظلت تعبد آلهتها القديمة سراً(١).

ونحن نجد الآن صعوبة في سبب فهم فشل العقيدة الجديدة تماماً، إذ يلوح أنه كان يجب قبولها كوسيلة لتحرير آلاف المواطنين في عصر رائع الازدهار، ولتنقية الديانة من كل الحشو الذي تراكم فيها منذ آلاف السنين. ولكن بجانب الطبقة المتعلمة قامت طبقة الشعب التي كانت لا يمكن أن تجمع شتاتها عقيدة أساسها المنطق. وكان ينقصها أيضاً شيء آخر لا تستطيع خير ديانة الاستغناء عنه وهو الناحية التصوّفية وناحية ما وراء الطبيعة، ولذا فقد فضل مجموع الشعب البقاء على عقيدته القديمة(٢) حيث توفرت فيها هذه الناحية. تجد هذه العقيدة السبيل ميسراً بين أفراد الشعب المصري. ولم تكن حامية الملك في تل العمارنة مكوّنة من أسيويين وزنوج(٣) إلا لهذا السبب. وهناك شيء آخر خطير هو أن قوّة المملكة الخارجية تضعضعت... حقاً إن نقوش تل العمارنة لا تشير إلى ذلك، «وإن الأمراء الأجانب ما زالوا مستلقين عند أقدام الملك»(٤)، وإن الإله يكل أمر البلاد كلها إلى الملك حتى ينفث بحميته فيهم(٥) وحتى إن

(١) وفي تل العمارنة نفسها، حيث غيّر أحد الأشخاص اسمه من «بتاح موزي» (بتاح منح الطفل) إلى «رع موزي» (رع منح الطفل)، عثر في أحد المنازل على نصب كرّس للإله بتاح.

(٢) يدل على ذلك ما أصاب أعمال الملك من انهيار بوفاته.

(٣) El Amarna I, 15 ومثلاً Æ, Z., 36, 128.

(٤) Idem I, 41 e.

(٥) Idem II, 30.

هناك والياً أجنبياً يمجد الملك في رسالة ويصفه بأنه ذلك الذي يعطي الراحة إلى البلاد بقوّة يده، ويشبهه ببعل صاحب الصوت الذي يرعب كل البلاد[1]، ولكن هذه مصطلحات تقليدية ونحن نعلم الحقيقة نقلاً عن مصادر أخرى، «منها أنه حين أرسل جيش إلى فينيقيا لتوسيع الحدود كان ذلك دون طائل»[2]. وحتى إذا نحن لم نشأ التسليم بذلك الأمر لأنه جاء من جهة معارضة فإن خطابات أمراء فلسطين المحفوظة في سجلات تل العمارنة تظهر بجلاء سير الأمور.

هكذا كانت مملكة العقيدة الجديدة تتجه نحو خراب مؤكد. وقد نتساءل عما إذا كانت ستختفي بسبب ضعفها أو أثر حدوث كارثة. وكما يتضح لنا اليوم لم تسقط هذه المملكة بسبب اضطراب مفاجيء بل تدهورت قليلاً قليلاً. أصابتها الهزّة الأولى عند موت الملك الذي لم يترك ولياً للعهد بعد أن حكم البلاد تسعة عشر عاماً. وحينئذ انتقلت مقاليد الحكم إلى زوج ابنته الكبرى الذي خلفه صهر آخر أصغر سناً وهو المعروف بالملك توت عنخ أتون، أي صورة أتون الحية. غير أنه كان يجب على أولئك الذين وضعوا الغلام على العرش أن يتبينوا أن المذهب الجديد قد خسر المعركة... وكان رد الفعل محتوماً. وهناك لوحة[3] تدلنا على أنه في عصر توت عنخ أتون كانت عبادة أمون وموت مسموحاً بها، وهكذا أعيد السلام مع أمون. وكعلامة لهذا التوفيق تخلى الملك الشاب وزوجه عن اسميهما المهرطقين فتوت عنخ أتون أصبح توت عنخ أمون. ثم يرجع إلى طيبة ويفتتح عهده بمرسوم يلمح فيه إلى البؤس الذي انحطت إليه البلاد: «تهدمت المعابد في البلاد كلها وأما واجهاتها فقد اختفت معالمها. وهذا هو السبب في أن الآلهة استدبرت البلاد (أدارت ظهرها إليها) وصار الجيش عاجزاً، وعندما كان المرء يتضرّع إلى إله أو آلهة لاستشارتهم كانوا لا يستجيبون له. لكن الآلهة قد أقاموا ملكاً جديداً على عرش آبائه ـ طرد الإثم من البلاد...

---

(١) Knudzon, El Amarna Tafeln n° 147 (P. 609).

(٢) لوحة توت عنخ آمون بالمتحف المصري.

(٣) برلين ١٤١٩٧ (السجل المفصل صفحة ١٢٨).

الحقّ يبقى والباطل يزهق... أصبحت البلاد من جديد كما كانت قديماً».

وإذن فالملك يقيمم المعابد ثانية ويجملها ويصنع تماثيل لأمون وبتاح من الذهب الخالص ذات حجم كبير حتى إنه وجب زيادة عدد المحفات حتى يستطاع حملها في الاحتفالات. وقوارب الآلهة أعيد صنعها من خشب الأرز وزخرفت بكمية من الذهب حتى إنها تجعل النهر مضيئاً. وجميع العطايا زيدت. وعلاوة على ذلك يكرّس الملك للمعابد عبيداً من الرجال والنساء مغنيات وراقصات كانوا جميعاً (ملحقين) ببيت المال ثم عيّن كهنة مرؤوسين ورؤساء اختارهم من بين أبناء البيوتات العريقة وأولاده المتعلمين أصحاب الأسماء المشهورة. ودفع لهم أجوراً مرتفعة. ونرى من ذلك مدى الإصلاح الذي أردف به الملك الشاب اسمه.

ولكن توت عنخ أمون مات هو كذلك شاباً. ونحن نملك الآن الرسالة التي بعثت بها أرملته إلى ملك دولة الحيثيين الكبرى تطلب إليه أن يرسل إليها أميراً من أفراد عائلته ليتزوّج منها، ولكنه لم يلبّ طلبها[1] فعاد العرش إلى ذلك الملك الذي كان يشغل الوظائف الكبرى منذ أول العهد الهرطقي والذي نشك في أنه هو الذي أقام الملك الشاب على العرش. هذا هو الكاهن «آي» وكانت زوجته «تي» مرضعة الملك الهرطقي فصار هو ملكاً واغتصب المباني والآثار التي أقيمت لأمون في عهد الملك الشاب.

وقد ترك لتوت عنخ أمون المسكين كنوزاً لا تحصى، كان هذا الملك قد أعدها لمقبرته خلال حياته كلها، ولكن لم يعطه المقبرة الكبرى التي كانت قد أعدت من أجله، بل دفن الجثة في تسرّع وبغير نظام في قبر ضيق بعد أن حاول توسيعه بسرعة، وقد كان لهذه المقبرة الوضيعة أغرب مصير، إذ أنها الوحيدة من بين مقابر الملـوك التي لم تستهدف للسلب طوال آلاف السنين. وعند اكتشافها عام ١٩٢٢ انتشر اسم توت عنخ أمون في العالم بأجمعه. وقد احتجز «آي»

(١) يبدو أن الأمير قتل أثناء رحلته.



قناع من الذهب من مومياء الملك توت عنخ آمون

لنفسه المقبرة الكبرى التي كانت قد أعدت من أجل توت عنخ أمون، ولكن ذلك لم يجلب له حظاً حسناً، إذ أن المقبرة خربت وسلبت محتوياتها[1]. على أن

(١) توجد بقايا من تابوته في متحف برلين.

حكم «أيّ» لم يستمر سوى بضع سنين وخلفه ملك آخر أعظم منه هو «حور محب» القائد العام للجيش في منفيس وكان هو الآخر من المقرّبين للملك الهرطقي، وصار على ما يبدو السيد الحقيقي لمصر السفلى. وفي المقبرة التي جهزّها لنفسه في منفيس[1] مُثّل وهو يستقبل سفراء الشعوب الأجنبية. وقد ذهب إلى طيبة حيث توّجهُ أمون ملكاً، ونحن نجهل ما حدث بعد ذلك، ولكن يمكن أن نؤكد أنه عند اعتلاء حور محب العرش كانت الهرطقة قد اختفت حتى في أبعد مظانها. وفي نفس هذا الوقت دمرت المباني التي كانت تذكرّ بالعهد الهرطقي في طيبة واستعملت أنقاضها كموادّ للبناء.

وفي ذلك الحين كذلك خرب تل العمارنة... ولم يترك شيء من معبدها الأعظم. أما موضع ذلك المعبد فقد صار جدباً بطريقة مغرضة إذ لم يكن من المرغوب أن تنتشر الحياة في هذه البقعة اللعينة.

وقد خُربت مقابر تل العمارنة إذ ذاك ولم تفلت كذلك المقابر الملكية من هذا المصير. ولكن لا بد أن تمكن أحد المخلصين لأخناتون في عهد توت عنخ أمون من إنقاذ بعض محتوياتها وإخفائها في مقبرة قديمة في طيبة. أجل لقد اختفى تابوت الملك نفسه. ولم يعد الرجل الذي حاول إعطاء شعبه عقيدة جديدة يرقد إلا في تابوت من الخشب[2]. وهكذا انتهت هذه الفورة كما تنتهي كل الثورات ـ إنها تترك وراءها من غير شك شيئاً محموداً ولو لم يكن سوى جزء بسيط مما كان يؤمل فيه وبعد كلّ الأسى الذي أرهق الشعب تعود هذه الأضرار والمساوىء القديمة في صور أخرى.

---

(١) صورها الجميلة مبعثة اليوم في متاحف أوروبا.

(٢) وهو الآن في المتحف المصري، ولا يملك المرء إلا أن يتساءل بطبيعة الحال عما إذا لم تكن الجثة في خلال «هذا الانقاذ» قد استبدلت بغيرها. إن علماء التشريح يقرون أن الجثة التي عثر عليها هي لرجل في الثلاثين من عمره، ويبدو أن هذا السن قليل لأخناتون الحقيقي.

ومن بين مراحل التقدم التي أدخلها عصر تل العمارنة لم يبقَ سوى مظهر واحد هو استعمال اللغة العامية.

أما من جهة الفن فلم يحدث سوى القليل من التحسينات. والحركة الدينية الكبرى لم تكن لها إلا نتيجة واحدة هي إحداث رد الفعل الذي كان دافعاً للإنحطاط الروحي في مصر.

* * *

الفصل التاسع

نهاية الدولة الحديثة

هكذا انتهت الحركة العظيمة بخاتمة، لم تكن لتستطيع أن تفرّ منها، فقد دمر الحقد كل ما كان يذكّر بالهرطقة، وبعد ذلك بعشرات السنين ـ كما تذكر بنود قضية مدنية ـ كان يتجنب ذكر اسم أمنوفيس الرابع الذي توارى منذ أمد طويل ولم يعد الحديث يجري عنه إلا ويذكر لقب مجرم تل العمارنة[١]. وكان أنصار أمون ينشدون في ابتهاج.

«الويل لمن يمسُّك! لقد أسست مدينتك خير تأسيس، ولكن ذلك الذي حاول المساس بك قضي عليه! الخزي لمن يسيء إليك في أيّ بلد كان! إن شمس من لا يعرفك قد غربت، أما من يعرفك فيضيء... إن معبد من مسَّك في ظلام، وأما الأرض كلها ففي النور[٢]...» إنه كان حقاً ظلاماً ذلك الذي خيّم على مجرم تل العمارنة المخيف... وقد اختفت كل المعلومات الخاصة به. ويرجع الفضل إلى لبسيوس في إلقاء بعض الضوء على اسمه وأعماله بعد أن اكتنفهما النسيان لأكثر من ثلاثة آلاف عام[٣].

ولكن الدين الذي أعيد تدعيمه لم يكن يشبه تماماً المعتقدات القديمة.

---

(١) Inschrift des mes, Æ. Z., 39, 24.

(٢) Erman, Æ. Z., 42, 106.

(٣) Lepsius: Reisebriefe P. 35 et 101.

والواقع أن آلهة المدن المختلفة قد استعادت حقوقها... وأتون الذي كان طاغياً عليها قد غُلب على أمره، ولكن الواقع كذلك أن طاغية آخر قد حلّ محله... هو أمون رع... ومن البديهي أن يحدث ذلك. أليس إليه وإلى مدينته يرجع الفضل في الانتصار في المعركة ضد الهرطقة؟ فبفضله أحرق عدوّ رع حتى استحال إلى رماد[١]، وبفضل انتصاراته استطاعت طيبة أن تقدم للبلاد سيداً واحداً، وهذا السيد الوحيد لم يكن إلا أمون رع لأنه هو مالك البلاد كلها والحقول جميعها كانت له وذلك جميع الشواطىء والأراضي... له وحده أنشئت سجلات المساحات والمقاييس، ومن أجله تفد جميع السفن من البلاد الأجنبية محملة بالثروات... من أجله ينمو شجر الأرز الذي يستعمل في بناء قاربه الفاخر... الجبال تزوّده بالحجارة لمبانيه الضخمة[٢]... الآلهة الأخرى لا تحيا إلا بفضل طيبته... إنها تلتمس منه التزوّد بالحياة وهو يعطيها الخبز من مملتكاته[٣]، وبفضله كذلك لها نصيبها من المنشآت والتماثيل والمعابد[٤] في مصر. وهو له في كل مكان معابد فيستطيع أن يسكن حيثما يطيب له[٥]... له العالم بأسرة حتى بلاد الأعداء... الفرات والمحيط يعيشان في وجل منه[٦] وهو ككل ملوك عصره يمدح لأنه مبعث رعب لدى خصومه... إنه يلقي بهم على وجوههم ولا يستطيع أحد مهاجمته، هو الأسد الزائر ذو المخالب الفظيعة، هو الثور ذو الحوافر الثقيلة، هو الطائر الكاسر الذي يحطم أعضاء وعظام المعتدي... الجبال ترتعد من تحته والناس يخافونه[٧].

---

(١) أنشودة أمون في «ليد» فقرة ٧، ٧٠٠ ـ نفس المرجع لكل ما يلي ـ قارن Litt. P. 363 ss.

(٢) أنشودة أمون في «ليد» فقرة ٦.

(٣) Idem, verset 60.

(٤) Idem, verset 60.

(٥) Idem, verset 60.

(٦) Idem, verset 6.

(٧) Idem, verset 50.

ولكن الواقع أن هذه القوّة وهذا الطابع المخيف لم يكونا العنصر الأساسي في طبيعة أمون، ورغم اضطراب هذا العهد فإنه ظل نفس الإله اللطيف الذي عرفه الناس من قبل محسناً خيراً للناس والمخلوقات جميعاً.

ومما يقدم لنا فكرة عن طبيعة أمون في العصر التالي للهرطقة نشيد أمون في مجموعة مدينة لايدن الذي استشهدنا بكثير من فقراته. ويظهر الإله أمون في هذا النشيد مخالفاً لأمون الذي عرفناه في الفصل السابع، فإذا كان هذا خليطاً من الإلهين مين ورع فإن أمون الآن لم يعد إلا مجرّد إله شمسي وقد فقد كل مشاركة مع مين. وهو يمخر عباب السماء بصفته إلهاً شمسياً في مركبه كعادته السابقة وهو يتغلب على تنين السحب ويجول في العالم السفلي حيث يلقى مومياءه[١]... هو يصنع السنين ويصل الشهور ببعضها البعض... الأيام والليالي والساعات تنتظم طبق مسيره[٢].

ولكن نشيدنا لا يتعرّض للأطوار المختلفة لرحلة الشمس وهي التي كانت تشغل حيزاً ضخماً من النصوص الأكثر قدماً. والقردة لا تحييه في الفجر والآلهة لا تشيعه في مركبه ولا يذكر أوزوريس ولا الموتى المساكين، بل ـ وأكثر من ذلك ـ لا نجد أثراً للتجيان والمعابد التي كان يختصّ بها أمون رع. ويغلب على الظنّ أن هذا الصمت لم يكن وليد الصدفة فإن مؤلف الأنشودة ربما كان يعتبر هذه الأمور ثانوية، بل لا تتفق ومستلزمات العصر، ولو أنه من المحتمل أن تكون قد احتفظت بمكانها في الشعائر الرسمية. ويلاحظ أن الشاعر لا يزال متأثراً بهذه الفترة الهرطقية، وما زالت صفته كإله طيب تشغله أكثر من الشكليات المتعلقة به. فهو يصف هذه الطيبة على طريقة أصحاب النشيد السابق أو نشيد تل العمارنة، فيقول عن أمون: «حين ينام الناس تكون عيناه متيقظتان[٣] وعندما

(١) Idem, verset 30.

(٢) Idem, verset 20.

(٣) Idem, verset 20.

يستيقظ النوّام يبدو لهم مضيئاً في مظهر جديد[١]. إنهم يولـون وجوههم ناحيته ويقول له الناس والآلهة: نعم المجيء والطبيعة كلها تبتهج كما تبتهج الآلهة والناس[٢]، كل الأشجار تهتزّ أمامه وتستدير نحو عينيه وتتفتح أوراقها. الحيوانات تقفز في المياه وكل الدوابّ تقفز أمام وجهه. الطيور جميعاً ترقص له بأجنحتها... السماء تتلألأ كأنما صيغت من ذهب ومحيطها يشبه اللازورد. الحقول تخضرّ كأنما هي مغطاة بالدهنج. الناس يحبونه[٣] وهم يغنون له في كل مكان، وفي يوم عيده تُصنع الجعة من أجله ويتجاوب الغناء من أجله فوق أسطح المنازل... ويعتبر أمون المعين[٤] للأفراد العاديين... لأنه يقشع الشرّ ويطرد الداء[٥]... إنه الطبيب الذي يشفي العين دون دواء، ويفتح الأعين ويشفيها من الحول. إنه يخلص من أراد حتى وإن كان قد ارتحل إلى العالم السفلي. إنه يرفع الشؤم والسحر حين يرتأي ذلك. إنه يطيل الحياة أو يقصرها... إنه لأمون، عينيه وأذنيه في كل مكان وهو يصيخ السمع لدعاء من يدعوه. إن من يتكيء بظهره عليه يحميه... إنه خير من مليون مساعد عند من له ثقة به».

واسم أمون له قوّته على الماء كذلك... فهو يطرد التماسيح ويعطي البحارة ريحاً رخية[٦]، ومع ذلك فإن التوسل لاسمه يجلب البركة دائماً لأن له كذلك اسماً سرياً يجهله المرء[٧] وهو فظيع لدرجة أن من يلفظ اسمه هذا يخرّ صريعاً... وليس يستطيع إله ما أن يناديه بهذا الإسم.

---

(١) Idem, verset 9.

(٢) Idem, verset 9 et 20.

(٣) أن ما يلي ورد في فقرتي ٩، ٦٠.

(٤) Idem verset 70.

(٥) تلد الحامل حين تنطق باسمه (Chassinat, Mammisi Edfu 25).

(٦) فقرة ٧٠ من نشيد أمون.

(٧) ما يلي موجود بفقرة ٢٠٠.

ولم يسمّ أمون «بالخفي» لغيرما سبب، فهو كائن مليء بالأسرار. . . تجهل ـ حتى الآلهة ـ مظهره الحقيقي. . . وصورته ليست منتشرة في الكتب وهو محجب بالأسرار حتى لا يستطاع الكشف عن بهائه وروعته وهو كبير حتى لا يستطاع تكوين فكرة عن ماهيته، وهو قويّ حتى لا يستطاع معرفته وإدراكه.

وشاعرنا على ما يلوح لنا رجل مثقف مؤمن بأن طبيعة الآلهة تفسرها الكتب والمجادلات، ولكنه يؤمن كذلك بأن حكمة الإنسان تقصر إزاء سيد الآلهة هذا. . . وكل ما نستطيع فهمه من هذا اللاهوت الشعري قد يلخص فيما يلي:

إن أمون هو أصل كل شيء[1] إنه ولد في البدء وليس هناك إله آخر ظهر قبله، ولم يكن معه إله آخر ليشير إليه بصورته. لم تكن له أمّ تمنحه اسمه ولا أب ليكون أصلاً له وليقول له: «ها أنا ذا». إن كل شيء آخر صدر عنه[2]: التاسوع والآلهة جميعاً كانوا متصلين بجسده حين خلق الآلهة الأولين في صورته كبتاح تاتنن. . . وعلى ذلك فليس هناك في الواقع سوى كائن إلهي واحد هو أمون[3]. ولا يجوز لنا أن نعجب إذا ذكر إلى جانب هذه العقيدة الجزلة للإله بعض تصوّرات أقل سموّاً[4] ترجع إلى عهد أكثر قدماً.

ويمكننا اعتبار العقيدة ـ كما يعبر عنها هذا النشيد مثلاً ـ كنوع من ديانة أمون رع. وفي الواقع لا يجب أن نتمثل أمون تحت صورة واحدة بل تحت صورة ثالوث إلهي. . . لأن رع نفسه متحد بجسده، كما أن أمون يسمى كذلك بتاح تاتنن. . . اسمه كأمون مخفي، رع يخصه كوجه وبتاح كجسد[5].

---

(١) إن ما يلي مأخوذ عن فقرة ١٠٠ من أنشودة آمون في ليد.

(٢) عن فقرة ١٠٠.

(٣) Idem verset 200.

(٤) من ذلك بيضة الإله الأول وخلقه لنفسه وبصقه شو وتفنوت.

(٥) Idem verset 300.

ومن الطبيعي جداً أن يكون رع متصلاً اتصالاً وثيقاً بأمون في مظهره الشمسي ولكن من غير شك كان دخول بتاح كعضو في هذه الألوهية العظمى نتيجة تأثير خارجي: لأن طيبة كان عليها أن تجامل حور محب ما دام هو الرجل الذي أصلح الأمور ولنشأته في منف مدينة بتاح.

ولذا فإن هؤلاء الآلهة الثلاثة: أمون ورع وبتاح هم الآلهة الذين كانوا يعبدون في الفترة اللاحقة مباشرة لفترة الهرطقة وهم الآلهة الرسميون في البلاد جميعاً ومدنهم هي الأماكن المقدسة ومعابدهم هي هياكل الدولة... ولكن هذا الشرف يرجع قبل كل شيء إلى طيبة التي أصبحت الآن المكان الأكثر قداسة وإن لم تعد مقرّ حكم الملك (انظر آخر هذا الفصل).

وأما المعبودات الأخرى في البلاد فتنطمس أمام ثالوث أمون ورع وبتاح الذي يشغل فيه أمون مكان الصدارة. وسنرى نفس الوضع بعد قرن من الزمان في مستند رسمي هو بردية هاريس التي سيرد الكلام عنها في الفصل الثالث عشر. وكان لكل من هذه الآلهة العظمى الثلاثة جزؤه الخاص به، بينما خُصص لباقي الآلهة الأخرى - ومن بينهم بعض ذوي الأهمية مثل حاتحور وتحوت وأوزوريس إلخ - جزء واحد. ومن الملاحظ كذلك إن إيرادات أمون لا يمكن أن تقارن بها إيرادات زميليه إذ أنه كان يمتلك حقولاً بقدر خمسة أضعاف حقول رع وبقدر تسعين ضعفاً لحقول بتاح، مع أن هذا الأخير كان فيما سلف من الزمان إله الدولة الكبير، وزيادة على ذلك فإذا كان أمون قد تغلب من الناحية المادية على بتاح فإن جوهر طبيعته كان يجب أن يتحوّل تدريجياً إلى سورة زميليه، وقد تحوّل إلى إله شمسي تقريباً بدليل تلك التسبيحة التي كانت تتردّد صبيحة كل يوم في طيبة تمجيداً له، والتي كان يعتبر فيها دائماً إلهاً أصيلاً خلق جميع الكائنات الحية، ولكن المديح يتناوله أصلاً لصلته بالشمس قبل كل شيء، فهو الذي خلقها، كما أن رع هو ابنه الذي خلق من أجله السماء، وأنفاس فمه هي التي تدفع أمامه بقوا رب الشمس، بل وأكثر من ذلك أن بتاح هو الشمس نفسها... الطفل الذي يولد في العالم كل يوم ويغرب في الجبل

الغربي ليدخل السرور إلى الموتى في العالم السفلي.

ولقد حاول الملك حور محب وخلفاؤه ـ أي الأسرة التاسعة عشرة ـ أن يعوّضوا بطريقة مفخمة... الخسائر التي لحقت بأمون ومدينته خلال فترة الهرطقة(١)، فهم الذين أقاموا تمجيداً له تلك المباني الصخمة التي لم تستطع أيّ بلد أو أيّ عصر آخر أن تشيد ما يمثلها.

وأما الفخامة التي شاعت في هذه المعابد، وأما الأعياد الرائعة التي كانت تقام فيها فسنتناولها بالتفصيل في الفصل الثالث العاشر. ولكن علينا أن نتساءل حقيقة عما إذا كانت كل هذه الفخامة والأبهة قد أفادت الدين، إذ لا شك أن الدين أخذ يفقد رويداً رويداً تلك القوة الروحية التي أكسبته البقاء، ورغم هذه الروعة ـ أو على الأرجح بسبب هذا الألتماع ـ أصبح الدين غريباً على غالبية الشعب، بل أصبح ديناً للملك ـ أو كما نسميه ـ ديناً للدولة ولم يعد ديناً شعبياً. لأن الرجل من العامة لم يعد يستطيع دخول المعابد التي ما زالت تبهرنا حتى اليوم، بل ولم يكن من العبث أن توضع تماثيل الآلهة التي تستجيب للدعوات على أبواب المعابد(٢). وهناك كان الرجل من العامة يتقدم بسؤاله إلى الإله.

ورغم العظمة المحيطة بأمون فإنه لم يكن إلهاً شعبياً، بل إن الرجل في الحياة العادية كان يفكر عن طيب خاطر في إله الشمس أكثر من تفكيره في أمون. وإذا كان هناك ما يدعو لذكر اسم إله في قصص ذلك العصر فكان اسم «رع حوراختي» هو المفضل وحين كان المرء يستعطف الآلهة ويلتمس رضاهم في خطاب من الخطابات فإن الحديث كان يوجه إليه. وفي الحض على التقوى

---

(١) وكذلك أعيد إذ ذاك نقش أسماء الآلهة التي سبق محوها (فصل A) ولم يكن لذلك على وجه التأكيد تأثير حسن على الآثار. وقد حدث ذلك بصفة خاصة في عهدي سيتي الأول ورمسيس الثاني، انظر: Bissing: Æ. Z. 41, 126.

(٢) مثل على نصب في برلين برقم ٢٠٣٧٧ الباب من وراء أمون الذي «يستجيب إلى الدعاء».

والتعبد كان يذكر فقط «إله هذه البلاد شمس الأفق»[1]. ومن الطبيعي أنّ هذه العبادة الشعبية لإله الشمس لم تكن تحمل إساءة نحو الآلهة القدامى الآخرين. فإن أهل بوبسطة كانوا يتوجهون بأدعيتهم ـ كما كان الحال منذ القدم ـ إلى إلهتهم باستت وأهل الفنتين إلى الههم خنوم ـ والكتاب والعلماء إلى حاميهم تحوت الذي يساعدهم على فهم الكتابة ويسندهم في أعمالهم. وأما في الحرب فإن منتو هو الذي قاد الملك إلى النصر. وهكذا عادت الحياة إلى جمهرة الآلهة المصريين، واهتمّ الملوك بعاطفة الشعب هذه، فعاودا بناء معابد الآلهة القديمة أو هم أتموا بناءها. وقام رعمسيس الثاني على الخصوص بعمل واسع في هذه الناحية. ويمكن القول إنه قلّ أن يوجد في مصر معبد لا يحمل اسمه. ويلوح أنه أراد أن يعوّض باقي الآلهة لقاء ما فعله من أجل أمون وشريكيه. ونجد نفس الرغبة في إرضاء باقي الآلهة من جديد يعبر عنها رعمسيس الرابع في معبد قام ببنائه في أبيدوس بعد حوالي قرن من الزمان[2]، ولم يكن الأمر من قبيل المصادفة أن أغفل ذكر آلهة طيبة وذكر بتاح منف، والواقع أن الملك يقصّ علينا أنه قام بأبحاث مضنية في كتب دار الحياة، وأنه استطاع أن يصل إلى أن أوزوريس هو أكثر الآلهة غموضاً وخفاء... هو القمر... وهو النيل... وهو ذلك الذي يحكم في العالم الآخر، وفي كل ليلة ينزل نحوه إله الشمس ويكوّن معه الروح المتحدة وهذه تحكم العالم. وأما تحوت فيقيد أوامره. ثم يقص الملك بعد ذلك كيف ساهم في أعياد أوزوريس وكيف خدم بذلك جميع آلهة تاسوع أبيدوس.... ولكن ابن رعمسيس الثالث هذا يمر مر الكرام على أمون رع وبتاح رغم أن أبيه قام بعبادتهما أكثر من كل الآلهة الآخرين. والواقع أنه لم يذكر من بين آلهة الدولة الثلاثة سوى رع حوراختي، ولقد ذكر فقط بمناسبة الدور الذي يلعبه كرفيق يومي لأوزوريس.

ولسبب خاص نرى الإله ست ـ وهو لم يكن شعبياً حتى الآن ـ قد أخذ

---

(١) Max. D' Anii 6,16 (Litt. P. 299).

(٢) Mar: Abydos II, 54 - 55.

مركزاً مهماً في الدولة الحديثة وفي الأسرة التاسعة عشرة على وجه الخصوص.

واحترامه لا يقوم على أساس أنه الإله القديم الذي يحمي مصر العليا ولا على أساس أنه قاتل أوزوريس، ولكنه هنا الإله الذي قامت بعبادته أسرة المحاربين هذه بغير انقطاع. ولما كان أصل الأسرة الحاكمة يرجع إلى شرق الدلتا، حيث كانت تستقر عاصمة ملوك الهكسوس من قبل فإن إلهها كثيراً ما اتخذ مظهر سوتخ الذي عبده الهكسوس المتبربرين والذي كان ذي طبيعة غريبة عن مصر. ويلاحظ أن ملوك هذه الأسرة كانوا يقدرون هذا الإله كثيراً لدرجة أن جيوش رعمسيس الثاني لم تطلق عليها أسماء أمون ورع وبتاح فحسب بل واسم ست كذلك. وعلى ذلك وضع في مرتبة متساوية لمرتبة هذه الآلهة الوطنية الثلاثة. بل إنه في المدينة الكبيرة التي أقامها رعمسيس الثاني في الدلتا خصص أحد الأقسام لأمون كما خصص قسماً آخر لسوتخ.

وكانت هذه المدينة الملكية الجديدة (التي سخر اليهود في بنائها كما ورد في القصص) واقعة في الدلتا، لأن دور طيبة كان قد انتهى. ولأنه كان يجب عليها أن تفسح المكان أمام عاصمة أخرى ليست مثلها في عزلة. وإن جميع المباني التي قام بتشييدها الملوك لتجميلها لم تعد كافية لتغيير حظها وهي التي لم تزل أقدس المدن ـ مدينة أمون[١] كما كانت تسمى باختصار ـ ولكنها لم تستطع أن تعود فتصبح عاصمة من جديد، لقد ظلّ الملوك يقيمون معابدهم وقصورهم على الضفة الغربية ـ وحين يموتون كان يجب أن يرقدوا في هذه المدينة المقدسة في أعماق مقابر احتفروها لأنفسهم. ومنذ ذلك الوقت تصبح طيبة مدينة المعابد والأعياد الرسمية ويصبح صيت هذه الأعياد كبيراً ومنتشراً حتى لتسمى الشهور في البلاد جميعاً بأسماء هذه الأعياد[٢].

* * *

(١) وقد عرفتها اليهود كذلك بهذا الإسم.

(٢) Erman: Æ. Z. 39, 128.

الفصل العاشر

التقوى والآلهة الشعبية والوحي

كان الدين الذي تحدثنا عنه حتى الآن في جوهره دين معابد وكهنة ولم يكن ديناً يستطيع أن يستغني عن القوى التي كانت تدعمه. ولم يخضع الدين للدولة إلا بعد الثورة، وقد اكتسبت من وراء ذلك رونقاً ما زلنا نعجب به حتى اليوم. ولكن إذا حاول شخص ما أن يجد في الديانة شيئاً غير تعاليم الكهنة والعادات الخاصة بالطقوس فإنه سيغتبط كثيراً حين يدرك أن مظاهر الإيمان الشعبي الأكثر حرية أشد ندرة. وذلك يشبه في أحيان كثيرة النباتات البرية ولكن جذورها تندفع في الأرض المشتركة بين جميع الديانات المتطوّرة، وتكون هذه العبادة بمثابة الرباط الذي يجمع بين الفرد العادي وإلهه. وقد تحولت الهيبة التي رافقت عبادته إلاهاً من قديم الزمان إلى شعور بالثقة وتعلق بهذا الإله الذي يعتبر كأب. وقد التقينا بمثل هذا الشعور في أنشودة الشمس التي ترجع إلى عصر الهرطقة، وفي الأنشودة الكبرى لأمون رع، ولكن نرى التعبير عنها أشد وضوحاً في أغنيات صغيرة وفي صلوات ترجع إلى القرنين الثالث عشر والثاني عشر يدعى أمون «الراعي» الذي يخرج البقر مبكراً والذي يقود الجائع إلى المرعى... هو الشراع الذي يقاوم الريح... هو الربان الذي يعرف الشطوط الرملية والذي يشتاق إليه المرء وهو على الماء[1].

(١) Inscr. in the Hier. Char pl. 26, cf. Litt. P. 382.

وهذا حبّ صبياني وثقة كاملة يشعر بها المرء نحو الإله: أمون رع... إني أحبك... وقد احتبستك في قلبي - إني لا أطاوع القلق في قلبي... إن كل ما يقوله أمون يزهر[١]... وعلى ذلك فإن كل ثقة وكل هم كانت يُعرض على الإله... ستخلصني من فم الرجل حين يلقي بالأكاذيب[٢]... وهناك رجل قد ظن أن غريمه قد سلبه وظيفته، فتضرّع إلى إله الشمس أو أوزوريس كي يعينه[٣]. وهناك آخر يصلي هكذا: أي أمون أصخ السمع إلى رجل وحيد في المحكمة... فقير وخصمه قوي. المحكمة تطارده! فضة وذهب للكتبة!... ملابس للخدم! ولكنه يكتشف أن أمون يتحوّل إلى وزير كل يربح الفقير دعواه![٤]، وتظهر أيضاً هذه الأنشودة أن الإله يرأف بالفقراء وهو وزيرهم[٥] ويظلّ عوناً لهم وقاضياً لا يقبل الهدايا ولا يتأثر بالشهود حتى يكون الجميع ضدهم[٦]. وللكتبة خصوصاً - أي الموظفون والعلماء - علاقات ثقة وطيدة بإلههم تحوت، فإن أحدهم يقدم الدعاء التالي: تعال إلى أي تحوت أيها الأبيس الفاخر - أنت الإله الذي تحبه شمون... أنت كاتم سرّ الآلهة التسعة، تعالى إليَّ لتقودني وتجعلني كفؤاً لخدمتك لأن وظيفتك هي أكثر الوظائف جمالاً... إن الذي ينبغ فيها يجد نفسه أميراً. إن الأعمال التي تقوم بها من أجلهم كثيرة عندما يكونون في مدرسة الثلاثين. أنت الذي تقود من لا يوجهه أحد... السعادة والنعمة بالقرب منك. أقبل إليّ وقدني. أنا خادم بيتك دعني أتحدث عن أعمالك وأقول في أيّ بلد أكون حتى يردد الناس حينئذ أن ما يصنعه تحوت

---

(١) Inschr. in the Hier. Char pl. 26, cf. Litt. P. 383.

(٢) Inschr. in the Hier. Char. P. 26.

(٣) Æ. Z., 38, 19 ss. ef. Litt, 373 ss.

(٤) Anast. II, 5 ss. ef Litt p. 380 والمثل على وثيقة من مجموعة جاردنر حيث يتقدم أمون لنصرة فقير فيعيد إلى الوطن من كان في الغربة ويخلص من يظلمه مولاه.

(٥) Anas. II, 6.5 ss Litt. p. 380.

(٦) Bull. 1094, 2, 3 ss.

رائع، ثم يحضرون بأولادهم حتى يوسموا بخاتم مهنتك... المهنة الجليلة أيها المنقذ العظيم كم هو سعيد من يصل إليه ويحصل عليها(١)!

وآخر يصلي هكذا: أي تحوت أقمني في شمون مدينتك حيث يقضي المرء حياة هانئة وأعطني ما أنا في حاجة إليه... خبزاً وجعة وارع فمي حين يتحدث(٢).

وكان يوضع في المكتب تمثال لتحوت على هيئة قرد يفكر(٣) ويعلن أحد الكتاب في فخر وخيلاء أنه أقام هو الآخر لنفسه صورة للإله: جاء السرور إلى بابي منذ أن تجاوزه الإله. افرحوا يا أهل ناحيتي وكونوا مسرورين جميعاً، يا أقربائي هاكم سيدي الذي يصنعني والذي يريده قلبي. أي تحوت! ستكون لي بطلاً ولذا لن أخشى شيئاً(٤).

ويمجد الإله كذلك في دعاء آخر أكثر تسلية من كل ذلك وفي طلباته شيء من المادية: أيتها الدوحة المثمرة ذات الستين ذراعاً أنت التي بك ثمار نواة وبالنواة ماء... أنت الذي تأتي بالمياه من جهات بعيدة أقبل نحوي وخلصني أنا الصامت. أي تحوت أيها النبع الحلو لرجل يكاد يقضي عطشاً في الصحراء... هو مغلق أمام من يتكلم ومفتوح أمام من يصمت... عندما يحضر الصامت سيجد النبع... ولكن عندما يحضر الفائز فإنك لا تعاونه(٥).

ومعنى الفقرة الأخيرة من هذا الدعاء الجميل لا يحتمل الشك، إذ أن المرء يجب أن يتوقع في صمت عون الإله: في صمت وثقة... فى اعتقاد المفكرين

---

(١) Anast, V, 9,2 ss. Litt. p. 377.

(٢) Sall. I, 8, 2 ss. Litt. p. 377.

(٣) Borchardt: AE. Z. 44, 59.

(٤) Anast. III, 4, 12 وفي ختام ذلك على ما يبدو «من العين» ولعل المقصود بذلك النظرة الشريرة، انظر: Litt. S. 379, anm. 2.

(٥) Sall. 1, 8, 2, ss. Litt. p. 377.

يعتبر الصامت خير من الثرثار وهذه المثل العليا ستكون موضع الحديث في الفصل القادم. ونجد نفس هذا النوع من الأغاني والأدعية على اللوحات التي عثر عليها في هيكل صغير على الضفة الغربية لطيبة[١]. وليس الإله هنا كذلك كائناً لا يمكن الاقتراب منه، وهو إن كان يسبب العمى لمن يخطىء فإنه يغفر له كذلك أو يشفيه من دائه. فلقد ارتكب «نفرابو» وهو موظف بالجبانة أمراً ذميماً نحو الآلهة المحلية «قمة الجبل»... كمثل رجل جاهل لا يدري ما هو خير وما هو شرّ فعاقبته وكان قي قبضة يدها ليل نهار. وكان يصرخ ملتمساً الهواء، ولكن الهواء لم يـأتِ إليه، وحين وعد الآلهة رسمياً أن يعلن عظمتها أمام الشعب كله... عفت عنه ومسته برحمتها حتى نسي علته[٢]. لأن هذه الآلهة ـ كما تذكر لوحة أخرى[٣] ـ تمدّ يدها نحو من يحبها وتمنح حمايتها لمن يحتويها في قلبه.

وفي مكان آخر كان شخص حلف زوراً باسم بتاح فأراه هذا الإله ـ سيد الحق ـ الظلام في النهار. وصيره شبيهاً بالحيوانات التي في الشوارع، وجعل الآلهة والناس ينظرون إليه كشيء بغيض نحو سيده. وكان هذا كلامه عند توبته: بتاح سيد الحقّ عاد نحوي... كن راضياً عني حتى أرى كم أنت عطوف[٤].

والآلهة كذلك تحس السرور، كما تشير إلى ذلك هذه اللوحات عندما تعلن قوتهم وتحذر من غضبهم. فالمصور «نب رع» الذي كان قلقاً من أجل مرض ابنه نذر نذراً «سأضع لأمون أغنيات باسمه، وسأمدحه بقدر ما ترتفع السماء، بل بأبعد مما تمتدّ إليه الأرض سأقص مدى قوته لمن يصعد (على النهر) أو ينزل. التفتوا جيداً واحذروه... بلغوه لكل فتى وفتاة، للكبار والصغار... اذكروه لكل الأجيال، بل للأجيال التي لم تأتِ بعد... اذكروه

---

(١) Erman: Sitz. Ber. Berl. Akad. (1911) P. 1086 ss. وفي الملاحظات التالية سترقم اللوحات تبعاً للحرف التي تحملها في المقال المذكور.

(٢) Erman: Sitz. Ber. Berl. Akad., (1911) P. 1087 ss.

(٣) Idem. K.

(٤) Idem. D.

لسمك الماء وطيور السماء... اذكروه لمن يعرفونه ولمن لا يعرفونه... التفتوا جيداً واحذروه... ثم يعلن «نب رع» أمام إلهه «أي أمون أنت سيد من يصمت... أنت الذي تستجيب دعاء البائس. إن صرخت لك في شقائي فإنك تأتي لتعينني».



لوحة ٥ ـ المصور نب رع يتعبد للإله أمون، الذي يظهر أمام بوابة معبده، وذلك ليمنح ابنه المريض الصحة

(برلين ٢٠٣٧٧. من المعبد الشعبي في الجانب الغربي من طيبة)

والواقع أن ابن «نب رع» كان يستحق ما ناله من مرض، لأنه أثم في حقّ بقرة من أبقار أمون. . . ولكن عندما استرحم الأب هذا الإله. . . «أتى على هيئة ريح الشمال ونسيم عليل ومرّ من أمامه وأنقذه من مرضه» وعندئذ قال الأب معترفاً بالفضل «كما أن العبد مستهدف للإثم كذلك المولى مستعدّ للصفح. ان سيد طيبة لا يمرّ على غضبه يوم كامل، إذا ما غضب فإن عضبه لا يستمرّ سوى لحظة ثم لا يبقى له أثر»(١).

وكان الإله الذي يخاطبه ذلك الوالد في محنته أول الآلهة جميعاً، ولكن ليس تماماً بالصورة التي يعبد بها في معبد الكرنك. . . إنه أقرب إلى أن يكون أمون الذي يجيب التضرّعات وهو في صورته على هذه اللوحة(٢) يظهر بطريقة غير طبيعية خارجاً عند باب المعبد. وليس تمثيله على هذه الصورة محض مصادفة لأن عامة الشعب لا يرون الإله الكبير أيام الأعياد وهم يخشون مضايقته بمشاغلهم وهمومهم. ولذا كان من المفضل أن يتخيل أمون في صورة أقرب إلى الناس، يستمع إلى تضرّعات الفقراء عند باب المعبد. وكانت هناك آلهة أخرى يتجه إليها المرء بدعائه، وكانت توصف بأنها تستجيب إلى الدعاء(٣). ومما يدل كذلك على الثقة بالإله ما كان يدعيه المتضرّع من أنه قريب من الإله بصفته «خادماً» له(٤).

---

(١) Idem. A.

(٢) ef. pl. IV.

(٣) مثل أمون رع وتحوت وغيرهما. وإننا لنجد كذلك «بتاح لدى البوابة العظمى» (برلين ٨٤٤٠) ولا بد إن كان الأمر يتعلق كذلك بمكان مماثل لأن كاهنه الأكبر «باك ان خنسو» يذكر أنه أقام للإله هيكلاً يدعى «رمسيس الذي يستجيب الرجاء» في الباب العلوي لمعبد أمون.

(٤) op. cit A. E. الكلمة المستعملة هنا «خادم» ليست الكلمة التي أشار بها المصري إلى الكهنة قديماً hem ولكن كلمة bak وكانت تستخدم في أسماء كثيرة للأشخاص مثل «خادم خنسو».

ولا تكمل الصورة التي تـزودنا بها النصب التي أسلفنا الكلام عنها، عن عقيدة الشعب ما لم نفكر كذلك في المكان الذي كانت تقام فيه. وهو معبد صغير متواضع بني قديماً في عهد تحوتمس الرابع على الشاطىء الغربي لطيبة، واستبدل بعد ذلك بعدد من الأبنية الصغيرة[١] وكان يستعمل كمعبد للعمال وموظفي الجبانة، وكان مكرّساً من غير شك في الأصل للآلهة الذين يحمون الجبانة، وهما الزوجان الملكيان اللذان سنتحدّث عنهما فيما بعد. ولكن هذا البناء كان مفتوحاً، كما تذكر هذه اللوحات لكل من أراد تقديم العبادة للآلهة الخاصة به وكان يعبد فيه أمون رع كما يعبد فيه أمون البواب الصغير وخنسو القمر وبتاح وآلهة الفتنين والإلهين الأجنبيين رشف وكدش والقطة والسنونو. وهنا كان يستطيع كلّ أن يتعبد على طريقته من ناحية التقديس والصلاة. ولا بد أن المعابد الكبيرة كانت خاصة وكأنّ التقوى التي لا يربطها رابط تقف عند الباب.

وكان خيال الشعب يضيف إلى الآلهة التقليديين باستمرار آلهة أخرى يأمل عونهم في الحياة. وهو يبدأ باختيار أشياء يتخيلها ذات طابع قدسي خاص. فإذا تصفحنا مثلاً الأسماء التي يسمي الناس بها أبناءهم خلال الدولة الوسطى في أبيدوس فإننا نجد من بينها: هبة المركب نشمت، أو القارب نشمت منح ابناً وهكذا، فهم يشكرون مركب معبد أوزوريس إذا كانت سبباً في منحهم الأولاد وليس الإله نفسه، ولقد انتشر هذا الاستعمال خلال الدولة الحديثة خاصة، ففي رسالة من طيبة ينصح فيها أحد الأشخاص للمرسل إليه أن يطلب حماية الآلهة ونراه لا يذكر الآلهة وإلهات هذه المـدينة المحليين الكبا أمون وخنسو وموت وحدهم، بل يذكر كذلك معبودات من الطبقة الثانية مثل شجرة على طريق الكباش وبزساء أمون في الكرنك وثامون القردة الواقعة في هيكل حاتحور وباب باكي الأكبر[٢]. وفي رسالة أخرى لا يوجه الدعاء لرجوع غائب إلى بتاح منف

---

(١) Sitz. Ber. Berlin - 1911, 1088, 1105.

(٢) Bol. 1094, 10, 11, ss.

ولكن إلى تمثال تحوتمس الثالث الذي كان موجوداً من غير شك في هذه البلدة[١].

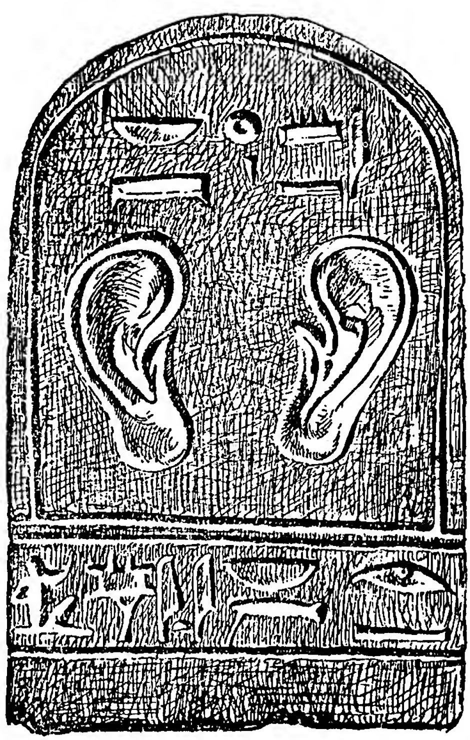
ولقد كان لهذه المباني أثرها على الشعب بالنسبة لحجومها أو قدمها، مما يعطيها روعة وبهاء إلهيين. فأبو الهول بالجيزة مثلاً ألِّه في نهاية الدولة الحديثة، وهو لم يكن في الأصل سوى صخرة طبيعية أعطاها الملك خفرع رأساً ملكية. ولكنه أصبح الآن كائناً إلهياً لدى أهل الأقاليم المجاورة يعبد بصفته حرماخيس أي حوريس الأفقي[٢]. وقد زوّدتنا حفائر بورخاردت في جبانة أبي صير بعبارة أخرى مماثلة في إقليم منف. فأمام هرم الملك ساحورع (حوالي ٢٥٥٠ ق. م) يقوم معبد فخم كانت تقدم فيه القرابين إلى هذا الملك، وكان ـ كعادة هذا العَصر ـ غنياً بالرسوم والنقوش التي تمجد حياة الملك وأعماله أو تمثله متعبداً أمام مختلف الآلهة. وقد مثل في إحدى اللوحات أمام الآلهة ذات رأس الأسد «سخمت» وقد كان لهذه الصورة ـ لسبب لا نعرفه على وجه التحقيق ـ حظوة خاصة. لأنه في عصر لم يكن يفكر فيه أحد في الملك الذي ارتحل منذ زمان طويل والذي انهار معبده إلى أنقاض أصبحت صورة سخمت ساحورع صورة تفوز بالتقديس وأصبح هذا المعبد المهدم هيكلاً صغيراً لسخمت، ونحن لا نظن أننا نخطىء إذا اعتبرنا أن خلفاء كهنة الملك الجنزيين الذين كانوا لا يزالون يعيشون بالقرب من المعبد كانوا هم حماة وسدنة هذا المحجّ، وأن شهرته ترجع على الأقل إلى عهد الإمبراطورية الحديثة وأن زيارته لم تكن قاصرة على عامة الشعب، بل إن نبلاء وأشرافاً لم يأنفوا من تقديم قرابينهم إلى هذه الـ «سخمت»، بل إن كاهناً كبيراً لمنف حيث كانت سخمت الحقيقية في مدينتها الأصيلة تقدم بالولاء لهذه المعبودة الجديدة.

---

(١) Pap. Petersbourg, 1019 (XiXe. XXe dyn).

(٢) بليني (36,77) ويسميه كذلك ـ وله الحق الكامل ـ.
Erman: Sitz. Ber. Berlin. Numen adcolentium akad. (1904), 428, 1068.

وكان الحجاج يقدمون علامة على تعبدهم نصباً يثبتونها بطريقة بربرية في نقوش المعابد القديمة. . . وقد مثلت على عدد كبير من هذه النصب آذان تعني ـ حسب العادة ـ أن الإلهة قد استجابت إلى الدعاء. وهناك نذور أخرى أكثر بساطة مصنوعة من الطين الملون وصلتنا في كميات كبيرة مما يدل على قيام تجارة حقيقية ضخمة لمناسبة موسم الحج. وكانوا يقدمون كذلك تماثيل صغيرة للآلهة أو لبعض الآلهة الشعبية الأخرى. ومن العجيب أن حيوانات مقدسة أخرى تسرّبت إلى هذا المعبد الجديد مثل السحالى (الورن) والخراف، وهذا يتفق مع تعلق الناس في العصور المتأخرة بهذه الحيوانات المقدسة وإن كنا لا نستطيع أن نفهم معنى لهذه الصلة بين هذه الإلهة المتوحشة ومخلوقات هادئة كهذه.



٥٣ ـ نصب قدمه إلى أمون رع رجل يدعى نب محيت. وتدل الأذنان على أن الإله قد استجاب الدعاء (برلين ٧٣٥٤).

وقد دام معبد سخمت هذا أكثر من ألف سنة ونحن مدينون له ببقاء معبد ساحورع وبنقوشه الرائعة في الوقت الذي تهدمت فيه تماماً المعابد الأخرى الواقعة حوله.

وقد اختير الملوك القدامى بصفة خاصة كحماة لهذه الجبانات الشاسعة في منف وطيبة حيث كانت تزخر بالكثيرين من النحاتين والنقاشين والموظفين إلخ الذين يعملون بها. ففي منف كان ملوك الدولة القديمة هم الحماة(١)، وأما في طيبة فقد كانوا ملوك الدولة الحديثة تتقدمهم السيدة التي كانت على رأس الأسرة الثامنة عشرة الزوجة الإلهية أحموزة نفرتاري وابنها أمنوفيس الأول(٢)، وقد اعتبر كلاهما كإلهين، وكانت تحمل صورهما في المواكب وتقام الطقوس لاسميهما. وفي الهيكل الصغير الذي زوّدنا باللوحات الحجرية المتضمنة الأدعية كان النقاش «پاي» يقدم القربان لتمثال صغير جذاب لهذه الملكة(٣)، وهناك في نفس المكان توجد لوحة صغيرة تحمل النصّ الآتي، وفيه يتقدم أحد الأشخاص الذين يعبدون أمنوفيس بالدعاء له على هذه الصورة. «إن من يدخل إليك حزين القلب يخرج فرحاً مستبشراً. الكبار والصغار يأتون إليك من أجل اسمك لأنهم يسمعون عن قوة اسمك»، وأما ما يلي فيرينا فيما تتركز قوّة هذا الملك القديس «ألست أدخل يدي في فجوة بها ثعبان ضخم؟ إنك تدري إذن قوّة أمنوفيس (وترى) كيف يقوم بالمعجزات لبلدته»(٤).

ولكن أهالي طيبة لم يكونوا يكتفون بهؤلاء الحُساة فهم كانوا يعتقدون أن معبودة أخرى كانت تحكم مقاطعتهم وأنها تعيش فوق أحد جبال مدينة الموتى.

---

(١) Berlin 1116.

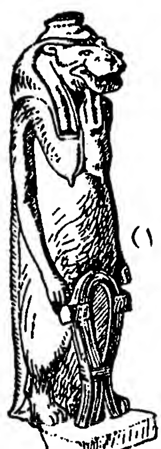
(٢) اعتماداً على Champ. not. I, 855 يمكن أن يذهب المرء إلى أن هذا الملك كان يعتبر بحق ابناً لأمون والزوجة الإلهية. ـ على أننا لا ندري لم لون جسده باللون الأسود في الصورة الكبيرة في برلين رقم ٢٠٦٠.

(٣) Berlin no 6908.

(٤) Sitz. Ber. Berl. Akad., (1911), 1105.

ولهذا يسمونها قمة الجبل. وبما أنها تحكم مملكة إله الموتى الذي يسكت الناس فإنها قد أطلق عليها اسم «مريت سجر» أي «محبوبه الذي يسبب السكوت» وكانوا يمثلونها بالضبط مثل زوجته إيزيس[1]، ولقد رأينا من قبل كيف تعاقب وكيف تصفح.

ولقد عبدت في البلاد كلها من غير شك آلهة أخرى صغيرة تعين في الشدة وهي من خلق الشعب، وعلى هذا فإنه ليس لها مظهر الآلهة العظام، بل بالعكس فقد صوّرتها المخيلة الشعبية في صورة كاريكاتورية. ولنذكر في أول الأمر الآلهة تويريس، ومعنى اسمها ـ بمنتهى البساطة ـ «العظيمة»[2] وهي وحش يتكون في نفس الوقت من عجل بحر وتمساح بيديه آدميتين وقدمي لبؤة، وهي تقف على رجليها وتحمل عادة رمز الرعاية والحماية إذ أنها تأتي بهما للناس. وهي تمثل في صورة «حامل» وتماثيلها الصغيرة التي تقدس في المعابد تجعلنا نظن أنها كانت تساعد أثناء الوضع والرضاع[3]. وقد دخلت تويريس بعد ذلك في محيط الآلهة الكبار وأصبحت الآلهة المحلية أوبت طيبة[4].



٥٤ ـ توريس (برلين ١٠٧١٠)

---

(١) Idem, 1107.

(٢) الإسم حديث.

(٣) Mòller. A E. Z, 54, 138 في معبد سخمت لساحورع Borchardt: Sahure I, P. 130.

(٤) تمثل صورتها كذلك نجم الدب الكبير.

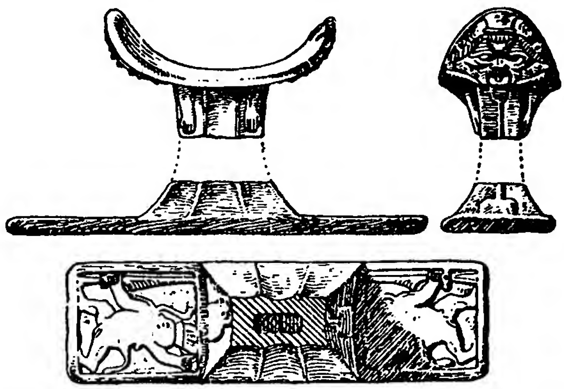
وهناك كائن آخر محبوب غير أنه أقلّ غرابة وهو بسّ الذي نستطيع أن نستنتج من مظهره حتى اليوم أنه يشيع السرور وهو قزم ملتوي الساقين، وله رأس كبيرة وذقن منتفشة وذيل كذيل الحيوان، ونستطيع أن نشبهه بمسوخ الأساطير اليونانية فهو مثلهم يظهر فى أعداد كثيرة تمثل في خدمة الآلهة الكبار وتدخل السرور إلى نفوسهم عن طريق الرقص والموسيقى وتسهر على أولاد الآلهة؛ ولكن هذا المركز المتواضع لا يمنع من أن يتحوّل إلى إله حقيقي حتى ليسمى الطفل أحياناً «ذلك الذي ينتسب إلى بس» مثل «ذلك الذي ينتسب إلى آمون» أو «ذلك الذي ينتسب إلى تويريس». وعلاوة على هذا فهم يستخدمون الصورة الهزلية لـ «بس» كمقبض لمرآة أو علبة مساحيق، كما يمثل على مساند الرأس وهنا يكون بس مسلحاً بقوس وسكاكين حتى يحمي النوام. من كافة أنواع الضرّ.



٥٥ - بس يضرب على الطنبور
(برلين ٥٦٦٦)

وهناك مجموعة أخرى من الآلهة القميئة مصورة على هيئة إنسانية كاملة ولكنها ليست مغرية. فمظهرها مظهر أطفال ناقصي التكوين ذوي أعضاء مشوّهة[١]. وعليهم أيضاً مساعدة الناس من غير شك. ولكن ما يعنينا بصددهم

(١) نجدهم كثيراً بعد الدولة الحديثة ولكننا لسنا على ثقة من أنهم ظهروا خلاله.



٥٦ ـ مسند للرأس، كان يستخدم بدلاً من الوسادة، ويحمله شكلان كل منهما على هيئة بس، ومن الأسفل شكلان آخران يمثلان بس مسلحاً لحماية النائم (برلين ١١٦٢٥).

هو أنهم يعتبرون مثل بتاح أو أولاد بتاح، وهو ما تشير إليه تسميتهم «باتك» التي نقلها هيرودوت[1]، وهم بالمثل يساعدون الناس ويضفون عليهم الحماية ضد الثعابين مثلاً. وهم في ذلك مثل بس تماماً[2].



٥٧ ـ باتك (برلين ١١٠٥٥)

(١) هيرودوت III, 37.

(٢) فيما يخص «الباتك» قارن: Cat. dét. du musée de Berlin P. 306 وبالمثل Berlin 1543.

وليس علينا إلا أن نتصوّر أيضاً سابوع حاتحور كمخلوقات منفرة أو مضحكة، وقد عرفنا آلهة الحبّ السبعة هذه من طريق قصص الدول الحديثة حيث تتنبأ للمولود الجديد بحظه، ونحن نعـرف كذلك أنها تعهدت بإعطاء ذرية لكاهن لتحوت إن هو قدم لها صورة ووجه إليها أدعيته[1].

ولنذكر أخيراً الإله أونوريس الذي نتخيله على هيئة أمير يركب عجلة حربية ويقتل الحيوانات البرية وهو يسمى «بالمنقذ» وهو يحيي أولئك الذين يحملون صورته كتميمة تحميهم من الحيوانات والأعداء.



٥٨ ـ تميمة عليها صورة شو أنوريس (برلين ٨٩٢٠)

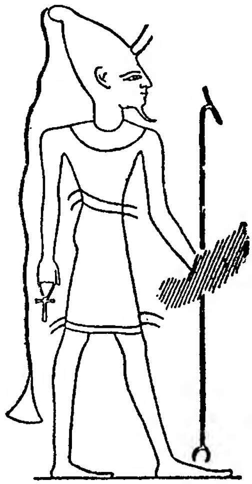
ويضاف إلى كل هذه المعبودات الشعبية الصغيرة معبودات استعيرت من البلاد الأجنبية. فمنذ زمن طويل كان لمصر في الواقع صلات مستمرة بالبلاد الواقعة إلى شمالها وإلى شرقها، ولم تؤثر هذه الصلات على اللغة الدارجة فتزوّدها بأسماء سامية فحسب، بل إن الدين كذلك دخلت إليه هذه المعبودات الأجنبية، ذلك لأن التجار والجنود كانوا يعبدونها في منازلهم عرفاناً لفضل حمايتها إياهم في البحر أو في المعارك، وحيث إن كل ما يأتي من الخارج له جاذبية خاصة فإن أناساً آخرين صاروا بدورهم يضعون آمالهم في هذه الآلهة الجديدة.

واندمجت بعض هذه الآلهة في الآلهة المصرية التي تشبهها في طبيعتها. وهكذا نرى عشتارتي ترتبط بإلهة الحرب المصرية سخمت في منف وقدش

---

(١) Bissing et Blok, A E. Z., 61, 83.

بحاتحور والإله السوري رشف يختلط بسوتخ في الدلتا الشرقية[1].



٥٩ ـ سوتخ ويميزه القرنان الصغيران وما يتدلى من التاج وأربطة النقبة كإله أجنبي (برلين ٤٤٨٠).

والإله رشف هذا هو صاحب القوّة بين التاسوع، وهو إله محارب مسلح بحربة ودرع، هو يلبس تاجاً لمصر العليا، ولكن لباسه يكفي لإثبات أصله الأجنبي، فبه تعلق شرائط على النقبة وشريط آخر طويل يتدلى من تاجه الذي يزينه من الأمام قرنان أو رأس غزال، وعلى كل فقد كان يوجد بلا شك أكثر من «رشف»، لأن إحدى القصائد جاء بها أن ضباط رعمسيس الثالث أقوياء كالآلهة رشف. ولم يكن أولئك الذي يعبدون إله الحرب هذا جميعاً محاربين بالضرورة، فإن الرجل الذي قدم لوحة برلين كان من بلدة طيبة الجنزية. وأما الإلهة كدش التي تقف أحياناً إلى جانبه فلها طابع سمح مثل حاتحور. . . وهي ـ مثلها ـ تدعى «عين الشمس» أو «ابنة رع» وحين تقف على الأسود وتمسك في الوقت نفسه زهوراً وأفاعي، فإن معنى هذا ـ بمنتهى البساطة ـ أن تعمل للحماية

(١) لـ «رشف» قارن Brugsch: Thes., 1434، و «لسوتخ» Berlin 8440.

من هذه الحيوانات الشريرة[١]. وفي الوقت الذي كان فيه لرشف وكدش دائرة من المؤمنين بهما كان لبعل والإلهتين عنات وعاشترت نفوذ أعم.

وبعل كائن مخيف يقرن ـ كما تظهره رسومه واسمه ـ بست. وهو إله العواصف والزوابع، وهو يقف على الجبال ويزأر في السماء. أما في الحروب فإن الملك كان يشبه ببعل حين يكون ثائراً[٢]. ولقد شاع بين الشعب حتى لم تعد تحس قيمة اسمه وحتى أصبح يسبق بأداة التعريف: البعل كما لو كان اسماً عاماً يدلّ على «الإله».

وكما كان في كنعان أكثر من بعل واحد فإنه كان يجب أن يعبد في مصر أكثر من بعل كذلك. ومن هنا نعرف بعل قادش وبعل زيفون[٣] الذي يظهر أنه كان إلهاً للملاحين. ومن ناحية أخرى كان يوجد كذلك معبد لبعل في منف، ونحن نعرف كاهناً لهذا الهيكل كان في خدمة بعل وعشتارت وهو يحمل اسماً أجنبياً وإن كان قد دفن خلال حكم أمنحتب الرابع كمصري خالص[٤]، وكانت للإلهتين عنات وعشترت شهرة عامة في مصر خلال الدولة الحديثة على نحو ما كان لبعل. وكلتاهما إلهتا حرب، ويمثل أحد المناظر إحداهما وهي تمتطي حصاناً وتمسك بيدها بلطة الحرب ودرعاً[٥]. وحين أصبحت عنات بعد ذلك آلهة مصرية بحتة اضطرت إلى نبذ تلك الطبيعة الوحشية وحين نراها بعد قرون في

---

(١) Brugsch, Thes., 1434.

(٢) بالمثل في Grapow, Bildliche Ausdrücke P. 186.

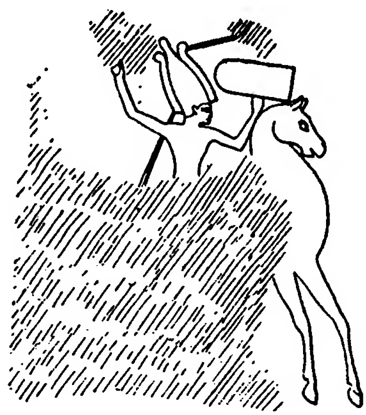
(٣) الإثنان مذكوران في Sall., IV, Ro., I, 6 ثم إن موظفاً مصرياً كرس لبعل زينون حجراً تذكارياً في رأس شمرة. وهناك مكان على الشواطىء المصرية يحمل اسمه كذلك(قارن Eissfeldt, Baal Zophon, ete., Halle 1932).

(٤) L. D. Texte I, 16 وبعض هذه القطع الثمينة موجودة في متحف برلين.

(٥) نقش قام به أحد الضباط في صحراء الرديسية (L. D., III, 138).

معبد فيلة إذ بها تتحوّل إلى إيزيس ولها ابنها حوريس[1]، ونرى أوغسطس يقدم لها مرآتين كهدية مناسبة لها.

ولكن هذه الطبيعة المسالمة لم يظهر لها أثر في الدولة الحديثة لدى هاتين الإلهتين. فهما درع الملك في حربه[2] وهما مرتبطتان بعجلته الحربية[3]، وحين ينقض تحوتمس الرابع - في عربته - على العدوّ فإنه يقود حصانه كما تقوده في الوقت نفسه عاشترت[4]. وفي قصة حوريس وست نراهما قد أعطيتا لست إله



٦٠ - عشترتي تمتطي حصاناً (من نص لأحد الضباط في صحراء رديسية)

الحرب كتعويض لما أصابه من ضرب. وفي أسطورة أخرى ترى أنهما زوجتان لست، لأن غريمهما حوريس يمنعهما من الولادة[5]. وفي قصة أخرى يذكر كيف أن الآلهة التي أزعجها البحر أحضرت عاشترت من سوريا إلى مصر وأن هذه الآلهة قامت باستقبالها رسمياً، وأنها أعطيت عرشاً وجلست عليه، وأن

---

(١) Philae «2804».

(٢) Med. Habou (Rougé, Inscr. 117).

(٣) AE. Z. (1880), 94.

(٤) Davies, Tomb of Thutmosis IV pl 10.

(٥) Pap. mag. Harris. 3.8.

«الآلهة الكبار وقفوا أمامها، وأن الآلهة الصغار انبطحوا على بطونهم»[١]، وهي كذلك تعتبر ابنة لبتاح، وليس من عجب بعد ذلك أن تتوطن بسرعة في منف. وقد كان لها في عهد أمنوفيس الرابع ـ كما رأينا من قبل ـ معبداً خاصاً بها[٢].

وقد عبد ملوك الأسرة التاسعة عشرة أيضاً إلهتي الحرب، فنرى الحيّ الشرقي من العاصمة الجديدة في عهد رعمسيس الثاني مكرّساً لعشترت، بينما كان الحيّ الغربي مكرّساً للآلهة المصرية بوتو. ولم تكن خيل الملك تسمى باسم عنات وحدها، بل إن ابنته كذلك كانت تحمل الإسم السامي «بنت عنات» أي ابنة عنات.

وهناك آلهة أجنبية أخرى ليست لها أية صلة بعشترت وقد عبدت كذلك في منف وهي الإلهة السورية عشتار، وهي ترى مرّة مع الإلهة كدش تعطيان الصحة لواحد من خدم الكاهن الأعظم لبتاح، ومرة أخرى تتعرف عليها بطريقة أدقّ كإحدى الإلهات التي دعيت لتسدي معونة، فلقد كان بواب معبد بتاح مشوّه الساق كما تبيـن لنا صورته في اللوحة، وكان يعتمد على معونة هذه الآلهة، خاصة لأنه هو وزوجه من أصل سوري. وإنه لمن الغريب كذلك أن تعرف تحت أيّ ظروف دخلت الإلهة عشتار إلى مصر. . .

يلوح أنه حين مرض أمنوفيس الثالث مرضه الأخير، سأل صهره توشراتا ملك يمتاني أن يعيره تمثال عشتار من نينوى لأنه سبق لها أن مارست قوّتها في مصر من قبل في مناسبة مماثلة. وقد أجابه توشراتا إلى سؤاله وبعث بالإلهة التي كانت ما تزال تحتفظ بذكرى التقديس الذي حظيت به في مصر والتي كانت تحبّ البلاد كذلك. وطلب توشراتا إلى أمنوفيس أن يجدد تمجيد الإلهة حتى تمنحهما معاً الحماية والعمر الطويل. كما طلب إليه أن يردّها بعد ذلك بقلب سمح،

---

(١) Litt., P. 218 يكمل الآن ويصحح طبقاً لجاردنر ـ دراسات لجريفث صفحة ٧٤.
(٢) L. D. Texte I, 16 et Ranke: Studies for Griffith P. 416 وكان هذا المعبد الواقع في الحي الفينيقي من المدينة قائماً في زمن هيرودوت.

وأضاف قائلاً: «عشتار إلهتي وليست إلهة أخي» ومن الواضح أن تشراتا كان يخشى أن يحتفظ بمصر بصورتها العجائبية[1].

وإذا كانت عشتار مستعارة بالتأكيد من إقليم الفرات فإننا نستطيع كذلك أن نقرر أن الإلهة «نكر» أو «نكل» ـ التي تعتبر في أحد النصوص السحرية كزوجة للإله الأعظم ـ ليست سوى آلهة بابل المسماة «ننجال زوجة الإله القمري «سن»[2].

وهكذا نرى الشعب يبحث عن نعيمه تارة عن طريقة آلهة الشعوب الأجنبية، وطوراً عن طريق مخلوقات جديدة يلصق هو بها صفات آلهية، وذلك بعد أن أصبح الآلهة القدامى غير قريبين منه، وليس بغريب في هذا البحث أن يعود الشعب إلى ما اعتاد الركون إليه منذ أمد طويل وهو تقديس الحيوان. وفي الواقع: إن مظهر هذه العبادة لم يكن قد اختفى تماماً، بل إن الناس ـ كما كانت الحال قديماً ـ ما زالوا يقومون بتربية الثيران المقدسة أبيس ومنيفيس في ممفيس وهليوبوليس ولم يبرح ذاكرتهم أبدا كبش منديس ولا الصقر حوريس.. ورغم هذا فإن هذه الحيوانات لم تكن سوى توابع من مستلزمات الديانة لها قيمتها. وكل من كان يقدم أناشيد الثناء لبتاح وحوراختي لم يكن يفكر البتة في الثيران المقدة أبيس ومنيفيس أكثر من أنها موجودة ـ على سبيل العادة المتوارثة ـ في معابدها[3]، ولكن مظاهر اتجاه الشعب تزداد وتميل نحو الرغبة في العودة إلى تقديس الحيوانات، وهي تلك الكائنات التي تظهر فيها الألوهية حية... أليست هذه الحيوانات أقرب إلى الرجل الساذج من الصور الإلهية بالمعبد، تلك الصور التي لا تسنح له الفرصة ليراها؟ ولكننا ما زلنا بعيدين عن ذلك العصر الذي يعتبر

---

(١) Ranke: Studies for Griffith, P. 412 ss.

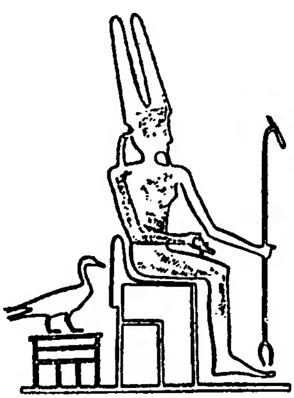
(٢) Gardiner AE. Z. 43, 97.

(٣) إذا كان قد بدىء في تل العمارنة في الفترة الأولى على الأقل من الثورة بتخطيط قبور للثور منيفس فإن في هذا ما يدل على الرغبة في أن تكون مدينة الشمس الجديدة مشابهة في ظاهرها كذلك للمدينة القديمة.

فيه كل قط وكل أفعى سامة مخلوقاً إلهياً وإن كان الطريق معبداً لمثل هذه الحماقة.

وهناك لوحة ترجع إلى عهد الأسرة الثامنة عشرة كرسها خادم أحد المعابد لتخليد تعبده لمنفيس[1]. وإننا لنرى عظم احترام هذا الحيوان المقدس بفضل وشاية ترجع إلى عهد رعمسيس الرابع، فقد كان من بين ذنوب أحد المتهمين بيعه ثور منيفس صغيراً عندما وضعته بقرته[2]. كما وجدت لوحات كرست لكل أنواع الحيوان التي يعبدها الإنسان رغم أنها لا تتصل بالدين الرسمي للمعابد، ورغم أن علاقتها بالآلهة الأصيلة تظلّ خافية عنا.

وإننا لنذكر أيضاً أن كبشاً كان يمكن أن يكرّس لأمون ما دامت إحدى أشكال هذا الإله كانت برأس كبش. ولكن ما معنى وجود أوزة خلف أمون؟ إننا لو وجدنا سبباً قوياً لمثل هذه الغرابة فقد نستطيع التفكير في المزقزق الأعظم الذي كان يرفرف على الهاوية الدكناء عند خلق العالم، ولكن الواقع أن كل تأويل يظلّ عبثاً أمام التصوير الممثل على لوحة أخرى للقط الجميل أو السنونو اللطيف الذي يظل هناك كذلك... إلى الأبد... والذين يتقدمون له بالدعاء[3].



٦١ ـ أمون رع مع أوزة
(برلين ٧٢٩٥)

(١) Berlin, 14200.

(٢) Spiegelberg: AE. Z. 29, 82.

(٣) Turin, 134, Sitz. Ber. Berl. akad. (1911) 1096.

ثم ما معنى تلك السمكات السبع التي نراها إلى جانب إله الشمس والتي ترى في معبد صغير خاص بها؟[1]. ولقد كان هذا التيار قوياً إلى حد أن الديانة الرسمية لم تكن تستطيع هي الأخرى أن تمنع الاهتمام به.

ولذا فإن الأمير «خع أم واست» ابن رعمسيس الثاني وكاهن منف الأكبر أمر ببناء مقبرة عامة لعجول أبيس. ولقد أمعنوا كثيراً في ذلك الوقت في تكريم الأبقار الميتة حيث كانت توضع بجانبها تماثيل جنزية (فصل ١٥) مهمتها تخفيف العمل عنها في العالم الآخر[2]، وقد قام أمير يدعى تحوتمس في الأسرة الثامنة عشرة بدفن قط مقدس على طريقة دفن الإنسان، فصنع له تابوتاً كبيراً من الحجر وفي أطرافه مُثلتا كل من إيزيس ونفتيس وهما تنوحان... أما هو (أي القط) المبجل إلى جوار أوزوريس فيجلس كما يجلس الرجل الميت أمام مائدة طعامه مثلت فوقها أوزة مشوية[3].



٦٢ ـ آلهة تطعم الموتى من شجرتها (عن برلين ٧٢٩١).

وهناك أثر آخر من أقدم العصور استمرّ خلال عهد الدولة الحديثة وهو

(١) Berlin no 818.

(٢) برأس أبيس Berlin Nos 398, 399.

(٣) Borchardt AE. Z., 44, 97.

عبادة أشجار معينة. وقد رأينا فيما سبق خطاباً من طيبة أن أهل ذلك الإقليم كانوا يقدمون لها أدعيتهم، وعلاوة على ذلك فإن عبادة شجرة الجميز لم تبطل أبداً في منف، وهي الجميزة الكائنة في جنوب معبد بتاح. وقد كانت الإلهة حاتحور ـ طبقاً لعقيدة قديمة ـ تسكن هذه الشجرة، وبما أنها كانت إلهة الحب كذلك فقد كان يعطى للنبات أسماء مثل «إنوحي مملوكة الجميزة»[1]. ويظن كذلك أن إلهة أخرى كانت تستقر على بعض الأشجار الأخرى على حدود الصحراء وهي نوت وحاتحور وكانوا يأملون أن تعطي هذا الأشجار للموتى المدفونين هناك الماء والطعـام. وقد عرف الدين الرسمي للإمبراطورية الحديثة كذلك ـ كما سنرى فيما يلي ـ طبيعة إلهية في بعض أشجار معينة في المعبد.

حين يعتقد المرء أن المعبودات تشارك في تقرير مصيره وتوجهه في أعماله، نراه يعقد العزم على كشف ما قرّرته بصدده وما تنصحه بعمله. . .

ولقد كان الأمر كذلك في مصر دائماً ولكننا لا نلاقي أمثال هذه القرارات الإلهية إلا منذ الإمبراطورية الحديثة. فحين أراد تحوتمس الأول تثبيت وراثة العرش لابنته حتشبسوت رغم كل التقاليد، نرى أمون ينطق بأمر يتفق ورغبات الملك. وحين أرادت حتشبسوت نفسها إرسال رحلة إلى بلاد البخور توسلت أمام سلالم سيد الآلهة وسمع أمر من المعبد الكبير، بل نصيحة من الإله نفسه هي: ابحثي عن الطرق التي تؤدي إلى بونت وافتحي المسالك التي توصل إلى جبال المـر[2]، وحين يقود تحوتمس الثالث وأخلافه جيوشهم في آسيا فليس يتمّ ذلك إلا لأن الإله أمون أبوهم قد أعد لهم هناك انتصارات. وإذا كان أمون كما رأينا قد ساعد الأميرة حتشبسوت على ارتقاء العرش، فإنه لم يختر للملك شقيقها الذي كان قد ثبته على العرش من قبل وهو الذي قدر له أن يخلعها بالتالي. . . ولقد نشأ الشاب الصغير في المعبد ـ وربما كان ذلك لأن أباه أراد أن

(١) تدل الطريقة العامية في كتابة هذه الأسماء على أنها إنماترجع إلى لغة الشعب.

(٢) Urk., IV, 342.

يجعل منه يوماً ما كبيراً للكهنة ـ وقبل أن يصبح كاهناً ساهم في حفلة قدم الملك خلالها قرباناً ضخماً. . . ولم يستقرّ الإله في مكانه أمام المذبح، بل تقدم ـ لعجب الجميع ـ نحو الصالة الكبرى كأنما هو يبحث عن شخص ما. . . ثم توقف أمام الأمير الصغير الذي كان بين الكهنة من غير شك فارتمى الأمير على الأرض أمامه، وقاده الإله إلى مكان المعبد حيث يقف الملك عادة، ثم فتح قدس الأقداس ووضع له ـ كما تذكر بقية القصة ـ منذ هذه اللحظة التاج على رأسه وأعطاه لقبه الملكي(١).

وحين اعتلى رعمسيس الثالث العرش فيما بعد أعلن الإله أنه سيحكم مائتي عام، وقد أخذ هذا الإقرار حرفياً على الإله لابنه، وعندما مات الملك تذكروا ذلك، فالتمسوا من الإله أن يفي بالوعد لخليفته على الأقل(٢).

وإذا كان الإله يظهر إرادته للملك في هذه الحالة، فإن مثل ذلك يمكن أن يحدث لعامة الناس وفي عهد رعمسيس الثاني حدث أن كبيراً للمدجائيين (أي قائداً للبوليس النوبي) شارك في موكب لتمجيد إيزيس. وقد أشارت له صورتها المقدسة من أعلى قاربها، وكان معنى ذلك أنه سيرقى، وقد حدث بالفعل فيما بعد أن أصبح ضابطاً كبيراً وسفيراً للملك كما تقصّ ذلك علينا إحدى اللوحات(٣). وكان يحدث أيضاً أن يستفتي الإله حتى لو كانت هناك منازعات خاصة بملكية بعض الأشياء، فقد حدث مثلاً أن سرقت من مقبرة في طيبة ملابس الناش «كاها» ولم يعرف السارق. فتوجه المسروق منه إلى الملك المقدس أمينوفيس مولاه، والتمس منه أن يقدم له العون اليوم. وبينا هم يقومون بنقل صورة الإله أمام منزل أمون نخت أشارت الصورة برأسها معلنة أن ابنة ذلك

---

(١) Urk., IV, 156 ss. et texte allemand, P. 75, cf. Breasted, Records, Tome II 138 et Lefebre, Grands Prêtres, P. 74 ss.

(٢) Harris I, 23, 2.

(٣) Petrie, Koptos, Pl. 19.

الرجل هـي التي لديها الملابس[١]. وحادث آخر كذلك... تشاجر خع أم ماست، وهو احد عمال طيبه مع زميل له بخصوص امتلاك بيت أبيه، فرفع الأمر إلى الملك المقدس وقال: «أقبل إلى معاونتي أنت أيتها الشمس العظيمة»، وحين سأل الملك إن كان البيت يعطي إلى خع أم ماست؟ انحنى بشدة أمام العاملين وأمام كل الذين كانوا يحملون التمثال[٢].

وهناك نص يحوي جدالاً حدث بين بعض المثقفين العلماء يثبت لنا أنه لم يكن الشعب فقط الذي يصدق مثل هذه القرارات الإلهية. وفي هذا المكتوب يـدافع الكاتب عن نفسه ضد غريمه الذي يشك في مهارته ككاتب ويقترح أخيراً أن توضع أمام أونوريس خطابات غريمه ليقرّر من هو صاحب الحقّ[٣].

وسنرى في الفصل الثامن عشر كيف أن عادة سؤال الإله قد ازدادت رسوخاً أكثر فأكثر حتى أصبحت من عوامل الحياة الهامة.

* * *

---

(١) Ostracon, Gardinér N° 4.

(٢) Ostracon Petrie N° 21. cf. aussi Erman: Sitz. Ber Berl. akad 1910, p. 344.

(٣) Anast. I: cf. litt. P. 281.

الفصل الحادي عشر

الأخلاق

حين يعيش الناس في مجتمع دائم تنشأ فيما بينهم على مرّ العصور أنواع شتى من التقاليد من شأنها أن تحدّ من أفعال الأشخاص إذا كان من أثرها إيذاء المجتمع. إن الصلات الاجتماعية تفرض على الشخص ألا يقتل أو يسرق أو يقترف أيّ عمل من هذا القبيل. ولعل ما تفرضه هذه الأخلاق على الفرد من واجبات كأثر لازدياد الثقافة قد يتجاوز ما يطلب إلى الإنسان.

وليست للأخلاق صلة بالدين في أساسها[١] ولكنه من الواضح أنها موضوعة في صورة من الصور تحت حمايته، ولقد كان الظلم في كل العصور في مصر مرذولاً في نظر الآلهة. ونحن نقرأ في متون الأهرام أن الملاح السماوي لا يسمح بالعبور لغير الصالحين العادلين[٢]، ويعتبر إله الشمس بصفة خاصة ممثلاً للعدالة وكان الصدق أو العدالة ـ كلمة واحدة تعني أحد المعنيين ـ تمثل كأنما هي ابنة له. أليس هو القائل بنفسه للإنسان: قل الصدق وافعل ما يقتضيه فهو العظيم القويّ[٣]... هذه الحقيقة وهذا القانون يتضمنان المثل الأعلى لدى المصريين. وهذا هو ما يكوّن دولة متحضرة؛ والواقع مهما أوغلنا في القدم فإننا ندرك أن المصريين عاشوا كشعب كان النظام يسيطر على علاقاته الاجتماعية.

---

(١) Ed. meyer 1^2, 71.

(٢) Pyr. 383 ss.

(٣) Paysan (litt., P. 173).

وحين كان يضطرب هذا النظام كانوا يعتبرون هذا الأمر جُرماً، وربما كانت الرغبة في الكفاح أو البطولة تعوزانهم، بل قد يندر أن تجد في مختلف النقوش التي وصلتنا من كل العصور من يفاخر بعمل حربي، وليس الأمر مصادفة أن تكون الأسطورة المحببة لدى المصريين ذات طابع سلمي. فلقد كان أوزوريس كما رأينا في الفصل الخامس أميراً للسلام... إلهاً لا أعداء له، وضع حداً للتناحر، وإنه وإنْ كان يعظّم كمحارب وفاتح، فإنما مرجع ذلك إلى عادة تصوّر الملك الأرضي على هذه الصورة. كما أنه يجدر بالملاحظة أن أوزوريس ـ تبعاً لما جاء بالنسخة الأولى من الأسطورة ـ لم يحارب الشعوب الأجنبية إلا عن طريق الإقناع. وحين يطالب ابنه حوريس قاتله بدمه فإن الأمر لا يسير إلا عن طريق العدالة... وأما سكان الوادي الوادعين فلم يشعروا بغير الاشمئزاز نحو الحروب والمعارك التي أبدعت في تصويرها خيالات بعض الشعوب الأخرى ـ ولعلنا لم ننسَ الإلياذة ـ هذا... رغم أننا نجد الملوك يسرّون بأمثال التعبيرات... وطيء الشعوب الأجنبية بقدمه.... وسع الحدود.

والرأي القائل بأن حظّ الميت متوقف على طريقة سلوكه خلال حياته القديمة... رأي موغل في القدم، والآلهة التي في مقدورها أن تمدّ يد المساعدة للميت لا تمنح عونها لكل شخص. وحين يتقدم المعتقد الأوزيري على سائر المعتقدات، فإنه يطغى عليها في نهاية الأمر. ومملكة هذا الإله المبرأ من كل عيب لا يدخلها إلا المطهرون، وعلى كل واحد أن يثبت أمام الاثنين والأربعين قاضياً للموتى أنه لم يرتكب إثماً قط. وسنرى في الفصل الرابع عشر بالتفصيل ما كانوا يقصدونه بالجرائم في هذه الإعترافات. ففي مقدمتها ما هو محرّم في كل مجتمع إنساني وهو القتل والتحريض عليه والسرقة والغشّ والتزوير والفسق والزنا، ثم يضاف إلى ذلك واجبات أسمى، فعلى الإنسان ألا يكذب، وألا يغتاب، وألا يتجسس من وراء الأبواب وألا يأكل قلبه[1] أي لا يهلك نفسه فيما لا يجدي من أسى. وألا يؤخذ اللبن من فم الرضع حتى لا يجوعوا ولا

(١) يتجلى في اللغة القبطية أن هذا المعنى هو المعنى الصحيح.

يبكوا، وهناك أمور أخرى تمسّ الظروف الخاصة بكيان المصريين، فيجب ألا يعوق الماء الجاري أثناء الفيضان وألا يعتدي على حيوانات أو أسماك أو طيور الآلهة، وألا يسرق الأطعمة من المعابد أو المقابر.

ويظهر لنا بطريقة أوضح ما كان يعتبر في مصر فضيلة، وقد سجلته نقوش المقابر القديمة وآداب الدولة الوسطى. فالمرء يفخر قبل كل شيء بعمل الخير، يعطي الخبز للجائع والماء للصادي والملبس للعاري(١)، ومن يعجز عن عبور النهر يساعد على عبوره في القارب الشخصي(٢)، ويهدي إلى السبيل السويّ من ضلّ(٣). الرجل الطيب هو ابن للمسنين(٤) وأخ للمطلق، وزوج للأرملة، وأب لليتيم... هو كساء لمن يقرصه الصقيع، وملجأ من الريح(٥)، هو للمريض مرضع أو ممرّض.

ويفخر أحد العظماء زيادة على ذلك بأنه لم يغبن الأرملة أبداً، ولم يستغلّ ابنة رجل من العوام. لم يسبب الضيق لمزارع أو راعٍ. وفي أيام الفاقة ساعد الشعب ولم يفرّق بين كبير وصغير(٦)، وقد حاول بصفته قاضياً أن يجعل المتخاصمين يخرجان مسرورين من المملكة(٧)، وقد عنى أيضاً بأن يحفظ للإبن مال أبيه وممتلكاته حين يكون في الأمر خلاف(٨)، لأن واجب الرجل الشريف أن يحفظ للإبن وظيفة أبيه. ويذكر الحكيم بتاح حوتب وزير الملك أسسي (حوالي ٢٥٠٠ ق. م) كيف يجب على الرجل الشريف والموظف الصالح أن يعيش. من الخير أن يتزوّج وأن يكوّن أسرة. ولكن عليه أن يحترس من النساء في منازل الآخرين. لأن ألف رجل يسعون إلى الخراب بسببهن. يجب أن يكون

---

(١) cf. Urk. I, 122; Caire 20505.

(٢) Urk. I, 122; Caire 20505.

(٣) Sinouhé, 96.

(٤) ما يلي مأخوذ عن Paysan (litt. p. 126) et Hatnoub.

(٥) Hanovre, Kestner - museum, no, II.

(٦) Inscr. d'Ameni (Beni. Hassan).

(٧) Hatnoub, p. 29.

(٨) Urk. I, 123, 133.

محبوباً من الناس جميعاً ولا سيما الذي يطلبون العون. ويجب أن يشجعهم بإشارة من رأسه وأن يصغي إلى شكاواهم. وعليه أن يكون دائماً متواضعاً وكتوماً، وأن يجتنب ذكر الألفاظ النابية، وألا يتكبر بسبب علمه، وألا يحتقر الوضيع إذا ما رفعه الملك... إن البخل عيب قبيح وشهوة قبيحة تدعو إلى اضطراب العلاقات الإنسانية جميعاً.

وتبدو هذه المبادىء على شيء من القناعة ويظهر هذا الطابع أكثر وضوحاً حين يؤكد الحكيم كم هي مفيدة تعاليمه للناس. فعلى المرء أن يحبّ زوجه، ويجب أن يعمل لها كل خير، وألا يدخر وسعاً في ذلك، فهي حقل طيب يحمل الثمار... يجب أن تكون خادماً مخلصاً لرئيسك حتى يدوم بيتك وكل أموالك وسيكون مرتبك معقولاً. كن كريماً نحو من يثق فيك فمن يدري؟ ربما يأتي الوقت الذي يساعدونك فيه.

أما تعاليم أحد الملوك الذين عاشوا قبل الدولة الوسطى والموجه إلى ابنه «مري كارع»(١) فمن طراز مختلف، ويذكر فيها أيضاً أنه يجب مواساة الباكي وعدم اضطهاد الأرملة أو حرمان أحد من ماله. ويجب ألا يباهي الملك بأصله، وعليه قبل كل شيء أن يجتنب الغضب في الحديث واندفاع العاطفة. وهذه على كل حال فكرة تقابلها كثيراً في الدولة الوسطى، وهي بكل تأكيد إحدى الأفكار الأساسية للأخلاق في هذه الفترة. فقد قيل عن أمير ما، أنه كان يتغلب على هواه، وكان قلبه هادئاً خالياً من كل طيش(٢).

ويعلّم الملك الشيخ ابنه أن يتحدث في لطف لأن الكلام أقوى من العراك.

---

(٩) إننا نجهل صحة إسناد هذه النصوص القديمة الأدبية لأشخاص معينين، على أية حال فإن هذا الكتاب أقدم من الدولة الوسطى. وكل ما يلي مأخوذ عن Literatue, S. 87 - 90.

(١) إن ما يلي مأخوذ عن Litt. p. 109 - 119.

(٢) Hatnoub, p. 61; pareillement p. 25; Caire 20288, moyen Empire.

وينبه فيما يختصّ بالتعبد للآلهة، أن الإله يفضل تقوى العبد الصالح عن ثور يقدمه شرير على مذبحه ولكن على الرجل كذلك أن يفعل ما يفيد نفسه، أن يقوم بعمل الكاهن ويقدّم القرابين، فإن الإله يعرف من يفعل شيئاً من أجله.

وقد وصلنا من الدولة الحديثة كتاب يُعتبر من أمتع ما خلفه لنا الأدب المصري، وقد كتبه رجل يدعى «أني» ولنكتفِ بتقديم بعض مقتطفات منه:

كن كريماً ولا تأكل خبزاً حين يكون هناك آخر يتضوّر جوعاً[١]. احترس من المرأة الأجنبية الغير معروفة في بلدها. لا تبادلها النظرات ولا تظهر أنك تعرفها فإن هذه خطيئة عظمى حتى إذا لم تتحدث هي بذلك[٢]. من الخير أن يبكر في الزواج وأن يكون للشخص أطفال كثيرون[٣]، عامل زوجتك برعاية إن كنت تعرف عنها أنها ممتازة ولا تقل لها «أين هذا؟ هاته» إن كانت قد وضعته في مكانه الصحيح[٤].

أعد لأمك كل ما فعلته من أجلك. أعطها المزيد من الخبز واحملها كما حملتك. إنها حملتك ثقلاً وحين ولدت بعد تمام شهورك حملتك على عنقها وظل ثديها في فمك ثلاث سنوات ولم تكن تشمئزّ من قاذوراتك. وأرسلتك إلى المدرسة كي تتعلم الكتابة وفي كل يوم كانت تنتظرك بالخبز والجعة من بيتها[٥].

كن وقوراً حين تتناول طعامك. واعتدل في شرب الجعة وإلا فإنك سوف لا تعرف ما تقول، وإن سقطت ستظلْ ملقى على الأرض كطفل صغير. رفاقك يتركونك ملقى ويقولون فليهلك هذا الثمل[٦]. تخير جيداً معاشريك ولا تؤاخ

---

(١) Ani, Litt. p. 299.

(٢) Idem. Litt. p. 296.

(٣) Idem. Litt. p. 295.

(٤) Idem. Litt. p. 300.

(٥) Idem. Litt. p. 299.

(٦) Idem. Litt. p. 296.

خادم رجل آخر[١]. . . ولتغض النظر عما يجانب الصواب في بيت أجنبي، فإذا رأته عينك اسكت ولا تقله لغريب[٢] واحترس من أن تكشف أسراراً وإن قالها رجل من بيتك فتظاهر بالصمم[٣].

لا تكثر الكلام وكن حذراً حين تتكلم لأن اللسان يسبب للناس النكبات[٤]، الفضيلة الرئيسية للمرء هي الحشمة والحياء. لا تبقَ جالساً حين يكون شخص أكبر منك سناً أو مركزاً واقفاً[٥]. لا تدخل منزلاً أجنبياً ما لم تكن مدعوّاً[٦] لا تجاوب رئيساً غاضباً، بل حاول تهدئته[٧] - وبالمثل - لا تدخل المحكمة أو تخرج منها حتى لاينتن اسمك[٨]. لا تضع ثقتك في والغني ولا تعتمد على ميراث، ولا تقل: إن والد أمي يملك بيتاً. . . لأنه عندما يأتي وقت القسمة مع إخوتك فقد لا تتسلم أكثر من مخزن[٩].

ويطنب هذا الحكيم في الحديث عما يجب نحو الإله:

احتفل بعيد إلهك. . . إن الإله يسخط على من يهمل هذا الواجب[١٠]. لا تختر المكان الأوّل في عيده لتحاول أن تحمله، ولا تتساءل أين تمثاله.

والطريقة التي يندد بها «أني» التظاهر بالتقوى تترك أثرها فينا بصفة خاصة: إن مسكن الإله يمقت الصخب. . . صلّ من قلب مبتهل تظلّ فيه كل الكلمات

(١) Ani. Litt. p. 297.
(٢) Idem. Litt. p. 295.
(٣) Idem. Litt. p. 295.
(٤) Idem. Litt. p. 298.
(٥) Idem. Litt. p. 298.
(٦) Idem. Litt. p. 300.
(٧) Idem. Litt. p. 300.
(٨) Idem. Litt. p. 296.
(٩) Idem. Litt. p. 298.
(١٠) Idem. Litt. p. 295.

مختفية... فهو يصنع ما أنت في حاجة إليه ويستمع إلى كرمك ويتقبل قربانك[١].

والدولة الحديثة ـ من غير شكّ ـ عصر أصبحت فيه العاطفة أكثر رقة وعلينا ألا ندهش حين نصادف في نصوص أخرى[٢] ذكر الإله الذي يسكن في الإنسان[٣]. إنها سعادة للمرء أن يسرّ منه. هذا الإله في الإنسان هو ـ كما لوحظ في موضع آخر[٤] ـ قلبه. ويكفينا أن نرى في ذلك أيضاً «كا»[٥] (التي سنتحدث عنها في الفصل الرابع عشر)، وهذه العقيدة تتصل بما نسميه نحن بالضمير.

وبعد ذلك بحوالي ثلاثة أو أربعة قرون أعطى ناظر القمح والأملاك «أمون أم أوبي» ابنه ثلاثين حكمة للسلوك الطيب في الحياة. وهو كتاب يفيدنا بصفة خاصة لأن فقرات معينة منه ذكرت في أمثال سليمان، ومنها إلى الكتاب المقدس[٦].

والفكرة التي نكتسبها من قراءة الكتاب فيما يختصّ بالعلاقة بين الإنسان والإله شديدة الشبيه بفكرتنا اليوم. ففيه يقال إن الإنسان من تراب وقش، وأن الإله هو الذي صنعه[٧]، وإنه لا يوجد كمال بالنسبة للإله[٨]... لا تقل «ليست لي خطيئة» إن الخطيئة من شأن الإله وهو الذي يضع عليها خاتمه[٩]. في كل مشاجرة ومشادة مع أعدائك لا تضع كل ثقتك في نفسك، بل اترك نفسك بين ذراعي الإله فصمتك (أي هدوءك) سيسقط أعداءك[١٠]. وكذلك نقرأ في مكان

---

(١) Idem. Litt. p. 196.

(٢) Urk., IV, 117, 12 = 149,4.

(٣) ورد كذلك في نص قديم أن الإله يقطن في الإنسان. قارن Lacau, T. R. XLIV S. 91.

(٤) Vienna, Cercueil XX (Ptol). = Wreczinski P. 160.

(٥) Erman, Sitz. Ber. Berl. akad., (1924), p. 86 ss.

(٦) Lange, Amenemope p, 121.

(٧) Idem. p. 98.

(٨) Idem. p. 98.

(٩) Erman. Sitz. Ber. Berl. Akad. (1924) p. 91; Amenemope p. 110.

آخر: لا تشترك في أية مشادة مع شخص ثائر. إن الإله يستطيع أن يجيبه على كلامه[١].

علاوة على ذلك، فإن الحكيم يهتمّ اهتماماً بالغاً - كما يليق بمهنته - بالأمانة والدقة فالإيبيس والقرد أي تحوت إله الكتاب - يسهران عليهما. وكذلك: لا تغمس قلمك (في المحبرة) حتى تؤذي شخصاً[٢] آخر، ولا تغش في المقاييس[٣] والأوزان[٤]، ولا ترتش[٥]، اقض بعدل لا تظلم الضعيف لصالح الغنيّ[٦]، ولا تطرد من كان ملبسه غير مناسب[٧].

لا تغشّ في جباية الضرائب. ولا تكن قاسياً كذلك. إذا ما اكتشفت مبلغاً كبيراً متأخراً على القائمة عند أحد الفقراء قسّمه إلى ثلاثة أجزاء واحذف جزءين منهما ولا تبقِ إلا جزءاً واحداً[٨].

إن جميع ما تفعله في غير عدالة لن يجلب لك بركة، إذ أن مكيـالاً واحداً يعطيه الإله خير من خمسة آلاف تكتسبها بغير حقّ[٩]. إذا جاءك أحد بثروة على طريقة اللصوص فإنها لا تبقى معك ليلة واحدة... عند طلوع الصباح لن تكون في بيتك... ترى فقط المكان الذي كانت فيه وأما هي فليست موجودة... لقد فتحت الأرض فاها وابتلعتها... إن العالم السفلي قد غمرها... إنها صنعت لنفسها حفرة ضخمة وانطمرت فيها... إنها صنعت لنفسها أجنحة وطارت إلى

---

(١) Erman: Sitz. Ber Berl. Akad. (1924) p. 91.

(٢) Lange: Amenemope. p. 85.

(٣) Idem. p. 48.

(٤) Idem. p. 88.

(٥) Idem. p. 92.

(٦) Idem. p. 105.

(٧) Idem. p. 105.

(٨) Idem. p. 80.

(٩) Idem. p. 52.

السماء[١]... خير للمرء قلب راضٍ من غنى مقرون بالهموم[٢].

ولكي يكون المرء كاملاً، عليه أن يظهر دائماً باحتشام ورقة وتواضع. فالشخص الثائر كالشجرة التي تنتهي بأن تصير وقوداً... أما الوديع فهو كالشجرة التي تحمل ثماراً في الحديقة[٣]. لا تسع وراء صحبة الثائر ولا تقترب منه لمبادلته الحديث[٤]. عليك أن تنحني أمام الرئيس السريع الغضب حتى ولو أهانك فإنه سيصلح الأمر في اليوم التالي[٥].

احذر الهموم لأن الإنسان لا يدري ما سوف يكون في الغد[٦]. لا تبذر الكلام القبيح[٧]. لا تكن بخيلاً لأن المال المغتصب ليس فيه متعة لك[٨]. لا تتخذ سفينة على النهر لتتكسب عن طريقها أجر عبوره، أو لا تقبل ثمناً لذلك إلا ممن يمتلك شيئاً، وأما من ليس له فلا تتقاضاه شيئاً[٩]، وانقل في مركبك كل من يطلب العبور طالما كان فيها مكان[١٠].

كن رحيماً في كل شيء. فلا تهزأ بالأعمى ولا تسخر من القميء. لا تسبب ضرّاً لمقعد، ولا تزدر رجلاً في يد الإله، ولا تغضب عليه إن سقط[١١].

ويرجع كتاب «أمون أم أوبي» إلى حوالي النصف الأول من الألف سنة

---

(١) Erman: Sitz Ber. Berl. Akad. (1924), p. 87.

(٢) Idem. p. 87.

(٣) Lange, Amenemope p. 42,43.

(٤) Erman: Sitz. Ber. Berl. Akad, (1924) p. 90.

(٥) Lange, Amenemope p. 128.

(٦) Idem. p. 98.

(٧) Idem. p. 61.

(٨) Idem. p. 73.

(٩) Idem. p. 132.

(١٠) Idem. p. 132.

(١١) Idem. p. 121.

الأولى[١]، ونحن نرى في هذا العصر فترة انحطاط، ولكن انحلال الدولة لا يتمشى دائماً مع انحطاط العقل. ولذا فإنه تصادفنا في نقوش العصر علائم إحساس أكثر رقة وتعقلاً وسمواً. ولنذكر فقرة واحدة تفوق كل تعليم أني، وأمون أم أوبي. يقول أحد المعاصرين: لقد خلقني خنوم ممتازاً. إنه يوجه لساني نحو الخير. إنني لم أدنس فمي بإهانة من أهانني. إنني استجلبت المحبة لنفسي وصار أعدائي أعواناً لي[٢].

وهكذا كان لزاماً على كل شخص أن يقابل كل إهانة بالتسامح حتى يكتسب عدوّه ويجعل منه صديقاً.

* * *

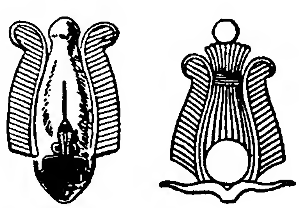
(١) مما يدل على أنه قديم على هذا النحو لوح في متحف تورين نسخ عليه تلميذ من ذلك العهد بعض الفقرات.

(٢) Caire, Catal. 559, XXII dyn. (Rec. de Trav., 16,56).

الفصل الثاني عشر

العبادة في العصور القديمة

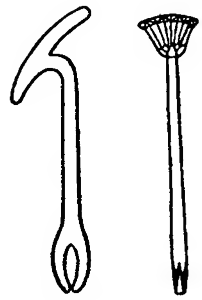
لسنا نستطيع أن نخوض في جميع دقائق العبادة والتعرّف إلى نظام المعابد وتحديد الفروق بين أنواع الكهنة المختلفين وذلك بالنسبة إلى عددهم الذي لا يحصى. ولكننا سنلقي نظرة سريعة على ذلك كله حتى نستطيع أن نلقي ضوءاً على مميزات هذه المظاهر الخارجية للديانة المصرية. ومن أراد التكلم عن هذه الديانة لا بد أن يفكر في ذلك العصر حين كانت الآلهة تتربع على عرش عظمتها في معابدها الضخمة حيث كانت تقام لها الحفلات الفخمة. ولكن العبادة على هذا الشكل حديثة نسبياً، وإذا أردنا أن نتفهمها تفهماً أقرب إلى الصواب فإنه يجب علينا الرجوع إلى أقدم العهود... إلى عهود لا نذكرها حين كان المصريون لا يزالون شعباً بدائياً... حينذاك كانوا قد استطاعوا نحت التماثل الخشنة ذات الأشكال الإنسانية أو الحيوانية والتي كانوا يميزونها بتيجان مختلفة. ولكن خيالهم اكتفى بتيجان مكوّنة من حزم من القشّ وقرون الخراف والأبقار



٦٣ ـ تاجان

وريش النعام. وكانت الآلهة تحمل بمثابة الصولجان عصا كما يفعل البدو حتى يومنا هذا؛ بل كانت الآلهات تكتفي بعود من الغاب. وكانت المعابد عبارة عن

أكواخ ذات حوائط من الأعواد المحبوكة تبرز من سقفها عصى. وكان ينصب في الواجهة حاجز به ساريتان. وكانوا يستعملون حصيرة من القشّ كمذبح، وكانوا يقيمون رواقات لمناسبة الأعياد.



ا ب

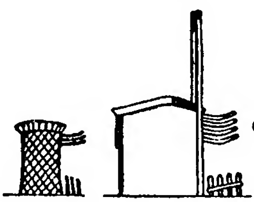
٦٤ - صولجانان للآلهة والآلهان

وإذا كان المصري قد وصف معبده فيما بعد بأنه «قصر الإله» فإن هذه العبارة كانت تعني يوماً ما معناها الحرفي. لأن الإله كان يتصور مثل الملك يعيش في قصر له تيجان ويؤدي له أتباعه الضرائب - أي القرابين - وله كذلك خدم يعنون به ويطعمونه وهم الكهنة الذين يسمون من أجل ذلك بخدم الإله. ويتفق طقس العبادة اليومية مع هذه العقيدة كما أن ترتيب غرف المعبد يشبه تنظيم منزل أحد الأعيان.

وفي مبدأ الأمر لم يكن المعبد الواحد مكرّساً لغير إله واحد وهو سيده. ولكن - على مرّ الأجيال - ألحقت به آلهة أخرى كان لها أتباع في المدينة، ولهذا السبب اضطروا إلى تخصيص مكان ثانوي لهم في المعبد. ولقد رأينا في الفصل الرابع كيف أن بعض هؤلاء الآلهة كانوا يعتبرون ضمن عائلة الإله الأكبر، وكان لهم نصيب من العطايا والأعياد ولو بقدر محدود.

ولم تبقَ لنا بطبيعة الحال معابد من العهد العتيق، بل نحن لا نعرفها إلا عن طريق رسومات صغيرة وردت في نقوش قديمة جداً. ولكن لم يبقَ إلا القليل جداً من الأبنية الكبرى التي ترجع إلى أوائل العصور التاريخية. وقد تناولها

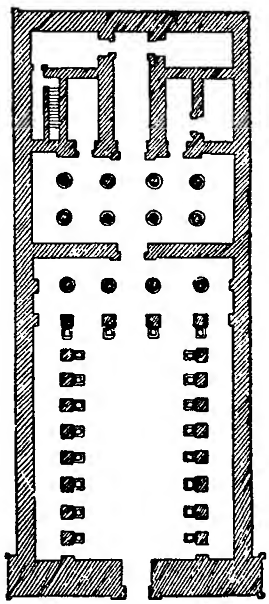
التعديل والترميم والتوسيع خلال العصور المختلفة حتى إنه لم يصلنا على العموم إلا بعض جدران من المعابد الأصلية. ومع ذلك فإن هذه البقايا النادرة من أكثر المعابد الكبرى قِدماً تكفي لتقديم فكرة صحيحة تامة؛ فلقد كان لها في مجموعها نفس مظهر المباني الكبرى التي حلت محلها بعد ذلك. وهذا المظهر الذي أعطته الأجيال القديمة للمعبد اتخذ كنموذج في جميع العصور. وكانت تعتبر كميراث مقدس خلقته الآلهة نفسها. فإن بتاح وسشات بنفسيهما كانا قد غرسا قديماً الأوتاد في الأرض وشدّا الحبال لتحديد تصميم المعبد. وإننا إذا كنا سنحاول فيما يلي تصوير معبد من الدولة الحديثة، فإنا في نفس الوقت نكون قد أبرزنا معالم معبد يرجع إلى عصر أكثر قدماً.



٦٥ ـ معبد في العهد العتيق

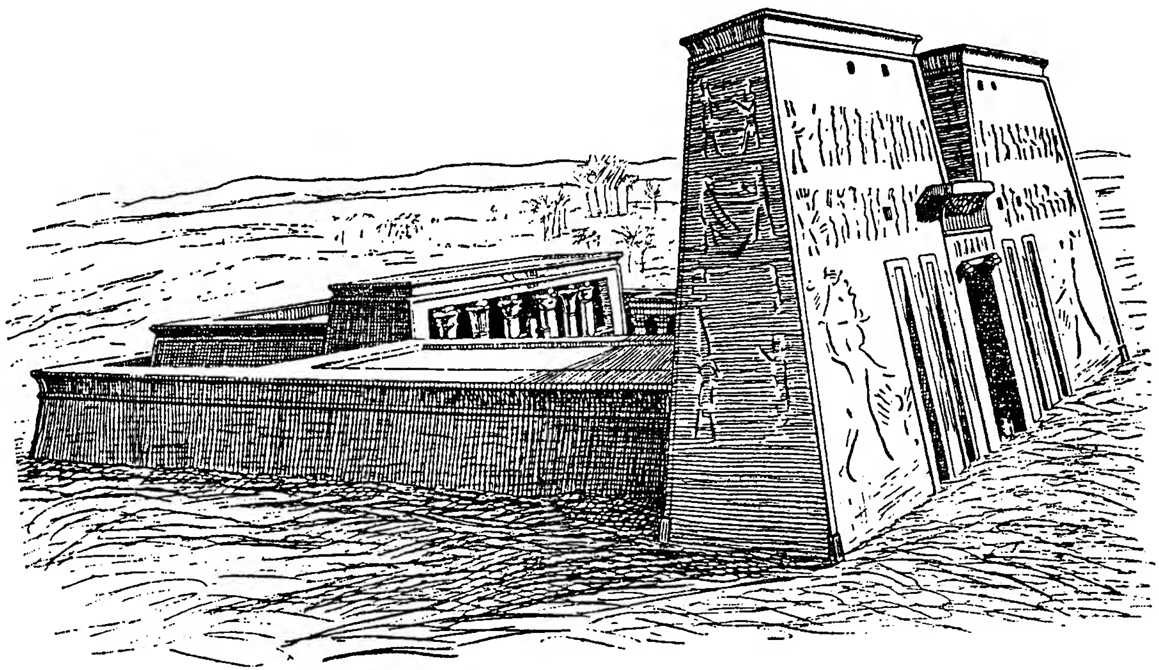
ومن المعتاد أن نرى اليوم أنقاض المعابد المصرية الجميلة قائمة وسط الحقول والحدائق، ونحن نتخيل أنها كانت كذلك في العصور القديمة. والحقيقة أن المعابد كانت تقوم في داخل المدن بين أكداس المنازل وبين الحارات القذرة الضيقة في مدينة من مدن الجنوب. ولإنقاذها مما يقلقها من ضجيج صاخب كانت تخاط بسور عالٍ من اللبن حتى تصبح في مكان هادىء نقيّ يتوسط عالماً صاخباً مليئاً بالقاذورات. وكان الطريق المؤدي إلى المعبد يمرّ في شوارع المدينة الضيقة ولكن شقت ـ على مرّ الزمن ـ طرق أوسع ساعدت على القيام بمواكب كبيرة. وقد رسم «طريق الإله» متسقاً ومستقيماً خلال الأحياء، ووضعت على جانبيه تماثيل كباش وأسود وحيوانات أخرى مقدسة كانت تقوم كحرّاس من الحجر كأنما تشرف على رعاية طريق الإله كله. وفي المكان الذي يلتقي فيه الطريق بسور المعبد يلوح الصرح المهيب وهو عبارة عن بوّابة كبيرة بجانبيها برجان عاليان تميل حوائطهما ميلاً خفيفاً. وينبسط وراء هذه البوّابة الضخمة بناء

واسع مكشوف تحيطه أروقة ذات أعمدة، وهنا كانت تقام الطقوس التي كان يسمح لعدد كبير من سكان المدينة أن يشاركوا فيها. وخلف هذا الفناء كان هناك قاعة هي الصالة الكبرى سقفها محمول على أعمدة وكانت مكاناً مخصصاً لطقوس مختلفة. ثم يلي ذلك قدس الأقداس حيث يوجد تمثال الإله. وهناك حجرات أخرى جانبية تحوي صوراً للآلهة الأقارب مثل الزوجة والإبن.

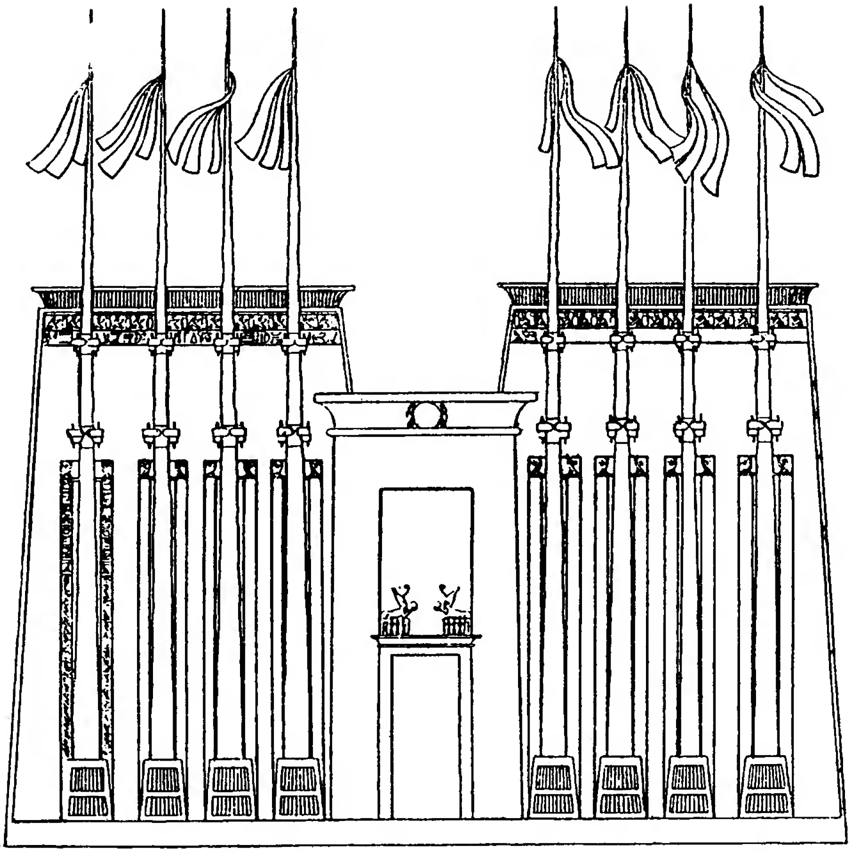


٦٦ ـ تخطيط معبد رمسيس الثالث في الكرنك

هذه هي الأقسام الرئيسية للمعبد، ومن الممكن أن يحوي ذلك قاعات أخرى ثانوي تستخدم لإيداع الأدوات المقدسة أو تخصص لبعض طقوس العبادة. ويجب ملاحظة أمر ذي دلالة خاصة، وهو أن أقسام المعبد المختلفة ينخفض بالتدريج ارتفاعها وقوّة الإضاءة فيها كلما توغلنا إلى الداخل. ففي الفناء يتألق ضوء الشمس في قوة لا تحتمل، وأما القاعة فيدخلها ضوء أقلّ عن طريق الباب وفتحات السقف، وأما قدس الأقداس فتعمه ظلمة حالكة.



٦٧ ـ معبد إدفو وقد بني في العهد الإغريقي على غرار نموذج قديم. في المقدمة المدخل ومن خلفه الفناء ثم المعبد في حقيقة الأمر.

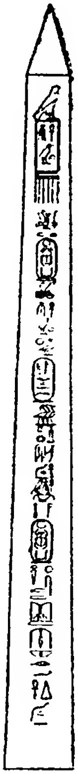


٦٨ ـ المدخل بصواريه واعلامه المتطايرة في الفضاء (من رسم مصري)

وأما زخرفة المعبد في مجموعها فلا تتغير. وتمثل على الجدران الخارجية ـ ابتداء من الأسرة التاسعة عشرة على الأقل ـ الأعمال الرائعة للملك الذي يحكم البلاد. وأما في الداخل فجميع النقوش تتصل بالعبادة وتمثل ما يحدث يومياً في هذه القاعات. ولا بد أن هذه النقوش ترجع إلى عهد قديم جداً، ودليلنا على ذلك أن العلامات الهيروغليفية المختلفة تستخدم بطريقة رمزية. فعندما يسرع الملك نحو الإله يمسك بيده بالعلامة «هب» أي «يسرع الخطى» في يده. وحين يقدم للإله علامة «ماعت» أي «الحقيقة» و «نب» أي «كل» فإن معنى هذا أنه يقدم له «كل ما هو صادق وحقيقي».

وأما اختيار زينة المعبد فليس بغير هدف كذلك. فأسفل الجدران يشير إلى الأرض والنيل، بينما نرى السقف يمثل السماء تنتثر عليها النجوم وتحلق فيه عقبان طائرة.

وأمام الصرح تقوم المسألتان وهما عمودان من الحجر كالعمودين اللذين اعتدنا أن نراهما أمام باب أبنية أخرى، وربما كانا يحملان في الأصل اسم صاحب الدار، وترتفع ملاصقة لجدران الصرح صواري ترفرف على قمتها أعلام مختلفة الألوان. وتقوم تماثيل ضخمة للملك أمام جداري الصرح أو في داخـل الفناء، الغرض منها حراسة المعبد الذي قام ببنائه. وتنتشر في أجزاء المعبد المختلفة تماثيل أخرى للملك أصغر حجماً تمثله يصلي أو يقدّم القربان للإله. ويحوي المعبد كذلك تماثيل لآلهة أخرى كما لو كانت هي الأخرى تريد خدمة



٦٩ ـ مسلة سيزوستريس الاول في هليوبوليس L. D. III, 118

الإله المحلي العظيم. فنرى إلهي النيل يقدمان له محصولات نهرهما، أو تمثالين لسخمت ذات رأس الأسد يبعدان الأعداء.

وقد كان المذبح الأكبر - وهو على ارتفاع بسيط تؤدي إليه درجات من الخلف[١] - يقوم عادة في وسط الفناء ذي البوّابات. وكانت توجد كذلك في قاعات المعبد الأخرى موائد توضع عليها الأطعمة والأشربة وأما في قدس الأقداس فقد كان يوضع سراج أمام الإله[٢].

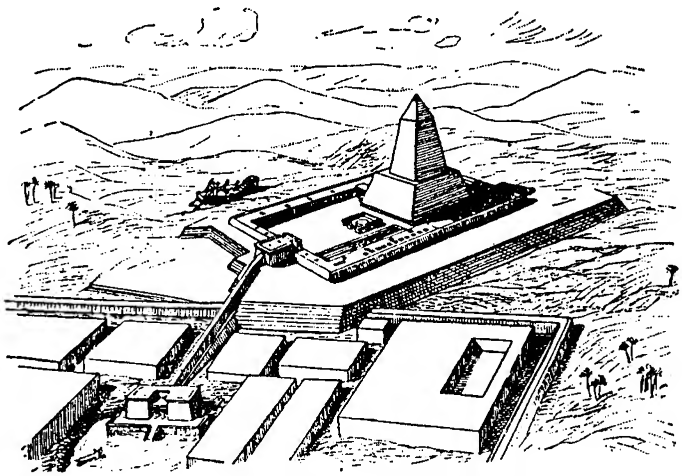
وهذا الذي عرضناه إن هو إلا نمط عادي للمعبد المصري، الذي لا يزال من الممكن في الوقت الحاضر التعرّف عليه في كل مكان تقريباً حتى ولو اضطرب تخطيطه في بعض الأحيان بسبب إضافات جديدة أو بسبب خاصية الأرض التي يقوم عليها أو بسبب ظروف أخرى غير عادية. على أن هناك مجموعة صغيرة من المعابد تختلف تماماً عن هذا الطراز، وهي المعابد الشمسية للأسرة الخامسة، وهي التي كانت - كما نظنّ بحقّ - محاكاة لمعبد الشمس المشهور بهليوبوليس الذي انقرض. وهذه المعابد التي تحمل أسماء مث «مقعد رع المفضل» عبارة عن فناء واسع مكشوف تقوم خلفه مسلة عظيمة ترتفع فوق قاعدة هرمية الشكل. ولقد كان هذا الجانب الرئيسي من المعبد يعتبر من غير شك مركز الإله. وربما كان محاكاة للحجر المشهور Benben في هليوبوليس الذي كان شكله مماثلاً له. وكان يقوم أمام المسلة مذبح كبير للإله، وفي غير هذه الحالة كانت تشغل الفنار قاعات لأغراض أكثر مادية. ولم تكن زخرفة المعبد تختلف كثيراً عما عهدناه. ولكن هناك منظر غير متوقع في ممرّ جانبي يؤدي إلى قاعدة المسلة: يمثل فصول السنة تحضر القرابين للملك من كل ما تنتجه الأرض والماء معاً، نموّ النباتات، وتوالد الحيوانات، وأعمال الإنسان. . . وربما كان لهذه الصور اللطيفة مكانها في المعبد، إذ أن إله الشمس

---

(١) ما زال موجوداً بالدبر البحري.

(٢) Urk., IV, 772, Scharff, Æ. Z. 59, 32 يذكر سراجاً كتقدمة إلى سوبك في معبد من معابد الدولة الوسطى.

هو الذي يحيي كل شيء ويدفع به إلى التقدم.



٧٠ ـ معبد الشمس في أبو جراب

وإذا كانت معابد الشمس هذه قد استغنت عن تماثيل للإله فمرجع ذلك إلى اعتقاد الناس أن المسلة كانت هي مسكن الإله، فحق عليهم عبادتها، وعلى كل حال نحن نعتبر هذا أمراً شاذاً، إذ أن جميع المعابد المصرية حرصت على جعل تماثيل الآلهة هي أهمّ وأقدس ما فيها، وكانت روح الإله ـ كما تبين ذلك نقوش متأخرة ـ تستقرّ عليه حين تنزل من السماء كما تجثم على جسمه[(١)]. ومهما تعدّد ذكر هذه الصور الدينية، ومهما بلغ عدد ما نقل منها صغيراً أو كبيراً مما وصل إلينا، فإننا لا نملك واحدة أصلية[(٢)]، فلقد اختفت جميعها عند انحلال الديانة المصرية كأثر لضربات المسيحيين، ورغم ذلك فإننا نملك على الأقل في المعابد المتأخرة أوصافاً وتمثيلات لها نستطيع بواسطتها أن نكوّن فكرة عنها، فمعبد حاتحور في دندرة كان من بين ما يحتويه التماثيل الآتية:

(١) Dümichen: Temp. Insch., 25; Resultate 38 - 41; cf aussi Mar. Dend., II. 61 b حيث يظهر أن نقشاً من نقوش الجدران يستطيع استقبال الروح.

(٢) يبدو أن الصقر القديم النحاسي برأس ذهبية الذي عثر عليه كويبل في هيراكونبولس هو أحد تماثيل العبادة.

حاتحور: من الخشب الملون والنحاس، بعيون مرصعة، ارتفاعه ثلاثة أذرع وأربعة قبضات وأصبعان.

إيزيس: من خشب الكابلي المصقور، بعيون مرصعة، وارتفاعه ذراع.

حوريس: من الخشب الملون، بعيون مرصعة، ارتفاعه ذراع وأصبع.

بوتو: من الخشب الملون، بعيون من الذهب، ارتفاعه ذراع[1] إلخ إلخ.

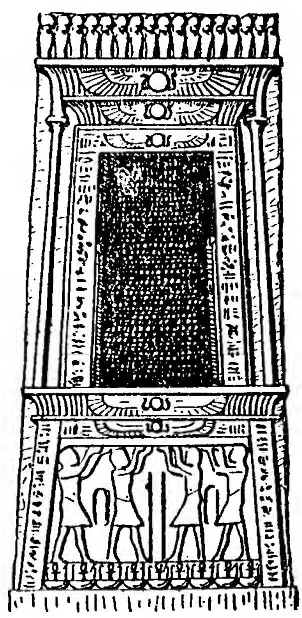
هذه الصور القديمة المقدسة كانت ذات أحجام صغيرة (أغلبها لا يزيد ارتفاعه عن ذراع، أي حوالي نصف متر) وكانت عادة من الخشب. أما التماثيل الحجرية الثقيلة، فكان يصعب حملها في الأعياد رغم ضرورة وجودها. ومن الطبيعي ألا يستبعد أن يقام تمثال حجري في قدس الأقداس ليستخدم رمزاً دينياً[2]. وعلى كل حال فإن أغلب هذه الصور الدينية - إذا ما استثنينا ما يمثل على هيئة حيوانية - كانت مصنوعة على نفس النمط ولا تتميز عن بعضها البعض - كما يتضح ذلك من صور الآلهة بالفصول الأولى - إلا بالرؤوس والتيجان والعلامات المميزة. وكانت اللحية على شكل شعر مضفور نهايته معقوفة إلى الأمام، وتشبه اللحية التي تتخذها بعض قبائل وسط أفريقيا حتى اليوم. وإذا كانت الآلهة ترتدي ثياباً فإن ثوب الإله كان عادة عبارة عن قميص قصير مشدود بواسطة حمالات، بينما كانت الإلهات ترتدي زيّ النساء العادي. وفي الصورة القديمة جداً (مثل صورة بتاح ص ٤٧) لم تكن السيقان والأذرع والثياب مبينة بتاتاً. وكان المنظر العام هو الذي اتخذته المومياء فيما بعد. وكانت هناك كذلك صور عتيقة أولية للصقور المقدسة، سيقانها عبارة عن قطعة واحدة. وبمضيّ الزمن تطلبت هذه الصور المقدسة بعض الترميميات، وكان يحدث في غالب الأمر أن ملكاً تقياً متديناً كان يجمّلها بمنحها من جديد زينة من

---

(١) Dümichen: Resulte, 34 - 36 ef 339 - 40.

(٢) بالمثل في معبد بتاح في طيبة، وكذا بقرة حاتحور في هيكل تحوتمس الثالث بالدير البحري.

الذهب والأحجار الكريمة. وهكذا أعاد تحوتمس الأول صنع التماثيل الإلهية القديمة بأبيدوس من الذهب، وجعلها أجمل مما كانت عليه من قبل. كذلك أيضاً المحفات لنقلها. فأصبحت أعجب ما في السماء وأشد خفاء وأكثر امتلاء بالأسرار من كل ما يحويه العالم السفلي[١]. وكانت هناك معامل خاصة لهذه الأعمال الدقيقة هي بيوت الذهب «وإننا لندرك أن الصياغ الذين تشرّفوا بالعمل فيها كانوا يفخرون بأنهم تعرّفوا إلى سرّ بيوت الذهب «» أي إلى «تماثيل الآلهة»[٢]. وكان مقام الصورة الإلهية المعتاد هو الناووس الكائن في أقدس مكان في نهاية المعبد. وكان كثيراً ما ينحت من حجر واحد من الجرانيت



٧١ ـ ناووس متأخر من معبد فيلي (باريس)

(١) Urk., IV, 99.

(٢) مثلاً Mar. Mast., p 450 (Nouvel - Empire). وفي معبد دندرة لم يكن يعمل في العصر اليوناني أقل من ٤٨ صانعاً يباشرون عملهم في مجموعات كل منها مكونة من إثني عشر (Mar. Dend. IV 22 a).

الصلب محيطاً بالصورة المقدسة وكأنه حائط لا يسهل اختراقه. وكان يقفل من الأمام بواسطة باب ذي مصراعين مثبتين في إطار من البرونز. المكان الذي يقوم فيه هذا المحراب أو كما يسمى «المكان العظيم» هو المكان الذي تقام فيه الطقوس اليومية، وهي في الحقيقة في منتهى البساطة.

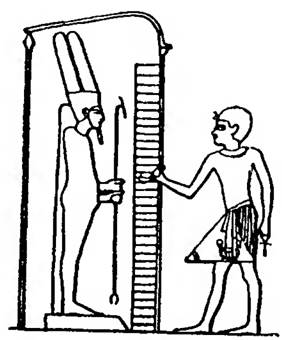
يتقدم الكاهن المحتفل عند انبثاق الفجر نحو قدس الأقداس ويبخره حتى يمتلىء من عطر البخور، ثم يقترب من المحراب ويفتحه ويحييّ الإله بالركوع عدة مرات، وبترتيب أو تلاوة بعض الأناشيد. ثم يتناول الأدوات الدينية الموجودة في صندوق بالقرب منه ويبدأ في التزيين اليومي للإله، فينضح التمثال بمحتويات أربع جرار من الماء، ويكسوه بشرائط من الكتاب الأبيض والأخضر والأحمر والمائل للحمرة ثم يدهنه بالزيت ويزجج عينيه بمساحيق خضراء وسوداء وغيرها. ثم يطعم الإله بأن يضع أمامه مختلف أنواع الأطعمة والشراب من خبز وأوز وأفخاذ بقر ونبيذ وماء، وكذلك الزهور التي لا يجب أن تخلو منها مائدة مصرية.

كل هذه الخدمة لا تتطلب سوى نصف ساعة، ولكنها كان يجب من غير شك أن تطول إلى أكثر من ذلك بكثير، لأن كل عمل كان ينقسم إلى عدة حركات طقسية، لكل منها فقرة يتلوها الكاهن... وكل هذه الطقوس تنحدر إلى اللانهاية بصورة آلية، لأنه لا يوجد هناك أثر لأية عاطفة مهما تبلغ - تتصل بقداسة المكان أو عظمة الإله، إذ أن كل ما هو شخصي قد تلاشى في هذا الطقس الذي يرجع إلى عصور حديثة. وأما الإشارات إلى الأساطير فهي كثيرة فيه بطريقة لا تتفق مع الواقع أو العقل، كما لو أن كل الدين كان منحصراً في قصة حوريس وست، وفي قصة أوزوريس. فإذا كان حوراختي أو بتاح هما من يعبدان، أو كانا إيزيس أو موت، فإن كل ما يذكر يقارن بعين حوريس التي أتلفها ست والتي أعطاها حوريس لأبيه... ودائماً يعاد حوريس على عرش أبيه، ودائماً يعاد تصحيح جثة أوزوريس[1]. وحين يحل الكاهن - مثلاً - الحبل

---

(١) كل ما يلي منقول عن التصوير الجنزي. Mar. Abydos I.

ويفض الختم الذي كان قد أغلق به مسكن الإله خلال الليل فإنه يجب أن يقول: إن الرباط قد حلّ والختم قد فضّ لاجتياز هذا الباب. كل ما كان فيّ من شرّ قد ترك جانباً. أنا آتي وأحضر لك عين حوريس... إن عين حوريس لك. أنا تحوت حين كان يصلح العين. وكان معنى هذا بالضرورة أن الكاهن يقترب وهومطهر، ويحضر إلى الإله ما هو في حاجة إليه كما فعل تحوت فيما مضى حين أحضر إلى العين القمرية ما كان ينقصها. وعندما يفض ختم الطين من المحراب كان يعلن ما يأتي للإله: أنا لم أتِ لأطرد الإله عن مقعده، بل أنا آتٍ لأضعه فوق مقعده. أنا الذي أدخل الآلهة وأنت ستبقى فوق مقعدك العظيم.



٧٢ ـ الملك يقوم بدور الكاهن
ويفتح باب الناووس
(من معبد أبيدوس)

ثم يدخل المفتاح في القفل ويسحب المتراس ويقول:

إن إصبع ست خرج من عين حوريس وكانت هذه سليمة. إن أصبع ست خلص من عين حوريس وصارت هذه سليمة... ومن الواضح أن الاصبع هو المفتاح. ثم يؤكد للإله أن من حقه أن يراه: إني كاهن. إنه الملك من يأمرني أن أتأمل الإله. أنا العنقاء الكبرى الموجودة في هليوبوليس. لقد هدّأت ذلك الذي في بحيرة العالم السفلي. وحينئذ يفتح مصراعي الباب ويتأمل الإله: أيها الوجه، احذر الإله، أيها الإله، احذر الوجه، أيها الإله لقد فتحت الباب فدعني أدخل. ثم يرتمي على الأرض ويقول: أنا أقبّل الأرض ووجهي إلى أسفل، لقد أتيت بالحق إلى سيده وبالغذاء إلى من صنعه ـ أي أنه أتى الإله بطعام شهيّ.

وحين يرفع الكاهن الغبار عن المحراب بواسطة قطعة من القماش يتصوّر

نفسه كحوريس، ويتصوّر قطعة القماش كأنما هي عينه: أنا حوريس، أنا آتي وأبحث عن عيني، أنا لا أسمح لها أن تكون بعيدة عنك، أنا أمسك بها بينما هي تأتي لحسن الحظ لتبعد عنك كل شرّ.

وعندما يخلّص الكاهن تماثل الإله من الدهان السابق ليستبدله بغيره يقول: إني آتي لأملأك بالدهون التي خرجت من عين حوريس. أنا أملؤك بها حتى تربط عظامك وتضم أعضاءك وتجمع اللحم إلي بعضه وتطرد كل رطوبة شرّيرة. خذها إنها طيبة الرائحة عليك. إنها تساوي في طيبتها رع عندما يرتفع من الأفق. وهنا تشبّه بطبيعة الحال جثة أوزوريس بتمثال الإله.

وهذه الفقرة الأخيرة المقتطفة من طقوس المعبد معروفة لنا حرفياً من مجموعة آيات أخرى نجدها في متون الأهرام القديمة، كأقوال يجب أن تتلى أثناء دهن الجثة(١). وهناك الات كثيرة مماثلة، فمثلاً عندما يتلى ـ حين يغسل التمثال الإلهي ـ: ردّت إليك عينك. رد إليك رأسك. ردت إليك عظامك. أعاد إليك جب رأسك ثابتة في مكانها. ألا فليغسلها تحوت بطريقة تتخلص بها مما فيها(٢) ـ فإنه من الواضح أن ما غسل ليس سوى جسد أوزوريس وهي جملة تتلى حين يغسل الميت الذي يمثل دائماً بأوزوريس نموذجه الإلهي. وذلك يبين لنا من أين حصلت هذه الطقوس على مضمونها العجيب. وكان كل ما يتعلق بالموت وبالقبر يملأ حياة الشعب أكثر فأكثر. وسنرى في الفصل الخامس عشر أن هذه الخوالج جذبت وراءها طقوس العبادة الإلهية.

ويظهر هذا الأمر نفسه كذلك في الشعائر. فالصيغة المعهودة: «قربان يقدمه الملك» التي كانت تبدأ بها الصلوات من أجل الموتى كانت تستخدم كذلك في المعابد من أجل الآلهة(٣)، وعندما نصادف فيما بعد في معبد دندرة تلك

(١) Pyr. 1800.

(٢) Berlin. Pap. 3055., 27.2 ss.

(٣) بالمثل كذلك في Urk. IV, 111; 30 وما بعدها، وكذا في Pyr. 599 يوعد الآلهة بقربان إن هم قاموا بحماية الأهرام.

العادة التي يجب بمقتضاها أن ترى الصورة الإلهية الشمس من وقت إلى آخر، فحينئذ يظن أنه من أهم رغبات الميت كذلك أن يرى الشمس.

ولسنا نستطيع أن نعرف على وجه التأكيد إذا كانت هذه التسمية الغريبة للقرابين والأطعمة تصدر عن عبادة أوزوريس أو تكريم الموتى: فأوّلاً كان كل ما يقدم يسمى بعين حوريس، وكل طعام وكل شراب، والثياب والأدهان والمساحيق... كل ذلك يجب تسميته هكذا حتى يصل الأمر إلى أن يسمى النبيذ عين حوريس الخضراء، واللبن عين حوريس البيضاء، والأدهان وكل ماله رائحة طيبة يسمى عرق الآلهة. ويدهن الإله برائحته... العرق الذي خرج من لحمه[١]. وأخيراً كانت تعتبر جميع الحيوانات التي تذبح في ساحة خاصة من المعبد كأنما هي أعداء الإله التي تقتل لإرضائه... وحتى الظباء الصغيرة التعسة كانت تذبح كأنما هي وحوش مهيبة، ومن يقدم لحماً للإله له دائماً بأفخاذ أعدائه[٢] أو يقول: لقد قتلت من أجلك ذلك الذي ضربك[٣]. وعلى كل حال فقد ذكر في عصور قديمة أن ثوراً أحمراً قد قدم[٤] كقربان لأوزوريس. وهذا اللون نجد له تفسيراً في عقيدة وصلتنا من العهد اليوناني[٥] كان يجب بمقتضاها تقديم الثيران الحمر كضحايا، لأن ست نفسه كان له نفس اللون. وعلى كل حال فإن اللون الأحمر كان المصريون يعتبرونه كلون شؤم[٦].

ويقدم اللحم إما نيئاً أو مشوياً. وفي الحالة الأخيرة كان يقدم للإله نون مواقد فحم صغيرة[٧]، وهذه المواقد كان الغرض منها شيّ اللحم وليس إحراقه،

(١) وما بعده Mar. Abydos I, 28 b, 3.

(٢) وما بعدها Pyr. 653.

(٣) Pyr. 1544.

(٤) Pyr, 1550.

(٥) Plutarque: De Iside, 31.

(٦) Ebers I, 14.

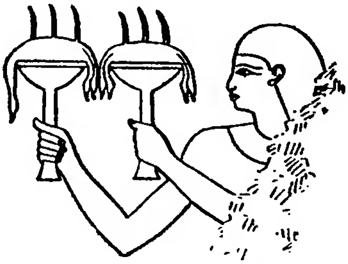
(٧) Siout, I, 302; Gayet, Louxor, I, 37, et ailleurs وهذه المواقد كانت تستعمل كذلك في المقابر الطيبية في الدولة الحديثة لحرق البخور.

لأن القربان المحروقة لم يستعملها المصريون في طقوسهم في العصور القديمة. ولا تترك التقدمة تحرق حتى تختفي[١] في النار إلا عندما تقدم إلى إله بعيد لا يمكن أن تبسط أمامه الأطعمة. وقد فعل ذلك رجل في الصحراء في ظبي دله على الطريق فقدمه إلى «مين» كعرفان للجميل[٢]. وحين قدم الملاّح الغريق صاحب القصة المعروفة قربانه إلى الثعبان بعد عودته فإنما قام بحرق هذا القربان لأن الريح فقط هي التي تستطيع أن تحمل التقدمة بعيداً.

وفي الدولة الحديثة ذكر لأول مرة حرق القربان في بعض الحالات[٣]، وقد أصبح ذلك أمراً عادياً في العهد المتأخر. وقد أضيفت إلى هذه التقدمات التي كانت تقدم حسب قواعد خاصة كانت تقضي بها نصوص الألفاظ الإلهية[٤] أشياء أخرى أكثر تهذيباً، وفي مقدمتها حرق البخور، الذي لم يكن المصري ليستطيع أن يفكر في أن العبادة يمكن أن تقوم بدونه، لأن رائحة البخور تطهّر وتقدس المكان، وكان البخور يسمى بكل بساطة «صانع القداسة». كذلك يجب أن نتصوّر كل صالات المعبد الداخلية مليئة بعطره. ولقد كان تحضير البخور



٧٣ ـ رجل يقدم القربان في مجمرة فحم.
(Mission V, Tombeau d'Apoui pl. 3).



٧٤ ـ رجل يقدم بطا في مجمرتين (L. (D. III 9.

(١) اصطلاح Sb - n - sdt تساوي مظهراً للعبادة القبطية في صورة Seb - ensete.

(٢) L. D., II, 149; ef. Litt. P. 61.

(٣) وكذلك في طقس موت في برلين 16.3 يجب أن يحرق غزال فوق الموقد.
Karnak temple de Ramese III «813» déjà avecnom tardif (glil)

(٤) Tombeau Thebain «694»; XIX dyn.

الأصلي النقي علماً خصصت من أجله كتب في المكتبات يرجع تأليفها إلى الإله تحوت نفسه[١].

ولم يصلنا شيء من هذه الكتب، ولكننا لا نعتقد أننا ننحو عن الصواب إن تخيلناها «كحكمة» من معبد من عصر متأخر. وهي تلائم بين تقديم البخور والخمسة عشر يوماً لاكتمال القمر... حينذاك تتحد عين حوريس ـ البخور ـ بعين أوزوريس ـ القمر ـ[٢].

وكان يجب كذلك تمجيد الإله بالأناشيد ونحن نجهل إذا كان الكهنة يغنون حقاً هذه الأناشيد أو هم يكتفون بتلاوتها، ونحن لا نعدو جادة الصواب مرة أخرى إذا تخيلنا أن هذه التلاوات كانت تتلى بطريقة آلية بحتة. وفي الواقع أن صميم هذه الأناشيد لا يكشف في صورة عامة سوى عن قليل من الشعر. وهي مؤلفة ـ فيما عدا بعض الشواذ ـ على نفس النمط، وهي تعدد أسماء الإله وتيجانه ومعابده، وهي تذكّر هنا أو هناك بطبيعته أو قصصه بقبضة أيديهم.

«لتتمجد أي أوزيريس ابن نوت الذي له قرنان ويتكيء على عمود عال. الذي أعطى التاج والسرور أمام التسعة آلهة. والذي خلق منه أتوم القوّة في قلوب الرجال والآلهة والممجدين، والذي أعطى له السلطان في هليوبويس، ذو المظهر الرائع في بوزوريس، المُهاب في المعبدين المقدسين، ذو القوة العظيمة في روستاو وسيد البطش في اهناس وسيد في تننت. المحبوب جداً في الأرض. ذو الذكر الحسن في قصر الإله، الذي يلوح عظيماً في أبيدوس. الذي مُنح الخلاص أمام التسعة آلهة مجتمعين. الذي من أجله أثيرت المذابح في القاعة الكبرى التي في هرور، الذي يخشاه عظماء الأقوياء. هو الذي وقف الكبراء أمامه على حصيرهم. هو الذي من أجله أثار شو الخوف، ومن أجله خلق تفنت القوّة. هو الذي تتقدم نحوه في انحناء مصر العليا والسفلى، لأن مخافته عظيمة

---

(١) Mar. Abydos I, 44, 655.

(٢) Philae «1657 - 1658».

وقوّته رائعة»[1]. وهذا هو كل ما يستطيع أن يقوله لنا هذا الكاهن الشاعر عن أكثر الآلهة إنسانية.

وعلينا أن نذكر هنا كذلك بصفة خاصة نشيداً: أغنية الصباح القديمة الذي يوقظ بها الآلهة المصرية كل صباح في معابدهم طالما كان هناك آلهة[2]. ويمكن أن نتخيل أن هذا النشيد هو الذي استخدم في الأصل لإيقاظ الملك. وها هو ذا مضمونه عندما يوجه إلي إلهة: استيقظي بسلام أيتـها الملكة العظيمة. استيقظي بسلام. إن يقظتك هادئة. استيقظي بسلام ـ «نِن ـ أوتت» في سلام. إن يقظتك هادئة . . . إلخ.

وكانت هناك من غير شك جماعة تغني «استيقظي بسلام..»، «إن يقظتك هادئة» بينما كان يقوم بغناء الأسماء أحد المغنين.

وكان هناك مظهر آخر للعبادة هو الـ «هنو»، ويلوح أنه كان عبارة عن تهلل انجذابي أكثر منه تلاوة نشيد، وكان القائمون به يركعون ويضربون صدورهم بقبضة أيديهم.

ولم تلعب الموسيقى سوى دور ثانوي في التعبد، هذا ولو أنه كان في معبد أمون (جنك) يمجد عليه «جمال الإله» عند ظهوره، وهو الذي أهداه الملك أموزيس، وكان مصنوعاً من الأبنوس والذهب والفضة. وآخر أهداه تحوتمس الثالث إلى الإله وكان مزخرفاً بالفضـة والذهب واللازورد والدهنج ومختلف الأحجار الكريمة الفاخرة[3].

وكانت الموسيقى بصفة خاصة من اختصاص الكاهنات اللواتي كن يطقطقن ويصلصلن بشخاليلهن وصنوجهن وعقودهن الكبيرة أمام حاتحور أو أي إله آخر كما اعتادت أن تفعل النساء في رقصهن أمام سيدهن. وكذلك كان اللعب بالكرة

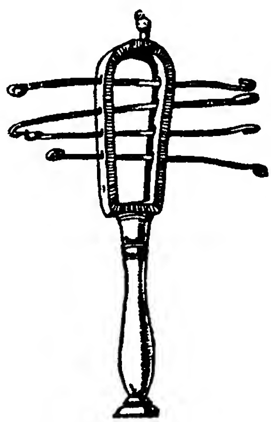
---

(١) Louvre, C 30.

(٢) Erman: Hymnen an das Diader (abh. Berl. aked., 1911) p. 15 cf. litt. p. 35.

(٣) Urk. IV, 23; idem 179.

الذي كان يقام أمام حاتحور لـم يكن فيما قبل سوى تسلية مرحة هدفها الترفيه عن الآلهة. وهذه العادة البسيطة لم تنج من تأويل أكثر عمقاً، فالكرة كانت لا بدّ أن تمثل حدقة أبو فيس أو أي عدوّ آخر للإله، والعصى التي كانوا يضربونها بها كانت تعتبر مثل «إشعاع» من عين الشمس[١]. ولكن عندما يقوم الرقص أمام حاتحور فإن هذا يعبر قبل كل شيء عن السرور. وكان سير التعبد اليومي العادي ينقطع في أيام الأعياد الخاصة بكل معبد. وهذه الأعياد كانت تتضمن كذلك الأحداث الكبرى للمدينة التي كما يقال «كانت لي عيد». وكان «خدم الإله الذين لا ينسون أعياده» يأتون من الضواحي «نحو أولئك الذين يعبدون الإله»[٢].



٧٥ ـ شخليلة من العهد الإغريقي
(برلين ٢٧٦٨)

وهذه الأيام هي كذلك أعياد شعبية[٣]، وكانت الجعة تصنع تكريماً للإله، وكانوا يجلسون فوق المنازل في نسيم الليل، ويدور اسم الإله فوق سطوح

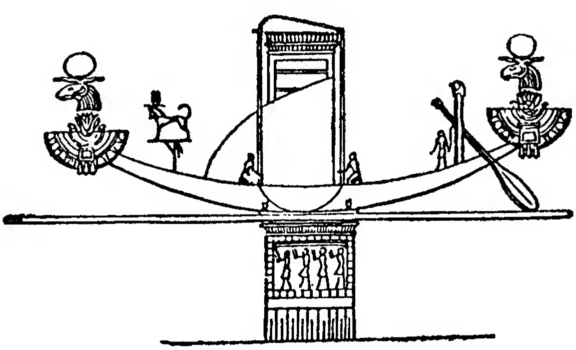
---

(١) Naville: Deir El Bahari, 100; Misslon XV, pl. 68, 213 وكثيراً كذلك في العهد اليوناني «1143» Mar: Dend. III, 22 c, Philae.

(٢) Caire, 20281 (moyen Empire).

(٣) Caire 20281.

المنازل[١]. وكان الشعب كله يتدهن ويتناول المشروبات[٢]. ويلاحظ أن هذه الأعياد قديمة جداً أنشأها رع بنفسه منذ الأزل[٣]. وكقاعدة عامة يُوجد في كل مدينة عيد أو أكثر من عيد رئيسي كذكرى لأحداث هامة من أساطير الآلهة. فمثلاً ذكرى عيد ميلاد الإله[٤] أو انتصاره على عدوّه. وعلاوة على ذلك كان يحتفل بأوائل تقسيم الزمن كيوم العام الجديد أو أول يوم من الشهر. ويعطي المصري هذه الأعياد أهمية كبرى، وتضاف أناشيد خاصة إلى الطقوس ويزخرف المعبد ويضاء ـ كما هو الحال في المدينة ـ وتزاد التقدمات حتى يتسنى إرضاء جمهرة النزلاء الذين يتدفقون على المعبد للإشتراك في الاحتفال. والمهم في هذه الاحتفالات أن يرى الشعب «جمال سيده» وأن يتطلع إلى صورة الإله التي كانت تخرج من محرابها وتنقل خارج قدس الأقداس فيما يشبه صيواناً خفيفاً بعد تزيينها لهذه المناسبة بالتمائم وقلائد الذهب[٥]، وعلى كل حال فإن هذا المحراب السهل الحمل كان كثيراً ما يتخذ شكل القارب، لأن المركب كانت في نظر المصريين الوسيلة الطبيعية للانتقال.



٧٦ ـ ناووس وحامل على شكل سفينة، ومن أسفل قاعدة حجرية (من معبد أبيدوس)

---

(١) Litt. p. 367.

(٢) Urk. IV, 688.

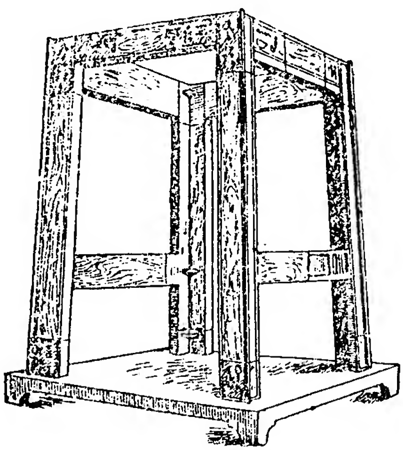
(٣) Piankhi, 29.

(٤) في العصور القديمة لم يكن العيد يقام سنوياً Ed. Meyer I, 2^2, 185.

(٥) Harris, I, 6, 3.

إلى جانب ذلك كان لكل إله عظيم مراكب حقيقية يستعملها في أسفاره على النهر. وسنرى فيما بعد مقدار السرف في تزيينها.

وهكذا ـ عندما يخرج الإله من معبده كانت تحمل أمامه أعلام مزينة بصور إلّهية، لا سيما بنات آوى أوب ـ أوات، المنوطة بفتح الطريق للإله كما يدل عليها اسمها «فاتح الطرق»(١)، وترافق الإله تماثيل للمعبودات المرافقة وللملك(٢)، ثم يعرض الإله هنا وهناك في صالات الدخول بالمعبد أو في المدينة على قواعد حجرية. وتقدم له القرابين والبخور والأدعية. ثم تأزف اللحظة الحاسمة حينما يزيح الكهنة الأستار التي تحجب جوانب المحراب الصغير المحمول، وهناك تصيح الجماهير المتحمسة صيحات الفرح للتمثال الصغير الذي يمثل بالنسبة لهم أقدس شيء في الوجود.



٧٧ ـ ناووس من البرونز والخشب سهل الحمل أهداه أماسيس لأحد معابد طيبة، وكانت تتدلى على الجوانب ستائر تخفي ما وراءها (برلين ٨٧٠٨).

(١) كان هناك طقس كذلك لـ«فتح الطرق» cf. Daressy, Mission VIII, 388, et Naville, Mythe d'Horus, 25.

(٢) Urk., IV, 768, 769.

وسنرى في الفصل القادم إلى أيّ حدّ من الفخامة كان يحتفل بعيد كبير في الدولة الحديثة. ويلوح لنا هذا الاحتفال أكثر بساطة في سجلات حسابات البلاط الملكي التي حفظت لنا عرضاً. وهي ترجع من غير شك إلى عصر كانت تجتاز فيه طيبة مرحلة عصيبة حوالي القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وقد ورد فيها أن آلهة المدينة المجاورة لميدامود، أي مونتو وحوريس حامي أبيه، قدما في وقت ما إلى طيبة حيث عرضا في قاعة القصر ذات العمد. وقد بدىء في ترضيتهما بالتقدمات بهذه المناسبة، فأحضر الفلاحون أربعة عجول: إثنان لكل إله. وقدم الموظفون وإحدى أخوات الملك مختلف أنواع العطايا، ومن بينها خمس حمامات وأحد عشر طائراً آخر. وقدم الموظف الأول، أي الوزير، البخور. وعلى كل حال كان لمونتو كذلك نساء في حاشيته وكن له بمثابة الحريم ـ كما سنرى كذلك أيضاً فيما يتعلق بأمون ـ وكان هناك موظف يقود الموكب عند الذهاب والإياب.

وفي مناسبة عيد آخر لـ «مونتو» نعرف بعض الشخصيات التي تشرّفت بالإشتراك في المأدبة التي أقيمت في قاعة القصر ذات العمد. وكان عددهم حوالي السبعين من كبار الموظفين في الدولة والبلاط، وإلى جانبهم أناس أدنى مقاماً مثل رئيس حرس الكلاب والمراقب المساعد لحظيرة الدجاج والمغنين والعازفين على العود ـ والمهرج ـ إن كنا لم نسيء الفهم. ولم تكن هذه وليمة كبرى لأن نصيب كبار الموظفين أنفسهم لم يزد على العشرة أرغفة، ولم ينل الواحد من بين الآخرين أكثر من خمسة. ولم يكن هناك ما يشرب، ولم تمنح الحلوى لغير الوزير والقائد.

ومع ذلك فإن جميع هذه الاحتفالات لا تكشف إلا عن الناحية الظاهرة من الأعياد، وأما ناحيتها الحقيقية التي كثيراً ما تبقى خفية فهي شيء آخر. وكما رأينا من قبل ـ كان المراد من هذه الأعياد الاحتفال بتخليد أحداث معينة من قصص الآلهة، تمثل أمام الشعب في مناسبات مختلفة. وقد كانت تمثل أحياناً على هيئة مآسي حقيقية، ونستطيع أن ندرك صميمها في يسر ما دمنا نعرف

الأجزاء الهامة من القصص الأوزيري ـ إلى أي ناحية يمكن أن نرجعها في أعياد أبيدوس[(١)].

وتقص علينا لوحة الأمير ايجر نفرت ـ وهو من أقدم خازني الدولة ـ كيف أن الملك سنوسرت الثالث (حوالي ١٨٦ ق. م) أرسله في مهمة خاصة إلى أبيدوس ليزين تماثيل الإله والأدوات الدينية بذهب اغتنمه الملك من النوبة. وقد أدى هذه المهمة «بيد طاهرة وأصابع طاهرة» فزين تمثال الإله باللازورد والدهنج والذهب الصافي والأحجار الكريمة. وقد حلت أعياد الإله أثناء وجود ايجر نفرت وصحبه[(٢)] في أبيدوس فكان له شرف الاشتراك فيها.

وأول هذه الأعياد خروج أوب وات عندما يذهب لنجدة أبيه (أوزوريس) فيدافع إيجر نفرت عن قارب الإله، ويهزم أعداء أوزوريس، والمقصود هنا من غير شك الأحداث الكبرى للحرب التي قام بها أوزوريس حين فتح البلاد. ثم يلي ذلك عيد آخر، هو «الخروج الأكبر» وكما يتضح لنا من مراجع أخرى كان هذا هو العيد الرئيسي الذي يشغل جانباً كبيراً من الحداد على أوزوريس. وعلينا أن نذكر أن مقتل الإله كان يذكر ويخلد أثناء هذا الاحتفال، ولكنه لم يكن يمثل لأن المصريين حاولوا دائماً أن يجتنبوا ذكر هذه المأساة المفزعة في دينهم. ويكتفي إيجر نفرت بأن يقص علينا أنه زوّد قارب الإله بمقصورة كما منح الإله حلياً جميلة حتى يتيسر له الوصول إلى قبره في «پكر» ثم يعبر ايجر نفرت طريق الإله (التي تؤدي) إلى قبره في پكر، ولعله يقصد من وراء ذلك حدوث موكب كبير.

وفي عيد آخر يخلد انتصار الإله، وهو يوم «العراك العظيم» الذي يهزم فيه

---

(١) ما يلي مأخوذ عن Schâfer في كتابه Die Mysterien des Osiris in Abydos (Sethe: Untersuchungen IV, 47 ss).

(٢) ترك لنا هؤلاء كذلك لوحات صغيرة في أبيدوس، انظر: Schâfer: Untersuchungen IV, 39.

أعداء أوزوريس حيث يقتلون على مياه «نديت« ثم يطلع ايجر نفرت بأوزوريس ـ الذي يجب أن نتصوّره منبعثاً ـ في قاربه الكبير الذي ينقل «جماله». ويتهلل الشعب كله حين يرى عظمة مركب «نشمت» عندما يبلغ أبيدوس ويعيد أوزوريس إلى مقره.

وقد وصلتنا من آخر الدولة الحديثة أنباء عن أعياد أبيدوس، ولكن ليس بها في واقع الأمر أكثر من إشارات وتلميحات. ويقص علينا رعمسيس الرابع (حوالي ١١٦٠ ق. م) كيف أنه أنار في أبيدوس الضوء لأوزوريس في اليوم الذي تحنط فيه مومياؤه. وأنه أبعد ست عن الإله حين أراد أن يمزّق أوصاله. وأنه وضع ابنه حوريس كوريث له على العرش. ولكن في العيد الذي أقيم تمجيداً لحوريس في أبيدوس نرى أن الملك بصق على عين حوريس التي كان قد انتزعها من تغلب عليه، وأنه أعطى لحوريس عرش أبيه وميراثه في كل البلاد. وجعل كلمته صادقة في يوم المحاكمة، وجعله يطوف بمصر والأرض الحمراء بصفته نائباً عن حوراختي[١].

وفي أثناء احتفال آخر، وهو احتفال إقامة عمود أوزوريس الذي كان يحتفل به أصلاً في منف، كانوا يقيمون عموداً مثله بوساطة حبال حتى يعتدل على قاعدته. وكان أوزوريس هو الذي يقيمونه هكذا بعد أن تمثل جنازته خلال الأيام السابقة. وتأتي بعد ذلك تمثيلات أخرى لا ندرك لها مغزى، وكان فريق من الشعب يرقص ويقفز، وفريق آخر يهجمون على بعضهم البعض، ويصيح آخر: «لقد أمسكت بحوريس»، وكان آخرون يتحاربون بالعصيّ وباللكمات ممثلين في ذلك سكان بلدتي بي ودب التي كانت تتألف منهما العاصمة القديمة بوتو. وأخيراً كانوا يطوفون حول المدينة أربع مرات بأربعة قطعان من العجول والحمير. ونحن لا ندرك تماماً معنى هذه القصص حتى نستطيع من وراء ذلك ذلك تفهم مغزى هذه الأمور. وربما كانت أحداثاً تتصل بمقدم حوريس الذي

---

(١) Mar. Abydos II, 54 - 55.

كان يحتفل به في اليوم التالي[١]. والحقيقة أن التمثيلات التي تناولناها لا تعدو في الحقيقة ـ على قدر ما نستطيع أن نقدرها ـ المناظر الشعبية التي تخلد في ديننا مولد وموت المسيح.

ونحن لا نستطيع أن نعرف إذا كانت تضاف إلى هذه الأحداث المألوفة لكل مصري أحداث خاصة بالمُميزين، ولكن مثل هذه «الأسرار» لا تظهر إلا في عصر متأخر جداً حين يطوف هيرودوت بمصر.

ولم يكن على الأشخاص الذين يساهمون في هذه الحفلات التي ذكرت هنا سوى النطق ببعض العبارات التي كانت تكتب أحياناً إلى جانب اللوحات التي تمثل هذه الأعياد. وفي أحيان أخرى كانوا يجمعونها، وكل من يقرأ كتاب فلسفة منفيس القديم يدرك أن الجزء المخصص لأوزوريس يسجل الكلمات التي ذكرت أثناء حفل كهذا. فنرى جب يقول لست: اذهب إلي حيث ولدت ـ ويقول جب لحوريس: اذهب إلى حيث غرق أبوك. ويقول جب لحوريس وست: لقد فصلت فيما بينكما. ويقول جب للتاسوع: إنني سلمت ميراثي إلى هذا الوارث ابن أول أبنائي المولود الأول ـ هو ابني وطفلي... ويقول حوريس لإيزيس ونفتيس: أذهبا وأمسكا به. وتقول إيزيس ونفتيس لأوزوريس: سنأتي لنأخذك[٢].

وكان للكلمات التي ينطق بها الكاهن أثناء تقديم قرابينه طابع درامي في كثير من الأحيان. فحين يصرع ثوراً مثلاً، فإنه يمثل قتل أعداء الإله، ويقول وهو يفكر في ست: لقد قتلتَ أبي وصرعتَ من هو أكبر منك. وكإشارة إلى

---

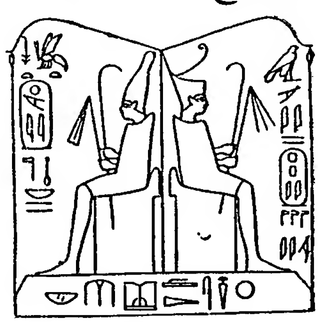
(١) Brugsch, Thesaurus p. 1190 ss.

(٢) Erman: Sitz. Ber. Berl. Akad (1911) p. 916 وقد تناول Sethe بالتفصيل هذه المسألة في Dramatiche Texte, Leipzig, 1928.

أوزوريس يقول: إني ضربت لك من ضربك ـ كالعجل ـ لقد صرعت من صرعك ـ كحيوان المجزر[١].

وفي الاتصالات القليلة التي تربط الملك بالعبادة، نرى أعياد الملكية تتقارب من بعض الأعياد الإلهية. ومن بينها جميعاً يكاد يكون العيد المعروف بـ«حب سد» أشهرها. وقد اعتادوا استعمال كلمة يوبيل لأداء معنى هذا الاصطلاح. والواقع أنه يراد بهذا الاحتفال انقضاء العام الثلاثين لارتقاء العرش ولإعلان الملك التالي وريثاً للعرش. ويظهر الملك من جديد على عرش اليوبيل[٢] وهو الذي سبق أن طلع عليه من قبل. ومن الطبيعي أن يدعو هذا إلى التفكير في الملك أوزوريس الذي استمرّت حكومته عن طريق ابنه حوريس[٣]، ولم يكن ميسراً لكل ملك أن يحتفل بمثل هذا اليوبيل كما احتفل به ـ طبقاً لمعتقدات المصريين ـ الإلهة بتاح تاتنن ورع وأوزوريس احتفالات متتابعة. ولقد كان يكتسي هذا الاحتفال ببهاء رائع إن أسعد الحظّ الملك أن يقوم به.

وفي هذه المناسبة كان يعاد بناء منازل اليوبيل في المعابد كما أن صورها الإلهية ـ صاحبة اليوبيل ـ كانت تصنع من الذهب والفضة والأحجار الكريمة وتكسى بالملابس الرقيقة، وتمسح بالأدهنة، وتسرّ بقرابين جديدة دائماً[٤]. وقد



٧٨ ـ الملك بيبي الأول (حولي ٢٥٠٠ ق. م) في بهو اليوبيل، وهو في اليسار كملك الوجه القبلي وفي اليمين كملك الوجه البحري (من حمامات).

---

(١) Pyr. 580.

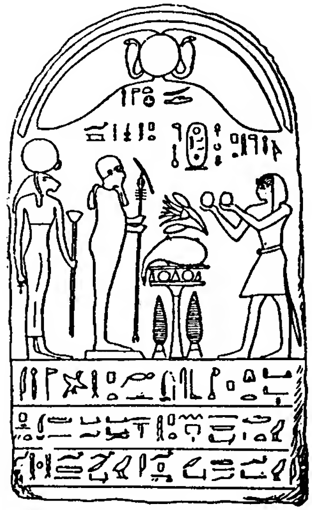
(٢) Edfou, 1,4 4.

(٣) Môller, Æ. Z., 39, 71 ss. Breasted, Development, p. 39.

(٤) Harris, I, 49, 10 ss.

مثلت تفصيلات هذا العيد الكبير متتابعة على ألواح في معابد مختلفة. ومنها نرى قرابين وتبخيرات وحاشية، كما نلاحظ أية صور دينية تقام في هياكلهم وأيها تحمل، وأيّ كهنة أو أيّ كبار رجال المملكة يشاركون في الاحتفال. وأخيراً كيف يأخذ الملك مكانه في صالة العرش بصفة خاصة، حيث يجلس أولاً على عرش ثم على آخر.

وإذا جاز لنا تصديق الصور الممثلة على المعابد فإن هذه الاحتفالات كانت تقام مرّتين: مرة لملك مصر العليا، والأخرى لملك مصر السفلى، مما يتفق والعقيدة التقليدية التي تكوّنت المملكة المصرية كأثر لها ـ حتى بعد التوحيد ـ من قطرين.



٧٩ ـ الملك أبريس يقدم القربان لآلهة منف، على أن الكتابة تخلد ذكرى هدية أهداها أحد الحراس.

ومن المسلم به أن أعياد الملكية الكبيرة كان يكسوها في نظر المصري طابع ديني. أو ليست تستقر فكرة الدولة في نصره على مبدأ أن الملك إله؟ على هذه الفكرة تقوم العبادة كلها، وهي التي تضع الملك على اتصال مباشر بالآلهة[١]. من هذا يتضح هذا الخروج عن المألوف الذي يظهر فيه الملك كأنما

(١) Ed. Meyer, I^2, 53.

يمثل الشعب كله في المعابد. فالملك يقيم للآلهة معابدهم ويقدم لهم القرابين. والآلهة بدورها تعطي لابنها العزيز لقاء هذه التقوى حياة من ملايين السنين عن طريق النصر الذي يكسبه على أعدائه، وعن طريق مجده الأبدي.

وليست الآلهة بعد للشعب، بل هي لفرعون... ابنها... وحتى هذه الصلة... صلة الملك بالآلهة قد بعدت كثيراً عن هدفها الأول: فحين يقيم الملك معبداً، فإنه لا يقيمه - طبقاً للقرار الرسمي - حباً للمعبود، بل رغبة في شهرته الشخصية... إنه أقام هذا الأثر لنفسه... هكذا تبدأ منذ زمن طويل كل النقوش التذكارية، وبعد هذه الصيغة فقط يطلق اسمه على المبنى الذي أقامه الملك لأبيه الإله. وهذه في الحقيقة صيغ تقليدية، ولكن فقر هذه الديانة الرسمية، يتجلى في أن أمثال هذه العبارات والعادات تكوّنت في العصور الأولى للشعب. وليس من شك أن الملوك قدموا أشياء عظيمة للمعابد، ولكن العباد الأتقياء لم يتأخروا هم كذلك عن تقديم هداياهم وعطاياهم ورغم ذلك فالنقوش لا تذكر عنهم شيئاً. وقد حدث ذلك في كل عصر، حتى إن الملوك اليونانيين والأباطرة الرومانيين كانوا يعتبرون البنائين الوحيدين لكل المعابد التي شيدت خلال حكمهم.

وكنتيجة طبيعية لوجهة النظر هذه لم ترسم كذلك صور الكهنة في المعابد، وإنما استبدلت صورهم بصور الملك. فعلى كل الجدران كانت تمثل مناظر تقديم القرابين وكل الاحتفالات التي تحدث أمام الآلهة، ولكن الشخص الذي كان يقوم بجميع مراسمها كان الملك بشخصه دائماً. وإننا لو جاز لنا أن نقبل أن فرعون نفسه كان لديه وقت كافٍ للقيام بأعماله الدينية، فإن مشاركته في العبادة في كل معابد القطر ليست إلا شيئاً نظرياً. كما أن المحتفلين الحقيقيين في مصر كانوا رجال الكهنة حتى وإن هم لم يذكروا أنفسهم في الطقوس إلا كنائبين عن الملك[١].

---

(١) Mar. Abydos I, tabl. 24 (Rituel).



٨٠ ـ الملك يقدم النبيذ
(من معبد الدير البحري)

وحتمت الظروف الطبيعية أن يكون شرف إدارة المعابد منذ أقدم العصور من حق الأسرات الكبيرة القديمة. وكان المنصب الديني في الامبراطورية الوسطى وراثياً في عائلات معينة كان أفرادها يقومون بهذا العمل كوظيفة ثانوية فقط. وما دام الكاهن قد ورث وظيفته عن أبيه الذي كان كاهناً في المعبد[١] فإنه يستطيع عمل كل التقدمات وأداء كل الاحتفالات. وإلى جانب هذا فإننا نجد من قديم مجموعة أخرى من الكهنة من بينهم عدد يشغلون وظائف معينة. ففي الإمبراطورية القديمة كان كبار رجال القضاء هم في نفس الوقت كهنة إلهه... الحق كما كان الأطباء كهنة سخمت؛ وأما الممتازون من الفنانين فكانوا كهنة بتاح.

وكلمة كاهن نستطيع أن نفهم من ورائها أموراً شديدة التباين. فيجب أولاً التفرقة بين هؤلاء الذين يقومون بعملهم بصفة دائمة، وأولئك الذين يحملون لقباً مؤقتاً. ثم إن هناك اختلافاً آخر في هاتين الفئتين بين الكهنة الذين يقومون بأعمال كهنوتية معينة، فهناك أولاً «خدم الإله» وهؤلاء هم كهنة العبادة

(١) Idem, tabl. 1.
(٢) Litt. p. 153.

الحقيقيون، ثم يليهم الـ «خرحب» أي العلماء[١] وكتّاب كتاب الإله، ويركن إليهم مثلاً في منح الإسم للطفل الملكي[٢]، وهم كذلك الذين يقومون خلال الاحتفالات بتلاوة الصيغ القديمة، والذين يعرفون أسرار السحر... هم السحرة، وإذا أراد أحد أن يحتفظ سرّاً بتعويذة لا يعرفها غيره فإنه يستطيع مع ذلك أن يطلع عليها أحد الـ «خرحب» وهم متخصصون في فن الأدهنة، وهم يمارسون هذا العمل بصفتهم أطباء كذلك[٣].

وأما أصل وظيفة الكهنة المسمين «وعب» فنحن نعرفه عن طريق اسمهم المأخوذ عن الكلمة التي تعني «طاهر» أو «تقي»، والواقع أنهم في نقوش الدولة القديمة يعطون رأيهم ونصيحتهم عن الحيوانات التي تذبح، فهم يفحصون دماءها ويقولون «إنها نقية»[٤] ـ.

وقد اعتبر ـ فيما بعد ـ كهنة «وعب» في أسفل السلم الكهنوتي[٥]، أو بمعنى آخر، أصبح اسمهم يعني كاهن فحسب.

وهناك لقب آخر متداول «أب الإله» أو «محبوب الإله» وهو يعتبر لغز بالنسبة إلينا، وربما يكون المراد منه تخصيص أرفع طبقات الكهنوت[٦].

وكلما ارتفعت أهمية المعبد ازدادت قيمة الكهنة الذين يخدمونه. ولدينا وثائق معبد كبير من الدولة الوسطى استطعنا بفضلها أن نكوّن فكرة صادقة عن الظروف التي كانت تنظمه.

---

(١) Urk. IV, 261 (texte ancien).

(٢) Totb. éd. Budge 190,5.

(٣) Pap. med. Berlin, VIII, 10.

(٤) Erman: Reden und Rufe, p. 13.

(٥) مثلاً باك ان خنسو.

(٦) كذلك Urk. IV, 349 حيث يكوّن آباء الإله ورجال البلاط حاشية الملك. وفي Urk, IV, 106 وكذلك idem 100 يكاد هذا اللقب يعني «الأنبياء».

وقد وجد كذلك في مدينة تقع إلى جانب هرم سنوسرت الثاني عند مدخل الفيوم معبد لإله الموتى أنوبيس[١]، وكان عدد موظفي إدارته أكثر من خمسين شخصاً لم يكن بينهم من يشغل وظيفة دائمة سوى ستة في الواقع هم: الأمير أو رئيس المعبد: أي الرئيس الأعلى؛ ثم «الخرحب» الأول مدير العبادة، ثم الأربعة حراس للأبواب وهم موظفون أقل درجة. وأما باقي كهنة وموظفي المعبد الآخرين، فكانوا يتناوبون الخدمة الإلهية ولم يكونوا يعملون إلا في شهورهم فقط. وكانوا مقسمين إلى أربعة طبقات[٢]، وكانت كلما بدأت طبقة منها عملها كانت تتسلم من سابقتها المعبد وكل ما يتصل به. وكان يكتب محضر لإخلاء طرف الفريقين، وهذا يسهل فهمه جداً في مصر حيث كان للبروتوكول أهمية كبيرة.

وفي معبد آخر[٣] يرجع إلى نفس العهد وهو معبد «أوب واوت» في أسيوط نرى رجال الكهنوب الدائمين يتكوّنون من أمير المقاطعة الذي كان في نفس الوقت كاهناً أكبر، ثم من تسعة كهنة. وكان هؤلاء العشرة يكوّنون هيئة المعبد وكانوا كهنة بالوراثة. وكان إلى جانبهم كذلك كهنة يتناوبون، وكان يطلق عليهم اسم الكهنة المؤقتون، نستطيع أن نرى فيهم من غير شك موظفين للملك أو للمقاطعة، يفخرون غالباً في نقوشهم بأنهم كهنة هذا الإله أو ذاك. وفي الوقت نفسه كان يستطيع أفراد من طبقة أدنى أن يشاركوا كذلك في الكهنوت، ومن هنا نجد مرة ـ في معبد يوشك على الفناء ـ أن كبير الصيادين للأسماك والطيور كان في الوقت نفسه رئيس كهنة معبده[٤].

ولم يكن يكفي فقط الانتماء إلى أسرة كهنة لكي يستطيع المرء الحصول على مرتبة الكهنوتية. ونستطيع أن نتخيل أنه كان يجب أن يكون هناك ما يثبت ـ

---

(١) ما يلي مأخوذ عن Borchardt: Æ. Z. 37, 89.

(٢) تسمى طبقات الكهنة هذه قبائل، وذلك حسب التسمية الإغريقية.

(٣) Erman, Æ. Z. 20, 159 ss.

(٤) Schâfer: Priestergräber, P. 34.

على الأقلّ بالنسبة للمراكز العليا ـ وجود ثقافة خاصة، وربما تكريس خاص. فإن بعض النصوص الأكثر حداثة على الأقل تذكر أمثال هذا التكريس والتطهير، فنحن نقرأ أن كاهناً جديداً استحم في البحيرة المقدسة بالكرنك وتطهر عن طريق النطرون(١)، ويقص علينا كاهن آخر في تفصيل أكثر وضوحاً قائلاً: إنني تقدمت أمام الإله وكنت شاباً ممتازاً. وحين أدخلوني إلى أفق السماء خرجت من «النون» وتخلصت من كل شائبة كانت بي. وخلعت ملابسي وتدهنت كما يتطهر حوريس وست. ثم تقدمت نحو الإله في قدس الأقداس وأنا أحسّ بالرهبة أمام قدرته(٢).

وإذا كان الكثيرون من الكهنة يفخرون بمعرفة الأمور السرية «مثل أسرار السماء والعالم السفلي» فإن علمهم كان قاصراً من غير شك على معرفة الصور الدينية والتقاليد المقدسة(٣)، لأن هذه التقاليد تعتبر سرية كذلك. وحتى في الدولة القديمة نحن نعرف أن «كتاب فن الخرحب» الذي كان يجب العمل به أثناء عمل التقدمة يحتوي على أمور سرية(٤).

ولم تُبعد السيدات في أيّ عصر من العصور عن خدمة المعبد. ففي الدولة القديمة نراهن يتباهين بأنهنَّ كاهنات (خادمات للإله) لنوت وحاتحور. . . «واحدة تمجد حاتحور كل يوم»(٥). ومن اليسير أن ندرك أن النساء كن يملن إلى خدمة حاتحور إلهة الحب، وسنرى فيما بعد كيف اكتسب دور الكاهنات أهمية أكبر فيما بعد.

---

(١) Brugsch: Thes., 1071.

(٢) ويعني هذا إذا تجردنا من العبارات المصرية أنه أعد في المعبد وأنه اغتسل وتدثر عندمات قبل في عداد الكهنة، وعند ذلك سمح له بدخول قدس الأقداس ـ انظر تمثال حور في القاهرة (W. B. 426) وانظر كذلك Legrain - Naville, L'aile nord pl. 11 B حيث مثل تطهير كهنة وكاهنات من الطبقة الراقية.

(٣) Pap. ex. Louvre, c. 218 XIX dyn.

(٤) L. D. II, Erg. Tafelband 7; M ar. Mast. p. 10.

(٥) Brit. Museum, 528.



أطلال معبد الكرنك من الجو من قبل الأقصر. في وسط الصورة المعبد الرئيسي والبحيرة المقدسة؛ وفي مقدمتها بيوت قرية الكرنك الحالية ومعبد خنسو.

لم نتعرّض حتى الآن في كل ما قلناه عن الكهنة المصريين لذكر شيء عن الطبقة العليا الروحية التي نسميها كبار الكهنة، وليس هناك اصطلاح خاص في اللغة المصرية للتعريف بهذه الوظيفة. وفي المعابد الكبرى كانت لهم ألقاب ترجع إلى أصل بالغ القدم. ومن هنا كان يسمى الكاهن الأكبر في هليوبوليس باسم «كبير الرائين» والكاهن الأكبر في شمون باسم «كبير الخمسة»، ولكن كاهن منفيس الأعظم الذي كان في خدمة إله الفنانين بتاح، فقد كان يسمى «الكبير لإدارة الفنانين» ولقد كان يشغل في الواقع هذه الوظيفة أيضاً في مدلولها الدنيوي، وكان في الدولة القديمة كذلك يعتبر رئيساً فعلياً لكل أعمال النحاتين والأعمال الأخرى المماثلة. ويظهر أنه في الأصل كانت هناك شخصيتان توزّع عليهما أعمال هذه الوظيفة النصف روحية والنصف دنيوية، ولكن في أواخر الدولة القديمة نرى ملكاً ينقل كل شيء إلهي، وكل ما يجب أن يؤديه الكاهنان الكبيران إلى رجل يدعى تيتي ـ سابو الذي كانت له فيه ثقة خاصة.



٨٠ ـ الكاهن الأعلى في منف بحليته على صدره وخصلته على جانب رأسه (برلين ١٢٤١٠)

وكان رؤساء هذه الهياكل الكبرى أشخاصاً من أرفع الطبقات. ولقد كانوا في الدولة القديمة أبناء الملك عادة. وأما في المقاطعات التي كانت تحت نفوذ

---

(١) Mar. Mast. E. 3.

أمرائها المحليين فإن أولئك كانوا كذلك رؤساء خدم الإله: أي الكهنة الكبار.. ولقد اعتبر أحد هؤلاء نفسه مديراً لكافة الوظائف الدينية، العارف بالكلام والأشياء الإلهية، وهو الذي يعطي للكهنة التعليمات لإدارة الحفلات. وله صوت مدو حين يسبح الإله ويد طاهرة حين يحضر الزهور ويقدم الماء والطعام على المذبح[١].

وتسترعي مكانة الكهنة الكبار النظر بسبب الملابس الكهنوتية التي يرتدونها في بعض الأحيان، والتي ترجع من غير شك إلى عصر بعيد جداً، وكان الشيء الوحيد الذي يطلب من كل كاهن، وكذلك من كل من يقترب من الأشياء المقدسة هو الطهارة. ونقرأ في قبر يرجع إلى الدولة القديمة ما يلي: كل من يدخل هنا يجب أن يكون نقياً، وعليه أن يتطهر كما يتطهر عند دخوله معبد الإله الكبير[٢]، ويبينون دائماً أولاً بأوّل أن أيدي الكهنة يجب أن تكون مطهرة. وكذلك نرى في الدولة الحديثة المؤمنين وهم يهدون إلى المعابد أحواضاً كانت تستخدم للتطهر من غير شك[٣]. وقد اتخذ هذا الاتجاه نحو التطهر صوراً عجيبة كما هي الحال في كل أنحاء العالم. وكان على كل من أراد أن يردد صيغة سحرية ألا يغتسل فحسب، بل ألا يلمس كذلك امرأة، بل لا يجب عليه أن يأكل لحم الماشية أو السمك[٤]. وفي بعض المقابر القديمة الجميلة حيث يدعى الزوّار إلى التحقق من طهارتهم فإنهم يطالبون كذلك ألا يكونوا قد تناولوا أسماكاً. وسنرى فيما بعد ـ في الفصل الثامن عشر أن ملكاً مخلصاً للآلهة المصريين كان يقف بعيداً عن الناس الذين كانوا يأكلون السمك. والواقع أن هذا المنع الذي حرم الشعب من أحد أطعمته الرئيسية لم يستوجب أن يساهم فيه الجميع بالضرورة.

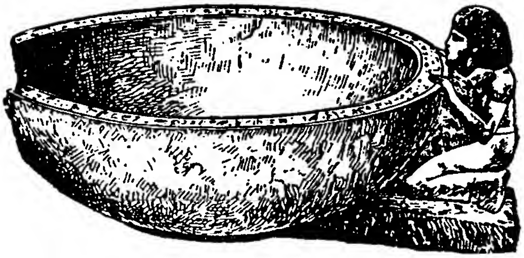
---

(١) Siout, I, 237 - 239.

(٢) Urk. I, 173 - 147 (cf. Urk. , 87, 202).

(٣) Brit. mus., 28.

(٤) Totb., éd Naville, 64 Copie en Ca.



٨١ ـ حوض ماء أهداه أحد الأفراد ويدعى حوى لمعبد سخمت في أبو صير

ولقد رأينا فيما سبق أن العبادة المنظمة كانت تتضمن تقدمات يومية هي من الطبيعي أقلّ أهمية من تقدمات أيـام الأعياد. ولكن بما أنها كانت دائماً مستمرّة طيلة العام فإنها كانت تحوي كمية ضخمة من الخبز واللحم. ولنا أن نتسـاءل إلام كـانـت تصير تلـك الأطعمـة بعـد أن يشبـع الإلـه ـ طبقاً للتعبير الرسمي ـ.

ومن المفهوم أننا لم نستطع الوصول إلى إجابة حاسمة في هذا الموضوع، لأن هذه الأشياء كان يستطيع المصري أن يصل إلى فهمها من تلقاء نفسه، ولكن شيئاً واحداً كان يهمه، وهو أن يسر الإله بهذه التقدمات. ونحن لا نستخفّ بعقولنا إن أكدنا أن الكهنة كانوا يتناولون هذه الأطعمة، وأن كل ما كان يؤتى به إلى الإله كان يعتبر بالنسبة لهم دخلاً. وبالمثل كان كل ما يملكه الإله من أملاك ثابتة كان يطلب على اسم «التقدمة الإلهية» وكان الكهنة يتمتعون بثمارها.

ومن بين المنح التي كان الملوك أو الأفراد يقدمونها بصفة قرابين نستطيع أن نميز أمراً خاصاً، وهو أن قرابين معينة كان لا يستحبّ أن يستمتع بها الإله وحده بل يجب أن يستمتع بها كائنات أخرى مبجلة. وهكذا مثلاً يقوم في معبد ما تمثال رجل صالح أقامه الملك في هذه الناحية حتى تكون له كذلك حصته من تقدمات الإله. وفي هذه الحالة كان يوضع أمام هذا التمثال كذلك بعض الأطعمة المأخوذة من التقدمات، وهنا لنا أن نتخيل كذلك أن المكان المختصّ بهذا التمثال هو الذي يستمتع بالأطعمة. وبالمثل فإن صورة رجل مقامة في مقبرته تستطيع

المشاركة في التقدمة المقدمة إلى الإله. وعند ذاك تنتقل هذه الأطعمة إلى الكاهن الجنزي المختص بالقبر وذلك بعد أن يشبع المتوفي.

ونستطيع اعتبار هذه التقدمات التي كان يستفيد منها الكهنة بصفة دائمة بمثابة مرتب لهم. وعلى ذلك فلم يكن همهم الوحيد تموين الإله بالأطعمة هو الذي يدفعهم إلى تقبل العطايا الملكية في سرور، وإنما كان طعامهم الشخصي هو هدفهم الأسمى. وهم يمدحون الملك لأنه يملأ المذابح أطعمة ويجعل موائد القرابين زاخرة ويكثر من التقدمات[١].

وتدلنا أسماء أبواب المعابد كذلك على الأهمية التي تتصل بالقرابين، فهم يذكرون أن الملك يأتي بالأطعمة[٢] عندما يعبر هذه الأبواب.

ولم يكن الكهنة يفيدون من مأكولات الإله فقط لأنه كان يتخلى كذلك عن ملابس. ولقد كان شيئاً طيباً أن يأخذوا في مناسبة الدفن شرائط من الكتاب يلفون بها الميت كان الإله قد تخلى عنها[٣]، ولنا أن نتخيل أنه من الطبيعي أن تلك الشرائط كان لها قوّة حافظة جاءتها عن طريق الإله الذي كان تلمسه. وبالرغم من أن الكهنة كانوا لا يألون جهداً في أخذ القرابين، فإن هناك حالات كانت ترفض فيها هذه القرابين ـ ولو نظرياً ـ وواحدة من صيغ اللعنات تذكر أن الآلهة لا تتقبل قرابينها.

---

(١) Westcar, litt. p. 73.

(٢) Deirel Bahari, 95; Karnak, Temple de Khonsou «727» Abydos «447»; Chassinat, Mammisi, 155.

(٣) Urk. IV, 112. cf. aussi Lacau, Testes Rel. N° 20 (texte ancien).

الفصل الثالث عشر

العبادة في الدولة الحديثة

لعل ما قمنا بعرضه حتى الآن عن عبادة الآلهة المصرية قد زوّد القارىء بفكرة تكاد تكون كاملة عن هذه العبادة، وهذا في الحقيقة بالنسبة إلى العهود والظروف الطبيعية. أما في عصر الدولة الحديثة فإن كثيراً من الأمور أصبح ليس ذات قيمة، لأن في هذا العصر اتخذ كل شيء نسباً معينة حتى أصبح يتعذر معها المقارنة مع ظروف العبادة السابقة واللاحقة. وتنطبق هذه الملاحظة بصفة خاصة على عبادة آمون الذي لا يكرّم عبثاً كملك للآلهة والذي كانت معابده الطيبية تعتبر رمزاً للدولة الحديثة بقدر ما كانت الأهرام رمزاً للدولة القديمة.

ويكفي للتحقق من عظمة المباني الدينية لهذا العهد أن نلقي النظر برهة على معبد الكرنك، فبهو الأعمدة فيه يشغل مساحة قدرها ٥٠٠٠ متر مربع، ولا يقل عدد أعمدتها عن ١٣٤ عموداً، يفوق ارتفاع الإثنى عشر عموداً منها الكائنة في الصحن الأوسط عن ٢١ متراً، وقطر كل منها ٣,٣٧ متر، أما الأعمدة في الجانبين فيبلغ ارتفاع الواحد منها ١٣ متراً.

ويبدو كما يتضح من النقوش أن هذه الصالة الفخمة والصرح الذي يتقدمها شيدا في الأسرة التاسعة عشرة وخلال حكم رعمسيس الثاني على الأخص، وهما يكوّنان معاً مجموعة واحدة، ولكن ما دام المعبد كان قد بدىء العمل فيه، حسب هذا الرأي بقاعة الأعمدة، فإنه من الممكن أن نفترض أن البهو الكبير الذي أقيم أمام الأبنية فيما بعد كان جزءاً من المشروع الرئيسي. وليس من المستبعد أن يرجع

هذا التصميم الرائع إلى ذلك العهد الذي أعقب العصر الهرطقي حين لم يكن هناك شيء مما يمجد آمون يعتبر مبالغاً فيه. ولقد صرف النظر بعد رعمسيس الثاني عن تنفيذ هذا التصميم لأنه اعتقد أنه لا يمكن تحقيقه. وذلك لأن سيتي الثاني أقام معبداً أصغر في الفناء المزعوم كما بنى رعمسيس الثالث معبداً كبيراً كرّسه للآلهة الطيبية وأقامه بطريقة تقترب من التصميم المذكور. ولم يشرع في إنهاء الفناء إلا في عهد الملوك الليبيين والأثيوبيين، ولعل منحدر اللبن القائم حتى اليوم والذي استخدم في بناء الصرح يقوم دليلاً واضحاً على أن العمل لم ينتهِ تماماً.

ولكن هذه المباني الضخمة التي تمتدّ على طول ١٨٠ متراً ليست إلا مجموعة معمارية تتقدم معبد أمون الحقيقي الذي يمتد ببوّاباته وإبهائه وممرّاته وصالاته التي شيدها ملوك الأسرة الثامنة عشرة. وبجوار معبد أمون الكبير يقوم معبدا زوجته وابنه وهما معبد موت (الذي يرجع إلى عصر أمنوفيس الثالث) ومعبد خونسو. ولبتاح منفيس كذلك هيكل مهم.

وتتصل هذه المباني ببعضها عن طريق ممرّات وأبواب تذكارية وتكوّن في مجموعها مدينة مقدسة حقيقية طولها أكثر من كيلومتر، ولسنا نستطيع إلا أن نفترض عدد المباني الأخرى التي كانت تقوم في هذه الناحية، لأن منازل السكنى وصوامع الغلال والإسطبلات والورش كانت تبنى كما جرت العادة من قبل من اللبن، وهـي من أجل ذلك لم تصل إلينا. وليس من شك أن مئات من الأهلين كانوا يعيشون في هذه الناحية لخدمة أمون.

وعلى بعد يزيد قليلاً عن الكيلومترين إلى الجنوب، يقوم معبد أمون الثاني في الأقصر، وقد أقامه أمنوفيس الثالث ووسعه توت عنخ أمون، وأضاف رعمسيس الثاني مبنى كبيراً أمام المباني القديمة عبارة عن بهو يتقدمه صرح رائع ومسلتان وتماثيل ضخمة.

ولكن هذه المعابد الشامخة في الكرنك والأقصر لا تكفي للتعبير عن مدى الخشوع الذي كان يحسه ملوك الدولة الحديثة نحو إلههم، وهم أولئك الملوك

الأتقياء الذين كانوا يسهرون دائماً من أجل المعابد[١]. فهناك على الضفة المقابلة للنيل تقوم معابد أخرى كبيرة كان يعبد فيها أمون كذلك، والواقع أنه لم يكن يعبد هناك وحده، بل في صحبة إله أو آخر من آلهة الموتى[٢]، كما يستوجب ذلك قيام هذه المعابد في مدينة الأموات. وهناك المعبد الرائع للملكة حتشبسوت وهو الذي كان يستخدم في الوقت نفسه كمعبد جنزي للملكة. وهناك كذلك كان يقوم المبنى الشامخ الذي أقامه أمنوفيس الثالث، والذي يكاد يتلاشى في يومنا هذا وإن ظهرت عظمته في تمثالي ممنون. وكان يقوم هناك كذلك معبد لـ «آي» الذي تهدم تماماً. . . وكذا المعبد الضخم الذي شيده رعمسيس الثاني، والذي نعرفه اليوم باسم الرمسيوم. وبعد قرن من الزمان نرى رعمسيس الثالث الذي كان قد أقام لأمون في الكرنك معبداً كبيراً يقيم هنا كذلك معبد مدينة حابو، «ذلك المنزل العجيب الذي سيبقى ملايين السنين فوق جبل نب عنخ»[٣]، وليس من شك أن تسمية طيبة بالعبرية باسم نو ـ أمون، أي مدينة أمون ليست تسمية خاطئة.

أما باقي مدن المملكة فلم تكن تنقصها كذلك معابد تكرّس لأمون رغم كل المنشآت الضخمة التي أقامها ملوك الدولة الحديثة في كل مكان للآلهة القديمة، وليس من شك أنه ليس من المبالغة أن نذكر أنه لم يقم في بلد ما ملك ما في أيّ عصر بنشاط في أعمال البناء يعدل نشاط رعمسيس الثاني أكبر بنائي هذا العصر[٤]. ولم يقنع مبنى من مباني الدولة الحديثة بالضروري فقط، بل أنهم أرادوا أن تثبت هذه الأبنية بضخامتها وفخامتها عظمة الإله الذي يسكنها.

(١) Urk. IV, 363.

(٢) هذا ما أخبرني به بورخارت، على أن تفاصيل هذه المسائل لا تزال مبهمة. ومما يلفت النظر أن الملوك أنفسهم كانوا يعبدون كذلك في هذه المعابد.

(٣) Harris, I, 3, 11.

(٤) cf. Ed. Meyer II^2. p 497.

ويتمشى مع هذه الأهداف الإفراط في الزهو داخل المعبد. وكانت تنصب أمام البوّابات التي لا تلوح اليوم إلا في صورة كتل ضخمة من الحجر ساريات ذوات أعلام متعددة الألوان وأطرافها مذهبة. وكانت البوّابات من النحاس السوري المكفت بالذهب(١). ولم يكتفِ في داخل المعابد باللوحات المتعددة الألوان، بل كانت الأعمدة وإطارات الأبواب تلتمع بالذهب(٢)، بل إن الأرض كانت تكفت في بعض الجهات المقدسة بالذهب أو الفضة(٣).

وكانت اللوحات الكبيرة من الحجر بالذهب وتزخرف علاوة على ذلك بحليّ من الذهب السوري. وهي تستقرّ فوق قواعد مكفتة بالفضة وحليّ ذهبية وهي ثقيلة حتى لتكاد الأرض تنطوي تحتها(٤). ويتألق داخل المعبد كذلك بكل الأدوات المصنوعة من الذهب والفضة «التي تغمر مصر بضوئها كما تفعل النجوم تحت بطن آلهة السماء»(٥). وهذه كلها هدايا من الملوك. فتحوتمس الثالث يقدم إناء من الذهب ارتفاعه سبعة أذرع (٣,٥ متر)(٦)، ورعمسيس الثالث يضع في الحوش الخارجي لمعبد أمون حاملاً كبيراً لجرّة مزين بالذهب والأحجار الكريمة. وأما الأواني فمصنوعة من الذهب وهي تحوي النبيذ والجعة لتقدمة الصباح(٧). ويقدم نفس الملك كهدية مائدة قربان من الفضة(٨) وإناء كبير -

---

(١) Urk. IV, 56 ss.; Annal. idem 169.

(٢) Harris I, 4,12.

(٣) Urk. IV, 423; Borchardt, Baugeschichte, 46; Sixtemples, 12.3.
ولقد يميل المرء إلى الظن في المغالاة في هذه المعلومات ولكن كما يلاحظ - بورخارت - توجد آثار التكفيت بالمعادن الثمينة - بل ما زالت ترى - في بعض الجهات على الجدران.

(٤) Harris I, 71.

(٥) Urk. IV, 173.

(٦) Idem.

(٧) Harris I, 6,1.

(٨) Idem, I, 5,12.

كاحركا ـ من الفضة كذلك بغطاء من الفضة له حافة ذهبية[1].

ولم تُعد أوراق البردى واللوحات البسيطة تكفي لكتابة حوليات المعابد، فهي الآن تسجل على ألواح من المعدن الثمين. وهكذا يقدم رعمسيس الثالث إلى أمون لوحات ذهبية صغيرة تحوي أدعية، وأخرى من الفضة خاصة بأوامرة للمعبد، ثم عدداً كبيراً من اللوحات الفضية بها مراسيم وكشوف ومحتويات المعبد التي قام بتحريرها وإعلانها خلال حكمه[2].

وهناك أدوات أخرى ذات طابع أقل أهمية وإن كانت دقيقة الصنع وكان الملك يكرّسها للمعبد. . . وهكذا نرى رعمسيس الثالث يمنح معبد هليوبوليس ميزاناً فخماً من الذهب لم يرَ أحد له مثيلاً منذ عهد الإله. ويجلس تحوت عليه في صورته كقرد عظيم ـ مصنوعاً من الذهب ـ كما لو كان منوطاً بالميزان[3].

وهكذا كان المعبد من ذلك العصر يعتبر صورة رائعة للفخامة وحسن الرونق، ونحن نعرف تماماً أن المصريين كانوا يقارنونه دائماً بالقصر السماوي لإله الشمس.

وأخيراً، فإن صورة الإله وكل ما يختصّ به كانت تزين في رسوم رائعة بها الكثير من الإفراط، ولذلك كانت المعابد تمتلك بيوتاً للذهب ومصانع يمكن في داخلها صنع الأشياء التي تتطلب سرية كاملة في إتقان. ولنذكر من بين التماثيل التي كرّسها رعمسيس الثالث في المعابد الطيبية تمثال أمون في مدينة هابو، «فهو مزين بأحجار حقيقية تتألق مثل الأفقين والمرء يسعد برؤياه إن هو خرج»[4]. وتقوم في محاريبها في نفس المكان تماثيل آلهة منفيس وتاسوع آلهة السماء والأرض، وهي مصنوعة من الذهب الخالص ومحلاة بالأحجار الكريمة[5] وقد التحقت بها صورة ذهبية للملك نفسه[6]، وبالعكس لم يكن لازماً أن تصنع

(١) وهناك عيد اسمه Kaherka .Idem I, 6,11.

(٢) Harris, I, 615 - 6.

(٣) Idem, I, 26, 11 - 12.

(٤) Idem, I, 4.9.

(٥) Idem. I, 4.9 - 11.

(٦) Idem. I, 6,4.

تماثيل لموت وخونسو، إذ أعيد صنعهما من جديد في بيوت الذهب وكسيا بالذهب الخالص، ثم حليا بالأحجار الكريمة وألبسا عقوداً من الذهب تتدلى من أمام ومن خلف بدلايات من الذهب السوري. وحينئذ ـ كما يقول الملك ـ تستقر وتسر[١]. ويتسلم أمون كذلك قلادة مماثلة من الملك بها دلايات ذهبية تثبت إلى جانب تمائم مقدسة تعلق إلى جسمه حين يظهر[٢].

ولم يكن قارب أمون، المسمى أو سرحات، أقل روعة. كان من خشب الأرز وطوله ١٣٠ ذراعاً، وكان يغطي بالذهب الخالص، وكان المحيط ينثني تحت ثقله كما لو كان قارب رع وكانت الحياة تعود إلى العيون حين تتطلع إليه، وكان محرابه من الذهب النقي ومزيناً بكل أنواع الحجارة الثمينة[٣].

وكانت القوارب الأخرى للآلهة، الذين يستعملونها في النيل، تجهز في روعة بالغة. ولنذكر من بينها قارب «نشمت» الشهير الخاص بأوزوريس أبيدوس فإن تحوتمس الأول أعاد صنعه من جديد من خشب الأرز اللبناني الحقيقي. وكان مقدمه ومؤخره مكسوّان بالذهب. وحين كان يسري فوق الماء كان يحدث به تألقاً سحرياً كالعيد[٤].

وإذا مكان من العسير علينا اليوم أن نقدر ذلك البذخ المفرط الذي يسود داخل المعابد، فإننا نستطيع في يسر أن نتفهم نوعاً آخر من الزينة وهي الحدائق. فمثلاً رعمسيس الثالث يفخر بأنه غرس في طيبة أشجاراً خضراء وزهوراً ونبات البردى عسى أن يسرّ أمون برائحتها[٥]. وفي مدينة رعمسيس بالدلتا نرى نفس الملك يجعل طريق الإله يتألق بزهور جميع البلاد ونبات والبردى[٦].

---

(١) Idem, I, 6,12.

(٢) Idem. I, 6.3.

(٣) Idem. I, 7,5 ss.

(٤) Urk., IV, 98.

(٥) Harris, I, 7,12.

(٦) Idem, I, 8,4.

وقد أقام الكاهن الأكبر باك ـ ان ـ خونسو من عهد رعمسيس الثاني حدائق في طيبة، ولقد كان ذوقاً خاصاً بهذه الفترة أن تستنبت في المعابد من أجل الآلهة ـ الذين كانوا يسرون بالمر والبخور ـ الأشجاء التي تنتج هذه الأطياب[١]. وهكذا استنبتت في طيبة بونت جديدة (بلاد البخور) فغمرت السماء والأرض معاً بأريجها.

ورغم فخامة معابد الدولة الحديثة التي قمنا بتصورها هنا، فإن العبادة ظلت تحتفظ طوال هذه الفترة بطابعها القديم. وظلت طقوس الخدمة اليومية على حالها. كما لم يتغير شيء مما كان يحدث في أيام الأعياد بمحافلها ومشاهدها. وكل ما حدث أن كل شيء ازداد ثراء وروعة وفخامة عما كان من قبل. ولقد رأى القارىء في الفصل السابق أن الأضياف الممتازين كانوا في العهود القديمة لا يتسلمون سوى عشرة رغفان بدلاً من خمسة كان يتناولها الآخرون، وذلك في مناسبة عيد مونتو. . . . فليعقد القارىء الآن مقارنة بين ذلك وبين ما كان يعطى لنظرائهم في عيد أقيم تمجيداً لأمون خلال حكم رعمسيس الثالث[٢].

وكان ما يقدم للإله وما يأكله المشتركون في الحفل يتضمن وجبات حقيقية من «الخبز الجيد واللحم والكعك والرقاق. وكان ذلك كله مكوّماً في سلال مختلفة الأشكال تتفق ومقام الأضياف. وكانوا يحتاجون في كل عام إلى خمسة عشر سلة احتفالية، وأكثر من خمسة وثلاثين سلة ذهبية وحوالي ٣٦٥ سلة طعام، وعلاوة على ذلك مائة وعشرين كأساً للأمراء ـ أي كبار الموظفين ـ. ولسنا نستطيع أن نجزم بمقدار كمية الخبز التي كانت تخصص للمشتركين في الاحتفال، ولكنها كانت تتعدى الآلاف من غير شك.

وتبين أعمدة معبد الأقصر التي قام بزخرفتها الملك توت عنخ أمون

---

(١) Urk. IV, 346; Harris, I, 7,7.

(٢) Harris, I, 17, 1 ss.

استمرار حفل كبير في ذلك العهد وتنوّعه. ونرى فيه كيف ينتقل أمون رع من الكرنك إلى الأقصر ليحتفل بعيد أوبت المشهور ـ الذي أخذ شهر «بابه» اسمه عنه ـ ولا تقدم اللوحات لنا سبباً لهذا العيد، بل إنها تشير فقط إلى انتقال الإله إلى الأقصر وعودته إلى الكرنك. ولما كان اسم «أوبت» الذي يحمله معبد الأقصر يعني في الوقت نفسه كلمة «حريم» فإنه يظن أن ذلك قد يؤدي إلى أن الإله كان يذهب إلى هناك كل عام ليحتفل بزواجه.

ويبدأ الاحتفال بتقدمة يرفعها الملك أمام قارب أمون ـ أي أمام محرابه المحمول (المتنقل) قبل أن يغادر هذا المحراب معبد الكرنك. وتقدم القرابين كذلك أمام قوارب آلهته التي تكوّن أسرته موت وخونسو وأمام قارب الملك كذلك.

ثم يخرج الموكب من صرح المعبد والكهنة يحملون القوارب فوق أكتافهم، ويجب ألا يقلّ عدد الذين يحملون قارب أمون عن ثلاثين... ثم يتقدم الملك نفسه خلف قارب أمون، وكان صحب الموكب الغناء ودقّ الطبول، ويتقدم المشهد جندي ينفخ في النفير.

وعند وصولهم إلى النيل كانت تنزل المواكب وركبها وكان قارب أمون يتلوه قوارب محملة بالقرابين، ويصحب الملك والملكة الآلهة في قواربهم الخاصة الفخمة.

وأما على الشاطىء فكان هناك موكب طويل يرافق الحملة المقدسة، والناس تصيح صياح الغبطة والتهلل. وكان هناك منهم المكلفون بسحب القوارب في اتجاه مضادّ للتيار، ومهما تكن صعوبة ذلك العمل فإن أولئك الذين كانوا يقومون به كانوا يؤدونه وهم مملوءون سروراً ـ كما تدل على ذلك النقوش ـ وذلك لقيامهم بخدمة الإله في عيده. وفي مكان آخر نرى جنداً مع ضباطهم كما نرى في الموكب كذلك ليبيين وزنوج، وهؤلاء يظهرون سرورهم طبقاً لعادات بلادهم عن طريق الرقص والقفز. زد على ذلك ضجيج هؤلاء المتبربرين مضافاً إلى ضرب الصلاصل وترتيل أنشودة قديمة ترددها جماعة من

المغنيات والكهنة. وترى في الموكب مركبتان للملك، وحين تصل القوارب إلى الأقصر يتجه الموكب بعينه نحو المعبد وعلى رأسه الكهنة ومعهم قارب أمون وخلفه الملك وحاشيته. ثم تحمل كذلك قوارب موت وخونسو. وفي وسط الحاشية العسكرية تندس جماعات فرحة من الموسيقيات والراقصات لابسات ملابس رقيقة ويقمن بحركات فيها كثير من الجرأة... وعلى الطريق تقام أبنية صغيرة يقدم فيها الكهنة القرابين. وفي المعبد يقوم الملك بنفسه بمراسم القربان في الوقت الذي تنتظر الحاشية من الكهنة ورجال البلاط أمام باب قدس الأقداس.

أما العودة إلى الكرنك فتتمّ طبقاً لنفس البرنامج وإن اختلفت من ناحية أن القوارب في عودتها لا تحتاج لأن تسحب. وتتقدم نفس الحاشية من الجند المصريين والليبيين والزنوج على الضفة في الطريق الذي رشّ باللبن وهم يرددون ويمتدحون جلالته الذي سرى بأمون على الماء.

وحين تصل الآلهة إلى الكرنك يختم الاحتفال بتقديم القرابين العظيمة.

ومن الوصف الذي قدمناه معتمدين على النقوش التي وصلتنا يظهر أن الاحتفال كان يستمر يوماً واحداً فقط، ولكن الواقع أن هذه الحفلة كانت تستغرق مدة طويلة. ولدينا من عهد تحوتمس الثالث ما ينبئنا أنها أستمرّت أحد عشر يوماً، كما أنها ظلت مدى ٢٤ يوماً في حكم رعمسيس الثالث[١].

ولقد رأينا من قبل أن الكهنة كانوا أصلاً في العصور القديمة من بين سكان المدن، ونستطيع أن نقرّر أنهم لم يكونوا منفصلين عن الشعب بصفة قاطعة. أما في الدولة الحديثة فقد تغير هذا أيضاً، إذ أننا نعرف الكاهن الآن من مظهره الخارجي، فهو لا يلبس الملابس الحديثة لعصره، وهو يجتنب أن يرتدي ملابس فضفاضة مثنية تغطي الجزء الأعلى من الجسم، مما كان يفرضه الذوق العصري

---

(١) كل ما قدمناه من وصف مأخوذ عن Walter Wofl: Das Schöne Fest von Opet Leipzig, 1931.

على أصحاب الطبقات الرفيعة، وبدلاً من ذلك فإننا لا نراه يأتزر بغير مئزر قد يطول وقد يقصر طبقاً لما كان سارياً في الدولتين القديمة والوسطى، كما لو كان يريد الإشارة إلى أصله الذي يرجع إلى ماضٍ وقور. وبالمثل لم يكن الكهنة يزينون رؤوسهم بشعر مستعار مصفف بطريقة فنية كما كان يتفق والطراز السائد في الدولة الحديثة، بل نراهم يحلقون رؤوسهم، كما أن حلاق المعبد كان موظفاً من أهمّ موظفيه. أما سبب هذه العادة الغريبة فمأتاه ـ كما فعل المصريون في العصور المتأخرة ـ الميل إلى الطهارة الخالصة. وهكذا أصبح الكهنة الآن طبقة معينة، وكلما ازداد عددهم في المعابد الكبيرة ازداد شعورهم بأنهم طبقة خاصة.



٨٢ ـ كاهن من الدولة الحديثة حليق الرأس وعلى ظهره فراء نمر (برلين ٧٢٧٨)

ونستطيع أن نتبين بالقرب من أكبر الآلهة جميعاً ـ أمون[١] ـ ثلاثة مجاميع من الكهنة: الطبقة الدنيا وهي مكوّنة من كهنة «وعب» الذين يصحبون الإله في مواكبه ويحملون قاربه، وتدخل كذلك بعض الأعمال الضئيلة الشأن في اختصاصهم، ولكنهم لم يكونوا يشتركون في طقوس العبادة ذاتها، رغم أن بعضهم من ذوي المرتبة المرتفعة كان يسمح لهم بالدخول حتى قدس الأقداس. وفوق هؤلاء تأتي طبقة الكهنة العلماء الـ «خرحب» وهم كذلك طبقات مختلفة.

(١) ما يلي مأخوذ عن Lefebure: Grands Prêtres P. 14 ss.

وعلى قمة الكهنوت يوجد هنا كذلك خدم الإله وآباء الإله الذين نسميهم الأنبياء وهم الذين يفتحون أبواب السماء: أي الذين يدخلون إلى قدس الأقداس ويعرفون كل أسرار الإله. ويمكن أن نميز من بينهم عدا آباء الإله المعتادين أربع طبقات أكثر سموّا: النبيّ الأوّل، وهو الكاهن الأكبر الذي لا يحمل هنا ـ بعكس أمثاله عند الآلهة الكبار ـ أيّ لقب خاص. وله نائب لكل ما هو دنيوي يسمى بالنبي الثاني.

وإلى جانب الكهنة كان للآلهة في الدولة الحديثة هيئة من الكاهنات لم يشغلن سوى دور ثانوي في العبادة وهن مغنيات الإله. وكان عددهن كبيراً في خدمة أمون ولقد كانت سيدات العائلات الكريمة يتشرفن بالانتماء إلى هذه المجموعة. ولما كانت الفنون التي يدخلن بها السرور إلى قلب الإله هي نفس المتع التي تمارسها فتيات الحريم أمام مولاهن، فإن هؤلاء السيدات كن يعتبرن كأنما هن حريم الإله. ولقد رأينا منذ بداية الدولة الوسطى هذا الاصطلاح فيما يختص بالإله مونتو. ولقد انتصرت وجهة النظر هذه خلال الدولة الحديثة مما يتصل بأمون. وكما هي الحال في حريم أيّ أمير أرضى لم تكن النساء جميعاً في مرتبة واحدة، ونستطيع أن نتبين في حريم أمون كذلك مراتب متفاوتة، فعلى رأسهن «الأكثر عظمة بين المحظيات» وهي عادة زوجة الكاهن الأكبر، تلك التي يسبغ عليها هذا الشرف. ولكن توجد على رأس النساء سيدة من الأسرة المالكة، هي زوجة الإله أو عابدة الإله، أي الزوجة الحقيقية للإله ممثلة الإلهة موت(١).

وكانت أول سيدة عرفناها ارتفعت إلى هذه المرتبة هي «إيحموزه ـ نفر إيري ـ والدة الملك أمنوفيس الأوّل التي اختيرت فيما بعد حامية لمدينة طيبة الجنزية. ولقد كانت الملكة حتشبسوت كذلك زوجة آلهية قبل اعتلائها العرش، وحينما ارتقت العرش أسبغت هذا الشرف على طفلة هي ابنتها نفرو ـ رع، وعلينا

(١) وقد ذهب إلى أبعد من هذا حتى أن العبارة «يد الإله» التي نشأت من أسطورة تلقيح إله الشمس نفسه بنفسه، والتي وجدت سبيلها إلى موت، قد استخدمت كذلك لقباً لزوجة الإله على الأرض.

أن نلاحظ أن وظيفة زوجة الإله لم تكن تتطلب التزامات قاسية ممن يشغلها، وسنرى في الفصل الثامن عشر كيف أصبح لهذه الوظيفة أهمية بعد ذلك ثم كيف اختفت.

ولنتساءل الآن ماذا كانت مهمة كاهن أمون؟ إن سجل حياة باك ـ أن ـ خنسو الكاهن الأكبر خلال حكم رعمسيس الثاني (١٢٩٢ ـ ١٢٢٥ ق. م) تدلنا على ذلك[1]، لقد كان ابنا لنبيّ ثانٍ، وقد تلقى تعليمه الأول في مدرسة معبد موت. ومن السنة العاشرة من عمره إلى السنة الحادية والعشرين تلقى تعليماً من نوع مختلف نستطيع أن نصفه بأنه عسكري، إذ أنه ألحق بالإسطبل الملكي، وإن من يعرف ماذا كانت تعني العربات والخيل يستطيع أن يدرك لأول وهلة أنه كان عضواً في فرقة الممتازين... وعقب هذا الاستعداد العلماني وهذه التربية في البلاط دخل خدمة أمون بصفته كاهناً «وعب». ولكن بعد أربع سنوات فقط انتقل إلى كهنوت اسمى ظلّ فيه أبا للإله مدى اثنتي عشرة سنة. وفي سنّ السابعة والثلاثين صار نبياً ثالثاً، وفي سن الثانية والخمسين أصبح نبياً ثانياً، وأخيراً جعل منه أمون وهو في سن الرابعة والستين نبيه الأوّل، أو بمعنى آخر كاهنه الأكبر. وقد ظل يشغل هذه الوظيفة مدى سبعة وعشرين سنة. وقد استطاع أن يردّ للإله فضله ـ كخادم أمين ومحترم للإله الذي نشأه كابن له ـ وذلك عن طريق المباني الفخمة التي نفذها باسم الملك. وهو يفخر بأنه كان أباً لمرءوسيه، وأنه كان يمدّ يده للبؤساء، وأنه كان ينال تقديره الفقراء كالأغنياء، وأنه كان يعطي لكلّ ما يستحقه، وأنه اهتمّ بجنازة من لا أولاد له، وحمى الأرامل والأيتام، وثبّت للإبن وراثة أبيه، وأنه أصغى إلى من كان يقول الصدق، وإنه أبعد ذوي السيرة السيئة.

ولقد كانت هذه هي الفضائل التي اعتاد أمراء المقاطعات أن يفخروا بها في كل عصر، والتي كان يستطيع كاهن أمون الأكبر أن يباهي بها. ألم تكن

(١) مأخوذ من تمثال ميونخ الذي قارنه Lefebure بتمثال آخر في القاهرة.

تحت إمرته إدارة متسعة جدّاً؟ ومهما كان ناقصاً ما لدينا من سجلات فإننا نعرف ما لا يقل عن مائة لقب لموظفين وخدم أمون[1].

وكان الناس الذين يديرون ثروة أمون وحقوله وقطعانه وثرواته من طبقة عالية جداً، وكان لكل منهم كتابه وموظفوه الخاصون، وكان هناك كذلك المعمارون والنقاشون والنحاتون، كما كان هناك قائد جيوش أمون وضباطه وكل الموظفين المكلفين بتجهيز التقدمات والأطعمة من خبازين وطباخين وحلوانية وصناع الجعة والكرامين والمزارعين ومجهزي الزيوت والبخور. وكان هناك النساجون والغزّالون والصباغون والحلاقون والأطباء. ويجب ألا نهمل ذكر الموظفين المكلفين برعاية وإدارة عقار أمون كموظفي المساحة ووكلاء صوامع الغلال ورؤساء الفلاحين والطحانين وصيادي الوحوش والسمَّاكين، وبالاختصار كان هناك في الواقع جيش حقيقي في خدمة أمون.

وإننا نستطيع أن نكوّن فكرة صحيحة عن ثروة أمون، طبقاً لأرقام مستند عجيب وضع في قبر رعمسيس الثالث (١١٩٨ ـ ١١٦٦ ق. م)[2]، وكان أمون يملك طبقاً لهذه البردية من بين ما كان يملك من أشياء أخرى: ٨١٣٢٢ عبداً، ٤٢١٣٦٢ رأساً من الماشية، ٦٥ مقاطعة، ٤٣٣ حديقة، ٨٦٨١٦٨ أورورا من الحقول، ٩٣ قارباً، ٤٦ مصنعاً، ويأتي بعد ذلك ٥١٦٤ تمثالاً إلّهياً، ومما يدعو إلى الدهشة أنها كانت تعتبر ضمن هيئة الإدارة.

ويمكننا أن نضيف إلى رأس المال المذكور الثابت الضرائب السنوية المفروضة على ما يلي: خلال الـ ٣١ سنة من حكم رعمسيس الثالث زادت ثروة الإله بمقدار ٥١ كيلو جراماً من الذهب، ٩٩٧ من الفضة و ٢٣٩٥ من النحاس، وكذا ٣٧٢٢ قطعة من الملابس إلخ. . .

---

(١) La liste dressée par Lefebure: Grande Prêtres P. 41 ss.

(٢) Pap. Harris; cf. pour les passages auxquels il est fait allusion ici; Erman: Sitz, Ber. Berl. Akad. (1903) p. 14 ff.

في الحقيقة ليس من السهل تقدير هذه الأرقام، لأننا نجهل إن كانت العائلات كانت تحصى بكامل أفرادها، أم أن هذه الأعداد تمثل الرجال وحدهم. وبالمثل فإننا لا نعرف المعنى الذي تشير إليه كلمة «مقاطعة»، ونفس الصعوبة نلقاها فيما يخصّ الحقول والماشية. ومع ذلك فإننا نستطيع أن نذكر أنه كانت هناك ثروة طائلة، لأن الحصول لم تكن تقلّ مساحتها عن ٢٣٩٣ كيلو متراً مربعاً[١].

ولعل الأمر يكون أكثر وضوحاً إن نحن قارنا ثروة أمون بما يتصل من إشارات للمعابد الأخرى الكبيرة، فلم يكن لهليوبوليس سوى ١٢٩٦٣ من الرعايا، ١٦٠٠٨٤ أورورا من الحقول. كما أن منفيس كان لها من الرعايا ٣٠٧٩، ومن الأورورا ١٠٠٤٨. وهكذا كان أمون يمتلك ستة أمثال رعايا هليوبوليس وستة وعشرين ضعفاً لمنف. وبالنسبة للحقول كان لأمون خمسة أمثال هليوبوليس، و ٨٦ ضعفاً أكثر من منفيس ولم تكنن هذه الثروة هائلة بهذه الصورة دائماً، بل إن كثيراً من العطايا التي كانت تقدم لأمون كانت تفقد، مثل المدن السورية الثلاثة التي أهداها إياه تحوتمس الثالث في غزواته. وبالمثل كانت سلطة الكاهن الأكبر تحدّها الدولة أحياناً. ونستطيع أن نتصوّر أن السلطة المدنية كانت تتعارض دائماً مع السلطة الدينية. فكان الكهنة مكبوتين حين تقوم حكومة قوية... وأما في عهد الحكومات الضعيفة فإن سلطة الكاهن الأكبر كانت تزداد[٢]، ومن المؤكد أن الأمر لم يكن محض صدفة إن نحن وجدنا في فترة المشاحنات على العرش التي أعقبت موت تحوتمس الأول (١٥٠١ ق. م) كاهناً أكبر لم يكن نبي أمون الأول ومدير كل أعماله وأملاكه فحسب، بل وأكثر

(١) لسنا نعرف على التحقيق في أي عصر بالغ الملوك في زيادة أملاك آمون إلى حد الإفراط على هذا النحو، على أن هناك أمراً واضحاً، وهو أنه منذ الأسرة التاسعة عشرة لم يبقَ هناك مساحة كبيرة من الأرض في مصر يستطاع أن توهب إلى الآلهة حتى إنه حين أقام سيتي الأول (حوالي ١٣٠٠ ق. م) معبده الضخم في أبيدوس اضطر أن يهبه أرضاً في النوبة (انظر الفصل العشرين).

(٢) إن كل ما يلي منقول Lefebure, Grands Prêtres ما دام ليس له ذكر في مصادر أخرى.

من ذلك رئيس المعابد وكل أنبياء البلاد جميعاً. . . وبالتالي الرئيس الأعلى للكنيسة المصرية. وعلاوة على ذلك كان لهذا «حابوسنب» وظائف علمانية ضخمة جداً، فهو وزير وحاكم الجنوب، وهناك ألقاب أخرى في البلاط ترينا أية شخصية عظيمة كانها ذلك الرجل.

وفي الواقع لم يكن لكل الكهنة العظام هذه السلطة الفائقة، وكان الاستمتاع بثروة أمون محدوداً في بعض الأحيان، ولم يكن لجميع الكهنة العظام السلطة العليا على مجموعة الكهنة(١).

ويبين لنا أحد النقوش من عهد رعمسيس الثاني أن الملك كان له أن يبدي رأيه في اختيار الكاهن الأكبر، وهو اختيار كان يرجع من الناحية الرسمية، إلى الإله وحده، وفي السنة الأولى من حكمه ظلت وظيفة الكاهن الأكبر شاغرة، وقد شغله الملك بنفسه(٢) وأدار حقله عيد أويت بصفته النبي الأول، ثم شغل باختيار كاهن أكبر جديد فدعي أمام أمون رجال البلاط جميعاً وأنبياء كل الآلهة وكبار رجال بيته وقائد الجيوش، وكل الذين كانوا مجتمعين أمام وجهه، ولكن أمون لم يوافق على واحد من بينهم إلا حينما ذكر الملك اسم «نب ـ أوننف» أمامه فوافق أمون. وكان نب أوننف، نبياً أول لأونوريس، ونبياً أول لحاتحور دندرة. وعند عودته من العيد نزل الملك في ثيس وأعلن لنب أوننف اختياره، فصار منذ ذلك الوقت نبياً لأمون، وستكون إدارة أمون كلها بين يديه، وقد انتشر هذا النبأ في البلاد جميعاً عن طريق رسول خاص. وقد منح الملك ابن نب أوننف وظيفة أبيه ككاهن أكبر لدندرة(٣).

ونحن نروي كيف أدار الملك أمر اختيار أمون. . . فقد وقع حقاً على

---

(١) في عهد الهرطقة انتقلت هذه السلطة إلى الوزير، انظر Lefebure, Grands Prêtres, p. 114.

(٢) منقولة عن نقوش وجدها لجران في الكرنك cf. Sethe, Æ. Z., 58,54.

(٣) Sethe: Æ. Z. 44, 30 ss.

رجل كانت للملك فيه ثقة خاصة. وكان هؤلاء الذين يختارهم الملك يدركون تماماً أن وظائفهم ترفعهم أكثر بكثير عن باقي الأفراد، وأن لهم الحق في تشريف أكثر مما يناله غيرهم.

وفي آخر الأسرة التاسعة عشرة نرى أن الكاهن الأكبر «روم» المسمى «روى» يفرض نفسه بطريقة غير معهودة، فقد قام بتوسيع منزل الكاهن الأكبر الذي لا يبعد كثيراً عن البحيرة المقدسة، والذي كان قد قام ببنائه سيزوستريس الأول (١٩٥٠ ق. م) وقد مثل نفسه في هذا الجزء من المعبد حيث كان من المعتاد أن يسمح بصورة الملك وحدها أن تظهر في المعبد، وبعد نصف قرن تقريباً ـ في عهد رعمسيس التاسع ـ نجد في نفس الجزء من المعبد صوراً تمثل كاهناً أكبر أكثر غروراً من هذا. وهي تبين الكاهن الأكبر أمنحتب يسبغ الملك عليه تكريماً لا حدّ له ورعاية عجيبة[1]، وهو يمثل ـ بعكس المعتاد في النظام المصري ـ في نفس الحجم للملك، بينما تظهر الشخصيات الأخرى في اللوحة صغيرة. ولنلاحظ كذلك أنه هو الكاهن الأكبر الذي يقوم بالتقدمة لأمون وليس الملك. وفي النقوش يفخر أمنحتب ببنائه مبنى ضخماً، وأنه جدد مسكن الكاهن الأكبر في كل روعته وبهائه. بل هو يقصّ علينا أمراً أشدّ خطورة من ذلك، هو أن كل ضرائب أمون التي كان يتسلمها حتى ذلك الوقت بواسطة الملك لم يعد الإله يتسلمها عن ذلك الطريق إذا استطعنا أن نفهم الموقف تماماً كان هناك صراع من ناحية الكهنة يهدّد سلطة الدولة. والواقع إن خليفته الكاهن الأكبر حريحور وضع حداً لهذه الحكومة المزدوجة واستطاع أن يعتلي العرش كما سنرى ذلك في الفصل الثامن عشر.

---

(١) وقد قدم له الملك كذلك هدايا ذات قيمة كبيرة.

الفصل الرابع عشر

العقائد الجنازية

لئن كان الشعب المصري يختلف في شيء عن غيره من الشعوب، فإنما ذلك في العناية التي كان يوجهها إلى موتاه[١]. فقد كان اليهود أو الإغريق لا يتحدّثون كثيراً عن مصير موتاهم، بل لقد كانوا يتحرّجون من الحديث عنهم، على حين كان المصريون يفكرون فيهم بغير انقطاع، ولا يدّخرون وسعاً في العناية بهم والاهتمام بسعادتهم، كما كانوا يودون ألا تفنى ذكراهم[٢]. ومن المحقق أنه لم يكن لهذه العناية من سبب في بداية الأمر غير السبب الطبيعي الذي تشترك فيه الإنسانية عامة، ألا وهو حبّ الأهل وذوي القربى. فكما تجب رعاية المسنين والأطفال الذين لا يستطيعون العناية بأنفسهم، فإن من الواجب كذلك رعاية الموتى المساكين الذين لا عون لهم. حقاً لم يكن في الاستطاعة أن تكون قبورهم أكثر من حفر بسيطة لسكناهم، ومع ذلك فقد كان في الإمكان أن يودع فيها سائر ما يحتاجون إليه من طعام، وما يدخل على قلوبهم البهجة

---

(١) من الممكن أن تكون هذه العناية قد نشأت من استقرار المصريين في بلادهم منذ أقدم الأزمنة.

(٢) لا ينبغي أن نسوي بين هذه العناية بذكرى الموتى وبين الفخر بالأجداد العظام مما يميز كذلك بعض الشعوب الأخرى، وذلك لأنه منذ انتشار الكتابة في مصر لم يكن حتى الصعلوك من الناس ليدخر وسعاً في «إحياء» أسماء ذوي قرباء ممن لم يكونوا أقل منه خمولاً في الذكر.

والسرور، وهو ما نجده في مقابر ما قبل التاريخ في مصر.

على أن الأمر في مصر لم يقف عند حدّ هذه العناية البسيطة بالموتى، وإنما أخذت هذه العناية تزداد بازدهار الحضارة المصرية، حتى بلغت حدّ المغالاة والسفه. أجل لقد شيدت شعوب أخرى لعبادة الآلهة أو للأغراض العملية من العمائر ما يمكن أن يضارع عمائر مصر الضخمة، غير أنه ليس في العالم مقابر تماثل الأهرامات العظيمة، أو المقابر المحفورة في الصخر في طيبة، كما أنه لم تودع في مقابر الموتى في أيّ مكان آخر ودائع وافرة قيّمة بمثل ما أودع في مقابر المصريين. ولم يكن الشعب المصري ليبذل مثل هذه الجهود مدى ثلاثة آلاف سنة، لو لم تكن قد نشأت تدريجياً إلى جانب العامل الأصلي، وهو التقوى، عوامل أخرى تتجلى فيما تصوّره المصريون عن العالم الثاني وعن حياة الموتى، وهي تصوّرات لا يزال من الممكن ترسمها في الأدب الجنازي القديم الذي تخلف لنا بكثرة لا تكاد تحصى.

وهو في الحقّ ليس أدباً بالمعنى المعتاد، أو هو كذلك في أصغر أجزائه فقط، إذ أغلبه أوراد قصيرة أو طويلة، جرت العادة بتلاوتها عند إعداد الجثة ودفنها، وعند إطعام الميت وتقديم العطايا إليه، وعندما تراد حمايته من كل سوء بالدعاء والسحر.

وقد جرينا الآن على تقسيم هذه الأوراد إلى ثلاث مجموعات كبيرة، وذلك بالنسبة لعهد كل منها وأسلوب كتابتها، وهي «متون الأهرام»[١] التي ظهرت في مقابر ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة، و «متون التوابيت»[٢]،

(١) وهي معروفة منذ عام ١٨٨٠؛ وقد نشرها ماسيرو عام ١٨٨٢، ومعها ترجمة تدل على نبوغ كبير، ولكنها بطبيعة الحال غير صالحة لأن يعتمد عليها في الوقت الحاضر. وقد نشرها زيتا بتدقيق كبير .Leipzig; Heinrichs, 1908 ff. ولا يزال الأمر يحتاج إلى ترجمة جديدة.

(٢) وقد نشر بعضها لبسيوس ولاكو وغيرهما، انظر:
Lepsius, Aelteste Texte des Totenbuches; Lacau, Textes religieux ويعمل طائفة من الأمريكان والإنجليز على نشرها كاملة.

وكانت تكتب في الدولة الوسطى على الجدران الداخلية لكثير من التوابيت، و «كتاب الموتى»[١]، وهو أوراد كانت تكتب على قرطاس من البردى توضع إلى جانب الميت منذ الدولة الحديثة. ومع أن متون التوابيت وكتاب الموتى يتضمنان ـ على وجه التأكيد ـ كثيراً من الأوراد التي يرجع عهدها إلى أقدم العصور، إلا أن متون الأهرام هي التي احتفظت بالطابع الأصلي في أنقى وأصدق صوره. لهذا فإن علينا أن نتجه إليها قبل أيّ شيء آخر إذا أردنا أن نعرف أفكار المصريين في أقدم عصورهم عن الموتى وعن مصائرهم.

ومع هذا فلن نفيد من متون الأهرام جواباً واضحاً غير مبهم عن كل ما يعنّ لنا من أسئلة، وذلك لأن الأوراد التي تتألف منها ـ وهي أكثر من سبعمائة ورد، قد نشأت في مناطق مختلفة من مصر[٢]، كما أنها ترجع بالتأكيد إلى عصور مختلفة جدّ الاختلاف[٣]. بل لقد يشتمل الورد الواحد على موضوعات

---

(١) نشرها لأول مرة لبسيوس (سنة ١٨٤٢)، ثم قام نافيل بطبعها طبعة كاملة وفق كتابات الدولة الحديثة. وفضلاً عن ذلك فقد نشر كثير من نصوصه. ودرس جرابو وزيتا بعض أوراده.

(Grapow, Religioese Urkunden, Leipzig 1915 ff., Sethe, Æ. Z. 57,1 ff.).

وفي الدولة الحديثة كانت أوراد هذا الكتاب تكتب على أوراق بردية كأنها كانت تؤلف معاً كتاباً متسقاً، ولكن لم يكن لهذا من سبب، كما لاحظ لاكو بحق، غير أن الشكل العادي للتابوت في ذلك الوقت لم يعد يسمح بمكان مناسب لهذه الأوراد الكثيرة.

(٢) وعلى نحو ما لاحظ برستد (Breasted, Development) يبدو أن معظم هذه الأوراد نشأ في الوجه القبلي، وخاصة تلك الأوراد التي يعتبر فيها الوجه البحري بلاداً معادية (الأوراد ٢٣٩، ٢٧٤، ٥٧٤، ٦٨١). وعلى عكس هذا نشأ الوردان ٢٢١، ٥٠٨ في الدلتا، والورد ٣٠٧ (وغيره كذلك بالتأكيد) في هليوبوليس.

(٣) إن الأوراد المذكورة في الملاحظة السابقة التي لا يزال ملوك الوجه البحري وتيجانهم يبدون فيها كأنهم كائنات معادية، لا بد أن تكون قد نشأت في ذلك العهد السحيق الذي كانت فيه مصر لا تزال تتألف من مملكتين منفصلتين. أما في أغلب متون الأهرام فيمكننا أن نقول إنها كانت في أواخر الدولة القديمة ذات ماضٍ طويل، تعرضت فيه لتغييرات كثيرة. ولقد ظن بحق أن هذه التغييرات قد حدثت كذلك في العصر الذي سجلت فيه في =

غير متجانسة ولا متسقة، وذلك لأن الكهنة الذين «كانوا يرتلون الكلم»[1] عند المقابر كانوا يجرون في ذلك على نحو ما يجري في أيّ مكان آخر من العالم، فكانوا يرتلونه من الذاكرة بحيث كانوا يجمعون بمحض اختيارهم بين الآيات والعبارات التي تجري بها ألسنتهم في سهولة كبيرة، وذلك تقريباً على نحو ما يجمع رجال الدين الآن بين آيات التوراة وبين الأغاني الدينية. ولم يكن من المهم أن تكون هذه الآيات متجانسة دائماً في موضوعاتها تمام التجانس، طالما هي في مجموعها تتحدث عن أشياء متشابهة؛ وغاية ما كان يعني به أن يكون لما يتلى جمال ورنين موسيقى. ولم يكن مما يعيب أن كثيراً من هذه الأوراد المختارة ليست ـ بالتحقيق ـ معدّة في الأصل للموتى، فمن الأوراد ما تعلق بملك حي وبمدى سلطانه[2]، ومنها ما يبدو أنه كان يختص بالاحتفال بمدينة شيدها الملك[3]؛ ومنها أوراد ضد السباع التي لم يكن على الميت ألا يخشى بأسها[4]، غير أنها أضلت طريقها بين عزائم السحر ضد الأفاعي التي ربما كان للميت أن يخشاها في قبره.

وتدور الأوراد في متون الأهرام في مجموعها حول الملك المتوفى الذي ينبغي أن تعني الآلهة بشخصه المقدّس بعد موته؛ على أن من بينها كذلك أوراداً كثرة تدلّ في الأصل على مصير أكثر تواضعاً، فهي تتضمن ما يفيد بأن الميت يرقد في الأرض والتراب أو في الرمل[5]، أي أنه ليس له قبر من اللبن على نحو

= المقابر الملكية؛ أجل إنه يمكن أن تكون بعض المتون التي وردت في هرم نفر كارع، والتي تنقص في هرم أوناس قد نشأت في القرن الذي يفرق بينهما.

(١) يوجد هذا النص في مقدمة كل ورد للدلالة على أن الغرض إنما هو تلاوته.

(٢) الفقرة ١٨٣٧ من متون الأهرام.

(٣) الورد ٥٨٧، هل المقصود من ذلك المدينة التابعة للهرم؟

(٤) الأوراد ٢٨١، ٢٨٤، ٢٨٧ من متون الأهرام.

(٥) الفقرات ٦٥٤، ٧٤٧، ١٣٦٣، ١٧٣٢، ١٨٧٨، ٢٠٠٨ من متون الأهرام.

ما كان للملوك القدامى وغيرهم من الأشراف[١]. وهناك ورد آخر يُمتدح فيه الميت بأنه لم يذنب في حقّ الملك أبداً، وبهذا لا يمكن أن يكون الميت نفسه هو الملك[٢].

وفيما عدا ذلك، لقد حرفت متون الأهرام في بعض أجزائها بسبب ميول وأغراض خاصة، فقد أخذ أوزريس مكانة إله الشمس وإلهة السماء، وقد كانا من آلهة الموتى الأقدمين.

ومع هذه الصعاب جميعاً، فإن الأوراد الجنازية القديمة لا تكشف إلا عن القليل من التصوّرات الأولى، ولا يمكن أن يكون الأمر على غير ذلك، لأن أقدم ما نعرف من أوراد يرجع حقاً إلى عهد ذي حضارة معينة.

وكان معتقداً أن الموتى يقيمون في مقابرهم أو في عالم خاصّ بهم، وكان موتهم يفسّر بأن قوّة خاصة كانت تلازمهم في حياتهم، وتسمى «الكا»، قد هجرتهم. ويستقبل كل إنسان هذه «الكا» عند مولده، وذلك بأمر من الإله رع[٣]، وما دامت معه هذه الكا، وما دام هو «رب الكا» وأنه «يغدو معها»، فهو حيّ يرزق[٤]. ولئن كان أحد لا يستطيع رؤية هذه الكا، فالمعتقد أنه تشبه صاحبها تماماً. وقد ورد أنه عندما خلق إله الشمس في بداية نشأته أوّل إلهين، وذلك بأن تفلهما، فقد «وضع ذراعيه من ورائهما»، ففاضت عليهما الكا، التي كانت له، ودبت فيهما الحياة[٥]. ولا بد أن وضع الذراعين على هذا النحو كان

---

(١) يبدو هذا شيئاً مسلماً به في الفقرة ٥٧٢.

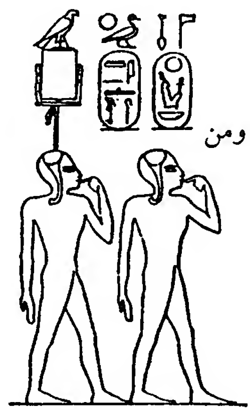
(٢) الفقرة ٨٩٢ من متون الأهرام.

(٣) Zauberspr. f. Mutter u. Kind, S. 26 - 27.

(٤) انظر الفقرة ٩٠٦ من متون الأهرام (أصحاب الكاوات = الأحياء) L. D. III. 16 e (كل الكاوات الحية = كل الناس)؛ أثر سبك حتب في اللوفر « إنه معافى وسعيد بما له من كا = إنه حي).

(٥) Mar. Abyd. tabl, 16.

ذا صلة بمنح الكا، لأن الذراعين الممتدتين كانتا رمزاً للكا منذ أقدم الأزمان. فإذا مات الإنسان هجرته الكا، على أنه كان يرجى منها أن تظل معنية بالجسد الذي سكنته أمداً طويلاً، وأن تكون إلى جانب الميت من وقت إلى آخر على الأقل، وأن تبادر إلى مساعدته إذا دعاها[١]؛ وقد جاء في كتابة متأخرة[٢]: «إنك تعيش سعيداً أبداً وبجانبك الكا التي لك، إنها لن تهجرك أبداً».



٨٣ ـ الملك أمنحوتب الثالث طفلاً ومن ورائه الكا (من معبد الأقصر)

لذلك كان ينعت القبر بأنه «دار الكا»، كما كانت تقدم الأطعمة وفقاً لصيغة القربان الشائعة إلى «كا» الميت. وقد طفقت تلك الفكرة الغامضة عن الكا تتطوّر فيما بعد، فكانت الكا تعتبر تارة كأنها كائن إلهي، كما يدل على ذلك رسم لفظها في اللغة المصرية القديمة، وتارة كأنها الملاك الحارس، الذي يهتم بالإنسان، ويعنى بأمره، وتارة كانت الكا هي التي تلد الإبن[٣]. وفي أحيان أخرى كانت «الكاوات الحية» تعبيراً رشيقاً يوصف به الناس[٤]؛ وتارة أخرى كانت الكاوات تعبر عن قوى الحياة، أي عن الأطعمة[٥]، أو كانت سائر النعم

(١) فقرة ٦٣ من متون الأهرام.

(٢) Urk. IV 499.

(٣) Prisse 7, 11 (Litt. S. 91).

(٤) Urk. IV. 245.

(٥) انظر مثلاً: Tall Amarna II, 7; III, 16; Harris I, 44.6.

التي يتصرف فيها إله الشمس. وفضلاً عن ذلك فقد كان لفظ الكا يحشر بكثرة في مختلف التراكيب والجمل.



٨٤ ـ الروح (برلين ٤٦٧٩)

وإلى جانب هذه الكا، التي ظلت دائماً كائناً غامضاً غير محدود، على كثرة دورانه على اللسان، فكر المصريون في الروح ـ وكانوا يسمونها «با» ـ وقد تصوّروها في مختلف الأشكال. وهي إذ كانت تترك الجسد، وتنفلت منه عند الموت، فقد تخيلوها عادة كأنها طائر. وربما تمثلوا الميت المبكي عليه بين الطيور التي تستقرّ على الأشجار التي غرسها بنفسه من قبل. وقد فكر آخرون في زهرة اللوتس التي تتفتح أكمامها وهي تطفو فوق سطح البحيرة أثناء الليل، فراحوا يتساءلون عن الميت: ألا يتمثل في هذه الزهرة؟ وفكر فريق آخر في الثعبان الذي يندفع من جحره قي غموض كأنه «ابن الأرض» أو في التمساح الذي يزحف من الماء إلى الأرض كأنه ينتمي حقاً إلى عالم الأرض. ومن ذا يعلم إن كانت الروح لا تستطيع أن «تتخذ هذه الأشكال» جميعاً «وما تريد» من أشكال كثيرة أخرى، وأنها لا تستطيع أن تستقرّ اليوم هنا وغداً هناك «في أيّ مكان تشاء»[(١)]؟

أما من كان يسرح بفكره إلى أبعد من هذا، ويتفكر في عالم الأحياء، وفيما يمكن أن يكون إلى جانبه من عالم آخر مماثل للموتى، فإنه لم يكن ليلبث

(١) لا سبيل إلى الشك في قدم هذه التصورات الشعبية وإن كانت لا تعرف إلا في كتاب الموتى (الفصول ٧٧ ـ ٨٨).

طويلاً حتى يخطر بباله أين ينبغي أن يوجد عالم الموتى هذا. إنه كان يرى الشمس كل مساء تغيب في الغرب لتبدو من جديد في الشرق عند الصباح، وعلى ذلك فلا بد أن تكون قد جابت في الليل عالماً سفلياً، أي سماء ثالثة من أسفل الأرض، لذلك كان من اليسر الادعاء بأن هذا العالم الذي لا يدخله الأحياء هو عالم الموتى. وعلى نحو ما تصنع الشمس ذهب الظن إلى أن الموتى يهبطون في الغرب ويعيشون في عالم مظلم، لا يتألق فيه نور، إلا إذا مضت من فوقهم الشمس في رحلتها بالليل. وقد شاع هذا التصوّر بين المصريين في وقت مبكر، وأدى إلى تسمية عالم الموتى باسم «الغرب»، وتسمية الموتى «بأهل الغرب». وقد تصوّروا أحد آلهة الموتى القديمة حاكماً على الغرب، وهو «أوّل أهل الغرب» أو سكر من منف.

وواقع الأمر أن واحدة من هذه الصور التي للحياة بعد الموت لم تكن لتعتبر نهاية سعيدة، فسواء قضى الإنسان حياته تحت الأرض أو فوق سطحها في أشكال مختلفة، فإن هذا لم يكن يعدو أن يكون وجوداً محزناً وحياة غير صحيحة. لهذا تساءل منذ وقت مبكر ذوو الأطماع الطامحون عن هذا المصير، أهو نهاية كل إنسان حقاً؟ لئن كان إلى جانب الجمع الغفير من الفقراء والمساكين على سطح الأرض أغنياء وأصحاب سلطان، فإن الجميع لا يمكن كذلك أن يتساووا بعد الموت. حقاً إنه لا بد أن يكون هناك وجود أفضل ومقرّ أحسن للأرواح الممتازة «التي ينبغي أن تعيش وفقاً لأمر الآلهة»[1]، وخاصة للملوك الذين كانوا يعتبرون في حياتهم كأنهم آلهة. لقد كان هذا المقرّ في السماء حيث تصوّر المصريون عالماً ثانياً للموتى، أطلقوا عليه اسم دوات، على أن هذا الإسم قد أصبح يطلق كذلك في العصور المتأخرة على عالم الموتى السفلي.

وكان المصريون يرون النجوم تجوب الليل في جلال سافر، تتميز به سماء

---

(١) متون الأهرام فقرة ٨٢١.

بلادهم، وكانوا يعرفون منها بعضها، مما كان له في نفوسهم وقع خاصّ كالشعرى اليمانية والجبار ونجمة الصباح؛ وقد ذهب الرأي بهم إلى أنها آلهة تركت الأرض على نحو ما فعل إله الشمس. أما هذا العدد الذي لا يتناهى من النجوم التي لا اسم لها، والتي تحيط بتلك النجوم القليلة فما عساه يكون؟ لا نزاع في أن هذه النجوم ما هي إلا موتى أو أرواح سعيدة وجدت طريقها إلى السماء حيث ظلت في سناء دائم إلى جانب الآلهة. لقد مدّ إليهم يده «الإله العظيم، سيد السماء» (أي الإله رع)، أو لقد أخذتهم إليها إلهة السماء[1] ونظمتهم بين «ما لا يفنى» من نجوم جسدها، وقد يتمثل الميت في شكل «ذلك النجم الوحيد الذي يشرق في الجانب الشرقي من السماء»[2]. والذي يجوب السماء في صحبة الجبار والشعرى اليمانية[3].

ولم يلبث أن شغل خيال الشعب في حيوية وافرة بتزويق فكرة الوجود السماوي للموتى الممتازين. وفيما يلي من متون الأهرام ما يعرض مدى ما نشأ عن ذلك من صورة مرقشة متناقضة.

فالميت يطير في شكل طائر إلى السماء: «إنه يغدو إلى السماء كالصقور وريشه كريش الإوز[4]؛ إنه يندفع إلى السماء كالكركي، ويقبّل السماء كالصقر، ويقفز إلى السماء كالجرادة[5]. وهكذا يطير من بينكم أيها الناس، إنه لم يعد على الأرض إنه في السماء[6]، إلى جانب إخوته الآلهة»، حيث تمدّ إليه إلهة السماء يديها. «أي رع، إنه عندما يصعد نحو السماء إليك برأس صقر وجناحي

---

(١) ولما كانت نوت تعتبر كذلك حامية للموتى فقد كان يوجد في الدولة القديمة كهنة «لأنوبيس ونوت» انظر L. D. II, 18 ff.; Kairo 1431.

(٢) متون الأهرام فقرة ٨٧٧.

(٣) متون الأهرام، فقرة ٨٢١ ـ ٨٢٢.

(٤) متون الأهرام، فقرة ٩١٣.

(٥) متون الأهرام، فقرة ٨٩١.

(٦) متون الأهرام، فقرة ٨٩٠.

إوزّة. . . فإنه يحرّك الذراعين كالإوزّة، ويضرب بجناحيه كالطائر. أيها الناس، إنه يطير من يطير هناك، وهذا يطير عنكم[١]. وفي السماء تقيمه الإلهة نوت عليها «نجماً لا يفنى»[٢]، إنها هي التي صنعت حياته، إنها هي التي ولدته؛ إنه في الليل يُحمل به، وفي الليل يولد؛ إنه ينتسب لأولئك الذين يقفون من وراء رع، ولأولئك الذين يقفون من أمام نجمة الصباح[٣]. إنه يبحر إلى الجانب الشرقي من السماء، إلى المكان الذي تولد فيه الآلهة، والذي فيه يولد هو معهم، متجددة قواه، عائداً إلى الشباب»[٤].

أجل إنه يلتقي بضروب مختلفة من الآلهة والنجوم تستطيع اعتراض سبيله، على أن أحداً لا يستطيع أن يصدّه عنه: «فليس هناك إله يمسكه دون سبيله، وليس هناك معترض يعترضه في طريقه»[٥]. وقد يسأله ثور عظيم وهو يهدده بقرنيه: «أين يذهب إذن؟» فيكون الجواب على ذلك: «إنه يذهب إلى السماء وقد مليء بقوى الحياة ليرى أباه، ليرى رع»، وبهذا يدعه ذلك الكائن المخيف يمضي إلى سبيله[٦]. ويتلقى إله الشمس، ساكن السماء الجديد في عطف ومودّة، ويقول له: «إني أمنحك منطقك وجسدك، وإنك لتتخذ شكل آله»[٧]، «ويجعل جسده يضيء» كأجساد أهل السماء[٨]، ثم يدعه يجذف في سفينته الخاصة[٩]، أو يهيء له مكاناً في «مقدمها ويبحر به القائمون على الدفة

---

(١) متون الأهرام، فقرة ٤٦١ ـ ٤٦٣.
(٢) متون الأهرام، فقرة ١٣١ ـ ١٣٢.
(٣) متون الأهرام، فقرة ٣٥٣.
(٤) متون الأهرام، فقرة ١٢٣٧.
(٥) متون الأهرام، فقرة ٩١٤، ٩١٥.
(٦) متون الأهرام، فقرة ٧٦٢.
(٧) دعاء الشمس في Mar. Abyd. II, 14.
(٨) متون الأهرام، فقرة ٨٨٩.

الذين يبحرون برع»[1]؛ وقد يجعله على رأس مجذافيه[2]، بل قد يطرد كاتبه السماوي الخاص، ويجعل الميت «في مكانه»[3]، «ليقضي ويكون فيصلاً، ويعطي الأمر إلى من هو أعظم منه»[4]. وهكذا يبحر عبر السماء رفيقاً لإله الشمس، «فيبتهج كل إله عندما يدنو»[5]. وحتى تحوت إله القمر فإنه يعين الميت مثل هذا العون، فيأخذه في سفينته بالليل وهكذا «يجوب السماء مثل رع، ويجوب السماء مثل تحوت[6]».

هذه المغالاة في تصوّر ما للميت الممجّد من سلطان في السماء، كما يتجلى في كثير مما سقناه من عبارات، تطالعنا في صورة أقوى في أوراد أخرى من متون الأهرام، فالملك المتوفى ليس بإنسان، إذ «آباؤه ليسوا من البشر، وأمهاته لسن من الناس»[7]، وإنما هو بعبارة بسيطة إله، إنه تحوت «أقوى الآلهة»[8]، أو هو «أونج (أي شو) ابن رع، الذي يحمل السماء ويتزعم الأرض ويقضي بين الآلهة[9]. طوبى للّذين يرونه وهو متوّج بحلية رع وعليه نقبته كحاتحور[10]. إنه يغدو إلى السماء فيجد رع واقفاً... فيجلس إلى جانبه، ولا

(١) متون الأهرام، فقرة ٧١٠ ـ ٧١١.
(٢) متون الأهرام، فقرة ٩٢٣.
(٣) متون الأهرام، فقرة ٩٥٤ ـ ٩٥٥.
(٤) متون الأهرام، فقرة ٧١٢، ٧١٣.
(٥) متون الأهرام، فقرة ٩٢٣.
(٦) متون الأهرام، فقرة ١٣٠.
(٧) متون الأهرام، فقرة ٨٠٩.
(٨) متون الأهرام، فقرة ١٢٣٧ ـ إن من يرَ في هذه التمجيدات المسرفة للميت المبرور «رقىً سحرية»، من شأنها أن تجعل من الملك المتوفى إلّهاً، فإنه يخطىء فهم الطابع الشعري لهذه النصوص. وتعاويذ الثعابين في متون الأهرام تعرفنا بما فيه الكفاية كيف تبدو رقى السحر الحقيقية.
(٩) متون الأهرام، فقرة ٩٥٢.
(١٠) متون الأهرام، فقرة ٥٤٦.

يسمح له رع بأن يرتمي على الأرض، لأنه يعلم حقاً أنه أعظم منه»[١]، كما يعلم أن هذا «الممجد الذي لا يفنى» هو ابنه، فيبعث الرسل من الآلهة ليعلنوا إلى سكان السماء، أنه قد ظهر لهم ملك جديد: «أي ست وتفتيس! أسرعا وأعلنا إلى آلهة الجنوب وممجديهم: «قد أتى ممجد لا يفنى»، إنه إذا شاء لكم الموت فإنكم تموتون. وإذا شاء لكم الحياة فإنكم تعيشون». وعلى نحو مماثل ينبغي أن يتجه أوزيريس وإيزيس إلى الشمال وتحوت إلى الغرب وحورس إلى الشرق، ثم يقال بعد ذلك: «أي رع أتوم، إن ابنك يغدو إليك، إنه يغدو إليك، إنك تسكنه عندك وتضمه بين ذراعيك، إنه ابنك من جسدك إلى الأبد»[٢].

وتصحو الآلهة من نومها مذعورة: «من الطائر العظيم الذي يأتي من النيل، من الإله ابن آوى الذي يخرج من شجرة الأتل»[٣]، وذلك لأن الميت قد ظهر بينهم فجأة كما يخرج الطائر من الماء، وكما يمرق ابن آوى من الأجمة.

ويبلغ الإغراق في المغالاة أبعد مداه في النصّ التالي[٤]، الذي يصوّر فيه الخيال الجامح الميت كصائد يتصيد نجوم السماء، ويلتهم الآلهة والممجدين: «إن السماء لتمطر، وإن النجوم لتصطرع، والسهام لتضلّ طريقها هنا وهناك، وعظام أكرو ترتجف... وقد رأته يبدو وله روح كأنه إله، يعيش على آبائه ويتغذّى بأمهاته... إن جلاله في السماء، وقوّته في الأفق، على نحو أبيه أتوم الذي ولده، إنه ولده أقوى منه هو نفسه... إنه هو الذي يتغذّى بالبشر، ويعيش على الآلهة، يصيدها له القابض على الهامات والإميثكحاو، ويحرسها ويسوقها إليه ذو الرأس الجليل، ويقيدها له حري - تروت، ويطعنها له ويستخرج ما في

---

(١) متون الأهرام، فقرة ٨١٢ - ٨١٣.
(٢) متون الأهرام، فقرة ١٥٣ - ١٦٠.
(٣) متون الأهرام، فقرة ١٢٦.
(٤) متون الأهرام، فقرة ٣٩٣ وما بعدها - أكرو هو إله للأرض، أما الكائنات الأخرى المذكورة هنا فهي كما هو واضح بروج النجوم، وربما كان المقصود بالأقواس قوس قزح.

بطونها الراكض ذو السكاكين العديدة. . . ويقطّعها له شسمو، ويطبخ منها في قدور المساء. إنه هو الذي يأكل سحرهم، ويبتلع أرواحهم. إن كبارهم لطعامه في الصباح، وأوساطهم لأكلة المساء، وصغارهم لعشائه بالليل. أما الشيوخ والعجائز منهم فلوقوده، على حين يُلقى عظماء السماء الشمالية النار من تحت القدور، التي تحتوي على أفخاذ شيوخهم». وهذا الطعام الكريه يفيده، لأنه «يأكل أحشاءهم المكتظة» فينعم بالشبع، ويأكل قلوبهم وتيجانهم، فيكسب بذلك قوّتهم، «ويستقرّ سحرهم في جسمه، ويبتلع عقل كل إله» ـ وهذه كلها تصورات لها ما يماثلها عند أكلة لحوم البشر.

وهذه الأوهام بطبيعة الحال إمور شاذّة، بل إنه لمن الصعب أن نعتبر الاعتقاد في مصاحبة المتوفى للإله رع في سفينة الشمس، على كثرة وروده، اعتقاداً شعبياً حقاً. فحسب العقيدة الشعبية يتخذ الممجدون في الغالب مقرّاً ثابتاً «على الجانب الشرقي للسماء في الجزء الشمالي بين ما لا يفنى»[(١)]، أو «عند الممجدين الذين لا يفنون والذين هم في شمال السماء»[(٢)] أو «في شرقي السماء»[(٣)]. ولعلّ المصريين قد قصدوا بذلك منطقة القطب الشمالي الواقعة في الشمال الشرقي، والتي يمكن اعتبار نجومها مما «لا يفنى» حقاً، لأنها لا تختفي كغيرها من السماء[(٤)].

وزاد الشعب في صورة مقرّ الأبرار، فتصوّره كأنه مجموعة من الجزر تحيط بها المياه المختلفة؛ ومن السهل أن يتصوّر الإنسان أن نهر المجرة الباهت اللون، الذي تحيط شعابه مساحات قاتمة، هو الذي أوحى بهذا التصوّر. وتسمى إحدى هذه الجزر «حقل الأطعمة»، وهي بهذا الإسم إنما تدل على أن الطعام فيها وفير، ومن ثم يستقر فيها الآلهة والمخلدون، وأزكى منه شهرة «حقل

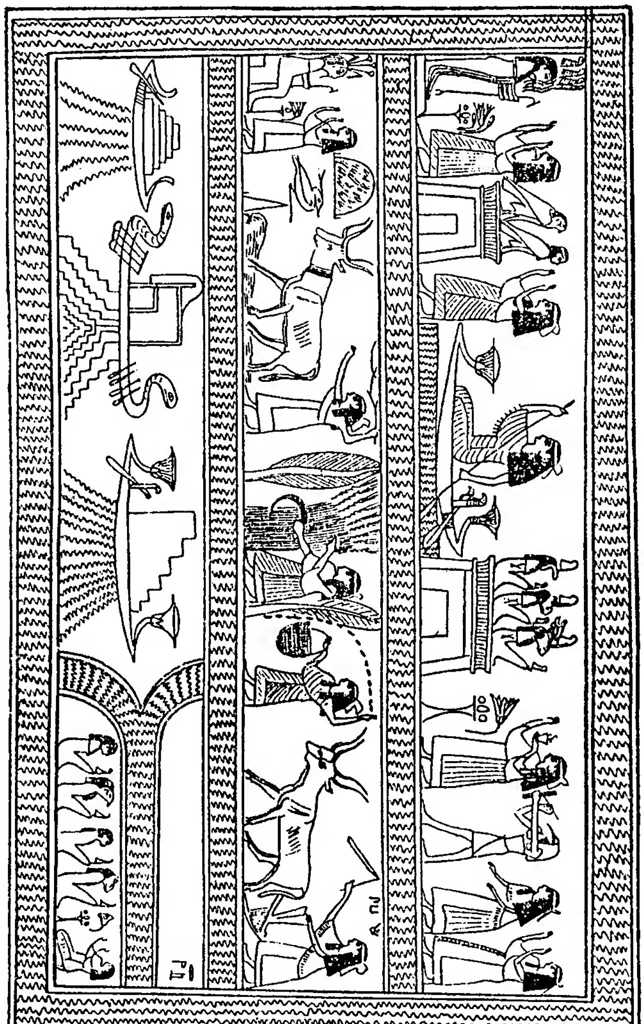
---

(١) متون الأهرام، فقرة ١٠٠٠.
(٢) متون الأهرام، فقرة ١٢٢٠.
(٣) متون الأهرام، فقرة ٩١٦.
(٤) وفق ما أخبر به بورخارت.

يارو»، وهو حقل الأسل الذي ظلّ المصريون حتى عصورهم المتأخرة يعتبرونه مقرّ الممجدين. ومما لا يحتاج إلى بيان أن المصريين قد تصوّروا هاتين الجنّتين على شاكلة بلادهم نفسها، إذ يغمرهما الفيضان ويزدهر فيها الزرع بما يوفر للموتى طعامهم، وذلك لأن الآلهة والممجدين في السماء لا يستطيعون كذلك الحياة بغير طعام. وفي الشرق من السماء «شجرة الجميز السامقة، التي تجلس عليها الآلهة[1]، وهي شجرة الحياة التي يعيشون عليها[2]»، والتي يغذّي ثمرها الأبرار أيضاً. إلى جانب ذلك فإن إلهات السماء تزوّد الميت بطعام أصرح طهراً وبراءة، فإذا أتى إلى نوت أو الحية التي تحمي الشمس، تحييه كل منهما كأنه ابنها، «وتعطف عليه وتدني له ثديها لترضعه»، وهكذا يعيش ويعود من جديد «طفلاً». وهو يذهب «إلى والدتيه الرحيمتين ذواتي الشعر الطويل والثُّدِيّ الناهدة، واللتين تجلسان على جبل سحسح، فتمدان ثديّهما إلى فمه ولا تفطمانه أبداً»[3]. على أن الذي لا يستطيع التخلي عن عادات عالم الأرض، له أن يطمع في أطعمة آخرى وفي حياة طبيعية «إنه يتلقى نصيبه مما في شونة الإله العظيم، ويلبس من الثياب ما لا يفنى»، وله من الخبز والجعة ما يبقى أبداً[4]: «وهو يأكل وحده خبزه»، ولا يضطرّ لأن يعطي منه شيئاً إلى «ذلك الذي يقف من ورائه»[5]، «وطعامه بين الآلهة وشرابه النبيذ على نحو شراب رع»[6]، «وإن يأكل رع يعطه، وإن يشرب يعطه مما يشرب. إنه ينام كل يوم في صحة وعافية... إنه اليوم أفضل منه أمس»[7]. وهكذا يطيب الأمر «للممجدين أولى الفم[8]

(١) متون الأهرام، فقرة ٩١٦.
(٢) متون الأهرام، فقرة ١٢١٦.
(٣) متون الأهرام، فقرة ٩١١، ٩١٢، ١١٠٩.
(٤) متون الأهرام، فقرة ١١١٨.
(٥) متون الأهرام، فقرة ١٨٢، ١١٧٧.
(٦) متون الأهرام، فقرة ١٢٢٦.
(٧) متون الأهرام، فقرة ١٣٠.
(٨) متون الأهرام، فقرة ١٢٣، ١٢٢.

الموهوب»[١]، إنهم لن يضطروا «لأن يأكلوا الجوع ويشربوا العطش»[٢]، ولن يخشوا أن يرغموا يوماً على أن يأكلوا العذرة مما كان يثير عند المصريين دائماً الخوف والفزع[٣].



٨٥ - حقل يارو، من بردية جنازية لسيدة وقد مثلت عليها وهي تفلح الأرض وتمخر عباب الماء وتدعو الآلهة (برلين ٣٠٠٨).

(١) متون الأهرام، فقرة ٩٣١.
(٢) متون الأهرام، فقرة ١٣١.
(٣) متون الأهرام، فقرة ١٢٨.

على أنه لم يكن من اليسير أن يوفق كل إنسان في بلوغ حقول الأبرار تلك ماراً «بالطرق الجميلة التي في السماء»[(١)]، وذلك لصعوبة اجتياز المياه التي تحيط بها؛ لهذا كان من الناس من كان يأمل في عطف الطيور المقدسة كصقر حورس وأبي منجل ـ وهو الطائر المقدس للإله تحوت ـ راجياً أن تنقله إلى هذه الحقول: «يا مخلبي حورس، ويا جناحي تحوت، اعبرا به ولا تتركاه دون أن يعبر!»[(٢)]. ومنهم من كان يرجو أبناء حورس، الذين تحدثنا عنهم آنفاً صفحة ١١٥، أن يأتوا له بقارب[(٣)]، أو يتجه إلى إله الشمس نفسه ليعبر به في سفينته[(٤)]. غير أن أغلبهم كان يعتمد على نوتي يسمى «الملتفت إلى ورائه» و «المستدير بوجهه»، وذلك لأنه إذا وقف في مؤخر قاربه ليحرّك المجذاف اضطرّ إلى أن يدير رأسه. وهذا النوتى هو الذي يعبر بالآلهة في قاربه[(٥)]، وهو الذي يقوم كذلك للميت بهذا الصنيع. على أنه في واقع الأمر لا يؤديه لكل إنسان، لأن «نوتي حقل يارو» هذا لا ينقل غير «الرجل القويم الذي لا قارب له» والذي وجد مقسطاً «أمام السماء والأرض» وأمام الجزيرة نفسها[(٦)]. وفي هذا أثر ملحوظ للشعور الخلقي في ذلك الزمن القديم، ومع ذلك فهذا الأثر ليس بالوحيد من نوعه في متون الأهرام. فإذا قيل عن الميت إنه «ما من شرّ ارتكبه» فإن هذه العبارة تصعد إلى إله الشمس، فيستقبله استقبالاً حسناً[(٧)]. «وإذا لم يتقوّل السوء على الملك» ولم يحتقر الآلهة فإن في هذا أيضاً ما يزكيه في السماء[(٨)]. ومع هذا فإن الآلهة تتطلب عادة من الزميل الجديد في السماء طهارة

---

(١) متون الأهرام، فقرة ٨٢٢.
(٢) متون الأهرام، فقرة ١١٧٦.
(٣) متون الأهرام، فقرة ١٢٢٧.
(٤) متون الأهرام، فقرة ٦٠٧.
(٥) متون الأهرام، فقرة ٣٨٣.
(٦) متون الأهرام، فقرة ١١٨٨.
(٧) متون الأهرام، فقرة ١٢٣٨.
(٨) متون الأهرام، فقرة ٨٩٢.

الجسد أكثر من غيرها، وهي نفسها تساعده في هذا السبيل. فالآلهة التي تشرف على المياه الجائشة في إليفانتين تظهره بأربعة قدور من الماء[1]، أو «إنه يغتسل مع رع في بحيرة يارو، ثم يجفف حورس جسده، ويجفف تحوت قدميه»[2].

وإلى جانب التصوّرات التي عرضناها هنا عن الحياة بعد الموت ظهر تصوّر آخر لم يكن له في البداية إلا مركز ثانوي، غير أنه لم يلبث مع الزمن أن ساد سائر ما عداه، ألا وهو عقيدة الإله المتوفى أوزيريس، الذي غدا ملكاً للموتى أجمعين، ومثالاً يحتذونه[3].

وقد رأينا فيما مضى ما حاكته الأسطورة حول إله أبو صير القديم وكيف أصبح مصيره المؤثر ـ من موته وبعثه ـ شائعاً بين سائر المصريين، عزيزاً على قلوبهم، حتى لقد برز أوزيريس في كل مكان على آلهة الموتى القديمة أو حلّ مكانها، وغدا الملك الوحيد للمتوفين جميعاً وسيد مملكة الموتى. على أنه وجِد في أبيدوس وطناً ثانياً، حيث أخذ يقوم بدور «أول أهل الغرب»، ومن ثم غدت هذه البلدة مركز عبادته.

ولم يكن قيام ملك على الموتى بالأمر الجوهري، وإنما الأثر الحاسم على تطوّر العقائد الجنازية في مصر يتجلى في أن المصريين قد رأوا في الوقت نفسه في الإله الميت مثالاً للشخص المتوفى[4]. فالرجل الذي كان يدفن في الأرض إنما يلقى المصير نفسه الذي تلقاه الإله، فقد اضطرّ هو كذلك رغم أنفه إلى أن ينفصم عن الحياة وأن يخلف وراءه زوجته وأولاده. ألم يكن لمثل هذا الرجل أن يرجو أن يكون ما يلقاه بعد ذلك مماثلاً لما تلقاه الإله؟ «فكما أن أوزيريس

---

(١) متون الأهرام، فقرة ١١١٦.

(٢) متون الأهرام، فقرة ٥١٩.

(٣) لم يعثر في مقابر الأسرات الأولى على ما يشير إلى وجود هذه العقيدة على وجه أكيد، على أن هذا لا يدل بطبيعة الحال على أنها لم تكن إذ ذاك عقيدة شعبية.

(٤) ربما كان الاعتقاد في اتخاذ الميت شخصية أوزيريس قد نشأ في أول الأمر بين الملوك على نحو ما يظن زيتا.

حيّ حقاً، فسيحيا هو كذلك، وكما أن أوزيريس لم يمت حقاً فإنه هو أيضاً لن يموت، وكما أن أوزيريس لـم يمحق حقاً، فإنه هو أيضاً لن يمحق»[١]. إنه سيبعث في هيئة أوزيريس ثانٍ إلى حياة جديدة سعيدة، وسيشبّ ابنه كحورس ثانٍ، وسينتصر على العدو الذي أتلف حياة أبيه، كما انتصر حورس على ست، وسيحمي بيته ويصون شرف اسمه.

وأهم من هذا كله أن الميت سوف يصحو ثانية على نحو ما بعث أوزيريس للحياة من جديد، لا على شكل شبح خيالي، وإنما في بعث مجسد، ذلك لأن الآلهة «جمعت»[٢] معاً عظام أوزيريس، ثم «ضمّ رأسه إلى عظامه وعظامه إلى رأسه»[٣]. وعلى هذا النحو سوف يجري الأمر مع الإنسان الميت إذا اعتبر كأوزيريس جديد. إن عظامه لا تزال مبعثرة لا حراك فيها، غير أن نوت، أم أوزيريس، لا تلبث أن تقترب منه لتضمّ عظامه من جديد: «إنها تعطيك رأسك وتجلس لك عظامك، وتجمع لك أعضاءك، وتضع قلبك في جسدك»[٤]. إن جميع أجزاء شخصك تجد سبيلها إلى جسدك: «وروحك الممجدة وعافيتك



٨٦ ـ نوت تبسط جناحيها على أوزيريس (برلين ١٠٨٣٢)

(١) متون الأهرام، فقرة ١٦٧.
(٢) متون الأهرام، فقرة ٦٢٣.
(٣) متون الأهرام، فقرة ٥٧٢.
(٤) متون الأهرام، فقرة ٨٣٥.

تأتيان إليك كأنك إله يمثل أوزيريس؛ إن روحك معك وعافيتك من خلفك»[١]. وستصاحبك من جديد الكا التي لك؛ «وتأتي لك حياتك... وتأتي لك روحك الممجدة يا أوّل الممجدين. وعافيتك يا أوّل الأحياء؛ إن لك روحاً، يا ذا الروح»[٢]. وإن الآلهة لتقف من حولك وتناديك: «قم، قف»[٣] «فتصحو». وإن جب ليفتح فمك لتستطيع الكلام من جديد[٤]؛ وتحوت وحورس يوقفانك ويضعانك في وسط الآلهة[٥]، ومن ثم «يدعو حورس تحوت بأن يسوق إليك عدوّك ثم يضعك فوق ظهره: خذ مكانك من فوقه، اصعد واجلس عليه»[٦]. وتصيح الآلهة التسعة بالعدوّ في سخرية وهو من تحتك: «احمل من هو أعظم منك»[٧].

فإذا انتصرت بهذا النحو على مضطهديك، فإن رع وحورس ينصبان لك سلماً، «يقف أحدهما على هذا الجانب ويقف الآخر على ذلك الجانب»[٨]، ومن ثم «ترقى عليه إلى السماء»[٩]. ويفتح لك باب السماء وتنزع لك المزالج الكبار[١٠]، فتجد رع واقفاً... فيأخذك من يدك ويقودك في قصر (؟) السماء، ويجلسك على عرش أوزيريس[١١]، على عرشك لتتولى حكم الممجدين»[١٢].

---

(١) متون الأهرام، فقرة ٧٥٢، ٧٥٣.
(٢) متون الأهرام، فقرة ٨٣٣.
(٣) متون الأهرام، فقرة ٨٩٥.
(٤) متون الأهرام، فقرة ٦٢٦.
(٥) متون الأهرام، فقرة ٩٥٦.
(٦) متون الأهرام، فقرة ٦٥١، ٦٥٢.
(٧) متون الأهرام، فقرة ٦٢٧.
(٨) متون الأهرام، فقرة ٤٧٢.
(٩) متون الأهرام، فقرة ٩٧٤.
(١٠) متون الأهرام، فقرة ٥٧٢.
(١١) متون الأهرام، فقرة ٧٥٧.
(١٢) متون الأهرام، فقرة ٥٧٣.

عند ذلك تجلس كأوزيريس، «وصولجانك في يدك، لتصدر الأوامر للأحياء ومحجنك؟ وسوطك في يدك لتصدر الأوامر لذوي الأماكن الخفية[(١)] . ومن ورائك يقف خدم الإله ـ ومن أمامك يقف نبلاء الإله وينادون: تعالى أيها الإله! تعال أيها الإله! تعال يا صاحب عرش أوزيريس! إيزيس تخاطيك، ونفتيس تحييك، والممجدون يسعون إليك راكعين ليقبلوا الأرض عند قدميك[(٢)]. ها أنت ذا في كنف الحراسة، متحلياً كإله، متخذاً شكل أوزيريس على عرش أول أهل الغرب. إنك تفعل ما فعله بين الممجدين والمخلدين. أما ابنك فيقوم على عرشك متخذاً شكلك. إنه يفعل ما اعتدت أن تفعل من قبل، هو أول الأحياء كما أمر رع. إنه يزرع الشعير ويزرع القمح ويهدي إليك منهما»[(٣)]. أما أنت فإنك «تجعل بينك يزدهر من بعدك تصون أبناءك من كل ضير»[(٤)].

هذا هو المصير الذي ينتظر الأتقياء الذين يعبدون أوزيريس، حقاً إنه لا بد أن يغادروا هم أيضاً الأرض، ولكنهم «لا يذهبون أمواتاً بل يذهبون أحياء»[(٥)]، وهم لا يحيون بعد الموت حياة الأطياف والأشباح فحسب، وإنما يُبعثون لحياة حقيقية جديدة، يحرزون فيها أجسادهم وأرواحهم: «فلهم قلوبهم، ولهم أرواحهم، ولهم أفواههم، ولهم أرجلهم، ولهم أذرعهم، ولهم سائر أعضائهم»[(٦)].

ولا يعرف متى بدأت هذه العقيدة تنتشر بهذا الشكل في الشعب المصري، على أنه مهما يكن من أمر فإنها ترجع إلى زمن قديم جداً، وذلك لأن الأوراد

(١) متون الأهرام، فقرة ١٣٤ .
(٢) متون الأهرام، فقرة ٧٥٤، ٧٥٥.
(٣) متون الأهرام، فقرة ٧٥٩ ـ ٧٦١.
(٤) متون الأهرام، فقرة ٧٢٩.
(٥) متون الأهرام، فقرة ١٣٤ .
(٦) Totb, ed Nav. 68. 4 - 5.

التي يتخذ فيها الميت شخص أوزيريس توجد بكثرة في أقدم ما حفظ لنا من أدب جنازي ألا وهو متون الأهرام. أجل هذه إن الأمثلة من متون الأهرام إن هي في بعض أجزائها إلا حياكة جديدة لأوراد قديمة، فقد اعتاد المصريون الصيغ القديمة حتى إنهم لم يشاءوا الاستغناء عنها في العقيدة الجديدة. فإذا كان قد جاء في ورد قديم ذي انتشار كبير: «تقول الآلهة: سعداء من يرون، وطوبى لمن ينظرون، كيف يصعد هذا الإله إلى السماء... وعليه روحه ومعه قوّته وبجانبه سحره. إنك تصعد إلى السماء وتدخلها» إلخ[1]، فقد جاء في الصياغة الجديدة: «تقول إيزيس: سعيد من يرى الأب؛ وتقول نفتيس: طوبى لمن ينظر إلى الأب، إلى أبيه، إلى أوزيريس حينما يصعد إلى السماء بين النجوم، بين المخلدين، وعلى رأسه القلنسوة ومعه القوّة وبجانبه السحر. إنه يسرع إلى أمه نوت ويدخلها» إلخ[2]. فالصيغة الأولى تعرض رحلة الملك المتوفى إلى السماء، كأنه إله جديد يدخل السماء ويثير دهشة الآلهة القدامى (٢٩٥). أما الصيغة الثانية فقد أضيف فيها إلى اسم الملك اسم أوزيريس، واستحالت السماء إلى أمه نوت، وصارت الآلهة هي إيزيس ونفتيس، وبهذا أصبح الورد يتعلق برحلة أوزيريس إلى السماء؛ على أنه لم يفد من ذلك في حقيقة الأمر جلاء أو جمالاً.

وأسوأ من هذا طريقة التصرّف في ورد قديم يشيد بإلهة السماء التي حملت معها الآلهة عند صعودها في أجواز الفضاء. وقد جاء في إحدى آياتها: «أي نوت إنك متوّجه كملك، لأنك تتسلطين على الآلهة وعلى أرواحهم وتراثهم وطعامهم وسائر ما يملكون»[3]، فحرف هذا في غير صعوبة وأصبح يقال: «أي أوزيريس، لقد توّجت ملكاً لمصر العليا والسفلى، لأنك تتسلط على الآلهة وعلى أرواحهم»[4]، مع أن أوزيريس الطيب لم يصعد بالآلهة من الأرض. عدا

(١) متون الأهرام، فقرة ٤٧٦ وما بعدها.
(٢) متون الأهرام، فقرة ٩٣٩ وما بعدها.
(٣) متون الأهرام، فقرة ٨٢٤.
(٤) متون الأهرام، فقرة ٧٧٦.

هذا يلاحظ أن في هذا التحريف كان لا بد للكلمة القديمة، التي نشأت في مصر السفلى، والتي تعني الملك أن تترك مكانها للقب الفراعنة الرسمي، وفي هذا علامة واضحة على حداثة عهد هذا التحريف.

وفي غير هذا كذلك لم يكن لانتشار عقيدة أوزيريس أثر حسن على الأدب الجنازي. فقد كان هذا الأدب لا يخلو من التصوّرات المتنوّعة المتعارضة، ومن ثم غدا خليطاً مشوّهاً تماماً. والنصّ التالي يعدّ مثلاً جيداً لهذا الخلط:

«أصح لحورس وقف ضد ست، انهض أيها الابن الأول لجب، يا من يرتعد أمامه التاسوعان، ومن أجله تنصب المقاصير... ومن أجله يحتفل بالفصول...... إنك تجوب أبيدوس في شكلك الممجد هذا، الذي قضت الآلهة بأن يكون لك، وإنك لتصعد إلى الدوات حيث يكون الجبار. إن ثور السماء ليقبض على ذراعيك، وإنك لتأكل من طعام الآلهة... (رع) يضعك كنجمة الصبح وسط حقل يارو. وإن باب السماء المؤدي إلى الأفق ليفتح لك، وإن الآلهة لتبتهج (؟) عندما تقترب كنجم يعبر البحر من تحت جسم نوت في جلالك هذا الذي قضى به رع. إنك تجلس على هذا العرش النحاسي كأنك عظيم هليوبوليس، وذلك لكي تقود الممجدين وترضى ما لا يفنى»[١]. فأي خليط هذا! إن الميت في الجزء الأوّل من هذا النصّ هو أوزيريس، أما في الجزء الثاني فإنه يبحر إلى الجبار، نجم أوزيريس، وفي الجزء الثالث هو نجم بجوار رع، وفي الجزء الرابع يجلس على العرش ملكاً على الموتى وعلى النجوم.

وكان هذا بداية الاضطراب، فقد زادت فيه، بطريقة مختلفة جدّ الاختلاف، القرون التالية، التي يرجع إليها معظم ما يسمى بمتون التوابيت وكتاب الموتى. وإنه من العجب حقاً أن توهب الحياة السماوية، التي ابتدعت أصلاً للملوك، لأيّ ميت آخر، على أنه أعجب من هذا أن يصبح كل ميت إلهاً في العالم السفلي[٢]. وقد امتزجت بهذه الأفكار وغيرها مما تواتر عن الأزمنة

(١) متون الأهرام، فقرة ٦١٠.

(٢) Litt. 8. 316.

القديمة واستحال لونه وأسيىء فهمه، ضروب مختلفة مما استحدث من تصوّرات عن مصير الموتى، وعن مملكة أوزيريس. وبهذا نشأ خليط قلما يجدي في أغلب الأحيان ترسم خطوطه. يضاف إلى هذا ما تمتاز به نصوص كتاب الموتى من طابع، فقد كان معظمها يعتبر كأنها صيغ سحرية، فلكي يتمّ للميت هذا أو ذاك، عليه أن يتلو ورداً يتخذ فيه شخصية أيّ إله، اعتقاداً بأنه بهذه الوسيلة يكتسب صفاته، فمن كان يتلو مثلاً الورد التالي؛ «لقد مُنحت اسمي في البيت العظيم، وذكرى اسمي في بيت اللهب، في تلك الليلة التي أحصيت فيها السنوات، وحسبت فيها الشهور. إني هناك ذلك الذي يجلس في شرق السماء، وكل إله لا يتبعني فسأخبر بإسمه! فإنه كان «يتذكر اسمه في مملكة الموتى»[١].

وما الخوف من أن يعرف الميت في العالم الثاني شخصه، إلا أحد الشجون الكثيرة الغريبة، التي كان على ما في كتاب الموتى من سحر أن يعالجها. ومما كان يخشاه الميت كذلك ألا يكون له فم يتحدّث به مع الآلهة[٢]، وأن يسلب منه قلبه[٣] وأن تقطع رأسه[٤]، وأن يفسد جسده بالرغم من تحنيطه[٥]، وأن تنتزع بعض الكائنات المعادية منه «مكانه وعرشه»[٦]، وأن يضلّ طريقه «فيقع على مذبح الإله» أضحية تعيسة[٧]. وقد يعوزه الطعام والشراب، فيضطرّ لأن يأكل من عذرته ويشرب بوله[٨]. فإذا وجد الماء حقاً فقد يحدث أن يغلى إذا أراد شربه[٩]، وفضلاً عن ذلك فقد يعوزه الهواء[١٠]. وكان

---

(١) Totb. ed. Nav. 25.
(٢) نفس المرجع ص ٢٢.
(٣) نفس المرجع ص ٢٧.
(٤) نفس المرجع ص ٤٣.
(٥) نفس المرجع ص ٤٥.
(٦) نفس المرجع ص ٤٧.
(٧) نفس المرجع ص ٥٠.
(٨) نفس المرجع ص ٥٣.
(٩) نفس المرجع ص ٦٣ ب.
(١٠) نفس المرجع ص ٥٦.

من شأن أوراد كتاب الموتى أن تساعد على هذه الأخطار وما يماثلها. فمما كان يساعد مثلاً ضد الثعابين التي يمكن أن تعضّ الميت، أن يخاطبها على النحو التالي: «أيها الأفعوان، لا تقترب! إن جب وشو يقفان حيالك. لقد أكلت الجرذان وهذا ما يعافه رع، وعلكت عظام قطة متعفنة»[١]. ومما ينفع ضد أكل الأقذار هذا الورد: «... أنا من له الخبز في هليوبوليس. خبزي في السماء بجانب رع، وخبزي على الأرض بجانب جب. سفينة المساء وسفينة الصباح للشمس تجلبانه إليّ من بيت الإله العظيم في هليوبوليس»[٢].

طوبى إذن لمن يكون بجانبه هذا السحر، ويعرف كيف يحتفظ به، لأنه يعرف الورد الذي يفيد ضد التماسيح التي تسلب الميت سحره[٣]. ومعرفة سائر هذه الأوراد يفيد أيضاً في الحياة: «من يتل هذا الورد على نفسه كل يوم يسلم على الأرض، ويخرج من كل نار ولا يلقى سوءاً أبداً»[٤].

ولا تظهر كل هذه الشجون التافهة ولا هذا السحر كله في متون الأهرام[٥] إلا قليلاً، على أنه لا بد أن كانت تسود الأوساط والعصر الذي جمعت فيه أوراد كتاب الموتى[٦] رغبة متهوّسة حقاً لإفادة الميت عن طريق السحر، إذ كان يجمع كل ما كان يبدو أنه سحر على أيّ نحو حتى ولو كان مقصوداً به في الأصل شيء آخر مختلف جدّ الاختلاف. وقد بلغ الأمر أقصاه في عزائم السحر الحقيقية

(١) نفس المرجع ص ٣٣.
(٢) نفس المرجع ص ٥٣.
(٣) نفس المرجع ص ٣١.
(٤) نفس المرجع ص ١٨ في نهايتها.
(٥) فيما عدا الشجون الخاصة بالجوع والعطش لا ترد أمثال هذه الأشياء في متون الأهرام إلا قليلاً (انظر ما جاء في متون الأهرام ٩٦٣ عن الأعداء الذين يحولون بين الميت وبين أوزيريس). وتكاد تكون الأوراد ضد الثعابين هي وحدها التعاويذ السحرية.
(٦) لست أعتبر أن كتاب الموتى يشتمل على النصوص التي تظهر صدفة على برديات الموتى في الدولة الحديثة فحسب، وإنما هو يشتمل كذلك على النصوص المماثلة التي نعرفها من توابيت الدولة الوسطى، أي «نصوص التوابيت» التي سبق الكلام عنها.

القديمة. ومن أمثلة ذلك ورد قديم كان الغرض منه ـ كما يدلّ عليه مضمونه بوضوح ـ تيسير ولادة النساء، إلا أنه أصبح يستخدم كذلك للميت دون عناء كبير، وإذ قد ورد فيه الكلام عرضاً عن أحد الصقور، فقد ظنّ لذلك أنه لا بد أن يساعد الميت على «أن يتخذ شكل الصقر»[١].

وفي هذا كله يدل كتاب الموتى على طابع شعبي أقوى مما تدلّ عليه متون الأهرام. ولهذا تبرز فيه كذلك تصوّرات قديمة جداً تكاد تختفي في تلك المتون، ذلك لأنها لم تكن تتفق مع الوجود السماوي الذي كان السادة العظماء يرجونه لأنفسهم. فالميت، أو على الأصحّ روحه تودّ أن «تستحيل إلى كل ما يهواه القلب»[٢]: إلى العنقاء، وإلى مالك الحزين (بلشون)، وعصفور الجنة، والصقر، والدودة، والتمساح، وزهرة البشنين (اللوطس)[٣]، وحتى إلى الإله بتاح نفسه[٤]؛ ويجب أن تتحد الروح مع الجسد من جديد[٥]، وأن تجد باب المقبرة مفتوحاً[٦]. وما من شيء ينبغي أن يردّها عن سبيلها لكي «تستطيع الخروج بالنهار» في أيّ شكل يعجبها[٧]. وهذه الأمنية الأخيرة بالذات ـ وهي إقامة الميت بعض الوقت على الأرض بالنهار عندما تضيء الشمس ـ هي الأمنية التي تلعب دوراً كبيراً في كتاب الموتى، حتى لقد أُطلق فيما بعد على كتاب الموتى بأكمله «كتاب الخروج بالنهار».

وفي بعض الأحيان تعمد الأرواح التي تترك القبر على هذا النحو، إلى

---

(١) انظر الفصل الوارد في Lacau, Recueil 27, 56 - 58.

(٢) Totb. ed. Nav. 64.

(٣) نفس المرجع ص ٧٧ ـ ٩٨.

(٤) نفس المرجع ص ٨٢.

(٥) نفس المرجع ص ٩١.

(٦) نفس المرجع ص ٩٢.

(٧) نفس المرجع ص ١٨، ٦٤.

التدخل في حياة من خلفتهم وراءها من الأحياء، وبهذا يمكن «للممجد» أن يكون ضيفاً غير مرغوب فيه في هيئة طيف كما سنرى فيما بعد. ولهذا فمن أمانيّ الميت كذلك أن «يرحَّب به» في بيته عند عودته إلى عالم الدنيا. ومن اليسير أن ندرك سبب تمنى الموتى «الخروج بالنهار»، وذلك لأن النهار هو أسوأ وقت عندهم، إذ لا تضيء الشمس لهم بأشعتها إلا في المساء حينما تغرب. «عندئذ يفتحون عيونهم عندما يشاهدون الشمس فتطفح قلوبهم بالفرح حين يرونها، ويهللون عندما تكون من فوقهم. إنها تمنح أنوفهم الهواء». ويفرحون إذ يستطيعون مساعدة الشمس بدورهم فيمسكون الحبل المعقود بمقدم سفينة الشمس[1]، ويجرّونها في العالم السفلي الذي لا تهب فيه أيّ ريح - وذلك على نحو ما تجرّ السفن في النيل حين تسكن الرياح.

على أن أهم من هذا كله هي فكرة ضرورة تبرير الميت؛ وهي فكرة حديثة النشأة. لقد رأينا فيما مضى أن ست قاضي أوزيريس المتوفى، وأن الآلهة اجتمعت في هليوبوليس لمحاكمته، غير أنها «أحقت كلامه» أي أنها وجدته بريئاً، فبرّرته (صفحة ١١٩). ويبدو من كتاب الموتى أن مثل هذه المحكمة قد اجتمعت كذلك في أبو صير وبوتو وأبيدوس وهيراكليوبوليس وفي معبد سكر في منف وفي أماكن مقدسة أخرى، وكان تحوت في كل منها هو الذي «برره». وقد أدّى هذا التصوّر إلى أن أصبح يرجى أن يبرّر تحوت الميت كذلك بصفته أوزيريس جديداً؛ وكما أن أوزيريس قد وجد محقاً، فقد وجب لهذا أن يثبت كذلك أن الميت في مملكة الموتى طاهر مبرأ من كل إثم - وإلا فكيف يمكن استقباله في مملكة ذلك الإله الذي كان يدين بسلطته لبراءته من الخطايا؟ وفي هذا مظهر خلقي وجد سبيله من أسطورة أويريس إلى العقائد المصرية؛ ومنذ ذلك الوقت لم يعد الرجل القويّ والشريف هو الذي ينتصر في الموت، وإنما هو الرجل المحقّ البريء من كل ذنب.

---

(١) Totb. 15 B II.

وكان تصوّر أوزيريس قاضياً أمراً معروفاً في عهد الدولة القديمة، فقد ورد في نصوص إحدى المقابر حديث عن «الإله العظيم سيد القضاء»(١). وفي مقبرة أخرى يعد الميت أنه سيكون يوماً عوناً في محكمة «الإله العظيم» لكل من يدخل مقبرته في طهارة تامة(٢). على أن هذا التصوّر لم يبلغ تطوّره التام ولم يحظ بالإعتراف العام إلا في الدولة الوسطى، التي أصبح من المعتاد في عهدها كذلك عدم ذكر اسم الميت دون أن يضاف إليه لفظ «المبرر».

وقد أشار كذلك إلى محكمة الموتى ذلك الملك الشيخ(٣)، الذي ترك تعاليمه لابنه مريكا رع، إذ حذره فيها من «القضاة الذين يفصلون في قضايا المظلومين. إنك لتعلم أنهم غير رحماء في ذلك اليوم الذي فيه يقضى للمسكين». وفوق هذا أوصاه بألا يظن أنه لا يزال هناك أمد طويل إلى أن تحين المحاكمة، وأنه حتى ذلك الوقت سينسى كل شيء: «لا تثق بطول السنين، فإنهم ينظرون إلى أمد الحياة كأنها ساعة. وإن الإنسان ليبقى بعد الموت وستكوم أعماله إلى جانبه». وستدوم إلى الأبد حياة الإنسان في مملكة الموتى، وإنه لأحمق من لا يأبه بذلك. «أما من يأتي إلى قضاة الموتى مبرأ من كل ذنب فسيكون مثل إله، ويسير حرّاً طليقاً كسادة الأبدية».

على أن الشعب قد أفسد هذه الأفكار البسيطة الجميلة، وهو ما تدلّ عليه الصورة والنصّ الحافل لمانسميه بالفصل ١٢٥ من كتاب الموتى. ففي الصورة نرى بهواً كبيراً حُلِّي سقفه بلهب النيران وعلامات الحق، وفيه مقصورة يجلس فيها أوزيريس على عرشه، ومن أمامه رمز أنوبيس وأبناء حورس وآكل الموتى، وهو حيوان خرافي، «تمساح من أمام، وأسد من وسط، وفرس نهر من

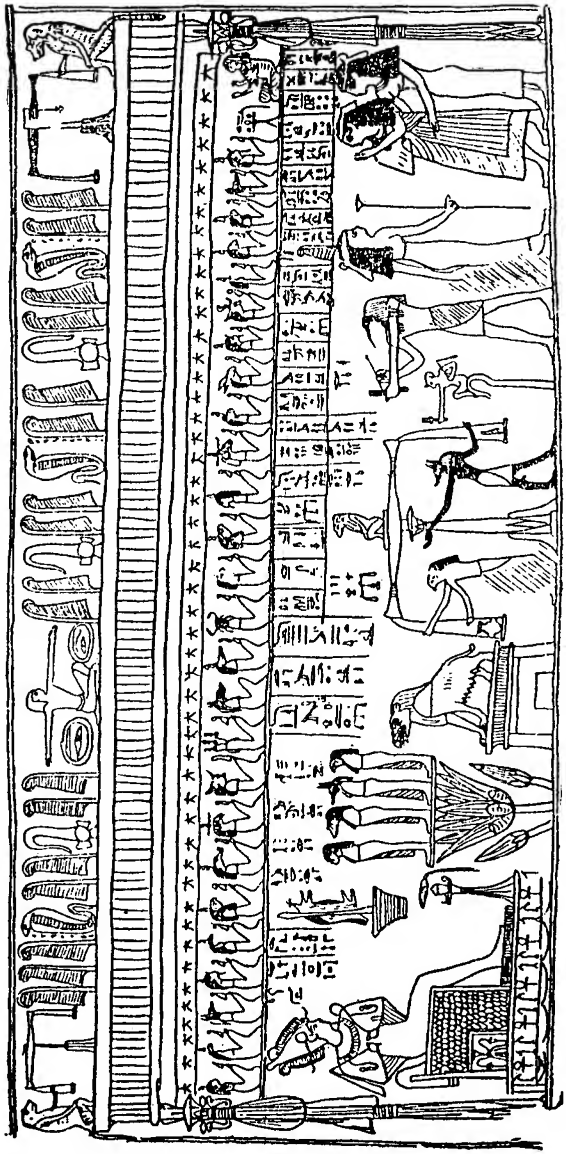
---

(١) Mar. Mast. D. 19.

(٢) Urk. I 202.

(٣) Litt. 8. 112.

خلف»[١]. وفي أعلى الصورة، أي في مؤخرة البهو، يجلس قضاة أوزيريس المخيفون وعددهم إثنان وأربعون قاضياً؛ ومن أسفل، أي في الجزء الأمامي،



٨٧ ـ محاكمة الميت، عن بردية جنازية لإحدى السيدات. (برلين ٣٠٣٤)، من عهد متأخر ٢٠.

---

(١) Totb. ed. Nav. 125; Vignette in Ag.

الميزان العظيم يوزن فيه قلب الميت. وتستقبل إلهة الحق الميت وهو يدخل هذا البهو، ومن ثم يأخذ حورس وأنوبيس قلبه ويتحققان بالميزان إن كان أخف من علامة الحق. ويسجل تحوت كاتب الآلهة النتيجة على لوحة، ثم يخبر بها أوزيريس. وأعجب من هذه الصورة، ما ينطق به الميت عندما «يصل إلى بهو الحقيقتين هذا، وحينما يبرّأ من كل سوء اقترفه، وحينما ينظر إلى وجه الإله». إنه يدعو الإله إذ ذاك على هذا النحو: لك الحمد أيها الإله العظيم، يا رب الحقيقتين. لقد أتيت إليك سيدي لأشاهد جمالك، إني أعرفك وأعرف أسماء الآلهة الإثنين والأربعين الذين معك في بهو الحقيقتين، والذين يعيشون على المسيئين ويشربون دمهم يوم الحساب أمام ونفري.

هأنذا أجيء إليك، أجلب الحقيقة وأطرد الإثم.

إني لم أقترف إثماً ضد البشر... ولم أفعل شيئاً تمقته الآلهة، ولم أسع بأحد عند رئيسه، ولم أجوّع أحداً، ولم أدع أحداً يبكي، ولم أقتل، ولم أدع إلى القتل، ولم أسبب لأحد ألماً، ولم أقلل في المعابد الطعام، ولم أنقض خبز الآلهة، ولم أسلب طعام الممجدين، ولم أفسق في المكان الطاهر لإله مدينتي، ولم أطفف مكيال الحب، ولم أنقص مقياس الذراع، ولم أزيف في مقياس الحقل، ولم أثقل في مثاقيل الميزان، ولم أوزّر في لسان الميزان، ولم أسلب اللبن من فم الطفل، ولم أسرق الماشية من مرعاها، ولم أصطد طيور الآلهة، ولم أصطد الأسماك من بحيراتهم، ولم أمنع ماء (الفيضان) في وقته، ولم أسدّ على الماء الجاري... ولم أضرّ ما للمعابد من قطعان، ولم أعترض الإله في شيء من إرادته. ويلي هذا اعتراف ثانٍ من نوع مماثل يدعي فيه لكل إثم بإله خاص - وما من شك في أنه كان في الأصل مستقلاً بذاته ثم ألحق هنا فيما بعد. وبهذا أصبح الميت يقرّر براءته مرّتين: «يا صاحب الحظوة العديدة في هليوبولس! إني لم أقترف ذنباً. يا حاضن اللهب في خر - احاو! إني لم أنهب، أيها الأنف في هرموبولس، إني لم أغشّ. يا آكل الظلال في كررت! إني لم أسرق. يا صاحب الوجه المستدير في روستاو! إني لم أقتل البشر. أيتها اللبوءة

المزدوجة في السماء! إني لم أطفف مكيال الحبّ. يا من عيناه سكينان في ليتوبولس! إني لم أصنع شيئاً معوجاً. أيها اللهب في ختخت! يا من عيناه سكينان في ليتوبولس! إني لم أصنع شيئاً معوجاً. أيها اللهب في ختخت! إني لم أسرق شيئاً من ثروة المعبد. يا كاسر العظام في هيراكليوبولس! إني لم أكذب». ومن بين الذنوب الأخرى التي ينكرها الميت بعد ذلك أمام «صاحب الأسنان البيضاء، وآكل الدم، وآكل الأحشاء، والضال» وغيرها من الكائنات المخيفة، الذنوب التالية: «إني لم أسرق طعاماً. إني لم أذبح الثيران المقدسة؛ ولم أسترق السمع، ولم أزن، ولم أصمّ أذني عن كلمات الحقّ؛ ولم أدع أحداً يبكي، ولم آكل قلبي (من الندم)؛ ولم أسيء؛ ولم أتكلم كثيراً؛ ولم أسيء إلى الملك؛ ولم يكن صوتي عالياً، ولم أسيء إلى الإله»، وغير هذا كثير. ثم يقول الميت بعد ذلك للقضاة المخيفين: «الحمد لكم أيها الآلهة. إني أعرفكم وأعرف أسماءكم، ولا أقع أمام سيفكم. إنكم لن تبلّغوا عني سوءاً لهذا الإله الذي تؤلفون حاشيته؛ إنكم لن تشغلوا أنفسكم بأمري؛ وإنكم ستقولون الحقّ عني أمام سيد الكون، لأني عملت ما هو حقّ في مصر ولم أسيء إلى الإله وليس للملك المعاصر ما يشغله بأمري».

«الحمد لكم أيها الآلهة، يا من في بهو الحقيقتين، ومن ليس في جسومهم بهتان، ويا من يعيشون على الحقّ... أمام حورس الذي يسكن في شمسه. نجوني من باباي (انظر صفحة ٣١٤) الذي يعيش في أحشاء العظماء في يوم الحساب العظيم. ها أنذا أجيء إليكم بغير إثم وبغير سوء....؛ إني أعيش على الحقّ وأتغذى على ما في قلبي من حق. لقد عملت ما يقول به الناس وما ترضى عنه الآلهة. لقد أرضيت الإله بما يجب وأعطيت خبزاً للجائع، وماء للصادي، ولباساً للعاري، وقارباً لمن لا قارب له. لقد قدّمت القربان للآلهة، والصدقات للممجدّين».

«نجوني واحموني، إنكم لن تتهموني أمام الإله العظيم. إني رجل ذو فم طاهر ويدين طاهرتين، يقول له من يراه «مرحباً مرحباً».

ومما يذكره الميت كذلك لتبرئته أنه «سمع تلك العبارة، التي تبادلها الحمار مع القطة». والغرض من هذا وغيره إنما هو التدليل على أن الميت كان خادماً مخلصاً لأوزيريس، اشترك في أعياده وتمثيلياته(١).

والجائل بنظره في هذه القائمة للذنوب التي لم ترتكب، لا يلبث أن يلاحظ أنه كان من الصعب على مؤلفيها أن يجدوا اثنين وأربعين إثماً لعرضها على القضاة الإثنين والأربعين الذين حددت عددهم مقاطعات مصر الإثنتان والأربعون. ولهذا فكثيراً ما تتكرّر هذه الآثام في صيغ مختلفة، أو تبدو في عبارة عامة. والناحية الخلقية التي تنطق بها هذه الإعترافات بسيطة جداً على نحو ما أشرنا إلى ذلك من قبل.

ولا يدخل الموتى الذي يخفقون في هذا الامتحان في مملكة أوزيريس، وفي هذا حدّ الكفاية من البؤس والشقاء، لأنهم يظلون في مقابرهم يضنيهم الجوع والعطش، ولا يشاهدون الشمس بنهار أو بليل. وكما أن المذنب يلقى في محاكم الدنيا عقوبة خاصة، لهذا تخيل المصريون ـ وإن يكن في زمن متأخر على وجه التحقيق ـ بعض العقوبات للميت الذي لم يبرّر. فالقضاة تحمل سيوفاً لمعاقبة المذنب، وكذلك تدل أسماؤهم على عقوبات مروّعة، والحيوان الواقف أمام أوزيريس «يلتهم الميت» ويمزّقه، وهو كائن مخيف بصفة خاصة يدعى باباي(٢)، لا نعلم عنه خلا هذا شيئاً. وفيما عدا هذا لا نعرف شيئاً كثيراً ـ إذ لم يكن ذلك موضوعاً يميل إلى استقصائه خيال الشعب.

ولا نعرف كذلك شيئاً كثيراً واضحاً من كتاب الموتى عن مصير الميت

---

(١) من المحظورات الدينية الواردة على نصب رمسيس الرابع في أبيدوس: «كسر البيضة وهي تتكون» و«صيد السباع في عيد باستت» (وكان السبع حيوانها المقدس). عدا هذا فمن المحظور كذلك في المعبد «القسم بتيس منديس» و«ذكر اسم بتاح تا ـ تنن» وذلك لأسباب لا نعرفها.

(٢) ويسمى ببون بالإغريقية، وهو زميل ست أو هو ست نفسه: Plutarch, De Iside, 49.

المبرور. «إن له مقرّه أمام الإله العظيم. وإنه ليعرف ذلك الإله العظيم... وهو يخرج إلى حقل يارو. وهو يُعْطي الفطائر والخبز، وحقلاً طول الشعير والقمح فيه سبعة أذرع، يحصدهما له أتباع حورس (انظر الفصل السادس حيث أطلق عليهم الممجدون الأوائل)، وهو يأكل من هذا الشعير وهذا القمح»[١]. وهو كذلك «يدخل ويخرج في العالم السفلي، ويسكن حقل يارو، ويقيم وقتاً في حقل الطعام، ذلك المكان الفسيح، ذو الرياح الكثيرة، حيث هو هناك قويّ ممجد، وحيث يحرث ويحصد، ويشرب ويحب، ويفعل سائر ما كان يفعل على الأرض»[٢].

وما تصوّره المصريون في أزهى عصورهم عن مصير الموتى الأبرار، تكشف لنا عنه الدعوات في مقابر أشراف الأسرة الثامنة عشرة، إذ يتجمع في هذه الدعوات سائر ما يرجى للميت. فرئيس الشـون نختمين يرجو لنفسه «مجداً في السماء، وقوّة في الأرض، وتبريراً في العالم السفلي[٣]، ودخولاً وخروجاً في قبري ـ وأن أتبرّد في ظله ـ وأن أشرب الماء في كل يوم من بركتي ـ وأن تنمو أعضائي ـ وأن يمنحني النيل الغذاء والطعام وسائر النباتات الطازجة في إبانها ـ وأن أغدو وأروح على شاطى بركتي كل يوم بلا انقطاع ـ وأن تحوّم روحي على أغصان الأشجار التي زرعتها ـ وأن أتبرّد تحت شجرات الجميز التي لي ـ وأن آكل الثمر الذي تنتجه ـ وأن يكون لي فم أتكلم به كأتباع حورس ـ وأن أصعد إلى السماء وأهبط إلى الأرض، لا يعترضني عائق في الطريق ـ وألا يغلق أحد على الكا التي لي ـ وألا تحبس روحي ـ وأن أكون في وسط أهل الثناء بين الموقرين ـ وأن أحرث مزرعتي في حقل يارو ـ وأن أغدو إلى حقل الطعام ـ وأن يخرج الناس إليّ بالقدور والخبز ـ وسائر أطعمة سيد الأبدية ـ وأن أتلقى غذائي من اللحم، الذي على مائدة الإله العظيم».

---

(١) Totb. ed. Nav. 99.

(٢) نفس المرجع ص ١١٠ المقدمة.

(٣) Louvre C. 55.

أما أهل باحري، أمير الكاب، فهم يتمنون له ما يأتي: «إنك تدخل وتخرج بقلب جذلان وبما يكافئك به سيد الآلهة... إنك تغدو روحاً حية، ولك التصرّف في الخبز والماء والهواء، إنك تتخذ شكل العنقاء أو عصفور الجنة أو الصقر أو مالك الحزين، وذلك كما تشاء، إنك تعبر في القارب، ولن يردّك أحد. إنك تبحر على الموج إذا كانت هناك مياه. إنك تحيى من جديد، فلا تغادر روحك جسدك. إن روحك مقدسة مع الممجدين والأرواح الفاضلة تتحدّث معك.. إنك بينهم وإنك (مع ذلك) لتتلقى ما يقدم على الأرض. لديك الماء ولديك الهواء، ولك مما تهوى الشيء الوفير. لقد أعطيت عيناك لتنظر، وأذناك لتسمع ما يقال، وإن فمك ليتكلم، وإنك لمعافى في سائر أعضائك. إن قلبك الحقيقي بجانبك، ولك قلبك القديم. إنك لتصعد إلى السماء وتدعى كل يوم إلى مائدة شراب وننفري (صفحة١٢٠). وإنك لتُلقَّى الأطعمة التي تقدم إليه وصدقات سيد الجبانة».

وإنهم ليرجون له فضلاً عن ذلك؛ «إنك تأكل الخبز بجانب الإله عند السلم العظيم لسيد التاسوع، إنك تروح وتغدو هناك وتصاحب أتباع حورس. إنك تصعد وتهبط دون أن يمنعك أحد. إن أحداً لا يردّك عن باب الدوات، وإن مصراعي باب الأفق ليفتحان لك، والمزالج تتفتح لك من تلقاء نفسها. إنك تدخل بهو الحقيقتين، فيحييك الإله الذي فيه. إنك تستقرّ في مملكة الموتى وتجول في «مدينة النيل». إنك تفرح عندما تحرث نصيبك من حقل يارو؛ إن ما تحتاج إليه يوفره لك عملك، ويأتيك حصادك قمحاً. إنك تخرج كل صباح وتعود كل مساء؛ ويوقد لك مصباح بالليل حتى تتألق الشمس (ثانية) على جسدك. إنه يقال لك «مرحباً» في بيتك هذا، بيت الأحياء. إنك تشاهد رع في أفق السماء، وترى أمون عندما يشرق. إنك تصحو صحواً جميلاً بالنهار وقد انتفى عنك كل سوء، إنك تجوب الأبدية في ابتهاج، ويثني عليك الإله الذي فيك (أي ضميرك)[1]. إن لك قلبك بجانبك وإنه لا يتركك، إن طعامك حيث ينبغي أن يكون».

(١) انظر الفصل الحادي عشر ص ١٧٧.

ومن الدعوات الأخرى التي من هذا القبيل ما يذهب إلى أبعد من هذا. فهي لا تكتفي بتمني حقل فحسب يزرعه الميت بنفسه، وإنما تتمنى حقولاً وقطعاناً وعبيداً من الرجال والنساء[١]. ولا يكتفي الموتى في هذه الدعوات بأن يبعث الجسد منهم ثانية، وإنما ينبغي أن يبعث في شباب غضّ على نحو ما كان من قبل[٢]. وإنهم ليرجون كذلك أن يسمح لهم ـ كما جرى الأمر في حياتهم ـ بزيارة معبد إلههم المحلي رغبة في الاستمتاع بالبخور وتقبل باقات الزهور التي تقدم للإله[٣].

وليس من اليسير كذلك على من يقرأ هذه الدعوات بعناية أن يصل إلى صورة واضحة عن حياة الموتى. وكل ما يمكن أن يستبين منها على وجه التقريب هو أن الميت يمضي في القبر أو في العالم السفلي، وأنه يصحو في الصباح ثم يترك قبره حينما يرى الشمس مشرقة؛ وأنه يجثم على الشجر في شكل طائر، أو يتمتع في أبيدوس بالحديث مع الموتى القدامى؛ وأنه يقيم (على شاكلة الملوك من قبل) في السماء حيث يصل بالزورق إلى حقل يارو، وأنه يزرع أرضه هناك، وأن أوزيريس يطعمه كذلك، وأنه في هذا كله يشعر من جديد بأنه إنسان حيّ ذو روح غضّ وجسد بضّ. فإذا أريد استقصاء التفاصيل فدون ذلك كتناقضات من ضروب شتى. فنصوص نختمين تتصوّر محكمة الموتى أو بعبارة أخرى مقرّ بهو الحقيقتين في السماء. وكل ما يبغي استيضاح الصلة التي بين الجسم والروح والكا ـ وإن كثيراً من النصوص فوق هذا لتذكر كذلك «ظل» الإنسان ـ فإنه يقع في حيرة حيال النصوص المتأخرة أشدّ مما يجد بإزاء النصوص القديمة، وله أن يعجب كيف تحمل شعب ذكيّ هذا الخلط قرناً بعد قرن.

على أن الأمر هنا ينعلق بما وراء الحسّ، وما يجوز لشعب أن يأخذ هذه

---

(١) Urk. IV 149, 15.

(٢) Urk. 497, 7.

(٣) Urk. IV, 150,3 انظر كذلك: Harris I 42, 1.

المسائل بدقة تامة. لقد تأملها الخيال الأصيل الغضّ في وقت ما، وعبر عنها في صورة حية ثم جاءت الأجيال الحديثة فألحقت بالتعبير والنعوت التي نشأت على هذا النحو أفكاراً أخرى غير محدّدة. وإنا نحن في الوقت الحاضر لنتحدّث عن «السماء» ولا نقصد من ذلك شيئاً أكثر من مملكة الأبرار، كما نتحدّث عن الروح والعقل والقلب ولا نكاد ندرك المعنى الأصلي لهذه التعبيرات.

فلنترك إذن للمصريين في العصر التاريخي حقّ استخدام التعبيرات القديمة عما وراء الحسّ وعما لا يدرك دون أن يعبأوا بمعناها الدقيق. ولو أنه تيسر لنا في الوقت الحاضر سؤال أحد المصريين عن هذه المتناقضات الواضحة، لأجابنا من غير شك بأن هذا لا يكاد يدلّ على تناقض ما، وقد يجيب كذلك: بأن من الخير ألا ينظر إلى هذه الأشياء المقدسة التي لا تقبل البحث بدقة زائدة. وذلك لأن الإنسان يجد في هذا الغموض والإبهام سحراً خاصاً لهذه المسائل. ولا يخطر إلا للاهوت محتضر متعمق عمل تصميم للعالم الثاني في زهو وخيلاء. وحتى هذه المرحلة لم ينج الشعب المصري منها، وتدلّ على ذلك الكتب الغريبة التي تبين للميت طريقه، وتعرفه بسائر الكائنات التي يمكن أن يقابلها في العالم السفلي.

وترينا إحدى خرائط العالم الثاني[١] أن من يدخل مملكة الموتى ممن يكونون في المكان المقدس روستاو بالقرب من الجيزة (انظر صفحة ٤٨) فإنه يجد أمامه سبيلين مفتوحين يؤديان به إلى مملكة الأبرار، أحدهما عن طريق الماء، والآخر عن طريق الأرض. وكلاهما يتعرجان، غير أنك لا تستطيع أن تعرج من أحدهما إلى الآخر، لأن بينهما بحراً من النار. وهناك كذلك طرق جانبية وإن كان «لا ينبغي لك سلوكها»، لأنها تؤدي بك إلى النـار أو هي طرق طويلة ملتوية. وقبل السير في أحد هذين السبيلين يجب أن يمضي الميت من باب من النار. وتوجد فكرة الأبواب التي تعترض الميت عدا ذلك في كتاب

---

(١) «كتاب السبيلين» نشره جراف شاك من تابوت من مجموعة الآثار في برلين.

الموتى[1]، ففي حقل يارو خمسة عشر باباً أو واحد وعشرون باباً، يقوم إلى جانبه حرّاس أشرار في أيديهم النصال تعلوها الثعابين.

وقد تطوّر هذا الأدب بطريقة خاصة إلى كتابين حافلين، ألحق فيهما سبيل الميت بالرحلة التي تقوم بها الشمس في ساعات الليل الإثنتي عشرة عبر العالم السفلي، وفي هذا تتجلى الفكرة القديمة التي تذهب إلى أن الموتى المساكين يرون كذلك الضوء في مقرّهم المظلم، ولكن ما أشدّ تفاهة ما صارت إليه هذه الفكرة الجميلة.

وينقسم العالم السفلي ـ وفقاً لما جاء في «كتاب العالم السفلي» الذي يسمى عادة إمدوات ـ إلى اثني عشر قسماً بما يوافق ساعات الليل الإثنتي عشرة، وتسمى هذه الأقسام «الحقول» أو «المغاور»، وهي آهلة بالآلهة والأرواح والموتى، وفي كل منها عادة مدينة يتولى السيادة فيها أحد الآلهة. وكما أن فرعون يجوب مقاطعات بلاده، كذلك ينتقل إله الشمس من إحدى المغاور إلى الأخرى، «يلقي أوامره إلى الآلهة التي توجد فيها»، ويوزّع الحقول بينها. وتتألف حاشية رع من آلهة شتى، كما تصاحبه كذلك في كل ساعة الإلهة الخاصة بها. على أنه في حقيقة الأمر ليس في هذه الرحلة إلا جثة أو مجرّد «لحم» كما يقول ذلك الكتاب؛ ويتجلى مظهر هذه الحالة التعسة في أنه يحمل إذ ذاك رأس كبش.

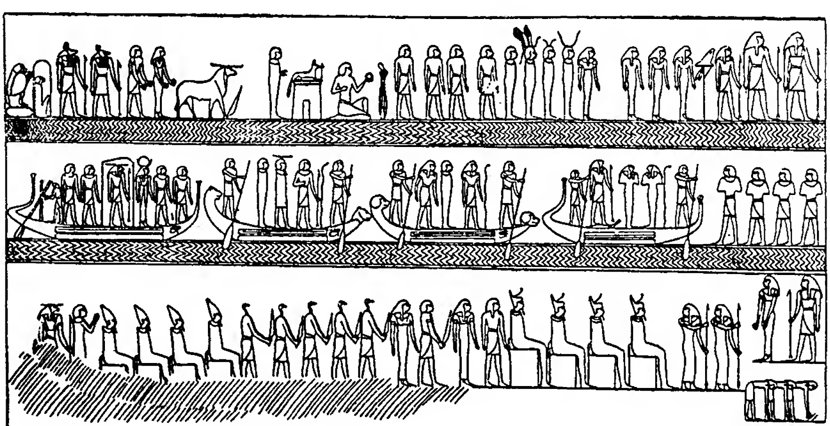
وفي الساعة الأولى يلج إله الشمس «في الأرض، في الباب العظيم للأفق الغربي، ويبلغ طول الرحلة ١٢٠ سخناً، حتى يصل إلى آلهة العالم السفلي». وتسمى الساعة الثانية «ورنس»، وهي حقل يبلغ طوله ٤٨٠ سخناً وعرض ١٢٠ سخناً، ويستخدم الإله منذ هذه الساعة سفينة جديدة، تقودها في بداية الأمر أربعة زوارق غريبة، وحقل الساعة الثالثة ذو مساحة مماثلة، ويقطن فيه أوزيريس مع حاشيته. وتتقدمه هنا كذلك طائفة من السفن كما أنه يستقبل استقبالاً بهيجاً.

---

(١) Totenb. 144 - 146.

أما الساعتان الرابعة والخامسة فتقودانا إلى منطقة غريبة، إلى «السراديب، أو مغارات الغرب السرية» حيث يسكن الإله العظيم القديم للموتى في منف، وحيث يسود الظلام و «لا يرى رع من فيها»، وإن كانوا يسمعون صوته حين يلقي أوامره. وهذه المنطقة صحراء رملية لا ماء فيها وتسكنها الثعابين، بحيث لا بد لسفينة رع نفسها أن تستحيل ثعباناً لتجرّ خلال سرداب، هو «الطريق الذي دخلت منه جثة سكر» أسفل الكثب الذي دفن فيه سكر، والذي تطلّ منه رأسه الآن لتشاهد الشمس.

وفي الساعة السادسة تجد سفينة الشمس مرّة أخرى مجرى من الماء، وهي «في هذا الحقل غير بعيدة عن جثة أوزيريس». أما الساعة السابعة فتعرّضها لخطر كبير، وذلك لأن تنين العواصف أبـوفس «الذي مقرّه في السماء»، يتخذ مكانه كذلك في العالم السفلي، ويرقد على «رابية طولها ٤٥٠ ذراعاً، يملؤها بأثنائه». ولكن «صوته يقود الآلهة إليه، فيجرحونه، ولا يمرّ هذا الإله العظيم فوقه، وإنما يعرج بطريقة عنه. ولكنّ خط آخر يعرض في «هذا الطريق الخفي الذي يبحر عليه الإله في سفينته الفاخرة». وذلك أنه خلو من الماء، إذ قد جرعه كله التنين، ولهذا فلا مناص من الاستعانة بسحر إيزيس والإله «القديم» لتسير السفينة



٨٨ ـ الساعة الثالثة من ساعات الليل حسب كتاب إمدوات. (مقبرة سيتي الأول)

إلى الأمام. وفضلاً عن هذا، فإن هذا المغار يخصّ أوزيريس الذي نرى «لحمه» متربعاً على العرش ملكاً، ومن أمامه أعداؤه مقطوعة رؤوسهم أو مقيدين. وأغرب من هذا أن إله الشمس يصل في هذه الساعة وفي الساعة التالية إلى رواب من الرمال قد دفنت من تحتها آلهة شتى كأتوم ورع وخبري وشو وتفنوت وغيرهم، وبهذا يقابل نفسه، وذلك في أشكاله الثلاثة.

وفي الساعة الثامنة تنادي شتى الأرواح الإله رع، حتى ليبدو لجيبهم كأنه عواء قط، أو طنين جماعة من النحل، أو كأنه بكاء البشر، أو كأنه أيضاً خوار ثيران، أو صراخ صقر؛ وقد يتخيل الإنسان كذلك أنه يستمع إلى زقزقة عشّ حافل بالطير، أو إلى الصوت الأجشّ الذي يحدثه سقوط أجرف الشواطىء في الماء.

وفي الساعة التاسعة ينزل مجدفو سفينة إله الشمس «فيستريحون في هذه المدينة»؛ وفي الساعة الحادية عشرة، حيث يشاهد تعذيب أعداء أوزيريس، يستحيل الحبل، الذي به تجرّ السفينة، ثعباناً. وأخيراً في الساعة الثانية عشرة يتمّ ما قد مهد له منذ الساعات الأخيرة، فقد استقرّ في الساعة العاشرة جُعْل إلى جانب رع، والآن في المغار الذي يطلق عليه «نهاية السَّحر» تجرّ سفينة الشمس من جوف ثعبان طوله ١٣٠٠ ذراع، وعندما تخرج ثانية من بين فكي الثعبان إذا بإله الشمس يصبح هذا الجعل. لقد تحوّل إلى خبري، إله شمس الصباح. وبينما يظلّ جسده القديم في العالم السفلي يستقبل شو الجعل و «يخرج» الإله الجديد «من العالم السفلي، ويستقرّ في زورق الصباح، ثم يصعد في حضن إلهة السماء». لقد ولدت الشمس من جديد وهي تبدأ رحلتها الجديدة.

هذا هو ما يتضمنه هذا الكتاب على وجه التقريب بقدر ما يتسنى عرضه. أما ما لم يتيسر عرضه، وما أضفى على الكتاب طابعه الخاصّ، فهي التفاصيل الغريبة العديدة، التي شاء خيال مؤلفه المضطرب أن يملأه بها. لقد صوّرت مثلاً، في الساعة الثالثة مملكة أوزيريس، غير أنه ليس في أشكالها الإيضاحية السبعة والتسعين شيء على الإطلاق مما يتصل عادة بإله الموتى. فليس فيها ما

يصوّر موائد طعامه أو الحقول التي يزرعها الأبرار، وليس فيها شيء عن محكمة الموتى أو عن إيزيس ونفتيس. وإنما يقف فيها على أحد الشاطئين آلهة ثلاثة في أيديهم صوالج، وإلى جانبهم صقر وأربع نساء «يبكين» أو «يندبن» وفق العبارة المكتوبة إلى جانبهن، وأربع مومياءات على رؤوسها أجنحة وقرون، وأربعة رجال يمثلون على ما يبدو «الموتى الأشراف». ويلي ذلك «وافر السحر»، وهو غصن من بردى عليه قطعة من لحم؛ ومن ورائه رجل ذكر عنه أنه هو «الذي يجلب العين ويرضي الآلهة»، ثم أنوبيس ومن أمامه صولجان، ثم مومياء لها يدان. أما الكبش ومعه السيف فهو «قاتل أعدائه»؛ ويبدو أن «الجالبة» و «الجالب» يحملان مقلاً. وخلف ست وأنوبيس ـ أخيراً ـ قردان يجلس أحدهما في كن، ويجلس الآخر «على رملته» كنصّ العبارة التي إلى جانبه. وممن يرى على الشاطىء الثاني إلهان في رداءين طويلين، يمثل أحدهما النجم الجبار، ثم إله بنقبة قصيرة يسمى «المنتمي للغرب»، والإلهة «التي فوق لهيبها»، وإلهة الولادة، و «الخماسي» وهي كائنات خمسة لها رؤوس طير وفي أيديها نصال، ثم كثير غيرها، ويجلس بين هذه الآلهة أربعة آلهة تتخذ تيجان الوجه البحري، وأربعة أخرى تتخذ تيجان الوجه القبلي، ويمثل هؤلاء الثمانية جميعاً أوزيريس الذي يملك هذه المنطقة، وذلك بما يطابق أسماءه الثمانية المختلفة، وهي: «أقوى الآلهة، وملك مصر السفلى، والجالس على عرشه، وثور الغرب، وغازي الأبدية، والنائب، وأول أهل الغرب، وسيد الغرب». ومن وراء هؤلاء جميعاً رجل يصلي ثم الإله خنوم. فإذا اتجهنا إلى السفن التي ترافق سفينة الشمس، وجدنا فيها الحيات المسماة: «الوجه ذو الشرر» و «النار في الوجه» و «النار في العين»، كما نلقي «الصقر» و «الصقرة» و «صاحب الصولجان» و «ذلك الذي في البلاد»، والربابنة المسمين «وجه اللهب» و «النصل في الوجه» و «مجدف المجدفين». فماذا يمكن أن يعنيه هذا كله؟ إنه مما لا جدوى منه كذلك البحث عن تفسير لهذا كله في الكتابات التي تصاحب هذه الصور. إنها تعرّفنا أن أشكال الصفّ العلوي «تخلق المحيط وتعمل على جريان النيل»، على حين أن أشكال الصفّ الأسفل «تمزّق الأرواح وتسجن الظلال» وتعاقب الأعداء بالنار والسيف.

وهي تعرفنا كذلك أن هذه الكائنات تعبد رع، وأنه يتحدّث إليها في مودّة وإخاء، وأنه يسقيها، فإذا ما تولى عنها ظلت تنوح. ولكن ماذا يفيدنا هذا كله لإدارك حقيقة كل من هذه الأشكال؟ ومع ذلك فليس من شك في أن الرجل الذي ألّف هذا الكتاب الجميل على أساس أفكار مماثلة قديمة. قد قصد بهذا كله إلى شيء ما، وأنه كان له ما يسُرّه في سائر هذه التلميحات والإشارات، التي تكمن من وراء هذه الصور. على أنه ليس لنا أن نأسى لجهلنا، لأن ما لا نفهمه لا يمثل تصوّرات شعبية، ولا ينطوي على تفكير عميق، وإنما هو أوهام لبعض أفراد، ولم يكن الشخص الذي صاغها في الشكل الذي تبدو لنا فيه الآن، إلا صانع كتب في السحر، وهو ما تدل عليه الوعود التي ملأ بها الكتاب بأكمله. فمن «يعرف» هذه الصور والأسماء، «فإن ذلك يفيده الفائدة العظمى على الأرض، كما يفيده في العالم السفلي العظيم»؛ أو «إن من يعرفها فإنه يحوز الأطعمة في العالم السفلي، ويشبع من صدقات أتباع أوزيريس، على حين يقدم أهله كذلك الصدقات له على الأرض»؛ أو أنه كذلك يسكن في سفينة رع في السماء وفي الأرض. «أما من لا يعرف هذا»، فإنه لن يستطيع اتقاء أبوفس. وبهذا فكل كلمة وكل صورة من هذا الكتاب إن هي إلا ذخر ثمين لصاحبها السعيد. ومن المحقق كذلك أن هذا الكتاب بهذه الصفة قد درّ ثمناً باهظاً على الرجل الذي أخرجه لأوّل مرة، وإن كان قد جاء أنه أخذ من «غرفة خفية في العالم السفلي»، حيث وجد مصوّراً على جدرانها الأربعة.

وقد حفظ لنا كذلك كتاب آخر ينافسه نسميه كتاب الأبواب، وذلك لأنه وفق ما جاء فيه تقوم بين الساعات بعضها وبعض حصون عالية تحرسها الحرّاس والثعابين التي تنفث النار. وهو أكثر رعاية للتصوّرات الشائعة من كتاب إمدوات، كما أنه أقل منه احتفالاً بالأغراض السحرية؛ على أنه فيما عدا هذا فهو قريب الشبه جداً به في خطته وطريقة عرضه.

وهناك ناحية لها أهميتها الخاصة بالنسبة لنا في هذا الأدب كله، وهي أنه قد أتى عليه هو أيضاً فترة من الزمن كان فيها موضع التقدير وغاية تطلب.

فملوك الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، الذين حفروا مقابرهم في طيبة في القرنين الثالث عشر والثاني عشر، قد نقشوا هذين الكتابين على الجدران وعلى التوابيت. وإن من يجوب الآن الدهاليز المهيبة لهذه المقابر ليلقى أشكال الإمدوات وهي ترنو إليه بأبصارها من جميع الجهات، كأن المصريين القدامى لم يتخيلوا شيئاً عن الحياة بعد الموت أفضل من هذه الأشكال الغريبة. وفي القرن التالي كانت توضع إلى جانب بعض الموتى أجزاء من كتاب الأمدوات مكتوبة على قراطيس البردى لتحميهم، ومع هذا فلم يغد هذا الكتاب في أيّ وقت كتاباً شعبياً، وإنما ظل كما كان، وكما ينبغي أن يكون، سرّاً لدى أهل الخبرة بالسحر.

وما ينبغي أن ينتهي هذا الفصل عند حدّ هذا الخلط المهوّش الذي اضطررنا هنا إلى التحدّث عنه، فمن الأدب المصري وخاصة أدب العصور القديمة تصلنا أصداء نغم لها في قلوبنا وقع أكثر من غيرها.

لقد كان حتى أتقى المصريين الذين كانوا يطمعون عن عقيدة قوية في مملكة الموتى، والذين «أعدّوا لأنفسهم مكاناً جميلاً في وادي الصحراء»، يفزعون من الموت، ويرهبون رسول أوزيريس، وذلك لأن لأوزيريس رسلاً ذوي نظرات شرسة، يطلبون الناس ولا يخشون أحداً من الآلهة (صفحة ١٢٨). ولا يعلم أحد، متى يأتيه مثل هذا الرسول، وذلك على نحو ما قال أحد حكماء الدولة الحديثة: فكر في الموت لأن «رسولك يأتي إليك... لا تقل إني لا أزال شاباً، ذلك لأنك لا تعرف موتك، إن الموت يحضر ويقود الطفل، الذي لا يزال يجلس في حجر أمه، كما يقود الرجل الذي أسن»[١].

وفي صراحة تامة يذكر أحد شعراء الدولة الوسطى، أن الدفن لا يجلب غير الأسى والدموع، وأن سائر المقابر الجميلة تتهدّم بلا شك، وأن المدفونين فيها ليسوا بأحسن حالٍ من الفقراء، الذين يموتون مجهدين على رصيف الميناء.

---

(١) Litt S. 297 (Max D'Anii 3,16).

وإنا لنقرأ حتى في أحد نصوص كتاب الموتى[1]، في حديث بين أتوم وأوزيريس، أن مملكة أوزيريس إن هي إلا أرض لا ماء فيها ولا هواء، ولا خبز ولا جعة، ولا حبّ. حقاً لقد أشار أتوم إلى أن أوزيريس يستعيض عن نعم الدنيا هذه براحة البال والتمجيد، وإنا لنرجو أن يكون هذا البديل قد أرضى أوزيريس، ولكن ـ من المحقق ـ لم يكن الأمر مع البشر دائماً على هذا النحو، وذلك لأن أغنية الشراب القديمة تدعو، وهي ترنو بنظرها إلى الموت، إلى الاستمتاع بالحياة؛ «لتبتهج، ولتُنس قلبك أن الإنسان سوف يمجد يوماً». إن المقابر كلها تتهدّم وحتى مقابر الحكماء الأقدمين «قد غدت كأنها لم تكن. لا أحد يأتي من هناك فيحدثنا كيف حالهم، وماذا يعوزهم، ليطمئن قلوبنا حتى نغدو نحن كذلك إلى حيث ذهبوا». لهذا فلتتنعم بالحياة حتى يأتي يوم النديب. ولكن «ذا القلب الساكن لا يسمع صياحهم، ولا ينجي النواح أحداً من العالم السفلي. ما من أحد يستطيع أخذ متاعه معه، وما من أحد يعود بعد أن مضى»[2].

أجل هناك أغنية أخرى تحتجّ على هذه التصوّرات، وتجنح إلى مدح عالم الموتى كأنه شيء جليل. على أن ناظمها لا يصدر في ذلك عن إيمان تامّ وهو يقول: «ماذا ينطقون عندما يشيدون بمدح الحياة على الأرض ويقللون من شأن مدينة الموتى ـ ماذا يفيد العمل ضد الأبدية على هذا النحو، وهي البلد الحقّ العادل الذي لا فزع فيه؟ إنه يمقت الشقاق والخصام، وما من أحد فيه يتخذ العدة ضد سواه. في هذا البلد الذي يخلو من الأعداء يستريح أهلنا جميعاً منذ العصور الأولى، وسيغدو إليه كل من سوف يكون هنا في ملايين الملايين من السنين. ما من أحد استطاع أن يبقى في مصر، وما من أحد لم يذهب إليه. إن الزمن الذي يقضيه الإنسان على الأرض إنما هو طيف خيال فحسب، وعندئذ يقال لمن يصل إلى الغرب «مرحبا»[3].

---

(١) Kees, Ae. Z. 65, 73.

(٢) Litt, S. 178.

(٣) Litt, S. 317.

وهكذا احتفظ الشاعر بالتجلة الواجبة لمملكة الموتى، على أنه لم يطرها في حقيقة الأمر بأحسن من أن الإنسان يجد فيها في خاتمة المطاف راحة وسلاماً.

ومع ذلك فلم يكن سائر الموتى ليفرحوا حقاً بالراحة التي كان يرجوها لهم أخلافهم الأحياء، وذلك لأن أفكار الكثيرين منهم ظلت تتعلق بالدنيا وبالحياة فيها، كما ظلّ بعضهم يحتفظون بسخط صامت، يودون إرضاءه، على حين كان آخرون يتبرمون بحياة من خلفوهم من الأحياء. على أن الميت لم يكن ضيفاً مرحباً به إذا زار أحياناً أحد البيوت حيث لا يراه أحد على نحو ما رأينا من قبل (صفحة ٢٥٤). ولا بد في واقع الأمر أن كل شخص كان يشعر بأنه مهدد من قبل أمثال هذه الأشباح، سواء أكانت من الأهل أو من الأرواح الشريرة الأخرى. ولم يكن هناك ما يقي شرّها غير تعاويذ السحر والتمائم، ومع هذا فلم يكن أحد يوقن أنها تفيد حقاً. على أنه قد يسعد الحال بالكشف عن قبر الميت المسيء، وبهذا ربما استطاع المرء «ألا يدعه يهبط أو يصعد مع الريح»[(١)]. وهكذا خطر على البال أن من المستحسن الاتصال بالميت نفسه اتصالاً مباشراً، فلربما ثنته عن رأيه رسالة فينسى سخطه. وقد حفظت لنا أمثال هذه الرسائل من سائر العصور. وكان يفضل كتابتها على الصحفة التي تحوي طعام الميت، لأنها ستصل إلى يديه بالتأكيد. وقد كتب رجل[(٢)] إلى والديه يرجوهما أن يتوسطا لدى أخيه المتوفى، فقد حمله إلى أرض الوطن حيث دفنه، غير أنه لا بد أنه لم يكن راضياً عن ذلك، لأنه دائب على الإساءة إليه. وكتبت أرملة إلى زوجها تشكو إليه كيف سرقها بعض الأقارب الأشرار هي وابنها من بيتهما. وجزعت أرملة أخرى لمرض أمَتها، فاتجهت إلى زوجها الميت ليقي الفتاة من الأشباح الشريرة، التي أصابتها بالمرض، فإن لم يفعل ذلك فسيخرب بيتها. ويفيض باليأس كذلك ما كتبه أحد الأزواج المترملين إلى زوجته. فهو في يأس وبلاء،

(١) Pap. Turin 124, 13.

(٢) كل ما يلي هو كما جاء Gardiner and Sethe: Letters to the dead, London 1928.

ويعتقد أن امرأته هي السبب في شقائه، وإن لم يكن لها أن تشكو منه شيئاً. وهو يبصرها بأن أطفالها كذلك يقاسون العذاب. فإذا كان السبب في شقائه يرجع إلى غيرها من الموتى فعليها أن تطلب العون من أبيها، لأنه رجل قويّ النفوذ في مملكة الموتى.

وإذا كان في هذه الرسائل الساذجة، التي يرجع أغلبها إلى الدولة الوسطى، ما يؤثر في الشعور، فإن في الرسالة التالية من ذلك نصيباً أوفى بكثير.

كان ذلك حوالي سنة ١٣٠٠ ق. م تقريباً، حين كان يعيش في منف موظف أو ضابط كبير؛ وكان عمل يقتضيه التغيب عن بيته فترات طويلة. وفي إحدى هذه الفترات مرضت زوجته «عنخ ـ إيرى»؛ وعلى الرغم مما كفل لها من العناية الطبية، فقد ماتت قبل عودته. فثقل ذلك على نفسه كثيراً ثلاثة أعوام بأسرها. ثم أدرك آخر الأمر أنه لا بد من أن تكون زوجته نفسها هي التي تحول بينه وبين استعادته مرحة. فكتب إليها رسالة ربطها في تمثال خشبي لفتاة، ووضعه في قبر زوجته ليكون لها رسولاً. وخط الرسالة وحده يدلّ على أنها كتبت في ثورة نفسية، وقد جاء فيها: إلى الروح الفاضلة عنخ ـ إيري. أي مساءة اقترفتها إليك حتى أقع في هذه الحالة السيئة التي أنا فيها؟ ما الذي أفعله ضدك حتى تضعي يدك عليَّ، مع أني حقاً لا أقترف ذنباً ضدّك؟ منذ أن كنت زوجك إلى اليوم ـ ما الذي فعلت ضدك مما اضطرّ إلى إخفائه؟ ـ إني لأعرض الأمر الآن بكلمات من فمي أمام آلهة الغرب، وسيُفْصل بينك وبين هذا الكتاب. . . .

لقد اتخذتك زوجة عندما كنت صبياً، وقد كنت معك، ثم تقلدت جميع الوظائف فبقيت معك، ولم أهجرك، ولم أُضْن قلبك.

لقد أخذتك وأنا صبيّ، وتقلدت جميع الوظائف العظيمة لفرعون، ومع هذا لم أهجرك، فقد قلت: لقد كانت دائماً معي[1]. . . ها إن لم تدعي قلبي

(١) كانت الزوجة على ما يبدو من أصل أقل شأناً، وكان من المتوقع أن يطلقها زوجها عندما بلغ مركزاً عالياً فيما بعد.

بيتهج فسأقاضيك، وسيرى الناس ما هو الحقّ وما هو الباطل. ها انظري، حينما كنت أعلم ضباط جيش فرعون وضباط فرقة المركبات، أرسلتهم ليسجدوا على بطونهم أمامك. لقد جلبوا شتى الأطايب ليضعوها بين يديك. لم أخف عنك شيئاً أبداً طول حياتك... وما وجدت أبداً أني غضضت من قدرك ودخلت في بيت آخر كما يفعل الفلاح...

ولما أصبحت في المركز الذي أشغله الآن، لم أكن أستطيع الخروج كما كان الأمر من قبل، فقمت بما يقوم به رجل في مركزي حينما لا يكون في بيته، ولم أؤثر نفسي بالعطور والخبز والملابس، فبعثت بها إليك ولم أبعث بها إلى أيّ مكان آخر، فأنقص من قدرك. ولما مرضت المرض الذي أصابك، بعثت إليك بأحد رؤساء الأطباء، فأعدّ لك الدواء، وقام بما كنت تطلبين جميعاً. ولما رافقت فرعون في سفره إلى الجنوب قضيت ثمانية أشهر بلا طعام أو شراب. فلما جئت منف، رجوت فرعون أن يمنحني إجازة، ثم ذهبت إلى مسكنك وبكيت مع أهلي أمام بيتك كثيراً. وقدمت ثياباً من الكتان الرقيق لتكفينك، وسمحت بصنع ملابس كثيرة، ولم أدع شيئاً طيباً لم أفعله من أجلك.

وهأنا قد قضيت ثلاثة أعوام إلى الآن وأنا هنا قعيد لا أذهب إلى بيت آخر، مع أن رجلاً مثلي ليس في حاجة إلى ذلك، ولكني فعلت هذا من أجلك. ها انظري إذاً كنت لا تعرفين الخير من الشرّ، فإنك ستقاضين».

وفي نهاية الخطاب أضاف هذه الحاشية: «ها انظري: إن الأخوات[1] اللائي في البيت... إني لم أذهب إلى واحدة منهن».

والموتى في هذه الرسائل ليسوا هم أتباع أوزيريس الهادئين، الذين غادروا عالم الأرض ـ حقاً إن اسمه لا يرد في أيّ من هذه الرسائل ـ ولكنهم كثيراً ما يساهمون في هذه الحياة، فهم يحبون ويكرهون، كما كان الأمر من قبل، ومنهم

(١) هذا هو التعبير عن الحبيبة في اللغة المصرية.

الأقوياء ومنهم الضعفاء، على نحو ما في الحياة الدنيا. وفي هذا تتجلى التصوّرات الشعبية التي كثيراً ما نجدها في غير هذه الرسائل. ولا تخلو متون الأهرام من الحديث عن الموتى الذين يسيئون إلى المتوفى أو يعتدون عليه[1]، أو يتلفون قبره[2]. أما الفكرة المماثلة، التي تذهب إلى أن الموت والموتى يجلبون للأحياء المرض والهلاك، فقد ظلت في جميع العصور، كما سنرى فيما بعد.

---

(١) متون الأهرام ٦٣.
(٢) متون الأهرام، ١٦٥٦.

الفصل الخامس عشر

العناية بالموتى

منذ كشفت الحفائر في عشرات السنين الأخيرة عن أقدم جبانات مصر، ونحن نعلم أن الدفن كذلك في هذه البلاد، التي بالغت في الاحتفال بموتاها، كان في بداية الأمر بسيطاً جداً. فكانت الجثة توضع في حفرة صغيرة، بحيث ترقد على جانبها الأيسر على هيئة القرفصاء والركبتان مثنيتان. وقد كان يصيب الجثة التلف في هذه الحفرة، بحيث كان لا يجد من يكشف فيما بعد عن مثل هذا القبر، غير هيكل من عظام متناثرة. وقد احتفظت مصر فيما بعد دون أن



٨٩ ـ قبر من أقدم الأزمنة (من صورة فوتوغرافية من عمل ج. ريزنر)

تعلم، بذكرى هذه الطريقة القديمة للدفن، إذ ظلّ يرجى للميت في الدعوات الجنازية أن تلتئم أعضاؤه من جديد، وأن يلتحق رأسه بعظامه ثانية. ولم يفهم العصر التالي الذي عمل على حفظ الجثث في شكل المومياء، مثل هذه الصيغ، وكثيراً ما كان يؤوّلها بالأسطورة التي فيها مزّقت جثة أوزيريس. على أن الأقرب إلى الاحتمال في واقع الأمر هو أن تكون هذه الأسطورة قد نشأت بالأحرى من مثل هذه الصيغ التي ضاع معناها.

ومن بعض قبور هذا العصر السحيق ما يدل فيه دفن الميت على عناية بينة بحفظ الجثة، التي هي وإن كانت قد احتفظت بوضع القرفصاء، كما كان الأمر من قبل، فقد يخاط عليها جلد أو حصير، أو كانت تودع في قدرين كبيرين[١]؛ على أنها لم تكن تلبث أن تكتسب في الأرض الجافة يبوسة تغدو معها كمومياء طبيعية. وقد يحفر القبر على عمق أكبر، وتكسى جوانبه باللبن، ثم يوضع من فوقه لوح من حجر، يحمي ما بداخله من أن يتحطم. وكان أصون من هذا وأسلم حفر بئر في الصخر غير عميقة، تتصل بقاعها غرفة صغيرة، كانت تسدّ فتحتها بالبناء، فإذا ردمت هذه البئر، ثم جمع من فوقها كومة من الحجر، كان في ذلك ما يحمي الجثة من اللصوص وبنات آوى.

ولقد فطر الإنسان على ألا يترك أهله وأقرباءه الذين أحبهم وكرّمهم في الحياة دون رعاية بعد الموت. وليس يهمّ في هذا تفاصيل ما تصوّره الإنسان عن مصير الميت، فالشعور الغامض نفسه، الذي يوحي بأنه لا يستغني عن شيء مما استخدمه في الحياة، ليؤدّي إلى تزويده بأهمّ الضرورات. لهذا لم يفت المصريين في أقدم عصورهم تزويد موتاهم بما يلزمهم من أثاث جنازي. فكان يوضع إلى جانب الميت قبل كلّ شيء قدور وصحاف فيها طعام وشراب حتى لا يجوع أو يعطش؛ وكان يتلقى الخطاطيف والنصال من الحجر، ليصطاد طعامه

(١) لا سبيل هنا إلى بحث ما إذا كانت هذه الطرق المختلفة للدفن ترجع إلى مجموعات مختلفة من السكان.

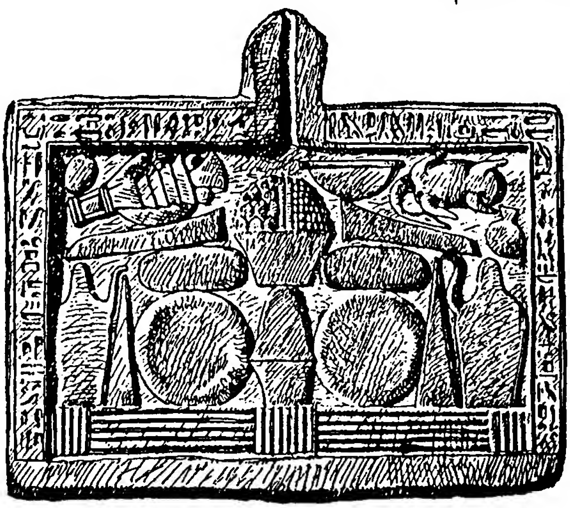
ويحمي نفسه ضد أعدائه، ورقعة اللعب ليزجي بها وقته، ودبابيس الشعر وصلايات من الحجر لصحن الصبغ الأخضر، حتى يحسن ترجيل شعره وصبغ ما حول عينيه، كما فعل من قبل في حياته. وكانت تضاف إلى هذا أشياء أخرى لا يمكن أن تفيده إلا عن طريق خارق للعادة. فمن شأن قارب صغير من صلصال أن ييسر له عبور المياه التي تحيط بحقول الأبرار في السماء كما رأينا فيما مضى (صفحة ٢٩٥)؛ كما أنه من شأن الثور من الصلصال أن يذبح له، والخادمة من الصلصال في الدن الكبير أن تعجن بقدميها عجينة الشعير، لتعدّ له الجعة، شرابه المحبوب. ويبدو كذلك أن تلك التماثيل الأخرى التي تمثل نساء جاثيات، أنها إنما كانت لتمنح سيدها ملذات الهوى والحبّ. ولهذا لوّنت بألوان مختلفة جميلة، حتى لتبدو كأنها اتخذت زخرفها وزينتها؛ ولهذا أيضاً غلظت لديها الأفخاذ والأعجاز، ولا يزال يعتبر ذلك حتى اليوم عند سكان أفريقيا ذروة الجمال في النساء.



٩٠ ـ تمثال امرأة من أحد قبور ما قبل التاريخ
(برلين ١٢٧٦٧)

وفي وقت مبكر كذلك، تطرّق الشك في أن ما يوضع إلى جانب الميت من طعام كان يكفيه على الدوام؛ لذلك ذهب المتخلفون الأحياء إلى أن من واجبهم كذلك العناية بطعام الميت بعد دفنه. ولم يكن الغرض من هذا بطبيعة الحال إطعامه كل يوم، وإنما كان ينبغي أن يحصل الميت المسكين على بعض الطعام على الأقلّ في أيام الأعياد التي جرى الناس فيها على أن يأكلوا في بيوتهم أطيب الطعام، ويشربوا أحسن الشراب. لهذا كان يبسط أمام المقبرة حصير،

توضع عليها صحفة عليها رغيف[1]، ثم يسكب الماء، وعند ذاك ينادي على الميت: «قم خذ خبزك هذا مني»[2]. فيخرج من القبر وينعم بالطعام. ولم يكن في مثل هذه المسائل التي تسمو على الطبيعة، ما يقلق شعور الإنسان، ألا يرى الميت، وألا ينقص الطعام.



٩١ ـ مائدة قربان من عهد الدولة الحديثة. من أسفل الحصيرة الأصلية وعليها صحفة الخبز، ومن فوق ذلك كدست الرغفان وجرار الماء وسلة الفاكهة وإوزة مشوية وغيرها (برلين ٢٢٧٣).

وكان المصريون يسمون مثل هذا القربان الجنازي ـ أو إطعام الميت بعبارة أصحّ ـ «الخروج على الصوت»، وذلك لأن صوت الإنسان الحيّ هو الذي يستدعي الميت من القبر. وكان القيام بها من واجب الأبناء البررة[1]، فإن الابن

(١) مما يدل على أن قربان الميت في الزمن القديم كان على هذا النحو علامة الكتابة التي كانت تستخدم للتعبير عن ذلك؛ انظر أيضاً الشكل ٩١.

(٢) متون الأهرام ٢١٧.

(١) إن الفكرة التي تذهب إلى أن القربان كان يقدم للموتى عن خوف رغبة في استرضائهم، ليست فكرة مصرية بأية حال. ولا يعرف المصريون أيضاً ما ينسب إليهم عادة من تقديس الموتى كآلهة؛ أما ما وجد فيما بعد من دوافع لمثل هذا التقديس، فقد نشأ من تصور =

«يزرع الشعير، ويزرع القمح ليهديهما إلى الأب»[1]. فإذا قُدم للأبوين القربان فإنهما يجلسان في سرور إلى مائدة الطعام على نحو ما كانا يفعلان من قبل في الحياة، وهو ما يدل عليه النقش القديم في مجموعة الآثار في برلين.



٩٢ ـ الطعام الجنازي على لوحة من الحجر من مقبرة زوجين؛ وعلى الجانبين بعض أبنائهما (برلين ١٤٧٩٥).

وكانت المقابر الفخمة، والعطايا الوافرة، قاصرة أول الأمر على الملوك. فمقبرة نقادة الكبيرة في مصر العليا، التي دفن فيها أحد ملوك العهد العتيق[2]، هي مبنى مستطيل من اللبن ذو جدران قوية مائلة إلى الداخل، تتخللها مشكاوات متداخلة تضفي على البناء شكل القصر؛ وكان السقف من جذوع النخل. وكانت تشتمل على غرفة كبيرة للجثة في الوسط، وعلى أربع غرف أخرى، كانت تحتوي على كميات كبيرة من الأطعمة، وقدور النبيذ، والجعة، وأرائك من العاج، وأواني فاخرة من الأحجار، وما عدا ذلك من سائر الأثاث المنزلي، الذي يحتاج إليه الملك بعد الموت. وفي أبيدوس بنى ملوك هذا العهد الباكر

= الميت على شكل أوزيريس جديد، ولم يكن لهذا معنى العقيدة.

(١) متون الأهرام ٧٦١.

(٢) لعله مينا المشهور. عما يلي انظر .Ae. Z، مجلد ٣٦، صفحة ٨٧.

مقابر مماثلة. وتتمثل فيها عادة غريبة: ففي الغرف الصغيرة القريبة من مقبرة الملك يرقد بعض حاشيته من نسائه وحرسه وأقزام البلاط وحتى كلابه، وذلك وفق ما تدلّ عليه الشواهد الصغيرة للمقابر. ونحن لا نخطىء حقاً إذا فكرنا هنا في تلك العادة التي نعرفها أيضاً في شعوب أخرى: فالمدفونون في هذه الغرف كان لهم شرف مصاحبة سيدهم في الموت عند وفاته، إذ ما كان ينبغي أن يكون في مملكة الموتى من غير خلصائه. ومثل هذه العادة تتجلى كذلك في مقابر الأفراد من نفس العصر، إذ كانت توضع في بعض الأحيان إلى جانب الميت حيواناته المحبوبة كبطة، أو ثلاثة حمير، وكانت تدفن في توابيت على نحو ما يدفن الإنسان[1].

وبعد ذلك بأربعة قرون نجد أنفسنا في عالم آخر لا يعرف شيئاً من هذه العادات الهمجية القديمة. فقد عمل أشراف البلاط إذ ذاك، على أن يدفنوا في مقابر عظيمة، ابتنوها من حول مقبرة الملك، التي تسمو في شكل هرم على سائر ما عداها. وأوّل ملك شيد بناء مدهشاً على هذا النحو الملك زوسر. ولم ينسَ المصريون حتى في الأجيال المتأخرة وزيره امحوتب، الذي أقام البناء الضخم للهرم المدرّج من الحجر لا من اللبن.

ولا علاقة لهذه المباني في حقيقة الأمر بالفنّ المصري، الذي كانت الأهرامات تعتبر علماً عليه فيما مضى، ذلك لأن هذه الكتل الحجرية الموحدة الشكل، ليست في أساسها إلا كومة الحصى والتراب، التي كانت تكوّم فوق الجثة لتقيها الدمار، والتي زيد في مجموعها إلى حدّ الإفراط. وليس من شكّ في أنه قد أدّى إلى هذه المغالاة ذلك الاعتقاد الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق، وهو الاعتقاد بأن الإنسان سيبعث لحياة جديدة إذا ظل جسده سليماً يتصرّف به كيفما شاء.

---

(١) انظر Journal of Egyptian Archaeology المجلد الأول صفحة ٤٣.

وهكذا لا يشتمل الهرم في داخله على أية غرفة أخرى غير الغرفة الصغيرة التي يوجد فيها التابوت؛ أما الدهليز الضيق الذي يؤدي إلى غرفة التابوت هذه، فكان يغلق بعد الدفن إلى الأبد[١]. ولهذا فليس في الهرم نفسه مكان، يمكن أن تقدم فيه للملك المتوفى الأطعمة، وتؤدى فيه الشعائر، التي كانت تقتضيها الطقوس، وإنما كان هذا كله يؤدى في مبنى خاص كبير، يقع من أمام الهرم، نسميه الآن المعبد الجنازي.

وكان الملوك في القرون الأولى من بناء الأهرام يتبارون في تشييد الأهرامات الضخمة، وكثيراً ما كان يستعاض في أثناء الحكم عن بناء مشروع أول متواضع ببناء آخر أعظم وأفخم. وفي بعض حالات معينة يتبين أن الملك مات قبل أن يتمّ بناء الهرم والمعبد، وفي هذه الحالات كان يقع على كاهل خلفه العمل على إتمامهما، وهو عمل كان يؤديه في كثير أو قليل من الإقبال[٢].

وقد ادّخرت الأقدار لملكين من الأسرة الرابعة، وهما خوفو وخفرع، أن يبزا إلى حدّ بعيد في مبانيهما سائر مباني أسلافهما وخلفهائهما. ولتكوين فكرة عما يسمى «الهرم الأكبر» للملك خوفو، فليتصوّر المرء سطحاً مربعاً طول كل جانب منه ٢٣٣ متراً، وهو مكان يعادل في برلين حديقة النزهة، أو ميدان فتّنبرج، وقد أقيم عليه جرم من الحجر يفوق في ارتفاعه ارتفاع كاتدرائية شتراسبورج. ولم يكن الإنسان الطبيعي ليتصوّر أن مثل هذا البناء الضخم قد يكون لحماية جثة واحدة، لهذا شغل الخيال بالبحث عن سبب آخر لمثل هذا البناء. ولا زلنا نرى في أيامنا هذه مدى الحماقات التي يتردّى فيها الإنسان في هذا الشأن. ففي كل البلاد الآن أناس يحلفون أن الهرم الأكبر، إنما بني ليخلد بمقاييسه أسراراً في الرياضة أو الفلك أو الدين.

---

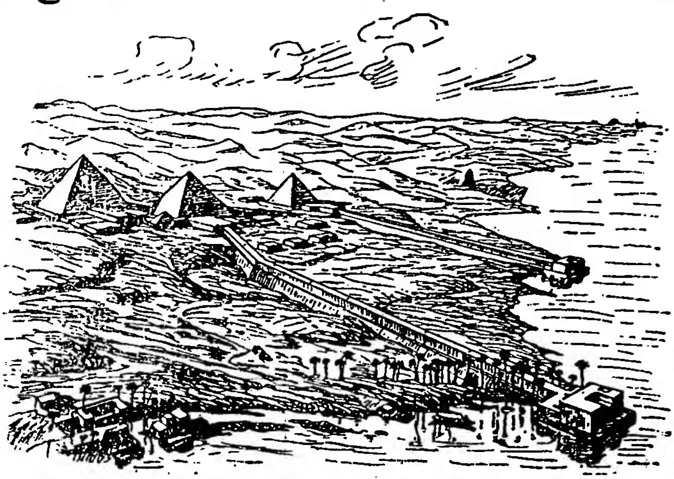
(١) يشتمل هرم ني أوسر رع مثلاً على ١٠٧٠٠٠ متر مكعب من البناء، بينما لا تزيد سعة الغرف الداخلية على ٢٠٠ متر مكعب.

(٢) كما هو الأمر في المعبد الجنازي للملك نفر إير كارع. انظر Borchardt, Grabdenkmal des Koenigs Nefer - ir - ka - re صفحة ٤٩ وما بعدها.

على أنه من اليسير علينا أن ندرك أن هذين الملكين اللذين كلفا شعبهما مثل هذه الأعمال الضخمة، قد عرفا عند الأجيال المتأخرة بانعدام التقوى والصلاح بنوع خاص.

وهناك شيء آخر جدير بملاحظتنا في هذه الأبنية الضخمة للأسرة الرابعة؛ فالأهرام ومعابدها على حدّ سواء تخلو من الكتابات أو الصور، إذ ما كانت تؤثر في النفس إلا بضخامة جرمها ليس غير[١].

وقد اختلف الأمر في الأسرة الخامسة، وبخاصة في المعابد الجنازية. وإنا لنعرف الآن تفاصيل أجزائها الفخمة بفضل الحفائر الألمانية[٢]. فعلى رصيف الميناء حيث كانت ترسو السفن، مدخل فخم يخرج منه دهليز طويل مسقوف يبلغ طوله في إحدى الحالات ٤٠٠ متر ـ يؤدي صعداً إلى سطح الهضبة، حيث



٩٣ ـ أهرام أبي صير ومعابدها الجنازية. من أسفل في الوادي المداخل ومنها دهاليز مسقوفة تؤدي إلى المعابد (عن بورخارت).

---

(١) نعرف اليوم أن هذه البساطة إنما كانت اتجاهاً مقصوداً لذاته يناقض ما كشف عنه من فن سابق رشيق في المعبد الجنازي للهرم المندرج.

(٢) يعتمد ما يلي على ما وجد في معبدي في أورني رع وساحورع.

يقوم المعبد، وفي مقدمته ردهة، كان يجتمع فيها من كان لهم حق الاشتراك في الاحتفالات، ومنثم يمضون إلى الفناء الواسع ذي الأساطين، حيث كان يمكنهم إذا فتحت الأبواب رؤية تماثيل الملك المخلد. أما الجزء الخلفي في المعبد فكان على نقيض هذا مخصصاً للعبادة الجنازية بالذات. وهو ينتهي بما يسمى الباب الوهمي، وهو ذلك المكان الذي يظن أن الميت يظهر فيه ليستقبل ما يقدم من طعام. وكذلك تتفق زخرفة المعبد الداخلية، مع الأغراض المختلفة من غرفه. فالنقوش المصوّرة في بهو الأساطين وفي الجزء الأمامي من المعبد تتعلق بأعمال الملك وحياته. أما في الغرف الداخلية فتحلى الجدران صور أنوبيس وغيره من آلهة الموتى.

وفي عهد آخر ملوك الأسرة الخامسة ظهر كذلك شيء آخر فيه فائدة علمية لنا تفوق ما لسائر صور المعابد الجنازية كثيراً، وذلك لأن جدران غرفة الدفن والدهليز في هرم هذا الملك وأهرام خلفائه من الملوك تغطيها كتابات لا تنتهي، نسميها الآن متون الأهرام، وهي عبارة عن أوراد قديمة جداً نستقي من معينها بنوع خاص معلوماتنا عن أقدم ديانة للمصريين. ولقد سجل في واقع الأمر للملك المتوفى هنا كل ما أمكن أن يساعد على سعادته في الحياة الثانية.

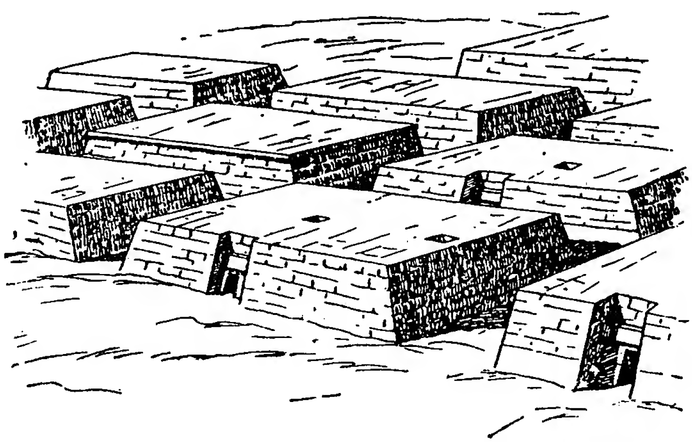
وكان بناء الهرم يعتبر في الدولة القديمة أعظم عمل في حياة الملك، ويـدل على ذلك ما كانت تجري به العادة إذ ذاك من تسمية مقرّ إقامة الملك باسم هرمه. وكان اسم كل هرم يتضمن الإشادة به باعتباره أثراً فخماً خالداً؛ فكان الهرم الأكبر في الجيزة يسمى «الأفق»، والهرم الثاني «العظيم»، وهناك هرم آخر كان يحمل اسم «لأوسركاف المقاعد الطاهرة».

ومن حول هرم الملك كان يدفن أولئك الذين أحاطوا به في الحياة، وهم الأمراء والأميرات وسائر عظماء بلاطه.

وكان الدفن حول هرم الملك يعتبر منّة خاصة من الملك، وسنرى فيما بعد كيف كان الملك يساعد أصفياءه في إقامة مثل هذه المقابر.

ولم يكن من اليسير دائماً حتى على الرجل الموسر، أن يشيد له قبراً فخماً يتفق وما كانت تقتضيه مجاورة المقبرة الملكية. ويقصّ علينا أحد الرجال بصراحة أنه لم يقرّر ابتناء قبر له إلا في مرضه، وأنه عندما عوفي قام ببنائه[١]. أما إذا لم يكن الميت قد استطاع إعداد مقبرته، فقد كان أبناؤه هم الذين يقومون بهذا الواجب، وهكذا يقول أحد الأبناء إنه «أنشأ هذا (القبر) لأبيه وأمه» عندما «ارتحلا إلى الغرب»[٢]. ومهما يكن من شيء فقد كان من واجب الإبن الأكبر الاهتمام بمقبرة أبيه[٣].

وكانت هذه المقابر تقع حول الهرم كأنها مدينة ذات شوارع منتظمة، وهي تختلف كثيراً في حجمها، وفي مادة بنائها، على أنها كلها في جوهرها من طراز واحد، أطلق عليه الفلاحون في الوقت الحاضر اسماً غير جليل، ولكنه وافٍ بالمعنى، وهو «المصطبة»، أي المقعد، وتبدو المصطبة في مظهرها الخارجي



٩٤ ـ مصاطب (عن برو ـ شبيبي)

على الشكل المستطيل الذي تتميز به أقدم المقابر الملكية، غير أنها تجمع إلى

---

(١) Urk, I, 178 وفق تكملة زيتا.

(٢) Urk. I, 161.

(٣) Sethe Ae. Z. 61,69 ff. ثم انظر كذلك Urk. I, 162.

هذا سائر الوسائل الاحتياطية، التي ابتدعت حتى ذلك الوقت لوقاية الجثة.



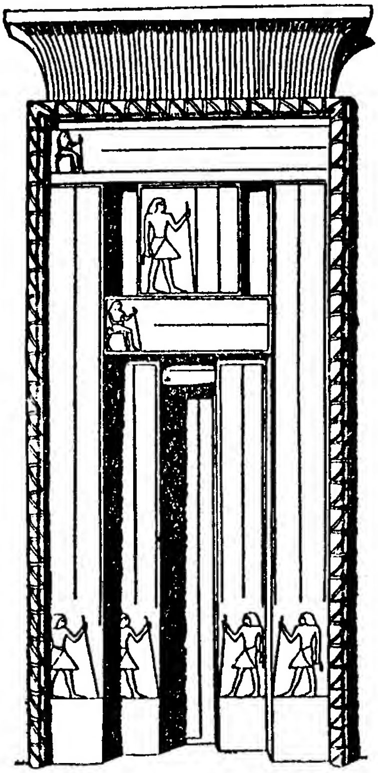
٩٥ ـ تقديم القربان أمام إحدى مقابر الدولة القديمة. وفي أعلى تمثال الميت في ناووس (.L.D الجزء الثاني لوحة ٣٥).

فكانت تحفر في الأرض الصخرية حفرة عمودية عميقة (نسميها البئر)، ثم تنقب في نهايتها غرفة صغيرة جانبية، كانت توضع فيها الجثة. ومن فوق البئر كانت تقام كومة مستطيلة من كتل الأحجار، تكسى جوانبها بجدران من الحجر المنحوت، وبذلك كانت المصطبة تبدو كأنها بناء مشيد له جدران مائلة. وكان يزاد في ارتفاع البئر حتى يبلغ سطح المطبة، إذ كان يجب إنزال الجثة منه يوم الدفن[١]. فإذا تمّ هذا سدّ المدخل إلى غرفة الميت وملئت البئر حتى أعلاها بالأحجار ونقارة الأحجار.

وإذ تصوّر المصريون أن مملكة الموتى كانت تقع في الغرب، أو أن الدخول إليها كان من جهة الغرب، فهم لهذا كانوا يتجهون أيضاً إلى هذه الناحية

(١) لنقل التابوت إلى سطح المصطبة، حيث كان يقام أيضاً الاحتفال الجنازي، كان ينشأ طريق صاعد، يزال فيما بعد، انظر .Schaefer, Ae Z المجلد ٤١، صفحة ٦٥.

من السماء في كل ما كانوا يأتون من أجل الميت. فكانت المقابر تأخذ مكانها على حافة الهضبة الغربية حيثما أمكن، كما كان المكان الذي يقدّم فيه القربان للمتوفى[1] يتخذ أمام الجدار الشرقي للمصطبة، بحيث كان مقدم القربان يتجه إلى الغرب عندما يخاطب الميت. وكان من المعتاد تمييز مكان تقديم القربان هذا في المصطبة بما يسمى بالباب الوهمي، وهو صورة نمطية للباب. وهو يمثل في الوقت نفسه المدخل إلى داخل القبر، والباب الذي يخرج منه الميت



٩٦ ـ باب وهمي حذفت من عليه الكتابات (برلين ١١٠٨)

(١) في المقابر الأقدم عهداً كان كثيراً ما يخصص للطقوس الجنازية مبنى إضافي من اللبن يحيطه فناء.

لاستقبال ما يقدمه الأحياء من تقدمات. وفي المصاطب الكبيرة كان يؤثر تعميق مكان تقديم القربان على شكل غرفة، يقوم في جدارها الخلفي الباب الوهمي. وكانت هذه الغرفة صغيرة في بداية الأمر. فغرفة مقبرة متن، التي توجد في برلين، والتي تنتمي إلى الأسرة الثالثة، ليست في حقيقة الأمر سوى مشكاة عميقة ضيقة، يتسع مؤخرها على شكل الصليب أمام الجدار الخلفي. وهي لم تكن لتسع غير الشخصين اللذين كان عليهما أن يقوما بالصلاة وتقديم القربان في المقبرة، كما كانت تسمح فضلاً عن ذلك لمقدم القربان بأن يضع الأطعمة على يسار الباب الوهمي ويمينه. وقد حليت جدران هذه الغرفة الصغيرة بشتى الصور المناسبة[١]، فأهل الميت يقدمون له الأطعمة والأثاث المنزلي، وكلابه (كان الميت رئيس الصيادين) تصيد له الحيوانات لقربانه، والكهنة يؤدون له الطقوس. وعلى المدخل نصان طويلان يتحدثان عما أصابه متن في حياته من توفيق، وعما شيده لنفسه من بيت جميل وحديقة كبيرة.

وفي عهد خوفو، أي بعد بضع عشرات من السنين، أصبح من المرغوب فيه أن تكون الغرف أكثر اتساعاً، والزخارف أكثر تنوّعاً؛ وأخيراً كان في الأسرتين الخامسة والسادسة أن أبتنى كثير من العظماء بيوتاً حقيقية في مصاطبهم. فمقبرة مرروكا وزير الملك پيپي (حوالي سنة ٢٣٧٥) تحتوي على ما لا يقل عن إحدى وثلاثين غرفة خصص منها واحدة وعشرون غرفة للميت نفسه، وستّ غرف لزوجه وأربع لابنه. ثم ماذا من الصور لم يصوّر في مثل هذه المقابر؟ لقد صوّرت فيها زراعة الأرض، وتربية الماشية، وصيد الحيوان

(١) ليس هناك ما يدلل على صحة الرأي الحديث، الذي يذهب إلى أن هذه النقوش إنما وجدت مكانها في المقابر ليكون لمن تمثله من الخدم والحيوان وما إلى ذلك نصيب مع الميت في البقاء بعد الموت، وليقوموا أيضاً بخدمته في الحياة الثانية. أضف إلى هذا أن هذا الرأي في حد ذاته قليل الاحتمال؛ وإلا لكانت هذه الصور قد اختيرت بطريقة منظمة، ولما كان للحرية والاختيار مجال كبير في رسمها. إن هذه الصور إنما ترجع إلى ما ترجع إليه الزخارف في سائر العالم من أسباب، ألا وهي فرحة الامتلاك ولذة العمل الفني.

والطيور، كما صوّر فيها الصناع، والملاحون، والموسيقيون، والراقصات، وذبح الضحايا من الحيوان، وعصر النبيذ، وسائر ما عدا ذلك كما كان يبدو ساراً مشوقاً للطبقة الممتازة من المصريين(١). حقاً إن لمعظم هذه الصور صلة أيضاً بالمقبرة ـ فالماشية، والصيد، والطيور، والحبوب، والنبيذ، هي لما يقدم في المقبرة من قرابين، والصناع إنما يعملون لتزويدها بما يلزمها من أثاث، والملاحون ينقلون التقدمات إليها، والموسيقى والرقص للترفيه عن الميت، كما كان يرفه عنه في الحياة، على أن من يدقق النظر لا يلبث أن يلاحظ أن هذه العلاقة قد أخذت تغدو مع الزمان شيئاً ثانوياً، وإلا لما كانت هناك ضرورة إلى تصوير الملاحين وهم يعتركون، إذا كان المصريون قد تخيلوهم حقاً يجلبون التقدمات فحسب؛ ولم يكن من الضروري كذلك أن يخلد على جدران المقابر ما يتنادى به الجزارون، أو ما يغنيه حملة المحفات، أو أسماء القفزات الجريئة للراقصات. في هذا كله ندرك أن هناك محاولة واضحة لزخرفة المقبرة بطريقة فنية زاهية، حتى ولو كان في تعليل ذلك شيء من افتيات. وإنه لمن غير المحتمل أن يكون هذا التغيير قد حدث بغير سبب قويّ، لهذا يعتقد أنه قد سادت في ذلك الوقت عادة إحياء أعياد الموتى بالمآدب البهيجة بما يناسب الغرف الكبيرة ذات الزخارف الزاهية أكثر مما يناسب الغرف الضيقة ذات الصور المملة.

وفيما عدا ذلك كذلك أصبح كل شيء يتصل بإطعام الميت في الدولة القديمة أشدّ أناقة، وأحفل بأطايب الطعام من قرن إلى قرن. أجل لقد كان يسرّ المصريين منذ وقت مبكر أن يغالوا على الطريقة الشرقية فيما كانوا يتمنون للميت من طعام، إذ كانوا يتمنون له ألف رغيف، وألف قدر من جعة، وألف ثور، وألف إوزة، وألفاً من كل شيء طيب طاهر، على أن هذا لم يكن غير أماني لا

---

(١) لقد سمح كذلك في بعض حالات معينة للفنانين الذين عملوا في المقبرة أن يمثلوا أنفسهم في صورها. ومن أمثلة ذلك أن رئيس المثّالين «بتاح ـ عنخ ـ ني» الذي ندين له بالنقوش الجميلة في مقبرة بتاح ـ حتب، مثل نفسه وهو جالس في قارب ينعم بالطعام. انظر Ae. Z مجلد ٣١ ص ٩٧، ٩٩.

يكلف نطقها شيئاً، وإنما كان المعتاد أن يضع الأحياء بضعة أرغفة على مائدة القربان أمام الباب الوهمي، ثم ينضحونها بالماء؛ فإذا أضافوا إلى هذا في أيام الأعياد العظيمة الممتازة بعض الفاكهة، وفخذ ثور، فإنهم كانوا يظنون أنهم قاموا بواجبهم بما يبلغ حد الكفاية. وكذلك لم تكن القائمة الطويلة للأطعمة التي كان يؤثر الإنسان كتابتها إلى جانب صور الميت، وهو يتناول الطعام، بما تشمله من أنواع النبيذ الخمسة، وأنواع الفطائر الأربعة عشر، وأنواع اللحم العشرة، إلا أمنية طيبة فقط على وجه التأكيد[1].

على أن ذلك قد غدا شيئاً آخر في تلك المقابر الكبيرة، التي سبق الكلام عنها، ويدل على ذلك عدد من كان يقوم بالعمل فيها من الموظفين من الدرجات الدنيا والوسطى والعليا، وهم «خدمة الكا» أو كهنة الميت كما نسميهم. وحيثما كان الأمر يقتضي عدداً كبيراً من الموظفين لتقديم القرابين ـ في مقبرة مرروكا أمكنني حصر ٤٧ كاهناً ـ لا بد أن كانت كذلك القرابين المقدمة من كميات كبيرة. ولعل كثرة عدد الكهنة في هذه المقابر إنما كانت على مثال ما جرى عليه الملوك، فقد كان هؤلاء يستخدمون في أهراماتهم عدداً كبيراً من الأشراف كهنة جنازيين. وبهذا لم يقدّر للنظام الطبيعي القديم البقاء، ذلك النظام الذي كان يعهد فيه إلى الأبناء والأحفاد أمر الاهتمام بالموتى، إذ كان على هؤلاء الأفراد ـ وكانوا من عليه القوم ـ واجبات أخرى كثيرة، لم تكن لتسمح لهم بالقيام كذلك بما كانت تتطلبه المقبرة من رعاية منتظمة. ولهذا لم يبق إلا غض النظر عن تقوى الأبناء، والاهتمام بالموتى عن طريق العمل المأجور. فكانت الاتفاقات تعقد مع بعض الأقارب أو بعض خدم الأسرة أو مع بعض الأشخاص من غير الأهل والأقارب، يمنحون فيها ملكية بعض الأراضي أو بعض الدخول، على أن يتكفلوا مقابل ذلك بتزويد الميت بالقربان وتأدية الطقوس الضرورية، وأن يحفظوا المقبرة في حالة جيدة.

---

(١) ربما كانت هذه القائمة مأخوذة من المقابر الملكية، التي كانت دائماً نموذجاً لمقابر الأفراد.

وفي المقابر الكبيرة كان هؤلاء الكهنة الجنازيون يؤلفون جماعة من مراتب مختلفة لها قوانينها الخاصة. ومما تتميز به هذه القوانين، أن قد روعي فيها أيضاً حساب المنازعات بين أفراد الكهنة الجنازيين؛ وفيما عدا ذلك كان لهذا النظام مضارّه أيضاً، ولهذا عدل عنه في الدولة الوسطى، إذ فضل إذ ذاك تخصيص كاهن واحد فقط للميت، يزوّد بالدخل الضروري، ولا يجوز له أن يورث وظيفته ودخلها إلا لإبن واحد من أبنائه[١].

ويلاحظ كذلك في الدولة القديمة، أن هذه العادة التي استحدثها العظماء لم تلبث أن انتشرت بين الطبقات المتواضعة، فها هو ذا رجل لم يكن إلا كاهناً جنازياً، قد ترك لنا لوحاً[٢] أحصى عليه مختلف الأشخاص الذين ألحقهم بمقبرة ابنته. فإذا جاز لنا أن نستنتج حالة مركزه المالي من رداءة كتابة هذا اللوح، فإنه لم يكن ليستطيع أن يسخو في العطاء على هؤلاء الأشخاص؛ ومع ذلك فلعل الملك أن يكون قد ساعده في ذلك على نحو ما كان يفعل كثيراً في ذلك الزمان القديم.

وقد أدّى هذا التدخل من قبل الملك إلى تصوّرات غريبة، لا يمكن لنا التجاوز عنها هنا. ففي الطبقة العليا من المصريين، التي كانت في كثير من الوجوه تعيش على كرم الملك «وتأكل مما يعطيه من فاخر الطعام» في البلاط[٣]، كثيراً ما كان الملك يساعد كذلك بعض الجديرين من أفرادها في تجهيز مقابرهم والإنفاق عليها[٤]. وإنا لنسمع عن الكثير من هذه الحالات، فمن

(١) Ae. Z. 60,83.
(٢) برلين ١٤١٠٨.
(٣) Westcar 7,21.
(٤) وكان يحدث كذلك أن يكرم الملك من مات من الرجال الجديرين، وذلك بمنحه في مقبرته مرتبة أسمى مما ناله في حياته(Deir el Gebrawi الجزء الثاني ، صفحة ٣٥ وما بعدها) ـ وهذه عادة نجد كذلك ما يماثلها في الصين.

الأشخاص من ابتنى له الملك مقبرة كاملة، ومنهم (وكان طبيب الملك الخاص) من منحه الباب الوهمي على الأقل[١]، ومنهم فريق ثالث كان يستجلب لهم التوابيت الحجرية[٢]، ومنهم كذلك من كان يتمنى في مقبرته «أن يكون من المستطاع أن يورد إليه القربان الجنازي من الشون، ومن بيتي المال، ومن مصانع الزينة الملكية... ومن كل مكان للبلاط، يرد منه قربان جنازي»[٣]. وإذا كان هذا قد حدث في الدولة القديمة في بعض الحالات، فلعله كان القاعدة تقريباً في العهود الأولى، حيث كانت المقابر الحسنة لا تزال تقتصر على طائفة صغيرة من أسمى الشخصيات، وهكذا كان يرجى لكل ميت أن يضع الملك الأطعمة أمام قبره. وكما كان يرجى من أنوبيس، إله الموتى القديم، أن يوفر للميت غذاءه، فقد كان يرجى ذلك كذلك من الملك، وكانت أكثر الدعوات تلاوة في المقبرة «ما يعطي الملك من قربان، وما يعطيه أنوبيس! ألف من خبز، ومن جعة، ومن ثيران، وإوز، ومن كل شيء طيب»! وقد ظلت هذه الدعوة إلى العصر الذي غدت فيه فاتحتها غير ذات معنى تقريباً، ولكنها ظلت الدعوة الجنازية المثلى عند المصريين. فقد كانت هذه الدعوة: «ما يعطي الملك من قربان» هي أمّ الدعوات عند المصري القديم، كما أنها ظلت باقية طوال آلاف من سنين، ولئن كانت قد أوّلت وحرّفت، فقد احتفظت دائماً بفاتحتها القديمة، وكانت تستخدم للآلهة نفسها في معابدها. وكانت تكتب طوال عهد الديانة المصرية في المقابر جميعاً، وعلى سائر ما يوضع فيها؛ وإنا لنرى علاماتها الهيروغليفية على الآثار المصرية بكثرة تورث الضجر والملل، مما يدعونا إلى إهمالها وغضّ النظر عنها، على أننا إذا أردنا الخير للمصريين، فإنه لا ينبغي أن

---

(١) Mar. Mast. D. 12.

(٢) نصوص أوني.

(٣) Mar. Mast. E. 12؛ انظر أيضاً العبارة الواردة في Ae. Z. 39, 85 (من الدولة الوسطى) التي تنص على أن الملك يسمح بتقديم القربان للآلهة والقربان الجنازي للميت (برستد).

نتغاضى عنها بهذا الشكل، وإنما ينبغي أن نقرأها بصوت عالٍ وفي ورع وتقوى، لأنها هي التي يرجوها أصحاب المقابر المصرية من الخلف دائماً. إنهم يرجون منا «نفحة من الفم، تفيد الميت ولا تثقل»[١] على من يلفظها، ولا تكلف أحداً شيئاً»[٢]؛ إنهم يرجونها منا بكل ما كان مقدساً عندهم: «بحقّ ما تودون أن تحبكم آلهة بلادكم وتجزيكم، وتخلّفوا وظائفكم لأبنائكم، أو بحق ما تحبون الحياة وتكرهون الموت». وأخيراً أصبحت عبارة «ما يعطيه الملك من قربان» التي «ينبغي أن تتلى كما هي في الكتابات القديمة»، وكذلك عبارة «الخروج على الصوت» (صفحة ٣٣٣ ـ ٣٣٤) التي ينبغي تلاوتها بنص «ألفاظ الأجداد»[٣]، تعويذة سحرية، في مجرّد تلاوتها ما يوفر للميت غذاءه بأسلوب خارق للمألوف، وهكذا انتهى الأمر بالدعوة القديمة أن غدت رقية بكثرة الاستعمال كما هو الشأن في العالم في كثير من الأحيان[٤].

عدا هذا، كثيراً ما تخاطب كتابات المقابر زوّارها في مستقبل الأيام. من ذلك أن أحد أصحاب المقابر يؤكد لنا أن له كل الحقّ في احترام الخلف إياه، لأنه كان رجلاً طيباً «لم يأتِ سوءاً ضد أيّ إنسان»، وأنه «ابتنى مقبرته هذه من موادّ جديدة، ولم يأخذ لها شيئاً مما يملكه إنسان»[٥]. ويقول آخر: إن ما يقدم له «هو ملكه الخالص»، وأن «ماعزه (الخاصة) نذبح» له في قبره، الذي بناه

(١) برلين ٧٣١١ وفي مواضع أخرى كثيرة. وقد يزاد على ذلك، أن هذا يفيد من يفعله أكثر مما يفيد من يعمل من أجله (انظر مثلاً فلورنس ١٥٤٠) ـ وذلك لأن الآلهة تجزيهم خيراً عن مثل هذا العمل الصالح.

(٢) Ae. Z. 45,67 (Spiegelbert).

(٣) Paheri 9,41.

(٤) إن من يعتبر هاتين الصيغتين مجرد تعويذتين سحريتين منذ البداءة، كما هو الشائع الآن، يجب أن يعتبر على هذا النحو كذلك منذ البداءة: «أبانا الذي في السموات» و«السلام لك يا مريم»، وذلك لأنهما يتليان على نحو مماثل لسعادة الأرواح المسكينة.

(٥) برلين ١٥١٢٦؛ يماثل ذلك القاهرة ٢٠٧٤١.

«بيده»[١]. ويذكر رجل ثالث أن «سائر من سيدخلون هذه المقبرة ويرون ما فيها ويصونون كتاباتها. . .، سيصبحون شيوخاً في مدينتهم، وأشخاصاً محترمين في مقاطعاتهم»[٢]. ولكن الويل لكل من يتلف المقبرة: إن الميت سوف «يدعوه أمام المحكمة»، وهو وإن لم يعد يستطيع اللجوء إلى أية محكمة على الأرض، فهو مع ذلك يستطيع الأخذ بتلابيب المسيء أمام الإله «العظيم» الذي يقيم عنده[٣].

ومع ذلك فلم تقَ هذه اللعنات، ولا الأوقاف الثابتة، المقابر المصرية من القضاء المحتوم، الذي لم يكن مناص من تعرّضها له بما يتفق وطبائع الأشياء؛ فما في ميسور الشعوب، حتى أغناها، أن تتحمل دائماً أبداً ما تقتضيه الرعاية المتصلة لموتاها من تكاليف. وماذا عسى أن يفيد ما كان عند الملك الحاكم من رغبة طيبة في أن يؤدي مخلصاً واجب البرّ والتقوى نحو «الملوك الأجداد»، ونحو سائر الملكات والأمراء الأقدمين؟ إنه لا مفرّ من يوم يأتي، يعلن فيه مستشاروه أن من الصعب إنشاء وقف يكفي لمقبرة الملك الخاصة، وأن من المحال إرضاء مطالب سائر أقرباء الملك بما فيه الكفاية. ولذلك فلم يكن بدّ، من الاستيلاء على وقف أحد الأجداد ممن غمرهم النسيان بعض الشيء، والانتفاع به في المطالب القائمة. فإن الملك ساحورع لما أراد أن يسرّ قلب برسن، موظف القصر العجوز، بهبة خالدة، لم يجد أصلح من الاستيلاء على وقف الملكة القديمة نفر حتس، ونقل الفطيرتين والزيت، وهو ما كانت تحصل عليه تلك الملكة كل يوم لمقبرتها من معبد بتاح، إلى هذا الرجل الجديد[٤]. ولا بد أن ما لم يكن من الميسور تجنبه بالنسبة للملكية، على كثرة وسائلها وعظم شأنها، قد وجد سبيله على مدى أوسع في أسر الأفراد؛ ولم يكن بدّ أن تضطرّ

---

(١) القاهرة ١٥٩٦ (نهاية الدولة القديمة).

(٢) Siut I, 225 ff.

(٣) برلين ١٥١٢٦ وكثير غيره.

(٤) برلين ١١٤٠٦ = (Mar. Mast. D. 45).

حتى أغنى الأسر إلى استخدام دخول المقابر القديمة للإنفاق منها على مقابر العصر القائم. ولم يكن كهنة الموتى ليعنوا إلا بالمقابر الحديثة، التي كانوا يجزون عن العمل فيها؛ أما المقابر القديمة فكانت تغلق وتترك وشأنها. ويدلنا مثل من مصر الحديثة على ما كان لا بد من حدوثه إذ ذاك؛ ففي القرن الخامس عشر بعد الميلاد، أنشأ سلاطين المماليك في القاهرة مقابر لهم تنافس في فخامتها مقابر مصر القديمة؛ وكانت عبارة عن مساجد مزوّدة بمدارس وغرف للطلبة، خصصت لها أوقاف غنية للإنفاق عليها وعلى مرتبات عدد كبير من الموظفين ممن كانوا يعملون فيها. وقد ألغيت هذه الأوقاف في بداية القرن التاسع عشر، وبهذا غدت هذه المساجد الجنازية في الوقت الحاضر خرائب متهدمة، تستحقّ الرثاء، بعد أن انتزع منها وسرق كل ما يستحقّ السرقة. ويقيم في بعضها جماعة من الشحاذين، هم أحفاد موظفي الجوامع، الذين كانوا يقيمون فيها فيما مضى، أما البعض الآخر فقد استفادت به الحكومة باتخاذه مخازن[1]. وليس هناك من سبب يدعو إلى الظن بأن الأمر في مصر القديمة قد كان على خلاف ذلك، إذ لا بد من أن كل مقبرة يهمل أمرها، قد كانت تنتهي سريعاً إلى الدمار.

ففي الأسرة الخامسة شيد في هذا المكان معبد جنازي بالغ الفخامة، ولكن كل شيء فيه قد خرب بعد قرون قليلة، وأصبحت تقطن فيه بعض الأسر، التي كانت تدّعي أن أفرادها هم الكهنة الجنازيون للملك القديم ـ على أنه يبدو أنها كانت من ذرية أمثال أولئك الكهنة ـ وكانت هذه الأسر فقيرة، وكانت تدفن موتاها في خرائب المعبد القديم. وحدث بعد ذلك أن حظيت صورة منقوشة للإلهة سخمت، تبقت بهذا المعبد، بشهرة كبيرة من التقديس عند سكان المناطق المجاورة، وهكذا قدّر لهذا المعبد أن يعيش من جديد في الدولة الحديثة معبداً

(١) يبدو أن الحكومة المصرية قد أخذت في الوقت الحاضر تهتم من جديد بهذه المباني التي خربها الإهمال.

متواضعاً لهذه الإلهة (صفحة ٢٠٤). ومما يدل على مدى نهب المقابر التي أهملت رعايتها، ما وجد من أشياء عديدة في المقابر المتأخرة. وقد كان يمحي منها اسم الميت الذي سرقت منه مقبرته في الزمن القديم، ويثبت مكانه اسم المالك الجديد، وعلى هذا النحو تحمل كثير من التوابيت والتماثيل وما إليها من الأثاث الجنازي آثار هذا الاستخدام المزدوج. وتدل المقابر نفسها دلالة واضحة على ذلك، فكلها ـ أو جلها ـ اغتصب ونهب في الزمن القديم. وكثيراً ما يلاحظ أن الكتابة في إحدى المقابر قد طمست بطلاء ثم حلّ مكانها كتابة لميت آخر؛ وأكثر من ذلك شيوعاً ما كان من استخدام المقابر القديمة استخداماً سيئاً فظاً، حيث كانت تهدم في بساطة، ويتخذ ما يصلح نقله من أحجارها مادة سهلة للبناء. ومن ثم طفقت الرياح تحمل إلى أطلال هذه المقابر رمال الصحراء دون أن يعترضها حائل؛ وطفقت الرمال تتجمع وتعلو دائماً حتى تكوّن آخر الأمر مستوى جديد، أقام عليه جيل متأخر مقابره من جديد، وهكذا توجد في سقارة فوق المقابر الخربة من عهد الملك تتي، غير بعيد من هرمه، مقابر أخرى من الدولة الحديثة، تعلوها مقابر أخرى أقامتها مصر في العهد اليوناني، وقد خربت هذه المقابر جميعاً ونهبت. وإن منظر هذه المنطقة الآن لمنظر مخزن. وإنه ليذكرنا بالأبيات القاتمة، التي يرثي فيها شاعر مصري قديم عقم الأبنية الجنازية جميعاً: «هؤلاء الذين بنوا بالجرانيت الأحمر، وأولئك الذين بنوا في هرم بهوا؟. وأولئك الذين أبدعوا شيئاً جميلاً في هذا العمل الجميل... إن موائد قرابينهم خالية كموائد «المكدودين» الذين يموتون على رصيف الميناء دون خلف»[(١)].

ومن حين لحين، كان أحد الأحفاد الأتقياء يشعر بأن من واجبه إعادة بناء مثل هذه المقابر؛ وهكذا يفخر إنتف، أمير أرمنت في الدولة الوسطى: «لقد وجدت غرفة قربان الأمير نختي ـ إقر مهدمة، وكانت جدراتها قديمة، وكل تماثيلها مهشمة، ولم يكن من أحد يهتمّ بها. فشيِّدت من جديد، وزيد في

---

(١) Gespraech eines Lebensmueden 60 ff. (Litt. S. 125).

رقعتها، وصنعت تماثيلها من جديد، وأقيمت أبوابها من الحجر، وذلك لكي يسمو مقرّه على مقرّ الأمراء العظام الآخرين»[1]. وكان ما أداه انتف يعتبر في حقيقة أمره واجباً دينياً؛ ولكن ما أكثر الذين يفخرون بأنهم «جدّدوا ما كان مهدماً» وما أقلّ من عملوا جدياً على ذلك! على أن الأمر قد كان مستحيلاً حقاً. ومع ذلك ففيم كان يفيد تجديد بناء المقابر المتهدمة، إذا كان اللصوص، كما كان الأمر في كثير من الحالات، قد اقتحموا غرفة التابوت نفسها، وانتزعوا الجثة وهشموها؟ لقد كان هذا بالذات هدفهم المعتاد، لأنهم كانوا يجدون في غرفة الدفن سائر ما كان يمكن الانتفاع به بسهولة. أما ما كان يوجد في غرفة القربان فوق سطح الأرض من موائد للقرابين، وقصاع حجرية، وقواعد وغير ذلك، فقد كان قليلاً حقاً بالنسبة إلى الغنيمة التي كان يتوقعها لهم خيالهم في غرفة التابوت، وما كان للجثث أن يقلق راحتها أحد، إلا أن يكون فيما أودع بجانبها من أثاث ما يغري.

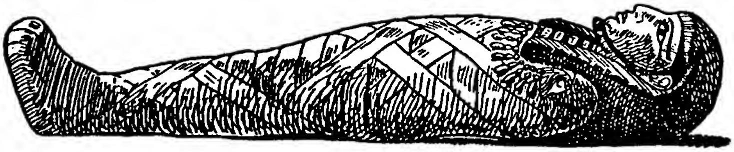
ولسوف نرى في الفصل الثامن عشر كيف كانت المقابر تنهب بأسلوب منظم، حتى اضطرّت الحكومة آخر الأمر إلى الاستسلام أمام اللصوص، إذ لم تعد تستطيع حماية مقابر الملوك، ولم تجد من وسية أخرى غير إخفاء الجثث نفسها، التي لما يعبث اللصوص بها، وذلك في شِعْب بالجبل. وقد بقيت فيه زمناً لا يهتدي إليها اللصوص حتى عام ١٨٧٥.

وإذا كان المصريون قد ظلوا يتمسكون بعادة دفن موتاهم بعناية ونفقات كثيرة رغماً عن الأحداث المتكرّرة المخيبة لآمالهم، فإن هذا لم يكن حباً في التقاليد القديمة فحسب، ولكنهم لأنهم كانوا كذلك ينسبون إلى سائر عادات الدفن هذه أهمية كبيرة لسعادة الميت، إذ لم يكن القربان والدعاء وحدهما بكافيين. وقد تطوّرت هذه العادات كثيراً فيما بعد، على أنها كانت كذلك في

(١) برلين ١٣٢٧٢، وقد حدث كذلك أن رجلاً أصاب نجاحاً في حياته فعمل على بناء مقابر جميلة لأجداده بدلاً من مقابرهم المتواضعة (القاهرة ١٦٥٢ من نهاية الدولة القديمة).

الأزمنة القديمة بيّنة التعدد، وذات خصائص مميزة، حتى إنه لا يجوز أن يفوتنا أن نعرضها هنا في خصائصها الجوهرية.

كان المصريون عند علاجهم الجثة يعملون جهدهم على أن يحفظ الجسد سليماً، وأن يصان له مظهره الطبيعي. فقد كانوا يعتقدون أن الروح سوف تجد فيه مقرها المعتاد كما كانوا يعتقدون أنه سيبعث من جديد. لذلك كان يعالج بالنطرون والقار ثم تلف سائر الأعضاء في الكتّان؛ وكان يوضع على الوجه قناع من الكتان والجصّ من شأنه أن يضفي عليه مظهراً طبيعياً بقدر الإمكان[1]. وكانت المومياء توضع بعد ذلك في هيئة النائم على الجانب الأيسر، ورأسها على مسند خاص (انظر الشكل صفحة ٢٠٩)، وذلك في داخل تابوت يغلق



٩٧ ـ مومياء من الدولة الوسطى (من رسم بسالاكا)

عليها؛ وهو صندوق مستطيل من حجر أو خشب، جدرانه قوية تحمي الجثة من العبث. أما كيف لا تحدّ جدران التابوت هذه من حرية الميت، وكيف يستطيع الميت مع ذلك «أن يدخل ويخرج دون أن يعوقه شيء لكي يشاهد الشمس»، فذلك ما يجب ألا يرجو أحد فهمه، لأنه ينتمي إلى عالم ما وراء الطبيعة. ومع هذا فقد شعر المصريون أنفسهم بما في ذلك من تناقض، وذلك لأنا نجد في كثير من التوابيت، أنهم قد اتخذوا من التدابير، ما كانوا يظنون أنه يعالج هذه الصعوبة. فبالقرب من الرأس، على الجانب الذي يتجه إليه وجه الميت، صوّروا

---

(١) حفظ لنا من الدولة القديمة نص يدل على مدى ما كان يبذل من عناية في التحنيط، وهو يدل كذلك على أن التحنيط كان إذ ذاك لا يستغرق أقل من عشرة أشهر (Urk. I 156\157) أما في العهد المتأخر فكان يستغرق سبعين يوماً.

من الخارج عينين كبيرتين[١]، «كي يرى» الميت بهما «سيد الأفق، وهو يجوب السماء»[٢]. وعلى جدار التابوت صوّروا في بعض الأحيان باباً يسمح للميت بمغادرة تابوته. وفيما عدا ذلك كان شكل التابوت في الأزمنة الأولى بسيطاً جداً، فهو عبارة عن صندوق أملس ذي غطاء مسطح أو صندوق ذي أربعة أعمدة مرتفعة في أركانه وغطاء مقبى (وهكذا كان يظن شكل تابوت أوزيريس). وفي الدولة الوسطى ـ إذ فضل التصوير على التابوت بألوان مختلفة ـ كان من المعتاد تغطية سطوحه الداخلية بفصول شتى من الأدب الجنازي القديم (انظر صفحة ٢٨٥)؛ ومع هذا فإن أهمّ ما كان يكتب على التابوت هي السطور التي على الجدار الخارجي، والتي يعهد فيها بالمتوفى لكنف الآلهة الذين يحمون الموتى: لأنوبيس، وأوزيريس، وجب، ونوت، وإيزيس، ونفتيس، ولأبناء حورس بصفة خاصة، فهؤلاء ساعدوا فيما مضى أوزيريس الميت، وفتحوا له فمه (انظر صفحة ١١٥ـ ١١٦)، حتى يستطيع أن يأكل ويتكلم من جديد. ولهذا ينبغي أن يساعدوا الإنسان المتوفى كذلك؛ وفي الواقع لقد أصبح واجبهم الأول حمايته من الجوع والعطش، مما أدّى إلى عادة غريبة، بدأت منذ نهاية الدولة القديمة، غير أنها لم تنتشر انتشاراً عاماً إلا بعد ذلك بكثير: وهي عادة استخراج الأحضاء من الجثة ووضعها في صناديق أو قدور خاصة[٣] تحت حماية تلكم الأرواح، وذلك كي لا تثير الأحشاء أحاسيس مكدرة للميت.

وكان الميت ـ إلى جانب ذلك ـ يوقى شرّ الجوع والعطش على النحو الذي اتبع في العصور الأولى، فكان يوضع إلى جانبه في غرفة التابوت بعض الخبز

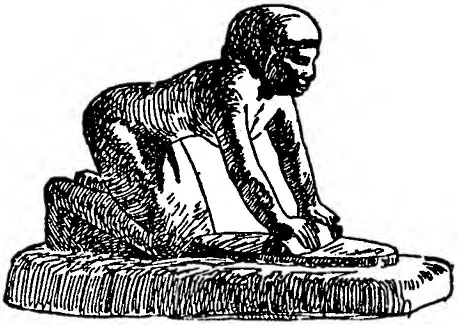
---

(١) وكانت العينان اللتان ترسمان على الجزء الأعلى من كثير من شواهد القبور تهدفان إلى تحقيق مثل هذا الغرض، انظر ما كتب إلى جانب العينين على الشاهد رقم ٢٠٢٤٩ بمتحف القاهرة، وهو من الدولة الوسطى.

(٢) Steindorff, Grabfunde aus d. Koen. Museen II, 5.

(٣) في بداية الأمر كانت الأحشاء تستخرج من الجثة لتيسير التحنيط. وتسمى هذه القدور الآن «القدور الكانوبية»، وهو اسم يرجع إلى تفسير خاطىء قديم.

واللحم والشراب؛ بل لقد كانت العناية به تتجاوز هذا الحدّ وذلك بتزويده بنماذج تمثل حاجياته الضرورية، فهناك بيت من الصلصال ذو فناء فيه أطعمة شتى، وها هي ذي شونة فيها تماثيل صغيرة للعمال، تمثلهم وهم يفرغون فيها أكياس الحبوب. وهذه غرفة تغزل فيها الخادمات وتنسجن؛ وتلك تماثيل صغيرة وكبيرة تمثل خدماً وخادمات قائمين على خدمة سيدهم على نحو ما كان الأمر في حياته، فمنهم خادم يحمل زوجاً من النعال خلف سيده، وفتاة وافرة الزينة تأتي لسيدها بمرآته وصندوق من طعام، وامرأة تطحن حباً بين حجرين، وأخرى تصنع الجعة. وتؤلف - في بعض الأحيان - مثل هذه التماثيل الصغيرة مناظر كاملة[١]. فالسيد والسيدة يجلسان تحت عريشة يشاهدان ما يساق أمامهما من قطعان، أو ها هي ذي فرق الجنود المختلفة، مثلت وهي تسير في خطوات منتظمة.



٩٨ ـ خادمة تطحن (برلين ٧٧٠٦)



٩٩ ـ تمثال امرأة من القاشاني الأزرق (برلين ٩٥٨٣)

ومن الأشكال الغريبة تماثل صغيرة لفتيات عاريات ينقصهنّ الجزء الأسفل من الأرجل[٢]؛ وهي خاصية لاحظناها من قبل في تمثال المرأة من عهد ما قبل

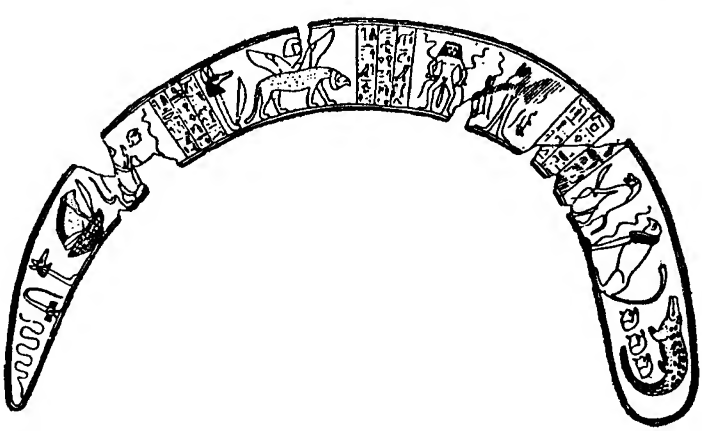
(١) Metrop. Museum, New York, Egyptian Expeddition 1918/1920, p 16 ff.t.

(٢) ترك تمثيل القدمين أمر شارع في تماثيل النساء الشبيهة بالدمى. وفي مجموعة الآثار في ليبزج رجل من هذا القبيل كذلك، يحمل فوق رأسه كيساً من الحب.

التاريخ، وهي المنشورة صورته آنفاً (صفحة ٣٣٥)، وكأنما أريد بذلك منعها من الهرب من المقبرة. ونحن لا نخطىء إذا دعانا هذا إلى التفكير في مقابر أقدم الملوك (صفحة ٣٣٥) التي كان يدفن فيها مع الملك حاشيته. حقاً لقد استبدل عصر لاحق، دمث الشعور، هذه الدمى بأولئك الضحايا المساكين من أفراد الحاشية.

وقد ظلت كذلك إلى الدولة الوسطى تلك العادة القديمة، عادة تزويد الميت بالسفن حتى لا يكون تحت رحمة نوتي السماء. بل لقد دفن إلى جانب هرم سيزوستريس الثالث في دهشور سفن حقيقية في الرمال، على أن الموتى العاديين كانوا يكتفون بطبيعة الحال بنماذج صغيرة. ولكن إذا كان الميت في هذه النماذج الصغيرة للسفن يرقد في هيئة المومياء تحت مظلة ومعه نادبتان وكاهن يتلو من كتابه الآيات القديمة، ثم إذا كان ثمة سفينة أخرى كذلك ذات مجاديف تجرّ سفينة الميت، فإن في هذا ما يبين بوضوح كيف تلاشى الغرض الأصلي من هذه السفن، لأنها، على ما هو واضح، لم تعد تمثل غير عبور النيل إبان الموكب الجنازي.

ولم يكن للتمائم والرموز المقدسة أيّ شأن في العصر القديم؛ أما بعد ذلك، فقد كانت المومياوات تزوّد بعدد وفير منها لتقيها المخاطر. وإنا لنكتفي هنا بذكر عُصي العاج التي حفر عليها شتى الأشكال الغريبة، مما كان يسمى



١٠٠ ـ قطعة من العاج نقشت عليها صور تمائم (برلين ١٤٢٠٧)

«التمائم الكثيرة الواقية». ويسمى أحد هذه الأشكال المحارب، ويبدو أن الغرض منه هو حماية الميت من الثعابين والعقارب. ومما يدلّ على مدى ما كان يخشى على الميت من خطر هذه الهوامّ، تلك التعاويذ التي لا تحصى في متون الأهرام ضدّ الثعابين. ويدلّ على ذلك كذلك، أنه كان يخشى حتى من الثعابين المصوّرة على جدران المقابر في علامات هيروغليفية عادية. ولهذا فقد كتب في كثير من المقابر حرفا ف. ز، اللذين يمثلان ثعبانين، وكأنهما قطعا إرباً؛ وعلى هذا النحو كذلك اجتنب ضرر المقطع «رو» الذي يمثل أسداً. ويصعب مع ذلك على إدراكنا في الوقت الحاضر تعليل السبب الذي من أجله كان على الطير أيضاً أن يتخلى عن أرجله في بعض المقابر الأخرى.

أما تجنب العلامات التي تمثل السمك في متون الأهرام، فهو يرجع إلى أن هذه الحيوانات المسكينة لم تكن تعتبر طاهرة (صفحة ٢٦٥).

وكان ما يودع إلى جانب الميت من أثاث وأدوات، يتوقف ـ بطبيعة الحال ـ في نوعه ومقداره على ثراء الأحياء وميولهم، فكان في هذا القبر أو غيره كل شيء من أسلحة وعصيّ، ومقاعد وصناديق، وأدوات للتجميل والزينة، وملابس وزيوت ذات رائحة زكية. وكان إلى جانب الأشياء الحقيقية، التي كانت توضع في غرفة التابوت أشياء أخرى تزوّد بها المقبرة على شكل صور ليس غير. ففي أقدم المقابر نجد قوائم قصيرة، تحصي مختلف أنواع الزيوت والكتاب، مما ينبغي أن يكون لدى الميت؛ ومنذ نهاية الدولة القديمة كان يصوّر ويكتب على جدران التابوت سائر ما كان يمكن أن يحتاج إليه الميت من دمالج، وعقود، ونعال، وعصيّ، وأسلحة، وأدوات للعمل، ومن كثير غيرها. ولا بد أن تكون قوائم العطايا هذه قد جمعت في الأصل للمقابر الملكية، وذلك لأنها تتضمن أيضاً تيجاناً وأشياء أخرى لا يمكن لغير الملوك استخدامها[١]؛ وواقع الأمر أن مقبرة الملك كانت مثالاً يحتذى في سائر ما يتعلق بأمور الدفن.

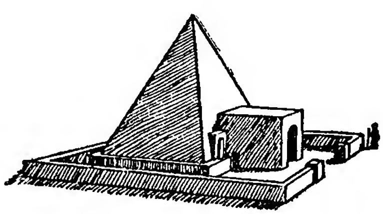
---

(١) Schaefer, Ae. Zeitschrift 43,66.

وأعجب ما كان يوضع إلى جانب الميت جميعاً تمثاله، ويمكن معرفة الغرض منه من المكان الذي كان يقام فيه عادة في المصاطب؛ فقد كان يوضع فيما يسمى بالسرداب، وهو غرفة صغيرة محوطة كلها بالجدران، تقع إلى جانب غرفة القربان، ويصل بينهما شقّ ضيق في أكثر الأحيان. وهكذا يشهد الميت ممثلاً في تمثاله على الأقل ما يؤدى له في تمجيد، فهو يسمع الكاهن وهو يرتل، ويجد السبيل إليه عبيق البخور، وشذا الطعام؛ ولعلّ المصريين قد ظنوا أن روحه إذ ذاك إنما تترك الجثة في غرفة التابوت، وتحلّ في هذا التمثال كأنه جسد ثان. وحتى المقابر التي لم تكن على شكل مصطبة، ولا تشتمل على سرداب، كان يقام فيها في أغلب الأحيان تمثال للميت على نحو من الأنحاء؛ فيتجلى في المقبرة الصغيرة مكشوفاً للنظر في نهاية آخر غرفة، أما في المقابر الصغيرة من عهد الدولة الوسطى، فقد كان يوجد تمثال واحد على الأقلّ للميت في تابوته.

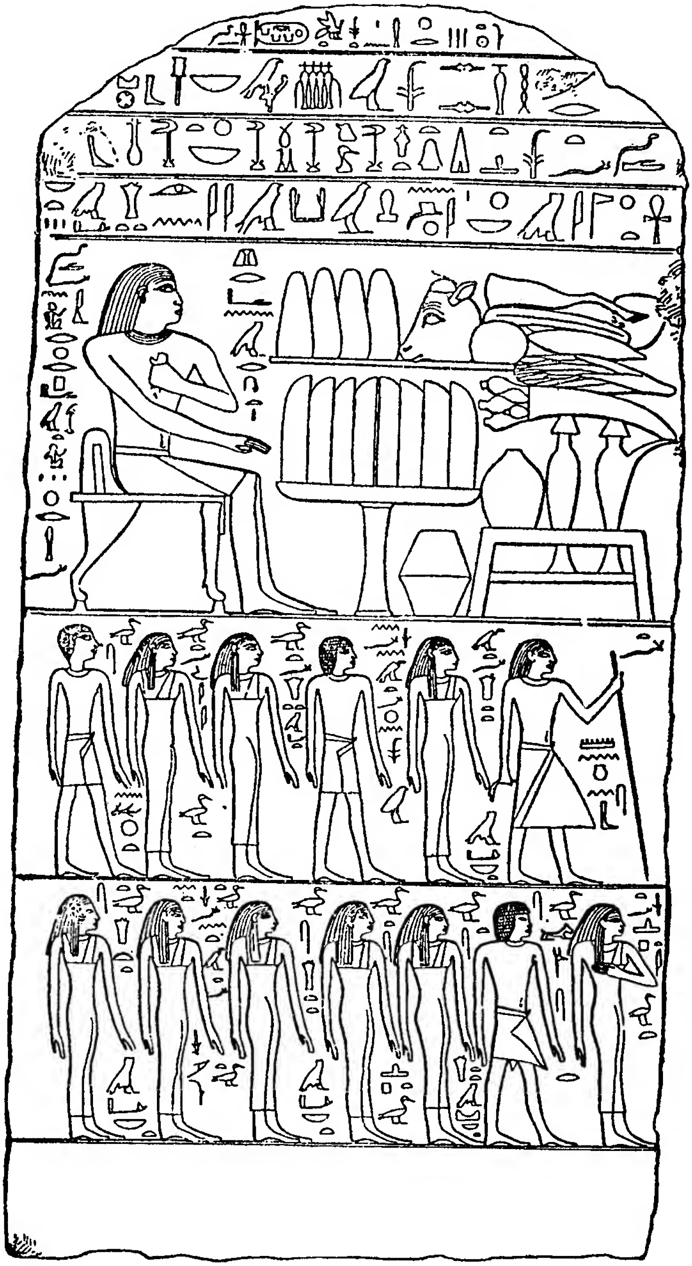
ولا تكاد المقبرة الصخرية، وهي أحد النوعين السابقين من المقابر، أن تكون أحدث عهداً من المصطبة نفسها؛ فقد حفر عظماء الأسرة الرابعة مقابرهم في بعض الأحيان في الجدار الصخري لهضبة الجيزة، بدلاً من بنائها فوقها. على أنّ هضبة منف، التي شيدت عليها معظم المقابر الكبيرة في الدولة القديمة، لهي أكثر صلاحية لبناء المصاطب، ولهذا ظلت المقبرة الصخرية فيها على الدوام أمراً نادراً. على أن أنسب الأماكن للمقابر الصخرية هي المناطق الجنوبية، التي يحفّ فيها وادي النيل جداران مرتفعان، شديد انحدارهما، حيث كان من أبسط الأشياء حفر المقبرة في الصخر في اتجاه أفقي. وتحلي كذلك هذه المقابر الصخرية الكتابات والصور على نحو المصاطب، ويوجد فيها كذلك باب وهمي وبئر، تقع عند قاعها غرفة التابوت؛ ومع هذا فقد أخذ نظامها يتطوّر في وقت متأخر طبقا لوجهة نظر أخرى. فقد تصوّر المصريون أن المقبرة الصخرية كأنها بيت الميت، ولذلك، فهي كمسكن الشخص الحيّ، تحتوي من أمام على بهو عريض للاستقبال، ومن خلفه قاعة كبيرة يليها مسكن الميت الخاص، وهو مشكاة يستقرّ فيها تمثاله.

وأما الأهرامات الصغيرة من اللبن، تلك التي غدت منذ الدولة الوسطى الطراز العادي للمقابر في مدن المقاطعات، فهي بطبيعة الحال تقليد لأهرام الملوك الكبيرة، على أن الذين قاموا ببنائها إنما كانوا من أوساط الناس وذلك لأن هذا النوع من المقابر كان أبسط الأنواع، وأقلها كلفة، على الرغم من فخامة النموذج الأصلي الذي اتخذه مثالاً. فغرفة التابوت عبارة عن حفرة منقورة في الأرض الصخرية، سقفها على شكل القبو، ومن فوقها كان يبنى هرم صغير من اللبن على قاعدة منخفضة، ثم يطلى بطلاء أبيض. وفي الناحية الشرقية كان يعين المكان الذي يجب تقديم القربان فيه شاهد عليه صورة الميت وحده أو مع زوجته وهما يتناولان الطعام، وإلى جانبهما في كثير من الأحيان صفوف طويلة من الأبناء والأقارب يكرمون فقيدهم. ومن أمام الشاهد على الرمل مائدة القربان التي كان عليها يوضع الطعام ويسكب الماء.



١٠١ ـ هرم من اللبن أعاد تصميمه برو ـ شبيي

يضاف إلى هذه التدابير، التي عرضناها هنا جميعاً، الطقوس العديدة التي كانت تؤدى عند إعداد الجثة ودفنها، وعند إطعام الميت بغرض زيادة سعادته. وهي طقوس كان يظنّ أنها إذا أدّيت حقّ أدائها جعلت من الميت شخصاً مبروراً أو «ممجداً» على حدّ تعبير اللغة المصرية. وهي من نوع الطقوس التي عرضناها لها آنفاً (صفحة ٢٤١ ـ ٢٤٢) عند الكلام عن عبادة الآلهة. وتصاحب كل عمل فيها، على نحو ما كان الأمر في عبادة الآلهة، تلاوات تثير ذكرى أي حادث من عالم الآلهة، وهي تلاوات لا تنتهي ولا تدلّ على ذكاء ولا تحليها التوريات الكثيرة المستعملة فيها.



١٠٢ ـ شاهد مقبرة من الدولة الوسطى، أقامه لنفسه في أبيدوس كاي، رئيس بيت المال (برلين ١١٨٣).

ولم تحفظ لنا شعائر التحنيط في مجموعها إلا في صيغة متأخرة جداً، على أننا لا نخطىء إذا ذهبنا إلى أن المحنط ومساعده، وهو الحكيم «خرحب» (صفحة ٢٦٠) قد كان ينظر إليهما كأنهما الإلهان اللذان حنطا جثة أوزيريس ثم أحاطاها باللفائف[(١)].

وأكثر من هذا وأدقّ ما نعرفه عن الطقوس الجنازية، التي كانت تؤدى عند المقابر، وذلك على الجثة نفسها يوم الدفن أولاً، ثم على تمثال الميت في أيام الأعياد بعد ذلك. وكان الشخص الرئيسي في هذه الطقوس كاهناً يدعى «سم»، على أن «الخرحب» وأشخاصاً غيره آخرين قد كانوا يشتركون فيها كذلك، وكان إذا رشّ الميت بالماء، وبخر بالبخور، دخل إلى المقبرة ثلاثة نفر يوقظون الكاهن «سم»، الذي كان قد رقد فيها من قبل ملفوفاً بالأربطة. فإذا ما نهض متثاقلاً على نحو معلوم، قام الأربعة معاً بدور أبناء حورس، الذين كانوا قد اعتنوا بأوزيريس من قبل. وفي مرحلة تالية من مراحل هذه الطقوس الجنازية يتحلى الكاهن «سم» بحلية غريبة على صدره، ويحمل عصاً في يده، ويمثل حورس بن أوزيريس، ويصيح بعض الأشخاص: «أي إيزيس، لقد أتى حورس ليحضن أباه»، فيصيح «الخرحب»: «أسرع لترى أباك». عند ذاك يستبدل الكاهن «سم» بحلية الصدر جلد النمر، وبينا تقطّع الضحية، التي إلى جانبه، يعلن إلى الميت: «لقد خلصت عيني هذه من فمه، لقد قطعت فخذه» ـ وذلك لأنه يقدم للميت فخذ الثور على نحو ما قدّم حورس من قبل لأبيه عينه، التي كان قد انتزعها منه ست (صفحة ٨٣) غير أنه ينبغي قبل أن يتمكن الميت من التمتع بهذا الطعام، أن يؤدى له طقس «فتح الفم والعينين»، وهو أهم سائر الطقوس جميعاً. فكان وجه الميت يمسّ مرّتين بفأسين صغيرتين مستعرضتين، ومرة بمنحت، فإذا تم هذا مع ما كان يتخلله من طقوس أخرى عديدة، وإذا فتح الكاهن «سم» الفم

(١) لقد كان ينسب إلى أنوبيس «تمجيد» كل من أوزيريس والموتى (القاهرة ١٥٧١، نهاية الدولة القديمة)، ولهذا نسب أيضاً إذ ذاك إلى فن أنوبيس، أي إلى إعداد الجثة إعداداً صحيحاً، أنه قادر على تمجيد الميت.

والعينين بالخنصر، فقد استعاد الميت قدرته على تناول طعامه. ويرفع الكاهن «سم» عصاه ويحيل الطعام إلى الميت ؛ ثم يبخره آخر الأمر، ويعطره ويمنحه غطاء للرأس، ويكسوه باللفائف، ويعطيه عصا وسوطاً على نحو ما يحمل أوزيريس.

وإلى جانب هذه الطقوس كان هناك الطقس الجنازي الخاصّ بالقربان أو «كتاب حرفة الخرحب»[1]، وهو أوراد لا حصر لها، تسمى فيها القرابين «عين حورس» وفقاً للتورية التي سلف ذكرها: «إني أجلب لك عين حورس التي انتزعها منه ست (صفحة ١١٥) غير أنه ينبغي قبل أن يتمكن الميت من التمتع بهذا جزاً؛ وما يقال عند تقديم العين من هذا أو ذاك يتوقف على اسم ما يقدم من قربان، لأنه يجب أن تكون هناك تورية بينه وبين ما يقال.

وفيما عدا المقبرة كان ثم مكان آخر يعنى فيه بإطعام الميت إذا كان من الطبقة الراقية، فكما أنه كان يحضر في حياته توزيع القرابين في أيام الأعياد بعد تقديمها على مذبح الإله (صفحة ٢٥٠)، فإنه كان يرجو أن يكون له كذلك في مماته نصيبه من هذه الوجبات. وكما كان يأخذ نصيبه من الزهور التي كانت تقدم للإله، فقد كان يرغب كذلك أن يحصل في مقبرته على «باقة إلهه» من المعبد[2]. لهذا كان يؤثر منذ الدولة الوسطى إقامة تمثال للميت في المعبد، وكان يرجى له «سائر ما يقدم على مذبح الإله». على أن الحريصين لم يكونوا يقتصرون على هذا الدعاء فحسب، وإنما كانوا يشترون من الكهنة توريد عدد معين من الرغفان في الأعياد على الدوام، توضع أمام تماثيلهم، ثم تكون بعد ذلك على وجه التحقيق من نصيب كهنة مقابرهم. ومن جهة أخرى أتاحت هذه العادة في كثير من الأحيان للملوك فرصة الاعتراف بالخدمات الصادقة؛ إذ نقرأ

---

(١) LD II 71 - 72.

(٢) Urk. IV, 136.

علـى كثير من تماثيل الأفراد، التي وجدت في أحد المعابد، أنها منحت «مكافأة من الملك»[١].

وفضلاً عن ذلك، فقد تيسر للمصريين أن يجدوا مكاناً ثالثاً يعقدون عليه آمالهم في الحياة المستقبلة، وهو مدينة أبيدوس المقدسة. فمنذ أن أقام ملوك الأسرة الأولى في أبيدوس ودفنوا فيها، نشأ الزعم بأن أوزيريس «أول سكان الغرب»، وكان يعبد في هذه المدينة، إنما هو ـ بنوع خاص ـ إله مقدس رحيم. وفي أبيدوس كذلك كانت أهمّ أشلائه، وهي رأسه، مدفونة في صندوق صغير، كما كان يحتفل بجانب مقبرته بأعياده العظيمة. ولهذا طوبى للموتى الذين كانوا يدفنون غير بعيد من درج الإله العظيم. إنهم كانوا يؤلفون حاشية ملك الموتى، وكان يطلق عليهم «عظماء أبيدوس» و «رجال حاشيته». «وكانوا يظفرون بمكان سفينة الإله، ويقول لهم عظماء أبيدوس «مرحباً»، كما كانوا يتلقون الأطعمة الطاهرة، التي كانت تقدم للإله العظيم، وذلك بعد أن ينعم بها»[٢].

لهذا فلا بد أن كانت أعزّ أمنية لكل مصريّ تقي أن يدفن في أبيدوس. وواقع الأمر أن كثيراً من المصريين من سائر الطبقات قد آثروا منذ نهاية الدولة القديمة أن تكون مقابرهم في هذا المكان المقدس على أن تكون بالقرب من بلاط الملك أو في موطنهم. فأما من لم يكن يستطيع بناء قبره في أبيدوس، فإنه كان يحسن به ـ على الأقل ـ أن يزور الإله في أبيدوس، وأن يقيم فيها حجراً «عند درج الإله العظيم»، وأن «ينقش اسمه في مقرّ إقامة الإله»[٣]، وبهذا كان يضمن لنفسه حقاً مكاناً بين الممتازين من الموتى. وتدلّ مجموعات الآثار في العالم على ما كان لهذه العادة من انتشار، فأغلب الشواهد والنصب الصغيرة للدولة الوسطى قد وجدت في أبيدوس. ويحدثنا الكثيرون من هؤلاء الزوّار بأن

---

(١) حفظ لنا نص من عهد أمنحوتب الثالث يبين بوضوح طريقة تنظيم ما ترتب على هذه العادة في كثير من الأحيان من فوضى واضطراب Petrie, Tarkhan.

(٢) ولهذا ما يماثله أو يشبهه كثير على شواهد الدولة الوسطى.

(٣) المتحف البريطاني ٥٧٤.



لوحة ٧: معبد الدير البحري

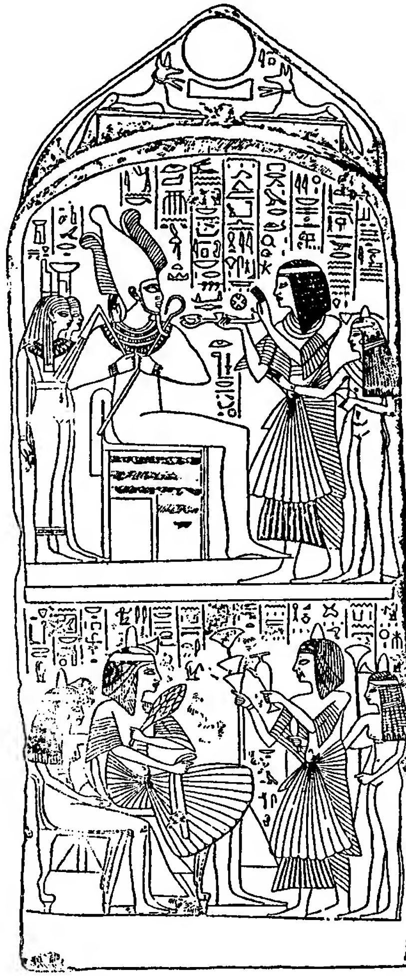
أعمالهم أفضت بهم إلى هذه المدينة المقدسة، على أن آخرين إنما زاروها حجاجاً، ولكن غيرهم لم يحجوا إليها إلا بعد موتهم. والذي ينعم النظر في مقبرة الأمير خنوم حتب في بني حسن، يلاحظ فيها صورة كبيرة تمثل ـ على نحو ما كتب فوقها ـ كيف أنه صعد في النيل «ليتعرّف شؤون أبيدوس». وترى على السفينة جثته تحت مظلة وإلى جانبها الكاهن «سم» و«الخرحب» لا يغادرانها طوال الرحلة. وفي المدينة المقدسة يتقدم لإله الموتى كأنه فرد جديد من أفراد رعيته، ثم يشترك في حفلات أعياده؛ فيرى «ذلك الذي يخطر في جمال مثل أوبوات»، ثم «كيف يبرَّر أوزيريس أمام الآلهة التسعة»[1]؛ ثم يعود إلى موطنه تصحبه نساؤه وأبناؤه، ويحلّ في مقبرته العظيمة في الجدار الصخري لبني حسن.

ولقد بقيت في الدولة الحديثة أغلب العادات الجنازية التي عرضناها حتى الآن، ولئن كانت بعض العادات القديمة قد اختفت في هذا العصر أو تخلفت إلى الوراء، فإن غيرها قد تطوّر تطوّراً كبيراً بدلاً منها، كما أن وسائل جديدة قد ابتدعت تفيض على الميت بالنعم.

وقد ظلت المقابر تبنى على الطرازين اللذين آثرتهما الدولة الوسطى، فكان أوساط الناس يكتفون بأهرامات صغيرة من اللبن، أما الطبقات العالية فكانوا يحفرون مقابرهم في الصخر. وقد بنى الملوك مقابرهم على هذا الطراز أيضاً، غير أن الشكل الذي أضفوه عليها كان شكلاً جديداً؛ فهي تتألف عادة من دهليز ضيق طويل، قد تلحق به غرف جانبية، على أنه يؤدي إلى قاعة، كانت تسمى «بيت الذهب»، كان يستقرّ في وسطها التابوت من الحجر وفيه جثمان الملك. وتغطي سائر الجدران نصوص وصور دينية، ولما كانت هذه النصوص والصور مشتقة في جوهرها من أوساط مملكة الموتى، تلك التي تحدثنا عنها في الفصل

---

(١) وهي مسائل كان الميت يرغب في رؤيتها في أبيدوس، وقد وردت على الأثر ٥٨ في المتحف البريطاني. أما عن هذه الأعياد فانظر صفحة ٢٠٥.



١٠٣ ـ شاهد من الدولة الحديثة. ويرى من أعلى الضابط وزوجته يعبدان أوزيريس ومعه إيزيس ونفتيس. ومن أسفل يتقبل خاي وزوجته تكريم أبنائهما (برلين ٧٢٨١).

السابق، فقد ذهب الظن ـ وهو ظنّ له ما يرجحه ـ إلى أن العالم السفلي نفسه هو الذي كان يتراءى أمام نظر بناة هذه المقابر الغريبة، وقد كان يظن أنه يشتمل على دهليز طويل يزداد ظلاماً بأطراد حتى يبلغ المكان الذي يستقرّ فيه أوزيريس، الملك. ولا يعرف مدى استخدام هذه المقابر الملكية، التي تقع في وادي بيبان

الملوك في الصحراء القاحلة، للعبادة الجنازية؛ ومع ذلك فليس في غرفها ولا في بعد موقعها ما ينطق بشيء من هذا القبيل. وإنه ليبدو من المحتمل أن القرابين والطقوس إنما كانت تؤدّي للملوك المتوفين في الدير البحري والقرنة في سائر المعابد التي شيدها هؤلاء الملوك لأنفسهم على الشاطىء الغربي لطيبة، والتي كانوا يعبدون فيها بمنزلة الآلهة والزملاء لآلهة طيبة. أما المقابر نفسها فقد كان ينبغي أن يكتنفها غموض شامل ولم يكن من العبث أن يفخر إنيني[١]، أحد كبار موظفي تحوتمس الأول، بأنه أشرف على إقامة مقبرة الملك «في عزلة دون أن يرى أو يسمع أحد بذلك»، ولم يكن مكان المقبرة الملكية يعتبر كأنه سرّ عميق لسبب ديني خفي فحسب، وإنما كان ذلك يرجع إلى سبب مادّى أيضاً: فقد كان يجب أن تصان المقبرة من لصوص المقابر. ومنذ أن عرفنا من المقبرة الملكية الوحيدة، التي حفظت لنا سليمة، وهي مقبرة توت عنخ أمون (الفصل الثامن)، أية ذخائر هائلة كانت تودع إلى جانب فرعون، فإنا نفهم أنه لم تكن هناك غير وسيلة واحدة لحماية مثل هذه المقبرة من اللصوص، وهي وجوب إخفائها. ومع هذا فسنرى فيما بعد أن إخفاء المقبرة لم ينقذها كذلك من النهب.

وفضلاً عن هذا فقد ظل كذلك في الدولة الحديثة الاعتقاد في أن الميت يحظى ببركة خاصة إذا انضمّ إلى أوزيريس في أبيدوس، المدينة المقدّسة. ولكن المصري القديم من ناحية أخرى قد كان يودّ أن يدفن في موطنه الخاصّ، لهذا كان يرجو أن تكون له مقبرة ثانية أو مقبرة تذكارية في أبيدوس. وعلى هذا النحو بنى الملك أحمس لجدّته التي دفنت في طيبة مثل هذه المقبرة الوهمية[٢]، كما أن الملكة ياح حتب كرمت موظفها الأمين كارس بهذه الطريقة نفسها[٣]. ولا بد مع هذا الإنصراف إلى العناية بالموتى أن كان هناك شعور بأن الجبانة مهما تكن

---

(١) Urk. IV, 57.

(٢) Urk. IV, 27.

(٣) Urk. IV, 45.



١٠٤ - مقابر على حافة الصحراء المزروعة بالأشجار؛ وبين الأشجار مائدة قربان، وأمام المقابر امرأة تندب.

أجمل الجبانات، فإنما هي مكان حزين موحش. لهذا فإننا كثيراً ما نسمع عن الحدائق التي كانت تنشأ غير بعيد من المقبرة، بل إننا لنجد مثل هذه الحقيقة حتى في الدولة الوسطى[١]. ولما بنى الملك أحمس لجدته تلك المقبرة التذكارية في أبيدوس حفر لها كذلك بركة وغرس أشجاراً[٢]. وفي مقبرة إنيني، الذي أعدّ قبر تحتمس الأول كما رأينا من قبل، وصف شامل «لحديقة الغرب» بكافة أشجارها حيث كان الميت يرجو أن يتريض مع زوجته وأن يتبرّد في ظلال أشجاره[٣].

وفي مقابر الأفراد وعلى شواهد مقابرهم نستروح عبيرعهد جديد. حقاً إن من يستعرض الشواهد التي لا تحصى من العهود السابقة، فإنه يقرأ عليها جميعاً شيئاً عن أوزيريس، الذي كان الميت يضع أمله فيه، غير أنه يندر أن يتجه الميت إليه بالعبادة، أو يمثل أمامه وهو يتعبد له، فقد كان حتى هذا الإله الودود يبتعد عن الأفراد، ولم يكن لأحد أن يتعبده غير الملوك[٤]. أما في الدولة الحديثة فقد

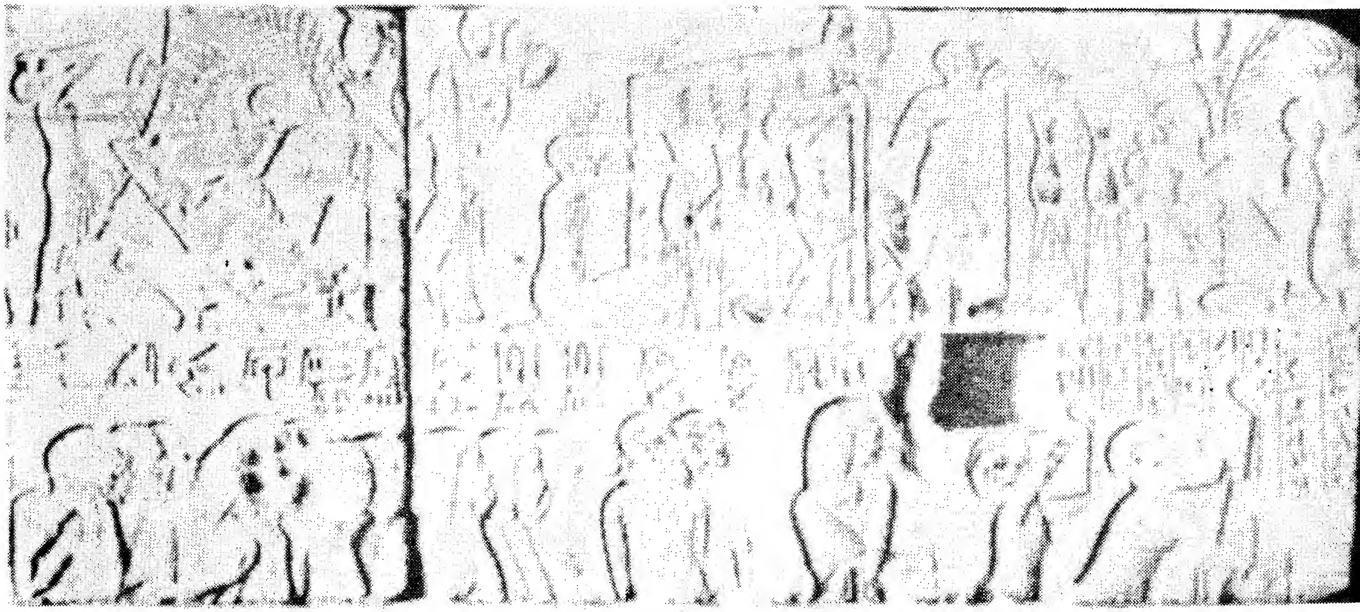
(١) Siut I, 316/317.

(٢) Urk. IV, 28.

(٣) Urk. IV, 73، لا علاقة لهذا بالحدائق التي كان يقام فيها الحفل الجنازي، والتي كانت ملحقة ببيت الميت على وجه التأكيد، انظر: Madsen, Ae. Z. 41, 110 ff..

(٤) Borchardt, Ae. Z. 55,62.

تغير الحال وأصبح المتوفى على شواهد المقابر يتعبد حقاً لأوزيريس ورع. وفي هذا تتمثل سمة التقوى الشخصية التي نجدها كذلك في نواحٍ أخرى من هذا العهد (صفحة ٢٣٠). وما يقال عن شواهد المقابر يقال بحقٍ كذلك عن صور المقابر. فإذا كانت هذه الصور في جوهرها تدور حتى هذا العصر حول إطعام الميت، وهو موضوع لم يكن ينضب معينه، أو بعبارة أخرى حول التقدمات التي يجلبها إليه من خلّفهم من بعده من أهله وخدمه، فقد أخذت هذه الصور تتراجع، وأصبحت الجدران تحلى بدلاً عنها بالصور الدينية، وإلى جانبها مناظر وافية من حياة الميت على الأرض، وهي بالأخرى مناظر تتطرّق إلى عرض ما لاقاه الميت في حياته من حظوظ. فهي تصوّر حياته المجيدة، وكيف كان يقوم بوظيفته، وكيف ميزه الملك وكافأه. وأصبحت حتى صور الدفن والاحتفالات الجنازية ذات طابع شخصي، لم يكن لها من قبل. وكما أن الشعور الشخصي قد جرؤ على التعبير عن نفسه بحرّية في الشعر الديني في هذا العصر، فإنه قد برز كذلك بوضوح في هذه المقابر، التي لم يعد الميت فيها ذلك الممجد، الذي يكرم ويطعم دون شعور شخصي، وإنما هو الأب والزوج المحبوب والصديق والسيد، الذي انتزع من ذويه، والذي يبكونه ويندبونه. حقاً لقد كان الكاهن «سم» يفتح فمه، وكان «الخرحب» يتلو أمامه دعواته وصيغة، كما كان الأمر دائماً، وذلك لأن هذا كان ضرورياً لسعادة الميت، غير أنه كان يمتزج بهذه الأحاديث الجافة نديب الزوجة التي تحتضن المومياء قبل إنزالها إلى الأبد في المقبرة: «أجل إني أختك، أيها العظيم، فلا تتركني... ماذا يعني بعدك عني؟ يا من كنت تؤثر المزاح معي، إنك تصمت ولا تتكلم». ومن خلفها هي والكهنة، يندب عليه أهله، والنساء والأطفال الذين أحسن إليهم: «وافجيعتاه، وافجيعتاه... آه من هذه المصيبة! لقد ذهب الراعي الطيب إلى أرض الأبدية. يا من كنت ذا عشيرة كبيرة، ها أنت ذا الآن في الأرض التي تحبّ الوحدة! إن من كان يحبّ أن يفرّج ما بين قدميه هو الآن مغلق عليه، ملفف بالأكفان، مضيق عليه، إن من كان له الكتّان الرقيق الوافر، وكان يحبّ ارتداءه، هو هذا الذي ينام الآن في ثياب الأمس المنبوذة». وإذا كان السادة من الطبقة العليا، الذين



جنازة كاهن أعلى من منف. الأسرة ١٩

في الصف الأعلى: الزوجة الباكية ـ ومن خلفها الخدم ينوحون وهم يقيمون العرش للحفل الجنازي. في الصف الأسفل: من خلف التابوت، الذي يبحر في قارب، إبنا الميت يولولان، يتبعهما عظماء أعيان المملكة، وعلى رأسهم ولي العهد ثم الوزيران وغيرهم من العظماء وأربعة رؤساء كهنة، من بينهم الكاهن الأعلى لهليوبوليس؛ وأخيراً محافظ المدينة وهو يتلفت إلى الوراء يواسي كهنة بتاح، الذيني لم تظهر صورهم في هذه اللوحة.

(برلين ١٢٤١١. وقد وجدت هذه الأحجار في دار أحد الفلاحين)

يشيعون جنازة زميلهم، لا يساهمون بأصواتهم في هذه المراثي، فقد كان يسرّهم مع ذلك أن يساهموا مساهمة عامة: ما أجمل ما يحدث له...؛ لقد أحبّ إلهه كثيراً»، ولهذا «فإنه قد سمح له كذلك بأن يصل إلى الغرب، يصحبه جيل بعد جيل من خدمه»[١].

وفي أثناء هذا كانت تجلب الموائد حافلة بالأطعمة، والحوامل عليها القدور، وذلك لأن الدفن كان يقترن بوليمة تقام في المقبرة نفسها، أو تحت عرائس من الأزهار والأغصان. وكثيراً ما تمثل مقابر الدولة الحديثة بما فيه الكفاية ما كان يجري في يوم الدفن (وكذلك على وجه التحقيق في الأعياد الكبيرة التي كان يقدم فيها القربان للموتى). فهؤلاء أهل الميت وأصحابه يرتدون لباس العيد ويتحلون بالزهور ويأكلون ويشربون، ويشاهدون الراقصات، ويسمعون أغنية العازف على الطنبور[٢]: «ما أهدأ ما يرقد هذا الأمير العادل، لقد حلّ المصير الجميل. تذهب الأجسام إلى هناك منذ عهد الآلهة، ويأخذ مكانها النشء الجديد». وطالما «يبدو رع في الصباح ويغرب أتوم في الجبل الغربي، فستظل الرجال تنسل، والنساء تحبل، والأنوف جميعاً تنشق الهواء. غير أن كل من يلدون يذهب في وقت مبكر إلى المكان الذي قدّر له». ثم يخاطب المغني الميت نفسه، كأنه يجلس بين الطاعمين، ويدعوه إلى التمتع مع زوجته بالحياة القصيرة: «احتفل باليوم السعيد! وتضمخ بالطيب، وادهن أنفك بفاخر الزيت، وضع الأكاليل وأزهار اللوتس على جسد أختك الحبيبة التي تجلس إلى جانبك. وأمر بأن يغَّنى ويعزف أمامك. والق بكل محزن وراء ظهرك، وفكر بالمسرّة حتى يأتي اليوم الذي فيه يبلغ الإنسان الأرض التي تفرض الصمت على الناس». وتثب الراقصات في عنف متزايد، وفي أوضاع مثيرة على الدوام، على حين يقدم الخدم في حماس أوعية النبيذ: «اشرب حتى تثمل»! وهذه سيدة

---

(١) Wilkinson, and Customs III, pl, 67، انظر أيضاً: Erman, Ae. Z. 33,20.

(٢) من مقبرة نفرحتب في طيبة (Litt. S. 314)؛ ولهذه المراثي ما يشبهها في Kees. Ae. Z. 62,76.

تطلب من النبيذ المزيد، فقد غدا كل ما فيها «هشيماً»[1]؛ وهذه أخرى قد بلغ بها السكر حدّاً أكبر، فهي تجلس على الأرض نادبة وقد انزلق ثوبها من فوق كتفها، وتدلّت زهرة اللوتس من على ذراعها، على أن الخادمة التي أسرعت في جلب الإناء المشئوم وصلت متأخرة جداً.

وبينما كان يحتفل بموت الأشخاص من الطبقة العالية بمثل هذا الترف فإنه لم يكن يؤبه كثيراً ـ بطبيعة الحال ـ لأشخاص الطبقات الدنيا. ومع هذا فقد كان يتاح لهؤلاء كذلك تهيئة دفن مناسب لأنفسهم، وذلك لأنه منذ أخذت الرغبة في الدفن وفق الشعائر الصحيحة تتطرّق إلى الطبقات الدنيا للشعب، قام الطامعون في الربح بالعمل على إرضاء هذه الرغبة؛ فكانوا يحصلون على مقبرة قديمة خالية محفورة في الصخر، يزيدون في سعتها، ثم يؤجرون الأماكن فيها. حقاً لم يكن مثل هذا المكان جميلاً، فقد كان يوضع أحد التوابيت فوق الآخر حتى السقف، ومع ذلك فقد كان قبراً حقيقياً، يمكّن للسمّاك، والفلاح، والصانع، والراقصة، أن يدفنوا فيه[2]. وكانوا يرقدون في توابيت حقيقية، كما كان في إمكان أعقابهم أن يضعوا إلى جانبهم أدواتهم وغير ذلك من العطايا على نحو ما كان يحدث مع الأثرياء.

ومع هذا فقد كان لا يزال هناك من هم أشدّ فقراً، ممن لا يستطيعون إيجاد مكان لهم ولو في مقبرة عامة. وإنا لنجهل أين ووريت جثثهم في الرمال، غير أنه يبدو أنهم حاولوا كذلك أن ينالوا شيئاً مما تتيحه المقابر من نعم. فقد صنعوا دمى صغيرة من خشب[3] تشبه المومياء من بعيد، وكانوا يستكتبون عليها أسماءهم ويلفونها في خرق من الكتان، ثم يضعونها في تابوت صغير، فإذا دفن

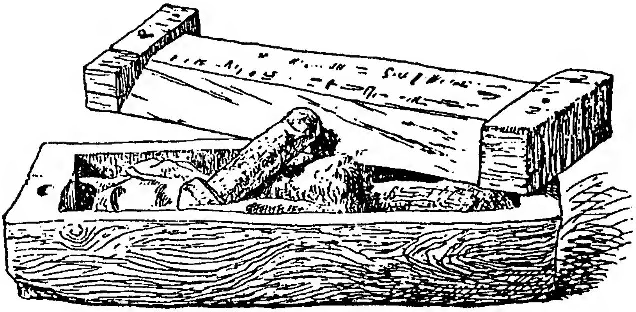
---

(١) Paheri, pl. 7 وما يلي يعتمد على Wilkinson I, 392,393.

(٢) هناك قبر عام من هذا القبيل من عهد رمسيس الثاني، انظر: Berlin, Ausfuehrl. Verzeichnis S. 190 ff.

(٣) نفس المرجع ص ١٨٤.

هذا التابوت بعد ذلك أمام مدخل مقبرة كبيرة، فقد كان يرجى أن ينال الميت بفضل تلك الدمية التي تمثله من الخشب، من السعادة التي ينعم بها الميت المدفون في هذه المقبرة.



١٠٥ ـ صندوق بداخله دمى من الخشب كبديل عن دفن الميت (برلين ٩٥٠٦)

ولئن بدت لنا هذه الحيلة التي عمد إليها الفقراء غريبة، فهي لم تكن كذلك عند المصري القديم على وجه التحقيق، بل إننا لنرى فكرة مشابهة عند أصحاب المناصب العليا. فعندما ابتنت الملكة حاتشبسوت معبدها الجنازي المسمى بالدير البحري، أقام أقوى أصفيائها سنموت ـ وقد كانت له مقبرة إذ ذاك ـ مقبرة ثانية غير بعيد من هذا المعبد. وهي وإن لم تتمّ فإنّ في طوعنا أن نتبين أنه كان في النية أن يؤدي دهليز طويل إلى ما تحت المعبد. وبهذا كان لسنموت أن يصير إليه كذلك نصيب من النعم التي كانت من حقّ الملكة[١].

وفي شكل التوابيت تتجلى كذلك القيمة التي كانت تسند في الدولة الحديثة لمظاهر الدفن الخارجية. فلم يكن التابوت حتى ذلك الوقت إلا على ما كانت تقتضيه الغاية منه: أي صندوق قويّ يحمي الجثة من التلف. أما في الدولة الحديثة فكان لا بد أن يتخذ شكل المومياء نفسها، وهو أمر غير طبيعي إلى حدّ كبير، غير أن المصريين في ذلك العهد كانوا يعتبرون المومياء شيئاً خارقاً للعادة

(١) انظر .Metropolitan Museum ot Art, The Egyptian Expedition 1930 - 31, p. 22

مقدساً؛ حتى ولو وضعت المومياء في أكثر من تابوت، رغبة في حسن حمايتها، وهو ما كان يحدث كثيراً منذ الدولة الوسطى. ويبدو التابوت الموميوي الشكل في بداية هذا العصر كأنه محاط بجناحين في كثير من الأحيان. ويجب أن يكون المرء مصرياً ليفهم ذلك، فكما أن إيزيس قد أخذت بين جناحيها جثمان أوزيريس حماية له (صفحة ١١٧)، فهي تفعل ذلك أيضاً لأوزيريس الجديد الذي تمثله هذه المومياء.

وحوالي نهاية الدولة الحديثة عمد المصريون إلى التعبير عن قداسة المومياء بتصوير المناظر الدينية التي لا تحصى على التابوت؛ وكان لا بد من الاستعانة في ذلك بصور الآلهة والحيوانات والرموز المقدسة. وإنه ليتجلى بوضوح كيف كان المنتجون يصدرون في عملهم بدون تفكير وبطريقة آلية. وأقول هنا عن قصد «المنتجون»، وذلك لأنه مما يميز الجنائز في الدولة الحديثة أن حاجياتها كانت تنتج جملة وتعرض للبيع. ومن اليسير التدليل على ذلك: فقد كان المنتجون يتركون فراغاً حيثما كان يجب ذكر اسم الميت في الكتابات التي تدوّن على مثل هذه الأشياء، وذلك لكي يستطيع الشاري أن يدوّن فيه الإسم المطلوب، وهو ما كان يحدث عادة، على أنه كثيراً ما كان يُنسى كتابة هذا الإسم، وهذا السهو هو الذي يكشف لنا كيف أصبحت الواجبات القديمة تؤدى عن طريق البيع والشراء. وحتى التمثال ـ وهو دون غيره من سائر ما كان يودع إلى جانب الميت، لا يتفق بأية حال مع الإنتاج التجاري ـ قد شمله ذلك العمل، إذ كان يتمّ صنعه فيما عدا ملامح الوجه الدقيقة، وتفاصيل الرداء، وما كان يكتب عليه من نقوش، ليقوم الشاري بهذا كله وفق هواه. على أن هذه الأشياء كانت في بعض الأحيان تترك دون أن تتمّ، كما يدل على ذلك أحد التماثيل في مجموعة الآثار في برلين(١).

(١) Ausfuehrl. Vereichnis, S. 141.



١٠٦ ـ أوشبتيات من الدولة الحديثة: (أ) للكاتب حوى في ثياب الأحياء؛ (ب) للسيدة تاميت، (جـ) لإحدى الملكات (برلين ٤٦٥٢، ٤٤٠٦، ٨٥٢٨).

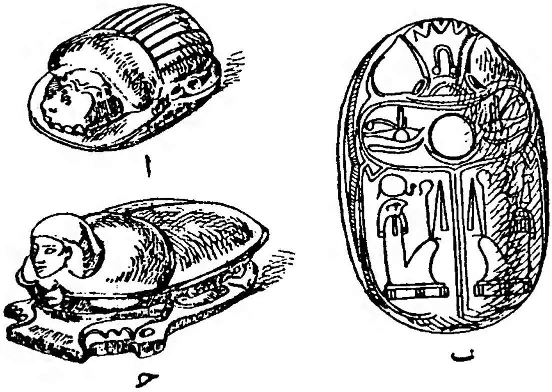
وأكثر التقدمات الشائعة في مقابر الدولة الحديثة هي ما يسمى بالأوشبتيات، وهي تماثيل صغيرة على هيئة المومياء، تزحم متاحفنا في الوقت الحاضر. وقد ظهرت بضعة أمثلة قليلة منها في الدولة الوسطى حيث يجوز التشكك في الغرض الذي من أجله وضعت هذه التماثيل في المقابر[١] إذ لم تكن تحمل غير اسم الميت. أما ما كان يظن أن تؤديه للميت في الدولة الحديثة، فتدلّ عليه الأداتان اللتان في يدي كل منها، وهما المعزق لعزق الأرض، والزنبيل. وتدلّ عليه كذلك الكتابة التي تحملها عادة: «أنت أيها الأوشبتي! إذا

(١) أجل، لقد كانت في بداية الأمر صوراً للميت نفسه ينذرها له أهله. انظر بوخارت في Ae. Z. مجلد ٣٢ صفحة ١١١ وما بعدها، على أنه من جهة أخرى قد سمي تمثال من هذا القبيل في الدولة الحديثة «خادم سيده». انظر بيزر (Boeser) في Ae. Z. مجلد ٤٣ صفحة ٨١.

نودي عليّ، وإذا أحصيتُ للقيام بشتى الأعمال التي تؤدى في العالم السفلي... وإذا أحصيت في أيّ وقت لاستنبات الحقول، وريّ الشطآن، ونقل الرمل من الشرق إلى الغرب، فلتقل عندئذ: هأنذا». ولسنا نعلم معنى هذه الأعمال الخاصة، غير أنه من الواضح أن الميت يخشى أن يزجّ به في مملكة الموتى في مختلف الأعمال الزراعية الجافية. وتتجلى في هذا فكرة قديمة تعود للظهور من جديد. فقد كان الشعب في الزمن القديم، عندما كان لا يزال شعباً من الفلاحين يحلم بجنة لموتـاه، يبلغ ارتفاع الشعير فيها سبعة أذرع، وطول سنابله ذراعان. وكان العمل في مثل هذا الحقل يعتبر أجمل مصير يمكن أن يتصوّره الإنسان. ولقد ظلّ هذا التصوّر باقياً حتى إن المصريين عندما بدأوا يعتبرون أوزيريس ملكاً على مملكة الموتى، ظنوا أنه سيصنع مع موتاه ما كان الملك يصنعه على الأرض مع رعاياه، وأنه سيعمل قوائم بهم، وأنه سوف يختار ـ اعتماداً على هذه السجلات ـ هذا الميت حيناً، وذاك حيناً آخر لأعمال الفلاحة والري وإقامة الجسور. ولم تكن وجهة النظر هذه مما لا يسرّ الفلاح، إذ كانت تمنيه في بساطه ويسر باستمرار حياته الدنيوية؛ أما الطبقات العليا فلا بد أنها فكرت في ذلك على نحو آخر، فالموظف والكاهن والصانع والجندي والسيدة ـ هؤلاء جميعاً كان يبدو لهم توقع مثل هذا العمل الجافي في الآخرة أمراً سيئاً. في هذا التوقع المقلق خطر على أحد العقول المبتدعة خاطر غريب: هو أن يزوّد الميت بمثل هذه الدمى، لتكون بدائل له، تقوم بالعمل عنه. بل إن الملوك أنفسهم لم يستطيعوا الاستغناء عنها، ولا بدّ لمن يشاهد مجموعة الملك سيتي الأول من التماثيل الجنازية الموجودة في متاحفنا أن يعتقد أنه قد صنع له منها آلاف وآلاف. وقد تكون بين أوشبتيات الأفراد في بعض الأحيان بعض التماثيل التي لقيت عناية في صناعتها، والتي عولجت كأنها صورة صادقة للميت؛ وكانت هذه التماثيل بنوع خاص توضع في تابوت صغير، على حين كان على التماثيل العادية الجافية أن تكتفي بصندوق من خشب، يوضع فيه منها عدد وافر. ولما كانت الخرافة تنمو وتزدهر دائماً، فقد ارتبطت بهذه التماثيل مخاوف جديدة، إذ ما العمل إذا حدث بين الأوشبتيات ما يحدث بين الخدم من عراك، أكانت نوبة

أحدهم اليوم في العمل أم غداً؟ لذلك كان من الخير أن يكتب على كل منها اليوم الذي عليه أن يشتغل فيه من أيام العام[١]. ثم ما العمل إذا قابل الميت في الآخرة عدوّاً يغوي الأوشبتيات، على نحو ما كانت الخدم تُغوى في الحياة الدنيا؟ لهذا كتب أحد الرجال الحريصين على تماثيله الجنازية بعد الصيغة المعتادة العبارة التالية: «أطع فقط من صنعك ولا تطع عدوّه»[٢].

وكما أن هذه التماثيل في المقابر إنما كانت في حقيقتها لتجنب ما يقدر في مملكة الموتى، فقد حاول المصريون كذلك تحقيق ما يماثل هذا بوضع ما يسمى بجعل القلب إلى جانب الميت. ولقد رأينا فيما مضى (صفحة ٣١٢) كيف اقتضى تصوّر أوزيريس ملكاً على الموتى طهارة الميت الخلقية، وكيف أنه كان يُعتقد أن هناك محكمة للموتى، يمتحن فيها قلب الميت بوزنه. ومن اليسير أن ندرك أن وجهة النظر هذه لم تكن مغرية جداً؛ ومع هذا فمن الصعب أن تتفق مع أفكارنا تلك الطريقة التي توقع بها المصريون تجنب الخطر المنذر، وذلك بمحاولة التأثير في الشهود المرهِقين. فعلى صدر الميت فوق مكان القلب كان



١٠٧ ـ جعلان للقلب (أ) من الشكل العادي (ب) عليه صور رع وأوزيريس والقمر، (جـ) برأس إنسان (برلين ٣٩٠١، ٣٤٥٦، ١٠٧٠٩).

(١) Erman, Ae. Z. 44, 131.

(٢) Ausfuehrl. Verz. S. 182 (108 ff).

يوضع جعل كبير من الحجر (وكان رمزاً مقدساً باعتباره صورة لإله الشمس) وكان يكتب عليه العبارات التالية: «أيها القلب، الذي لي من أمي! أيها القلب الذي ينتمي إلى وجودي! لا تنهض شاهداً ضدي، ولا تدبر لي أية معارضة أمام القضاة، ولا تناقضني أمام صاحب الميزان. إنك روحي الذي في جسدي... لا تجعل اسمنا كريه الرائحة... لا تفترِ عليَّ الكذب عند الإله».

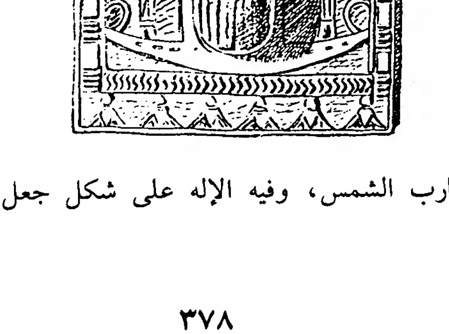
أما الأهرامات الحجرية الصغيرة التي توجد بكثرة في مدن الموتى، فهي تتجه إلى الصديق الآخر للميت، وهو إله الشمس، وليس بعضها في حقيقة الأمر سوى القمم الحجرية للأهرامات الصغيرة من اللبن، التي ذكرناها من قبل. وعلى الهرم المنشور هنا صورته نجد بتاح موسى ـ الذي كان الكاهن الأعلى في منف في عهد تحتمس الثالث ـ يركع مرّتين وهو يتعبد للشمس، شمس الصباح على الجانب الذي كان يتجه إلى الشرق، وشمس المغيب على الجانب الآخر. ومن الواضح أنه كان يرجى أن تساعد هاتان الصورتان الميت على أن يخرج إلى باب مقبرته في الصباح وفي المساء ليشاهد الشمس، وفيما عدا هذا كثيراً ما توجد



١٠٨ ـ هرم لبتاح موسى، الكاهن الأعلى لمنف (برلين ٢٢٧٦)

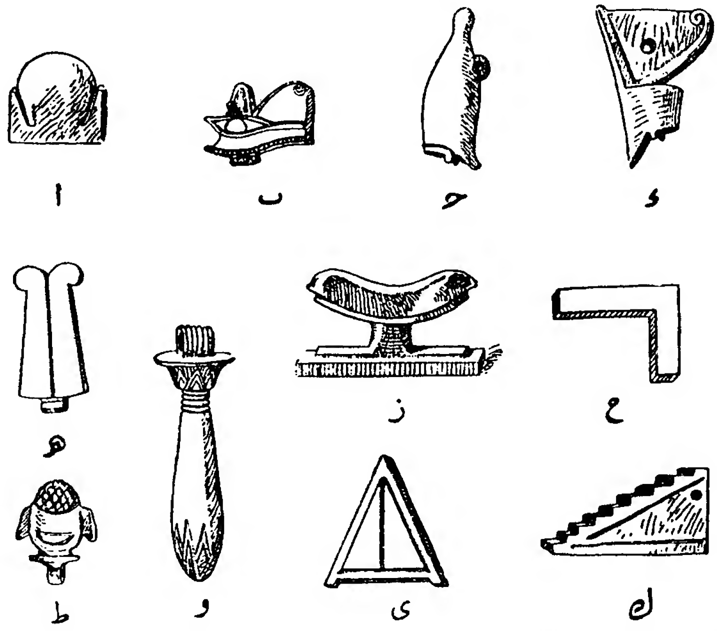
كذلك على المداخل الحقيقية للمقابر دعوات للشمس أو للشمس وللقمر، كان على الميت أن يتلوها في هذه الأماكن.

ولا يتضح لنا ماذا كان يهدف إليه من أغراض ما يسمى بصدريات المومياات، وهي لوحات صغيرة على شكل المعبد تشبه عادة ما كانت الآلهة والملوك تحمله. على أنه بينما كانت هذه الأخرى تتضمن اسم حاملها، فإن صدريات المومياات تظهر الميت وهو يبتهل إلى إله الشمس أو تظهر كذلك صور آلهة الموتى. ولعلها كانت تعبر ـ على نحو ما ـ عن أن الميت إنما هو في حماية هذه الآلهة. ولا يفضل هذا كثيراً ما نعرف عن الأشياء الكثيرة التي كانت تعلق على المومياات على شكل التمائم كالعيون والجعلان والقلوب والصوالج والتيجان وغيرها. أجل تحدثنا بعض أوراد كتاب الموتى بأن من حمل «چد»، رمز أوزيريس، أذن له بأن يدخل مملكة الموتى، وأن يأكل من أطعمة أوزيريس، وأن يبرّر؛ أو أن يعلق رمز إيزيس فإن إيزيس وحوريس يحميانه، وأنه يرحَّب به في ابتهاج. على أن هذه المزاعم المبهمة المضطربة إنما ترجع إلى عصر لم تعد لديه فكرة واضحة عن المعنى الأصلي للتمائم، ولهذا فليس لنا إلا أن نركن إلى الحدس والتخمين. ومع هذا فمن الواضح أن الجعل الذي كان يوضع كذلك من داخل بطن المومياات، إنما كان لجلب البركة، باعتباره صورة



١٠٩ ـ صدرية عليها قارب الشمس، وفيه الإله على شكل جعل تتعبد له إيزيس ونفتيس (برلين ١٩٨٣).

لإله الشمس، كما أن من السهل كذلك أن نرى أن الرمزين القديمين لأوزيريس وإيزيس (صفحة ٧٥) اللذين كانا يوضعان عادة في يدي المومياء، إنما كانا للتوصية بالميت في مملكة أوزيريس. ومن المحقق أن الغرض من الشمس المشرقة إنما كان لتسمح للميت بأن يشاهد الشمس. أما العين ـ وكانت أكثر التمائم شيوعاً ـ فإنها تأبى كل تفسير؛ ترى هل هي عين حورس، المثال الأول لكل هبة طيبة؟ ولعل الغرض من القلب الصغير، أن يعمل على نحو ما يعمل جعل القلب الذي سبق عنه الكلام، على حين أن الرؤوس المقطوعة للثعابين قد

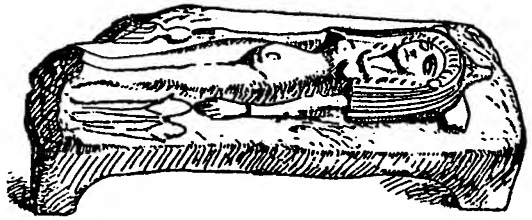


١١٠ ـ تمائم من موميات (أ) الشمس المشرقة، (ب) العين، (جـ، د) تاجان، (هـ) ريشتان، (و) صولجان على شكل البردى للآلهات، (ز) مسند الرأس، (ح) الزاوية، (ط) القلب، (ي) الشاقول، (ك) الدرج.

تكون لإرهاب الهوامّ، التي تهدّد الموتى في مقابرهم. ـ ومن التمائم الأخرى ما قد ثبت حديثاً أنه لم يكن يعتبر في الأصل على هذا النحو[1]، إذ لم يكن سوى

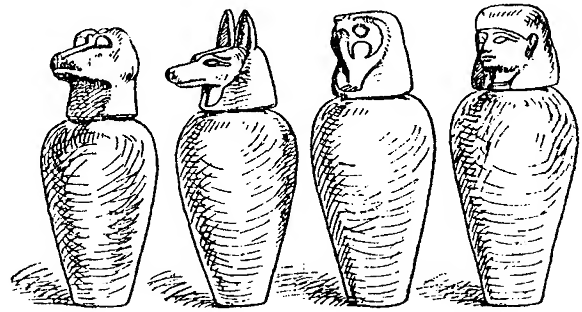
(١) Schaefer, Ae. Z. 43, 66 ff.

نماذج صغيرة لسائر ما كان يوضع إلى جانب الموتى في مقابرهم في الزمن القديم (صفحة ٣٣١). وقد اكتفيَ في الدولة الوسطى بتصوير هذه الأدوات على السطوح الداخلية للتابوت، ثم خطر على البال فيما بعد عمل نماذج صغيرة توضع إلى جانب الميت. فمسند الرأس الصغير من حجر الدم إنما ينوب عن مسند الرأس الكبير الخشبي الذي ينبغي أن ينام عليه الميت؛ أما الزاوية والشاقول فهما من أدوات العمل، التي كانت توضع إلى جانبه؛ وتنتمي التيجان والصوالج لزينته الملكية. إلى جانب هذا لقد أسيء فهم كثير من التمائم. فليس السلم إلا محفة فقدت شكلها بالتدريج، وكانت الريشتان في وقت من الأوقات سكيناً من الحجر من شكل خاص.



١١١ ـ إمرأة على سرير وعند قدميها طفلها ونعلاها (برلين ١٢٦٦١)

وبينما ظلّ يوضع إلى جانب الميت في مقابر الدولة الحديثة ما يكفي من الأثاث والأدوات واللباس والحليّ، وبينما كان لا يستحى من تزويده بتمثال امرأة عارية جرياً على عادة قديمة جداً، وإن أصبح تمثالها يمثلها راقدة على سرير، فقد أخذت العناية بإطعام الميت تقلّ بعد أن كانت أهمّ شيء فيما مضى. حقاً لقد كان يوضع هنا أو هناك في القبر أوانٍ من خشب تحاكي القدور الحجرية، وإوزا مشوياً من خشب، وتمراً من خشب كذلك، على أنه كان يعتمد بصفة عامة على القوّة السحرية التي لقدور الأحشاء، والتي تحدثنا عنها آنفاً، والتي غدت من جملة الضرورات في المقابر. وكان يصنع منها عادة أربع قدور من المرمر المصري، غطاء كل منها كهيئة رأس واحد من أبناء حورس الأربعة، وبهذا كان يقتسم الحراسة على الميت رجل وقرد وابن آوى وصقر.



١١٢ ـ قدور الأحشاء (برلين ٧١٩٣، ٧١٩١، ٧١٨٩، ٧١٨٨)

ونحن إذا أردنا الآن أن نجمل سائر ما عرضناه، فإنه يمكننا أن نقول إن المسائل المتعلقة بالموتى فقدت في الدولة الحديثة طابعها القديم الساذج، على حين برز فيها الجانب الديني والعنصر السحري. ويتجلى ذلك كذلك في استخدام الأدب الجنازي القديم، فقد رأينا كيف تزوّد الملوك في أواخر الدولة القديمة بمجموعة من هذا الأدب في نقوش أهراماتهم، وكيف عمل الأفراد كذلك فيما بعد على أن تكتب هذه الأوراد القديمة على توابيتهم. ولم يقتصر الأمر في الدولة الحديثة على تحلية جزء كبير من جدران المقابر بمثل هذه النصوص، وإنما كانت توضع كذلك إلى جانب الميت أدراج من بردى تحتوي مثل تلك الأوراد، التي اعتبرت معرفتها مفيدة له على نحو خاصّ، والتي يقرأ في نهايتها: «إن من يعرف هذا الورد فإنه» ينعم بهذه البركة أو بتلك. وهذه الأدراج هي التي تسمى «كتب الموتى»، والتي استقينا منها في الفصل الرابع عشر الكثير من التصوّرات الحديثة عن مملكة الموتى. وإلى جانبها ظهرت في نهاية الدولة الحديثة برديات أخرى تحتوي على كتاب الأمدوات، الذي كان يطلب في بداية الأمر ليكون حماية نافعة للمقابر الملكية (صفحة ٣١٨). وفضلاً عن ذلك فقد كانت سائر هذه البرديات الجنازية تصنع جملة كغيرها من الحاجيات الأخرى للمقابر، ومن اليسير أن نتصوّر ما يؤدي إلي هذا. فهذه المخطوطات تبدو في ظاهرها بصورها الجميلة، الملوّنة في كثير من الأحيان، متقنة، منسقة، غير أنها تعجّ بالأخطاء والكلمات الساقطة سهواً. وكثيراً ما تلحق بالنصّ صور غير

صوره، أو أن هذا الكاتب، وقد داعب الكرى عينيه، نسخ سطور النص في ترتيب معكوس على أن هذا لم يكن في الحقّ يحول دون اعتبار هذه الكتب الجنازية نفسها في القرون التالية شيئاً مقدساً، وأن تعامل على هذا الأساس، وذلك لأنها تتضمن عبارات قديمة مقدسة، وهكذا كانت تتسلل دائماً عناصر جديدة في العقائد والعادات الجنازية المصرية، حتى ليظنّ أنه كان لا بد لهذه العقائد والعادات من أن تختنق في الدولة الحديثة بما فيها من تناقض وهذر. على أن هذا لم يحدث، وسنرى كيف ظلت تتطوّر على طريقتها نحو ألف عام.

الفصل السادس عشر

الموتى في العصر المتأخر

على نحو ما تمسكت الحضارة المصرية في عهد تدهورها بالتقاليد القديمة في الديانة كأنّ في مراعاتها الخلاص الوحيد، فقد جاهدت كذلك فيما يتعلق بالموتى على تقليد واستبقاء ما ابتدعته القرون الماضية لسعادة الموتى. وقد أخذ المصريون يستقصون جميع ما وجد من مختلف أنواع الأدب الجنازي. ويقدمونه للميت على البردى أو في نصوص لا آخر لها على التوابيت أو على جدران المقابر. وبهذا عادت إلى الظهور مرّة أخرى متون الأهرام (صفحة ٢٨٥) التي كاد يغشاها النسيان منذ الدولة القديمة؛ وجمعت نصوص كتاب الموتى (صفحة ٢٨٥) في كتاب واحد، يتطلب قرطاساً من البردى طوله عشرون متراً تقريباً، كما أصبح كتابا رحلة الشمس يثبتان بكل صورهما على التوابيت الحجرية الكبيرة (صفحة ٣٣١). وإلى جانب هذا الأدب القديم ظهرت كذلك كتب صغيرة أخرى، كانت تعتبر كلها قديمة أيضاً، وإن كان كثيراً منها حديث التأليف على وجه التحقيق. ومن هذه الكتب مراثي إيزيس ونفتيس لأخيهما أوزيريس، وقد ذكرنا طرفاً منها آنفاً (صفحة ١١٨)، ومنها كتاب التنفس، وكان محبوباً في طيبة بنوع خاص؛ ومنها الرثاء على سكر، وطقس التحنيط، وكتاب الانتصار على أبو فس وكثير غيرها. ومن المحقق أن ليس لأحد أن يتوقع فهم الكثير من هذا الأدب القديم؛ وذلك لأن النصوص قد صحفت في أحيان كثيرة حتى لم يعد لها معنى. ومع ذلك فقد أجهد المصريون أنفسهم في نقل الكثير منها إلى اللغة

المتأخرة[1]. على أن الصعوبة في فهم هذه النصوص قد كانت هي بعينها تضفي عليها كثيراً من الغموض، وكان الغموض والإبهام علامة على كل شيء مقدس مبجل في هذا العصر.

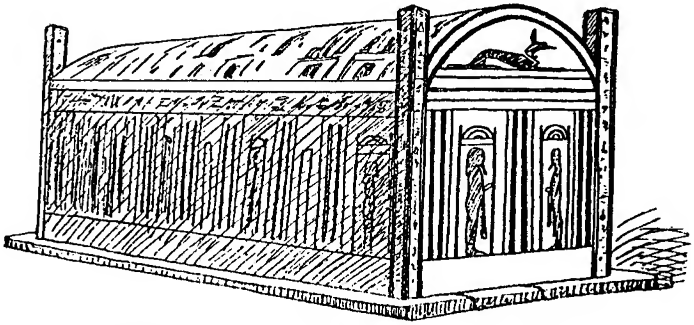
لقد ضاعت مقابر ملوك العهد المتأخر، على أن مقابر الأثرياء من الأفراد تكفي لأن ترينا كيف تصوّر هذا العصر واجباته نحو الموتى، فهي تفوق في عظمتها سائر مقابر العهود السابقة، وليس في المقابر الملكية في طيبة ما يجاري مقبرة بتامنوبي في ضخامة مساحتها، وقد كان صاحبها يعيش في طيبة في العهد الصاوي، ويلقب برئيس «الخرحب» على الأسلوب القديم (صفحة ٢٦٠). يمرّ المرء أول ما يمرّ بفناءين أماميين، زوّدا بصرحين ضخمين على نحو ما في المعابد، ومن ثم ببهوين محفورين في الصخر، يعتمد سقفهما على أعمدة مربعة، ثم يلج من بعد ذلك إلى مجموعتين من الدهاليز والأبهاء والغرف. وفي نهاية إحدى هاتين المجموعتين كتلة من الصخر طولها ١٥ متراً، وعرضها ١٠ أمتار، شكلت على هيئة تابوت ضخم. وهي تعين المكان الذي يرقد الميت من تحته؛ على أنه لا بد للوصول إلى هذا المكان نفسه من أن يهبط المرء بئراً في أحد الأبهاء المذكورة آنفاً، ثم يمرّ في ثلاث غرف، تتدلى من بعدها بئر أخرى، تؤدي إلى بهو تقع من خلفه قاعة كبيرة كان يستقرّ فيها التابوت.

ولقد شيدت على نحو غريب كذلك المقابر التي خلفها لنا هذا العهد في منف. ومع أن مبانيها العلوية اختفت الآن، فقد بقي منها الجزء الرئيسي، وهو البئر الواسعة العميقة، التي تقوم على قاعدتها غرفة التابوت كأنها بناء مستقلّ. وليس من شكّ في أن أسراراً عميقة تختفي وراء تصميم هذه المقابر؛ فقد تحاكي تلك المقابر العالم السفلي وقد تمثل هذه قبر أوزيريس في بئر روستاو.

---

(١) انظر: Schott, Urk. VII, S. 60 f.، وقد نُقل أيضاً الفصل ١٢٥ من كتاب الموتى (وهو يختص بمحاكمة الميت) إلى الكتابة الديموتيقية (Lexa, Das demotische Totenbuch, Leipzig 1910).

وزخرفة هذه المقابر ذات طابع ديني بطبيعة الحال، وهي مقتبسة من الأدب الجنازي. على أنه يظهر إلى جانب الصور الدينية في كثير من المقابر صفوف من الصور ذات الطابع الدنيوي، مما نلقاه مرحبين مسرورين، وذلك لأن هذا العهد المتأخر لم يترك لنا فيما عدا ذلك صوراً من أيّ نوع يمكن أن تعرض علينا حياته ونواحي نشاطه. على أن هذا السرور قصير الأجل، لأن الصور الجميلة، التي تمثل ذبح الضحايا من الحيوان أو تقديم الطيور، قد نسخت بدقة مع جميع الحواشي من أية مقبرة من مقابر الدولة القديمة؛ وقد نسخ الفنان الذي عمل في مقبرة منتمحات في طيبة صفوفاً كاملة من الصور من معبد الدير البحري المجاور[1]. بل إنا لنستطيع التدليل كذلك على أن الفنان، الذي حلي مقبرة إيبي في طيبة بتلك الصور العجيبة التي تمثل الصناع، قد استخدم مصدراً في مكان بعيد، إذ نسخها من مقبرة قديمة في مصر الوسطى، شيدها رجل كان يحمل اسماً مماثلاً ـ ولعل أيبي المتأخر ظن أنه قد كشف في سميِّه هذا عن أحد أسلافه، ولهذا استنسخ صور مقبرة سلفه ليحلي بها جدران مقبرته[2]. وكان ولع هذا العصر بكل قديم (انظر الفصل الثامن عشر) هو الذي أعاد هذه الصور من جديد، وهو ولو يسود الفنّ والدين في ذلك الوقت.



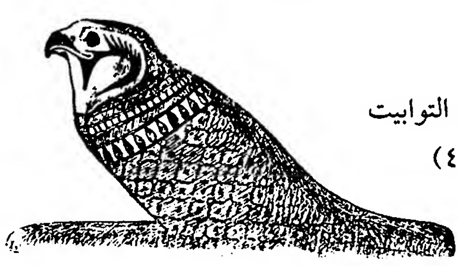
١١٣ ـ تابوت متأخر ذو أعمدة (برلين ٨٤٩٧)

---

(١) Erman, Ae. Z. 52, 90 f.

(٢) Davies, Deir el Gebrawi I, 36 ff.

وتقابل فخافة المقابر في العهد الصاوي روعة توابيتها؛ فقد كان لا بدّ لتوابيت الأفراد من الطبقة العليا أن تكون من الجرانيت القاتم أو البازلت الأسود، وهي في كثير من الأحيان أعجوبة حقاً تدهش بكمال صنعتها. فبعضها في هيئة المومياء، كما جرت العادة منذ الدولة الحديثة، وبعضها الآخر يحاكي التوابيت الصندوقية الشكل من عصور ما قبل الدولة الحديثة؛ على أنها كلها تتميز حقاً بصفة خاصة، فبينما تقل النقوش على تلك التوابيت الحجرية القديمة، رأى المقلدون المحدثون أنه لا بد من أن ينقشوا كتباً كاملة من الأدب الجنازي بصورها على التوابيت. ولم يكن ليخفى على أعينهم كذلك أن هذا إنما يتلف الطابع الجليل الذي لهذه القطع النفسية، ومع ذلك فقد كان من الأهمية بمكان أن تكون للميت تلك النصوص المقدسة منقوشة بالقرب منه على مادة لا تفنى. ويدل على شدة الحاجة إلى مثل هذه التوابيت أن المصريين عرفوا كيف يزوّدون بها كذلك العاجزين عن القيام بنفقات صنعها، إذ كان يسرق لهم من أية مقبرة من مقابر العهود السابقة تابوت قديم، تمحى من عليه نقوشه ثم تنقش مكانه النقوش التي كان يقتضيها العصر الحديث. وفي مجموعة الآثار في برلين تابوت يدل على أن توابيت معيبة قد كانت تستخدم كذلك لهذا الغرض، أن المرء لم يكن ليضيق إذا كان الغطاء لا يتفق مع الجزء الأسفل[١].



١١٤ ـ صقر في أحد التوابيت
(برلين ٤٦٨٧)

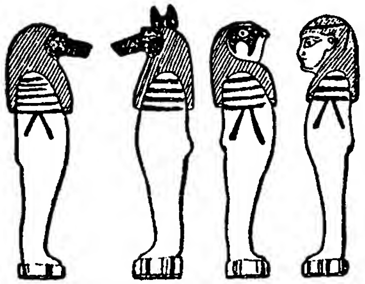
أما من لم يكن يستطيع اصطناع تابوته من الحجر، فقد كان يؤثر في هذا العصر المتأخر صنعه صندوقاً من خشب، على شكل خاص كان يُظن أنه كان

(١) برلين ٤٩ (Ausfuehrl. Verzeichnis S. 270).



١١٥ ـ ابن آوى مـن أحد التوابيت
(برلين ١٠٨١)

لتابوت أوزيريس: أي صندوق له في الأركان أربعة أعمدة تعلو سطحه المقبى. وكانت توضع على هذه الأعمدة أربعة صقور، نحتت أشكالها على أسلوب قديم، كما كان ابن آوى يوضع على الغطاء، على أن يتدلى ذيله من عليي التابوت؛ وتمثِّل هذه الأشكال الخشبية ذات الألوان المختلفة الآلهة التي قامت بحماية تابوت أوزيريس. وكان على موضع الرأس من التابوت وعند قدميه تمثالان لإيزيس ونفتيس تبكيان الزوج المتوفى؛ ومعهما كذلك أنوبيس يقبض على رمز أوزيريس أو يفرك عينيه باكياً[1]. أما على التابوت الداخلي، فكان يوضع على المومياء أشكال تمثل جعلاً ناشراً جناحيه، وأبناء حورس الأربعة



١١٦ ـ أبناء حورس من أحد المومياء (برلين ١٢٦٣١ ـ ١٢٦٣٤)

(١) نفس المرجع ص ٣٠٨.

(صفحة ٢١٣) وإلهه السماء، وسائر ما ابتدع في مصر من تمائم صغيرة؛ وكان الأمر يقتضي ما لا يقل عن ١٠٤ تمائم مختلفة، إذا أريد صيانة الجثة كما صينت جثة أوزيريش من قبل[١]. وكلما زاد نصيب الميت من هذه الأشياء كان هذا خيراً له، وقد أصبحت تصنع على أحسن شكل ومن أنفس المواد باعتبارها أشياء مقدسة. فتحت رأس الميت كان يوضع قرص مستدير من الكتاب صوّرت عليه صور غريبة، وقد جاء عنه أنه «يمنح الميت الدفء تحت الرأس»، وذلك لكي لا يقرسه البرد في النوم - وما زال الرأس حتى يومنا هذا جزء من الجسم الذي يلفه المصري ليلاً بأكبر عناية. وبين ساقي المومياء كان يوضع في بعض الأحيان تمثال صغير لأوزيريس من الطين، مملوء بحبات قمح، كان نموّها يشير إلى عودة الإله للحياة من جديد (صفحة ٧٢). وكان يوضع إلى جانب الميت، فضلاً عن ذلك، إصبعان من حجر أسود، وصورة كبيرة للعين اليمنى من الشمع أو



١١٧ - لوحة الرأس، في الوسط أمون رع تتعبد إليه القردة، ومن أسفل حاتحور على شكل بقرة، وغيرها. (برلين ٧٧٩٢).

(١) Brugsch, Thesaurus S. 1402.

المعدن، وتماثيل صغيرة من الشمع لمالك الحزين (بلشون) أو لأبي منجل وأشياء كثيرة أخرى. هذا وقد يحدث ألا يجد الميت من هذه الذخائر ما يكفيه، لذلك كان الحريصون يحملون معهم في القبر قوالب من الحجر[1]، حتى يمكنهم أن يصوغوا فيها الكثير لأنفسهم وقت الضرورة. وكانت الأحشاء توضع في صندوق، أو على الأرجح، كما كان في الدولة الحديثة، في أربعة قدور حجرية، تحمل أغطيتها رؤوس من أبناء حورس الأربعة، وتوضع فوق ذلك تحت حماية إيزيس ونفتيس ونيت وسلكت.

وما كان لينسى كذلك شيء من الضروريات الأخرى للمقبرة، بل لقد زاد عددها. وهكذا أصبح كثير من المقابر يحتوي على سلم، لعل الغرض منه كان مساعدة الروح على الصعود من بئر المقبرة، إن لم يكن للصعود إلى القبة الزرقاء وفقاً للنصوص العتيقة عن سلم السماء (صفحة ٣٠٢). وقد وجد في إحدى المقابر تمثال لأبي الهول، في خلقة أسد برأس إنسان، «ليحمي المقبرة»، وذلك بطرد الأعداء عنها[2]، على أنه أيضاً كان بمثابة صورة للملك يحرس الطريق إلى المعبد. وعثر في مقابر أخرى على ألوية من خشب عليها تماثيل صغيرة للحيوانات المؤلهة، على نحو الألوية التي كانت تتقدّم المواكب «لإعداد الطريق»[3]، أما قرطاس البردى الذي كان يزوّد الميت به، فقد أصبح إذ ذاك



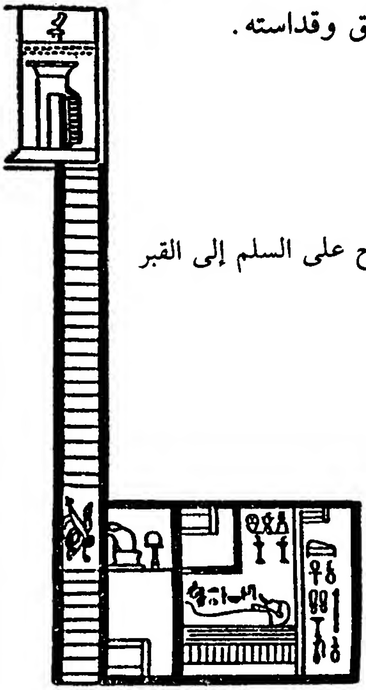
١١٨ ـ أصبعان من الحجر
(برلين ٣٤١٧)

(١) Berl. ausfuehrl. Verzeichnis S. 280 وهي قوالب يستخدمها الموتى.

(٢) Bergmann, Ae. Z. 18, 50.

(٣) Mar. Denderah 1, 9; IV, 16 وكانت في الأصل تحمل أمام الملوك، انظر Quibell, Hierakonpolis, pl. 29.

يوضع في جوف قاعدة تمثال خشبي لأوزيريس، وكان الغطاء الذي يغلق به هذا الجوف يشكل على هيئة تابوت الإله. وهكذا كان يستقرّ الكتاب في تابوت إله الموتى نفسه بما يتفق وقداسته.



١١٩ ـ هبوط الروح على السلم إلى القبر

وأهمّ ما يسترعي النظر بين سائر ما كان يعتبر من مستلزمات المقابر تماثيل الأوشابتي، التي كانت تقوم كما رأينا من قبل (صفحة ٣٧٤) عن الميت بأعمال السخرة والتي تدل إحدى سماتها الخارجية على مدى ما كان لها من قداسة: فقد غدت تتخذ اللحية الخاصة بالآلهة (صفحة ٣٩٣). وكانت التماثيل البسيطة منها، وقد كانت تصنع من القاشاني الأزرق الفاتح، توضع بكثرة في المقبرة، ولهذا حفظ لنا منها عدد وافر بحيث لا يكاد يوجد في الوقت الحاضر مجموعة صغيرة من الآثار إلا وقد وجدت بعض هذه التماثيل المتأخرة سبيلها إليها. وحتى التماثيل الجميلة، التي كانت تنحت من الحجر الجيري على نحو من الكمال لم يكن ليتسنى إلا للصانع المصري وحده في ذلك الزمن، فإنها كانت تصنع في عدد أكبر، وتوضع في جدران غرفة الدفن، وذلك في مشكاوات سدّت فتحاتها

بالبناء، لتكون خير معين لصاحبها. وكان يحدث كذلك أن يزوّد الميت بخمسة وستين وثلثمائة أوشبتي يقوم كل منها بالخدمة مرة واحدة في السنة(١).

وهذا الذي اصطنعه الأغنياء والأشراف لسعادة أرواحهم قد قلده كذلك أفراد الطبقات الدنيا بقدر استطاعتهم. ولهذا فإن في الجبانات الكبيرة من هذا العهد توابيت وأثاثاً جنازياً من كل نوع حتى من أحقرها.

وكان اللحادون الذين يقومون على دفن الفقراء يدفنونهم غالباً على أسوأ حالة في المقابر القديمة. فقد حشرت أربعة توابيت مثلاً في غرفة لم تكن لتسع غير تابوت واحد. كذلك كانت بعض التوابيت توضع رأسية في مدخل إحدى الآبار، وقد تدفن كذلك المومياوات في بئر، فإذا كانت ضيقة ثنيت المومياء ببساطة. أما الفقراء المُتربون فإنهم كانوا يدفنون في الرمل بعد تحنيط بسيط، ، يشدون بعده ببعض الخرق إلى جذع نخلة(٢). وكانت أنواع التحنيط تتميز كذلك بأسعارها، وقد أوضح هيرودوت أن المحنط قد كان قبل قيامه بتجهيز الجثة يعرض على الطالبين ثلاثة نماذج خشبية للمومياوات، تبين طريقة تجهيزها وفق الأسعار المختلفة(٣).

وتتجلى هذه الروح التجارية نفسها عند أولئك الذين كان يعهد إليهم برعاية المقابر، وهم خلفاء الكهنة الجنازيين في الأزمنة القديمة، الذين اعتدنا تسميتهم بإسمهم اليوناني وهو «الكواخيتيون». ولدينا من العهد الإغريقي وثائق عديدة تبين لنا المعاملات التجارية التي كانت تقوم بها أسر هؤلاء الناس. ومنها نرى أن كل ميت قد كان يعتبر ببساطة رأس مال لهؤلاء القائمين على رعاية الجثث. فقد تعهد أحدهم بأن يقوم بتلاوة الأدعية بانتظام وتقديم القربان إلى إبْسِناسِيخسن

(١) Rubensohn, Ae. Z. 41, 8؛ انظر ما سبق أن ذكر عن استخدامها.

(٢) Rubensohn, u. Knatz, Ae. Z. 41, 14.

(٣) Herodot II, 86.

وزوجته وأولاده، وأن ينال على هذا على نحو ما أجرا دائماً؛ وكان هذا العمل وما له من جزاء مسألة مالية كأيّ شيء سواه من المسائل المالية، حتى لقد كان يمكنه أن يوصي به لأبنائه أو يبيعه إلى شخص آخر من طائفته[1]. وكان يمكن كذلك أن يستدين عليه مالاً، ولعل ذلك كله هو الذي أدى إلى الخبر الغريب الذي ذكره هيرودوت[2] والذي لاكته الألسن كثيراً، من أن المصريين يستطيعون رهن جثث آبائهم. ومهما يكن من أمر فلنا أن نحترس من أن نستخلص من هذه العادة ومن هذا العمل التجاري للكوخيتيين أيّ شيء عن الشاعر الحقيقية للشعب نحو موتاه. وإذ كنا لا نستطيع أن نرنو إلى هذه المسائل إلا من بعيد بما يزيد على ألفي عام، فإننا عرضة دائماً لأن نحكي عليها من مظاهرها التي لا نستطيع أن نراها إلا من بعيد كذلك. إننا نرى المقابر وأثاثها، ونرى حراسها المحترفين في أعمالهم وفي صلاتهم التجارية، غير أنه يجب على من يريد إدراك ذلك على حقيقته أن يفكر في شيء آخر، لا تنطق به أية كتابة أو صورة، ولكنه كان من بين ما شاهده هيرودوت في مصر، وهو تلك الولولة الصاخبة يوم الوفاة، يوم كانت النساء يلطخن رؤوسهن بالطين، ويجبن المدينة لاطمات خدودهن مولولات؛ ويجب أن يفكر كذلك في تلك الفترة من الحزن الصامت، إذ يرسل الرجال فيها شعورهم ولحاهم[3]، كأنهم يريدون بذلك تجنب السعداء من الناس، ثم أخيراً في تلك الذكرى الطويلة الحزينة التي لم يذكر حتى هيرودوت عنها شيئاً.

وهاك مسألة أخرى لنا أن ندرك منها أنه لا ينبغي أن نعتمد فقط في حكمنا على هذا الزمن المتأخر على ما خلف لنا في المقابر. فقد رأينا فيما مضى كيف كان المصريون في هذا العهد يرفعون من شأن الأدب الجنازي القديم ويرعون

(١) هناك مثال من هذا النص في الكتيب Aus den Papyrus der Koenigl Museen ص ١٠٣ وما بعدها.

(٢) Herodot II, 136.

(٣) Herodot II, 85.



١٢٠ ـ آوشابتي من العهد الصاوي
(برلين ٤٥١٣)

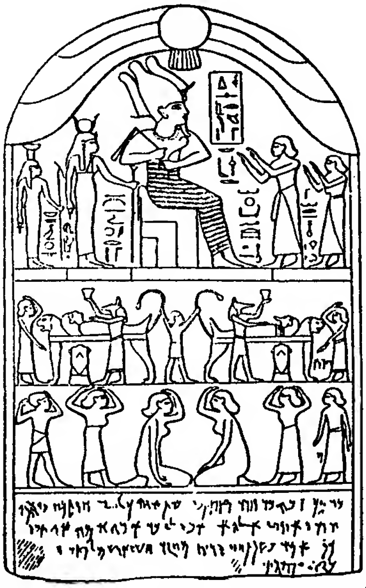
عادات أجدادهم الجنازية، ولكنهم وقد صنعوا ذلك فهل كانوا يشاركونهم كذلك سائر التصوّرات والأفكار، التي تعتمد عليها هذه العادات؟ وهل ظلت الآراء حقاً عن مصير الروح هي بعينها طوال القرون العديدة التي انصرمت منذ تصنيف كتاب الموتى أو كتاب الإمدوات؟ لم يكن الأمر كذلك حقاً، ولكننا وقد حرص المصريون على اتباع التقاليد تماماً في كل ما كانوا يقومون به من عمل، لا نستطيع بدورنا أن نلحظ التغيرات التي طرأت على عقيدة الشعب؛ ولا نستطيع كذلك أن نحكم أكان هيرودوت قد أنبىء بالحقّ حتى يروي[١] لنا أن المصريين إنما كانوا أوّل من بشّر بخلود الروح، وأنهم كانوا يعتقدون فوق ذلك في تنقل الروح، أي أنها عند الموت تمضي إلى كائن آخر يتلقى الحياة في تلك اللحظة نفسها، فإذا حلت في خلال ثلاثة آلاف عام في كل ما يعمر الأرض والماء والهواء من كائن، فإنها تعود إلى الإنسان في خاتمة ذلك المطاف. فهل انتهى الأمر حقاً بذلك التصوّر العتيق، الذي كان يذهب إلى أن الروح تستطيع أن تبدو

---

(١) Herodot II, 123.

طائراً أو زهرة أو «كل ما تريده من شكل»، إلى أن تتخذ في عقيدة الشعب مثل هذه الصيغة؟ في الحقّ لا بد أن كان هذا التصوّر غير ما زعم هيرودوت، ذلك لأنه لو أن المصريين سلموا بمثل هذه الدورة التي لا تنتهي للروح، لما كان هناك ما يدعو إلى الاعتقاد في أوزيريس ومملكته. على أن أوزييريس، بصفته حامي الموتى، ظلّ يرعى الأرواح طوال وجود الديانة المصرية بوجه عام.

وتفيدنا نصب مقابر الأجانب، الذين عاشوا في مصر ثم دفنوا فيها وفقاً للعادات المصرية، في معرفة القليل عن العقائد الشعبية في الزمن المتأخر. فقد دفن في القرن الخامس في منف بعض السوريين، وتدلّ شواهدهم على أنها من انتاج صناع أجانب، ولهذا لم تتأثر مناظرها بالتقاليد المصرية القديمة. وإنا لنرى عليها أن الميت يتعبد لأوزيريس، وأن أنوبيس يبذل العناية بالمومياء، وأن أهل الميت يندبونه؛ وفي النقوش السوريانية يرجو الولد من أوزيريس البركة لوالده. وهذا الذي تعبر عنه الصورة والنقوش هو في جوهره ما كان يعتقده الفرد العادي عن الموت. أما المخاوف والآمال التي لا تحصى، وسائر الأشباح والآلهة، التي يزخر بها الأدب الجنازي القديم، فقد تلاشت من مخيلة الطبقات الدنيا من الشعب وغشيها النسيان.



١٢١ ـ شاهد مقبرة آخت أبو السورية، من منف من عام ٤٨٢ ق. م. (برلين ٧٧٠٧)

الفصل السابع عشر

السحر

السحر نبت وحشي في دوحة الدين، وهو عمل يهدف إلى التغلب على القوى التي تتصرّف في مصير الإنسان. وإنه لمن الخير أن نتعرف كيف يمكن أن ينشأ الاعتقاد بإمكان القيام بمثل هذا العمل. قد يبدو أن الإله استجاب للدعاء تارة، ولم يستجب له تارة أخرى؛ عند ذلك يطرأ قسراً على الفكر أن العبارة التي صيغ فيها الدعاء أول مرة قد لقيت عند الإله قبولاً خاصاً؛ لذلك يعدّ هذا التركيب أفضل تركيب من نوعه، ويغدو صيغة لا يلبث الإنسان أن يعتقد أن له مفعولاً لا يخيب، وأنها تقهر القدر. عندئذ يسوق هذا الإستنتاج الخاطىء إلى أداء أعمال معينة ونبذ أعمال أخرى؛ فقد نجحت اليوم فيما أخفقت فيه منذ زمن وجيز. ومن الواضح أنك قد أسأت إلى الإله أو إلى كائن آخر مجهول بهذه الوسيلة أو بتلك، أما اليوم فقد أرضيته، فإذا وفقت في تعليل ذلك، فلسوف تستطيع في المستقبل تجنب ذلك الحظّ العاثر أو جلب هذا التوفيق. ومن يتدبر هذه الأشياء ويعرف طبيعة الآلهة فلن يلبث كذلك أن يدرك ما عسى أن يكون. ولذلك فإن من كان بالآلهة أعلم فهو يغدو كذلك خير ساحر؛ وكذلك كان الخرحب الرئيسي (صفحة ٢٦٠) في اعتبار المصريين، إذ هو أعلم الكهنة بالأسفار القديمة المقدسة.

فإذا حدث أن تطرّق هذا الاتجاه إلى تفكير شعب ما ـ والشعوب اليافعة الساذجة هي أول ما يتعرّض لهذا ـ فلن يقف أمامه حائل، وبذلك تزدهر

الأعشاب الطفيلية التي تمثل السحر والشعوذة إلى جانب الدوحة الطيبة للدين. وفي الشعوب ذات المواهب المحدودة تخنق هذه الأعشاب آخر الأمر دوحة الديانة خنقاً تاماً، ومن ثم تسود البربرية التي لا تدين بأيّ نظام ثابت في العالم، والتي تجعل من الصنم ذي القوّة السحرية أسمى ما لديها، والتي تستعيض عن الكاهن بالساحر وشعوذته.

ولا يرى أحد أن ينسب مثل هذه الحالة إلى شعب يافع كالمصريين القدامى ـ وإلا كان أشبه بمن يريد أن يسوّي بين خرافات العجوز المنتكس طفلاً، وبين طيش صبيّ يبشر بكثير من رجاء. ومع ذلك فقد كان للشعب المصري كذلك نصيب وافر من تلك الضلالات منذ عهد مبكر.

ومن المحقق أنه من الصعب هنا ترسم حدّ فاصل، كما أنه لا ينبغي أن تعتبر كل عادة تشير إلى ما وراء المحسوس من قبيل السحر(١). فمن يزوّد الميت بالطعام أو يصوّر له على جدران المقبرة مناظر الحياة الرغدة، لا يؤدي بذلك عملاً من أعمال السحر؛ وحتى ذلك الذي يتلو للميت الدعوة الجنازية إنما يتلو في حقيقة الأمر دعاء، وإن كان قد غدا دعاء أجوف وكان يعتقد أن له تأثير السحر. لهذا فلندع جانباً مثل هذه الحالات ذات العلاقة بعبادة الآلهة والموتى، وفيما بقي بعد ذلك الكفاية والزيادة. وقد زادت العصور المتأخرة في سائر ما تواتر عن أقدم الأزمنة من أعمال السحر. وما ينبغي أن يدهشنا ذلك؛ حقاً لقد بلغت ثقافة الشعب في هذه العصور مستوى أرقى مما كان في العصور الأولى، غير أن الميل إلى السحر إنما يكمن في كل إنسان، فإذا ما تراخت قيود العقل ظهرت الحماقات الكبرى من جديد حتى في أرقى طبقات الشعب المثقف.

وتعاويذ السحر مختلفة الصيغ، أبسطها ما خاطب فيه الساحر الشر الذي يودّ أن يطرده، وذلك على نحو ما ينطق به ضد الثعابين أحد الأوراد العتيقة، التي حفظت لنا في متون الأهرام: «يسقط الثعبان الذي يخرج من الأرض،

(١) عن موقفي في هذه المسائل انظر صفحة ٢٨٤ ملحوظة ١ وصفحة ٢٨٨ ملحوظة ٤.

ويسقط اللهيب الذي يخرج من البحر. فلتسقط!»[١]، أو قد يزعم الساحر للموتى، الذي تجلب أشباحهم المرض في البيت، أنه قادر على أن يفعل بهم السوء، وأنه قادر على أن يخرب مقابرهم، وأن ينتزع قرابينهم[٢]. وهو يوضح للمرض أن من الخطر عليه أن يلمّ بهذا المريض حيث لا مأمن له في أيّ جزء من جسمه: فاللسان في الفم ثعبان في جحره، والدبر منفرة للآلهة، أما الأسنان فسوف تطحن المرض، وسوف يهرسه القدم، وقد يتلاشى في الفم[٣]. فإذا لم ينفع الأمر والتهديد والإقناع عمد الساحر إلى أسلوب أرقّ حاشية، فيغري المرض بأن أفضل له أن يسكن إلى حريمه من أن يسكن في هذا الطفل المسكين: «هلمّ اذهب لتنام، واذهب إلى حيث نساؤك الجميلات، اللائي وضع في شعورهن المرّ، وعلى أكتافهن البخور النّديّ»[٤].

على أن الساحر يستنجد عادة بالآلهة. فهو يدعو رع، الذي يرى كل شيء، لرقابة أشباح الشرّ[٥]، أو يشكو الثعبان إلى رع لأعماله السيئة، لأنه «عض الأرض، عض جب»[٦]، أو يبين للمرض أن كل عضو من أعضاء الجسم تحت حماية أحد الآلهة. وكثيراً ما يتكلم كذلك كأنه هو نفسه الإله: «أخرج أيها السم، أفِض على الأرض! حورس يعزم عليك، إنه يبيدك، إنه يتفل عليك. إنك لن تقوم، إنك تسيل على الأرض، إنك ضعيف لا حول لك، إنك بائس ولا سبيل لك إلى المقاومة، إنك أعمى لا ترى، إن رأسك ليتدلى ولن ترفع وجهك... بفضل ما يقول حورس الساحر القويّ»[٧]. أو قد يقول: «إنك لن

---

(١) منون الأهرام، ٢٣٨.

(٢) Zauberspprueche f. M. u. K. S. 33؛ إني أدين بالتفسير الصحيح إلى جراف شاك.

(٣) نفس المرجع صفحة ١٩ وما بعدها.

(٤) نفس المرجع صفحة ١٩.

(٥) نفس المرجع صفحة ٤٠ وما بعدها.

(٦) متون الأهرام ٢٣١؛ لقد أخطأ الكاتب، كما كان يحدث كثيراً، بكتابة اسم الملك والمقصود هو جحر الثعبان الذي ظن بأنه عضة في الأرض.

(٧) Metternichst. 3 ff.

تتسلط عليّ، إني أنا أمون. أني أنا أنوريس، المحارب الطيب. إني أنا العظيم، ربّ القوّة»[1].

وإذا ذكر الساحر في مثل هذه الرقى هذا الإله أو ذاك، فإن لهذا في الغالب سببه في أساطير الآلهة؛ فالإله الذي انتصر بنفسه يوماً ما على الثعابين يغدو أفضل منجد ضدها، والإلهة التي تعهدت الرضيع بنفسها، تصبح كذلك أفضل عون للأم من بني الإنسان. ولما كان من الحكمة الاستفادة مباشرة من هذا المثال السابق، فقد نشأ نوع من الرقى يعرض علينا حادثاً من قصص الآلهة لتطبيقها بعد ذلك فيما بعد. ففي عزيمة تشفي من لدغ العقرب يتعلق الموضوع بالقطة المقدسة، أي الإلهة باستت (صفحة ٦١): «أي رع! هلم إلى ابنتك التي لدغتها عقرب في طريق منعزل! إن صراخها ليصعد إلى السماء... وقد سرى السم في أعضائها، ويجري في لحمها، وهي تحوّل فمها نحوه»، ومعنى هذا أنها تحاول أن تلعق مكان الألم. على أن رع يجيبها: «لا تخافي، لا تخافي يا ابنتي الجليلة؛ هأنذا أقف من ورائك. إنه أنا، إني أطرح السم الذي في سائر أعضاء هذه القطة»[2].

وكان يفضّل بطبيعة الحال ذكر الآلهة التي كانت تعتبر بصفة عامة مثالاً إلّهياً للحياة البشرية جميعاً، وهي أوزيريس وعشيرته. فإن التماسيح لترتدّ مذعوزة أن تذكر الإنسان كيف لبثت جثة أوزيريس فيما مضى في الماء في حماية الآلهة: «أوزيريس في الماء وبجانبه عين حورس، ومن فوقه يبسط الجعل الكبير جناحيه... إن من في الماء يخرج سليماً، ومن يقترب ممن في الماء إنما يقترب من عين حورس. إلى الوراء يا حيوانات الماء!... لا ترفعوا وجهكم يا حيوانات الماء حين يمر بكم أوزيريس. أي سكان الماء، إنّ رع ليغلق أفواهكم، وسخمت تسدّ حناجركم، وتحوت يقطع ألسنتكم، ورب السحر يعمي أعينكم. هؤلاء هم الأرباب الأربعة، الذين يحمون أوزيريس أولئك هم الذين يحمون من

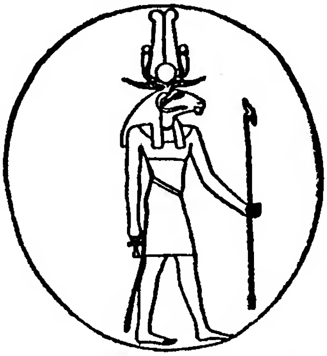
(١) Pap. Mag. Harris. 8.5.
(٢) Metternichhst, 9. ff.

في الماء. وسائر من في الماء من إنسان وحيوان. اليوم!»[١]، ويساعد ضد لدغ العقرب تذكر الأم المسكينة، تلك التي اضطرّت إلى الاختفاء في مناقع الدلتا مع طفلها الصغير. «أنا إيزيس لقد ولدت حورس بن أوزيريس في مستنفعات الدلتا فابتهجت لذلك كثيراً... لقد أخفيته وخبأته خوفاً... غير أني وجدته يوماً، وهو حورس الذهبي الجميل، ذلك الطفل اليتيم، وقد بلل الأرض بماء عينيه ورطوبة شفتيه، وكان جسمه منهوكاً، وقلبه ينبض بسرعة... فصرخت ونحت: «إن أبي في العالم السفلي وأمي في مملكة الموتى، وأخي الأكبر يرقد في التابوت... إني لأودّ أن أدعو أياً من الناس لعل قلوبهم تتجه إليّ. فدعوت سكان المستنقعات فوجهوا قلوبهم سريعاً إليّ، وترك الناس بيوتهم، وهرعوا على ندائي. وقد ناحوا على فداحة مصيبتي»، ولكن أحداً منهم لم يستطع مساعدتي. «وجاءتني امرأة كانت أكيس نساء مدينتها»... وقالت لي: إنّ ست ما كان يستطيع ارتكاب ذلك، «لأن ست لا يجيء هذه المقاطعة، إنه لا يجوب خمّس... لعل عقرباً لدغته»... عند ذلك وضعت إيزيس أنفها على أنفه وتبينت رائحته... وأدركت ألم الوريث الإلهي، وعرفت أنه مسموم، فأخذته بين ذراعيها بسرعة... «أي رع لقد لدغ حورس، لقد لدغ ابنك، لقد لدغ حورس وارث ملكك»... وجاءت نفتيس باكية تردّد المناقع نواحها. وصاحت سلكت: «ماذا حدث ماذا حدث؟ ماذا حدث لحورس بن إيزيس؟ ادع السماء فتقف حاشية رع، ولا تعدو سفينة الشمس حورس».

عند ذلك أرسلت إيزيس دعاءها إلى السماء، وصراخها إلى زورق الأبدية. فوقفت الشمس ثابتة لم تتحرّك من مكانها. وجاء تحوت مزوّداً بسحره وبالأمر العظيم لرع، وقال: «ماذا حدث؟ ماذا حدث يا إيزيس، أيتها الإلهة الجليلة ذات الفم الحصيف. أجل إنه لم يحدث للإبن حورس أيّ سوء؟... لقد أتيت من سفينة الشمس من مكانها الذي كانت فيه بالأمس، وقد انتشر الظلام واختفى الضوء حتى يشفى حورس من أجل أمه، وكذلك كل عليل (آخر)... حارس حورس هو ذلك الذي في شمسه، والذي يضيء القطرين بعينيه المتألقتين ـ وهو

(١) Metternichst. 38 ff.

كذلك حارس العليل، حارس حورس هو الشيخ الذي في السماء السفلى، الذي يصدر أوامره إلى كل ما يوجد وما لا يوجد ـ وهو كذلك حارس كل عليل. . . إن سفينة الشمس تقف ثابتة، والشمس لا تغادر مكان الأمس حتى يشفى حورس من أجل أمه، وحتى يشفى كذلك العليل من أجل أمه»[1].



١٢٢ ـ «الذي في شمسه» (من معبد إسنا)

وعانى حورس مرة أخرى من حريق لعله التهم الكوخ الذي كان يرقد فيه فقيل إذ ذاك لإيزيس: «إن ابنك يحترق في الريف». ـ هل هناك ماء؟ ـ «ليس هناك ماء» ـ «إن الماء في فمي، وإن نيلاً لبين ساقي، لقد جئت لأطفىء الحريق». ثم كان أن رؤي في عصر تالٍ أن هذه الرقية الساذجة ضد الحروق يجب أن تصاغ على نحو أرقّ، ولهذا أصبحت إيزيس تقول: «إن الماء لفي فمي، وإن شفتي لذواتا فيض»[2].

وفي مرة أخرى كان حورس يحرس ماشيته في الحقل ولم تشأ أن توغل كثيراً حيث الحيوانات المفترسة بالقرب من ذلك المكان. لهذا صنعت له إيزيس ونفتيس بعض التمائم: «كُمَّت أفواه السباع والضباع وسائر الحيوان الطويل الذيل، مما يتغذى باللحم، ويشرب الدم، لطردها وقطع آذانها، ومنحها الظلام

(١) نفس المرجع صفحة ١٦٨ وما بعدها.

(٢) Schaefer, Aegypt. Zeitschr. 36, 129.

وحرمانها الضوء، ومنحها العشا وحرمانها النظر، في كل منطقة في هذه الليلة. قف أيها الذئب الشرير... اذهب إلى الجنوب، إلى الشمال، إلى الغرب، إلى الشرق؛ إن الحقل بأكمله حقلك، ولن يردّك عنه أحد. لا توجه وجهك نحوي وولّ وجهك شطر حيوانات الصحراء. لا تولّ وجهك إلى طريقي، بل ولّ وجهك شطر طريق آخر»(١). وفي هذه العزيمة الأخيرة لا يتمالك المرء إلا أن يظنّ أن الساحر نفسه هو الذي ابتدع لحورس حياة الرعاة تلك، التي لم ترد عنها أدنى إشارة في أيّ نصّ آخر؛ لقد كان حورس قبل غيره الطفل الإلهي، ولذلك أمكن أن يسند إليه كل ما كان واجباً أن يفعله الصبية في مصر. وعدا هذا يتضح كذلك أن صحة الأساطير التي تشير إليها هذه الرقى لا تتنزّه دائماً عن الشك.

وبينما تبدو في هذا كله نجدة الآلهة كأنها هدية يمنحونها إذا طلبها الساحر بالعبارات الصحيحة، هناك ما يدلّ على مغالاة غريبة في اتباع وسائل البشر العادية، إذ يهدّد الساحر أهل السماء حتى ينفذوا إرادته. وتوجد مثل هذه التهديدات في الأدب الجنازي القديم؛ فقد جاء في أحد الأوراد التي حفظت في متون الأهرام: «أنتم يا آلهة الأفق! بحق ما تودون أن يحيا (سيدكم) أتوم، وتضمخوا أنفسكم بالزيت، وتلبسوا الملابس، وتتلقوا أطعمتكم، خذوا بيده وأنزلوه في حقل الأطعمة»(٢). وأقوى من هذا ما جاء في موضع آخر من نفس هذه المتون: «فإذا لم تسيروا بالزورق إليه... فستنزع لمم الشعر التي على رؤوسكم كما تنزع براعم الأزهار على شواطىء البحار»(٣). وآإذا لم تقودوا الميت مع أسرته تتعطل عبادة الآلهة؛ «ومن ثم تسرق قطع اللحم الممتازة من على مذابح الآلهة، ولن يقدم الخبز، ولن يصنع خبز أبيض»، ولن تقدم «أية قطعة من اللحم من وضم الجزار» إلى الإله(٤). بل إن الساحر ليقلب العالم

(١) انظر .Lange, Pap. Mag. Harris. S. 86 f

(٢) متون الأهرام ٨٧٩ ـ ٨٨٠.

(٣) متون الأهرام ١٢٢٣.

(٤) Lacau, Textes religieux, N°. 2؛ انظر أيضاً Grapow, Ae, Z, 49, 48 f .

أجمع؛ إنه إن لم «يخرج مبرّراً، فلن يرقى رع إلى السماء، وإنما يرقى النيل إلى السماء، ويعيش على الحق، ويهبط رع إلى الماء ويعيش على الأسماك»[1]. وإذا لم يمنح الميت مكانته السامية فعلى السماء أن تبرق وتمطر، وأن يُضرب ذراعا شو، اللذان يحملان السماء[2]. على أنه لم يُذكر كيف تنفذ هذه التهديدات. ويعتمد الساحر في حالات أخرى على أنه يعرف اسم الإلـه، اسمـه الذي ترتكز عليه قوّته. لهذا جاء فيما سبق من تهديد أصحاب لمم الشعر أنه سيذكر أسماءهم للناس. أليس لأسماء الآلهة قوّة رهيبة؟ إذا «نطق» إنسان باسم منها «على شاطىء نهر، امحى النهر (أي جفّ)، وإذا نطق به على الأرض تطاير الشرر»؛ وإذا هجم تمساح على ساحر يعرف هذا الإسم فإنه بفضله «يجعل الأرض تغور في أمواج الماء، ويصبح الجنوب شمالاً، وتدور الأرض»[3].

ولكن من أين عرف السحرة هذا الإسم المكنون الذي يعتمدون على معرفته؟ هذا السؤال لا بد أن يكون المصريون قد عرضوا له كثيراً، وذلك لأن عزيمة من الدولة الحديثة تكفلت بالإجابة عليه في إفاضة، فهي تقصّ علينا كيف أفشى مرة اسم رع المكنون. ذلك أن رع لما كان يحكم «الآلهة والبشر أجمعين» على الأرض، كانت إيزيس أمهر النساء جميعاً؛ كانت أمهر من البشر والآلهة والمبجلين، «وما كان في السماء ولا في الأرض شيء لا تعرفه»، غير أنها لم تكن تعرف الإسم الحقيقي لرع ذي الأسماء الكثيرة، فعوّلت على معرفته. وقد غدا الإله شيخاً عجوزاً، يرتجف فمه. «ويتساقط رواله على الأرض، فعجنت إيزيس بيدها منه ومن التراب الذي لصق به دودة عظيمة. . . وضعتها في الطريق الذي يسلكه الإله العظيم إذا أراد زيارة قطرية». وحينما كان رع «يتريض كعادته كل يوم»، تتبعه الآلهة لدغته الدودة.

---

(١) Totb. ed. Naville, 65, 12.

(٢) متون الأهرام الفصل ٢٥٥.

(٣) Lange, Pap. Mag. Harris, S. 58.

«وبلغ صوت جلالته السماء. وقالت آلهتها: ماذا حدث؟ وقالت الآلهة (الأخرى): ماذا جرى؟ ولكن كان عاجزاً على أن يجيب وكانت شفتاه ترتعشان وسائر أعضائه ترتعد، وتملك السم جسده كما يتملك النيل الأرض».

ولما هدأ قليلاً نادى حاشيته: «تعالوا يا من نشأتم من جسدي، أنتم أيها الآلهة يا من خرجتم مني، تعالوا أخبركم بما حدث لي. لقد أصابني ما يشبه المرض؛ إني لأشعر به ولكن عينيّ لا تريانه... إنني لم أذق ألماً يماثله أبداً... إنني أمير، وابن أمير، إني البذرة الإلهية، التي غدت إلهاً. إني أنا العظيم بن العظيم. لقد ابتكر أبي وأمي اسمي. إني أنا ذو الأسماء الكثيرة، وصاحب الأشكال العديدة. شكلي في كل إله. إنني أدعى أتوم وحورس حكن. لقد أخبرني أبي وأمي باسمي؛ أنه كامن في جسدي منذ مولدي. حتى لا يكون لأحد، ممن يريدون عمل السحر ضدي، قوّة سحرية. ولما خرجت لرؤية ما خلقت وللتريض في القطرين اللذين خلقتهما، أصابني شيء لا أعرفه. إنه ليس بنار، وما هو بماء، ولكن قلبي يتقد، وجسدي يرتعد، وسائر أعضائي في برودة الثلج».

على هذا النحو جرت شكاية رع، وقد استدعى أبناء الآلهة «أولى الحديث الرائع، والفم العارف»، فجاءوا جميعاً مكروبين، وكذلك جاءت إيزيس ببراعتها، وهي ذات الفم الممتلىء بنسيم الحياة، والتي يطرد مقالها الداء، والتي يحيي حديثها من لا نَفَس له». قالت: «ما الخبر؟ ما الخبر أيها الأب الإلهي؟ انظر إن كانت قد آذتك دودة، أو رفع أحد مخلوقاتك رأسه ضدك، فإني أجعله يهوي إلى الأرض بفضل سحري البارع».

وفتح الإله الممجد فمه: «عندما كنت في الطريق أتريض في مصر والصحراء، ودّ قلبي رؤية ما خلقت، فجرحتني دودة لم أرها. إنه ليس بنار،

---

(١) انظر كذلك ما لوحظ عن اسم آمون (صفحة ١٩١) وما ذكر عن خلق أسماء الأشياء عند خلق العالم (صفحة ١٠٦).

وما هو بماء، ومع هذا فإني أشدّ برودة من الماء، وأشدّ حرارة من النار. إن كل أعضائي لتبضّ عرقاً».

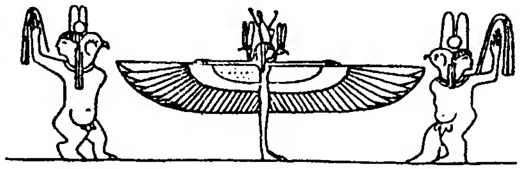
عند ذاك قالت إيزيس لرع: «أخبرني باسمك يا أبي المقدس، إن الرجل الذي يذكر اسمه يظلّ حياً». فأجاب الإله الكهل: «إني أنا الذي فطر السماء والأرض، وعقد الجبال وأنشأ ما عليها. إني أنا الذي صنع الماء، وخلق لجج السماء... إني أنا الذي صنع السماء، وجعل أفقها مكاناً خفياً، وأقمت فيه أرواح الآلهة. إني أنا من إذا فتح عينيه ضاءت الدنيا، وإن أغمضهما ساد الظلام، ومن يجري ماء النيل بأمره ـ ولكن الآلهة لا تعرف اسمه. إني أنا الذي قدر الساعات وخلق الأيام، إني أنا الذي يفتتح العام ويخلق الفيضان. أنا خبري في الصباح وأتوم في المساء».

ومع ذلك لم يتلاشَ السمّ، فقالت إيزيس: «إن اسمك ليس فيما حدثتني به، أخبرني به، وبذلك يخرج السم، إن الرجل الذي يُذكر اسمه يظلّ حياً». وطفق السمّ يتقد أشدّ من النار حتى لم يستطع الإله أن يصمد طويلاً، فقال لإيزيس: «إنما ينبغي أن يمضي اسمي من جوفي إلى جوفك»، ثم أردف قائلاً: ينبغي أن تخفيه، ولكن في طوعك إخبار ابنك حورس به ليكون حجاباً قوياً ضد كل سمّ[1].

وإن القارىء ليرى أن الساحر يحتفظ لنفسه هنا كذلك بالإسم المكنون ولا يخبرنا به. على أن الأمر ربما جرى على خلاف ذلك في ورد قديم جداً، يضمن للميت استخدام معراج السماء (صفحة ٣٠٢): «تعالى أيها المعراج (موكت)، أقبل يا بوكت، تعال باسمك، الذي تذكره الآلهة»[2]؛ وربما كان المقصود هنا أن الآلهة لا تسمي المعراج موكب كما يفعل البشر، وإنما تسميه بوكت.

(١) Lefebvre, Aegyt. Zeitschrift 21, 27 ff.

(٢) متون الأهرام ٩٩٥.



١٢٣ ـ أشكال سحرية لتصويرها على شريط من الكتاب (كتاب الموتى، طبع لبيوس ١٦٤).

وكذلك فإن أغلب الكلمات الغريبة، التي تزخر بها رقى العصر المتأخر بنوع خاص كانت حقاً تعتبر أسماء خفية للإله. وفي مواضع أخرى كان هذا الهذر يجري على أنه لغة أجنبية، وإذن فالتعويذة الواقية من الأسود «إدر إدسن إدرجه إدسن متحدا مرم إدسن متحدا إمي إدسن» إلخ، كانت تعتبر من المحقق تعويذة فينيقية، وذلك لأنها تتضمن بعد ذلك اسم الإله بعل[١].

ولكي يكون للرقى أثرها الصحيح كان لا بد من مراعاة أشياء كثيرة عند تلاوتها، فكان على من شاء لنفسه أن يتلو ورداً يجلب له الحظّ، أن «يتطهر» قبل كل شيء تسعة أيام. ثم كان عليه بعد ذلك أن يتضمخ بنوعين من الزيوت وأن يتبخر، بحيث تكون المبخرة من وراء الأذنين، وأن يطهر الفم بالنطرون، وأن يغتسل بماء الفيضان، وأن يتخذ نعلين من الجلد الأبيض، ونقبتين جديدتين، وكان عليه آخر الأمر أن يرسم على لسانه علامة الحق بمداد أخضر. ثم كان عليه بعد ذلك ـ إذا كنت أحسن الفهم ـ أن يدخل في دائرة لا يجوز له أن يتركها طوال أداء الطقس السحري. ولتلاوة ورد آخر تلاوة مجدية، كان يجب أن ترسم على الأرض سورة كاملة تمثل: إمرأة إلهة «على وسطها» ثعبان منتصب على ذيله، وسماء وأشياء أخرى كثيرة[٢]؛ أو ترسم على اليد عين تضم صورة الإله أنوريس، ولهذا علاقته بالتأكيد بما جاء في الورد من أن الساحر يتخذ شخصية

(١) Pap. Mag. Harris XII.؛ لما كانت اللغة المصرية تنقصها الحروف المتحركة، لهذا فلا سبيل إلى أن نتبين كيف تنطق هذه العبارات السحرية.

(٢) كلا هذين المثلين من Destruction des hommes سطر ٧٤، ٨٠.



١٢٤ ـ بطاقة عليها رقية وأشكال سحرية (ليدن)

الإله «شو، صورة رع التي من داخل عين أبيه»[١]. وفي رقية أخرى، كانت تتلى في الماء ضد الحيوانات الشريرة، وصف إله الشمس بأنه «بيضة الماء» ذلك لأنه برز مرّة في بيضة وسط الأمواج (صفحة ١٠٠)، ولهذا كان يجب على «الرجل الواقف عند مقام السفينة أن يقبض على بيضة من الطين في يده»، لأنه بذلك «يعتقد سكان الماء» أنهم يرون الإله نفسه، فإن برزوا فوق سطح الماء ارتدّوا فيه مذعورين[٢].

وكان من الخير فضلاً عن هذا ألا تتلى الأوراد مرة واحدة، وإنما أربع مرات[٣] على نحو ما جرت به العادة مع كثير من الدعوت منذ القدم. فإذا ألحقت بها كذلك كلمة «اليوم!»، كان ذلك علامة على أنها يجب أن تؤتي أثراً سريعاً. وكانت تضاف إليها في بعض الأحيان هذه العبارة: «الوقاء من وراء، الوقاء المقبل، الوقاء!»[٤].

(١) Lange, Pap. Mag. Harris, S. 58.

(٢) نفس المصدر صفحة ٥٤.

(٣) Z. f. M. u. K. S. 52; Lange, Pap. Mag. Harris S. 60. f.

(٤) Z. f. M. u. K. S. 33, 35.

ومما لا يحتاج إلى إيضاح، أنه كان ينبغي أن تتلى الرقى في صوت مهيب، ومما يدلّ أنها عادة منظومة شعراً. وليس من شك كذلك في أنها كانت ترتل إنشاداً، ذلك أن مخطوطاً يحتوي على رقى الدولة الحديثة قد وصفها بأنها «رقى جميل إنشادها»[١].

وتتعدّد الأغراض التي يستخدم فيها السحر على نحو ما تتعدد ضروريات الحياة. فهو يصرف العاصفة والزوبعة[٢]، ويحمي في الصحراء ضد السباع، وفي الماء ضد التماسيح، وفي كل مكان ضد أشد أخطار مصر إزعاجاً، وهي الثعابين والعقارب؛ أجل لقد زوّدت أهرامات الملوك القدامى بعدد وافر من الرقى ضد هذه الهوامّ. وفضلاً عن ذلك فإنه يساعد على الولادة[٣]، ويتلى عند إعداد الأدوية، وبه تحارب جميع السموم وجميع الجروح، وجميع الأمراض، كما يحارب به كذلك الذين يجلبون هذه المكاره وهم الموتى. وذلك لأنه من عقائد الشعب المصري القديمة[٤] كما رأينا من قبل (صفحة ٣٢٥) أن الموتى الأشرار يتركون مقابرهم ويتربصون بالبشر، ولهذا ينبغي على الآلهة أن «تحبس ظلّ الميت والموتى الذين يسيئون إلينا»[٥]. فقد ترى الأم الجزعة طيف امرأة ذات وجه مدبر تنسلّ إلى البيت في الغسق تريد القيام من رضيعها مقام الحارس، عند ذلك تقول لها: «هل جئت تقبلين هذا الطفل؟ لست آذن لك أن تقبليه. هل جئت تهدّئين من روع هذا الطفل؟ لست آذن لك أن تهدئيه. هل جئت تؤذينه؟ لست آذن لك أن تؤذيه. هل جئت تنتزعينه؟ لست آذن لك أن تنتزعيه مني. عند ذلك «يضيع» على الطيف «ما جاء من أجله»[٦]. ولهذا أيضاً تتلو الأم في الصباح

(١) Lange, Pap. Mag. Harris S. 12.

(٢) Budge, Nesiamsu 121 ff.

(٣) ويساعد كذلك البقرة عند ولادتها رعاة خبيرون بالسحر (مقبرة بتوزيرس، صفحة ٤٦؛ انظر أيضاً صفحة ٣٤٢).

(٤) تتجلى هذه العقيدة في متون الأهرام، انظر (متون الأهرام ٢٩٠ ـ ٢٩٣).

(٥) Totb. ed. Nav. 92, 10.

(٦) Z. f. M. u. K. S. 12.

والمساء على التميمة التي تعلق لطفلها الصغير: «أي رع إنك تشرق، إنك تشرق. إذا رأيت هذا الميت يذهب إلى فلان، والميتة، زوجة... فإنه لا ينبغي لها أن تأخذ طفلي بين ذراعيها. إن رع، سيدي، هو الذي ينجيني. إني لا أسلم فيك، إني لا أسلم حملي إلى اللص واللصة من مملكة الموتى»(١).

ويتربص الميت والميتة كذلك بالشبان اليافعين، وكذلك ترى الكتابات الطبية فيهما أصلاً للأمراض(٢).

وهناك فضلاً عن ذلك كتب للسحر، تمنح «القوّة والبأس» ضد الأعداء، و «تنشر الفزع»؛ وقد جاء فيها أنه إذا صنعت تماثيل الآلهة والبشر من الشمع ثم دست في منزل الخصم فإنها «تشلّ فيه يد الإنسان»(٣). ونحن إذاً ندين بهذه البيانات قبل كل شيء لوثائق قضية حكومية، يدل ما جاء فيها من تقرير رسمي على أن هذه المسائل كانت تؤخذ بجدّ تام. ولحماية الملك (هذا إن كان لنا أن نثق في بيانات أحد الكتب المتأخرة) كان يؤدي من أجله في كل صباح ضرب من السحر يحميه من أعدائه.. ويتضح لنا ذلك إيضاً مما كشف من أشياء غريبة تبين لنا كيف كان المصريون يستعينون كذلك بفنّ الساحر فيما كان يهدّد الملك والحكومة من أخطار. فمن متون الأهرام نفسها نسمع عن تهشيم القدور(٤)، أما كيف كان يؤدى هذا الضرب من السحر فإنه يدلّ عليه تلّ من كسر الفخار(٥)، عثر عليه في طيبة ومحفوظ الآن في متحف برلين. وهو يرجع على ما يظنّ إلى العصر الذي حكمت فيه مصر الأسرة الحادية عشر، حتى قضى امنمحات الأول على حكمها (حوالي ٢٠٠٠ ق. م). وما من شك في أن هذا

(١) Z, f. M u. K. S. 43 ff.
(٢) كما جاء مثلاً في Ebers I, 4.
(٣) Pap. Lee I, 4; Pap. Rollin 1.
(٤) متون الأهرام ٢٤٩.
(٥) Sethe, Aechtungstexte (Abh. Berel. Akademie 1926).

السحر قد عمل لأحد هؤلاء الملوك. فقد كتب على عدد كبير من القدور والصحاف قائمة بأسماء كل من يخشى خطره على الملك، مزوّدة ببيانات دقيقة عن كل فرد منهم، ومرتبة بعناية وفق بلادهم، وذلك لكي يسهل على «الآلهة والأرواح» ممن عليهم تأدية السحر الاهتداء إليهم. وفي بداية القائمة أمراء البلاد المجاورة الجنوبية مثل: «حاكم أوباتس، باكواي، الملقب زاي، الذي ولدته إيحاسي، والذي أبوه أونكات، مع سائر خلصائه الذي بجواره». ولكي لا يترك أيّ شرّير أضيف إلى هذا «سائر زنوج كوش، وميجر، وشات» زنوج بلاد أخرى كثيرة، «أقوياؤهم وعدّاووهم ، وحلفاؤهم وشركاؤهم، الذين سيصبحون أعداء، والذين سيتآمرون، والذين سيقاتلون، والذين يقولون إنهم سوف يقاتلون، والذين يقولون إنهم سيصبحون أعداء في هذه البلاد جميعاً». وعلى هذا النحو كذلك سردت سائر أسماء الأعداء من أمراء فلسطين، تليها أسماء الليبيين في فقرة موجزة، تليها أسماء ألدّ الأعداء طرّاً، وهم المصريون أنفسهم، رجالاً ونساء، وكبار «المستشارين، الذين سوف يصبحون أعداء، والذين سيتآمرون»... إلخ في هذه البلاد قاطبة. وقد ذكر ثمانية منهم بأسمائهم، ونعت أربعة من هؤلاء بأنهم مربون لفتيات من الطبقة العليا؛ وإن الإنسان ليميل إلى الاعتقاد بأنهم كانوا ينتمون إلى دار النساء، وأنهم اشتبكوا في مؤامرات الحريم. وقد جاء صراحة أمام أسماء هؤلاء المصريين الثمانية أنهم «يجب أن يموتوا»، على حين اكتفي في حالة الأعداء الأجانب بإضافة علامة تعني أنهم من عداد الموتى. ولقد كان الساحر يعتقد أن هذا المصير سوف يلحق بهم إن هو هشم القدور التي عليها أسماؤهم، وتدلّ كسر الفخار على أنه قد قام بدقة بهذا الأمر.

وفضلاً عن ذلك، فقد حاول بهذه المناسبة أن يزيل شرّاً آخر، فقد أضاف إلى قائمة الأعداء: «كل العبارات السيئة، وسائر الكلام السيء، وكل سباب سيىء وسائر الأفكار السيئة، وسائر الدسائس السيئة، وسائر المنازعات السيئة، وسائر المشاجرات السيئة، وسائر التدابير السيئة، وسائر الأشياء السيئة، وسائر الأحلام السيئة، وكل نوم سيىء». وهكذا إذا امحى هذا كله، امحى كذلك كل ما يمكن أن يرهق الملك في اليقظة أو النوم.

ونعلم عدا ذلك أيضاً أن هناك فناً آخر، كان يقي الملك، ويختم على أفواه الأعداء، الذين يتقوّلون السوء ضد الملك، فقد كان يصنع تمثال صغير من الطين أو الشمع تلحق به لوحة من البردى عليها اسم المجدف بحق الملك واسم أبويه. وكان يصنع بهذا التمثال أشياء شتى، فكان يؤخذ به إلى حيث تنفذ الأحكام، ويختم على كل أعضائه كما ختم تحوت على فم المسيء، أو كما ختم حورس على فم المذنب[١]. وترجع هذه الطريقة إلى زمن قديم، على أنه يتضح كذلك من ورودها في هذه النصوص المتأخرة، أنها كانت في العهد المتأخر موضع تقدير كبير. وللوصاية بها ذكر عنها أنها «مجرّبة مرات كثيرة». ولم يقتصر الأمر على وجوب حماية الملوك أنفسهم بالسحر، إذ لم يكن للآلهة غنى عنه كذلك ليحموا أنفسهم من خصومهم. وقد كان من المعروف أن تحوت قرأ رقية بقرة السماء على رع لحمايته[٢]؛ وكان في طوع البشر كذلك مساعدة إله الشمس بتلاوة الأوراد الخاصة بالانتصار على التنين أبو فس، وذلك في أوقات معينة[٣]. وقد وجدت هذه التصوّرات سبيلها إلى عبادة الآلهة، فكانت تماثيل الآلهة في المعابد «تعوذ بالتمائم» (صفحة ٢٥٠)، و «السحر والكلام البارع، وليطرد من أجسادها كل سوء»[٤]. وقد تكلمنا بما فيه الكفاية في الفصول السابقة عما كان ينبغي أن يوفره السحر للموتى من حماية تامة؛ فالخادمات، والسفن، والمواقد، والشون، وعصى العاج، وتماثيل الأوشابتي، وجعلات القلوب، وألواح الرأس - كل هذا وكثير غيره إنما ينتمي للسحر أو يقاربه أتمّ قرابة. ولقد رأينا فيما مضى أن الأدب الجنازي نفسه قد أخذ يزداد طابعه السحري مع الزمن، وأصبحت أوراده في الدولة الحديثة تماماً بمثابة الرقى تسعد تلاوتها الميت أو الحيّ.

---

(١) Schott, Ae. Z. 65, 35 ff.

(٢) Destruction des hommes 78.

(٣) Budge, Nesiamsu p. 146.

(٤) نصب رمسيس الرابع (Mar. Abydos II 54 - 55,25 f.).

ويتفق هذا أيضاً مع الكتابات الطبية، على أنه في الواقع لا يكاد يكون للرقى في المؤلفات القديمة الكبيرة في الطب أثر يذكر، ولكنها أخذت في الدولة الحديثة تحلّ شيئاً فشيئاً محل «الوصفات» الطبية.

ويقابل التقدير العام الذي حظي به السحر، أن القيام به لم يكن من شأن الأفراد، وإنما كان له ممثلوه الأخصاء؛ وهؤلاء هم الكهنة «الخرحب»، «كتبة كتاب الإلـه»؛ وكان يشغل أعلى وظائفهم في الدولة القديمة أبناء الملك بالذات؛ وتحدثنا مجموعة طريفة من القصص من الدولة الوسطى كيف كانوا يستخدمون فنهم كذلك لأغراض دنيوية. فقد اصطنع أحدهم من الشمع تمثالاً صغيراً لتمساح التقم في الماء زانيا؛ وشقّ آخر بحيرة طاوياً أحد شقيها على الآخر ليستخرج لإحدى السيدات حلية سقطت منها. وقد سماهم كذلك العهد القديم بلفظ محرّف هو «خرطوم» باعتبارهم مفسرين للأحلام ورقاة في بلاط مصر(١). وكانت رعاية السحر كذلك من واجبات «دار الحياة»(٢).

وهي مدرسة العلم في مصر، كما كانت كتب السحر تؤلف على منهاج منظم، وكان لها مكانها كذلك في مكتبات الملوك(٣)؛ إذ كانت في حقيقة الأمر تنتمي إلى الأدب كالكتابات الأدبية أو كتب الحكمة. وكانت جميعها تدّعي بطبيعة الحال بأنها قديمة جداً، فقد ألّف أحدها إله الأرض(٤)، وألف آخر إله الحكمة(٥)؛ ووجد كاهن من العهد الصاوي كتاباً ثالثاً في قبر ثور منيفس(٦)؛ وجاء أن كتباً أخرى من نفس هـذا العصر وجـدت في قـدر بجـانـب إحـدى

---

(١) من المحقق أن مؤلف كتاب دانيال، الذي جاء في عصر متأخر، والذي أطلق هذه الكلمة على السحرة البابليين، قد اقتبسها من قصته بنتاتويش.

(٢) Pap. Mag. Harris 6, 10.

(٣) Pap. Amherst I, 3.

(٤) Destruction de shommes 58.

(٥) Griffith, Stories of the high priests p. 20.

(٦) Metternichst, 87.

المومياات، وكان من بينها كتاب ابتدعه أمنحوتب بن حابو، الوزير الحكيم لأمنحوتب الثالث، لاستعماله الخاص[1].

على أنه في حقيقة الأمر من المشكوك في صحة أغلب العزائم السحرية، فقد كانت بضاعة نافقة، تدفع من أجلها الأموال العظيمة، وتقتنى قدر المستطاع. وكثيراً ما تتألف ببساطة من أوراد أو أغاني محبوبة بقديمة[2]. فمن أغنية قديمة جداً للإلهة نوت اختير بيتان محبوبان، استبدل فيهما باسم نوت إلهة الولادة مسخنت، ثم أضيف إليهما بضع عبارات أخرى، وبهذا تمت الرقية الخاصة بتيسير الولادة[3]. وأضيف إلى قصة إفناء البشر التي ذكرناها من قبل (صفحة ١٠٤) بضعة أحاديث للآلهة عن الثعابين، وبهذا أصبح هذا الكتاب رقية عجيبة ضد هذه الهوام، وكان جديراً بأن ينقش بهذه الصيغة في إحدى المقابر الملكية[4]. وفي بعض الأحيان كانت تستخدم رقية لا شك في قدمها لغرض جديد إذا اقتضى الأمر. فقد كانت هناك رقية تتحدث عن حمل إيزيس، وعن مولد حورس، لأن الغرض منها إنما كان مساعدة الأمهات؛ على أن رجلاً من الدولة الوسطى احتاج إلى رقي للموتى فاستخدمها ببساطة رقية «للتحوّل إلى صقر»، وذلك لأن حورس سمي فيها بالصقر، على نحو ما جرت به العادة[5]. كذلك ابتُدع عدد كبير من الرقي في العهد المتأخر؛ بل لقد وضع كثير منها في الدولة الحديثة نفسها، ويتجلى هذا بوضوح في لغته وتصوّراته الدينية الحديثة. ويبدو أن الدولة الحديثة بصفة عامة هي العهد الذي ازدهر فيه هذا العلم الحوشي.

---

(١) Pleyte, Chap. supplém., ch. 167 - 174, pl. 126 - 167.

(٢) وذلك على نحو ما يتعمد سحرتنا استخدام آيات من الكتاب المقدس والسحرة العرب آيات من القرآن.

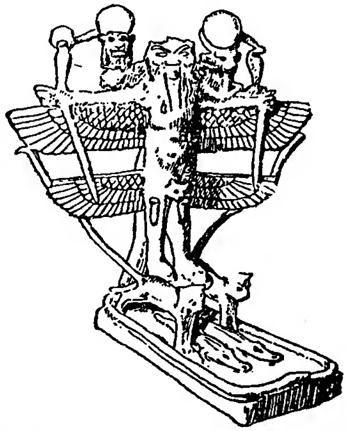
(٣) Z. f. M. u. K. S. 26.

(٤) Destruction des hommes, 56 ff.

(٥) Lacau, Textes religieux in Recueil 27, 56 - 58.

ويتجلى كذلك حرص السحرة على الاستفادة فيما كانوا يشيدون به من نتائج لما اصطنعوا من ضرور السحر. وقد سردنا من قبل بضعة أمثلة لهذه الإشادة عند الكلام عن كتب السحر في الأدب الجنازي (صفحة ٣٢٣)؛ وإليك من كتاب متـأخر مثل يشيد بما للرقية من فوائد جمة. فمن كان يملك رقية أبو فس فإنه لم يكن ليذبّ هذا التنين عن سفينة الشمس، ويشتت السحاب، ويطرد العواصف فحسب، وإنما كان «يكسب منها كذلك فوائد على سطح الأرض، وفوائد في مملكة الموتى»، وكانت تمنحه «القدرة على القيام بعمل رئيسه»، وأخيراً «تخلصه حقاً من كل سوء». وكان الساحر يستطيع أن يعد عملاءه بهذا كله بضمير مطمئن، لأنه «شاهد هذا كله بنفسه»[١].

وكان مما اختص السحر به في العصر المتأخر صناعة تماثيل وشواهد صغيرة، كانت تقام في البيوت أو تعلق في الرقاب حماية من مختلف أنواع الحيوانات الشريرة. وكانت لبعض الكائنات المقدسة شهرة بأنها تساعد ضد هذا الخطر بنوع خاص ـ فهناك مثلاً الإله القديم شو بن رع، الذي يحمل السماء، والذي كان يسمى في أبيدوس أنوريس، لقد أصبح المصريون يتصوّرونه في هيئة



١٢٥ ـ شكل مركب من إيزيس وحورس وباستت وغيرهم يقهرون الأسود والتماسيح والثعابين (برلين ٨٦٧٧).

(١) Budge, Nesiamsu p. 122.

«المحارب الجميل»[١]، والمنقذ (شد)، ويتمثلونه أميراً شاباً يقتل وهو في مركبته الأسود[٢]. وقد أخذ هذا الدور نفسه النصف إله بس، الغريب (صفحة ٢٠٨)، والطفل المشوّه الذي نسميه «باتيكا»، ثم قبل كل شيء الطفل حورس نفسه، الذي لا يستطيع أيّ حيوان شرير أن يمسه بأيّ ضر. وكثيراً ما كانت تمزج عدة آلهة معاً لتكون حمايتها أقوى[٣]؛ فكان حورس الصغير مثلاً يعطي رأس بس الحيوانية، أو كان يؤلف من خنوم وتحوت ومين وحورس، أو خبرى وخنوم وتحوت ومين وأنوبيس وأوزيريس وموت وباستت شكل مركب، يبدو مخيفاً حقاً، غير أنه كان يعتبر لهذا السبب أقدر على فعل العجائب. وفي إحدى الحالات سمي أحد هذه الأشكال المركبة باسم آمون رع، مع أنه لا يكاد يكون فيه من آمون شيء يذكر، ويظن أن اللاهوت في الدولة الحديثة، وقد خلط بين الآلهة، إنما كان يلهو بهذه التسمية.

وتقترن هذه الأشكال، التي هي من عمل الدولة الحديثة كما ذكرنا، بالتمائم العديدة التي حاول الإنسان وقاية نفسه بها منذ زمن قديم. وكان يعد



١٢٦ ـ نصب صغير للوقاية من الحيوانات الشريرة: حورس برأس بس، وعلى جانبيه أحد آلهة الشمس وزهرة نفرتم (برلين ٤٤٣٤).

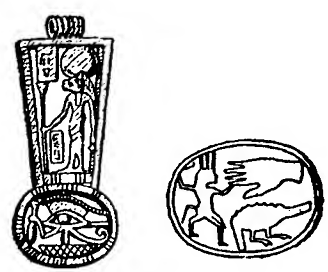
---

(١) Pap. Mag. Harris 8,5.

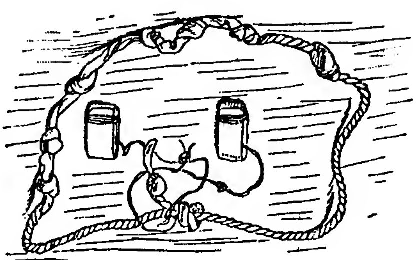
(٢) Berlin, Ausfuehrl. Verz. S. 205.

(٣) عما يلي انظر نفس المرجع ص ٢٩٩.

حماية جيدة ذلك الحبل الصغير، عقد به عدد معلوم من العقد، فمثلاً «إحداها في المساء وأخرى في الصباح حتى يتمّ منها سبع عقد»[١]. وكان من هذا القبيل كذلك أن تنظم سبع حلقات من الحجر وسبع حلقات من الذهب أو سبعة خيوط من الكتان تعقد بها سبع عقد[٢]. وكان من الممكن أن تضاف إلى هذا أيضاً أية وسيلة خاصة ككيس صغير فيه عظام فأر[٣]، أو كخاتم نقشت عليه صورة يد وتمساح[٤]، أو كلوحة صغيرة عليها طائفة من صور الآلهة، أو أيّ علامة أخرى مما يجلب الحظّ. وإننا لنعرف الآن هذه الأشياء الأخيرة وخاصة من التمائم، التي كانت تعلق على الموميات كما رأينا من قبل، والتي تزخر بها مجموعات الآثار، ولكننا لا نكاد نعرف عما كان ينسب لكل من هذه التمائم من كفاية، ولا عن الأساس التي كانت تعتمد عليه قدرتها على التأثير، ولا يكاد المصريون أنفسهم في العصر المتأخر يحدثوننا عن ذلك بشيء واضح. وكل ما كان ممكناً أن يخبرونا به هو أنه في سائر هذه التمائم تكمن «الحكا»، وهي القوّة التي تسمو على الطبيعة، والتي تملكها الآلهة، والتي تستقرّ في أسمائهم الخفية، والتي



١٢٧ ـ تميمتان (برلين ١١٣٨٩، ١٣١٧٣).



١٢٨ ـ خيط به سبع عقد معلق به حجابان عليهما رقى (برلين ١٠٨٢٦).

(١) Z. f. M. u. K. S. 41.
(٢) نفس المصدر صفحة ٥٢.
(٣) نفس المصدر صفحة ٣٠.
(٤) Schaefer, Aegypt. Zeitschr, 39.87 انظر كذلك Erman Z. f. M. u. K. S. 39.

يمكن كذلك أن تحل في الأشياء المقدسة كتيجان الملك الزاخرة بالسحر[1]. ومن شأن التمائم والرقى أن تنقل إلى الإنسان نصيباً من هذه القوّة التي كان يعتمد عليها فنّ السحر.

وليس في طوعنا هنا أن نتطرّق بالتفصيل إلى الكلام عن الخرافات الكثيرة المختلفة، التي انتشرت في مصر إلى جانب السحر؛ على أننا نذكر هنا بعبارة صريحة أن النوعين اللذين سادا في مصر في العهد المتأخر، وهما كشف الطوالع والكيمياء القديمة، لم يظهرا في الدولة الحديثة مطلقاً. ولم يظهر كذلك إلا في العصر المتأخر ـ على وجه التأكيد ـ الاعتقاد في العين الشريرة، الذي تؤمن به البلاد الجنوبية بأسرها. وإننا لنقرأ على لوحة صغيرة من الخشب كانت معلقة يوماً في رقبة بتموستوس، أن كل إنسان ينظر إلى الطفل «محيت» هذا نظرة شر، فإن الآلهة تكبه كما تكب التنين أبو فس[2]. وكان يستحب في العصر المتأخر تسمية الأطفال بأسماء كان يظن أنها تقيهم العين الشريرة[3]. بل لقد كانت التعاويذ توجد في مكتبة إدفو[4] «لصرف العين الشريرة»[5].

ولقد كشف حديثاً عن ضرب آخر من الخرافات وهو كتاب الأحلام، الذي ما زال يسمى في أوروبا في الوقت الحاضر «الكتاب المصري الحقيقي في الأحلام»[6]. وهي مؤلف على غرار كتب الأحلام في زمننا هذا تماماً، وتشبه بعض تفسيراته ما لا يزال شائعاً بيننا من تفسيرات؛ فمن يرى نفسه ميتاً فهو يعيش حياة طويلة؛ ومن يحلم بسقوط أسنانه فإن قريباً له يموت؛ ورؤية

(١) المتحف البريطاني ٥٧٤.

(٢) Schott, Ae, Z. 67, 106.

(٣) Spiegelberg, Ae, Z. 59, 149 Folg.

(٤) نفس المصدر صفحة ١٥٣.

(٥) ليس من المؤكد إذا كانت العينان الشريرتان اللتان جاء عنهما أنهما يختمان باباً مغلقاً (متون الأهرام ٢٦٦) لهما صلة بهذا الموضوع.

(٦) إني لأدين بمعرفة هذا الكتاب لما تفضل وأخبرني به أ. هـ. جاردنر.

المرء نفسه في المرآة فأل سيء، ومعناه زوجة ثانية. ومن يحلم بقطة كبيرة، فإنه ينال محصولاً وفيراً؛ ومن يتسلق سارية سفينة رفع الإله من شأنه. أما من يحلم بأنه يأكل خياراً فسوف يشتجر؛ فإذا رأى في نومه أنه يأكل تيناً وعنباً، ، كان في ذلك دلالة على المرض. ويرجع تاريخ هذا الكتاب إلى الدولة الحديثة وأفكاره بسيطة ساذجة. على أن الأحلام لم يكن لها بصفة عامة شأن هام(١)، إلا في العهد اليوناني حيث أصبح تفسير الأحلام يمارس بحماسة.

والأمر على نقيض ذلك في اختيار الأيام، أو بمعنى آخر في تصوّر أيام معلومة من السنة أياماً سعيدة وأخرى غير سعيدة؛ فلدينا من الدولة الوسطى تقويم عن شهر يعين ثمانية عشر يوماً طيبة، وتسعة أيام سيئة، وثلاثة أيام بين بين(٢). ومن الدولة الحديثة لدينا كتاب كبير يزوّدنا ببيانات مماثلة عن جزء كبير من السنة، وكثيراً ما يحاول كذلك تدعيم هذه البيانات، فاليوم قد يكون سعداً أو نحساً تبعاً لهذا الحادث أو ذاك مما جرى فيه من قصص الآلهة. وإنا لنقرأ مثلاً عن اليوم الثاني عشر من الشهر الأول للشتاء أنه سيء جداً وأن الإنسان يجب فيه أن يجتنب «رؤية فأر في هذا اليوم»، وذلك لأنه اليوم الذي فيه «أعطى سخمت الأمر» والمقصود بذلك رع الذي أمر بقتل البشر (صفحة ١٠٤). أما اليوم الأول من الشهر الرابع للشتاء فهو يوم طيب تماماً، وهو «عيد كبير في السماء والأرض»، وذلك لأن «أعداء سبك خروا في طريقهم في هذا اليوم»(٣). ويبدو أن هذه التفسيرات إنما نشأت عندما حاول المصريون أن يسلكوا الخرافات الشعبية عن الأيام السعيدة والسيئة في نظام واحد، وعندما طفقوا يصطنعون من التمييز بين الأيام علماً. ومن السهل أن نتبين أنهم اعتبروه على هذا النحو، لأن البردية التي حفظت لنا هذا النصّ هي كراسة مدرسية لصبيّ، نسخ فيها الكتاب

---

(١) جاء إلى جانب السحر في النصائح لمريكارع ذكر الأحلام بالنهار والليل كنعمة وهبها الله للبشر. انظر Lit صفحة ١١٩.

(٢) Kahunpap. pl. 25; Text p. 62.

(٣) Sallier IV, 14, 2; 21, 2.

كتمرين خطي. ومن الواضح أنه لم يكن يفهم منه الشيء الكثير، ومع ذلك فما من شك في أن هذا النموذج ما كان ليعطى للصبيّ لنسخه ما لم يكن يُعتقد في فائدته ومنفعته. وهكذا نرى على الدوام مرة بعد مرة كيف كانت الخرافة تنمو وتزدهر في عهد الدولة الحديثة؛ ولهذا فلا غرابة إذا انتهى الأمر بأن أصبح هذا العشب الضارّ يسمو على كل شيء في مصر.

* * *

الفصل الثامن عشر

عهد الاضمحلال والعصر الصاوي

حينما كان كهنة طيبة يردعون رمسيس الثالث في مقبرته الفخمة، جعلوا إلى جانبه تلك الوثيقة العظيمة (صفحة ٢٨٠)، التي تسجل كل ما قدّم الملك لمعابد مصر من خدمات؛ ولهذا فقد كان على الآلهة أن ترعاه في موته وأن تداوم على حماية مملكته. غير أنه يبدو كأنّ الآلهة لم تستمع لهذه الأمنية؛ إذ يظهر لنا ـ كما نرى من الأحداث الآن ـ أن موت رمسيس الثالث بالذات إنما كان نقطة التحوّل في تاريخ مصر، فقد أخذت البلاد في عهد خلفائه تتهيأ لفترة طويلة من المحن. على أن كهنة طيبة أنفسهم كانوا يستطيعون بلا شك أن ينظروا إلى المرحلة الأولى من هذه الفترة من المحن، كأنها لا تزال مرحلة عظيمة في تاريخ البلاد، إذ تحقق فيها ما كان يلوح لهم منذ عهد بعيد كأنه من غير شك أسمى مثال، فقد استولت السلطة الروحية على المُلك، وارتقى العرش حريحور (حوالي سنة ١١٠٠ ق. م) الكاهن الأعلى لآمون. ولئن كانت مملكة الكاهن الأعلى وأسرته قد ظلت ذات طابع دنيوي، فما من شك في أن المبدأ الذي اعتمدت عليه إنما كان مبدأ السيادة الدينية. فقد كان آمون يحكم البلاد عن طريق كاهنه الأعلى، وعن طريق الزوجة المقدسة، التي نتحدث عنها فيما بعد (صفحة ٤٢٥). وسنرى كذلك فيما بعد، عند ترسم مصير الديانة المصرية في البلاد الأجنبية، كيف تطوّرت هذه الحكومة الدينية في مكان آخر انتقلت إليه.

على أن من المحقق أن مملكة هذا الكاهن الأعلى لم تكن لتستطيع أن

تجعل السيادة لها على البلاد كافة إلا بصعوبة؛ فقد كان إلى جانبه ملوك آخرون. وكان سمندس، وهو يومئذ أقواهم جميعاً، يقيم في تانيس عند حدود مصر الشمالية الشرقية، حيث كانت الظروف فيها تختلف عنها في طيبة، تلك المدينة المقدسة في أقاصي البلاد. ولسنا نعرف كيف حدثت هذه الإنقلابات؛ على أننا نرى أن العهد الجديد قد عمد إلى التعبير عن نفسه بإقامة مبنى عظيم على نحو ما جرت به العادة في مصر. وكان إله القمر خنسو ثالث آلهة طيبة في حاجة إلى معبد جدير به. حقاً لقد بدأ رمسيس الثالث بإقامة مثل هذا المعبد، ولكنه لم يتمه.

وقد أتمّ حريحور هذا البناء، وما من شك في أن معاصريه قد ذهبوا إلى أن هذا العمل يضارع المعابد التي شيدها كل من أمنحتب الثاني والثالث ورمسيس الثاني والثالث في القرون الخالية. على أن هناك فرقاً بين تلك العمائر وبين هذا العمل الذي قام به حريحور، وهو فرق بيِّن لا يجوز لنا أن نتخطى ذكره هنا. لقد كان الفراعنة القدامى إذا أرادوا بناء معبد يعمدون قبل كل شيء إلى افتتاح محجر يمدهم بالحجر اللازم للبناء، أما حريحور[١] فقد سهل على نفسه الأمر، بأن هدم المعابد القديمة واستخدم أحجارها في مبناه. وقد رصت الأحجار بحيث تختفي نقوشها في البناء، فإذا تعذّر ذلك أزيلت منها النقوش، أو غشيت بطبقة من الجصّ[٢]. وهكذا تلاشى في المبنى الجديد، الذي أقامه حريحور، معبد كوم الحيتان الكبير الذي كان أمنحوتب الثالث قد شيده على الشاطىء الغربي (صفحة ٢٧٠). وقد استُخدمت إذ ذاك مبانٍ أخرى كذلك محاجر بنفس هذا الأسلوب المحزن. حقاً لقد حدث مثل هذا من قبل، فإن حور محب ـ على الأخص ـ قد استولى بهذا الأسلوب على مباني عهد الزندقة،

(١) لا يعني هذا بطبيعة الحال أن رمسيس الثالث لم ينح كذلك على هذا النحو حين بدأ العمل في معبد خنسو.

(٢) Borchardt, Ae. Z. 62, 37 ff.

ولكن الملك الكاهن في هذه الحالة، التي بين يدينا، هو الذي هدم على هذا النحو أحد معابد إلهه الخاص.

وكذلك يبدو لنا عهد الرعامسة الأواخر وعهد حريحور كأنه عهد جديد، غير أن الطريف فيه هو الانحطاط.

ولدينا كذلك من عهد حكم حريحور وثيقة أخرى تبسط أمام أعيننا حالته المحزنة، كأن معبد خنسو لم يكن يكفي في الدلالة على هذا العصر.

وهذه الوثيقة تقرير برحلة أونامون، وهو يبين لنا أن قوّة مصر وسمعتها لم يعد لهما وجود، وأن ثروة آمون لم يعد لها وجود كذلك.

وكان لا بد لكي يشتري أونامون الخشب من فينيقيا، من أن يدبر أولاً المال اللازم لذلك بجمعه مما يهبه مختلف عظماء مصر، كما كان يجب أن يتولى سمندس نفقات الرحلة نفسها بالبحر[١]. وكان العون الوحيد، الذي منح لأونامون في مهمته، تمثالاً لآمون، كما أنه تلقى الأمر بهذه المهمة عن طريق الوحي الإلهي، ومع ذلك فلم يستفد حقاً من كلا هذين الأمرين إلا قليلاً في رحلته الكئيبة. وقد شاهدنا لحالات كثيرة من مثل هذا الوحي (صفحة ٢١٨) منذ بداية الدولة الحديثة، ولكنها لم تغدو وسيلة منظمة ثابتة إلا في عهد الانحطاط. وكان إذا أراد أحد الطبقة العليا التصرّف فيما سوف يخلف من أملاك، فإن الإله يصدر ـ حباً له ـ أمراً بهذا الشأن: «هكذا يقول أمون رع، الإله العظيم، الإله الأول العظيم: إن قطعة الأرض هذه» التي لفلان، والتي حصل عليها بالطريقة كذا وكذا، والتي تقع في مكان كذا ـ وقد كان هذا كله يبين على طريقة الأعمال التجارية ـ «إني أثبتها لابنه... ومن ينزع هذا القرار» المقام بالمعبد، «يكن غبياً، بعيداً عن أن يصدّ كلامي، وأنقم عليه في الحال... ثم لألقينّ به في البؤس، وليكوننّ لغيره إرثه، وترينّ ذلك عيناه، وليركعنّ أمام عدوّه؟ ولتنزعنّ

(١) التقرير عن رحلة أونا مون Lit. S. 226. ff.

من جانبه امرأته» ـ ولسوف يحدث هذا كله لأنه «تخطى الأمر الذي أحنيت له رأسي»[١].

فإذا كان الأمر يتعلق باستدعاء بعض المنفيين بعد ثورة سياسية، جيء في أحد أيام الأعياد «بجلالة هذا الإله المجيد، سيد الآلهة، آمون رع، ملك الآلهة؛ فيأتي إلى الأفنية العظيمة في معبد آمون، ويستقرّ. . .» ثم يقدم له القربان «وتقدم التحية»، ويعرض عليه رئيس الكهنة أن أولئك البائسين منفيون في الواحات، وأنه يرجى أن يحرّم الإله نفي أحد بعد ذلك في الواحات، كما يرجى أن يكتب هذا القرار على نصب، «فكان الإله يحني رأسه كثيراً كثيراً» عند كل رجاء[٢].

وفي حالة أخرى تعرّض تحوتمس، أحد كهنة آمون الخصوصيين، لاتهام قويّ، وهو أنه ارتكب اختلاسات في شؤون الإله. وفي صباح أحد أيام الأعياد، عندما كان الكهنة يحملون الإله في قاربه، ويخرجون به «على الأرض الفضية في بيت آمون»، كتبت في محضره رسالتان، جاء في إحداهما: «أي آمون رع، يا ملك الآلهة، يا سيدي الطيب! يقال إن تحوتمس هذا المشرف على الضياع، يحرز شيئاً مفتقداً»؛ وعلى الأخرى: «أي آمون رع، يا ملك الآلهة، يا سيدي الطيب! يقال إن تحوتمس، هذا المشرف على الضياع لا يحرز شيئاً مفتقداً». بعد هذا سأل الكاهن الأعلى عما إذا كان يريد «أن يقضي. فأبدى الإله العظيم موافقته التامة، ووضعت الرسالتان بين يدي الإله العظيم. فأخذ الإله العظيم الرسالة التي جاء فيها «أي أمون رع، يا ملك الآلهة، يا سيدي الطيب! يقال إن تحوتمس، هذا المشرف على الضياع، لا يحرز شيئاً مفتقداً». وقد تكرّر هذا مرة أخرى واختار الإله الرسالة التي تبرىء تحوتمس، فإذا أحسنت الفهم فقد كان الإله يؤيد براءته من كل تهمة. وأخيراً منح تحوتمس بهذه الطريقة عفواً عاماً. وانتهى الأمر بأن اقترح على الإله، أن ينصب تحوتمس «في وظيفة الأب المقدس لآمون، والمشرف على الضياع، والمشرف على الشؤون، ورئيس كتاب أوامر

(١) Erman. Ae. Z. 35, 12 ff.

(٢) Brugsch, Reise nach d. grosseen Oase, Tafel 22.

آمون، ورئيس كتاب الشؤون لضياع آمون». وقد وافق الإله كذلك على هذا الاقتراح - وإنا لنرجو ألا يكون قد ندم على موافقته[١].

وما من شك في أن آلهة أخرى غير آمون كانت كذلك تحسم المنازعات بين البشر على هذا النحو. فقد كان في الواحة الداخلة نزاع قديم على ملكية إحدى العيون، وقد فصل فيه آخر الأمر في عهد الملك شيشنق؛ إذ حدث عند خروج الإله المحلي سوتخ في عيده أن قرّر هذا الإله أمام الشهود أن البيانات الواردة في القوائم صحيحة، وأن العين لفلان لا لغيره.

ومن ناحية أخرى فليس من شك في أن السلطان الواسع الذي كان لسوتخ في هده الواحة، إنما كان يعتمد على ظروف محلية، إذ كان سوتخ في هذا العصر مطروداً منبوذاً في غير ذلك من المواضع. لقد ظل المصريون آلافاً من سنين يؤمنون في اطمئنان أن ست قد قتل أوزيريس وأنه قاضاه بغير الحق، ولكنهم على الرغم من ذلك قد ظلوا يعدّونه من بين الآلهة العظيمة. على أن الشهرة السيئة التي كانت تلصقها به أسطورتهما، أخذت تبرز مع الزمن، حتى إنه عندما شيد الملك سيتي (حوالي سنة ١٣٠٠ ق. م) مقبرته الصخرية العظيمة لم يعد يعتبر من المناسب أن يذكر في هذه الغرف، التي يسود فيها أوزيريس، اسم قاتله. ولهذا اضطرّ الملك إلى أن يوافق على ألا يسمى في مقبرته الخاصة باسم سيتي «المنتمي إلى ست» وإنما باسمه الأوزيري. وقد ازدادت مع الزمن كراهية الشعب لست. حتى لقد كان على من يكتب اسمه أن يمحوه بنفسه[٢]. وإذا كان بين تماثيل أحد المعابد تمثال لست فقد كان رأسه[٣] يشكل على هيئة رأس أنوبيس المشابهة. ثم كانت صورته تمحى - آخر الأمر - من نقوش المعابد، فقد غدا الإله القديم شيطاناً وعدوّاً لسائر الآلهة، واتخذ الدور الدي كان يقوم به تنين العواصف.

(١) Naville, Inscr. Histor. de Pinodjem III.

(٢) كما هو الأمر في برديات برلين من عهد الأسرة ٢٢.

(٣) تمثال في اللوفر من مجموعة بوسنو؛ وتمثال في كوبنهاجن.

ولم تجلب حكومة آمون في طيبة نعماً كثيرة لمدينته، وإنا لنجد ما يؤيد ذلك في الأحداث التي لا يمكن أن تكون، حتى من وجهة نظرنا، إلا أحداثاً وضيعة. ففي عهد خلفاء رمسيس الثالث بدأ الكفاح مع اللصوص الذي رنوا بأبصارهم إلى مومياوات الملوك بالذات وما كان معها من ذخائر. وإنا لنملك أوراق تحقيق أجري في هذا الشأن في عهد رمسيس التاسع. وفي عهد الملوك الكهنة رؤي أنه لا أمل في هذا الكفاح، فأخفيت مومياوات الملوك في أماكن، كان يرجى أن تكون فيها في مأمن أوفى فنقلت مثلاً مومياء رمسيس الثاني مؤقتاً في مقبرة سيتي الأوّل، ثم بعد ذلك في مقبرة أمنحوتب الأول. وأخيراً أخفي ما أمكن إنقاذه من مومياوات الملوك في شقّ في الصخر غير بعيد من معبد الدير البحري. وفي هذا الشق نفسه أخفيت إذ ذاك كذلك مومياوات الأسرة المالكة الحاكمة. فإذا فكرنا فيما كان يعنيه ـ عند الشعب المصري ـ سلب الملوك الموتى ذخائرهم وكراماتهم، فلنا أن نقول إن هذا كله يعدّ من أسوأ ما كان يمكن حدوثه في طيبة.

وإلى جانب قوّة الكهنة في ذلك القرن ازدهرت قوة أخرى هي قوّة الجنود الأجنبية. فمنذ نهاية الدولة الحديثة أقام في أماكن مختلفة من البلاد المحاربون من الليبيين. وفي حوالي سنة ٩٥٠ ق. م. استطاع أحد زعمائهم ـ وهو شيشنق ـ أن يقيم نفسه ملكاً في بوبسطة، وقد مكثت السلطة في أسرته عهداً طويلاً.

وبهذا غدت كذلك إلهة بوبسطة، وهي الإلهة باستت ذات رأس القطة، إلهة المملكة، كما لم تفت الآلهة الأخرى للدلتا أن تحظى بعطف ملوك هذا العهد.

ومن ناحية أخرى لم تضعف الهالة التي كانت تحيط العاصمة القديمة في الصعيد وإلهها، فأبدى ملوك بوبسطة لآمون الاحترام والتبجيل، واستأنفوا من جديد تشييد المباني الضخمة في الكرنك، وبهذا برهنوا على أنهم كذلك من أتباع آمون. وقد كان لهذا أيضاً أسبابه المادية، فقد كانت طيبة من الأملاك التي يجزى الإهتمام بها والجهد من أجلها. على أن أحداً من الأسرات الحاكمة في العصر المتأخر لم يمتلك طيبة رسمياً، إذ كان لا بد لها جميعاً من أن تعمل



١٢٩ ـ الزوجة المقدسة عنخ ـ نس ـ نفر ـ ايب ـ رع
(برلين ٢١١٢)

حساباً لخرافة غريبة ظهرت في تلك القرون، وهي أن طيبة لن تتبع بعد هذا أميراً من البشر، فقد كان لها سيد إله، هو آمون؛ ولم يكن ممثل سلطانه في الأرض كاهنه الأعلى، كما قد يظن، وإنما كانت «الزوجة المقدسة» أي زوجة الإله في الأرض (صفحة ٢٧٨). وبهذا غدت طيبة أشبه بإمارة روحية تقوم بالحكم فيها سيدة من الطبقة الراقية، ولا بد أن كانت كل أسرة حاكمة تطمح في الحصول لإحدى أميراتها على هذه الوظيفة السامية وما يرتبط بها من ثروة. ولما كان من حقها وفقاً للقانون أن تورث منصبها الرفيع إلى ابنة خالصة لها، فلم يكن إذن مناص إذا اقتضى الأمر من أن تجبر السيدة الحاكمة على تبني من تتطلب السياسة أن تخلفها. وقد حدث هذا كثيراً في ذلك العصر وفي القرون التي أعقبته؛ وإن الإنسان ليضحك إذا قرأ في أحد نقوش أبسماتيك الأول ما يعلل به عملاً من هذا القبيل. فإنه إقراراً بجميل آمون قد وجد أنه مضطر لأن يهب للإله نيتوكريس. وبهذا قدمها للزوجة المقدسة شب ـ إن ـ أوبت «لتكون ابنتها الكبيرة»، وأرسلها عام ٦٥٥ ق. م. إلى طيبة في احتفال كبير، حيث استقبلها السكان جميعاً. «فلما وصلت إلى الزوجة المقدسة شب ـ إن ـ أوبت، نظرت هذه إليها وسرت

بها وأحبتها»[١]. وللمرء أن يظن أن النساء اللائي كن يشرفن على هذه الإمارة ـ سواء الشابات منهن أو العجائز ـ لم يكن يدرنها بأنفسهن، إذ كان يقوم عنهن لهذا الغرض «المشرف على بيت العابدة المقدسة»، وهو رجل من الطبقة الراقية، كان بين كهنة آمون يحم لقب الكاهن الرابع.

ويدل على مدى ما كان لهؤلاء الناس من ثراء، مقابرهم العظيمة التي تنافس في اتساعها وفخامتها مقابر الملوك السابقين، كما يدلّ على ما كان لهم من مكانة أن ملك آشور أقام أحدهم، وهو منتمحات، أميراً لطيبة، ولم يذكر في هذا شيئاً عن الزوجة المقدسة نفسها ولا عن الكاهن الأعلى؛ وبهذا لم يكونا ذوَي قيمة كبيرة عند فاتح البلاد. أما بالنسبة لمصر نفسها فقد كانت وظيفة الكاهن الأعلى جديرة بأن تشرئبّ إليها النفس. ففي حوالي عام ٨٠٠ ق. م. انتهز أوسركون، وهو أحد الأمراء الشبان من البيت المالك في بوبسطة، وكان إذ ذاك قائداً يقيم في طهنا، فرصة الخلاف في إدارة معبد آمون، فسار على رأس جيش إلى طيبة، حيث اضطر آمون راضياً أو كارهاً الاعتراف به كاهناً أعلى. وقد استأصل شأفة الحزب المعارض في إدارة المعبد بدعوى أنه «تخطى تقاليد السلف؛ وقد أحرق كل واحد منهم في مكان جريرته»، بحيث غدا الأمر يبدو «كأنه مجامر النار في عيد بزوغ الشعرى اليمانية». ثم أقام موظفين جدداً في المعبد من «أبناء الأشراف»؛ وقد قام بهذا كله «من قلب يفيض حباً، لكي يوطد أركان المعبد أحسن مما كان عليه من قبل»[٢]. وليس من شك إذن في أن مصر قد تردّت في هوّة سحيقة، إذ أمكن اغتصاب أسمى الوظائف الدينية فيها على هذا النحو، وإذ أباح الغاصب لنفسه فوق ذلك ذكر ضراوته على جدران المعبد.

وفي القرن الثامن قبل الميلاد قدّر على مصر أن تقاسي سطوة الملوك الأثيوبيين، وقد كانوا يعتبرون أنفسهم أنهم بعثوا العقيدة المصرية الصحيحة من جديد، كما كانت طيبة المكان المقدس عندهم قبل كل شيء. وقد خضعت

---

(١) Erman, Ae. 35, 24 f.

(٢) Erman, Ae. Z. 45, 1 folg.

لسلطانهم معظم الوقت، كما أن أميرات من الأثيوبيين تقلدن منصب الزوجة المقدسة. على أن بتاح إله منف قد نعم كذلك بالحظوة عند الأثيوبيين الأتقياء. وكان خصوم هؤلاء الملوك الأثيوبيين عادة أسرات صغيرة من أصل ليبي، على أنه كان يقف من خلفهم ملوك آشور، الذين استولوا على مصر مرتين. ولم تعد للبلاد الطمأنينة والرفاهية إلا عندما نجح أحد أمراء سايس (صا الحجر)، وهو أبسماتيك الأول (حوالي عام ٦٤٥ ق. م) في تحرير مصر بالجنود المرتزقة الإغريق والكاريين من كل سيادة أجنبية.

وحوالي نهاية القرن الثامن نجد كذلك علامات غريبة لانقلاب مفاجىء في تصوّرات الشعب. فإذا كان عصر رمسيس الثاني قد اعتبر حتى ذلك الوقت العصر العظيم في مصر، بحيث كان يحتذى به حتى في المظاهر الخارجية، فقد برز الآن مثل أعلى آخر وهو الدولة القديمة[١]. وإنا لنلقى هذا الإتجاه نفسه في كل مكان، سواء لدى الملوك الأثيوبيين الذين كانوا يحكمون في مصر العليا، أو لدى خصومهم من أمراء سايس. ولما استطاعت أسرة أبسماتيك هذه أن تجعل من مصر مرة أخرى حكومة مزدهرة، كان هذا الإتجاه من القوة بحيث يعتقد الناظر في آثار هذا العصر أنه قد ارتدّ إلى عهد خوفو. وأن الأمر ليبدو كأن الشعب وقد هرم، راح يصبو إلى الشباب الضائع، الذي عاش فيه لنفسه، لا يزعجه شيء من سائر المؤثرات الأجنبية، وهو ذلك العصر، الذي ظلت أهراماته تبدو شاهدة على عظمته. ومهما شاقنا ذلك البحث عن الفردوس المنشود، فمن

(١) وصفت هذه الحركة الذهنية بأنها إحياء للشعب المصري من جديد، على أن هذا تعبير يمكن أن يقود إلى الخطأ، لأن الأمر لم يكن يتعلق باتخاذ حضارة قديمة أرقى، وإنما كان على النقيض من ذلك يتعلق بالرجوع عن قصد وإرادة إلى مرحلة من الثقافة تخطتها مصر منذ مدة طويلة. وهذه هي الظاهرة المحزنة التي تحدث في بعض الأحيان عند الشعوب الأخرى في عصور المحن والشقاء، فيتخيل المرء أن الشعب قد كان أسعد حالاً فيما مضى، ويفضل كثيرون لو يستطيعون خلع المدنية الموروثة عن أنفسهم ظناً منهم أنها شيء غريب عنهم.

المحقق أن الأسلوب الذي تبدى فيه كان سقيماً. فقد كان تقليد الماضي يحمل طابع الغرام العلمي بالأشياء القديمة كأن ذلك أمر طبيعي محض، فكان المرء يكتب بلغة الدولة القديمة وفي هجاء كلماتها، مع أن ألفي عام كاملة قد مضت عليها؛ وكان المحدثون يمثّلون بالملابس العتيقة، كما كان معاصرو أبسماتيك يمنحون ألقاب رجال بلاط خوفو وأسماءهم.

ولقد أفادت الديانة قوّة جديدة من هذه العودة إلى الحضارة المصرية القديمة، كما أنها تغلغلت في حياة الشعب بما لا مثيل له من قبل، كأن الديانة كانت موضوعه الوحيد. وبذلك نشأ أولئك المصريون الذين كانوا «أتقى الناس أجمعين»(١)، والذين كانوا مثار دهشة معاصريهم من الإغريق، والذين كانوا يراعون بدقة سائر العادات القديمة التي كانت من شأنها أن تضفي عليهم طابع الخدم الأطهار للآلهة القديمة، وأن تفرق بينهم وبين الأجانب؛ الذين أصبح المصريون ينظرون إليهم باحتقار. وكانوا يؤثرون بناء بيوتهم إلى جانب المعبد حتى «يسمعوا التسابيح من أفواه الكهنة»(٢). وقد قال أحد سكان منف: «أي بتاح، لقد أغلقت عليك في قلبي، وإن قلبي لممتلىء بحبك كحقل ممتلىء ببراعم الأزهار. لقد أقمت بيتي بجانب معبدك كخادم يمجد سيده»(٣)، ويدلّ على تحمس الشعب إذ ذاك في عبادة الآلهة كلها عدد لا يحصى من التماثيل الصغيرة للآلهة وأذوات المعابد البرونزية التي كان ينذرها أفراد الطبقات الدنيا في



١٣٠ ـ فأر فرعون المقدس، من البرنز (برلين ١٣٧٨٣)

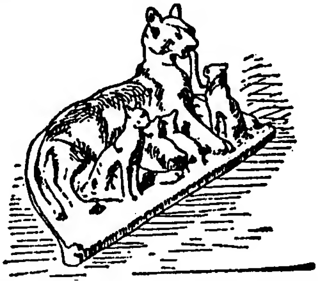
---

(١) Herodot II 37 a.

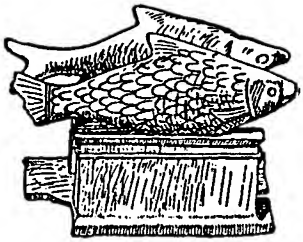
(٢) برلين ١٧٢٧٢؛ وقد ترجع هذه التقوى المفرطة إلى ذلك الإتجاه الذي نلقاه في نهاية الدولة الحديثة (انظر ص ١٥٨ وما بعدها).

(٣) اللوفر ٣٣.

هذا العصر للمعابد، والتي تزخر بها مجموعات الآثار في العالم. وفي هذه الروح بين أفراد الشعب ازدهرت أشد ما يكون الازدهار النواحي الغريبة للعقيدة المصرية كعبادة الحيوان. فقد جاء العصر المجيد للثعابين والطيور والكباش والقطط المقدسة، التي غدت أثيرة لدى الشعب، والتي أصبحت العناية بدفنها

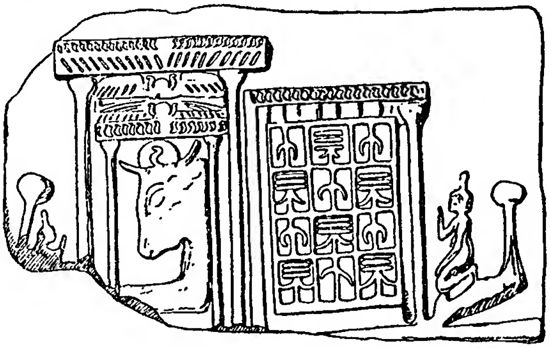


١٣١ ـ قطة مقدسة مع صغارها من البرنز
(برلين ١٣١٢٢)



١٣٢ ـ سمكتان مقدستان من البرنز
(برلين ٢٥٧٠)

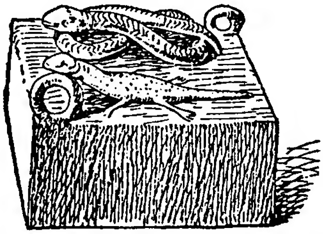
من الأعمال التي يُنال عليها الثواب. فها هي ذي سيدة تقية تقول عن نفسها في زهو: «لقد أهديت ما تحتاج إليه الأرواح الحية (أي أرواح الحيوانات المتوفاة)، حتى تكون لديها العطور والملابس الفائقة عندما تصعد أرواحها إلى السماء»[١]. وكان أشهر تلك الحيوانات جميعاً أبيس[٢] (صفحة ٤٩)، وكان يحتفل كل عام



١٣٣ ـ أبيس الميت في نعشه من داخل سفينة، تبكيه إيزيس ونفتيس (برلين ٧٤٩٤)

(١) نصب من عهد البطالسة في مجموعة السيدة مي.
(٢) جاء عن بلنيوس .Hist. nat في الجزء الثامن صفحة ١٨٥ أنه كانت تساق إليه كل عام بقرة كان عليها أن تدفع حياتها ثمناً لهذا الشرف، وأنه لم يكن يجوز أن يتجاوز هو =

بعيد ميلاده سبعة أيام، وإذا مات لبست عليه النساء ثيـاب الحداد، و «لا يدخل أفواههنّ شيء غير الماء والخضر» سبعين يوماً حتى يتمّ دفنه[1]. وكان يحج إلى قبره، ويقام له شاهد يكتب عليه ما شاق من تاريخ حياة هذا العجل: متى ولد ومتى جيء به «إلى معبد بتاح»، ومتى «فارق الحياة» و «جملة أيام حياته». وفي بعض الأحيان يخبرنا المصريون بأية قرية شرفت بأن كانت وطنه، وأيّ اسم كان لأمه. وكان دفنه يقترن بكل أنواع الترف والبذخ، إذ كانت الدولة نفسها تعني بذلك. وقد ورد أن أبسماتيك الأول لما أخبر عام ٦١٢ قبل الميلاد بأن «في معبد أبيك أبيس... أثَّر القدم على توابيته، أمر جلالته بأن يجدّد معبده ليكون أجمل مما كان من قبل. ودعا جلالته أن يصنع له سائر ما يجب أن يصنع لإله في يوم الدفن، وقد قام سائر الموظفين بواجبهم. وحفظ الجسد بالزيت والشرائط من أرقّ أنواع الكتان وبملابس كل إله. وكانت توابيته من خشب «كِد»



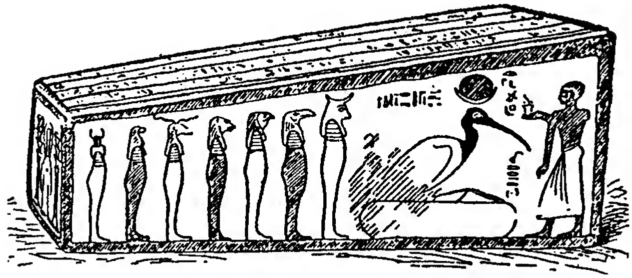
١٣٤ ـ تابوت ثعبان وعظاءة (؟) (برلين ٨٨٤٦)

وخشب «مِر» وخشب الأرز ومن صفوة سائر الأخشاب»[2]. وفي عام ٥٤٧ جاوز الملك أمازيس، ظهير الإغريق استهوّس، سائر ما كان يؤدى لأبيس حتى ذلك الوقت، «لأنه أحبّ أبيس أكثر من أيّ ملك آخر. فصنع له تابوتاً كبيراً من الجرانيت الأحمر، وذلك لأن جلالته لم يجد أحداً من الملوك في أيّ عصر قد صنع له تابوتاً من الحجرّ. وجهزه بالأكفان «والتمائم وسائر الحلى من الذهب

= نفسه سناً معلوماً ثم يغرق بعدها؛ وإنه من الصعب أن نقول أي هذا كله هو الصواب.

(١) انظر Rec. Trav. 21, 63, 22, 176.

(٢) نفس المرجع ٢٢، ١٦٦.



١٣٥ ـ تابوت من الخشب لأبي منجل ومن أمامه يبخر الرجل الذي قام بدفنه (برلين ٦٩٣٨).

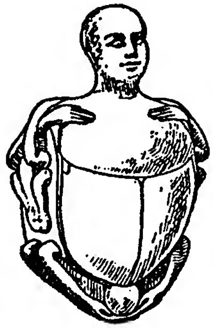
ومختلف أنواع الأحجار الفاخرة، وكانت أجمل من كل ما صنع من قبل»[١]. وكان هذا التابوت أوّل تلك التوابيت الضخمة، التي لا زلنا نعجب بها اليوم في مقابر أبيس في صقارة، وهي عبارة عن صناديق كل منها قطعة واحدة من الجرانيت طولها أربعة أمتار وارتفاعها يزيد على ثلاثة أمتار.

وفيما عدا ذلك تنافس الملوك الصاويون فيما بينهم في العناية بالآلهة، وقد بدأوا من جديد المباني الفاخرة والأوقاف الواسعة للمعابد، وخاصة ما كان منها في سايس، العاصمة، التي أصبحت إلهتها نيت (صفحة ٥٩) تحظى بأسمى مقام. وقد عمل سائر ملوك هذا العصر المشغوف بكل قديم ـ سواء كانوا أثيوبيين أو صاويين ـ على ترميم آثار الماضي، وتجديد ما كان قديماً من أهرامات إلى كتاب صنعه الأجداد، والتهمته الديدان، واستبدله شاباكو الأثيوبي بلوحة من الجرانيت الأسود[٢]. ونظمت من جديد طوائف الكهنة التي اندثرت وغشيها النسيان؛ وإن القارىء في إحدى نصوص العصر المتأخر للألقاب التي لا تنتهي للكهنة ليتبين في دهشة مدى ما ابتعثت للحياة من أشياء مرة أخرى.

---

(١) نفس المرجع ٢٢، ٢٠.

(٢) Breasted, Ae. Z. 39, Tafel, 1, 2. وهو نفس الكتاب الذي سبق الكلام عنه صفحة ١٠٥.



١٣٦ ـ جعلان متعانقان لهما أذرع بدلاً من الأرجل
(برلين ١١٤٠٥)

وقد جدّ المصريون كذلك في البحث عن الأدب الديني القديم، الذي كان في سبات عميق في مكتبات المعابد، وبهذا برز إلى النور من جديد مختلف الأفكار التي تقادم عليها العهد. وإذا كانت أغلب هذه الحكمة المكتشفة من جديد لم تنفذ إلى الشعب، فقد زادت فعلاً في اضطراب الديانة الرسمية، وقد كان هذا الاضطراب بغير هذا كبيراً حقاً بدرجة كافية. على ن ازدياد الرصيد الديني كان مما يسُر رجال الدين في العصر المتأخر، لأنهم لم يكونوا ليشبعوا من الأشياء المقدسة. وقد جمعوا هذا كله ورتبوه في نظام جميل، ولا بد أن كان في ذلك المتعة الكبرى لهؤلاء العلماء. وأقول: لا بد، وذلك لأن مؤلفاتهم الخاصة ضاعت، بحيث لا يمكن أن نكوّن صورة عن هذا العلم في الحضارة المصرية المحتضرة إلا مما خلفه انا خلفاؤهم، كهنة العهد اليوناني. ففي هذه الكتب وفي نقوش معابد القرون التالية نجد قوائم بأسماء الآلهة كلها ونعوتها: فهي تحدثنا مثلاً بالذي يجب أن نفهمه عن مسخنت إلهة الولادة «مسخنت العظيمة تسمى تفنت، ومسخنت القوية نوت ومسخنت الجميلة إيزيس.. إلخ»[١]. وعلى جدران المعابد نجد بيانات تبين كيف نظمت في كل مقاطعة سائر المسائل المقدسة. وكانت مصر السفلى بالرغم من اختلاف شكلها تنقسم إلى عدد من المقاطعات يماثل تقريباً عدد مقاطعات مصر العليا؛ ومن الغريب أنه كان في سائر هذه المقاطعات أشياء متماثلة تماماً، فقد كان في كل منها إله وأثر

(١) بردية برلين ٧٨٠٩ من العهد الروماني ولكنها بطبيعة الحال نسخة من نص قديم.

من أوزيريس، وكاهن أعلى، وكاهنة عليا، وسفينة مقدسة، وشجرة مقدسة، وثعبان مقدس، وأرض يعلوها الفيضان، ومستنقع. وكان لهذا كله أسماء قديمة يجب على المرء أن يعرفها كما كان يجب عليه فضلاً عن ذلك أن يعرف تاريخ عيدها الكبير، وما كان يحرم فيه ـ فما كان أبهج من أن يتحقق الإنسان من هذا كله وأن يعمل على جمعه، وما أنفعها من معرفة!.

وليت الأمر كان مقتصراً على جمع وإحياء الأشياء المتعلقة حقاً بالديانة القديمة والعبادة القديمة! بل لقد كان يجمع بصراحة كل ما كان قديماً ونادراً، ولم يكن يسأل عن مكان نشأته، وعما إذا كانت له قيمة جدية إذ ذاك. وبهذا وجدت منتجات السحرة، كالأشكال الخليطة للآلهة المختلفة، سبيلها إلى الديانة[١]؛ بل إنه لم تكن ترفض الخزعبلات الصبيانية. ولما كان كثير من الآلهة يمثّل في الغالب كهيئة الطير ـ مثل حورس صقراً، ونخبت رخمة، وتحوت في شكل أبي منجل ـ فقد أصبح من الممكن كذلك أن تمنح الآلهة العظيمة للمقاطعات جسد الطائر. وبهذا أصبح خنوم صقراً برأس كبش، وأوپوات صقراً برأس ابن آوى، وباستت صقراً برأس قطة وهلم جراً، ولكل من هذه الرؤوس فضلاً عن ذلك تاجها الخاص.



١٣٧ ـ خنوم في هيئة الصقر
(من معبد دندرة)

وتدلّ هذه الأمثلة بما فيه الكفاية على ما صارت إليه طبيعة عقائد المصريين في العصر المتأخر. فقد كان كل شيء قديم عندها أهلاً للتقديس وجديراً بأن يرفع من شأنه، على أنها هي نفسها لم تعد تبتدع أشياء جديدة كثيرة.

---

(١) في الواحة الخارجة: Hoskins, Visit to the great oasis, pl. 8.

ومن هذا التقدير للحكمة القديمة نشأت كذلك في هذا العصر عبادة من كانوا أنفسهم من القائمين بها في الزمن القديم. وقد كانوا في الزمن القديم فعلاً أشخاصاً مبجلين، فأصبح بعضهم الآن آلهة تقريباً. وأولهم امحوتب، وكان ينتمي إلى بلاط الملك زوسر، إذ كان رئيس بنائيه، ولم ينسَ الشعب أنه كان أول من شيد هرماً من الحجر المنحوت. إلى جانب هذا عرف عنه كذلك أنه كان عالماً، وقد ورد عنه في أغنية من عهد الدولة الوسطى أن كل شخص يلوك بلسانه أمثاله وحكمه[١]. ثم غدا بالتدريج حامياً لكل من يشتغل بالعلوم، وكان الكاتب قبل أن يغمس قلمه في إناء الماء الصغير ينثر القطرات الأولى من أجل إمحوتب[٢]. وكان الأطباء كذلك يمجدونه باعتباره أول من ابتدع حرفتهم؛ وأخيراً كان يعتبر عند الشعب إله الشفاء كما سنرى فيما بعد. وقد ذكر عنه أنه لم يكن ابناً لأحد من البشر، وإنما كان ابناً لبتاح إله منف، ولده من امرأة تدعى



١٣٨ ـ الحكيم امحوتب يقرأ في كتابه
(برلين ٧٥٠٥)

خروتي ـ عنخ. ومع ذلك فمن المحقق كذلك أن هذا الإله الجديد قد ظل يمثل ـ حتى فيما بعد ـ في هيئة إنسانية صريحة من غير تاج ولا صولجان أو لحية

---

(١) Litt. S. 178.

(٢) Schaefer, Ae. Z. 36, 147.

الآلهة، كما كانت الطقوس، التي كرّست له، على شاكلة ما كان يؤدى في مقابر الموتى المبجلين[١]. وقد تطوّر على نحو مشابه تقديس إحدى الشخصيات الشهيرة في الدولة الحديثة. ففي أقصى عهود ازدهار مصر كان الوزير امنحوتب بن حابو يشغل المكان الأوّل في بلاط امنحوتب الثالث العظيم. وكان رجلاً عالماً كما يتحدث بنفسه إلينا في أحد النصوص: «فقد لُقِّن الكتاب المقدس، ورأى مآثر تحوت»، وكان يفهم أسرارها ويستشار في أمرها[٢]. وهو لم يكن متعلماً فحسب، وإنما قام كذلك في وظيفته السامية بعظائم الأمور، وقد كسب شكر سيده. ولدينا اليوم ثلاثة تماثيل كان الملك قد أقامها له في حياته. وقد اعتبرته كذلك الأجيال المتأخرة على نحو امحوتب «حكيماً لا تبلى حكمه»[٣]. وقد نسب إليه كتاب في السحر، كما غدت مقبرته التي كانت تقع على شاطىء طيبة الغربي مكاناً مقدساً؛ وقد ارتفع شأن هذا المكان كثيراً في العهد اليوناني، حتى جعل منه بطليموس الرابع معبد دير المدينة، وفيه انضم امنحوتب بن حابو وزميله في المصير امحوتب إلى الآلهة العظيمة.

واستطاعت هذه المقبرة أن تبقى زمناً طويلاً، وذلك لأن الملك امنحوتب وقف عليها الحقول والرقيق بوفرة. على أن ثروة هذا الوقف قد كانت تخفي بين طياتها بعض الأخطار، وذلك لأن الموظفين في القرون المتأخرة أدركوا أن من الممكن استخدام الرقيق في مكان آخر، بما هو أكثر نفعاً، وأجدى من استخدامهم في حقول أحد الوزراء الذين ماتوا منذ أمد بعيد. في هذا الحرج عمد كاهن المقبرة إلى وسيلة غريبة: فقد اصطنع وثيقة زعم أنها ترجع إلى عهد امنحوتب الثالث، وأن هذا الأخير أصدر في السنة الحادية والثلاثين من حكمه في حضرة جميع كبار الموظفين مرسوماً يضمن دوام هذا الوقف إلى الأبد. وفي

---

(١) عن امحوتب انظر Sethe, Untersuchungen II 95 ff.

(٢) Mariette, Karn, 36, 28 انظر: Brugsch, Ae. Z. 14, 96 folg. وكذلك Sethe, Ebersfestschrift, S. 107 folg.

(٣) Brugsch, Ae. Z. 13, 125; Erman Ae, Z. 15, 147.



١٣٩ ـ صورة صادقة لأمنحوتب بن حابو. من تمثاله في القاهرة

هذه الوثيقة عهد بمقصورة المقبرة إلى أسمى من كان على سطح الأرض إذ ذاك، وهو آمون رع، ملك الآلهة، وذلك لأنه «ملك الأبدية وحامي المدفونين»[١]. ثم جاء فيها بعد هذا: أن أيّ موظف كبير في المستقبل لا يعنى بهذا الوقف وبعبيده، «ويستحوذ على أيّ رجل منهم لينسبه إلى أيّ من أملاك فرعون أو إلى عمل له هو نفسه، أو لا يتدخل من أجلهم إذا أضرّ بهم غيرهم، فإنه سينزلق إلى مكان الإعدام لآمون رع، سيد الكرنك. إنه لن يدعهم يشبعون في وظائفهم... وسيلقى بهم في لهيب الملك يوم مقته، وسينفث تاجه النار على رؤوسهم... وسيغرقون في البحر حيث تخفى أجسادهم». ولن يمجدوا كذلك في الموت، وسيمكثون في القبر بغير طعام ولا ماء. «ولن يعين أبناؤهم في مراكزهم، وسيزني بنسائهم أمام أعينهم». وهكذا يستمرّ تهديد هؤلاء الموظفين، على حين

(١) يبدو من هذا أن آمون في العصر الذي ارتكب فيه هذا التزوير قد أصبح ينظر إليه كأنه حامي الموتى شأن أوزيريس في ذلك.

يوعد من ناحية أخرى كل من يعني بالمقبرة ووقفها بكل النعم والبركات.

ولنا أن نذهب إلى أن هذا التزوير قد حقق الغرض منه ووقى المقبرة، إذ ظلت هذه قائمة قروناً كبيرة. ولا بد أن كان الموظفون، الذين كان مقدراً أن تخدعهم الكتابة، بسطاء حقاً، ذلك لأن كل شيء في هذه الوثيقة قد كان ينبغي أن يثير ارتيابهم، فهي لم تنقش على حجر منحوت، بل على لوحة جافية، لعلها كانت بلاطة قديمة، وقد حفرت على هذه اللوحة في كتابة رديئة زاخرة بهجايات وصيغ لغوية حوشية، مما لا يمكن تصورّه في كتابة رسمية من عهد امنحوتب الثالث[1]. وفضلاً عن ذلك فإن اللعنات لا تكاد تناسب المثقفين في هذا العهد، وهي بالأحرى من إنشاء العهد المتأخر، وفيما عدا ذلك لم يكن يعوز مصر في العهد المتأخر تزويرات مماثلة للتزوير الذي ذكرنا. ومن التزويرات المشهورة ذلك التزوير الذي قام بعمله كهنة اليفانتين ليدللوا على حق إلههم خنوم في المنطقة التي بين اليفانتين وفيله، فقد اصطنعوا ـ حوالي العصر اليوناني ـ نصاً يروي قصة محزنة عن مجاعة مروّعة. ففي عهد الملك القديم زوسر (حوالي ٢٧٠٠ ق. م) امتنع الفيضان سبع سنين. فأقبل الملك عند ذلك على وزيره الحكيم، وهو إمحوتب نفسه الذي عرفناه من قبل، وسأله الرأي، فبحث هذا في الكتب القديمة وتبين منها أن خنوم إلـه اليفانتين هو الذي يجري الفيضان.

وظهر الإله إذ ذاك في الحلم للملك ووعده بألا يتخلف الفيضان تارة أخرى، لهذا أهدى الملك إلى خنوم وآلهة اليفانتين سائر منطقة الشلال الأول بخراج حقولها وجميع أنواع الضرائب والمكوس[2].

ولا يقلّ عن هذا غرابة، تزوير آخر من عصر أقدم بعض الشيء. وهو يقصّ علينا أن الملك رمسيس الثاني (١٢٩٢ ـ ١٢٢٥ ق. م) كان قد تزوّج من ابنة أمير

---

(١) عن هذا النص انظر: Moeller, Sitz. Ber. Berl. Akad. 1910, 941 ff.

(٢) Brugsch, Sieben Jahre der Hungersnot; Sethe, Untersuchungen II, 75 ff.



١٤٠ ـ قارب خنسو الصغير الذي يطرد الشياطين، ومن أمامه كاهن يحرق البخور (من نصب بنترش).

أسيوي، كانت بلاده تبعد عن مصر كثيراً. وكان لهذا الأمير ابنة صغرى استولت عليها روح شريرة. لهذا رجا الأمير أن يرسل إليه الملك إلهاً يشفي الأميرة. فعرض رمسيس هذا الرجاء على الإله العظيم خنسو نفرحوتب، ورجا إليه أن يبعث خنسو الصغير «الذي يحكم في طيبة»، وأن يمنحه كذلك «قوّته».

وأحنى خنسو الكبير رأسه موافقاً جداً على الاقتراحين. فلما وصل خنسو الصغير بختن، حيث استقبل بإجلال عظيم، نجح في تخليص الأميرة من الروح الشريرة. على أن أمير بختن أراد أن يحتفظ بهذا الإله صانع المعجزات، فاستبقاه ثلاثة أعوام وتسعة أشهر، ولم يقتنع بأن يأذن له بعودته إلى مصر، إلا بعد أن رأى رؤيا. وقد زوّد بالهدايا الفاخرة، ودلل خنسو الصغير أنه غير محبّ لذاته، لأنه أعطى كل شيء لخنسو الكبير، ولم يحتفظ لنفسه بشيء[١].

---

(١) واضح أن هذه القصة تعتمد على رواية من نهاية الدولة الحديثة. وقد ذهب الظن إلى أن بختن هي باكترين، التي عرفها المصريون في العهد الفارسي. وقد رأينا فيما سبق أن تماثيل الآلهة كانت ترسل حقاً من بلد إلى بلد آخر، وأنه كان يخشى ألا ترد.

وقد وجد هذا النص في الكرنك في مبنى صغير من العصر المتأخر غير بعيد من معبد خنسو، ومن المحقق أن هذا المبنى كان مقصورة خنسو الصغير. ويبدو أن كهنته قد اصطنعوا هذا النص ليرفعوا من ذكر إلههم الخامل الشأن باعتباره إلهاً للشفاء[1]. ولم يكن هذا التزوير يرعى للقراء المثقفين حساباً، إذ لم يبذل صانعه شيئاً من عناية في نسخ أسماء رمسيس الثاني صحيحة، وقد كانت تقرأ في كل مكان في طيبة.

ومثل هذه التزويرات تتفق ومظهر الحضارة المصرية في العهد المتأخر، وهي تذكرنا بالتزويرات المشابهة من العصور الوسطى. ويمكن أن يقال هنا على نحو ما يقال هناك من أن صانعيها لم يكونوا يرون فيها شيئاً جائراً، لأن التفاصيل وإن جاز اختلافها عما تصوّره هذه النصوص، فإن هذه النصوص مع ذلك لم تكن كاذبة من حيث المعنى العام. ألم يكن خنوم يهب الفيضان حقاً، وخنسو يشفي الممرورين! لم يكن هناك إذن بد كذلك من أن يحتفل بمثل هذين الإلهين وأن يعطيا ما يحتاجان إليه لينعم البشر ببركاتهما.

---

(١) لقد كان حقاً يعتبر إلهاً للشفاء، ففي بعض النصوص من عهد بطليموس الثاني يثنى عليه بأنه يطرد الأمراض، وينفي الأرواح والموتى، وقد أنقذ كذلك الملك من العالم السفلي وحفظه من الطاعون (انظر: Sethe, Urk المجلد الثاني ص ١٠٨ وطيبة، باب الإمارة).

الفصل التاسع عشر

العهد الفارسي

إن الصورة التي عرضناها في الفصل السابق عن عقائد مصر في العصر المتأخر، يمكن أن تعتبر كذلك في جوهرها صورة لعهد السيادة الفارسية. وكان استيلاء قمبيز على مصر (٥٢٥ ق. م) حقاً نكبة للديانة بالذات؛ ذلك لأن هذا الفارسي كان يقف من مصر وآلهتها موقف الساخر المحتقر. ولئن كان قد انتهب تماثيل الآلهة والكتب من المعابد، فمن المحقق أن ذلك لم يكن لأنه كان يعتبرها شيئاً مقدساً، وإنما كانت عنده مجرّد غنائم تبين للفرس أيّ بلد عجيب استولى عليه. ألم يقتل في حنقه أبيس ساخراً «ويخرّب معابد مصر جميعاً»[١]! ومع ذلك فهناك نص غريب[٢] يدلّ كذلك على أن قمبيز لم يستطع أن يتجرد من كل اعتبار لرجال الدين. فقد كان لهم في حقيقة الأمر ممثل في محيط قمبيز ذو مهارة خاصة، هو طبيبه الخاص «أووزا ـ حر ـ رسنت». وقد عرف هذا الطبيب كيف يثير اهتمامه من أجل سايس على الأقل، فقد «بين لجلالته مقدار عظمة سايس . . . ومقدار عظمة معبد نيت»، وعرّفه جميع معابد سايس. وقد بلغ الأمر

(١) هذا ما كتبه الجالية اليهودية في اليفانتين عام ٤٠٨ إلى الحاكم الفارسي في ذلك الوت، مهتمة بأن تبرز أن معبدها الخاص قد بقي سليماً؛ وعلى هذا كان الاضطهاد موجهاً في الواقع ضد الديانة المصرية. وكان الأقباط فيما بعد يعرفون كذلك أن قمبيز خرب أبيدوس، انظر: Lemm, Kleine Kopt. Studien صفحة ٦٤.

(٢) تمثال في الفاتيكان، أما عن الخاتمة، فانظر: Schaefer, Ae. 37, 72.

حداً أن دخل الملك الفارسي في سايس نفسها «في معبد نيت، وركع أمام سيدته كما فعل كل ملك، وقدم كذلك قرباناً كبيراً من كل شيء طيب إلى نيت العظيمة، أمّ الإله، وللآلهة العظيمة في سايس كما فعل كل ملك بارع». ولما عرض أوزا ـ حر ـ رسنت على قمبيز أن الأجانب من مختلف الأجناس، يسكنون على أرض المعبد، مما يثير مقت المصريين الأتقياء، قام الملك الفارسي بما لم يكن قد قام به الملوك الوطنيون، فقد أمر بهدم بيوت الأجانب، وأجبرهم على الإقامة خارج سور حرم المعبد.

وفي عهد داريوس كذلك استمرّ هذا الطبيب الخاصّ يقوم بدور الوساطة هذه، وقد أقنعه باعتباره طبيباً «بفضل هذه المهنة (مهنة الطبّ المصري) في حفظ حياة كل مريض»، فأرسله الملك إلى مصر ليعمل من جديد في سايس، ذلك المقرّ القديم لفنّ الطب الكهنوتي، على رفع شأن «مدرسة الحياة» أي مدرسة الكهنة. وقد قام بهذا الأمر، وزوّد المدرسة بجملة الكتب والأدوات التي كانت تملكها وفقاً لما جاء في النصوص القديمة. وهكذا عمل أوزا ـ حر ـ رسنت فعلاً على خدمة مصالح الحضارة المصرية «في غمرة البؤس الأعظم الذي حلّ بالبلاد جميعاً»؛ ولئن عرف كيف يحصل في الوقت نفسه لأقاربه على وظائف الكهنة، وكيف يغنيهم بالممتلكات من الأرض بفضل عطف ملوك الفرس، فإن مواطنيه لا شك قد غفروا له ذلك عن رضا.

وفيما عدا هذا اهتمّ كذلك داريوس وخلفاؤه بمصر وآلهتها؛ وعن داريوس بالذات تذهب الرواية التي حفظها ديودور عنه[1]، إلى أنه هو نفسه قد اجتهد في أن يصلح ما ارتكبه قمبيز من عنف. ألم يُذكر عنه كذلك أنه كان يميل إلى الحديث مع الكهنة المصريين ليلمّ بتعاليم الآلهة؟ وواقع الأمر أن داريوس قد شيد حقاً معبداً لآمون في الواحة الخارجة، تتفق نقوشه ومناظره مع الديانة

---

(١) Diodor I, 95.

المصرية في العهد المتأخر. فإذا قصّ علينا ديودور بعد ذلك أن المصريين عبدوه في أيام حياته إلهاً، فقد يكون هذا صحيحاً، وذلك لأن شاهداً صغيراً في متحف برلين يرينا داريوس وهو يعبد على شكل الصقر(١).

وفي عهد داريوس الثاني اهتمت الحكومة الفارسية كذلك بأن تكون مقبولة لدى الكهنة. فقد قام معبد يهوا ليهود اليفانتين شوكة في عيون كهنة خنوم. لهذا أمر الحاكم الفارسي بناء على شكواهم هدمه من أساسه وحرقه غير عابىء ببكاء اليهود، الذين «ارتدوا ملابس الحزن، وصاموا مع نسائهم وأولادهم منذ ذلك الوقت»(٢).

وما نعرفه من مصر نفسها عن العقائد في العهد الفارسي ليس كثيراً؛ على أن حظاً سعيداً حفظ لنا من هذا العصر بالذات تقريراً حياً لأحد الإغريق. ففي حوالي سنة ٤٥٠ ق. م جاب هيرودوت مصر، وكان قويّ الملاحظة شديد الانتباه لا يكلّ. وقد اهتمّ بصفة خاصة بنفس الأشياء التي تهمنا هنا؛ وذلك لاعتقاده الجازم بأن هذه الآلهة المصرية ليست شيئاً آخر غير آلهته الخاصة: فأوزيريس وإيزيس عنده هما ديونيسوس ودميتر، وحورس هو أبوللو، وست عدوّ الآلهة إنما هو تيفون الجبار، ونيت إلهة سايس إنما هي أثينا، ومين هو بان، وآمون هو زيوس، بل إن باستت ذات رأس القطة إنما تتفق مع أرتميس. وعنده أن أوزيريس وإيزيس يشغلان المركز الأوسط للديانة، وهو ما يجب أن ننتظره في ذلك العصر؛ فهما الإلهان اللذان كان يعبدهما المصريون جميعاً(٣). وهو يحسّ الزهو والفخر بأن الكهنة أتاحوا له إلقاء نظرة على أسرارهما؛ وهو يذكر ذلك في صراحة، ولو أنه لا يخبرنا بشيء عنه، حتى يظلّ أميناً على وعده(٤).

---

(١) برلين ٧٤٩٣.

(٢) انظر: Ed. Meyer, Der Papyrusfund von Elephantine, Lpzg. 1912, S. 78 ff.

(٣) Herodot II, 42.

(٤) نفس المرجع ٦١.

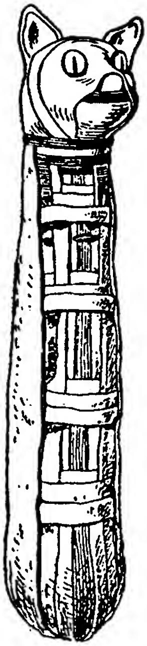
وكانت الحيوانات المقدسة مما أدهشه كثيراً، وفي أخباره عنها يبدو لنا كذلك ما كان لها من تقدير مفرط، وهو يعرف عن أبيس، الذي شاهده في فناء أمام البوابة الجنوبية لمعبد بتاح، أنه ينشأ من شعاع من السماء؛ وأنه أسود، وأن على جبهته غرّة مربعة، وعلى ظهره صورة نسر، وغير ذلك من الشيات. وكان إذا وُجد أبيس جديد، احتفلت مصر جمعاء به في ملابس العيد وبالأيام البهيجة[1]. ولم ير هيرودوت العنقاء (الفونقس)، الطائر المقدس في هليوبوليس، لأنه لا يظهر - كما حدثه الكهنة هناك - إلا كل خمسمائة عام، ليجلب إلى المعبد جثة أبيه في بيضة من المر[2]. وقد أراه المصريون عند بحيرة موريس وفي مصر العليا تمساحاً مقدساً محلى بالذهب والأحجار الثمينة في أذنيه وقدميه الأماميتين[3].

ولم تكن هذه الأمثلة المفردة، التي كان يعنى بها في المعابد، ويقوم على خدمتها السدَنة، ويطعمها الأتقياء، تعتبر وحدها آلهة، وإنما أضفت قداستها منذ أمد بعيد على سائر أبناء جنسها، على البقر والتيوس، والكلاب والقطط، وأفراس النهر والتماسيح، والجرذان والفئران، والصقور وآباء منجل، والفرخ (القشر) من الأسماك، وثعابين الماء، فكان إذا شبّ حريق، كان تفكير المرء في إنقاذ القطط أشدّ من تفكيره في إطفائها[4]؛ وكان من يلتهمه التمساح يعتبر بنوع خاص ميتاً سعيداً[5].

أما من كان يقتل عامداً حيواناً مقدساً، فإنه كان يفرّط في حياة نفسه بنفسه؛ بل كان قتل أبي منجل أو صقر، حتى ولو خطأ، يعتبر خيانة عظمى[6].

---

(١) نفس المرجع ١٥٣؛ والكتاب الثالث منه فقرة ٢٧، ٢٨.
(٢) نفس المرجع، الكتاب الثاني، ٧٣.
(٣) نفس المرجع ص ٦٩.
(٤) نفس المرجع ص ٦٦.
(٥) نفس المرجع ص ٩٠.
(٦) نفس المرجع ص ٦٥.

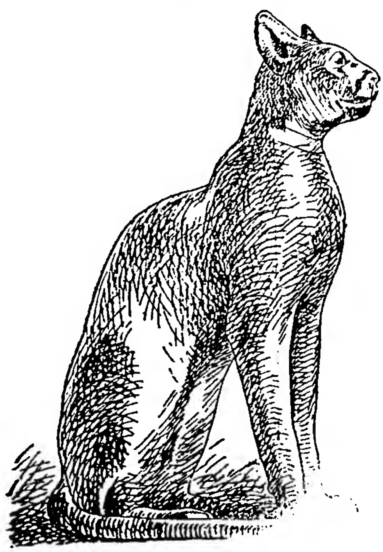


١٤١ ـ مومياء (برلين ٦٩٤٢)

وكان لكل نوع من هذه الحيوانات مكان ينبغي أن تنقل إليه جثته حيثما أمكن ذلك؛ فكانت عظام القطط تحمل إلى بوبسطة، وجثث الفئران القديمة والبواشق إلى بوتو، وجثث آباء منجل إلى الأشمونين[١]. فإذا مات ثور دفن أمام المدينة، بحيث كان يترك أحد قرنيه بارزاً في الأرض علامة عليه، لأن أتقياء من أتربخيس في الدلتا كانوا يجوبون البلاد ويجمعون عظام الثيران ليدفنوها في بلدهم. على أن البقر الذي كان يعتبر أقدس الحيوانات جميعاً.. لم يكن يدفن على هذا النحو، وإنما كان يلقى به في النيل[٢]. وقد يعدّ المرء هذه الصورة التي يعرضها هيرودوت مبالغاً فيها، ولكنها صورة صحيحة حقاً، وذلك لأننا نلقى في كل مكان من مصر مثل تلك المقابر العامة للحيوانات المقدسة من العصر المتأخر، كالمقابر التي دفنت فيها القطط بمئات الآلاف، وكالمغارات التي دفنت فيها

(١) نفس المرجع ص ٦٧.
(٢) نفس المرجع ص ٤١.

التماسيح مع بيضها وأفراخها الحديث فقسها، وكمقابر آباء منجل، ومقابر الصقور، ومقابر الثعابين والسمك[1]. ولم تكن هذه الحيوانات تدفن في إيجاز واختصار، وإنما كانت كثيراً ما تحنط على أدقّ طريقة وتدفن في توابيت، أو قدور، أو تماثيل من البرنز. وهي توجد في كثير من هذه المقابر في جموع هائلة، حتى إن الصناعة الحديثة استخدمت الجثث المقدّسة استخداماً دنيوياً: فقد استخدمت مقابر القطط في بني حسن في إنتاج السماد الصناعي.



١٤٢ ـ تابوت من البرنز لقطة (برلين ٢٠٥٥)

وقد شاهد هيرودوت كذلك الأعياد في المعابد العظيمة في الدلتا، تلك التي اندثرت في الوقت الحاضر، والتي شاد بذكر عظمتها وجمالها. وتدلّ أخباره على أن هذه الأعياد كانت ترقى بها إلى الذروة إذ ذاك تمثيليات من أساطير الآلهة. فكان يوجد مثلاً في سايس في حرم معبد نيت قبر أوزيريس تحيط به أجمة بها مسلتان وبجانبه بحيرة مستديرة، كانت تمثل عليها آلام الإله[2]. وفي عيد آخر كان يؤتى بكاهن عصبت عيناه، يرتدي ثوباً نسج خصيصاً لهذا الغرض،

(١) عن مومياوات الحيوانات المقدسة انظر: Lortet - Gaillard, La faune momifié (Lyon).

(٢) Herodot II, 170, 171.

وذلك على الطريق الذي كان يؤدي إلى معبد إيزيس، حيث يقوده إليه ذئبان، هما على ما يبدو الإلهان أوبوات، ثم يعودان به ثانية[١]. ولعل هيرودوت هنا وفي غير ذلك، حيثما يتعلق الأمر بأوزيريس وإيزيس، لم يبين أسباب هذه التمثيلية خشية ورهبة. ولكنه ـ عندما يتعلق الأمر بآلهة أخرى ـ فإنه يتكلم بحرية أكثر. وقد روى أن الإله، الذي يسميه هرقل، عندما اشتاق يوماً إلى رؤية آمون، لم يظهر له آمون إلا متخفياً في رأس كبش، ولذلك كان أهل طيبة يذبحون في عيد آمون كبشاً، ويُلبسون تمثال الإله فروة هذا الحيوان ويجعلون من أمامه تمثال هرقل. وكانوا عند ذلك يضربون أنفسهم ثم يدفنون الكبش[٢]. وفي بابريمس في الدلتا دخل الإله الذي يسميه هيرودوت آرس، يوماً معبد أمه بالقوّة ليجعل منها زوجة له، ولهذا كان يُخرج بتمثال الإله من المعبد في ليلة العيد. وعند غروب الشمس كان الكهنة يعودون به على مركبة ذات عجلات أربع، ولكنهم كانوا يجدون أكثر من ألف رجل مسلحين بالهراوات واقفين بالباب ليحولوا دون دخول الإله في المعبد. وكان لا بد لزمرة الإله أن تعمل على دخول الإله غصباً في معركة مروّعة بالهراوات[٣]. وكما كان الأمر في هذه الحال لا بد أن كان الشعب كذلك يساهم فيما عدا ذلك من أعياد بأكثر مما تسمح بالظن به نقوش المعابد. فقد كانت تضاء في إحدى الليالي سايس بل مصر كلها إضاءة عامة، وذلك بإقامة المصابيح حول المنازل[٤]. وكان النساء في عيد أوزيريس يتجوّلن هنا وهناك، يغنين على المزمار الأغاني عـن الإله، ويحملن تماثيله بحيث يتحرّك ذكره[٥]. وفي المناحة التي كانت تقام لهذا الإله نفسه في أبو صير كان سائر الشعب يضرب نفسه من وقع ما يشعر به من فجيعة؛ وكان

(١) نفس المرجع ص ١٢٢.
(٢) نفس المرجع ص ٤٢.
(٣) نفس المرجع ص ٦٣.
(٤) نفس المرجع ص ٦٢.
(٥) نفس المرجع ص ٤٨.

الكاريون المقيمون هناك يشتركون كذلك في هذا الاحتفال ـ على أنهم لم يكونوا يكتفون بضرب أنفسهم، وإنما كانوا كالهمج يمزّقون لحومهم بالمدى(١). وكان في العيد الكبير في بوبسطة يتدفق إلى هذه المدينة سبعمائة ألف من الناس من كل صوب: «يبحر الرجال والنساء معاً وعلى كل سفينة منهم عدد كبير. ومع كثير من النساء الصنوج يصفقن بها، ويزمر كثير من الرجال طوال الرحلة، على حين يغني بقية الرجال والنساء ويصفقون بأيديهم. فإذا مرّوا بمدينة أرسوا السفينة، وظل بعض النسوة يعملن على نحو ما ذكرت، ويسخرن بعضهن صائحات بنساء المدينة، ويرقص غيرهن، على حين يرفع البعض الآخر ثيابه إلى أعلى. وكذلك يفعلون عند كل مدينة تقع على النهر، فإذا بلغوا بوبسطة أحيوا العيد بالأضحيات العظيمة، واستهلك من النبيذ في هذا العيد أكثر مما يستهلك في بقية العام كله(٢).



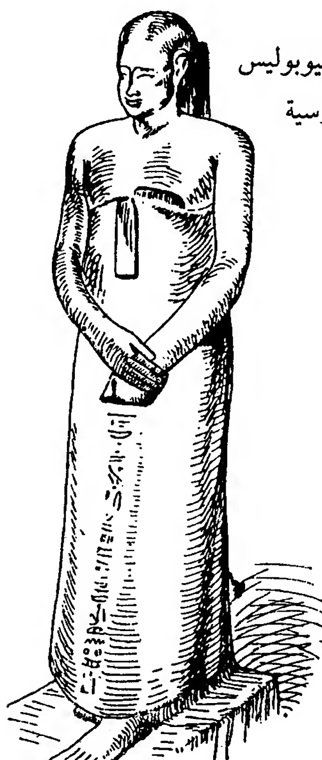
١٤٣ ـ تمثال لباستت من العهد المتأخر، ويمكن معرفتها بقططها وسلالها. وهناك قردان يتسلقان كتفيها بينما ينفخ ثالث المزمار إلى جانبها (برلين ١٢٤٢٤).

وكان الشعب يشترك كذلك في العبادة عن طريق تقديم الأضاحي، وإن

---

(١) نفس المرجع ص ٦١.
(٢) نفس المرجع ص ٦٠.

كان هذا تحت إشراف الكهنة. وكان أحد هؤلاء الكهنة ـ وهو الكاهن «وعب» بلا شك ـ يفحص أوّلاً الأضحية، فإذا لم تكن بها شعرة واحدة سوداء، وإذا كان شعر الذيل نامياً نموّاً صحيحاً، وإذا لم يكن باللسان شيء غريب، علق خاتماً بقرنها، وبهذا كان يعلن أنها طاهرة[1]. «ويساق الحيوان الموسوم على هذا النحو إلى المذبح، حيث تكون التضحية، فتوقد النار ويسكب على الأضحية النبيذ. ثم يذكر اسم الإله، وتذبح ويقطع رأسها. ويسلخ الجسم، أما الرأس فيستنزلون عليه اللعنات... راجين إن كانت هناك مصيبة توشك أن تنزل بهم أنفسهم أو بمصر، أن تقع على هذا الرأس[2]. ولهذا لم يكن المصريون يأكلون رؤوس الحيوانات، وكانوا في المدن التي يعيش فيها الإغريق يبيعونها إليهم، أما في البلاد الأخرى فكانوا يلقون بها في النهر.



١٤٤ ـ حاري، كاهن في هليوبوليس في عهد السيادة الفارسية (برلين ٧٧٣٧).

---

(١) نفس المرجع ص ٣٨.

(٢) نفس المرجع ص ٣٩.

وفي هذا الجزء من رؤوس الأضاحي من الحيوان ما هو غريب عن العادات المصرية القديمة. فلقد كان رأس الثور الصغير وفخذه بالذات القطعتين اللتين كانتا توضعان على سائر موائد القربان في العهد القديم. ومما يرجع كذلك على وجه التحقيق إلى التأثير الأجنبي حرق القربان وكان أمراً استثنائياً محضاً في مصر من قبل (صفحة ٢٤٦)، فأصبح الآن طقساً عادياً[١]؛ ومما يؤيد هذا أيضاً أن حرق القربان كان يتخذ في اللغة المتأخرة اسماً مشتقاً من كنعان وهو «جليل».

ولعله كان من الأمثلة الأجنبية كذلك أن الوحي بالغيب، الذي كان له دور كبير في العالم الإغريقي في ذلك الوقت، قد بلغ تمام ازدهاره في مصر أيضاً. وقد عرف هيرودوت على ضفاف النيل ما لا يقلّ عن سبعة آلهة، كانوا يوحون بالغيب، وكان مهبط وحي الإلهة بوطو في البلد المسمى باسمها يعتبر من أكثر مهابط الوحي تمتعاً بثقة الناس[٢]. وكانت الآلهة في بعض الأحيان تعلن عن مقاصدها عن طريق بعض الأحداث المفردة الغريبة: وكان المصريون يلاحظونها بعناية ويدوّنون ما يليها من نتائج[٣]. وكانوا يذهبون كذلك إلى أن حظ كل إنسان إنما يتقرّر وفقاً ليوم مولده، لأن كل يوم إنما ينتمي لإله معلوم[٤]. وكانوا بصفة عامة أتقى البشر جميعاً[٥]، كما أنهم كانوا يتميزون عن غيرهم بكثير من العادات: ومنها الختان الذي كانوا أوّل من سنه، وكان ذلك حقاً بقصد النظافة والطهارة[٦]؛ ومنها كذلك نفورهم من الخنازير[٧] (ومن المحقق أن لذلك علاقة بما ورد من أن ست وهو في هيئة «خنزير أسود» قد جرح حورس)[٨]. وأخيراً

(١) نفس المرجع ص ٤٠.
(٢) نفس المرجع ص ٨٣، ١٣٣، ١٥٥.
(٣) نفس المرجع ص ٨٢.
(٤) نفس المرجع ص ٨٢.
(٥) نفس المرجع ص ٣٧.
(٦) نفس المرجع ص ٣٦، ٣٧.
(٧) نفس المرجع ص ٤٧.
(٨) انظر الأسطورة في كتاب الموتى فصل ١١٢.

وقبل كل شيء تلك الرهبة التي كانوا يحسون بها نحو البقر، حتى إنهم كانوا لا يأكلونها، ولا يضحون بها، كي لا يسيئوا إلى إيزيس ذات قرني البقرة «ولهذا لا يقبل أيّ مصري أو مصرية إغريقياً أبداً، ولا يستعمل سكينه أو سفوده أو مرجله، ولا يأكل من لحم ثور طاهر قطع بسكين إغريقي»[١]. وكان الكهنة يتميزون عن الشعب بشدة رعايتهم لتلك «العادات التي لا تحصى». وكانوا يرثون وظائفهم عن آبائهم[٢]، ويحصلون كل يوم على جراية وفيرة من الخبز ولحم الثيران والأوز والنبيذ، غير أن السمك كان محرّماً عليهم، بل لم يكن يجوز لهم حتى النظر إلى الفول[٣]. وكان حتماً عليهم الاغتسال مرّتين ليلاً ومرتين نهاراً[٤]، وأن يحلقوا رؤوسهم كل يوم وأجسادهم كل يوم ثالث. وكانوا طبقاً لعادة قديمة يتخذون نعالهم من البردى، وثيابهم من الكتان ـ لأن الثياب الصوفية تمقتها الآلهة[٥].

والقارىء اليوم لوصف هذا الرحالة الإغريقي يرى أنه قد أولى مصر الاحترام الذي يمكن أن تطالب به حضارة قديمة جداً، غير أن نظرته إلى الشعب التقيّ لم تكن في حقيقة أمرها لتختلف كثيراً عن نظرتنا اليوم إلى الصينيين والهنود. فكان المصريون عنده بقية من عصر راحل من عصور البشرية؛ وكانوا ينظرون في ترفع وتعصب إلى الشعوب الأخرى، التي كانت غير طاهرة، وغير قريبة من الآلهة قربهم منها. وما كانوا يستطيعون، بل لم يشاءوا الأخذ بأيّ نصيب في الحياة التي ازدهرت في هذه القرون، وإنما أرادوا أن تستمرّ حياتهم على ما

(١) هيرودوت نفس المرجع السابق ٤١.
(٢) نفس المرجع ص ٣٧.
(٣) نفس المرجع ٣٧؛ لا نستطيع أن نخمن سبباً لذلك المنع الذي يرجع بالتأكيد إلى زمن متأخر.
(٤) وكان الكاهن إذا قلد وظيفته اغتسل في «البحيرة الطاهرة» للمعبد ثم يطهر بالنطرون (Brugsch, Thesaurus 1972).
(٥) Herod. II, 81 ويرجع سبب ذلك حقاً إلى أن زمن التقي السحيق الذي تنسب إليه ملابس الكهنة، كان لا يعرف غير ملابس الكتان.

كانت عليه حتى ذلك الوقت في خدمة آلهتهم وتحت حمايتها. فإذا تحقق لهم ذلك فإن سائر ما عداه لم يكن ليغني عندهم كثيراً.

ولم تكن مصر فضلاً عن ذلك إبان زيارة هيرودوت لها بالبلد الهادىء المطمئن، كما يمكن أن يبدو من وصفه لها. فقد نجح المصريون مراراً في التخلص من نير الفرس، حتى إنه ليبدو طوال بضع عشرات من سنين في منتصف القرن الرابع كأن الدولة الفرعونية القديمة كانت تريد أن تنهض من جديد. ومما له ميزة خاصة أن يقظة مصر هذه تتجلى كذلك في الديانة المصرية بالذات، إنه لتتبدى لنا في كل مكان في مصر تقوى ملكي القرن الرابع اللذين نسميهما مع الإغريق نقطانب، فإنه على قلة أمن مركزهما السياسي ـ إذ أخضعهما كذلك في الواقع الفرس ـ قد بني في عهدهما من المعابد ما يجعل الأمر يبدو كأن مصر امنحوتب ورمسيس تنهض من جديد. وقد استخدمت في هذه المباني أصلب المواد وأثمنها، وإن ابتناء معبد بأكمله بالجرانيت الأحمر من أسوان، على نحو ما قام به نقطانب الأوّل في بهبيت مسقط رأسه، إنما كان من الإسراف الذي يعدّ من المسائل النادرة في تاريخ البناء في مصر[1].

وفي نقوش هذين الملكين يلاحظ المرء كذلك الاهتمام ذاته بإرضاء الكهنة. ففي أبيدوس وجد المتدينون ما يسيئهم في قطع الأشجار من الجبال المحيطة بالمدينة المقدسة مهما كان البناء. فأصدر نقطانب الأول استجابة لشكواهم سنة ٣٧٨ مرسوماً يحرّم أيّ إتلاف بعد ذلك في الجبل، وجعل عقاب ذلك بتر أعضاء الجسم[2]. ولما اعتلى العرش نقطانب الثاني سنة ٣٦١ أبدى في الحال حبه لآلهة بلاده وكرهه للأجانب. وكان سلفه قد فرض ضريبة العشر على جملة الواردات والمصنوعات؛ ولم يكن نقطانب كذلك في مركز يسمح له

---

(١) وفي اليفانتين بنى هذا الملك نفسه لخنوم معبداً فخماً، حفظت لنا منه حتى اليوم أعتابه الضخمة ومقصورته العظيمة (انظر .Ae. Z المجلد ٤٦ صفحة ٥٦).

(٢) برلين ١٤٣٩٩؛ انظر: Burchardt, Aegypt. Zeitschrift 44,55.

بالتخلي عنها، ولكنه منح جزءين كبيرين منها للإلهة نيت من أجل قرابينها وهما: الضريبة التي كانت تؤديها الواردات من بحر الإغريق، والضريبة التي كانت تجبى من الصناع في المدينة الإغريقية نقراطس[1]. وإذا لم يكن لأحد من فراعنة القرن الرابع أن يستغني عن هؤلاء الأجانب الصناع المهرة، وأن يمنع سكناهم بأرض مصر المقدسة، ألا يقتضيهم هذا جزاء يؤدونه للآلهة! ولكن أيّ كراهية هذه نحو الأجانب تلك التي يتيحها هذا الإجراء لدى المصريين الأتقياء! على أنها كانت كراهية الشيخوخة الضعيفة، التي لا بد أن تخمد بسرعة. فبعد قليل من عشرات السنين خضع الكهنة أنفسهم في ذلة للإغريق الذين سادوا البلاد.

وفي عهد الانتقال هذا حفظ لنا أثر يبدو لنا كأنه حلقة اتصال بين عهدين، وهو قبر أحد الكهنة العظام من المدينة المقدسة الأشمونين (هرموبوليس) (صفحة ١٠٠). وقد خبر هذا الكاهن الفترة السيئة من أواخر العهد الفارسي، وقدّر له كذلك أن يشهد العهد الطيب للسيادة الإغريبية، ذلك هو بتوزيرس كاهن الأشمونين الأعلى الذي كشف لفڤر عن مقبرته الرائعة.

وقد خدم «منذ الطفولة» بإخلاص إله الأشمونين، «وحفظ في قلبه» أفكاره، ولذلك اختاره تحوت أيضاً ليدير معبده، وقد ظلّ مديراً لأملاكه سبع سنين. وكانت إدارته لها مبرأة من كل عيب على رغم الزمن السيء الذي كان عليه أن يقوم بها فيه، وذلك لأن مصر كان يسودها إذ ذاك «أهل البلاد الأجنبية»، أي الفرس، «ولم يعد شيء في مكانه القديم»؛ وكانت الحرب تضطرم في مصر، والفزع يسود الوجه القبلي، والهياج في الوجه البحري، وكافة الناس في حيرة وارتباك. ولم يبقَ لأيّ معبد سدنته، ولم يعد الكهنة يحسنون معرفة شيء. غير أن بتوزيرس لما أصبح مدير أملاك «جعل معبد تحوت كما كان من قبل. وجعل كل شيء (مرتباً) من جديد، وكل طقس مقدس يؤدى في وقته. وزاد من شأن الكهنة، وعظم كهنة معبده العلمانيين، ورقى خدمه أجمعين،

---

(١) Erman, Aegypt. Zeitschrift 38, 133.

وأعطى الإرشادات لسدنته. ولم يقلل من الأطعمة في المعبد، وملأ أهراءه بالشعير والقمح، وخزانته بكل شيء طيب، وقد أعطى أكثر من ذي قبل، حتى شكره أهل المدينة جميعاً. وأعطي الفضة والذهب وسائر أنواع الأحجار الثمينة، وأفرح الكهنة (؟) وكل من كان يشتغل في مصنع الحلى». وهكذا أعاد كل «ما وجد مخرّباً» إلى الازدهار من جديد[(١)]. وقد اهتمّ قبل كل شيء كذلك بكافة الأماكن المقدسة التي كانت موجودة في هذه المدينة الجليلة. وكان منها ذلك المكان الذي كان يسمى «البحيرة العظيمة»؛ وقد كانت «المكان الذي نجم فيه رع منذ النشأة الأولى، عندما كان المحيط لا يزال يحيط بالأرض»، وكانت مكان مولد سائر الآلهة، وقد نشأ فيها كل ما نشأ». وكان هذا المكان الأجلّ، الذي ظل «مدفوناً فيه نصف البيضة»، التي نشأ منها إله الشمس، مهملاً تماماً، «فكان الأشرار يطأونه، وكان الناس يأكلون الفاكهة من أشجاره. وكان الغاب يؤخذ منه إلى كافة الأنحاء». وإلى هذا يرجع السبب في الشقاق والشقاء الذي أصاب مصر.

على أن بتوزيرس «مدّ الذراعين حول «البحيرة العظيمة»؛ ولم يسمح للعامة بالدخول فيها، وبنى فيها، بما يناسب هذا المكان، معبداً لرع من أحسن أنواع الحجر الجيري، وبأبواب من خشب الأرز، مصفحة بالنحاس[(٢)].

ولم يكن أقلّ سوءاً حال معبد حقت، تلك الإلهة الفطرية القديمة، التي في هيئة الضفدعة. وكان يقع في شمال الأشمونين مكان ظل «يسمى على أفواه الشعب «بيت حقت»، ولكنه كان مخرّباً منذ أمد بعيد، تجرفه المياه كلّ عام فلم تبقَ منه لبنة واحدة أو حجر. وكان يبدو كأن لم يحفر له أساس أبداً. . . وما كان فيه إلا العشب والنبات. وفي أوان الفيضان كانت السفن تجري من فوقه؛ أما في الصيف فكان يتخذ جرناً تدرس فيه الثيران». عند ذلك حدثت أعجوبة،

(١) Lefebvre, Le tombeau de Petosiris النص رقم ٨١، ٢٢ ـ ٤٧.
(٢) نفس المرجع ص ٨١، ٥٠.

فإن بتوزيرس بينما كان يشترك في عيد الإلهة، ويمضي أمامها في الموكب ـ هذا إذا صحّ فهمي ـ ظلت هي قائمة في هذا المكان المقفر، فأدرك ما كان يعنيه ذلك، وعزم على أن «يشيد أثراً جميلاً». فدعا كاتب المعبد وأعطاه فضة «بغير حساب»، وأقام فضلاً عن ذلك جداراً يحيط بالمكان لحمايته من الماء، ثم أعطى لَبِناً ليبنى به. وتشاور مع كافة الحكماء ليبحثوا ما يقضي به العرف القديم «منذ أن عرفه الإنسان» للأيام التي فيها تزور الإلهة هذا المكان وتقيم فيه[١].

وقد سرّت الإلهة لهذه الأبنية وغيرها، «ورفعه تحوت على سائر نظرائه، مكافأة له على ما فعل. وأغناه بكل شيء طيب، بالفضة والذهب، والحبوب... في الشون، وبالحقول والقطعان، والكروم وحدائق الفاكهة، والسفن تجري في الماء، وبكل أطايب الخزانة».

إلى جانب هذا «امتدحه حاكم مصر وأحبه رجال بلاطه». وكان له أن يتمنى لنفسه حياة طويلة بهيجة، وقبراً إلى جانب أبيه وأخيه، وبيتاً مليئاً بالولد، يتبع فيه الولد غيره من الأولاد[٢]. وهذا كله ليس إلا صدى الماضي، حتى إن



١٤٥ ـ صياغ من مقبرة بتوزيرس

(١) نفس المرجع ص ٨١، ٧٠ وما بعدها؛ ٦١ جـ (C).
(٢) نفس المرجع ص ٨١، ٨٣ وما بعدها.

من يقرأ ما سقناه من نصوص ليتصوّر بتوزيرس مصرياً تقياً من طراز عتيق، على أن هذا التصوّر إنما هو نصف الحقيقة ليس غير، فقبره بالذات يدل على أنه عاش عند مفترق عهدين.

وبناء القبر على شكل المعبد يبدو في حدّ ذاته أمراً جديداً، على أنه أغرب منه تلك الصور التي حليت بها جدرانه. فكما أن أمراء الزمن القديم عملوا في مقابرهم على تصوير سائر ما كان يحيط بحياتهم، فصوّروا قطعانهم وحقولهم، وصناعهم وموظفيهم، فقد أراد كذلك أن تكون له مجموعة مماثلة من الصور في مقرّ راحته الأخير. غير أنه لم يطلب من الفنان، الذي أدى له هذه الصور، أن يرتبط بالأمثلة القديمة منها، وإنما تركه على حريته. على أن مثل هذا الفنان قد اتصل في المدرسة بالنحاتين الإغريق، وكان يحاول تقليد فنهم. وبهذا نشأت صور من طراز خليط غريب، تنتمي من حيث موضوعها إلى آلاف السنين الغابرة، غير أن كل شكل فيها إنما هو شكل أجنبي غير مصري. إلى جانب هذا فإن التفاصيل أجنبية غير مصرية أيضاً، فالناس يتخذون الملابس الحديثة، والحبوب تدرس بأداة مستحدثة هي مضرب الدِّرَاس[1]. وإنه ليبدو لنا غريباً حقاً، إذا شاهدنا في هذه الصور ما يصنعه الصائغون من أوانٍ على الطراز الإغريقي، وعلى غطاء إحداها يجلس إيروس (إله الحب) في شكل بديع[2].

ويبدو هذا كله في مجموعه كأنه من المساخر، التي لا يتوقعها أحد في مثل هذا المكان المقدس. ومع ذلك فلم يكن الأسلوب الجديد هو وحده الذي فرض هذا على بتوزيرس، ولكن لا بد أنه هو نفسه قد وجه مسرّة في مثل هذا التجديد، وإلا لما غير كذلك في حرية كبيرة تلك النصوص الملحقة بالصور، التي لم يكن لأيّ إغريقي أن يستطيع قراءتها[3].

---

(١) نفس المرجع لوحة ١٣.

(٢) نفس المرجع لوحة ٨.

(٣) ظهر ما يشبه هذه النصوص حقاً في المقابر المصرية القديمة، على أن كتابات بتوزيرس ليس لها مثال سابق مماثل، وهي بالتأكيد من اختراعه الشخصي.

فإلى جانب الأشخاص الذي يجمعون العنب نجد العبارة التالية: «تعال يا سيدنا، وانظر إلى حدائقك التي يبتهج لها قلبك، إن البستانيين يعصرون (العنب)، وعلى الأغصان عنب كثير له عصير أوفر من عصير أيّ سنة أخرى[1]؛ اشرب واسكر واعمل ما تحب». ويقول أحد الملاحظين لأحد الحاصدين وهو يشرب: «لم يتلقَ أحد بعد شيئاً من يديك، لا تشرب اليوم قبل أن تعمل»[2].

حقاً لقد كان بتوزيرس رجلاً من عصر جديد، وهو وإن ظلّ مخلصاً لعقيدة آبائه القديمة، فقد تقبل مع ذلك الحضارة الإغريقية التي نجحت في أن تكون لها السيادة في مصر وفق إرادة الآلهة. ولذلك فإنا نفهم جيداً أنه كان محبوباً لدى «حاكم مصر»[3]، أي في بلاط الإسكندرية.

وثمّ شيء آخر في مقبرة بتوزيرس جدير بالإنتباه؛ ففي كثير من نصوصها تتجلى روح طليقة ذات صفات خاصة، ليس لها أدنى صلة بأيّ تأثير إغريقي، مما يبدو مثلاً في الصور التي سلف ذكرها، وإنما تنبض تلك النصوص بذلك التدين العميق، الذي عرفناه في الدولة الحديثة والعصر الذي تلاها (صفحة ١٥٨). فالذي يملأ حياة بتوزيرس إنما هو شعور التقوى الذي يربطه بإلهه، وهو «تحوت العظيم مرتين». وكان هذا الإله رائده طوال حياته، وهو الذي هداه إلى أن يكون مخلصاً له. ولهذا فهو يهيب بمن يزور قبره في المستقبل: سأرشدكم إلى طرق الحياة، ومن ثم سوف ترسون في العالم الثاني تحدوكم ريح رخاء. لقد وضع ثقته في الإله منذ الطفولة إلى اليوم، فكان يفكر بالليل فيما عسى كانت إرادة الإله، ويعمل في الصباح ما يحبه الإله. وكان يقول الحقّ وينفر من الظلم، ولم يتعامل مع من لم يكونوا يعرفون الإله، ولم يعتمد إلا على

(١) نفس المرجع ص ٤٣.
(٢) نفس المرجع ص ٥٢.
(٣) لقد كان هناك كثير من أمثال هؤلاء الكهنة المثقفين، وستتعرف على أحدهم، وهو مانيتو، في الفصل الحادي والعشرين.

المخلصين للإله، وذلك لأنه كان دائم التفكير في أنه سوف يذهب بعد الموت إلى الإله، وأن سادة الحق سوف يجلسون لمحاكمته.

هكذا كانت تقريباً عقيدة بتوزيرس[1]. وليس من الصدقة بالتأكيد أن نجد في تعاليم أمون إم أوبي (صفحة ٢٢٦)، شعوراً تقياً مماثلاً، يتجلى كذلك بشكل واضح في تلك الدعوات الموجهة إلى تحوت، والتي ذكرناها من قبل (صفحة ١٥٩). ويتعلق الأمر في كلتا الحالتين، كما في حالة بتوزيرس، بأشياع تحوت الذين يعلنون، عقائدهم هذه، ولا يمكن أن يكون هذا من قبيل الصدفة. فقد كان الموظفون والكتبة الذين يخدمون تحوت، من الطبقة العالية المثقفة من الشعب، التي كانت تحيا فيها حقاً روح عالية؛ ومن المحقق أن هذه الروح قد عاشت بعد ذلك، وخاصة عندما أصبح تحوت هو هرمز، الذي كان يعتبر ممثل الحكمة السامية. وسنتكلم فيما بعد عن هرمز هذا وعن أتباعه. حقاً لقد غدت التعاليم التي يمثلونها شيئاً آخر غير تعاليم جماعة تحوت القديمة، على أنهم ورثوا الاعتقاد بأن إلههم هو الإله الذي يعلم الحكمة العميقة.

وحيث ذكرنا هنا هذا الإزدهار الثاني للروح المصرية، يجب أن نفكر في كتاب ينطق عن روح الحضارة المصرية القديمة نفسها، وقد ازدادت دماثة وصفاء. لقد حفظت لنا هذا الكتاب بردية أنسنجر الديموتيقية[2]، وهي وإن كانت قد كتبت في القرن الأول بعد الميلاد، إلا أنه من المحقق يقيناً أن ما جاء فيها يرجع إلى ما قبل ذلك. ولسنا نستطيع مع الأسف فهم الكثير من تفاصيل هذا الكتاب فهماً تاماً، على أنه ليس مجرّد مجموعة من آداب السلوك، ولكن من المحقق كذلك أنه لا تنقصه هذه الآداب، وذلك لأن هذا الكتاب يحذّر كذلك

---

(١) وربما يتصل بهذا أن بتوزيرس قد وصف فيما خلفه الزوار من كتابات في العهد اليوناني، الذي كان يحج فيه إلى قبره، بأنه «حكيم بين الحكماء» (انظر Lefebvre, Tombeau de Petosiris الجزء الأول ص ٢٤).

(٢) نشرها ب. أ. بيزر Boeser، ليدن ١٩٢٢.

من رذائل الغضب والشهوة وعدم الاعتدال، وينبه إلى عواقبها المهلكة وهو يمتدح الزوجة الطيبة والطفل المحبّ للمعرفة. وينصح الإنسان بأن يظلّ في موطنه؛ وذلك لأنه في البلاد الأجنبية ليس له أهل يساعدونه، كما أن إلهه المحلي بعيد عنه، ولا ينبغي أن يغضّ من قدر أيّ شيء، فالإله الصغير يمكن أن يكون له أثره، والتميمة الصغيرة يمكن أن تقي، وقليل من المسرة يحيي القلب، والفضيلة مهما تكن يسيرة لا تخفى على الإله.

على أن هناك فكرة أساسية تتخلل تعاليم هذا الكتاب جميعاً، كما أنها تؤلف نهاية كل فصل من فصوله الكثيرة: «يجري القضاء والحظ، والإله هو الذي يجريهما».

وينظر الكتاب إلى حياة الإنسان في علاقتها بالإله، فالإله هو الذي يعرف التقيّ كما يعرف الأثيم، وهو يحمي أحدهما في أوان الشدّة، ويعاقب الآخر. والقويّ والضعيف أمام الإله سواء. ولا ينبغي أن نرى في كلمة «إله» إشارة إلى آلهة العقيدة المصرية كل على انفراد ـ وإن كان يرد في بعض الظروف ذكر تحوت وحاتحور وموت وتويرس ـ وإنما الإله هنا هو حاكم العالم كما هو الحال في أقدم الكتابات ذات الإتجاه المماثل. وعلى من ينكر هذا الإله أن ينتبه إلى ذلك الخفي، إلى الشمس والقمر، والصيف والشتاء. إنه هو الذي يمنح الهواء والماء، ويرزق الأحياء الطعام وهو يجعل الأرض تلد الملايين، ثم تعود فتلتهمهم، ثم تلدهم من جديد. وهو يصدر أوامره إلى الناس؛ وهو الذي يفرض القانون ويحقق العدل دون محكمة، ولكنه يظل خافياً.

وفي هذا يتجلى لنا ناحية غريبة من تاريخ الفكر المصري. وعلى المرء هنا أن يسلم بأنه من الممكن كذلك أن تكون هذه الحكمة قد أثرت فيما بعد على فلسفة التصوّف لبويماندر[(١)] وهرمس ترسمجستوس.

* * *

(١) أشار بيزر (Boeser) إلى أن من المواضع ما يشبه ما جاء عن بويماندر.

الفصل العشرون

الديانة المصرية في البلاد المجاورة

قبل أن نستعرض المصائر الأخيرة للديانة المصرية ينبغي أن نلقي نظرة على ما كان لها من انتشار في فترة ازدهارها الطويلة في البلاد المجاورة، وعلى ما كان لها من تأثير فيها.



١٤٦ ـ من أحد الأواني من الحجر من كريت القديمة

لم يكن للحروب والغزوات أثر في انتشار الديانة المصرية بقدر ما كان للاتصال السلمي بين شعب وشعب. والمصريون أنفسهم وإن لم يكونوا شعباً تجارياً، فهم لم يكونوا ليستطيعوا الاستغناء عن مثل هذا الاتصال. فقد كانت بلادهم، على غناها، تفتقر إلى بعض المنتجات الهامة، الي لا يمكنهم إلا أن يستوردوها من الخارج. فكانت العطور والبخور تجلب من البلاد الواقعة في جنوب البحر الأحمر، والأحجار الثمينة والنحاس من سينا، وأخشاب البناء ـ وكانت أهمّ الواردات جميعاً ـ من لبنان. ومن كان يذهب إلى هذه البلاد، مخترقاً الصحارى والبحر المخيف، كان يستودع نفسه عند قيامه برحلته آلهة

مصر؛ وفي عودته آلهة البلد الأجنبي، وذلك لأنها تحكم المناطق التي عليه أن يخترقها.

ولا مراء في أنه كان هناك اتصال قويّ مع كريت؛ وهناك ما يدلّ أيضاً فيما نعتقد على أنه كان لهذا الاتصال أثره كذلك على ديانة كريت؛ فعلى إناء من حجر يرجع تقريباً إلى بداية الألف الثانية قبل الميلاد، صورة موكب أقيم لتمجيد إحدى آلهة الحصاد هناك. ويقود المغنين الكريتيين، الذين يسيرون في هذا الموكب، رجل صغير يتضح من رأسه الحليق ومن السستروم أنه كاهن مصري، وهو يقوم على ما يبدو بين البرابرة بدور رائد المرتلين(١).

وهناك قرينة أخرى وإن تكن أقلّ دلالة. فقد رأينا أن العقائد الجنازية القديمة للمصريين تعتمد قبل كل شيء على فكرة وجوب إطعام الخلف للموتى. وتتجلى هذه الفكرة في المقابر كلها في الصور الأساسية التي تمثل الميت وحده أو مع زوجته وهو يتناول الطعام. ومن الصعب أن تكون الصدفة هي السبب في أن نجد هذه الصورة نفسها في نقوش المقابر القديمة في شمال سوريا، تلك التي ترجع بالتحقيق إلى الألف سنة الثانية قبل الميلاد، وأن تعود تلك الصورة التي تمثل الميت طاعماً، مرة أخرى على نقوش المقابر الإغريقية القديمة. وعادة دفن الجثة في تابوت أو في تابوتين لحمايتها ليس لها كذلك معنى إلا عند شعب يعتقد أن من الضروري حفظ جثة الميت. وعلى هذا فإن هذه العادة التي نجدها في أوروبا وفي الشرق إنما هي مقتبسة من مصر. وكذلك المقابر الإتروسكية بصور جدرانها إنا تبدو لنا تماماً كأنها تقليد للمقابر المصرية. وإلا فكيف كان من الممكن أن تظلّ الأعمال العظيمة، التي قام بها المصريون من أجل موتاهم، دون أثر على الشعوب التي اتصلت بهم؛ ومع هذا فمن الحق أنه لا يزال مشكوكاً في أن يكون في هذا أكثر من اتخاذ عادة أجنبية من الناحية الشكلية ليس

---

(١) يدل أحد النصوص المصرية القديمة جداً على أن الجثث كانت تحنط في كريت كما في مصر Erman, Lit. صفحة ١٣٥.

غير، إذ من الجائز أن تكون الشعوب الأخرى قد شكلت مقابرها طبقاً لما جرت به العادة في مصر، دون أن تعرف تفاصيل العقائد الجنازية للمصريين. وأولى بهذا الشكّ هو جميع ما وجد من أشياء ذات طابع مصري في بلاد البحر الأبيض المتوسط، في شمال أفريقيا أو في غربي آسيا، لأنه إذا كان قد استخدم على الآثار الرمز المصري للحياة، أو الإله ذو رأس ابن آوى، أو الشمس المجنحة، أو تيجان الآلهة، فما كان هناك ما يدعو إلى أكثر من الظنّ بأنها رموز المصريين الأتقياء، وأنها أشياء من المحقق أنها قد تعجب الآلهة الخاصة.



١٤٧ ـ شاهد مقبرة ملكة سورية من سند ـ جرلي (برلين)

وإننا لنقف على أساس أشدّ متانة في فلسطين وفينيقيا، حيث نجد العبادات المصرية والوطنية جنباً إلى جنب. ففي بيت شيان مثلاً شيد ملوك الدولة الحديثة، أو بالأحرى حكام الحصون، معبداً للإله المحلي مِكِر وزوجته حيث كان يعبد كذلك رشف وعنات إلى جانب آمون رع وحراختي.

وإلى الشرق من بحيرة طبرية صخرة منعزلة جاء عنها أن أيوب اعتمد عليها، وقد مثل عليها رمسيس الثاني وهو يمجد إلهاً متبرباً، يبدو أنه كان يسمى «. . . للشمال». وقد افتخر رمسيس الثالث كذلك صراحة بأنه شيد في فينيقيا معبداً لآمون، كان «بيتاً مليئاً بالخفايا والأسرار، وكان يشبه الأفق السماوي الذي في السماء». وكان اسمه «بيت رمسيس في كنعان. وقد صنع الملك كذلك تمثالاً كبيراً لآمون يستقرّ فيه» يسمى «آمون رمسيس تأتي إليه شعوب سوريا بتقدماتها، وذلك لأنه إلهي»(١).

وعلى الجملة فلنا أن نذهب إلى أن الحضارة المصرية في عهد الدولة الحديثة كان لها تأثير كبير في هذه البلاد وكذلك على الديانة فيها. وقد أصبحت الأختام تحمل صور الآلهة المصرية، كما أصبحت المقابر تحلى على الطريقة المصرية(٢). على أن الأمر لم يبلغ حقاً عند هؤلاء الشعوب أن تكون للديانة الأجنبية السيادة على الديانة الوطنية وعلى ما ورد إليهم قبل ذلك من عقائد من بابل. ولم يحدث ذلك حتى في جبيل، تلك المدينة الواقعة على الساحل التي كانت منذ الأزمنة السحيقة على صلات قوية بمصر من أجل تجارة الأخشاب. فقد كان ملوك الدولة القديمة ومن بينهم منكاورع (باني الهرم الثالث) يهدون إلى معبد هذه المدينة التقدمات، التي ما زال يكشف عنها فيه. ولم تنقطع هذه الصلة الدينية مطلقاً، وقد وجدت جبيل سبيلها كذلك إلى أسطورة أوزيريس(٣)، وكذلك ذكرها أحد كتاب الدولة الحديثة، كأنها مدينة مليئة بالأسرار، يمكن أن يقال الشيء الكثير عن آلهتها(٤). وكانت هذه الإلهة، وهي بعلة جبيل أو «سيدة جبيل» كما تسمى في اللغة المصرية، الحامية العظيمة للملاحين، ومنهم كذلك الملاحون المصريون. وقد سوّى هؤلاء بينها وبين إلهتهم حاتحور، ولهذا كانت

---

(١) Harris I 9.1 ff.

(٢) في مجموعة كنارد (Kennard) في لندن جزء من صورة من جدران مقبرة مماثلة.

(٣) انظر صفحة ١٣١.

(٤) Anastasi I; Litt., 288.

حاتحور تسمى منذ ذلك الوقت «سيدة جبيل»[١]. وكانت حاتحور تعتبر كذلك حامية الملاحين وإن كانوا لا يبحرون إلى جبيل وإنما في البحر الأحمر، بل إن السفينة التي كان الميت يبحر فيها إلى السماء كانت تقودها حاتحور سيدة جبيل[٢]. وأخيراً كان أهل جبيل أنفسهم يعبدون إلهتهم في شكل حاتحور؛ وحوالي عام ٤٠٠ ق. م. كانت الإلهة التي كان ملك جبيل يقدم لها دعواته تشبه تمام الشبه حاتحور المصرية وإن كانت هي بعلة جبيل.



١٤٨ ـ يهوا ملك جبيل، أمام آله جبيل

وهكذا كانت جبيل في الواقع مدينة مقدسة لديانتين. وفي العهد الروماني نسمع كذلك أن رأساً مصنوعة من لحاء البردى يدفعها الريح كل عام بطريقة عجيبة تحت إرشاد الآلهة من مصر إلى جبيل[٣].

وكان آمون يعبد في الدولة الحديثة في جبيل أيضاً، على أن جذور عبادة آمون في حقيقة الأمر لم تتأصل في جبيل، وذلك لأنه عندما سافر أونامون، أحد الموظفين في معبد طيبة، حوالي سنة ١١٠٠ ق. م. إلى جبيل (صفحة ٤٢٠)، ليجلب منها الخشب اللازم لصنع سفينة مقدسة جديدة، لم يكن فيها شيء من

(١) وفي الدولة الوسطى نفسها كان يطلق اسمها على الفتيات الصغيرات.

(٢) Lacau, Textes religieux no. 20.

(٣) Pseudolucian, De Dea Syra.

احترام الديانة المصرية. ولم يكن هنا أثر كبير لإيفاده رسولاً لآمون حاملاً له تمثالاً. وكان من العبث أن يستشهد بأن أبا أمير جبيل وجده كانا يعتبران آمون «سيدهما»، وأنهما «قضيا حياتهما يقدمان له القرابين»، وأن الأمير نفسه «خادم آمون». وقد اعترف الأمير بهذا كله وسلم كذلك بأن الفنون والتعاليم إنما وردت من مصر إلى فينيقيا، ولكن هذا كله لم يحرّك فيه ساكناً. إذ لما كان آمون لم يرسل مالاً، لهذا لم تكن رغبة الإله تساوي عنده شيئاً(١).

وفي واحات الصحراء الغربية كان يعبد في الزمن القديم الإله آش، الذي كان يشبه ست(٢) عند المصريين. وقد حلّ محله فيما بعد ست(٣) وسوتخ(٤). وفي الدولة الحديثة أصبح آمون الإله الرئيسي للمعابد في الواحات؛ وكذلك في العهد المتأخر، الذي أخذ فيه آمون في مصر يتقهقر تدريجاً إلى الوراء، تمسك الليبيون في الواحات به في إخلاص. وفي القرن الخامس ازدهرت عبادته في الواحات بطريقة ملحوظة.

وفي عهد ملوك الفرس بدىء بإقامة معبد كبير في الخارجة، كما أن إقامة المعابد في الواحات الأخرى ترجع إلى العصر المتأخر جداً. ولما لم يكن سكان هذه الواحات من الثراء بحيث يستطيعون تشييد مثل هذه المباني بوسائلهم الخاصة، لهذا فإن لنا أن نعتقد أن المال اللازم ورد إليهم من مصر. وإنه ليظن أن هذه المعابد في الصحراء كانت تعتبر عند المصريين مقدسة حافلة بالأسرار بنوع خاصّ، وأنها لهذا قد استفادت من الاعتقاد في التنبؤ بالغيب في العصور المتأخرة. وليس من شكّ في أن الأمر كان على هذا الحال في تلك الواحة التي تقع أبعد ما تكون عن مصر، وهي واحة جوبيتر ـ آمون، التي تسمى الآن سيوة.

---

(١) Erman, Litt. S. 233 ff.

(٢) Royal Tombs II 22, 179, 178; 23, 199, 200.

(٣) Sethe, Sahure II, 74; Israelinschr. 11 (Litt. S. 343); Rougé, Inscr, 144.

(٤) عن سوتخ، انظر صفحة ٤٥، ١٢٠.

وكان لمهبط وحي آمون في سيوة بين الإغريق النازلين في برقة، والذين كانوا يعيشون على بعد سفر أيام قليلة منه، جمهور عارف بفضله نشر شهرته في عالم البحر الأبيض المتوسط. فكان الناس يقصدونه من آسيا الصغرى، ومن بلاد الإغريق، وقرطاجنة لاستشارته. وقد رفع من مجده كذلك مناسبة خاصة حسنة، فإن الإسكندر عندما ذهب إلى مصر عام ٣٣٢ راقه أن يشاهد هذا المكان، فقام بتلك الحملة في الصحراء التي كان لها على الإغريق أثر كبير. ولما حياه الكاهن الأعلى وفقاً للعادة المصرية كأنه ابن للإله، أعجب الملك أن يرى في هذه التحية ما هو أكثر من مجرد عبارة تقليدية؛ فقد كانت العبارة عنده قراراً من الإله يمنحه به السيادة على العالم. ومنذ ذلك الوقت أصبح مهبط وحي جوبيتر ـ آمون إحدى العجائب العظيمة في الزمن القديم، وغدا معبده ومصدر الشمس فيه من الأشياء الشهيرة التي تستحقّ المشاهدة. وإذا كان آمون طفق يصير بسرعة زيوس عند الإغريق ـ وقد مثل على هذا النحو على النقود القديمة في برقة ـ فلقد احتفظ الأهالي أنفسهم بالتقاليد المصرية، فكان إلههم يشبه آمون المصري، وكان يخبر بالغيب بالطريقة التي كانت متبعة في طيبة. وينتمي معبدا سيوة حقاً إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وقد شيدهما الزعماء الوطنيون، وكانوا على ما يبدو يعتبرون الملوك المصريين في العصر الفارسي ملوكاً عليهم[١]، وقد حُلي أقدم المعبدين على نحو المعابد المصرية، ولكن بطريقة سيئة إلى حدّ كبير. ويشغل آمون وموت وخونسو باعتبارهم آلهة طيبة المكان الأول بين النقوش بطبيعة الحال، أما صور الآلهة الأخرى فيبدو أنها أضيفت دون نظام ثابت. ويرجع المعبد الأحدث عهداً إلى عصر «نقطانب الثاني»، فلم يكن عمره على هذا يزيد على بضع عشرات من سنين عند زيارة الإسكندر. ولقد حفظ لنا فضلاً عن ذلك قبر لأحد الكهنة هناك، وهو قبر «الكاهن، كاتب كتاب الإله باتحوت»، الذي كان «عظيماً في بلدته»[٢]. وهو من عمل رديء أيضاً، غير أن نقوشه تتضمن فصولاً من كتاب الموتى.

---

(١) Steindorff, Ae. Z. 69, 17 ff.

(٢) Steindorff, Ae. Z. 61, 94 f.

على أن الديانة المصرية قد وجدت أرضاً شكورة وانتشاراً واسعاً في البلاد التي فرضت فيها على قبائل ذات حضارة منحطة ومواهب محدودة جداً، وهي بلاد النوبيين والزنوج. وإذا كان ملوك الدولة الوسطى عندما غزوا بلاد النوبة قد تركوا لها إلهها دون[١]، فقد ضموا إليه خنوم، إله الشلالات المصري. وفي الدولة الحديثة التي فيها امتدّ الغزو كثيراً ونظمت بلاد النوبة كولاية تابعة، تمصرت فيها العبادة أيضاً.

وقد شيد تحوتمس الثالث نفسه في أحد الحصون الذي كان يحمل الإسم الحربي «نحر الشعوب الأجنبية»، معبداً لآمون رع، معبود الكرنك، وقد استحال هذا المعبد في القرون التالية إلى معبد آخر شبيه بالكرنك[٢]. وكان يقع حيث يبرز في هضبة النوبة العليا جبل وحيد صعود، كان يسمى «الجبل الطاهر»، ويدعى الآن جبل بركال. وفي هذا المكان نفسه كانت تقع نباتا عاصمة النوبة ومقرّ الملوك الأثيوبيين فيما بعد.



١٤٩ ـ المعبد الصغير في أبي سنبل حيث ترى على جانبي الباب تماثيل رمسيس الثاني وزوجه.

(١) ورد ددون في متون الأهرام نفسها كجالب للبخور: متون الأهرام ٩٩٤، ١١٠٧.

(٢) Reisner, Ae, Z. 69, 35.

وإلى جانب آمون رع انتقل كذلك إلى بلاد النوبة الإلهان المصريان بتاح، ورع حراختي، وكذلك إيزيس وحاتحور؛ وقد أضيف إليهم الملوك المصريون كآلهة للبلاد أيضاً. ففي سمنة كان على النوبيين أن يعبدوا الملك سيزوستريس الثالث، وهو الفاتح الأوّل لبلادهم، وكذلك تحوتمس الثالث، الفاتح الجديد؛ وفي صولب فرض أمينوفيس الثالث نفسه إلهاً، وفي أبي سنبل جلس رمسيس الثاني بجوار الآلهة في قدس الأقداس في المعبد الكبير، على حين كانت زوجه تعبد مع الإلهة حاتحور في المعبد الصغير. وفيما عدا هذا كان من عادة النوبيين كذلك عبادة الأشخاص[١].

وقد شُيد في هذه البلاد القليلة السكان المعبد تلو المعبد ـ حتى في عهد الإلحاد. وفي عهد رمسيس الثاني خاصة شيدت هنا المعابد الكبيرة في أبي سنبل وجرف حسين وبيت الوالي وغيرها. ولما كان الوادي الضيق لا يهيىء مكاناً فسيحاً لهذه المباني، فقد اتخذت هنا الوسيلة التي اتبعت في هذا العهد بالذات في المقابر الضخمة. فنحتت المعابد في باطن الصخر، وبهذا ابتدعت أعمال مدهشة يمكن أن تقارن بالمباني ذات الشهرة العظمى في الأراضي المصرية. ومن الواضح أن كهنوت هذه المعابد قد تلقوا أوقافاً مناسبة من حقول ودخول ـ وإن كانت مثل هذه المنح لا تتفق مع فقر البلاد. بل لقد كان يعتمد على هذا القطر الفقير في النفقة على بعض المعابد التي لم تكن في بلاد النوبة. فعندما أقام سيتي الأول لأوزيريس معبده الكبير في أبيدوس منحه إقليماً في بلاد النوبة؛ ويدهشنا أن نقرأ المرسوم الملكي الطويل بكافة ما ينذر به في جزئياته من عقوبات لتأمين الكهنة على دخلهم[٢]. ومن اليسير أن نقدر أن هذا التوسع العظيم للديانة المصرية قد خلف تأثيراً دائماً على السكان الفقراء في البلاد الجنوبية. فعندما انفصم الرباط الذي كان يجمعهم بمصر بعد نهاية الدولة الحديثة كان لا بدّ أن

---

(١) وهكذا كانوا يعبدون في الدولة الحديثة في دبود «وي» الياور الذي ربما كان ضابطاً في الدولة الوسطى. وقد حدث ما يماثل هذا مرة أخرى في العهد المتأخر، انظر: 1425 Brugsch, Thesaurus.

(٢) نصب نوري: انظر Griffith, Journ. Egypt. Arch. XIII.

تتخلى اللغة المصرية بسرعة عن مكانها للغة الشعبية، غير أن الديانة المصرية بقيت وعظمت قوّتها بين النوبيين والزنوج إلى حدّ تجاوز مدى قوّتها في وطنها الأصيل. وقد تحققت بين ظهراني هؤلاء البرابرة على أوسع مدى تلك المملكة التي لم يتمكن كهنة طيبة من إقامتها في مدينتهم الأصلية إلا لأمد قصير (صفحة ٤١٩). وكان الحاكم الحقيقي لبلاد النوبة هو آمون نباتا برأس الكبش(١). فبوحيه كان الملك يختار أو يُعزل أو يؤمر بموته(٢)؛ وبأمره خرج الملك لاستخلاص الأراضي المصرية المقدسة من الأيدي النجسة، ذلك لأن الأثيوبي في هذا العهد كان يعتبر نفسه الممثل الحقيقي للعقيدة المصرية الصحيحة(٣)، بينما كان يعتبر المصريين أنفسهم أنجاساً مرتدين. ولما ذهب عظماء المصريين المغلوبين ليقدموا خضوعهم للملك الأثيوبي، لم يسمح ذلك البربري إلا لواحد منهم بدخول سرادقه، أما الآخرون فكانوا «غير مختونين، ويأكلون السمك، وهو رجس عند القصر»(٤). وكان الملك في كل مدينة تقهرها له شراذمه المتوحشة، يزور الآلهة ويهب لها الهدايا، وذلك لأن آلهة مصر كانت آلهته أيضاً. وقد حظيت طيبة قبل غيرها بمكان ملحوظ باعتبارها المدينة المقدسة في نظر الأثيوبيين، وقد ظلت مدة طويلة في قبضتهم وحكمتهم أميرات أثيوبيات بصفتهنّ زوجات الإله.

ولما أشرقت أيام أبسماتيك المجيدة على مصر في القرن السابع وتمّ إجلاء الأثيوبيين عنها، ارتدّ وادي النيل الأعلى إلى الهمجية القصوى تارة أخرى. والذي يقرأ النصّ الكبير الموجود في متحف برلين، حيث يقصّ الملك

---

(١) Erman, Ae. Z. 35, 15.

(٢) Diodor 3, 6.

(٣) تذكرنا وجهة النظر هذه بأن أسرة ماندشو في الصين كانت أشد من غيرها تمسكاً بالعقائد الدينية. وكلا الفريقين أنصاف برابرة، وقد كانا يريدان أن يخفيا ذلك بشدة تدينهما.

O. Franke. Z. D. M. G. 1923. Neue Folge Bd. 2. S. 11, 12.

(٤) نصب بيعنخي ١٥٠.

ناستسن[1] ـ الذي اتخذ مروى فيما يبدو حاضرة له في عهد قمبيز ـ أعماله العظيمة، فإنه لا يدري أيعجب أكثر لبربرية اللغة والكتابة، أم لبربرية ما تحتويه. ولكن هذا الزنجي لصّ البقر، كان قبل كل شيء، رجلاً تقياً مؤمناً بالآلهة المصرية، وكان يقدّم إلى الآلهة جزءاً وافراً ينتهبه في غزواته من قبائل الصحراء، كما كان يدين قبل كل شيء أيضاً لآمون نباتا بالجميل، إذ استدعاه يوماً من مروى ونادى به ملكاً، وقد أقرّت الآلهة الأخرى قرار رئيس الآلهة، حين طفق يزورها في مدنها عقب اعتلائه العرش.

وفي القرن الثالث قبل الميلاد تفككت حقاً عرى مملكة آمون هذه التي قامت بين الزنوج والنوبيين، وذلك عندما «اقتحم» الملك إرجامينس «ذو الثقافة



١٥٠ ـ إله مصري من معبد ناجا وهو يمسك بذراعي ملك وملكة يتعبدان

(١) Diodor 3.6.

الإغريقية، بجنوده قدس الأقداس، حيث كانت المقصورة الذهبية، وقتل الكهنة»[١]. ومع ذلك فلم يتغير الطابع الديني للمملكة الأثيوبية كثيراً، ولم يكن لثقافة الحاكم الإغريقية أيّ تأثير على شعبه. وقد حلت مروى مكان نباتا مدينة مقدسة، وهي أكثر توغلاً في الداخل، وتقع إلى الشمال قليلاً من الخرطوم؛ وبهذا غدت الآلهة أكثر بربرية وأكثر أفريقية في طابعها. والذي يرى صور معبدي بحراويه وبنّاجا وما تمثله من متوحشين في أكداس من الحليّ وهم يتعبدون بطريقة الفراعنة لآلهة جافية في لباس نصف مصري، يلاحظ إلى أيّ حدّ من التدهور انحطت هذه السلالة من الديانة المصرية. وإذا قدّر لنا التوفيق يوماً في فهم نصوص هذه الملكية الأثيوبية المتأخرة، وهي مكتوبة بلغتها وخطها، فإنه يصعب أن نخرج منها بصورة حسنة عنها.

وكان هؤلاء البرابرة يعاملون أيضاً موتاهم وفق التقاليد المصرية؛ فكانت تقام لهم الشواهد الجنازية وموائد القرابين، وتبنى للملوك أهرامات بشكل مشوّه غريب. وكما يبدو من صورها كان لأوزيريس وأنوبيس وإيزيس ونفتيس السلطة على الموتى أيضاً.



١٥١ ـ شاهد أثيوبي، وعليه الميت يتعبد لأوزيريس وإيزيس

(١) Schaefer, Die aethiopische Koenigsinschrift ds Berl. Museum Leipzig 1901.

وقد عُني العالم اليوناني الروماني بهذا الشعب التقيّ في أقصى الجنوب، وصدّقه عندما ادّعى أن بلاده هي مصر الحقيقية، وأنه الشعب الذي أخذ عنه سكان مصر دينهم وفنهم وكتابتهم[١]. وعندما جعل الشاعر الروماني الناقد السيدة النبيلة تحجّ إلى «حدود مصر» لتجلب من هناك الماء الحقّ لمعبد إيزيس، فقد استبدل بينابيع إليفانتين، وهي المقصودة بطبيعة الحال، بغير عناء «مروى الدافئة»، التي كانت أكثر استثارة لشوق قرائه[٢].

ونحن لا ندري مدى ما عاشت الديانة الأثيوبية، ومع ذلك فإنه يظنّ أن الوثنية قد عاشت في هذا الركن القصيّ من العالم زمناً أطول مما عاشته في الأمبراطورية الرومانية، ولو أنه من المعروف أن خصياً للملكة الأثيوبية كنداكي كان من أوائل المؤمنين بالدين المسيحي. على أنه من المقطوع به أن العقيدة الوطنية استمرّت أمداً طويلاً في النوبة الشمالة، التي خضعت لسيادة روما والتي لعبت دوراً خاصاً في حياة مصر الدينية إبان العهد المتأخر.

وكانت منطقة الحدود بين بلاد النوبة ومصر مما يلي الشلال الأوّل جنوباً تدين في بداية الأمر للإله العظيم خنوم، الذي كان يحمي منابع النيل في إليفانتين. وقد جاء أن الملك زوسر اعتماداً على مشورة الحكيم إمحتب (صفحة ٤١٣) وهب لهذا الإله منطقة المراحل الإثنتي عشرة على ضفتي النهر بكافة مواردها ومكوسها، ليُفيض من جديد نيلاً غزيراً إلى مصر، التي كانت إذ ذاك في السنة السابعة من المجاعة.

وعندما سيطر أوزيريس على قلوب الناس شيئاً فشيئاً، بلغ هذان الإلهان أيضاً أسمى اعتبار لدى النوبيين، وطفق معبد إيزيس في جزيرة فيلة الصغيرة الواقعة عند الطرف الأقصى للشلال، يبرز أكثر فأكثر على هيكل إليفانتين المجاور. وفي عهد بطليموس فيلادلفوس بدىء بتشييد المعبد الجديد، الذي

(١) Diodor 3.3.

(٢) Juvenal, 6, 527.

كان يعتبر بحالته السليمة وبموضعه في بيئة مهيبة من أجل ما عرف زماننا، ولكن برابرة أوروبا أغرقوه في خزّان من المياه.

وكان لهذا المعبد الواقع عند حدود البلاد المصرية مركز خاصّ، لأنه كان يكفل الحاجات الدينية لشعبين في وقت واحد. وكان سادته هم ملوك الإغريق وأباطرة الرومان، غير أنه كان يُسمح للأثيوبيين كذلك بدخوله والانتفاع به. وقد شيد فيه الملك الأثيوبي إرجامينس بالإشتراك مع بطليموس فيلوباتور هيكلاً لإلهه أرسنوفس. وتدلّ النصوص العديدة باللغة الأثيوبية على مدى ما أبداه أهل الجنوب من حماس في الحجّ إلى فيلة. وفي هذا المعبد وجدت آلهة البرابرة أيضاً مكانها، ومنها أرسنوفس وإله الشمس مندولس، وكان محله المقدس في تاليس، التي كانت تقع كذلك من داخل منطقة الحدود، وكان المتعبدون الوطنيون يطلقون عليه في الأناشيد الإغريقية «الربّ مرسل الأشعة».

وكان بدو صحراء بلاد النوبة، البليميون، يحجون إلى إيزيس في فيله، ولم يكن للحكومة الرومانية، التي سبب لها هؤلاء الرحل كثيراً من المتاعب، إلا أن تسمح لهم بممارسة عبادتهم في فيلة. ومع أن المسيحية كان قد كتب لها الفوز في مصر منذ أمد بعيد، فقد ظلت عبادة إيزيس في فيلة حبيبة للنوبيين والبليميين. وعندما عقد القائد مكسيمينوس عام ٤٥٢ ب. م. معاهدة سلام مع الشعبين، سمحت بيزنطة التقية لأولئك الوثنيين بحرية الحج إلى معابد فيلة، وأن يستقدموا منها تمثال إيزيس كل عام للاحتفال به. وبعد قرن كامل، عندما انقضت هذه المعاهدة، أمر جستنيان بإيصاد معبد فيلة كذلك، وحبس كهنته، ونقل تماثيل الآلهة إلى القسطنطينية. وهكذا كانت فيلة آخر مركز للديانة المصرية، وفيها نجد آخر آثارها، التي خطتها يد مصري بنصوصها اليونانية والديموتيقية والهيروغليفية المتأخرة. وإننا لنجهل أصحاب هذه النصوص القصيرة المحفورة، ولكننا لن نبخل بعطفنا على «الكاهن سمت» وعلى «سمتخم» القيم الأول على ملابس الإله ومظهره الخارجي، لأنهما كانا آخر من عرفنا من كهنة الآلهة المصرية.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

في العصر اليوناني الروماني

في العهود التي سيطر فيها على مصر الملوك الصاويون ثم الفرس وخصومهم الملوك المصريون، ظهر عنصر جديد في بلاد الشرق، وهو الإغريق. وقد ظهروا جنداً مرتزقة في خدمة أهل الشرق، كما استقرّوا تجاراً وصناعاً في مدنهم، وساعدهم جدّهم وكفايتهم في كل مكان نزلوه على التقدّم. وقد تسرّبوا إلى الشرق في هدوء، وذلك على نحو ما يحتلونه من جديد في أيامنا هذه، مشتغلين بالتجارة والربا على كره من الشرقيين، غير أنهم يتصلون بهم بألف وسيلة من وسائل الاتصال التجاري. وقد سمح لهم في عهد أمازيس بتأسيس مدينة إغريقية في مصر، وهي نقراطس الغنية الآهلة بكافة القبائل الإغريقية؛ وعندما جاء هيرودوت مصر، كان المصريون قد ألفوا تماماً رؤية أمثاله من الضيوف. ولا ينبغي أن يُظن أنهم اكتسبوا حقاً رضاءهم، ذلك لأن الإغريقي العادي كان لا يشعر بأيّ احترام نحو الشعب القديم ولا لبيئته المقدسة. وكانوا، على نحو ما يفعل الأوروبيون اليوم في الصين، يرون لأول وهلة في كل شيء ما يثير الضحك. فقد سموا مقابر الملوك في منف الرغيف[١] لما بدا لهم من شكلها، وأسموا مقابر طيبة الناي؛ أما الأعمدة الحجرية الكبيرة الماثلة أمام المعابد فقد كانت في نظرهم سفافيد؛ وكانت حيوانات النيل الضارية تسمى بما

(١) P. Diels, Ztschr. f. vergl. Sprachwissenschaft 47, 193 ff.

تسمى به العظايا في بلادهم. وقد سموا أقاليم مصر وآثارها بما كان مألوفاً لديهم من الأسماء، وذلك في الغالب لوجود أيّ وجه شبه مع ما لديهم منها، وبهذا تمثلوا كذلك على ضفاف النيل طروادة، وأبيدوس، وبابيلون، واللابرنت، وأبو الهول، وتمثال ممنون. وكانوا يشعرون بأنهم الشعب الممتاز، وهذه الغطرسة الساذجة هي التي ساعدت في الواقع على نجاحهم.

ولما جعلت حملة الإسكندر عام ٣٣٢ من الإغريق سادة للبلاد، لم يكن منها إلا أن أتمت من الناحية السياسية ما كانت روح الإقدام عند الهيللينيين قد أعدته منذ أمد بعيد. ومنذ ذاك أضحوا الفئة المسيطرة في مصر، وغدت الحكومة وجزء من سكان المدن إغريقيا. على أن الغالبية العظمى من الشعب قد ظلوا أوفياء لقوميتهم، أوفياء قبل كل شيء لعقيدتهم الموروثة عن الأجداد، وظلوا هم المصريين الأتقياء كما كانوا من قبل. بل لقد اشتدّ تمسكهم بعقيدتهم أكثر مما كان من قبل. ومع أن هذه العقيدة قد تأثرت على مرّ القرون بالروح الإغريقية، فإنها بقيت في الحقيقة على ما كانت عليه قبلاً، وبدلاً من أن تتقلص وتتقهقر، أخذت تبرز إلى أمام، فقد وجدت الآلهة المصرية لها عباداً كذلك من بين السكان الإغريق مع فارق واحد، وهو أن الإغريق قد تحاشوا بقدر الإمكان استعمال أسمائها البربرية. فعبدوا عن عقيدة بتاح وآمون وحورس وحاتحور و نيت، ولكنهم آثروا تسميتهم هيفستوس وزيوس وأبوللو وأفروديت وأثينا. وأصبح تحوت يُسمى كذلك هرمس بما يتفق وطبيعته، كما كان لا بد لإله القمر خنسو، وهو ابن آمون، أن يسمى تبعاً لذلك هرقل. بيد أن هذه التسميات قد ظلت من غير شك تتعلق بالشكل دون الجوهر، ولم يكن أحد ممن يتعبدون في معبد الكرنك أو في معبد صا الحجر يتصوّر آلهة هذين المعبدين في صورة الأولمبي (زيوس) «وابنته ذات العيون الزرقاء».

وبلد كمصر في ذلك العهد، تحظى الديانة فيه بمركز السيادة، لا يمكن أن يحكم على الدوام، إلا إذا كانت القوّة الزمنية على وفاق مع الزعماء الروحيين للشعب. ولهذا جعل الملوك الإغريق والأباطرة الرومان «السلطة الدينية» تحت

حمايتهم على أن تؤيد من ناحيتها «السلطة الزمنية». وهذه العلاقة التي استمرّت زهاء الخمسمائة عام، قد هيأت للعبادة المصرية خاتمة سعيدة، فقد ظلت باقية في معابدها حتى النهاية يحفها الجلال والعظمة، وظلت الحكومة تحميها حتى في الوقت الذي بدأ فيها أهلها أنفسهم يهجرونها. ولا يعني هذا بطبيعة الحال أن القوّتين، اللتين عرفتا كيف تعيشان معاً، لم يحدث بينهما كفاح خفيّ دائم، فقد كان هناك نزاع بشأن ما يسمى حقّ حماية اللاجئين، إذ كان الكهنة في مصر وكذلك في البلاد الأخرى من العالم المعروف إذ ذاك يعتقدون أنه ليست هناك سلطة في المكان المقدّس لأيّ إله غير سلطة هذا الإله نفسه، ولم يكن للحكومة قول نافذ فيه، فإذا ما التجأ مذنب أو مدين إلى المعبد أصبح تحت حماية الإله. بهذا لم تكن تصل إليه أيدي رجال الإدارة، وذلك طبقاً لوجهة نظر الكهنة على الأقلّ. وكان هذا الحقّ يثير بطبيعة الحال خلافات دائمة، ومع ذلك فلم تكن الحكومة لتجسر على أن تنكره إنكاراً تاماً، وإنما كانت تجتهد في الحدّ منه فقط. وكان الملك يمنح هذا الحقّ بأسلوب صريح معابد معينة، كانت تمارسه في حدود دائرتها الضيقة، أي في نفس بناء المعبد وفي محيطه المباشر. وكانت تقوم على حدود هذه الحكومة الحرّة أساطين كان يمكن أن يقرأ عليها المرسوم الملكي الذي كان يعترف للإله بهذه الحكومة الحرّة[١].

وكان النزاع حول ثروة الآلهة أشدّ من النزاع المستمرّ حول حماية اللاجئين، لأن الحكومات كانت تودّ بداهة أن تسيطر عليها، وأن تكفل في مقابل ذلك للكهنة دخولاً وفق ما تشاء هي. وقد وفق في هذا إلى حدّ ما الملوك الأول الأقوياء في البيت البطلمي، فقد خفّضوا الضرائب والعوائد التي كانت المعابد تتسلمها، واحتفظوا لأنفسهم بحقّ التصرّف النهائي في ممتلكاتها العقارية، بحيث أضحى الكهنة في واقع الأمر تحت رحمة الحاكم[٢]. غير أن قوّة الكهنة وثروتهم

---

(١) انظر ما كتب بإسهاب في: Schubart, Aegypten, S. 301 ff.

(٢) Schubart, Papyruskunde, S. 346, 347.

فيما أعقب ذلك من اضطرابات قد طفقت تنمو من جديد، حتى قضى أغسطس على هذه الدولة التي في داخل الدولة، وبهذا لم يكن الكهنة في ظلّ الإمبراطورية الرومانية سوى موظفين تحميهم الحكومة، وكان كبار رجال الدين دون البيروقراطية الرومانية. ولكننا ـ تارة أخرى ـ لا نجد أثراً صريحاً لهذه المنازعات إلا في الأوراق البردية الإغريقية، أما الآثار الرسمية فإنها تبهجنا بما تدلّ عليه من ولاء للكهنة وشعور التقوى عند الملوك.

أجل لقد عُبد الملوك الإغريق مع الآلهة المصرية، فقد غدا الإسكندر الأكبر الإله الرسمي للمملكة، كما مُجدّة كآلهة الخلفاء اللاحقون من الملوك والملكات والأباطرة الرومان ـ على أن هؤلاء الملوك لم يكونوا بطبيعة الحال آلهة للأفراد من الشعب ـ وإنما كانوا آلهة الحكومة، وربما كان أهمّ شيء في هذا كله هو أنه قد غدا في إمكان الكهنة أن يضيفوا إلى سائر ألقابهم الأخرى لقب كهنة «الآلهة المحبة لأخواتها» أو كهنة «الآلهة الخيرة»[١].

ولم تعوز الملوك المناسبات التي يدللون فيها على حسن شعورهم نحو المعابد. فقد عثر البطالمة الثلاثة الأوائل في حملاتهم الآسيوية على تماثيل الآلهة وأدوات المعابد والكتب التي اغتصبت من المعابد في العهد الفارسي، وقد أبهجهم أنهم استطاعوا «أن يعيدوها إلى المعابد التي سلبت منها»[٢]. وكان للمعابد ادعاءات قديمة على قطع من الأرض، فقامت تطالب بها. فقد أهدى مثلاً الملك خبّاش، أحد الملوك المناهضين للحكم الفارسي في مصر، لمعبد بوتو منطقة كاملة قريبة منه. ولكن اكسركسيس، بعد أن غلبه على أمره، ألغى هبة

(١) عدا هذا لقد كان لعبادة الملوك هذه ناحيتها العملية أيضاً ولكن لمصلحة الملوك أنفسهم. فقد كانوا يستطيعون أن يبرروا استيلاءهم في بعض الأحيان على ثروة المعابد، إذ كانت من الثروات التي لهم فيها كالهة نصيب.

(٢) Kanopus 10: 5; Pithomstele Ae. Z. 32, 74 ff. كان من الأفكار الثابتة في مصر في العهد المتأخر أن البرابرة يسرقون الكتب ؛ انظر Nesiamsu 109 حيث صبت اللعنة على الزنوج والأثيوبيين والسوريين الذين يفعلون ذلك.

هذا الثائر. وقد انتقمت آلهة بوتو من اكسركسيس وهيأت له ولابنه خاتمة مشينة، ولكنها لم تعوَّض أبداً عما سلبه منها عندما أبطل هبة خبّاش. ففرض كهنة بوتو أمرهم على أول البطالمة، وقد وجد هذا الإغريقي الماهر أن من المفيد أن يجيب رجاءهم.

ومما خلفه الملوك المناهضون للحكم الفارسي كذلك من واجبات أخرى من هذا القبيل إتمام المعابد التي بدأوا بناءها ولم يتموها. فقد شيد نخت حرحب (نقطانب الأول) مبنى ضخماً من الجرانيت في بهبيت في الدلتا لإيزيس، ولكنه لم يتمه، فتعهده بطليموس الثاني وأتمه. وإذا كان الملوك قد ساعدوا أحد الآلهة على هذا النحو، فهل كان لهم أن يغضوا النظر عن رغبات آله آخر لم تكن مكانته تقلّ عنه، وكانت مقصورته في حاجة سريعة إلى بناء جديد؟ وهكذا ابتدأ ببداية العصر البطلمي عهد جديد عظيم في بناء المعابد امتدّ حتى العصر الروماني، ولا تزال منشآته العظيمة تطالعنا اليوم في كل مكان في مصر. فمن بين ما أنشىء في عهود الحكام الإغريق والرومان نكتفي بذكر معابد دندرة وإدفو وكوم امبو وفيلة، وإن كان إنشاؤها قد استغرق أزماناً طوالاً. فمعبد إدفو بني في فترات متقطعة في الفترة من ٢٣٦ إلى ٥٧ قبل الميلاد؛ واستغرق بناء كل من معبدي دندرة وكوم امبو حوالي قرن من الزمان؛ وابتدأ العمل في معبد فيلة في عهد بطليموس الثاني، وكانت بعض الأعمال لا تزال تجري فيه في عهد ماركس أورليوس. وفي عهد الإمبراطور دكيوس كان البناء لا يزال يجري في معبد إسنا. ومن الطبيعي أن بعض ما كان يلزم من أموال للبناء كان من الخزائن الملكية، على أنه من الثابت كذلك أنه كثيراً ما كانت الإنشاءات، التي يُبدأ بها بفضل هبة ملكية، يستمرّ العمل فيها على حساب موارد المعبد الخاصة[1]. ولكن إذا كان

(١) وكانت الجمعيات الخاصة التقية تساهم كذلك في بعض الأحيان في بناء المعابد، ومن أمثلة ذلك جمعية حاتحور في إدفو، وجمعية حارسمتوس في دندره - وكلاهما في عهد أغسطس.

(Spiegelberg Ae. Z. 50, 36 ff.)

قد أمكن استخدام ثروة الإله لهذا الغرض، فقد كان الفضل في ذلك للملك. ولهذا كان الأمر أكثر من مجرّد صيغة عندما كان الملوك الإغريق والأباطرة الرومان يُذكرون كبناة للمعابد، وعندما كانوا يمثلون فيها كمتعبدين بررة، يقدّمون القربان متضرّعين عابدين. وسواء كانوا لا يعبأون شخصياً بالتمساح، إله أمبوس، أو بإلهة دندرة ذات قرني البقرة، أو كانوا يعتبرونهما من الخرْق، فقد كانوا مع ذلك هم الذين يعملون على أن يظلّ هذان الإلهان في بهاء وعظمة.

ويتيح لنا النظر في هذه العلاقة بين الحاكم ورجال الدين نصب كبير أقامه كهنة مدينة منديس بالدلتا تكريماً لبطليموس الثاني. فهم يمدحونه بأنه زار معبدهم عقب توليه العرش مباشرة، وبهذا كان كبشهم أوّل حيوان مقدّس مجدّه جلالته. وقد سيَّر سفينة هذه الإله على المياه الخاصة بمعبده «كما فعل الملوك من قبله، وأدّى له جميع مناسك الزيارة، كما هي مسجلة كتابة». وقد رأى في نفس الوقت أن العمل يجري لإصلاح الأضرار «التي كـان البرابرة العجزة قد ألحقوها به»، فأمر في الحال أن يكمل بناء المعبد. «ثم عاد جلالته إلى مقرّ ملكة يملؤه الحبور بما أسلف من عمل لآبائه، كباش منديس العظام الأحياء». وإذ توفيت الملكة أرسينوى في السنة الخامسة عشرة من حكمه، وقد كانت أيضاً كاهنة الكبش المقدّس، أقيمت لها في منديس حفلة جنازية، فيها «هلل الإنسان وأيقظت روحها للحياة إلى جانب الكباش الأحياء، كما يحدث لأرواح كافة الآلهة والآلهات منذ البداية حتى اليوم الحاضر»؛ وذلك لأن منديس «هي مدينتهم التي يستعيدون فيها شبابهم. وقد أمر جلالته بإقامة تمثال لها في سائر المعابد، مما أرضى كهنتها». أما في منديس فقد أخرج تمثالها مع الكباش المقدسة في حفل، وسمي «أرسينوى فيلادلفوس حبيبة الكبش». وقد مُنح معبد منديس كذلك مننا حقيقية، فأعفيت مقاطعة منديس من ضريبة المعابر التي كانت تجبى في كل مكان آخر في البلاد، وذلك لأن الكهنة «قالوا لجلالته، إنهم لم يدفعوا ضريبة حتى ذلك الوقت، وأن كل ما يدخل مدينتهم أو يخرج منها إنما يخصّ إلههم»، وأن رع إنما خلق البلاد لتموين إلههم. وإذ كان واجباً في أيّ مكان آخر توريد جزء من حملة موارد المقاطعة إلى خزانة الملك، فقد سمح

الملك بألا يحصّل هذا الجزء من مقاطعة منديس، إذ ادّعى أن تحوت نفسه أصدر مرسوماً لملوك المستقبل، بأن يعملوا على توفير القرابين «للكبش الحيّ»، «فإذا ما أنقص من هذه القرابين فستنشأ بين الناس مصائب لا آخر لها».



١٥٢ ـ بطليموس فيلادلفوس وأرسينوس وأحد الأمراء يتعبدون كبش منديس (نصب منديس)

وفي السنة الحادية والعشرين من حكمه تمّ بناء المعبد، وقد احتفلت البلاد بأكملها بتدشينه، وأناب الملك ابنه عنه في هذا الحفل. وبعد الاحتفال سار الكهنة من وراء رجال البلاد إلى مقرّ الملك يحملون باقات الورود والدهون ليدخلوا السرور على قلب الملك؛ «فتضمخ جلالته بالمرّ»، وتشبعت ملابسه بالعطر، «وأمر جلالته بأن يحمل بعضه إلى القصر، وحذا حذوه كافة الأمراء». وأخيراً جدّ في عهد هذا الملك حادث آخر سعيد من أجل منديس: فقد اهتُدي إلى كبش مقدّس جديد. وقد أُعلن هذا الخبر للملك، ليستدعي جماعة الحكماء لفحصه؛ فاستدعاها من كافة معابد مصر، ونظرت إلى الكبش ووجدت أن شكله يطابق ما ورد في الكتابات القديمة، وقد لقب: «روح أوزيريس الحية»، وذلك كما جرت العادة منذ عهد الأجداد. ولما أخطر الملك بهذا، أمر بأن يوضع الكبش الجديد على عرشه، وأن يقام احتفال عظيم «لملك حيوانات مصر»، حظي فيه تمثال أرسينوى بشرف مصاحبة تمثال الكبش.

وبينما تشيد النصب التي من هذا النوع بما قام به الملوك للآلهة من أعمال، فإن هناك نصباً أخرى تبين لنا كيف كان الكهنة يصوغون شكرهم. ففي مناسبات

خاصة كان الكهنوت أجمع يجتمعون في مصر في مجمع حافل في أحد المعابد، ويقرّرون ما يودّون أن يخصوا به الملوك من تكريم غير عادي. هذا إلى جانب ما كانوا يولونهم من شرف عظيم: فقد كانوا يعترفون بهم في حياتهم آلهة، أو بعبارة أخرى «آلهة محبة لإخوتها» أو «آلهة تعمل الخير»، على نحو ما كانت تقتضيه عادة البلاط الهيليني. فمثلاً عندما كان الكهنة في الإسكندرية عام ٢٣٨ ق. م. بمناسبة عيد ميلاد الملك، فقد اجتمعوا في كانوب، المدينة المجاورة، للنظر في جملة ما قدمه «الإلهان المحسنان»، بطليموس الثالث وزوجته، من أعمال للمعابد. «فهما قد أحسنا للمعابد في البلاد، وزادا كثيراً في إجلال الآلهة، وأوليا أبيس ومنيفس وسائر الحيوانات المقدسة الجليلة (على أن منها كذلك حيوانات غير جليلة) اهتمامهما بكل وسيلة، وفي إسراف وبذخ كبير». وقد استرجع الملك في حملاته الحربية «التماثيل المقدسة، التي اغتصبها الفرس»، وردّها إلى المعابد. وأخيراً لقد وفر لسكان البلاد السلام، ووقاهم العوز في سغب المجاعة. ولهذا كان ينبغي أن تزاد مظاهر تكريم الملوك في المعابد، «وينبغي كذلك أن يسمى كهنة كافة معابد البلاد «كهنة الإلهين المحسنين»، وأن يسجل ذلك هكذا في سائر الكتابات، وأن ينقش على الأختام التي يحملونها أنهم «كهنة الإلهين المحسنين». ويجب أيضاً أن يضاف إلى الطوائف الأربعة، التي يتألف منها الكهنوت المصري وفق التقاليدالقديمة، طائفة خامسة من كافة الأشخاص الذين أصبحوا كهنة في عهد هذا الملك ومن أعقابهم، كما ينبغي أن تسمى هذه الطائفة باسم «الإلهين المحسنين». وإلى الأعياد الشهرية الثلاثة، التي قرّرت من قبل للإلهين المحسنين، ينبغي أن يضاف عيد كبير في كل سنة يحتفل به في المعابد وفي البلاد كافة، وذلك في رأس السنة من السنة القديمة. ولكي تقع دائماً في هذا اليوم من التقويم الأعياد الأخرى كما في هذه السنة التي تقرّر فيها هذا العيد، ينبغي أن يعدل التقويم ويجعل ثابتاً. ولما كانت الأميرة برنيكي الصغيرة قد توفيت أثناء هذا المؤتمر، فينبغي أن يقام لهذه الإلهة الجديدة تمثال في معبد كانوب إلى جانب تمثال أوزيريس. وإذ كانت قد توفيت في شهر طوبة، وهو نفس الشهر الذي فارقت فيه

ابنة رع الحياة (صفحة ١٠٧)، والذي كان يحتفل لها فيه في معظم المعابد بموكب كبير، فإنه ينبغي أن تكرم برنيكي كذلك، على نحو تكريم هذه الإلهة، بموكب حافل في جملة المعابد في طوبة. وينبغي أن يكون لها تمثال من الذهب مرصع بالأحجار في المعابد الكبيرة، وأن يطاف به في الأعياد مع سائر تماثيل الآلهة؛ وينبغي أن يكون لها تاج من نبلتين وحبة وساق بردى تلتف من حوله أفعى. وينبغي أن تقدم بنات الكهنة وغيرهنّ من الفتيات القرابين لتمثال آخر لبرنيكي في عيد أوزيريس في شهر كيهك؛ وينبغي أن تنظم لعيدها الأناشيد وتسجل في الكتب المقدسة. وينبغي أن يخلد هذا كله وكثير غيره في كتابة من ثلاثة خطوط باللغة القديمة، واللغة الشعبية، والإغريقية. ولنا أن نتساءل عما كان يجول بخاطر الملك الإغريقي من أفكار، وهو يتقبل مثل هذا القرار من أيدي الكهنة شاكراً، وعما كان يعتور العناصر المؤمنة من رجال الكهنوت من مشاعر وهم يتفكرون في أن هذين «الإلهين المحسنين» ورجالهما العظماء ليسوا إلا من كانوا يُدعون من قبل «البرابرة البائسين». حقاً لقد كانت حالة غير طبيعية أن يبدو أكثر حكام ذلك الوقت استنارة أصدقاء للكباش والثيران المقدسة، وأن تكرم أقدم هيئة دينية في العالم ملوك شعب أجنبي أكثر مما كرّمت الملوك الوطنيين. لقد تنازل كلا الفريقين عن كثير من آرائهما، ولكن كان لكل منهما ما يفيده من ذلك.

وكانت السلطة، التي حظي بها الكهنة لدى الشعب، تعتمد في جوهرها على أنهم كانوا يُعتبرون حماة الأشياء المقدسة القديمة. ولهذا لم يكن لهم أن يسمحوا بإدخال أيّ تغيير، وخاصة على المظاهر الشكلية للديانة بنوع خاصّ، وهي التي كان الشعب يراها؛ وإذا كان العهد الجديد قد أشاع في مصر الطراز الإغريقي للبناء، فما كان ينبغي لهذا الطراز أن يجد سبيله إلى ما يستجدّ من عمارة المعابد. وقد ظلّ الكهنة يشيدون المعابد على نحو ما تصوّروا من تخطيطها في الزمن السحيق، فكان يجب «أن يكون ارتفاعها جميلاً، وعرضها صحيحاً، وأن تقدر في مجموعها على أساس صحيح من جهاتها الأربع طبقاً

لحكمة تحوت، ووفقاً لما هو ثابت في الكتابات المقدسة»[١]. وقد أنشيء معبد دندرة وفق تخطيط من عهد خوفو، وجاء أن امحوتب المؤله (صفحة ٢٧٨) هو الذي خطط بنفسه معبد إدفو. على أن هذه المباني الجديدة تتميز عن المعابد القديمة حقاً بأنا بنيت بأكملها وفق فكرة واحدة، على حين تتمثل عادة في المعابد القديمة تصميمات قرون مختلفة. وهذا الفارق هو نفسه الذي يميز في الوقت الحاض بين كاتدرائية حديثة عن أخرى من العصور الوسطى. ويمكن من الناحية الفنية أن يجد المرء هنا كما يجد هناك نفس العيوب في المباني التقليدية الحديثة، وهي المغالاة في الأشكال والزخارف الباهظة.

أما المناظر التي تزين الجدران، فهي في موضوعاتها نفس مناظر المعابد القديمة، فهنا على نحو ما هناك، نرى الملك يقدّم للإله النبيذ والجعة والخبز، أو يذبح له الأضحية، أو يحمل إليه من الهدايا ناووساً، وحلياً وشخاليل وغير ذلك. ولكن المناظر هنا أكثر استطالة وتنوّعاً منها في المعابد القديمة. ومن خلف الملك تقف آلهة أخرى، وتصاحب المناظر نصوص ضمنت طرائف شتى ينبغي ألا تهمد. من ذلك مثلاً أن الملك عندما يقدّم تقدمة من قلائد أو مرايا أوو «شخاليل»، فـإن النص ينعته بأنه «ابن» أو «وارث الإله بتاح»؛ وذلك لأن هذا الإله هو الفنان بين الآلهة، وهو الذي يعرف كيف يصنع الأشياء الجميلة بما يشبه ما يقدّمه الملك. وإذا قدم الملك جعة، فإنه يفعل هذا باعتباره «ابن منكت»، إلهة الجعة.

وهذه إنما هي كنايات دقيقة، كان يعجب بها كهنة هذه المعابد. ولم تكن هذه الكنايات تنسى عند ذبح الأضاحي، فجزّار المعبد يسمى «الشجاع ذو السكاكين الكثيرة. . . العظيم في المذبحة، البطل المغوار بين الأشرار»[٢]، كأنه كان محارباً فتاكاً وسط الأعداء، في حين أن هؤلاء الأعداء إنما هم في حقيقة الأمر تلك الحيوانات الوديعة التي يطعنها ويقطع أوصالها.

---

(١) Duemichen, Resultate 38 - 41.

(٢) Mariette, Denderah II, 16.

بيد أن هناك ما هو أهمّ من هذه الكنايات. حقاً إن من يجيل بصره في كتابات أحد معابد الدولة الحديثة، وليكن أبيدوس، وينظر بدقة في جملة المناظر، فإنه لن يستخلص من هذا كله سوى الطفيف جداً من الحقائق الواقعية، وهي: أسماء ما يعبد من الآلهة، وبعض الشعائر، وقائمة بالقرابين، ثم في أحسن الظروف، نصّ أحد الطقوس. أما ما عدا هذا مما كان يجري في المعابد ولا بد أن كانت تجري في مثل هذه المنشآت أشياء كثيرة، فقد حجب عنا، أو بالأحرى لم يذكر لأنه كان يعتبر شيئاً واضحاً أو غير ذي بال. أما في هذا العهد المتأخر فقد كان الأمر مختلفاً، إذ لم يعد هذا العهد يتبين كيف يجهَّز البخور للإله. وذلك لأن أحداً من تجار التوابل خارج المنطقة المقدسة لم يعد يجهزه ـ بالتأكيد ـ على النحو المطلوب. وإذ كانت الأعداء تسمى في المعبد «الأقواس التسعة»، فقد كان يجب أن يتعلم الإنسان أولاً أيّ الشعوب المقصودة، وذلك لأن أحداً لم يكن يتحدّث إلا عن الإغريق والرومان والسوريين والفرس في ذلك العالم. وكان يجب أن يتعلم المرء أيّ الكتب تودع في المكتبة، وأيّ تماثيل الآلهة يمتلكها المعبد، وكيف تسمى الساعات والأيام وفق العادات القديمة، وأيّ الأحداث في زمن الآلهة أعطى اسمه لما في داخل المعبد وخارجه من أشياء. وكان يجب كذلك أن تعرف جميع الأعياد الكبرى وكافة تفاصيل العبادة، ومتى يصعد المرء هذا الدرج، ومن يجتاز ذلك الباب، وفي أيّ المواضع ينبغي أن يقف الموكب؛ كما كان يجب أن يعرف أيضاً جميع ما ينشد من أغانٍ وما يتلى من صيغ. ولعلّ هذا كله كان مما لا يؤبه له في البداية، غير أن القرون أضفت عليه قداسة كبيرة، حتى إنه لم يعد ينبغي لأخلاف الكهنوت أن يحيدوا عنه حتى في أبسط الأشياء. ولم يكن يكفي أن يعهد به إلى قرطاس هش من البردى، وإنما كان لا بد أن ينقش في الحجر ليبقى إلى آخر الدهر. ولهذا تغطى جدران المعابد البطلمية نصوص تنبئنا بكل ما كان الكهنة أنفسهم يعرفون، مما يتصل بالمسائل المقدسة أو المسائل العملية، سواء كان من الأمور الهامة، أو مما ليس بذي بال، مما يؤلف مكتبة منقوشة بكل ما يتعلق المعبد. ولم يكن الكهنة ليخشوا أن يقرأ العلمانيون هذه الأسرار العظيمة، ذلك أنهم استبدلوا

بالهيروغليفية القديمة نوعاً جديداً من الكتابة تحكموا فيها وفق هواهم، حتى إنه كان لا يمكن أن يقرأها إلا من درّب عليها. وفضلاً عن ذلك لم يكن أحد غيرهم يستطيع أن يفهم اللغة التي كانوا بها يكتبون حقّ فهمها، وذلك لأنهم هذّبوا لغة الكتابة القديمة التي كانت لآبائهم، بما يدلّ على سعة اطلاع لا حدّ له. فقد جمعوا تعبيراتهم من آداب ثلاثة آلاف سنة، وكانوا في كتاباتهم كفيلين باستخدام هذه التعبيرات التي لم يعد أحد يعرفها. وإنه لمن الممتع أنهم كانوا يكتبون نصاً واحداً عشر مرّات جنباً إلى جنب، مستخدمين في ذلك تعبيرات مختلفة في كل مرّة. وتتجلى سعة الاطلاع هذه في شيء آخر اشتقوه من كتابات أجدادهم. فقد كان يقال مثلاً عن حاتحور «إنها تملأ القصر جمالاً»[١]، وذلك تعبير جميل من غير شكّ، غير أنه للأسف لا يتفق مع هذه الإلهة بنوع خاصّ، وإنما يتفق مع الملكة على الأرض التي تعيش في القصر. وكذلك أصبحت تستخدم كافة التعبيرات التي كان يشاد بها بأعمال الملك وبأسه. ففي إدفو ودندرة نقرأ أن الأعداء جميعاً قد أسلموا القياد، وأن الشعوب كافة تحمل ذخائرها إلى الملك، وأن البرابرة بأسرهم تحت قدميه. غير أن الملك الذي يشاد به على هذا النحو هو في بعض الأحيان حاكم إغريقي أو روماني، ممن لا ينطبق عليه هذا إلا قليلاً. أما إله المعبد، فهو عادة الذي تلقى إرث الفراعنة القدامى.

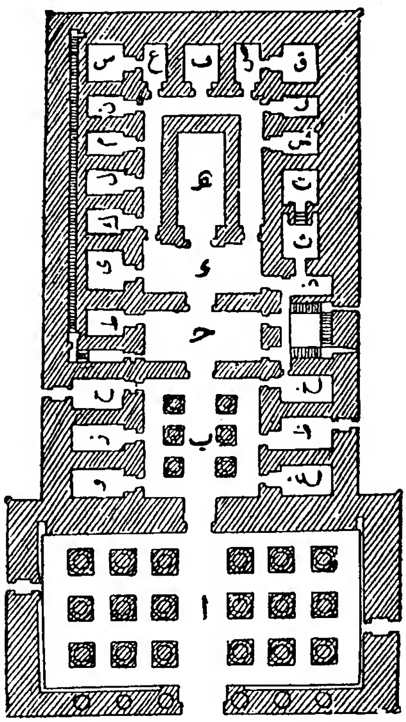
أما كيف كان يخطط أحد هذه المعابد، فخليق أن يشرح ذلك معبد دندرة للإلهة حاتحور «العظيمة، سيدة دندرة، عين الشمس، سيدة السماء، سيدة الآلهة كافة، إبنة رع، التي لا شبيه لها». وقد كانت آلهة فرحة جذلانة، فهي «ربة الابتهاج، وسيدة الرقص، وربة الموسيقى، وسيدة الغناء، وربة الوثب، وسيدة ضفر التيجان»[٢]. وكان الشعب بأسره يحبها ووليدها الصغير، إيحي «ملك الأطفال»[٣]. وعندما كان تمثالها ينقل إلى المعبد، كان الشبان يغنون «عند زوايا

(١) Mar. Denderah II, 74 b.

(٢) نفس المرجع ٤٥، ٤.

(٣) Mammisi d'Edfou. 87.

الطرق، وأيديهم مليئة بالأزهار، يمهدون لها السبيل»[١]. ولم يتمّ بناء معبدها الذي كان يوصف بأنه «مقرّ النشوة»، ومكان «الحياة الراضية» وغير ذلك من نعوت لا تحصى، فهو ينقصه صرح المدخل والفناء الكبير؛ وكان يقوم مقام هذا الأخير ميدان طليق أمام المعبد، كانت الجماهير تتجمع فيه في الأعياد الكبيرة. أما ضيوف الأعياد الممتازون من أصحاب الحظوة فكان مكانهم في البهو الأمامي الكبير (افي التخطيط المجاور) الذي يبدأ به المعبد الآن، والذي يقوم فيه أربعة وعشرون أسطوناً يتوجها وجه حاتحور تبتسم لنا[٢].



١٥٣ ـ تخطيط معبد دندرة

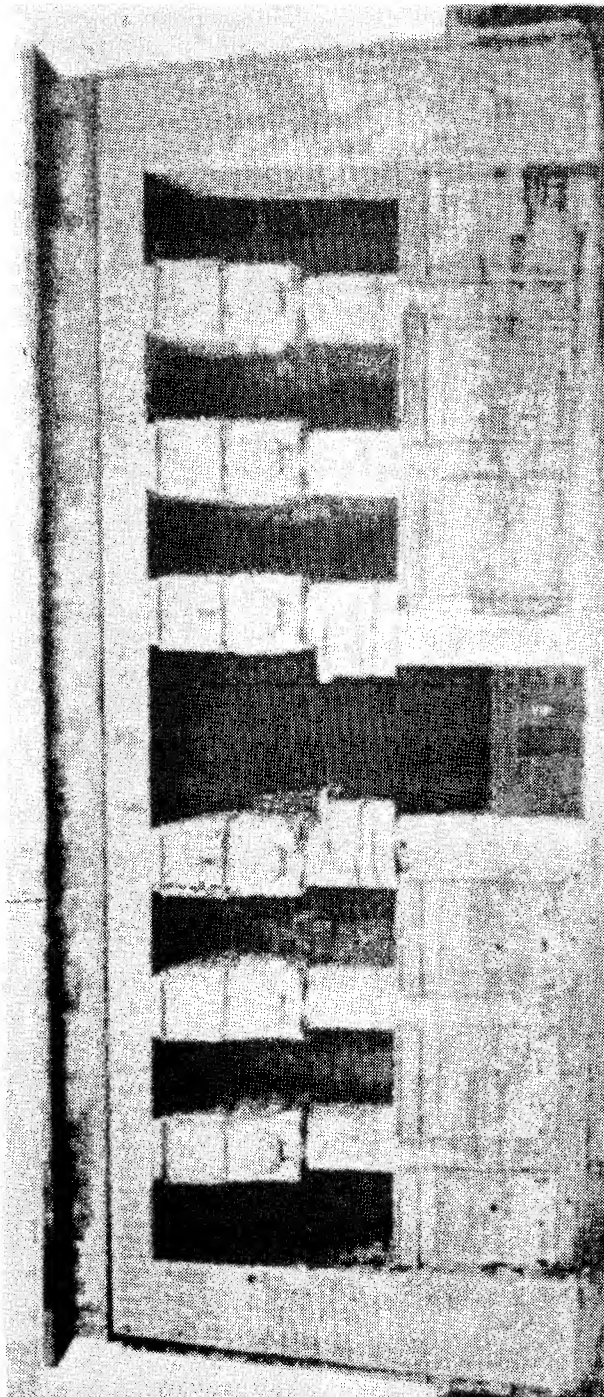
وإذا كان البهو الأمامي معبداً لأوساط الناس، فإننا في البهو الكبير التالي

---

(١) Duem. Baugesch. 39.

(٢) كل ما يلي هو وفق ما تفضل فأخبرني به هـ. يونكر.

(ب)، «بهو التجلي»، ندخل قاعات العبادة الحقيقية. ففيه كانت مواكب «الأعياد الجميلة تأخذ مكانها، على حين كانت القاعة التالية (جـ) «مقصورة القربان» لمثل تلك الأيام، حيث كان «الإله يقاد إلى أقواته». ويؤدي بنا الباب التالي إلى القاعة الوسطى (د)؛ وكانت بمثابة ردهة تبدأ منها المواكب، وهو ما تدلناعليه المناظر والمتون على جدرانها، وفيها نرى حملة الألوية، الذين يقدّمون الآلهة عندما تغادر مسكنها في الأعياد. ومقصورة الأعياد هذه (هـ)، أو «الكرسي العظيم»، هي قاعة مظلمة محاطة بجدار، تتسع للنواويس، وما يمكن حمله من زوارق الآلهة المختلفة، والكاهن الذي يؤدي قبالتها مراسم الطقوس، على نحو ما تصوّره المناظر على الجدران. ومن خلف هذه القاعة يقع قدس الأقداس الحقيقي (ف)، الذي كان يضمّ التمثال الرئيسي لحاتحور، الذي كانت تقدّم له فروض العبادة في كل يوم؛ وكان يحمل اسم «البيت العظيم». وهو إحدى غرفات صفّ طويل من الغرف تحفّ بالقاعات الداخلية للمعبد من جانبيها. فعلى يسار «بهو التجلي» الغرفة المعدة لطبخ الدهون والعطور (و) وغرفة الزهور (ز)، والغرفة التي كان يجلب إليها القربان بعد أن تكون حاتحور قد تمتعت به (ح)؛ وفيها باب يؤدي إلى خارجها، ولعله كان يصل بينها وبين أهراء الغلال الواقعة من ورائها. وإلى اليمين بضعة غرف منها خزانة المعبد (غ)؛ وغرفة الماء (ظ)، التي كان يؤدي بابها الخارجي إلى البئر. وكانت الغرفة (ط) على صلة على نحو ما بقرابين «مقصورة القربان» الواقعة بجانبها، بينما كانت توضع في الغرفة (ي) ملابس الآلهة والدهون اللازمة لزينتها. أما غرف الجزء الخلفي من المعبد فأغلبها أماكن مقدسة. فالغرفة (ل) هي المكان الذي ولدت فيه الإلهة من أمها؛ ولهذا تمثل مناظر جدرانها الملك وهو يقدّم لحاتحور العطايا التي يحتاج إليها طفل إلهي، وهي لبن وكتاب. والحجرتان (م. ن) هما مقصورتان أوزيريس سوكاريس وحورس موحد القطرين»، والغرفة (ق) هي مقرّ رع. أما الغرفتان المجاورتان لقدس الأقداس الثاني فهما تابعتان له، ففي (ع) كان يطهر تمثال الإله بالماء، وفي (ص)، وفي «بيت النار»، كان يحرق البخور والقربان. وبالقرب منهما الغرفتان (س، ر)، وكانت تحفظ فيهما آلات الموسيقى اللازمة للعبادة من



ردهة معبد دندرة

شخاليل وعقود كبيرة، كان يصلصل بها في الرقص. وأخيراً تبدو الغرفة (ت، ث، ذ) كأنها تؤلف هيكلاً خاصاً. إذ كانت المكان الذي يحتفل فيه بالأعياد الكبرى بمناسبة تغيير السنة، فكان يحتفل فيها بما يسمى «يوم الطفل» في العش، وهو اليوم الذي ولدت فيه حاتحور، وبالسنة الجديدة وبأعياد أخرى كثيرة. وهي تتكوّن من معبد صغير مرتفع، كانت الإلهة تجلس فيه على العرش وتدثّر وتدهن، ومن فناء كانت تقدّم لها فيه القرابين، ثم من غرفة أمامية، كانت تحفظ فيها الأشياء الثمينة اللازمة لهذا العيد.

وللمعبد درجان يؤدّيان إلى سطحه، أحدهما طويل وكان يستخدم في مواكب الأعياد للصعود بتمثال الإلهة إلى السطح في احتفال بهيج. وكان على السطح نفسه معبد خاصّ صغير لأوزيريس، لم يكن يصحّ أن يخلو من مثله معبد كبير في ذلك العصر، وذلك لأن إلهه قد أصبح منذ زمن بعيد أقرب الآلهة جميعاً إلى قلوب المصريين. وفي هذا المكان، كان يجري أداء ما يسمى بالأسرار الخفية، الي سنتناولها بالكلام فيما بعد؛ وليس من شك في أن هذه الغرف التي نطؤها بأقدامنا الدنسة فوق سطح المعبد، كانت تحوطها بغير شكّ أعمق الأسرار. ومع هذا فهناك أماكن أخرى يمكننا أن ندخلها في الوقت الحاضر، وقد كانت أشدّ خفاء وغموضاً. فجدران المعبد القوية تخفي في باطنها دهاليز سرية ضيقة، لم يكن يتيسر لأحد أن يتوهم وجودها في الخارج؛ في هذه الأماكن الخفية «التي لا يعرف أجنبيّ محتوياتها، والتي تخفي أبوابها»[١]، كانت تودع تماثيل الآلهة والأدوات المقدسة، التي لم يكن يحتاج إليها في العبادة. ولعلّ النذور الوافرة قد وجدت فيها مكاناً أيضاً، تلك النذور التي كان الأتقياء يهبونها للمعبد، والتي كان من المستحيل إقامتها فيه جميعاً. أما إذا كان هناك عدد أكثر من اللازم من هذه التماثيل البرنزية الصغيرة، فقد كانت تدفن ببساطة

---

(١) Duemichen, Resultate 36.

في مكان ما في أرض المعبد المقدسة[١].

وهكذا كانت هذه المعابد تسمو بزينتها الوافرة وسط الأزقة الملتوية للمدن المصرية، تعلن للجمهور، الذي كانت مواكبه تزدحم في الخارج، أنه وإن كانت الأزمنة تروح وتغدو، فإن شيئاً مّا لم يتغير على هذه الأرض المقدسة. فعلى نحو ما كان يحدث دائماً كان الكهنة يؤدون طقوسهم اليومية في قدس الأقداس، وفي الأعياد الخاصة ببعض الأيام. أما كيف كانت تجري مثل هذه الأعياد والاحتفالات، وما هي الأغاني التي كات تنشد ويردّد صداها المعبد، فلعلّ في الأمثلة التالية ما يوضح ذلك، وهي بضعة أمثلة قليلة من ذلكم العدد الوافر الذي نعرفه من نصوص المعابد.

ففي يوم رأس السنة كان الكهنة يتجهون ومعهم ناووس تمثال الإله إلى الدرج الذي يؤدي إلى السطح، فيرقونه في حفل بهيج. وفوق السطح كانوا يضعون الناووس في معبد غير مكشوف، ثم يفتحونه ليستطيع الإله أن «يبصر الشمس». وكانت هذه العادة تجري في دندرة وإدفو[٢]، وفي معابد أخرى كذلك بطبيعة الحال، وهي تعني في ذلك الوقت بالتأكيد أن الإله «يقابل أباه»؛ فهو يحييه في بداية العام، حينما كان الناس يحيون بعضهم بعضاً. على أن هذه الشعيرة قد تكون في الأصل شيئاً آخر، إذ يبدو أنها تنطوي على فكرة تتصل بالعقائد الجنازية نقلت إلى الآلهة. أجل لقد كانت أمنية الموتى دائماً أن يخرجوا بالنهار من ظلماتهم وأن «يبصروا الشمس»؛ ولهذا فمن الجائر أن تكون هذه الأمنية وجدت سبيلها كذلك إلى الآلهة، وقد رأينا في الفصل الخامس عشر كيف تطرّقت التصوّرات والطقوس المتصلة بعالم الموتى إلى المعابد.

وفي يوم آخر كان يحتفل بعيد نصر الإله، الذي قهر أعداءه، ثم استوى

---

(١) وذلك على نحو ما جرى في السرابيوم في منف، حيث وضعت آلاف التماثيل البرنزية تحت بلاط الطريق (Wilcken, Urk, I, 10).

(٢) Mar. Dend, IV, 3 = Duem., Kal. Inschr. 76; Edfu I, 563.

على عرشه. وكان يقدّم إليه إكليل النصر وتضرب مغنيات المعبد على الدفوف ويغنين: أقبلوا في ابتهاج يا آلهة البلاد! أقبلوا مهللين، أيها البشر ويأيها الشعب! أقبلوا مسبحين بقلوب جذلة! لقد استحوذ حورس على عرشه. . . ؛ وسيعمر ما كان قفراً؛ وسيسبغ البهجة على القلوب الحزينة، وسينجي البشر جميعاً.

أجل أبصروا حورس، وعلى رأسه تاجه. . . إنه يحثّ الخطى وإنه لحرّ طليق في هذه البلاد، وتاسوع الآلهة يقبل الأرض بين يديه. . . أنظروا إلى حورس أيها الآلهة ويأيها البشر، وابتهجوا لتاجه. . . ، لقد حطم رؤوس أعدائه.

(أجل انظروا إلى حورس، أيها الآلهة) وأيها البشر، وأبصروا كيف يعصف في هجومه وكيف ينتصر. . . إنه كالنار إبان العاصفة، إذا ما اجتاحت الأدغال. . . لا تبقي على شيء مماتلتهم. يأيها الآلهة ويأيها البشر مجدوا تاجه إذا جاء مهللاً وقد قضى على الذعر. . . إنه كأسد سريع الجري، إنه يلتهم الأعداء. إنه كطير كاسر إذا انقضّ على خصومه؛ إنه ينتزع قلوب الأشرار. إنه كثور إذا طعن من يهاجم؛ إنه يقضي على من يحاربه.

ويمضي النشيد على هذا النحو؛ وينبغي أن تفرح كذلك الآلهة والبشر لجماله وطيبة قلبه «فلتبتهجوا له ولتفرحوا أيها الرعايا يا من تكونون عبيده. . . إنه الملك وحياته باقية إلى الأبد»(١).

ومن نافلة القول أن أذكر أن هذا النشيد الجميل لم ينظم في العهد الإغريقي، وأنه لم يكن أصلاً مما ينشد في أعياد الآلهة في المعبد، إنما هو أنشودة النصر لأحد ملوك الدولة الحديثة(٢)، وأنه لم يغير فيه إلا قليلاً عندما استخدم نشيداً للآلهة.

---

(١) Edfu, ed. Rochem I, 442, 1 ff.

(٢) ويتجلى هذا من نغمته ولغته. وفيما عدا هذا فإن استخدام الأناشيد الملكية في مديح الآلهة لم يكن من ابتداع العهد الإغريقي فحسب، انظر ما سبق صفحة ١٥٠.

ومع هذا فإن الأناشيد الجيدة نادرة، إذ أغلب الأناشيد إنما يتألف من مدائح ظلت تعاد منذ آلاف السنين، فإذا هي قد غدت أشبه ما تكون بجمل اصطلاحية، قلما تمتزج بها فكرة جديدة أو صورة مستحدثة. فقد ورد في نشيد لإيحي، صغير حاتحور، معبودة دندرة، يشيد به كأنه الشمس المشرقة[1]: «المجد لك، المجد لقرينك، أيا إيحي العظيم، ابن حاتحور، يا من أشرقت على عرش أبيك رع، واقتبس القطران جمالك.

أيها الطفل الجميل، وليد الفاضلة، القوية، العظيمة، سيدة دندرة. يا صورة حراختي، ويا ولد أتوم. أيها الصبيّ الجميل، المحبوب اللطيف؛ إن البشر جميعاً ليفرحون لمرآك، ويهلل القطران لمحياك الجميل. إن التاجين ينعقدان على رأسك.

إن البلاد والأقطار الأجنبية تنحني أمام رع عندما يشرق في الأفق، ولك يخلص الرجال والنساء معاً، وتجثو الأرض أمام روحك.

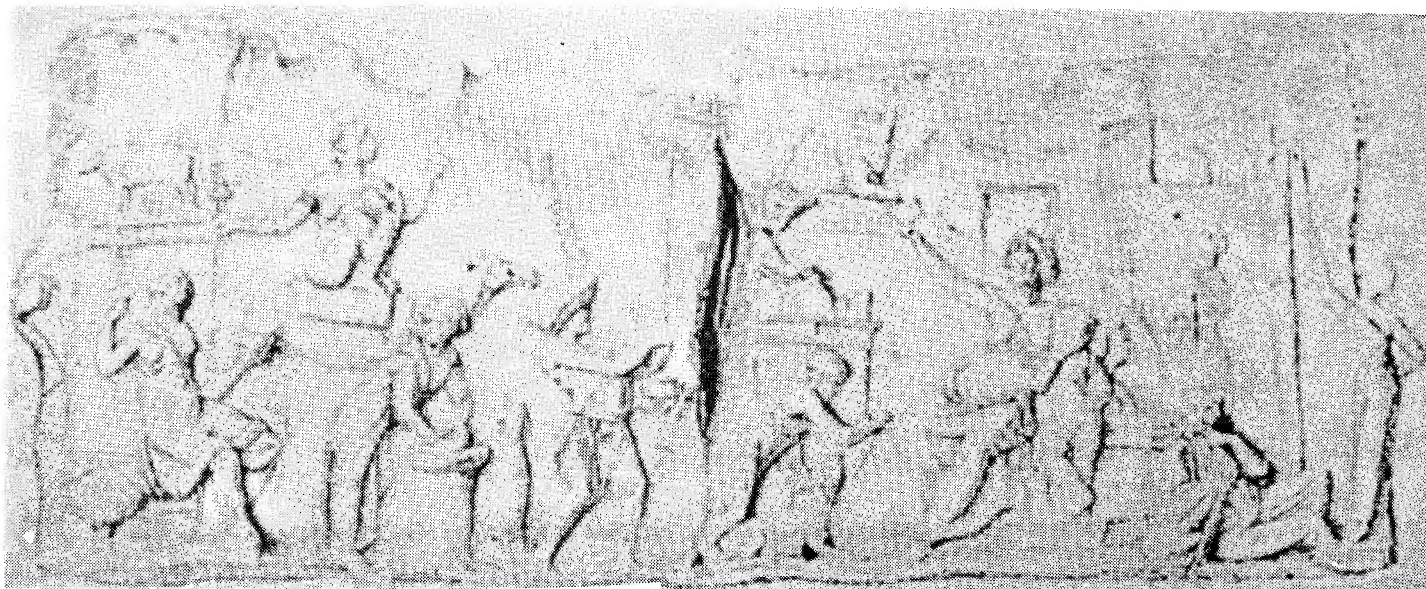
أيها الوليد الفاضل ذو الشكل المتألق... إنك تظلّ في غرفتك في دندرة كالشمس تشرق وتغيب، إن قوّتك لتجوب مانحة الضوء، وإنك لتهب الهواء لأنوف البشر.

أيا إيحي العظيم، يا ابن حاتحور، أمِل محياك الجميل للملك...!». على أن اسم الملك لم يذكر في النصرّ؛ ففي ذلك العهد المضطرب لأواخر البطالمة، كان من الحكمة عدم تخليد أيّ ملك قد يدعو الأمر إلى لعنه كعدوّ بعد قليل.

والنشيد التالي أوفر حيوية من نشيد إيحي هذا، وكان المرنمـون ينشدونه لحاتحور ربة دندرة حين كان يخرج بها من معبدها في احتفال مهيب. ويحمل الترديد على الظنّ بأن هذا الموكب كان يحدث عندما يخضر النبات من جديد

---

(١) Duem. Resulate 22, 5 ff.



عيد في العهد اليوناني

على باب المدينة، وقد زين بزينة العيد، تجلس الإلهة وبجانبها حربوقراط، وبالقرب من قدميها إله آخر صغير. وعلى الباب تمثالا حيوانين مقدسين. ـ ومن أمام الآلهة كاهن بملابس من طراز قديم يذبح الأضحية. وخادمان من خدم المعبد يهيئان المذبح ويعدان النبيذ. ومن خلف ذلك امرأة تعد الجعة على الطريقة القديمة. ويبدو أنه لا يشترك في العيد غير النساء، يحملن المشاعل أو يوقدنها. ـ ومنهن واحدة تأتي على جمل، وبذلك تنتمي إلى إحدى قبائل الصحراء.

(نموذج لإناء من الفضة في متحف برلين)

بعد الفيضان: «فلنصح صيحات الفرح الذهبية حين تضيء في دارها! ولنمجد سيدة الآلهة، ولندخل البشر على هذه الإلهة!... ها هي الطرق تنفتح لك؛ ولنمجد سيدة الآلهة، ولندخل البشر على هذه الإلهة!... ها هي الطرق تتفتح لك؛ وها هي السبل تنفتح لك في بهاء وجمال. والسماء تسبح لك في سعادة، وكذلك البلاد والشطآن جميعاً. إن لك يُنبت الناس الأشجار الحلوة، وإن من أجلك تخضر النباتات، وإن وجهك ليشعّ جمالاً، وإن السماء لصافية وإنها لتبصر بعينيك، والصحراء مضيئة من لحظك. إن البلاد قد عظمت بفضل عينيك، وإن محياك ليتلألأ.

أيتها الخضراء الجميلة، سيدة النضرة، وسيدة الخضرة المتلألئة.

إن لك تعزف السماء مع آلهتها، وإيام تعظم الشمس والقمر، وإياك تمجد الآلهة والآهات.

أيتها الخضراء الجميلة، سيدة النضرة، وسيدة الخضرة المتلألئة.

لك تعزف الأرض كلها، ولك ترقص السماء فرحة طروباً، وإياك تمجد البلاد والأقطار الأجنبية حتى عنان السماء عند أركانها الأربعة».

أيتها الخضراء الجميلة سيدة النضرة، وسيدة الخضرة المتلألئة[١].

ويدلّ هذا على أن ذلك العيد، الذي كان الناس يخرجون فيه على هذا النحو، إنما كان عيداً بهيجاً، يتخذ فيه العزف والرقص لإدخال السرور على حاتحور. فقد جاء[٢]: «إننا نعزف لقرينتك، ونرقص لجلالتك. إننا نرفعك إلى عنان السماء. إنك ربة الجلاجل والعقود[٣] والشخاليل، ... إننا نمجد جلالتك كل يوم، من المساء إلى النهار.

---

(١) انظر: Duemichen, Resultate 46, 7 f. junker Ae. Z. 43, 101 f,.

(٢) Duem. Resultate 45, 3 ff.

(٣) كان النساء يصلصلن في الفناء بعقود كبيرة.

إننا نتهلل لطلعة محياك يا مليكة دندرة... أنت سيدة الحبور، مليكة الرقص، سيدة العزف، مليكة الغناء، سيدة القفز، مليكة ضفر الأكاليل... هيا أقبلوا صائحين صيحات الفرح، واقرعوا الطبول ليل نهار! إن الرجال تقرع الطبول والنساء في حبر...». وليس صعباً أن نتمثل مثل هذا العيد الذي كان يقام لحاتحور بما كان يحفل به من رقص وهتافات الحشود الصاخبة، وصيحات النساء ودويّ الطبول، وجلجلة الجلاجل، وخشخشة الشخاليل، يتخلل هذا كله ما كانت تثيره أغاني الكهنة ذات النغمة الواحدة من هرج صاخب. إنها لصورة صادقة لأحد الأعياد في الجنوب، حيث تعبر العاطفة الدينية عن نفسها بالهرج والمرج.

على أن الأعياد الأخرى كانت حقـاً يحقاً دون جلبة كثيرة؛ ولئن لم ينقصها من الطعام والشراب والتهليل شيء كثير، فقد كان هذا لفترة قصيرة مقبولة خلال المراحل الطويلة للطقوس المقدسة التي كان على الكهنة أن يقوموا بها طوال اليوم. فكان حورس معبود إدفو حينما يريد الاحتفال بعيده الكبير[١]، حينما كان يزوره بهذه المناسبة إلها المعبدين الصديقين في دندرة والكاب، يترك في اليوم السابق معبده في صحبة رفيقه خنسو والحراب الأربعة التي بها حارب الآلهة ست، ثم يتجه تلقاء الإلهين اللذين جاءا من بلدين آخرين لزيارته، وهما حورس معبود الكاب وحاتحور معبودة دندرة. وكان على هذه الآلهة أن تحيي معاً عيداً يستغرق عدّة أيام، تحتفل فيه بانتصارها على ست ورفاقه وباعتلاء حورس العرش. على أن الأمر لم يكن يقتصر على هذه المسائل دون غيرها، وإنما كانت هناك سلسلة لا نهاية لها من الشعائر، كانت تقتضيها «التقاليد» المرعية لهذه الأيام؛ مثال ذلك أنه عندما كان إلها إدفو يريدان صعود سفن الوافدين ليدخلا المدينة في احتفال مهيب، كانت تتلى أولاً «الأوراد التي تحمي السفينة»، ثم تقدّم القرابين، و «يهدى النبيذ»، و «توهب الأرض»، ويطلق

(١) يعتمد ما يلي على .Brugsch, Festkalender von Edfu، ويتضح من لغة هذا النص أنه يمثل مناسك أحد أعياد الدولة الحديثة.

الأوز كأنه رسل، وتقدّم باقات الزهور، وتؤدى أشياء أخرى كثيرة. وما تكاد الرحلة تبدأ حتى تتوقف بعد ذلك بسرعة مرة أخرى، وذلك لإن السفن كانت تمرّ على «مقرجب»، وكان يجب أن ينزل الركب «ليحرق قرباناً عظيماً بين يدي هذا الإله المجيد». وكان لا بد أن يؤدي من جديد «طقس ركوب السفينة والطقس الذي يحمي السفينة، والذي يُجري السفن»، ومن ثم «يبحر الركب مصعداً نحو إدفو». وفضلاً عن ذلك كان يراعي بإحكام أيّ كبار الموظفين في مصر العليا يجب أن يسهموا في الحفل نيابة عن الملك، وأيّ نظام يجب أن تتبعه السفن. وكانت الموسيقى تأخذ مكانها في سفينة أمير إدفو، كما كان على أمير الكاب، عند رسوّ السفن عند المعبد، أن يمسك سفن الآلهة من مقدماتها على حين يجذبها من مؤخراتها أمير مدينة أخرى. وكان على أمير دندرة «أن يجلب هو ورجاله الهدايا»، وعلى أميرين أن يقدّما ثور الأضحية، وعلى آخر أن يؤدّي خمسمائة رغيف، ومائة قدر من الجعة، وفخذ ثور، وثلاثين عنزاً لطعام أهل المدينتين الأخريين، الذين رافقوا آلهتهم لهذا العيد. فإذا ما وصل هؤلاء إذا هم «يجلسون ويشربون ويحتفلون بالعيد بين يدي هذه الإله الجليل؛ ويشربون ويتضمخون بالدهون ويهللون في صوت صاخب مع سكان المدينة».



١٥٤ ـ حربة حورس. نموذج مصغر كان بمثابة تميمة
(برلين ١٥١٢٥)

وفي أوّل العيد كانت الآلهة تصعد مع مرافقيها، الذين أمضوا ليلتهم بجانب المعبد، إلى «معبد علوي»، كان يقع في مكان ما على حافة الصحراء. وهنا كان يستقرّ الجمع على الأرض، ويقدّم شيء من القربان ويقام طرف من الشعائر، ثم تعرض الآلهة ويحتفل «كاتب كتاب الإله» بانتصار حورس. وكان يهتف أربع مرات: «لقد عاد حورس منتصراً، وتمّ كل ما عهد به إليه. إن أمه

ايزيس فرحة لأنه نال وظيفته هذه بقلب مبتهج». وكانت آلهة إدفو، «الأرواح الحية، تجلس على عروشها، وترنو ببصرها إلى «سيد الآلهة»، وكان «الفرح يعمّ إدفو». أما الكهنة فكانوا يجيبـون مردّدين: «افرحي أيتها الأرواح الحية! لقد انتصر حورس وتمّ كل ما عهد به إليه». وفي غمار هذه الهتافات كان الموكب يستأنف مسيره إلى «قاعة المدرسة، حيث تجلب أولاً عنزة حمراء وثور أحمر، تنزع أحشاؤهما، ويحرقان قرباناً بعد أن يحشى جوفهما بكافة الأعشاب العطرة، ويصب عليهما عصير العنب الطازج والنبيذ». ومن ثم كان كاتب كتاب الإله يتلو كتاب «تمجيد حورس الذي ثبّت له إرثه»، ثم أربعة كتب أخرى؛ وكان القربان يقدّم لرع، بحيث «يدعى بأسمائه جميعاً»، وكان يجلب له مائة رغيف ومائة رغيف أبيض، وقدور خمسة من الجعة، وفطائر وبلح ولبن وإوز ونبيذ. وكان الكهنة يرتلون أثناء ذلك: «الحمد لك يا رع؛ الحمد لك يا خبري، بسائر أسمائك هذه الجميلة! إنك تُقبل قوياً شديداً، وقد أشرقت في جمال وبهاء، وقهرت التنين. أمل محياك الجميل إلى الملك!». ثم كانت تطلق مرة أخرى أربع أوزات، لتنبىء الآلهة بأن «حورس ملك إدفو، والإله الأكبر، سيد السماء أخذ التاج الأبيض وأضاف إليه التاج الأحمر»؛ ثم كان يقوم رجل، يمثل «الابن المحبوب» في هذا العيد، فيرمي عن قوسه نحو جهات السماء الأربع، ليردي بذلك أعداء الإله. وكانت باقات الزهر تقدّم للإله ويذبـح ثور يلقى بفخذه الأيمن بين الحشد حيث يتلقاه «رجل، يسمى حورس». وعند ذلك كان رجال حورس يقرعون الدفوف. كذلك كانت طائفة من الشعائر تؤدى بتمثال لفرس البحر من الشمع، تكتب عليه «أسماء أعداء المقاطعات جميعاً»، وبتماثيل للتماسيح من صلصال، ثم تطرح على الأرض أسماك يطؤها الكهنة جميعاً ويطعنونها بالمديّ، وهم يغنون: «اثخنوا أجسامكم بالجراح، وليقتل بعضكم بعضاً، إن رع ينتصر على أعدائه، وحورس معبود إدفو ينتصر على جميع الأشرار». وكانوا يعلنون بعد ذلك «تفسير» هذه الطقوس الأخيرة: لقد قاموا بإبادة أعداء الإله والملك. وبهذا ينتهي الاحتفال بالعيد في المدرسة لذلك اليوم؛ فيتسنى للقائمين بمراسيم العيد أن يركنوا إلى الراحة؛ وكان المرء «يشرب في المساء بين يدي

هذا الإله، ويقضي ليلة جميلة في هذا المكان». وكان الأمر يستمرّ على هذا النحو ثلاثة عشر يوماً حتى تئوب في النهاية الآلهة الغريبة إلى مواطنها، وآلهة إدفو إلى معبدها، ومن ثم يسود الهدوء المدينة تارة أخرى. ولم يكن الجمهور الذي اشترك في العيد ليستبين كثيراً من وقائعه على الرغم مما كان يقدّم من «تفسير» في بعض الأحيان؛ كما أنه لم يكن ليفهم معاني ما كان الكهنة يتغنون أو يبتهلون به باللغة العتيقة. ومع ذلك فقد كان ذلك الغموض يزيد في الأثر الكلي لهذا العيد على مشاعر الإنسان، وكان من شأن التباين الواضح بين ما كان مقدساً، جديراً بالتكريم، وبين ما يتصل بالحياة الدنيوية الحديثة إذ ذاك، بين الكهنة في زينتهم القديمة، وبين رجال الشرطة الإغريق والموظفين الرومان، أن يقوّي شعور الإجلال لدى الشعب لعقيدته القديمة.

وقد غدت عبادة أوزيريس ذات صبغة سرية خاصة. فقد كسب هذا الإله لنفسه مكاناً في كل معبد كبير في مصر، وخاصة بطبيعة الحال في المدن الست عشرة، التي كانت تفخر بأن فيها مثوى عضو من أعضائه: وقد ذكرنا من قبل المعبد الصغير الذي شيّد في المنشآت الجديدة في إدفو ودندرة وفيلة فوق سطح المعبد لأعياد أوزيريس. وإننا لنعلم الشيء الدقيق عن أحد هذه الأعياد، وكان يحتفى به في شهر كيهك، وذلك لأن نصاً طويلاً في دندرة يحدثنا كيف اعتاد المصريون أن يحتفلوا به في المدن المختلفة، في أبو صير وأبيدوس وسايس وغيرها. ويتضح من مجموع هذا النصّ أن الكهنة كانوا يعنون بأداء مراسيمه حتى في أدقّ تفصيلاتها، وكانت شعائره الأساسية واحدة في سائر المدن. ولهذا لنا أن نظنّ أن الشعائر في أحد المعابد كانت مثالاً احتذته الشعائر في المعابد الأخرى. ومن اليسير علينا أن نفهم الشعيرة التي كان يبلغ بها هذا العيد ذروته. لقد كان أوزيريس واهب الخصب، ولذلك كانت الأرض والماء، الذي يخصبها، من بين ما تشمله قدرته. لهذا كان يصاغ من الرمل والشعير في هذه الاحتفالات شكل للإله الميت، ثم كان يروى بالماء. فإذا ما نبت الشعير واكتسى جسد الإله بخضرة نضرة، فقد كان هذا لدى المؤمنين دليلاً على عودة الحياة للإله؛ وهو

وإن ظلّ يبدو ميتاً، غير مخصب، فلقد عاد إلى الحياة من جديد لخير البشر. هذا هو بهرة الاحتفال كما ذكرنا، أو بهرة الخافية الدينية، على نحو ما نسميها الآن على غرار الإغريق. ولكن لما كان الكهنة المصريون هم الذين كانوا يقومون بها، فقد كان لا بد أن يحيط بها كثير من الشعائر الثانوية.

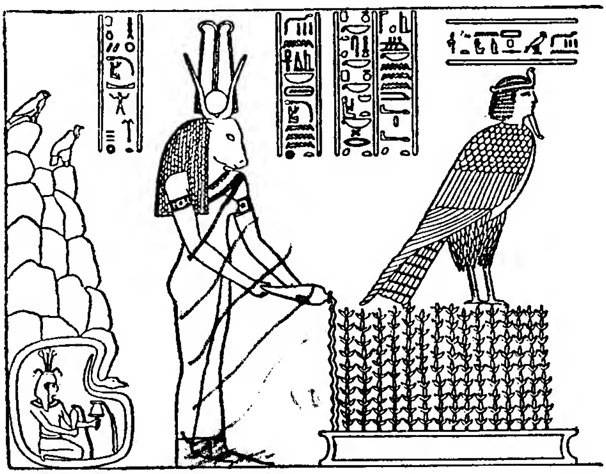
إلى جانب هذه الاحتفالات الأوزيرية، التي كان يحتفى بها في كلّ مكان كانت تؤدى لهذا الإله بطبيعة الحال شعائر أخرى كانت وليدة ظروف محلية محضة. وإننا لنعرض هنا أخيراً إحدى هذه الشعائر التي نلمّ بها إلماماً تاماً.

فهناك على حدود بلاد النوبة، حيث يخترق النيل آخر حواجز الأحجار الصلبة، التي تفصله عن مصر، يقع عدد من الجزر الصخرية بالقرب من الشلال. وعلى إحدى هذه الجزائر يقوم معبد فيلة الفخم، الذي اشتهر في العالم بأسرة في العهد الإغريقي بأنه أهمّ معابد إيزيس، والذي ظلّ باقياً على حالته تماماً حتى عصرنا الحاضر، ولكنه تعرّض للدمار في الأيام الأخيرة.

وتقع بالقرب من جزيرة فيلة هذه جزيرة أخرى، هي بجة الحالية، وكانت تعتبر كذلك من الأماكن المقدسة للديانة المصرية. فمن جهة لقد كانت المكان الذي وطأته مرة أخرى الإلهة الوحشية تفنوت من أرض الوطن واستحالت فيه إلى حاتحور الودودة، وفقاً لأسطورتها القديمة (صفحة ١٠٨). ومن جهة أخرى كان يوجد في بجة قبر أوزيريس، وكان يعتبر في العهد الإغريقي في مقدمة الأماكن المقدسة، ولم يكن في مصر العليا إذ ذاك قَسَم أعظم من أن يقسم الإنسان «بأوزيريس الثاوي في فيلة»[١]. وكان هذا المكان الذي يضمّ قبر أوزيريس يسمى «أباتون»، أي الحرم، وذلك لأنه لم يكن يجوز في هذا المكان أن يقلق راحة الإله أحد. وكأن الطبيعة قد قدّرت أن يكون هذا المكان بالذات معبد أوزيريس، وذلك لأن المصريين كانوا يعتقدون أن في الماء الجائش هنا يوجد أحد الينبوعين اللذين يتفجر منهما ماء الفيضان، جالب الخصب والنماء،

(١) Diodor I 22, 3.

وقد كان يسمى «ماء بجة النقي»[1]. ولما كان أوزيريس يشرف على كل ما يكفل الخصب، لهذا كان يعتبر أيضاً أنه هو الفيضان نفسه. وكما كان يقول كهنة فيلة، لقد كان أوزيريس «النيل الكبير الذي يخلق الحبّ بفضل ما فيه من ماء»، والذي «يُنبت الأشجار والأزهار من رشحه (عرقه)» لهذا كيف يمكن أن يكون لأوزيريس قبر أفضل مما كان له في «أباتون»، حيث كان يمكن أن يعود للظهور في هيئة فيضان جديد؟ فهو كالنيل «يولد في حينه، وتتجدّد أعضاؤه كل عام».



١٥٥ ـ أوزيريس كإله للنيل في كهف بجة، وروحه تستقر على شجر الغيضة المقدسة وتسكب لها إيزيس اللبن (Champ. Mon. 93).

وإذا كانت الأسطورة تذكر أنه لم يدفن في «أباتون» إلا جزء من أوزيريس، وهو ساقه اليسرى، فلم يكن في ذلك بأس، وذلك لأن الكهنة ظنوا أن هذه الساق هي أحد ذلكم الينبوعين، وتمثلوا كيف ينبثق الماء منها فائراً متفجراً. أما «أباتون» نفسه بأكمله فقد تمثلوه جبلاً به كهف غائر، يقرّ فيه أوزيريس على هيئة

(١) Junker, Das Goetterdekret ueber das Abaton. (Denkschr, der Wiener Akademie 1913), S 39. وكذلك يعتمد كل ما يلي على كتاب يونكر فيما عدا الحالات التي أذكر فيها مرجعاً آخر.

النيل ويحرسه ثعبان. ولسنا نعرف كيف كان شكل القبر في حقيقة الأمر، على أننا نعلم فقط أن إحدى الأشجار كانت تظله على نحو ما كان في مقابر أوزيريس الأخرى ـ ولعلها كانت تلك الشجرة التي جاء في الأسطورة المتأخرة أنها نبتت من حول تابوت أوزيريس في جبيل (صفحة ١٣١). وإلى جانبه ـ كما كان الأمر كذلك في أبو صير وأبيدوس ـ أجمة كان يظن أن روح أوزيريس تحطّ على أغصانها في شكل طائر برأس إنسان. ومن السهل معرفة منشأ هذا التصوّر؛ أجل لقد كانت أمنية الأشراف في الدولة الحديثة أن تستقرّ أرواحهم بعض الوقت على أشجار حدائقهم، لهذا عمد المصريون أيضاً إلى إقامة جديدة لروح أوزيريس[١].

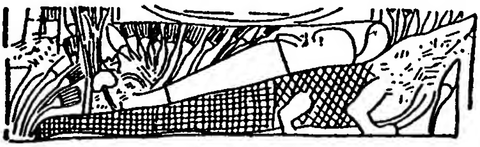
وفي هذه الأجمة وضعت ٣٦٥ مائدة للقربان، كان الكاهن الكبير المختصّ بالعمل في النَّوبة الشهرية يقدّم عليها قرباناً من الماء واللبن. ولكنه لم يكن وحده الذي يقدّم هذا القربان، وإنما كان تمثال إيزيس يبحر إلى هنا كل عشرة أيام ويقدّم للزوج المتوفي ولروحه قرباناً من لبن، يرده «شاباً» من جديد. وكانت هـذه الأيام، التي «تعتلي» فيها إيزيس «العرش العظيم» في «أباتون»، تعتبر أياماً لها قداستها الخاصة لأباتون، فما كان لأحد أن يجاهر بالكلام فيه. وكانت لهذه الإلهة أيام أخرى تقضيها في «أباتون»، من ذلك مثلاً عندما كان يحتفل بدفن أوزيريس؛ وإذا ذاك كانت تتبعها الآلهة الأخرى، وترافقها في سفينتها تماثيل أمون[٢] وخنوم وبتاح وغيرها. وعلى نحو مماثل كان يحدث كذلك في اليوم الذي تقتاد فيه إيزيس روح أوزيريس إلى «أباتون». حيث كانت أرواح الآلهة الأخرى تبحر كذلك ثم تأخذ مكانها مع روح أوزيريس في الغيضة. ومن السهل فهم هذه العادة التي كانت تقضي بأن يصحب الإله الميت بتمثال لروحه، فقد كان لا بد من أن يعود إلى الحياة من جديد، ولهذا فقد كان ينبغي أن تكون

---

(١) جلب رع الروح إلى فيلة عندما وجدت الجثة، أما قبل ذلك فقد كانت في القمر في السماء.

(٢) وبهذا يرجع هذا الاحتفال إلى الدولة الحديثة.

روحه بجانبه. غير أن هذه العادة كانت تفسر بأسطورة خاصة. فعندما عثرت إيزيس على جثة زوجها ذهبت إلى إله الشمس في هليوبوليس، وكانت له به رعاية وعناية (سابقة. وقد ساعد هـذه المرّة كذلك فأرسل سائر الآلهة إلى «أباتون» ليدفنوا في جثة الإله (أو بالحري ساقه فقط) بعد أن حملها إلى هناك حورس متخذاً شكل تمساح. وقد زاد الآلهـة على ذلك بأن أصدروا مرسوماً لحماية مقبرة الإله، وقع عليه رع وشو وجب، وهم أسلاف أوزيريس وكتبه تحوت بنفسه بصفته كاتب الآلهة. وفي هذا القرار الذي كانت منه نسختان في معبد فيلة أعلن الآلهة أن «أباتون» يجب أن يكون على الدوام لأوزيريس



١٥٦ ـ التمساح الذي حمل جثة أوزيريس إلى البر (Junker, Abaton, S. 42).

وإيزيس؛ وقد سنوا الشعائر التي يجب أن تؤدى فيه، وعنوا قبل كل شيء، بما يكفل الهدوء في هذا المكان المقدس. فما كان لأحد فيه «أن يقرع الطبول أو يغني على صوت الجنك أو الناي. وليس لأحد أن يطأه في أيّ وقت»، أو «يصيد الطير والأسماك» من حوله. وفي الوقت المقدس، الذي فيه تستقرّ إيزيس في «أباتون» لا يجوز لأحد أن يجاهر فيه بصوته.

أجل إنه لما يتفق وشعور الإنسان أن يرعى المرء الهدوء حيثما يبكي على الميت، ولهذا فمن المعقول أن الهدوء كان مطلوباً منذ البداية في أماكن أوزيريس. ولكن إذا كان كهنة فيلة قد أكدوا هذه المسألة الواضحة وأبرزوها في شكل خطير في مرسوم للآلهة، فإن هذا ليشير إلى أنه كانت لديهم أسباب خاصة لذلك. ولا يسعنا هنا إلا أن نذكر أنه كان يجاور مقبرة أوزيريس مكان لم تكن الأمور تسير فيه على الدوام بغير ضوضاء، مما كان يتنافى مع ما ينبغي أن يراعى من أجل هذه المقبرة. فقد رأينا أن جزيرة بجة كانت كذلك المكان الذي

اغتسلت فيه الإلهة تفنوت عند عودتها من بلاد النوبة، ومن ثم استحالت إلى حاتحور الودودة الضحكومة، التي كانت تحيي أعيادها بدق الدفوف والغناء والرقص، أي بسائر ما لم يكن مستحباً في جوار أوزيريس.

ويؤيد الظنّ بأن شعائر كل من العبادتين كانت تزاحم الأخرى نصّ عجيب[1] من القرن الثاني قبل الميلاد، عثر عليه في إليفانتين. وهو عبارة عن كتاب وجهته جمعية دينية إلى أحد أعضائها إذ ذاك تبلغه إنذارها الأخير، وذلك باسم إلهها اسبميتي، «الصبي المولود في اليفانتين»، أحد القديسين المحليين، وكان يعرف كيف يلزم أتباعه حدّ الأدب وحسن الخلق. وكان هذا المذنب، الذي وحه إليه الإنذار، رجلاً ثرياً، كان من أخطائه أنه أقام لنفسه بيوتاً شاهقة، ولذا كان عليه أن يهدمها ثانية؛ على أن هذا لم يكن ذنبه الرئيسي، وإنما كانت أكبر سيئاته ما ارتكبه ضد أوزيريس. «لقد اجترح ما تشمئزّ منه إيزيس، وشرب النبيذ في الليلة التي ارتدت فيها الإلهة ثياب الحزن. لقد شرب النبيذ في الغيضة وفي الحديقة، المنذرتين للملك أوزيريس»، وسمح بالغناء هناك وبذلك أيقظ «روح أوزيريس من سباتها». بل لقد بلغ به الأمر أنه في سكره عبر إلى «أباتون» مع ضيوفه ـ وكانوا بالإضافة إلى هذا من البليميين البرابرة. وعندما نصحته امرأته بأن يقلع عن هذه الخطايا صاح فيها: «إنها لتَفنوت، وإن أحداً من الآلهات لا يمكن أن تقف في وجهها»؛ وهكذا أراد أن يعتذر بعيد تفنوت عن الخطيئة التي ارتكبها ضد إيزيس وقت حدادها.

غير أن القديس اسبميتي لم يكن ليخدع بهذه السهولة؛ «كان يعلم (مكنون)، قلبه»، ولذا أعلن إليه أوّلاً أنه لن يدعوه مذ ذاك بالإسم الذي حمله منذ الطفولة؛ إذ لم يعد أهلاً لأن يتسمى بتوزيرس، أي «عطية أوزيريس».

ويبدو أن هذه القصة القصيرة قد حدثت على نحو ما ذكرنا في جمعية

---

(١) Griffith, Proceedings 31, 100 ff., 289 ff.

دينية[1]؛ وليس من محض الصدفة أن نجد مثل هذه الجماعة تتألف من أجل أوزيريس، وذلك لأن عبادته كانت تحوطها هالة خاصة في كل العصور. ولم يكن يسمح لكل فرد أن يشترك في هذه العبادة، أما الصفوة، الذين كان يسمح لهم بهذا الاشتراك، فكانت تنعقد بينهم وبين الإله صلة قوية. ومهما يكن من شيء فقد كان عليهم أن يلتزموا الصمت المطبق على سائر ما كانوا يَخبرونه أثناء الاحتفال بالأعياد الأوزيرية. ولقد رأينا فيما سبق (صفحة ٤٤٢) كيف أن هيرودوت، الذي كان له هذا الحظ، قد تحاشى عن رهبة سرد ما يتصل بأوزيريس من تفاصيل، وقد كان يعرفها حقاً ولكنه لم يكن يجوز له ذكرها.

فهل كان ما يصونه الكهنة بهذه الحيطة البالغة سرّاً في حقيقة الأمر، يستحقّ مثل هذا الاهتمام؟ إن كل ما نستطيع قوله هو أنه فيما نعرفه من النصوص من أشياء كثيرة عن الاحتفال بأعياد أوزيريس، لا يكاد يوجد شيء لم يكن من الواجب أن يعرفه كل مصري، كان يهتمّ بأمر آلهته؛ وذلك لأن ما كان يعرض في هذه الأعياد على المشتركين فيها، إنما كان، على نحو ما جرى في الزمن القديم وما سبقه (صفحة ٢٥٣)، تمثيليات من قصة الإله، تمثل موته، والبحث عن جثته، والعثور عليها، وإحياءها، ثم النظام الجديد للعالم، وفيه يتولى أوزيريس حكم الموتى، وحورس حكم الأحياء. وكانت هذه المسائل تختلف في تفاصيلها بعض الشيء من معبد لآخر، ومن الواضح أن الكهنة كانوا يعلقون أهمية خاصة بالذات على ما ينفرد به معبدهم من تفاصيل. وإذ كان يروق لهم أن يروا في سائر ما يجري في المعبد سراً من الأسرار، فقد قدّروا بطبيعة الحال أن لهذه الشعائر الخاصة أسبابها الخفية، وأنها ترجع في نشأتها إلى ما قد حدث من قبل لدى الآلهة. وكانوا يسِرّون بمثل هذه الأسباب إلى المؤمنين، عندما كانوا يشرحون لهم الطقوس كلاً على انفراد، وذلك عن طريق تلك «التفسيرات» التي

---

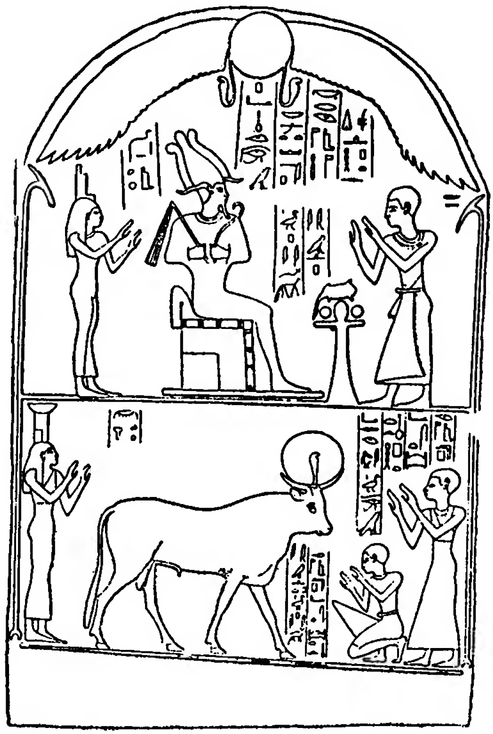
(١) مثل هذه الجماعات من العلمانيين الأتقياء الذين يعبدون أحد الآلهة كانت توجد كذلك في أماكن أخرى في مصر في ذلك العهد (انظر Otte, Priester und Tempel, S. 125 ff).

خبرنا أمرها عند الكلام من عيد حورس. وإلى جانب هذا فلعلهم أسرّوا إليهم كذلك بهذه الفكرة أو بتلك مما يتجاوز قصص الآلهة بعض الشيء؛ على أنه لم يكن في هذا كله أدنى أثر لما في التصوّف الإغريقي المتأخر من عقائد سرية عن الإله والعالم والإنسان، وهي العقائد التي يميل البعض إلى إرجاعها إلى الخفايا المصرية. ولم تكن الاحتفالات السرية لأوزيريس في العهد المتأخر بأحسن كثيراً مما كانت عليه من قبل، ولئن كان المؤمنون قد عظموها كأنها أسرار عميقة، فقد كان ذلك لأنها عرضت عليهم بهذه الصفة، وما ذلك في حقيقة الأمر غير وهم يحدث في العالم في كل زمان ومكان.

وكان في طوع الديانة المصرية، على الصورة التي عرضناها فيها، أن يعيش مدة أطول بنفس صيغها وبنفس تصوّراتها الضحلة؛ وكان يمكن أن تكثر تفصيلاتها وتزداد خلطاً واضطراباً، ولكن لم تكن لتستطيع أن تأتي بجديد قيِّم. بيد أنه برغم شدة جمود كهنتها وشدّة تعلق معتنقيها بها فقد أثر فيها مع الزمن احتلال الإغريق لمصر، وأن سكانها المتجانسين استحالوا بالتدريج إلى خليط من الأقوام.

وأول تأثير اعترى الديانة المصرية من الناحية الإغريقية يبدو لنا الآن كأنه من عمل رجل حاذق، كان يقوم بدور الوسيط بين الملك والكهنة. ففي بلاط بطليموس الأول والثاني كان يعيش الكاهن مانيثو الذي يرجع منشؤه إلى سمنود في الدلتا، وقد كان واحداً ممن أكسبتهم ثقافتهم مكانة في معسكرين متضادّين، فكان يشبه بذلك الأفندي المحدث الذي تعلم في باريس. ورغبة في أن يعرف سادته تاريخ وطنهم الجديد، كتب لهم تاريخ مصر بالإغريقية، كان كتاباً تافهاً، ولكنه عرف كيف يعلي من شأنه بجداله الرخيص لهيرودوت. ولما رأى الملك في منامه سيرابيس إله سينوب الغامض يرجوه جلب تمثاله إلى مصر، كان مانيثو هو الذي فهم معنى هذه الرؤيا، ومعه رجل خبير بالشؤون الدينية هو تيموثيوس الإغريقي، الذي يرجع أصله إلى أسرة من الكهنة من إلويسِس. وقد أدرك كلاهما أن الإله الذي يودّ المجيء إلى مصر لا بد أنه يوجد فيها أيضاً، وإن

كانت هيئته في وادي النيل تختلف تماماً عن هيئته على ضفة البحر الأسود. وبهذا لم يكن سيرابيس إله سينوب، ذو اللحية والشعر الأشعثين، سوى أوزرحاب، أي أوزيريس - أبيس، الثور المقدس أبيس المتوفى، الذي كان



١٥٧ - شاهد شخص يدعى أمحوتب، يرى في أسفله وهو يتعبد لأوزيريس - أبيس، أي سيرابيس (برلين ٧٣٠٤٤).

الشعب كله يعظم مدفنه كثيراً. هذا ما كان من شأن الكاهنين الحكيمين. أما الملك فهو وحده الذي كان سيفيد من ذلك، فهذا الإله، الذي كان على الإغريق والمصريين على حدّ سواء أن يقدّسوه، إنما كان الإله المناسب لمملكته الجديدة، التي يعيش فيها الشعبان. منذ ذلك الوقت أصبح سيرابيس الإله الرئيسي في مملكة البطالمة. وأصبحت الأيمان الرسمية تعقد على النحو التالي:

«باسم سيرابيس وإيزيس والآلهة الأخرى»[١]. وكان مما يرضي الملك أن تشيد المعابد لسيرابيس في خارج مصر أيضاً[٢].

ولنا أن نقدّر أن هذا التأويل الجريء من مانيثون لم يجد أية معارضة عند زملائه الكهنة؛ فقد كانت رغبة الملك كفيلة بإقناعهم بأن سيرابيس لم يكن سوى أوزيريس أبيس. ومنذ ذلك الوقت كان سيرابيس هو التسمية الإغريقية لأوزيريس. وبطبيعة الحال كان الاسم القديم الذي أضفى الزمن عليه قداسته، هو الذي يستخدم في النصوص المصرية في المعابد وفي مناظرها، أما لدى الشعب فقد أصبح سيرابيس مذ ذاك إله الموتى وزوج إيزيس، وحلّ تماماً محلّ أوزيريس.

وكان أعظم معابد هذا الإله الجديد يوجد في عاصمة البلاد بطبيعة الحال، أي في الإسكندرية، وكان معبداً ضخماً يستوى فيه الإله على عرشه في الهيئة التي شاهده الملك عليها في رؤياه، ولهذا صاغ المثال برياكسيس صورته بشعر ولحية أشعثين وعلى رأسه مكيال الحبوب، وإلى جواره الكلب كربروس.

وفيما عدا ذلك لا بد أن سيرابيوم الإسكندرية كان على طراز إغريقي، حتى وإن ذكرتنا كل التفاصيل الإضافية فيه بالطابع المصري وإنه كان يحتفظ فيه بثور مقدّس. وظلّ سيرابيس إبان القرون الخمسة، التي كانت فيها الإسكندرية عاصمة العالم الكبرى، يعتبر لدى سكانها أنصاف الإغريق هو الإله الأعلى. وكان أتباعه الذين يعتقدون فيه على صلة وثيقة به، فما كانوا يقدمون قرباناً إلا ويدعونه إليه[٣]. وفي عهد تراجان أوفدت بعثة إلى روما فاصطحبت معها تمثال سيرابيس صانع المعجزات[٤].

---

(١) Wilcken, Url. I, 84.

(٢) نفس المرجع.

(٣) Schubart, Aegypten usw. S. 83.

(٤) نفس المرجع ص ٨٢.



١٥٨ ـ سيرابيس في هيئة زيوس سيرابيس بقرني كبش الإله أمون

وقد قام إلى جانب سيرابيوم الإغريق هذا سيرابيوم آخر، وربما لم يكن يضارعه عظمة، ولكنه كان يفوقه في القدم والقداسة، وذلك في صحراء منف حيث كانت تدفن الثيران المقدسة. ومن هذا المكان خرجت عبادة أوزيريس ـ أبيس، ولهذا ظلّ كعبة الحجاج من عباده.

ولقد رأينا فيما مضى أية رعاية أحيطت بها الثيـران المتوفاة في العصر الصاوي ـ الفارسي (صفحة ٤٢٩)؛ أما الآن في عهد الملوك الإغريق فلم تكن هذه العناية تعرف لها حدّاً.

وقد وصلت لأيدينا القواعد الوافية لدفن ثيران أبيس[١]، كما أننا نعرف تماماً ما كان يجب أن يقوم به في فترة التحنيط الطويلة الكهنة الخمسة الذين كان يعهد إليهم بأداء هذه القواعد: الرأس والفم والعينين والأنف، وكيف كان يجب تغطية القرنين. أما الساقان فكانت تمدّان، وكان تجويف البطن يغسل ويحشى، ثم كان أبيس ينصر قائماً بدعائم خاصة. وكان الرأس يلفّ آخر الأمر بحيث يتخذ وضعه الأصلي. وكانت تلي ذلك الشعائر الجنازية الحقيقية: فكانت الجثة توسد

(١) ما يلي عن Spiegelberg, Ae. Z. 56, 1 ff.

على نعشها في داخل التابوت بينما تنوح النائحات، ثم توضع في زورق يمخر بها بحيرة على حين تتلى النصوص المقدسة. وآخر الأمر كانت تؤدى لهذا الثور الميت شعيرة فتح الفم على نحو ما كان يؤدى للأموات من بني الإنسان. وكان هذا كله يستغرق سبعين يوماً، وكانت فترة حداد وصيام لمصر قاطبة، وفي متحف برلين شاهد(١) من مقبرة ضابط من جماعة البوليس المصري الفينيقي، يفخر فيه بأنه قد عهد إليه حراسة الجبانة في تلك الفترة الخطيرة.

ولا يتيسر من هذا الوصف تصوّر فداحة نفقات مثل هذه الجنازة التي كانت تقتضي مائة تالنت كان الملوك يتكفلون بها أو يقرضونها المعابد. أما الأباطرة (الرومان) فلم يحملوا أنفسهم عبء هذه النفقات، وإنما ألقوه على المعابد(٢) - فراحت تستعين على ذلك بجمعها. وقد كان عليها بنوع خاص أن تحصل بهذه الوسيلة على الكميات الوافرة من الكتان الرقيق الفاخر، ولدينا صكّ بإعانة اختيارية من هذا القبيل قام بها معبد سُكْنو بايوس الصغير(٣) (صفحة ٥٢٤). بل - أكثر من ذلك - لقد ذهبت السلطة الرومانية بأن عاقبت كاهناً تهرّب من مثل هذه الإعانة(٤). على أن الأمر لم يقتصر عند حدّ هذه النفقات، في دفن أبيس، وإنما كان يجب أن تعنى الحكومة والمعابد كذلك بطريقة مشابهة بنفقات الثور المقدّس منيفس الذي كان يحتفظ به في هليوبوليس. وقد احتاج الأمر كذلك إلى مائة تالنت أخرى في عهد بطليموس فيلادلفوس لدفن بقرة إيزيس المقدسة في مقاطعة أفروديت بولس(٥)، وذلك لأنه كان يعنى بالأبقار المقدسة عناية لا تقلّ عما كانت تقتضيه الثيران الشهيرة؛ وكانت بقرة إيزيس إذا ماتت أعلن حارس حظيرتها في أسى للكاهن الأكبر «إن روح إيزيس قد طارت إلى السماء»(٦).

(١) Stern, Ae. Z. 22, 101; Schaefer, ebda 40,31.

(٢) Schubart, Aegypten S. 258.

(٣) Otto, Priester u. Tempel, S. 392.

(٤) Schubart, Ae. Z. 56, 94.

(٥) Pap. greci e latini della società italiana 4,328.

(٦) Spiegelberg, Ae. Z. 43 129.

وكان يتبع معها ما يتبع مع أبيس[١] وبوخوس، ثور أرمنت، والتمساح المقدس[٢]، إذ لم تكن تتمّ لها القداسة الكاملة إلا بعد موتها فتصبح عند ذلك أوزيريس أبيس، وأوزيريس بوخوس، وأوزيريس سوخوس.

وفوق المدفن العام، الذي كانت توسد فيه العجول توابيتها الحجرية، كان يقوم منذ أمد بعيد معبد كانت تزوّد فيه هذه العجول بالأقوات أسوة بالموتى من البشر. وكان ثمة أبنية أخرى؛ من ذلك معبد لأنوبيس الذي كان ينتمي لهذا المكان باعتباره حامي الموتى؛ وكان لعشترتي (صفحة ٢١١) هي الأخرى معبد هناك؛ ويظنّ أن الفينيقيين، الذين كان لهم حيّ خاصّ في منف، قد عملوا على أن يكون لإلهتهم الأثيرة عندهم مكانها كذلك في السيرابيوم. ومن معبد أنوبيس كان هناك طريق مقدس يتجه إلى الغرب، ويؤدي إلى الصحراء بين صفين من تماثيل أبي الهول، وكان يجتازه الموكب الجنازي الفخم، وذلك عند نقل رفات العجل المتوفي إلى المعبد ثم إلى القبر.

وكان ينزل في المنطقة المحيطة بالمعبد نزلاء مختلفون، وتقوم فيها مبانٍ من كل نوع منها الديني ومنها الدنيوي، على نحو ما يحدث عادة فيما تكثر زيارته من أماكن الحجّ. فكانت هناك نُزل لحجاج البقاع المختلفة، كما كا يقطن هناك مختلف الصناع والخبازين وتجار الملابس، وكذلك الأطباء ومفسرو الأحلام، وبذلك كان الطريق المقدّس المؤدي إلى السيرابيوم أشبه بالسوق[٣].

وقد احتفظ سيرابيوم منف في مجموعه بالطابع المصري، حتى بعد أن استحال معبوده أوزيريس أبيس إلى سيرابيس العظيم. غير أنه بانتشار شهرته في العالم الهلليني أخذ يتطرّق إليه التأثير الإغريقي. فعلى الطريق الذي كانت تحفّ به تماثيل أبو الهول أضيفت إلى هذه الكائنات الخيالية المصرية أشكال أخرى من

(١) Schubart, Aegypten, S. 258 f.

(٢) Wilcken, Urk. I, 19.

(٣) Otto, Priester u. Tempel , S. 283 f.

خيال الإغريق كالسيرينات، بل لقد كانت تقوم في موضع آخر منه تماثيل أفلاطون وبروتاجوراس وبندار[١]. ويعلم الله وحده ما الذي كان يبحث عنه هؤلاء الفلاسفة في ذلك المجتمع الخليط من حول مدافن العجول.

وتتيح لنا بعض الوثائق الخاصة من منتصف القرن الثاني قبل الميلاد أن ننظر إلى ما كان يعترك في ذلك المكان العجيب من حياة. فنجد أوّل الأمر فتاتين فقيرتين دفعتهما قسوة الحاجة إلى الالتجاء إلى السيرابيوم، حيث كان يقطن صديق قديم لأبيهما الراحل. وقد جعل كهنة المعبد معبد «توأمتين»، تقومان في مدفن أبيس بدور إيزيس ونفتيس اللتين بكتا أوزيريس الشهيد. وقد قامت الفتاتان بذلك، كما أنهما كانتا فضلاً عن ذلك تقومان بأداء «الطقوس في المعبد»[٢]. وكانتا تحصلان أول الأمر على دخل ضئيل، غير أن كهنة المعبد لسوء الحظّ لم يكونوا يوفون لهما به دائماً[٣]. فكان أن دفعهما العوز إلى كتابة الشكاوى تلتمسان فيها إلى الملك عونه حتى لا تضطرا بدافع الحاجة إلى هجر المعبد[٤]. ولم يكن في وسع الرجل الذي آواهما بالمعبد أول الأمر ـ وكان يعني بهما عناية أبوية ـ أن يساعدهما مساعدة جدية، إذ لم يكن كاهناً، وإنما كان من المستبقين ليس غير، أولئك الذين كانوا يأوون إلى السيرابيوم[٥]، ويعيشون فيه عاماً بعد عام، ولا يسمح لهم بمغادرة منطقته[٦] دون أن يأذن لهم الإله سيرابيس الذي استبقاهم. ولسنا نعرف كيف كان يتمّ هذا الاستبقاء، وأيّ الأعمال كانوا يقومون بها للإله في المعبد. لقد كان الإله يبعث إليه بالرؤى، وكانوا يعرفون

---

(١) Wilcken, Urk. d. Ptolem. I, 11 f.

(٢) نفس المرجع ص ١٩٤، ٢٤١، ٢٥٣.

(٣) نفس المرجع ص ٢٠٠.

(٤) نفس المرجع ص ٢٦٠.

(٥) عن المستبقين في السيرابيوم وغيره، انظر Wilcken, Urk. d. Ptol. 1, 50 ff.

(٦) نفس المرجع ص ٥٥.

كيف يؤوّلونها، وكانوا على اتصال به، ولذلك كان أصحاب السلطة والملك ذاته يخشون الإله في معاملتهم[١]؛ على أن هذا لم يكن ليمنع حقاً من أن يكون هؤلاء المستبقين شحاذين[٢]، يعيشون على استجداء زوّار المعبد؛ بل فيهم من كان يستعين ببنية صغيرة تعاونه في عمله هذا. وكانوا يعيشون في هيكل عشترتي، ويحصلون على دخل ضئيل من المعبد[٣]، غير أن من يقرأ الشكاوى التي وجهها المستبقي بطليموس بن جلاوكياس إلى الملك والموظفين يرى أنه لم يكن لأفراد هذه الجماعة من الحياة حظ زاهر. فقد كان الجميع يسيئون معاملته[٤]، سواء كانوا خدم المعبد أو الطبيب أو تجار الملابس؛ وكانوا جميعاً يريدون اقتحام مسكنه عليه واغتصاب متاعه؛ وقد نهبته إدارة الشرطة التي توجد بالقرب من معبد أنوبيس، وقد ادّعى إن الكهنة سمحوا بهذا كله، لأنه إغريقي لا مصري. على أنه الأقرب إلى الظن حقاً هو أن كهنة المعبد لم يكونوا ينظرون بعين الرضا إلى هؤلاء الرعاع الأتقياء، الذي حلوا بين ظهرانيهم في كنف الإله.

ويدلّ ظهور سيرابيس على بداية عقيدة جديدة يمكن تسميتها بالعقيدة الإغريقية المصرية. وكانت ديناً خليطاً لم يكن لينشأ إلا حيثما يعيش جماعة من شعبين معاً على اتصال قويّ، بحيث لا يكاد يعرف الكثير من الأفراد إلى أيّ فريق ينتمون. فهم يتصاهرون فيما بينهم، ويتكلمون اللغتين معاً، وإذا ما حزبهم أمر تولوا إلى ذلك المعبود الذي كان يعتبر أفضل مساعد في منطقتهم ولو انتمى إلى الشعب الآخر. وقد تمّ هذا الامتزاج في مصر بسرعة نسبية، ودون أن تعوقه المظاهر الخارجية الغريبة للمعبودات المصرية، بل لقد جذبت هذه المظاهر بالذات إليها الإغريق المثقفين أيضاً، وذلك لأنهم كانوا ينشدون في التصوّف عوضاً عن عقيدتهم الخاصة التي لم يبقَ لها معنى عندهم. ومنذ العصر

(١) Wilcken, Urk. d. Ptol I 53; 173.

(٢) نفس المرجع ص ١١٨.

(٣) نفس المرجع ص ٦٧.

(٤) نفس المرجع ص ١٣٠، ١٣٨.

الروماني، لم يكن هناك سوى دين واحد. على أن ذلك لم يكن في حقيقة الأمر صحيح إلا بالنسبة لعقيدة الجمهور وحده، أما في المعابد فقد ظلّ الاعتقاد القديم في الآلهة المصرية ثابتاً لا يتغير، ولم يؤثر فيه العصر الحديث أي تأثير يذكر. وهكذا كان للدين صورتان: إحداهما صورة حديثة للحياة العادية، والثانية صورة قديمة لعبادة الآلهة في المعابد. ولم يكن الأمر يخلو من اختلاف وتناقض بينهما، على أن هذا قلما كان يضير المؤمنين: حقاً لقد كان كل شيء في المعبد يبدو عتيقاً مختلفاً عما كان يوجد خارجه، فماذا كان يمنع من أن يسمى سيرابيس فيه كذلك باسم أوزيريس؟ ولماذا لا يكون له كذلك شكل آخر مختلف تماماً؟ ففي المعبد كان يتخذ شكل المومياء بتاج عالٍ ولحية مضفورة، أما في خارجه، فقد كان في هيئة إغريقية جميلة على شكل رجل قويّ له شعر ولحية أشعثين وعلى رأسه المكيال. وكان الشعب يتمثله على هذه الصورة عندما كان يتجه إليه بالعبادة.

ومع الزمن أخذت الآلهة القديمة التي كان الشعب لا يزال يعبدها تفقد خصائصها شيئاً فشيئاً. أجل لقد حدث في العهد السابق للعصر الإغريقي أن أخذ يختلط الكثير من الآلهة المصرية بعضها ببعض، وقد زاد ذلك الآن فامتزجت الآلهة المختلفة فيما بينها، كما امتزجت مع آلهة الديانة الإغريقية. وإذا كانت إيزيس بإخلاصها لزوجها وحبها لابنها قد ظلت شخصية واضحة المعالم، فقد جرت العادة على رغم ذلك بالخلط بينها وبين حاتحور وغيرها من الإلهات، وبذلك أصبحت شخصية مبهمة غير واضحة، بحيث يمكن أن يقال تقريباً إنها غدت الإلهة بصفة عامة، وقد سميت فعلاً في إحدى المرات «الجوهر الجميل للآلهة جميعاً»(١). وفي نشيد العصر الروماني أصبحت تعتبر بصفة عامة إلهة كل مدينة، وأصبح على كل من نيت وباستت وبوتو وغيرهن أن تقنع بأن تصير إيزيس.

---

(١) Oxyr. Pap. XI, 1380 سطر ١٢٦.



١٥٩ - إيزيس - حاتحور - أفروديت
(برلين ١٣٧٩١)



١٦٠ - إيزيس ومعها الدفة وبوق الوفرة

إلى جانب هذا أصبح لإيزيس إذ ذاك دور جديد؛ فهي بوصفها إلهة ثغر الإسكندرية قد أصبحت حامية الملاحة، وبهذه الصفة كانت تمثل ومعها الدفة وبوق الوفرة وعليها رداء يكاد يشبه طراز أردية النساء من الدولة الحديثة ذو طيات كثيرة وعقدة على الصدر. أما حيث كانت تقوم بدور حاتحور - أفروديت، فقد كان ينبغي أن تبدو عارية حباً لهذه الرفيقة الإغريقية، وإن كان فيما تتخذه من حلية رأس مصرية ما لا يكاد يتفق مع هذا العري. وكانت في الأدوار الكثيرة التي كانت تقوم بها كإيزيس - تيشي، وإيزيس - أثينا، وإيزيس - أرتميس، وإيزيس عشترتي[١] تتخذ كذلك أشكالاً خاصة وإن كنا لا نستطيع تمييزها. وفي مساكن العصر الروماني نجد بين تماثيل الآلهة من الصلصال أشكال صغيرة متنوّعة لإيزيس، كانت تعتبر عند العامة من الناس تماثيل مقدسة، وكثيراً ما كانت تزوّد بمصابيح تضاء في عيد المعبود تكريماً له. وفي هذه التماثيل الصغيرة يتجلى الشغف بإبراز الجانب الإنساني في إيزيس، فقد كان يستحبّ تمثيلها مع

(١) Schubart, Papyruskunde S. 340 - 341.

رضيعها وهي تعطيه ثديها، في وضع يذكِّر في بعض الأحيان بتماثيل السيدة العذراء بما يثير الدهشة.

وكان المصريون ـ منذ عهد سحيق ـ يتمثلون إيزيس في نجم الشعرى اليمانية (سوتس)[1]، الذي كان ظهوره في الأفق الشرقي ينبىء بالفيضان، وإذ كان الإغريق يدعون هذا النجم «الكلب» لذلك أصبحت إيزيس ـ سوتس تمتطي كلباً يلمع على رأسه النجم. وقد تمثلها المصرون كذلك على هيئة الأفعى، المدافعة القديمة عن رع (صفحة ١٠٧)، ولإرضائها اتخذ أوزيريس صورة الأفعوان أيضاً. ويدلّ على إيزيس في هذه الحالة السستروم، وهو الآلة الموسيقية القديمة للنساء (صفحة ٢٤٩)، ثم الجرّة التي كان يراق منها في



١٦١ - إيزيس (برلين ٨٧٠٤، ٩٩٥٦، ١١٤٨٧)

المعبد الماء قرباناً لها؛ أما أوزيريس فتدلّ عليه كإله للموتى، يستدرج الناس إلى النوم، ثمرة الخشخاش، وذلك حسب أحد الرموز الإغريقية. وفيما عدا ذلك كان أوزيريس يبدو على شكل مومياء متوّجة طفقت تتخذ مع الزمن شكل آنية. بيد أنه كان يفضل تمثيله في هيئة سيرابيس على عرشه كحاكم العالم السفلي وإلى جواره كلبه.

(١) كان أهل مصر في العصر اليوناني يخلطون أحياناً بين إيزيس سوتس وساتس إلهة اليفانتين. Roeder, Ae. Z. 45, 22.

ولكن لم يكن ثمة إله أحبّ إلى قلب عامة الشعب من «حورس الطفل» (حرباخرد)، أو كما يسمى في الإغريقية حربوقراط. وكان يمثل بهيئة طفل سمين، يمصّ أصبعه أو يلعب، ومن هذا يتضح ما كان يعجب المصريين أن يتمثلوه بصفة خاصة في هذا الطفل الصغيرة. على أنه إلى جانب ذلك كان يبدو كذلك كائن إلهي، فقد كان يجلس كأنه خليفة إله الشمس في السفينة (صفحة ٣٥)، أو في الزهرة (صفحة ١٠١)، وقد يمتطي كبش آمون. وقد وجدت الأوزة،



١٦٢ - أوزيريس في هيئة المومياء (برلين ٩٣٦٨)



١٦٣ - إيزيس وأوزيريس في مقصورة (برلين ٨١٦٤)

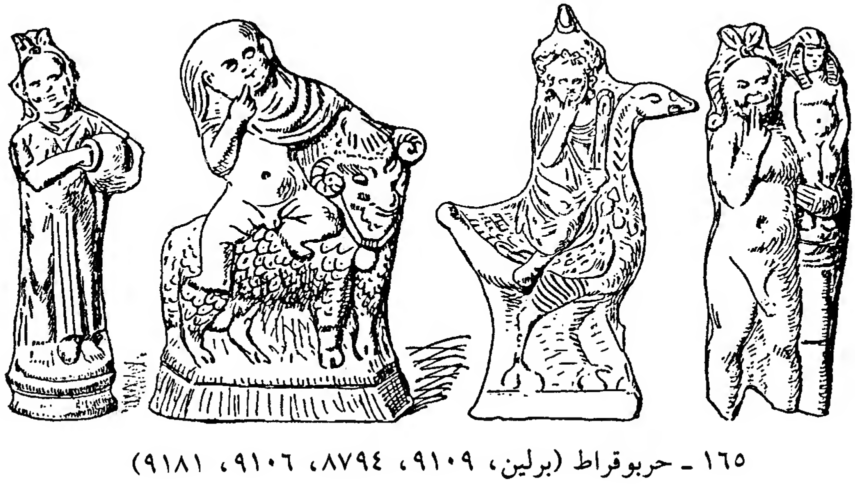
التي كانت تعبد في طيبة منذ الدولة الحديثة كحيوان مقدس لأمون، طريقها كذلك إلى حربوقراط، فهو يمتطيها أو يطعمها في حنان لِفتة. وإذا كان هذا الإله الصغير قد مثل في بعض الأحيان وقضيبه منتصب، فإنه يبدو أنه قد أخذ ذلك عن مين؛ ولكننا لا نعرف سبب اتخاذه كذلك هيئة الرجل العجوز يحمل سلة في ذراعه. وقد يحمل حربوقراط أحياناً، جرياً على العادة الإغريقية، بوق الوفرة،



١٦٤ ـ حربوقراط بتاج القطرين
(برلين ٢٤١٠)

يوزّع منه عطاياه، على أنه كثيراً ما يستبدل بهذه الأداة الشعرية قدراً قد تحتوي في الأغلب على الغذاء الذي يهبه الإله للناس.

وقد نافس هذه الآلهة الثلاثة في مكانتها وشهرتها إله آخر، هو بس، الذي لم تكن له من قبل غير أهمية ثانوية (صفحة ٢٠٨). وقد ظلت هيئته هزلية كما كانت من قبل، ولكنه كان يؤثر أن يتخذ هيئة المحارب ينتضي السيف ويمسك



١٦٥ ـ حربوقراط (برلين، ٩١٠٩، ٨٧٩٤، ٩١٠٦، ٩١٨١)

بالترس (انظر شكل ٢١٣). وثمة آلهة أخرى من أصل قديم كانت تبدو كذلك في هيئة الجند، ومنها أنوبيس وأوبوات، وهو ابن آوى القديم، ويمثله تمثال صغير في مجموعه برلين في هيئة جندي ملتح يمتطي صهوة جواده. أما حورس برأس الصقر فإنه يبدو لنا على هيئة المحارِب الراجل أو الفارس يقذف برمحه نحو عدوّه الذي يبدو أحياناً في هيئة التمساح من تحته، وذلك تماماً على نحو ما يبدو القديس جورج في الفن المسيحي. ولم ينسَ ذلك العهد كذلك العجل أبيس والبقر المقدس والقردة والقطاط والتماسيح والصقور.



١٦٦ ـ معبد صغير فيه حربوقراط (برلين ١٢٤٦٠)

وإلى هذه المعبودات القديمة انضمّ زيوس وهليوس وأرتميس وأفروديت وديونيسيوس وهرقل وبرياب. وفي الحق لقد تمصرت هذه المعبودات في أكثر الأحيان، حتى كان على هليوس نفسه أن يحمل على يده تمساحاً. ولكن ما كنه الأشكال الأخرى التي نجدها بجانب هذه الآلهة؟ وما كنه أبو الهول المجنح الذي يضع كفه على عجلة[1]؟ ومن تكون هذه المرأة العارية بتاجها الكبير؟ ومن تلك الحسناء المماثلة ذات الذراعين العاجزتين؟ ومن هي تلك الثالثة في

(١) وإنا لنجده كذلك على نقش كبير في متحف برلين، وقد تألف جسده من أجزاء آلهة مختلفة (متحف برلين رقم ٢٠٨٤٠).

المجموعة، التي تبدو كمارد بطين يربض على الأرض بساقين منفرجتين؟



١٦٧ - حورس المحارب (برلين ١٧٥٤٩)

وكل ما نستطيع أن نذكره هو أن ديانة العصر الإغريقي - الروماني كانت تزداد على الدوام ابتعاداً عن الديانة القديمة، وكانت تتجه نحو البساطة بإدماجها المعبودات القديمة المختلفة معاً، على أنها كانت تضيف إليها دائماً مخلوقات صغيرة جديدة، لعلّ أحداً لم يكن يعرفها خارج مناطق عبادتها، وإن كان لها في مناطقها شأن يذكر. ولسنا نعرف عنها عادة غير أسمائها، ومن العبث التساؤل عمن تكون الإلهة تريبس أو الإله فمنوير بالفيوم[1]، ومن هو كولانتس بإخميم؟

(١) Berl. Griech. Urk. Nz. 471: Scharff, Ae. Z. 62, 90.

ثم من هو ذلك الإله الكبير أنطايوس، الذي خلع اسمه على إحدى مدن الصعيد؟ وكان يمثل على هيئة رجل ملتحٍ، وفي قدميه حذاء طويل وعليه درع وسلاحه السيف والرمح، وفي يده غزال، من المحقق أنه كان، على مثال ما كان عليه الأمر في العهود القديمة (صفحة ٢٤٥)، يكنى به عن الكائنات الشريرة التي يقهرها، وإلى جانبه رفيقته نفتيس[١]. وبصفة استثنائية يمكننا أن نقول من أين أتى الإله الجديد برَامارِّس، الذي كان يعبد في الفيوم في القرن الثاني[٢]، حيث كانت توجد إحدى العجائب الكبرى لمصر، وهي ما يسمى اللابرنت، وهو



١٦٨ ـ بس المحارب الحامي
(برلين ٨٤٤٢)



١٦٩ ـ أنوبيس المحارب.
من البرنز (برلين ١٤٤١٨)



١٧٠ ـ حورس المقاتل
(برلين ٩٦٨٥)

المعبد الجنازي لأمنمحات الثالث، الذي كان يسمى في العهد الإغريقي لامارّس[٣]. وقد أصبح هذا الملك يعبد باسم الإله «برامارّس في هيئة الإله

Golenischeff, Aeg. Zeitschr. 20, 135; 32, 1.

(١) Rubinsohn, Aegyp. Ztschr. 42, 111.

(٣) كانت الصيغة القديمة لهذا الإسم قريبة الشبه في جرسها من لفظ لاموريا، وقد أدت بالإغريق إلى تسمية هذا المعبد باسم اللابرنت.

التمساح. وقد أدت عبادة هذا الملك إلى أكثر من هذا، وذلك لأنه إذا كان يحتفل به إلهاً، فما كان ينبغي أن يصنع أقلّ من ذلك بذلك الذي شاد ذلك المعبد الهائل، وقد جاء في أحدى الأساطير المتأخرة أنه كان مهندساً يسمى بتي سوخوس(١). وبذلك أصبح بتي سوخوس هذا إلهاً، واكتسب من الشهرة ما جعله يختلط مع الإله التمساح سوخوس ـ سبك، المعبود القديم لهذه المنطقة، حتى لقد كان هذا الإله يسمى أيضاً بتي سوخوس(٢).

وكان أولئك الحكماء القدامى، الذين كانوا على نحو ما رأينا (صفحة ٤٣٤) يمجدون كأنهم قديسون، لقد أصبحوا على نحو صريح من الآلهة(٣)، الذين يتمتعون في بعض الأماكن بعبادة رسمية. وأوّلهم جميعاً المهندس إمحوتب، أو إموتس كما سماه الإغريق؛ وكان يعتبر ابناً لبتاح، وقد أضحى الآن إلهاً شافياً، فهو: «ربّ الحياة يهبها لمن يحبّ وربّ الصحة»(٤). وقد سوّى الإغريق بينه وبين أسكلبيوس تماماً، ولسوف نعود فيما بعد إلى الكلام عنه وعن الكتاب الذي يقال أنه صنفه (صفحة ٥٢٩).

وإلى هؤلاء جميعاً يضاف مختلف الآلهة الأجنبية، وذلك لأن الدعاية الدينية قامت في مصر كما قامت في سائر أجزاء الإمبراطورية الرومانية، وقد أصبح في مصر كذلك أتباع لأدونيس وللأم الكبرى ولميترا(٥).

من هذا يستبين المرء أن اضطراباً كان يسود هذه الديانة المتأخرة، وقد كانت الآلهة كثيرة حقاً بما فيه الكفاية، وإنه لمن المضحك شيئاً ما أن تنعم

---

(١) لا بد أن كانت هذه الأسطورة حديثة جداً، تدل على ذلك صيغة اسم بتي سوخوس.

(٢) انظر: Schubart, Papyruskunde S. 351.

(٣) هكذا كان أيضاً أمنحتب بن حابو على نحو ما جاء في إحدى الكتابات الديموتيقية المنذورة. (Spiegelbert, Ae, Z. 50, 47).

(٤) هكذا في فيلة، حيث كان له معبد خاص أيضاً.

(٥) في متحف برلين نقش رديء لميترا من مصر؛ انظر أيضاً Schubart, Papyruskunde S. 353.

الحكومة الرومانية كذلك على البلاد بإلهها جوبيتر الكابيتولي وبربتها روما. على أن هذه الديانة الرسمية لم تظفر في حقيقة الأمر بأشياع كثيرين، وإنما زادت فقط في عدد الأعياد وفي نفقاتها التي كان على الجماعات أن تحمل عبئها؛ وبالإضافة إلى سائر الاحتفالات الأخرى كان يجب عليها أن تحتفل كذلك بعيد ميلاد روما وعيد ميلاد الإمبراطور.

وكما أن لدينا عن الفترة السابقة للعهد الإغريقي ما كتبه هيرودوت، الذي ينبئنا بما لم يرد عنه شيء في نقش أو بردية، فلدينا عن العصر الإغريقي الروماني ما كتبه استرابو الذي جاب مصر حوالي عهد أغسطس. وقد كانت مصر إذ ذاك بالنسبة للعالم الروماني ما أصبحت عليه الآن، أي كانت بلاد العجائب التي كان يجب أن تشاهد فيها الأهرامات وتمثالا ممنون وقبول الملوك بطيبة، والتي كان السائح يكتب اسمه على آثارها القديمة. ولا يعنينا هنا ما وجد فيه استرابو مثاراً للدهشة من هذه العجائب، غير أن فيما كتبه ما لا ينبغي أن نغضّ الطرف عنه. فهناك أولاً ما يرويه عن عبادة الحيوان، وهو يخصها بدور كبير من الأهمية، يفوق مايخصها به هيرودوت حتى ليبلغ به الاعتقاد أن يقرّر أنه لم يكن بالمعابد المصرية تماثيل للآلهة، وإنما كانت فيها تماثيل لحيوانات مقدسة ليس غير[1]. ولعلّ في هذا ما يشير إلى أن هذا السائح الأجنبي قد وجه جلّ انتباهه إلى هذه الناحية الغريبة من الديانة المصرية. أجل إنه لا سبيل إلى الشك في أن عبادة الحيوان قد زادت أهميتها منذ هيرودوت، ولقد كان ذلك العهد هو العهد الذي نظم فيه نصّ جنازيّ حافل بالمشاعر القوية وذلك في أبيات إغريقية رثاءً لثعبان سام مقتول: «بنواحٍ عالٍ ابكني أنا الثعبان المطهر، ذا العمر المديد، الذي ساقته يد أثيمة إلى العوالِم السفلى»[2]. وهو ذلك العهد الذي فيه أهلك العامة رومانياً لأنه قتل هرّة عفواً[3]، وتقاتلت فيه مقاطعتان متجاورتان لأن إحداهما

---

(١) Strabo 17, 28.

(٢) Berl. Ausi. Verz. S. 339.

(٣) Diodor I, 84/

كانت نعبد سمكة وكانت الأخرى تعبد كلباً[1]. على أنه كان يتصل بعبادة الحيوان ما لم يكن بسيطاً ساذجاً. فإذا كان أهل دندرة كانوا يكافحون التماسيح، فقد كان ذلك عملاً صالحاً طالما كان يحدث عن تقليد ديني؛ ولكنهم فطنوا كذلك إلى ما يمكن أن يجنوه بذلك من ربح، فطفقوا يعملون في روما مروّضين للتماسيح[2]. وكانت الحيوانات المقدسة في المعابد تعتبر حقاً مما يستحقّ الرؤية، ولهذا كان أبيس وأمه يقيمان في هيكلين صغيرين يشرفان على فناء. وكان يسمح بالتطلع إلى أبيس من خلال الباب؛ ومن أجل الأجانب كان يسمح له بأن يرتع برهة في الفناء، وذلك على وجه التحقيق لقاء أجر كافٍ[3]. وكان يسمح كذلك بتقديم الطعام له، فإن لم يتقبله الثور المقدّس كان في ذلك فأل سيء[4].

وفيما عدا ذلك كانت لأبيس أيام كثيرة يخرج فيها ليشاهده الشعب؛ وكان رجال الشرطة يفسحون له الطريق، بينا تجري من حوله جموع الصبية تتغنى بمدائحه حتى يأخذهم الذهول فيتكهنون[5] ـ وهذه سمة غريبة، وذلك لأن الهيام المذهول كان غريباً عن المصري الرزين.

ولندع استرابو يقصّ بنفسه كيف شاهد التمساح المقدّس سوخوس في أرسينوي، «وهو يطعم خبزاً ولحماً مما يأتي به الأجانب دائماً عندما يجيئون لمشاهدته. وقد مضى بنا مضيفنا، الذي كان من عليه القوم، والذي كان يجوب بنا هناك، إلى البحيرة، وقد احضر معه من طعام الغداء فطيرة صغيرة وشواء من لحم وإبريقاً صغيراً من شراب العسل. وقد وجدنا الحيوان راقداً على الشاطىء فاقترب الكهنة منه، وفتح بعضهم فاه وألقمه أحدهم الفطيرة واللحم، ثم سكب

---

(١) Plut. Is. et Os. 72.

(٢) Strabo 17, 44.

(٣) نفس المرجع ص ١٧ ، ٣١.

(٤) Plin. H. Nat. VIII 185.

(٥) Plin. H. Nat. VIII 185.

فيه بعد ذلك شراب العسل؛ ومن ثم قفز التمساح في البحيرة وسبح إلى شاطئها الآخر. ولما جاء أجنبي آخر يحمل هدية أخرى جرى بها الكهنة سراعاً حول البحيرة وألقموه إياها»[١].

وكان إطعام التمساح مما يجب أن يشاهده السياح في مصر؛ وهو بعض ما يتمثل من مناظر مصرية على قطعة من الفسيفساء في متحف الكابيتول؛ وكان عند تقدير تكاليف زيارة رسمية، يعمل كذلك حساب ما يقدّم للتمساح المقدس من طعام[٢].

وكان الرجل المثقف في مصر يرجو كذلك أن يشاهد الكهنة الحكماء الذين قيل عنهم إن الإغريق تعلموا عنهم كثيراً. وقد شاهد استرابو دورهم بهليوبوليس؛ أما «الفلاسفة والفلكيون» أنفسهم فلم يَعُد لهم وجود؛ وقد قابل استرابو كذلك «مقدمي القربان والأدلاء»[٣]. أما كهنة طيبة فقد كانوا لا يزالون يُعتبرون أهل علم يحسنون إجادة تلك المعارف[٤]. وقد عرف استرابو أيضاً كاهنات طيبة، وما يقصه عنهن[٥] لا ينبغي أن نغفل عن ذكره. فقد جاء أنه كان ينبغي أن تنذر لآمون أجمل الفتيات وأعرقهنّ أرومة، وكان لها أن تهب نفسها شهراً بأسره إلى من يروق لها، ومن ثم كانوا يبكونها بعد ذلك ويزوّجونها. هذه الرواية تدعو إلى التفكير في الزوجات الإلهيات[٦] وأوليات المحاظي والمغنيات اللائي كن يؤلفن في الدولة الحديثة حريم آمون؛ ولا يملك الإنسان إلا أن

---

(١) Strabo 17, 38.

(٢) Schubart, Aegypten, S. 222. يتعلق الأمر هنا بزيارة لمبعوث روماني في القرن الثاني قبل الميلاد.

(٣) Strabo 17, 28.

(٤) نفس المرجع ص ١٧، ٤٦.

(٥) نفس المرجع.

(٦) في عهد بطليموس فيلادلفوس كان لا يزال هناك سيدات من البيت المالك بمثابة زوجات إلهيات لآمون Brugsch, Thesaurus 907.

يتساءل عما إذا كان هؤلاء النسوة كن أساس هذه الرواية الغريبة. ولكن من يدري إذا كان استرابو لم يسىء تماماً فهم النظم القديمة، إذ ما من مصدر آخر لدينا يعرف شيئاً عن هذه العادة المزعومة.

ومع ذلك فإن معرفتنا بظروف الكهنة في هذا العهد المتأخر لا تكاد تعدلها معرفتنا بظروفهم في أيّ عهد آخر. ذلك لأنه يضاف إلى كل ما خلف هؤلاء الكهنة من نصوص، البرديات الإغريقية التي تشرح كذلك هذا الجانب من الحياة المصرية.

وإنا لنعلم من شواهد القبور المصرية، ومن التوابيت والنقوش التي نذرها هؤلاء الكهنة، أي آلهة كانوا يتعبدون لها في معابدهم الخاصة، وأيها كانت تعبد في المنطقة المجاورة. وإنا لنقرأ فيها أنهم كانوا كهنة عند هذا الملك وعند تلك الملكة، وأنهم كانوا يشرفون على حراسة الإبن الإله لمعبدهم، ويقومون برعاية حيوانه المقدس. وكانوا يضمون إلى مراتبهم الكهنوتية أرفع ألقاب دولة الفراعنة القديمة، ويعددون لنا في زهـو وفخر أن الأب والجد والأسلاف جميعاً من قبل الآباء والأمهات كانوا كذلك كهنة ممتازين[١]. وكثيراً ما كان يصحب هذا المركز الرفيع الجليل دخل وفير، وذلك لأن معبداً كبيراً في ذلك العصر كان في مركز يضمن فيه لأتباعه حياة رغدة. وفي معبد إدفو مثلاً نصّ يرينا مدى ما كان يمكن أن تبلغه ثروة معبد مماثل، فهو يحصي في تفصيل وافٍ جميع ما يمتلكه المعبد من حقول في القرن الأوّل قبل الميلاد، ولا يزال كثيراً مما يتضمنه غامضاً علينا، على أن من الواضح أن ما كان يدعيه حورس معبود إدفو أنه من أملاكه الخاصة كان لا يقلّ عن ٣٣ كيلو متراً مربعاً، موزعة على قطع صغيرة وكبيرة في الوجه القبلي. ويجب ألا يفوتنا أن هذا الإحصاء لا يشمل غير الممتلكات العقارية،

(١) هكذا ظلت وظيفة الكاهن الأعلى لمنف ثلثمائة عام تقريباً في أسرة واحدة من عهد بطليموس الأول حتى كليوباترة الأخيرة (Otto, Priester u. Tempel I 204 ff.).

وأنه لا سبيل إلى تكوين فكرة عما كانت تبلغه بقية ثروة المعبد من أموال معدّة ومن دخول وفوائد[1].

ولا ينبغي أن يغيب عن الذهن أيضاً أن المعابد كانت تدع صناعها ينتجون مختلف الأشياء لا لسدّ حاجتها فحسب، وإنما من أجل الكسب أيضاً. وكان من أهمّ المنتجات الكتان الرقيق والزيوت. وكانت المعابد تنشىء كذلك الحمامات والمخابز ومصانع الجعة لاستثمارها[2].

ومهما يكن من شيء فلم يكن من الحظّ السيء الانتماء في العصر الإغريقي إلى أحد المعابد الكبيرة.

على أن الناظر في أوراق البردى يجد كذلك معابد أخرى كانت موارد الرزق فيها محدودة جداً[3]. فعلى حافة صحراء الفيوم كان يقوم على بحيرة موريس معبد «سبك معبود الجزيرة»، أو سكنو بايو، كما كان يسميه الإغريق. وكان لهذا المعبد كاهن أعلى يتقاضى مرتباً ضئيلاً لا يعدو ٣٤٤ دراخمة، أما سائر كهنته الآخرون فقد كانوا يتقاضون مجتمعين حوالي ٣٠ لتراً من الحنطة يومياً لقاء ما يبذلونه من جهد وعناء. ولم يكونوا يعفون عن أعمال السخرة في الجسور، فإذا أعفاهم منها مواطنوهم فإنما كان ذلك من قبيل الجميل فحسب. وفيما عدا ذلك كان ما يدخل للمعبد يصرف على العبادة فيه. فقد كان يجب في كل عيد الحصول على كتان رقيق لكسوة التماثيل الثلاثة المقدسة، وكانت تبلغ نفقة ذلك كل مرّة مائة دراخمة؛ هذا فضلاً عن عشرين دراخمة لتضميخ التماثيل المقدسة بالدهن وزيت المرّ كل مرة، وخمسين دراخمة للبخور في الأعياد،

---

(١) لقد أقرض مثلاً معبد جوبيتر الكابيتولي، الذي كان ينتمي تماماً إلى المعابد المصرية، إلى ٢١ شخصاً مختلفاً مبالغ كبيرة وصغيرة في مرة من المرات.

(٢) Otto, Priester u Tempel 291 ff.

(٣) كانت الحكومة الإغريقية تجعل المعابد على ثلاث درجات.

وكانت أعياد ميلاد الأباطرة تقتضي كذلك ٤٠ دراخمة للقرابين والبخور[١].

وعلى الرغم من ظروف هذا المعبد السيئة فقد ظل هؤلاء الكهنة ـ وكانوا من الفلاحين وصغار الطبقة الوسطى ـ يعنون بألا يتلاشى ما لوظيفتهم من قداسة قديمة. وقد جعلوا من أبنائهم في سنّ الصبا خلفاءهم في طبقتهم الكهنوتية، وكذلك ظلت بناتهم حتى بعد الزواج تنتسبن إلى طبقة آبائهن. أما من كان يحيد من هؤلاء الكهان عن تقاليد طبقته، فيرتدي ثياباً من صوف أو يسمح لشعره بأن يطول فقد كانت السلطة العليا تُستعدى عليه، وذلك لأن لباس الكتاب والرأس الحليق كانا من علامات الكهنة الخاصة منذ أمد بعيد[٢]. وقد كان الختان عاماً بين المصريين جميعاً من قبل دون أن تنسب إليه حقاً أية أهمية خاصة، على أنه أصبح كذلك عادة للكهان، ولم يكن يسمح بأدائه لأبناء أسرهم إلا بإذن من الكاهن الأعلى، وكان ذلك فقط عندما كان يثبت قدماء الكهنة أن الصبي يخلو من أية علامة تجعله غير صالح لأن يكون كاهناً. عدا هذا لقد كان هذا الكاهن الأعلى أكبر موظف لشئون العبادة في منطقة كبيرة، وهو بذلك كان الممثل للموظف الروماني الكبير الذي كان بوصفه «الكاهن الأعلى للإسكندرية» و «مصر جميعها» له الإشراف الرسمي على معابد وادي النيل.

مما سلف عرضه جميعاً، يبدر إلى الذهن أن ما كان يبذل من عناية بعبادة الآلهة في هذا العصر كان يفوق ما بذل لها من قبل؛ ولبيان ذلك نسوق هنا مثلاً واحداً؛ وهو أن ناحية صغيرة من الفيوم لا يزيد تعداد أهلها عام ١١٥ ق. م. عن بضعة آلاف، قد كان فيها ما لا يقلّ عن معبدين كبيرين و ١٥ معبداً

---

(١) ويدل على ضآلة الطاقة المالية للمعابد الصغيرة أنه قد دعا الأمر في إحدى السنين في تبتينس إلى عدم إقامة الموكب العظيم للسنة الجديدة، وذلك لأن ملابس الطائر أبي منجل والصقر سرقت عند غسلها (Schubart, Aeg. S. 285).

(٢) وكانت عقوبة مثل هذه المعاصي لا تقل عن ١٠٠٠ دراخمة Schubart, Ae. Z. 56, 89.

صغيراً[١]؛ وكان لا بد أن تقوم على رعايتها جميعاً الكهنة، وإذ كان في معبد واحد، هو معبد تبتينس[٢] ما لا يقلّ عن خمسين كاهناً كانت تعترف بهم الدولة، فلا مبالغة حقاً في تقدير عدد كهان مصر جميعاً من نظاميين وعلمانيين بمائة ألف على الأقل. ولو أن هذا العدد الكبير كان تحت سلطة موحدة لكان له قوّة هائلة، ولكنه لم يكن كذلك، وفي بعض المناسبات فقط كان رجال الدين يتحدون معاً، وكان أهمّ ما يشغلهم إذ ذاك ابتداع تكريمات جديدة للبيت المالك[٣].

وإذا ما غضضنا الطرف عن الفوارق التي كان وجودها طبيعياً بين كهنة المعابد الكبيرة والمعابد الصغيرة، ألفينا أن في المعبد الواحد كانت مراتب الكهان تتدرّج تدرّجاً كبيراً. فقد كان هناك أولاً الكهنة الأعلون، وهم رؤساء الكهنة والعرّافون، الذين كانوا سادة المعبد حقيقة؛ وكان لهم حظ حمل تمثال الإله في الموكب. ويليهم قبل غيرهم القائمون على لباس الإله وعلى المظاهر الخارجية الأخرى للعبادة. أما كهنة الطبقة الدنيا فكانوا يتألفون من العلمانيين؛ وكان أعلاهم طبقة هم حملة ناووس الإله، وقد أبت عليهم السلطات الرومانية أن يسموا أنفسهم كهاناً[٤].



١٧١ ـ كاهنان يحملان تمثال حربوقراط (برلين ١٢٤١٧).

(١) Schubart, Papyruskunde, S. 348.

(٢) Schubart, Aegypten, S. 296.

(٣) تتمثل قرارات مثل هذه المجامع في مرسومي كانوب ورشيد.

(٤) Schubart. Ae. Z. 56, 92.

وهناك فارق آخر، فقد كان رجال الدين يقسمون إلى أربع طوائف وفقاً لعرف قديم؛ ويرجع هذا على ما يبدو إلى أن كهنة النوبات القدامى (صفحة ٢٦١) كانوا ينقسمون وقتاً ما إلى أربع طبقات، تتولى كل منها إدارة المعبد ثلاثة أشهر. على أن أحداً لم يعد يدرك معنى ذلك، ويدل على هذا أنه في سنة ٢٣٨ ق. م. زيدت في كثير من بساطة طائفة خامسة، كان عليها أن تعنى بتمجيد البيت المالك.

وليس من المستطاع هنا بحث المصادر التي كان الكهان يستقون منها دخلهم في مختلف العصور؛ غير أنه من الطريف أنه في معبد لم يكن يضمّ سوى كاهن أعلى واحد، كان هذا الكاهن يحصل على ما لا يقلّ عن خمس مجموع دخل المعبد[١]. ومما هو جدير بالملاحظة كذلك أن الكهنة كانوا يتناولون مرتبات عن قيامهم بأعمال معينة، وكانت هذه المرتبات ثابتة، بحيث كان يمكن أن يوصي بها كأنها دخل خاصّ، أو أن يُنتفع بها في وفاء حساب أو دين[٢].

على أن الشرف التليد والرداء العتيق الخاص لم يكونا ليصنعا كاهناً حقيقياً، وإنما كانت هناك أشياء أخرى تطلب ممن يسمح له مجلس الطوائف الخمس بأن يكون كاهناً في حضرة الإله[٣]. فقد كان يجب أن يجيد معرفة الكتابات المصرية الثلاث إجادة تامة، وأن يكون ضليعاً في الكتب المقدسة[٤]. وكان يجب أن يعرف الأيام والساعات المحدّدة للشعائر المقدسة، وكان عليه قبل هذا وذاك أن يعرف كيف يتخلق بالأخلاق الفاضلة. وكان يجب «أن يكون ذا فم قويم وشفتين عذبتين»[٥]، حتى يكون لتسابيحه التي يترنم بها عند تقديم

---

(١) Schubart, Ae. Z. 56, 90 (فقرة ٧٩).

(٢) Schubart, Papyruskunde, S. 355.

(٣) Glanville, Journ. of Eg. Arch. 19, 34 ff.

(٤) Clemens Alexandrinus Stromata V, 4.

(٥) Edfu, II 34.

القرابين جرس جميل. وما كان ينبغي له أن يعجل في خطوه، ولا أن يتحدّث مع آخر بصوت عالٍ[1].

ومع هذا فإن من يبتغي الحكم على الديانة المصرية في العهد الإغريقي الروماني اعتماداً على ما تعلن عنه معابدها في صورها ونقوشها فحسب، فلن يفيد من ذلك إلا صورة غير كاملة عنها؛ وذلك لأن من حولها قد نشأت صنوف مختلفة من الخرافات أخذت تنمو وتنتشر وتبلغ غاية ازدهارها أكثر من قبل. أجل لقد ازدهر التصوّف وازدهرت الخرافة كذلك في البلاد الأخرى في ذلك العصر، ولكنهما وجدا في مصر تربة صالحة بنوع خاص؛ وبذلك شغلت الآلهة إذ ذاك أكثر من قبل بإعلان تنبؤاتها وشفاء الأمراض. وكان الرجل إذا ابتغي الغوث نام في المعبد، فينبئه الإله عن مشيئته وقضائه، وذلك عن طريق رؤيا يفسرها له الكاهن. وقد يحدث حقاً أن في مثل هذا التفسير ما يضلل السائل ويعود عليه بالضرر، حتى إنه ليقول في غضبه للمفسر «إنه يكذب كما تكذب آلهته»، وإن «الآلهة ضللت به في إيمانه بالأحلام»[2]. غير أن آخرين غيره كانوا يعتقدون في ذلك اعتقاداً قوياً، وكانوا يجمعون ما كان ينسب إلى سيرابيس والآلهة الأخرى من قصص الشفاء، وذلك في كتب كانوا يبتغون بها تمجيد الآلهة وفائدة الأتقياء.. وقد حفظت لنا مقدمة كتاب من هذا القبيل يشيد بمعجزات الإله إموتس، وهو الحكيم القديم الذي غدا إلهاً (صفحة ٥٢٠)، والذي سوّى الإغريق بينه وبين أسكلبيوس. وفيها يقصّ المؤلف بأن هناك نصاً مصرياً قديماً، يروي كيف أن الملك منكاورع، باني الهرم الثالث، كان يخصّ إموتس بتمجيده، وأن هذا النصّ ظهر من جديد في عهد نقطانب، آخر الملوك الوطنيين، غير أنه كان بالخط المصري، ولهذا لم يكن يفهمه غير الآلهة. وإذا كان مؤلف هذا الكتاب يدين بالجميل لإموتس، لأنه أبرأ أمه، فقد آلى على نفسه

---

(١) Morgan, Ombos II, 245, 878.

(٢) Wilcken Urk. I 333.

لهذا الإله أن يترجم النصّ القديم إلى الإغريقية. على أن هذا العمل كان صعباً، ولهذا أجله، فبعث إليه الإله بأحد الأمراض. وفي الليل «إذ ينام كل شيء عدا المرضى» تملكه الحمى وضيق التنفس والسعال. وكانت أمه تجلس إلى جانب فراشه محزونة «وإذا بطيف إلهي مخيف يظهر فجأة، ولم يكن ذلك حلماً.. وكان أكبر من الإنسان وفي ملابس باهرة، وفي يسراه كتاب، وقد نظر إلى المريض مرّتين أو ثلاثاً من رأسه إلى قدميه...». ولما تمالكت الأمّ نفسها، أيقظت ابنها فوجد نفسه معافى من الحمى، وفي بحر من العرق. ومن العجيب أن كل ما شاهدته قد رآه هو أيضاً في نومه. وقد قدم للإله الشافي القربان شاكراً، ولكن الكاهن الذي كان قائماً على تقديم القربان أشار عليه بأن إنجاز الوعد أحبّ إلى الإله من القربان. وبهذا كتب المبرأ من مرضه كتابه ليعظم من مجد الإله: «ولسوف يروي كل لسان إغريقي قصة إموتس، ولسوف يمجده كل إغريقي»(١). ولا يكاد الإنسان يغمط حقّ ذلك الكتاب، الذي يبدأ على هذا النحو، إذا اعتبره كتاباً للدعاية لوحي إموتس في منف؛ وإنا لنعلم ما كان يجري في مثل أماكن الوحي هذه مما كتبه لوسيان عن العراف إسكندر الأبونوتيخي، إن لم نكن نعرف ذلك من مصادر أخرى.

وفي مصر نجد كذلك استلهام الوحي بطريقة رقاع الأسئلة، التي استغلها بمهارة فائقة صانع الأعاجيب هذا. وقد وجدت أمثال هذه الرقاع في هيكل سكنوبايو أيضاً، ذلك المعبد الصغير الذي كان يقع على حافة صحراء الفيوم، على الشاطىء الآخر من بحيرة قارون، والذي بقي لنا فيه الكثير من العجائب. وكان أصحاب هذه الرقاع من الفلاحين وصغار الطبقة الوسطى في هذه المنطقة، وهي تكشف لنا عن رغباتهم وآلامهم. فهذا أحدهم يسأل الإله عما إذا كان عمدة القرية قد باع بقرة؛ وهذا آخر يريد أن يعرف هل يفحص حاكم المقاطعة الوثائق؛ وتلك امرأة ترجو أن تعرف هل لها أن تشتري عبد امرأة أخرى. وآخر

(١) Oxyrhynchus Pap. XI 1381. سطر ٢٠٠.

يكتب على رفعته: «أيقدّر لي أن أتزوّج تابتويس، وهل لن تكون زوجة رجل آخر. بين لي ذلك وحقق لي أن هذا الرجاء المكتوب. لقد كانت تابتويس زوجته لحوريون من قبل»(١). ومن الواضح أن السائل قد أضاف العبارة الأخيرة حتى يتضح للإله تماماً، أيّ امرأة بهذا الإسم هي المقصودة بالذات. وقد ازدهرت هذه الطريقة في المعابد الكبيرة أيضاً، كما في أبيدوس حيث كان بس يجيب على رقاع الأسئلة(٢)، وكما في هليوبوليس، حيث كانت تقدم للإله رسائل مختومة، كان يجيب عليها كتابة(٣).

وكان معبد سكنوبايو من أماكن الحج أيضاً، يزوره الحجاج من الأماكن القاصية، وذلك لأن إلهه كان قريباً من الناس بصفة خاصة، وكان يستمع فيه إلى الدعوات أكثر مما كان الأمر في أيّ مكان آخر. وكان من أمثال هذه الأماكن السيرابيوم في منف، ومعبد أبيدوس ومعبد إيزيس بفيلة في العصر الروماني بنوع خاص، حيث نعرف مما لا يحصى من كتابات، أن هؤلاء أو أولئك قد تعبدوا هنا لإيزيس في ورع وتقوى ـ وذلك تماماً على نحو ما تطلب إحدى الكتابات في بلاد النوبة من التّقيّ: «زر كل معبد للتعبد والدعاء»(٤).

بيد أن ما كان يقدّم للآلهة من دعوات لم يكن لسعادة الغير دائماً، إذ كانت تقدّم إليهم كذلك تمنيات أقلّ وداً وإخلاصاً. فقد وضعت امرأة تدعى ارتميزيا رقعة أمام سيرابيس ضمنتها شكواها ضد زوجها تتهمه بأنه يسرق قرابين مقبرة ابنتها، فإذا رأى الإله أنه مذنب فليحرمه وأبويه من الدفن وليمحق حياته وحياة كل من ينتمي إليه طوال قيام هذه الشكوى أمام الإله. وقد حرصت أن تضيف

---

(١) Schubart, Papyruskunde S. 357.

(٢) Schubart, Ae. Z. 67, 114 وذلك طبقاً لما جاء في Ammianus Marc. 19. 12.3.

(٣) نفس المرجع طبقاً لما جاء في Macrobius Saturn I, 23.

(٤) Schubart, Aegypt. S. 312.

إلى هذا أن يعاقب الإله[1] كذلك كل من ينزع هذه الرقعة[2].

وكان الإنسان يؤثر أن يتجه بالرغبات الخبيثة لا إلى الآلهة العظيمة وكهنتها وإنما إلى الساحر الذي كانت طوعه الآلهة والشياطين على حدّ سواء، فمن كان يرغب مثلاً أن يشلّ عدوّاً فقد كان يأخذ رأس حمار ويلطخ قدميه بالطين، ثم يتجه إلى الشمس ورأس الحمار بين القدمين. وكان يدهن يديه وفمه بدم حمار، ويمدّ إحدى يديه إلى أمام والأخرى إلى خلف، ثم يقول: «إني أدعوك يا من تقطن الفضاء، يا مخيف، يا خفيّ، يا قويّ، يا إله الآلهة، يا متلفاً ويا مخرباً، يا من يكره بيتاً يسوده النظام. إنك حينما طردت من مصر سميت «محطم كل شيء، والذي لا يقهر». أيا تيفون ست إني أدعوك، إني أتمّ رقيتك، لأني أدعوك باسمك الحقّ، الذي به لا يمكنك إلا أن تصيخ السمع: يو - إربت، يو - باك - إربت، يو - بُلخو - ست، يو - يو - باتاتناس، يو - شوءو، سو - نيوتو شوابت، اكتسوقس، أرشيجال، نب - أبو سوالت، أبي - رامنتون، لرتكس - أناكس، إترليوت، نماربا، إمينال! تعالى إليّ وادن مني، وأصب هذا أو تلك بالقشعرية والحمى. لقد أساء إليّ، وأهرق دم تيفون. . . ومن أجل ذلك أفعل هذا»[3]. والإله الذي يدعوه الساحر على هذا النحو هو ست القديم، الذي سوّى الإغريق بينه وبين المارد تيفون، وقد تمثل المصريون منذ عهد مبكر حيوانه المقدّس على شكل حمار (صفحة ٤٦)؛ وعلى هذا التصوّر تعتمد هذه التعويذة السحرية، وإليه أيضاً يرجع لفظ «يو» المتكرّر، وذلك لأنه هو الإسم المصري للحمار. ويبدو أن «أناكس» إن هي إلا كلمة إغريقية، أما «إرشيجال» فتدلّ على أن بعض هذه الأسماء قد وردت إلى مصر من مناطق بعيدة، وذلك لأنها ليست إلا الإسم السومري القديم لإلهة العالم السفلي[4]، الذي لا بد أن أدخله إلى

---

(١) لا يزال الإله يسمى أزيرأبيس، ولهذا فإن هذه الرقعة قديمة جداً.

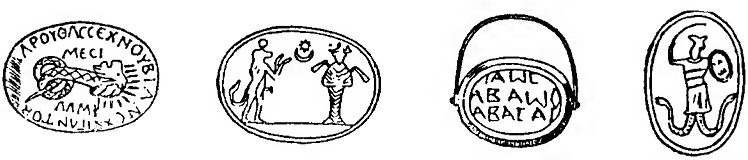
(٢) Wilcken, Urk. I 102.

(٣) Thompson, Demot. Magical Papyrus, p. 145.

(٤) Thompson, Demot. Mag. Papyrus, p. 61.

مصر سحرة بابل. وفيما عدا هذا فإننا نجد كذلك في الصيغ السحرية من ذلك العصر صنوفاً مختلفة مما لا ينتمي إلى مصر ولا إلى بلاد الإغريق. وهي بالأحرى ذكرات متخلفة عن الديانة اليهودية، فإن الساحر يذكر في نفس واحد أوزيريس وسباوت (أي زباوت)، ورؤساء الملائكة وآلهة الإغريق. وكان الساحر إذا أراد أن يظهر له الإله في الرؤيا جنح إلى الاستعانة بموسى «الذي تجليت له على الجبل»، ثم يؤكد له بعد ذلك مباشرة بأنه «سيمجده في أبيدوس» و «في السماء أمام رع»[١]. وكانت مثل هذه الأسماء والكلمات الأجنبية كثيراً ما ترد كذلك على قطع الأحجار المنحوتة، التي كان من المعتاد حملها كتمائم. وكان لا بد من أن تمثل عليها آلهة مصرية أو إغريقية أو آلهة نفيلة جمعت بين النوعين في أشكال غريبة، وإلى جانب ذلك ألفاظ مثل ياو[٢] أبرا ساكس، ياو سباوت أو سمس إيلام (أي الشمس الصغيرة) أو باي إن خوخ (روح الظلم)[٣].

ودخلت مصر في ذلك العصر كذلك صنوف جديدة من الخرافات، وقد ازدهرت فيها كثيراً، وهي التنجيم والكيميا وغيرهما، مما لم يكن له على ما يبدو أصول فيما كان للمصريين من سحر قديم. على أن الأهمية الرئيسية قد ظلت لفنون السحر القديمة وهي: شفاء الأمراض والجروح، وتعاويذ الحبّ، ورقى جلب السلطة والهيبة، وكل التعاويذ الغريبة التي تثير الجنون والمرض. وكان يعتقد أن الساحر في ذلك العصر يستطيع أن يفهم منطق الطير والزواحف، وأن يفتح السماء والأرض والعالم السفلي، وأن يستدعي الموتى من عالمهم.



١٧٢ ـ تمائم من الحجر، تسمى عادة جواهر أبر كساس (برلين ٩٨٦٥، ٩٧٩٩، ٩٨٥٨)

(١) Thompson, Dem. Mag. Pap. S. 47.

(٢) ياو هو يهوى.

(٣) انظر: Berl. Museum Ausf. Verz. S. 378 ff.

وقد بلغ من انتشار كل فنون السحر هذه في مصر أن أصبح العالم المصري يعتبر في تصوّر العامة في العصر الروماني - في بساطة ويسر - ساحراً أيضاً. وترينا قصة لوسيان الطريفة كيف كان الرجل نصف المثقف يتصوّر إذ ذاك الحكم المصري. فهي تروي لنا كيف أن شاباً حمله أبوه على السفر رغبة في تثقيفه، قد زار مصر أيضاً، فركب النيل مصعداً، إذ كان لا بد من أن يثير تمثال ممنون إعجابه. وفي عودته تعرف في السفينة على رجل مسنّ، يسمى بنكراتس، وهو اسم إغريقي، وقد كان يجيد الكلام بالإغريقية، على أنه كان مصرياً من منف. وكان رجلاً كثير الإطراق والتفكير، له ساقان نحيلتان وأنف أفطح وشفتان بارزتان. وكان رأسه الحليق وقميصه الكتاني يدلان على أنه كاهن؛ وكان من الكتبة المقدسين، بل كان «صاحب حكمة رائعة، خبيراً بالثقافة المصرية جميعاً». وقد قضى ثلاثة وعشرين عاماً طوالاً في أماكن خفية تحت الأرض، تعلم فيها السحر من إيزيس نفسها. ولهذا كان يأتي في كل يوم بمعجزة يدهش لها رفيقه في السفر؛ من ذلك أنه كان إذا توقفت السفينة امتطى التماسيح وطفق يعوم بين الحيوانات، وهي تأتي إليه خاضعة تهزّ أذيالها، حتى إن العالم أجمع اعترف له بأنه رجل قديس. ولم يكن بحاجة إلى أن يصطحب معه من يخدمه، وذلك لأنه حين كان يحتاج إلى من يعاونه في المساء، كان يتناول أية أداة فيتمتم عليها مقاطع ثلاثة من صيغة سحرية فتستحيل في الحال خادماً يجلب له الماء، ويقوم له بغير ذلك من خدمات. وعلى الرغم مما أبداه الفتى من صداقة، فقد كان يحتفظ بسحره هذا سرّاً لا يبوح له بشيء منه. على أن الفتى عرفه صدفة. ولم يتوانَ في محاولة تجربته بنفسه. ولست بحاجة إلى أن أبحث هنا ما جرّته عليه هذه المحاولة من شرّ، وذلك لأن «صبي الساحر» من تأليف جيتا قد أشاعت هذه القصة بيننا جميعاً[(١)].

ويتصل كذلك بعالم السحر هذا، ذلك الأدب الذي نسميه كتب هرمس،

---

(١) Lucian, Philopseudes - وإلى هذا يرجع أيضاً ما جاء من أن كفتا العظيم تلقى حكمته «في أعماق المقابر المصرية».

وذلك لما يظن من أنها تتضمن تعاليم هرمس العظيم ثلاثاً، وهو تحوت إله الحكمة القديم، أو هرمس ترِسمجستس. وقد اجتذبت هذه الكتب الصوفية وما يماثلها من كتابات بويماندر أشياعاً كثيرين، وفي هذا ما يميز ذلك العصر، الذي لم يعد فيه المثقفون يؤمنون بالآلهة القدمة، والذي فيه أخذوا يبحثون في قلق عن وحي جديد. أجل لا تزال بعض آثار التقاليد القديمة هنا وهناك في هذه الكتابات (صفحة ٤٥٧)، ولكنها في جملتها تنمّ عن روح غريبة؛ وإنها في أغلبها لتأملات فلاسفة متصوّفين، لا ضابط لها.

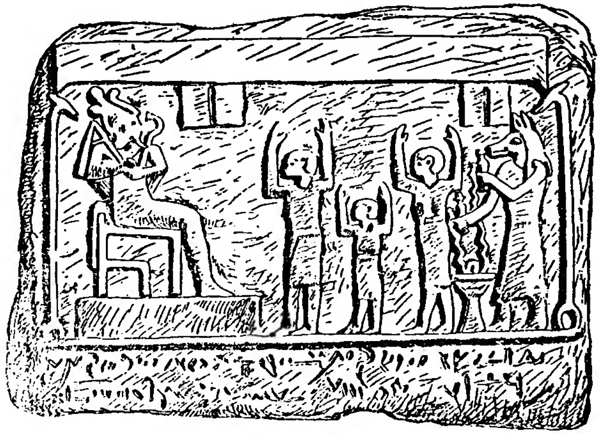
في هذا العصر، الذي تبدّلت فيه التصورّات الدينية كثيراً أو قليلاً، لم تسلم كذلك من تأثير التصوّراتُ المتعلقة بالحياة بعد الموت، وهي التي يمكن أن تعتبر في مصر ثابتة لا تتغير. حقاً لقد ظلت الطقوس من الناحية الشكلية هي هي بصفة عامة كما سنرى، ولكن المرء أصبح يتمثل مصائر الموتى على نحو يختلف في كثير من جزئياته عما كان يتصوّره من قبل، وتدلّ على ذلك إحدى قصص هذا العهد. لقد كان الكاهن الأعلى خعمواس يرجو أن يكون له ولد، فأرسل إليه أوزيريس ميتاً خبيراً بالسحر، ولد له كابنه. وكان هذا الإبن واسمه سي أوسر رع يعاون أباه بفنونه السحرية، وقد أدخله يوماً إلى العالم السفلي، وكان ما شاهده الكاهن الأعلى في هذه الرحلة غريباً جداً، لا ينبغي لنا هنا أن نغضّ عنه النظر.

وقبل أن يلج الرجل وابنه في جبانة منف إلى العالم السفلي، قابلا فيها جنازتين، أولاهما لرجل ثريّ تشيعه باكية إلى مقرّه الأخير حاشية كبيرة في ملابس فاخرة، والثانية لرجل فقير يُحمل إلى قبره ملفوفاً في حصير ولا يشيعه أحد. وعندما اجتازا الأبهاء المختلفة في العالم السفلي شاهدا في الخامس منها «الممجدين الأجلاء»، وفي السادس كان يجلس أوزيريس نفسه على عرشه الذهبي وإلى جانبه أنوبيس وتحوت مع مستشاريه. ومن أمامه كان الميزان الذي فيه توزن أعمال البشر (صفحة ٣١٣)؛ «فمن كانت سيئاته أكثر من حسناته فإنه يسلم إلى الملتهمة في العالم السفلي؛ وتفنى روحه وجسده، ولا يجوز أن يحيا

بعد ذلك. ومن كانت حسناته أكثر من سيئاته فهو يُتقبل بين المستشارين المقدسين لسيد العالم السفلي على حين تذهب روحه إلى السماء، مع الممجدين الأجلاء، وقد شاهد، خعمواس كذلك شتى طوائف المعذّبين؛ وكان بعضهم في البهو الرابع». وقد علق فوق رؤوسهم الخبز والماء، وهم يمدون إليهما أيديهم، ولكن الأرض تهوي من تحت أقدامهم فلا يستطيعون إدراك الطعام. وكان في باب البهو الخامس رجل يدور في عينه اليمنى محور الباب، وهو يتوسل وينتحب. وقد قال أو سرع لأبيه، إن هذا المعذّب لهو الرجل الغنيّ، الذي شاهدا جنازته الفخمة، فقد كانت سيئاته أكثر من حسناته. وبالقرب من عرش أوزيريس كان يقف رجل عظيم متدثر بملابس فاخرة من كتان ملكي، وهو نفسه ذلك الفقير الذي نقل إلى قبره في الحصير. لقد كانت حسناته أكثر من سيئاته، ولهذا منح متاع الرجل الغنيّ «وجعل بين الممجدين الأجلاء، بصفته ولياً للإله، يرافق سكر». وذلك لأن «من يك على وجه الأرض خيّراً يجد في العالم السفلي خيراً، ومن يك شريراً يلقَ شرّاً»(١). وقد بين سي أوسر رع أموراً أخرى لأبيه، ولكن معرفتنا للأسف لم تبلغ بنا حدّ فهم عباراته حقّ فهمها. على أنه يبدو أن العالم السفلي في هذا العصر المتأخر كان يختلف عنه في العهود القديمة. لقد كان أوزيريس ما يزال يقيم فيه مع آلهته وأطيافه، ولكن أعمال الإنسان غدت وحدها هي التي تقرّر مصيره، فمن كان مذنباً فلن تفيده التوابيت والتمائم والأوشبتيات جميعاً، ولسوف تنزع منه وتعطى للفقير، الذي كان رجلاً طيباً. وكان ذلك المارد الذي يلتهم الأرواح، لا يزال يقوم بعمله في العالم السفلي، وكان لا يزال يقال عنه إنه يُفنيها، ولكن خيال الشعب اصطنع كذلك عقوبات للأشرار، كان عليهم أن يقاسوها بالرغم من فنائهم.

---

(١) ومما يتعلق بهذا أيضاً أن شخصاً يشكو إلى أوزيريس على أحد شواهد القبور بأنه قتل وألقى به في إحدى القنوات دون أن يقترف ذنباً. ومعنى هذا على وجه التأكيد أنه ينبغي لأوزيريس أن يعاقب المذنب المجهول. Spiegelberg, Ae. Z. 45, 97.



١٧٣ ـ شاهد مقبرة من العهد الروماني، يضرع فيه الموتى أمام أوزيريس على الطريقة الإغريقية (برلين ٢١٢٣).

وإلى جانب ما حدث في عالم الموتى من تحوّل، كان في حقيقة الأمر تطوّراً طبيعياً، طرأ عليه كذلك تغيير آخر من قبل الأفكار والتصوّرات الإغريقية: فأوزيريس ـ سيرابيس غدا بلوتو، وتحوت الذي كان يزن القلب أصبح منذ الآن يعتبر هرمس، الذي يقود أرواح الناس إلى الجحيم، وكان يحمل مثله مفتاحاً[١].

وغدا بس يحمي كذلك الموتى، كما يحمي الأحياء، وإذ ذاك أصبح يحمل كذلك مفتاحاً[٢]؛ أما حاتحور التي كانت من قبل إلهة الغرب (صفحة ٥٥)، فقد صارت صنواً مؤنثاً لأوزيريس؛ وبينما كان الموتى حتى ذلك الوقت ينعتون بأوزيريس أصبح يؤثر تسمية الموتى من النساء بحاتحور. عدا هذا، فهناك مسائل أخرى يحوطها الغموض، ومن ذلك مثلاً الإله الذي تمثله صورته على أحد الآثار[٣]

(١) Berlin, Ausf. Verz. S. 356, Nr. 11651 ـ وفي حمل الإله للميزان أن ما يرجح أنه الإله تحوت.

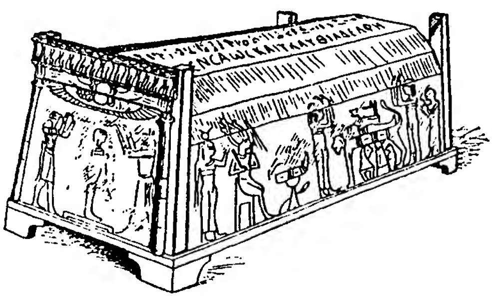
(٢) نفس المرجع ص ٣٤٥ رقم ١٤٢٩١.

(٣) نفس المرجع ص ٣٥٦ رقم ١١٦٥١.

وهو يدلي دلواً؛ ليحصل بذلك للميت على «الماء البارد»، الذي أصبح يعتبر حينئذ خير ما يقدمه أوزيريس؟

وفي العصر الإغريقي الروماني كذلك ظلت الصيغ الشكلية للدفن في جوهرها على ما كانت عليه، بل لقد ازداد فيها الطابع التجاري. وكان هناك أوّلاً المحنطون المتخصصون، الذين يسمون التاريخيتيين الذين تشهد لهم المومياوات إلى الوقت الحاضر بجودة أعمالهم أو رداءتها. ولم تكن نفقات الدفن حقاً بالقليلة، إذ كانت تبتلع دخل سنة تقريباً[١] وبخاصة أن تحنيط طفل قد استغرق اثنين وسبعين يوماً، وفق ما يتضح من عقد حفظ لنا[٢]. وكانت الحكومة تفرض كذلك ضريبة على اللفائف اللازمة للتحنيط، كما كانت فوق ذلك تفرض المكوس على نقل الجثة، ولم يكن يعفى من الضرائب غير عبور النيل[٣].

وإلى جانب التاريخيتيين النجسين، كان هناك جماعة نصف كهنوتية، يسمون الكواخيتيين «مانحي الماء»، الذين كان أهل الميت يتعاقدون معهم على رعاية الخدمة الجنازية، ولهذا كان كل ميت، يقومون على رعايته، بمثابة رأس مال لهم، يحصلون منه على فائدة ثابتة، وإنه لمن المضحك أن نراهم يتنازلون عن بعض الموتى أو يبيعونهم.



١٧٤ ـ تابوت الطفلين سنساوس وتكاوتي، وعليه نقوش إغريقية من القرن الثاني بعد الميلاد (برلين ٥٠٥).

(١) Schubart, Aegypten S. 307.

(٢) Spiegelberg, Ae. Z. S. 54, 112.

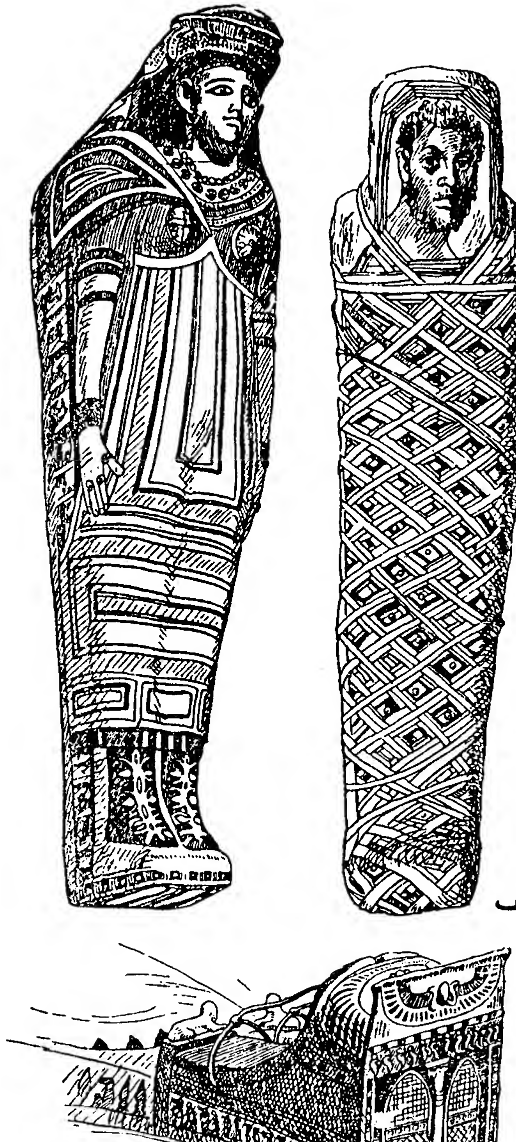
(٣) Schubart, Aegypten, S. 304.

ولم يكن للموتى، الذين يعاملون على هذا النحو، بطبيعة الحال مقابر كبيرة خاصة على الشكل القديم. على أية حال لم يبقَ لنا من هذا العهد إلا القليل من هذه المقابر[1]. وكان أغلب الموتى يستقرّون في حفر وآبار بسيطة في الجبانات، أو يدفنون في مقابر عامة، كانت تعدّ في بعض الأحيان في المقابر القديمة من العصور السابقة[2].

ولم يكن لأفقر المومياوات توابيت تدفن فيها، وإنما كان يكتفى بشدّ جثثهم إلى ألواح من خشب، أو إلى جذوع من نخيل حتى يكون لها شيء من ثبات. أما مومياوات الأغنياء وتوابيتهم فقد كانت تجهز في فخامة بالغة وخاصة في العهد الروماني. ولم يسبق في أي عصر أن لفت الجثث في أكفانها بمثل هذا الكمال. أو جهز غشاؤها الخارجي بمثل هذا الترف؛ فكان القناع الذي يغطي رأس الميت يغشى بالذهب، أو يشكل في الطراز الإغريقي وبالألوان الطبيعية في هيئة صورة صادقة للميت. وفي بعض الأحيان كان القناع يصنع ثم يرفع قليلاً فوق الرقبة حتى ليبدو الميت كأنه يستيقظ على نحو ما فعل أوزيريس ذات مرّة. وكانت ملامح الميت تصوّر كذلك على لوح من خشب أو على طرف من الكفن ثم توضع هذه الصورة فوق وجه الجثة. وفي أحيان أخرى نجد صورة الميت بأكملها على الكفن، وذلك كصورة الشاب ديون على قطعة قماش في متحف برلين، وقد كان بستانيا كما يدل على ذلك «جاروف» وغصن في يده. وكانت المومياء تزوّد في أكثر الأحيان عند قدميها بنعلين صوّر على باطنهما أسرى مقيدون، وذلك لأن الميت ينبغي أن يطأ أعداءه أسوة بأوزيريس. وقد تشكل قدما المومياء على هيئة معبد بحيث يبدو باطن القدمين كأنه قدس الأقداس - ولا

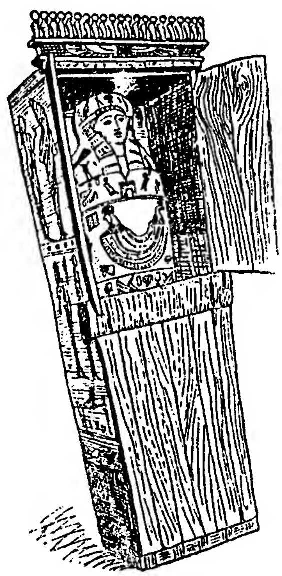
(١) ويوجد أعظم هذه المقابر في الإسكندرية نفسها، وتحليها صور من الطراز المصري الإغريقي الخليط. ومع أن المدفونين فيها من الإغريق، إلا أنه في الموت كان «يؤثر اتخاذ العادات المصرية» (Schubart, Aegypten, S. 85)

(٢) وكان يحدث أن تستبعد جثث أصحاب المقابر القديمة دون رعاية، ثم تدفن في الرمال المجاورة.



١٧٥ ـ مومياوات وأغشية مومياوات من العصر الروماني (أ) الميتة ممثلة في ثيابها الكاملة (برلين ١٣٤٦٢)، (ب) صورة صادقة ملونة للميت (برلين ١١٦٧٣)، (جـ) الطرف الأسفل من غشاء المومياء وقد شكل على هيئة معبد (برلين ١٣٤٦٣).

يعرف إلا الله أي غرض يقوم عليه هذا التصوّر. وفي أحيان أخرى كانت الثياب تتخذ شكل الجسم، وعندئذ تتحلى اليدان والذراعان بحلية ثمينة أو تمسك تاجاً صغيراً من الورد. وفضلاً عن ذلك كان يفضل في مثل هذه المومياوات إضافة أشكال للآلهة على الغلاف نفسه أو على قطعة من الكفن تطوى فيها؛ وهي تمثل إيزيس ترضع الميت أو تمثل أنوبيس وهو يحنطه؛ ومهما تكن هذه الأشكال قبيحة مشوّهة، ومهما تكن ضآلة ما بذل صانعوها من دقة، فإنه كان يظنّ أنها على وجه التحقيق تجلب للميت النعيم.



١٧٦ ـ مومياء في صندوق
(برلين ١٧٠٣٩)

أما هذا الإعداد الرائع للمومياوات الرومانية فلعله أن يكون مرتبطاً بعادة عجيبة، نعرف عنها يقيناً أنها كانت قائمة في ذلك العصر[١]. فقد كان المرء يحتفظ بمومياوات الأقارب في البيت إلى حين، كأنه لا يقوى على فراقها، وبهذا كانت تقام في توابيت لها أبواب تنفتح كما تنفتح أبواب الصوان، أو كانت تستقرّ على نعوش جميلة ذات جدران مثقّبة على نحو ما يوجد في مقابر ذلك العصر.

(١) Carl Schmidt, Ae. Z. 32, 56.

وطبيعي أن هذا الطراز من الدفن إنما كان للأغنياء، ومع هذا لقد عملت كذلك السلطة الحاكمة إذ ذاك على دفن المعوزين دفناً مناسباً؛ ولم يكن هذا الأمر يسيراً، إذ كانت رغبة كل امرىء أن يستقرّ في جبانة بلده.

فقد أُرسلت - على سبيل المثال - مومياء إلى أهل صاحبها في بلدهم، وألحقت بها الصورة التي كان ينبغي أن تزينها. ثم طلب الإقرار بوصولها[١]. وفي مرّة أخرى ذُكر بأسلوب تجاري واضح: «سلم المومياء في بانوبوليس لأن ديديموس من بانوبوليس[٢]. وقد يطلب باختصر أن: «تنزل في ميناء إمّاو» أو «بومبي»، وبذلك كان يكلّف أحد الملاحين بتسليمها إلى القائم بدفن الموتى في جبانة إمّاو أو بومبي، فيدفنها هذا في الرمل حيث تثوى مئات من مومياوات أخرى قد أُحسن تنسيقها وزوّدت ببطاقات من خشب. وبذلك كانت تحشد في مثل هذه المقابر العامة في العصر الروماني طائفة مختلفة من المومياوات: فإلى جانب «الكاهن سانسوس» و «السيدة زوجة الطبيب أبوللونيوس» يضطجع «النجار بسنتيس» ثم «إبا فريس عبد الفيلسوف يوليوس إيزيدورس»[٣]. وثمة شيء آخر يقع في خاطرنا ونحن نجيل النظر في بطاقات مثل هذه الجبانة، وهو اختلاف العبارات القصيرة التي تصاحب الإسم هنا أو هناك. وإنا لنجد من بينها الصيغ المصرية مثل «إن روحك لتحيا» أو «لترزقك حاتحور خبزاً» و «لتمنحك منكت جعة» و «لتعطك حست لبناً»[٤]، كما نجد كذلك الصيغ الإغريقية: «لا تحزن»، و «ما من إنسان خالد» أو «للذكرى الأبدية». ولكن فيم يعني أن يقال عن بعضهم «إنه قد أخلد إلى الراحة»؟ أو إنه قد «ذهب إلى الضياء»[٥]؟ إننا ما كنا لنستطيع تفسير ذلك لو أنا لم نجد إلى جانب اسم آخر مختصر لفظ المسيح،

---

(١) Spiegelberg, Ae. Z. 51, 89 ff.

(٢) Carl Schmidt. Ae Z. 34, 79.

(٣) Krebs, Ae. Z. 32, 36 ff.

(٤) Spiegelberg. Ae Z. 50, 42.

(٥) انظر مقالة كارل شمدت السالفة الذكر.

ولو أنا لم نعرف من مصادر أخرى أن مثل هذه التعبيرات إنما كان يستعملها مسيحيو القرون الأولى. لقد كانت المسيحية تنتشر سرّاً بين الناس، وإنا لنجد الدمى الصغيرة المقدّسة من الفخار، تلك اتي تكلمنا عنها آنفاً (صفحة ٥١٤)، الشكل المألوف للراعي الصالح. وعلى هذا فإن من بين الذين حنطوا وفق الطقوس الوثنية، ثم دفنوا وسط قوم وثنيين، من كانوا في واقع الأمر مسيحيين؛ ذلك أن المؤمنين بالعقيدة الجديدة قد احتفظوا في أوّل أمرهم بالعادات الوثنية، وإنا لنجهل متى تغير ذلك، على أية حال لقد ظل التحنيط بعد ذلك أمداً طويلاً في مصر. وإن من يرى غشاء المومياء المصـور هنا، فإنه يميل إلى تأريخه إلى القرن الرابع، أي في عصر كانت غالبية المصريين العظمى فيه إذ ذاك من المسيحيين. ومع ذلك فإن الدمى من الجصّ المذهب التي تزينه ليست من المسيحيةِ في شيء، وإنما هي من مظاهر الوثنية جميعاً، مثل نعش أوزيريس وسفينة الشمس وإلهات الجمال الثلاثة؛ ولهذا فلنا أن نعتبر أن هؤلاء الموتى كانوا لا يزالوان وثنيين أيضاً. وليس هذا بعيد الاحتمال وذلك لأنه وإن كان الشعب قد تحوّل في مجموعه إلى المسيحية منذ أواخر القرن الثالث، فقد ظلت الوثنية مع ذلك باقية. وكان لا يزال للمعبد المصري تأثيره دائماً في الزائر، وهو ما يجلوه لنا وصـف ناطق لرجل مسيحي شديد التحمس. وهذا الرجل إن هو إلا



١٧٧ ـ الراعي الصالح، وقد عثر عليه في سنة ١٨٩٩ بجانب أشكال مشابهة في أهناس (برلين ١٤٨٥٢، ١٤٨٦٦).

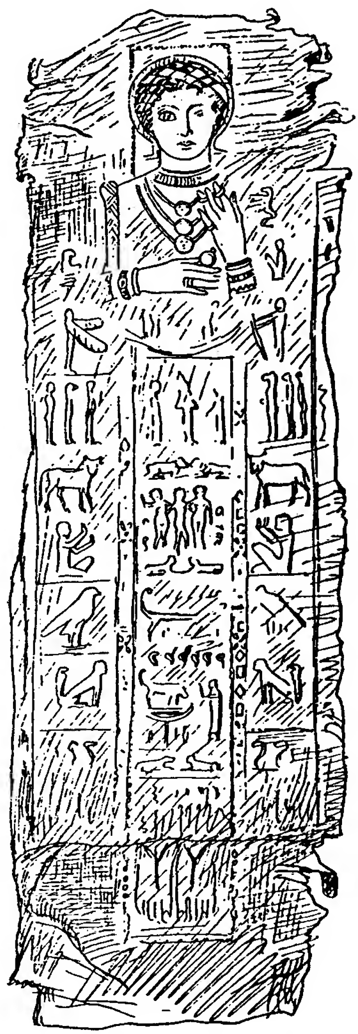
كليمنت الإسكندري المتوفي عام ٢٢٠ بعد المسيح، فقد أخبر بأن «الفخامة المصرية تتجلى في إقامة المقصورات والأبواب الضخمة والغابات في مقدمة المباني، والبساتين والغياض. وتحيط بالأفنية أساطين كثيرة؛ وتضيء الجدران بأحجار غريبة أو بتصاوير لا عيب فيها؛ وتشعّ المقصورات بالضياء لما فيها من ذهب وفضة، وذهب غير ذي بريق، وتتلألأ بما فيها من أحجار ثمينة من الهند وأثيوبيا. ويظلّل قدس الأقداس أقمشة مطرزة بالذهب. فإذا أوغل المرء من داخل السور، وأراد أن ينظر إلى صورة القوّة، وأن يبحث عن تمثال الإله الذي يقيم في المعبد، تقدم أحد حملة الناووس (صفحة ٥٢٧) أو غيره ممن يخدمون في المنطقة المقدسة، فيرجّع في هيئة مهيبة وقورة أنشودة مديح باللغة المصرية، ثم يزيح الستار قليلاً ليكشف عن إلهه»[١]. من هذا نتبين أن تأثير هذه المعابد كان عظيماً، ولا يضعف منه ما لاحظه كليمنت في نهاية كلامه من أنه من السخرية أن يعبد على هذا النحو قِط أو تمساح أو أفعوان. على أن أكثر الشعب قد هجر مع الزمن العقيدة القديمة؛ أما أهل الطبقات العليا من المجتمع، وهم المثقفون بالثقافة الإغريقية، فقد ظلوا مخلصين لها أطول عهد، ومع ذلك لا ينبغي أن نظن أن العامة جميعاً كانوا في القرن الثالث والرابع مسيحيين، وإن كان في حقيقة الأمر لم يتواتر لنا إلا شيء ضئيل عن عقائدهم. وقد كان معبد سيرابيس في الإسكندرية هو المعبد الأول. وفي منف كان يعبد أسكلبيوس قبل كلّ شيء، وهو الحكيم القديم إمحوتب الذي صار إلهاً[٢]؛ وكما أن هذا الإله قد حلّ محلّ بتاح، فقد زحزح بس الصغير أوزيريس من مكانه في أبيدوس وطفق يعلن نبوءاته، وكان لها تقدير عظيم[٣]. وفي منطقة أخميم بمصر الوسطى كان يعبد إله يقال له بتبي[٤]، وقد شبهه خصمه المسيحي بكرونوس وأسند إليه

(١) طبقاً لما ذكره Schubart, Aegypten, S. 284.

(٢) Amm. Marc. XXXII, 14,7.

(٣) Ib. XVIII, 12, 3.

(٤) يتضح من أحد نصوص السحر المسيحية، التي سيرد الكلام عنه فيما بعد، أن اسمه =



١٧٨ ـ غشاء مومياء من العهد المتأخر (برلين ١١٦٥٩)

كل شيء يعرفه عن ذلك الإله الإغريقي. وعلى الجملة يبدو أنه كان للعنصر

= الحقيقي هو «الرعد»، وأن قدميه في الماء الأزلي ورأسه تبلغ السماء، وأن له من أمام رأس أسد، ومن خلف رأس دب. على أية حال فإنه من خلق السحر في العهود المتأخر. انظر Lange, في Studies for Griffith, p. 161 ff.

الإغريقي الغلبة تقريباً في المرحلة الأخيرة من الديانة المصرية، فإنه إلى جانب بتبي وإلى جانب بتاح ذكر راهب القرن الخامس هذا نفسه في حديثه كذلك ريا، تلك التي كان كهنتها يُخصَون، ثم أبوللو، عازف القيثارة القذر البذيء، وزيوس وابنه آرس، وذلك كأنها كانت الآلهة المعتادة لمواطنيه الوطنيين. ومما كان يسخط عليه كذلك عادات مصرية صميمة كعادة إضاءة مصباح في «عيد المدينة» أو في «عيد الدار»، وكعادة توجيه «التحية» للشمس والدعاء «بالنصر» للقمر[١].

وقد كانت مثل هذه المواعظ هي التي أدّت بالوثنية إلي نهايتها، فقد ظلت الحكومة على الرغم من أوامر التحريم الرسمية تجيزها في واقع الأمر أمداً طويلاً[٢]، وان اتباعها قوماً سماحاً، خليقين بأن يكونوا سعداء لو كان يخلي بينهم وبين عبادة آلهتهم القدامى في هدوء وسلام. غير أن الزعماء من المسيحيين المتعصبين كانوا يثيرون دهماء الشعب بخطبهم، وبذلك انتهى تاريخ المعابد، الذي ظلّ عدّة آلاف من السنين، إلى الفوضى والشغب، وإنه لمن المعروف أمر تلك المشاهدة البغيضة المنفرة، التي كانت علامة على نهاية الدين العتيق في الإسكندرية بما صاحبها من معارك الشوارع وهجوم على معبد سيرابيس (٣٩١ بعد المسيح). والذي لدينا من روايات عن الأقاليم يدلّ على أن الأمر فيها كان مماثلاً. فهاك شنودة. قدّيس الأقباط الكبير[٣] يشيد بأنه دمر بنفسه معبد أتريب بجوار ديره، وأن ذلك الصنيع كان قدوة للآخرين. وفي مرّة أخرى توسل إليه الوثنيون ضارعين أن يبقى على معبدهم، غير أنه طاردهم وأباح كل شيء في المعبد للنهب، ثم حمل إلى ديره منه غنيمة ثمينة من أوانٍ وتماثيل مقدسة وأسفار. حتى إذا استعاد الكهنة شجاعتهم وراحوا يقاضونه على نهبه

(١) Leipoldt, Schenute S. 176.

(٢) بقيت الوثنية في فيلة حتى القرن السادس بسبب من كان يجاورها من البليميين الوثنيين، على أنه كانت تقوم إلى جانب ذلك كنيسة مسيحية.

(٣) Leipoldt, Schenute. S. 178 ff.

معبدهم ماجت المدينة في اليوم المحدّد بجمهور غفير من المسيحيين، فغدا من المستحيل الاستمرار في الدعوى.

وفي مكان آخر نلقى ما نجده في بقاع العالم أجمع حيث الأقلية هدف لمقت السواد الأعظم: فقد شاع بين المسيحيين أن كهنة أحد الآهة، ويدعى كوتوس، يسرقون أطفالهم ويذبحونهم، ثم ينثرون دماءهم على المذبح ويصنعون من أمعائهم أوتاراً لقيثاراتهم. وعلى ذلك فقد دمر القديس مكاريوس التكوي معبدهم، وأحرق بنفس النار الإله كوتوس وكاهنه الأكبر هوميروس. وكان أن تنصر في اليوم نفسه كثير من الوثنيين، ولكن بعضهم لاذ بالفرار «فاحتل المسيحيون ديارهم»[1].

هكذا انتهت الوثنية تلك النهاية المحزنة؛ وقد كان الخوف الذي ساور آخر أتباعها على حياتهم هو الذي أدّى بهم إلى الكفر بها؛ ومنذ ذلك الوقت أقفرت المعابد؛ وقد استحالت إلى كنائس أو تركت خراباً. وبهذا فقد أصبح يظنّ أن هذه البقاع المهجورة تسكنها الأشباح، وإنّا لنسمع عن أحد المعابد أنه يسكنه «شيطان شرير يدعى بس»، وقد رآه الكثيرون يتواثب في المعبد ويتخذ كل ما يمكن من الأشكال، وكان يخرج أحياناً فيضرب المارة فيصبحون عمياً أو عجزة أو صماً أو بكماً[2]، غير أن القديس موسى عرف كيف يخضعه. وهكذا غدت آلهة الديانة القديمة أشباحاً في الديانة الجديدة، بل لقد أصبح لفظ «انتر»، الذي كان يدلّ على الآلهة من قبل، يعني في لغة المسيحيين الأرواح الشريرة[3]. ومع

---

(١) Mem. de la Mission IV 112 ff.

(٢) Zoega, S. 533.

(٣) حقاً لقد ظل كثير من تفاصيل العقيدة القديمة باقياً دون أن يلتفت إليه أحد، ومن ذلك أشكال إيزيس مع طفلها وأشكال حورس على هيئة فارس يقتل تمساحاً (صفحة ٤٣٤)؛ وقد عاش كلاهما في أشكال القديس جورج والأم الإلهة. وكذلك لم يندثر الإخبار بالوحي، وكان القديس فيلو كسنوس فقط هو الذي يتولاه بالوساطة عن الإله Schubart, Aegypten S. 367.

أن هذه الآلهة غدت أهلاً لمقت شعبها الأصلي، فقد ظلت مع ذلك تحتفظ في وطنها مصر بمكان تلجأ إليه دائماً، وهو السحر، ولكن ما أتعسه من ملجأ. وقد رأينا من قبل ماذا كان سحرة الزمان القديم يصنعون بأسماء الآلهة القديمة وقصصها، وكيف كانوا بعد ذلك يضيفون إلى أفانينهم أفانين اليهود والإغريق. ومنذ أن أصبحوا مسيحيين غالوا كذلك في استخدام الأسماء والصيغ في العقيدة الجديدة، على أنهم لم يهجروا لذلك تماماً أسماء العقيدة القديمة وصيغها، وقد بقيت مدة طويلة. فإذا شكا طفل مثلاً وجعاً في بطنه، فقد كان الرجل الذي يرقيه لا يزال يفكر في حورس الطفل، الذي اضطرّ إلى مكابدة الكثير من الشرور في وحدته. وكان يبدأ سحره بقصة طويلة، تروي كيف أن الإله الصغير اصطاد طائراً ثم أكله نيئاً فآذى معدته. لذلك أرسل «الروح الثالثة التي لأجرّبا ذي العين الواحدة واليد الواحدة إلى أمه إيزيس، وكانت «على جبل هليوبوليس»، ليخبرها بألمه. وعند ذلك قالت للروح: «إذا كنت لا تجدني، وإذا كنت لا تعثر على اسمي، ذلك الإسم الحقيقي، الذي يحمل الشمس إلى المغرب، والذي يحمل القمر إلى المشرق، والذي يحمل نجوم التكفير الستة القائمة تحت الشمس، فاعزم على الثلثمائة عرق المحيطة بالسرّة هكذا: إذن «لينبتّ في الحال كل داء وكل ألم وكل وجع في بطن هذا أو ذاك. إني أنا السيد المسيح الذي يمنح الشفاء». وبهذه الكلمات الأخيرة التي لا تتفق إطلاقاً مع ما يسبقها يُرضي الساحر المسيحي ضميره. وفي تعويذة أخرى ورد عنها أنها تفيد في حالة الأرق ذكرت «إيزيس ونفتيس»، وهما «هاتان الأختان المحزونتان الأسوانتان»(١).

ولقد كان أهل القرن الثامن ممن كانوا يستعيذون بهذا النوع من السحر إنما ينتسبون على ما يبدو إلى أحطّ الطبقات الاجتماعية، وكان من أفانينهم أيضاً أن يسحروا الكلاب ويفكوا القيود، ولن يفيد هذا ممن كان يعيش في مثل ظروف الحياة المصرية إلا من كان على صلة سيئة برجال الشرطة.

---

(١) Erman, Ae. Z. 33.48 ff.

وهكذا وجدت آلهة المصريين القديمة ملجأ لدى المشعوذين واللصوص، تلك الآلهة التي من أجلها شيدت من قبل معابد الكرنك ومنف، والتـي ظلت خلال آلاف من سنين تقود وتلهم شعباً عظيماً.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

الديانة المصرية في أوروبا

كان شجرة الديانة المصرية العجوز في سبيلها إلى الفناء حينما خرج من أصلها صنو وحشي، كان من العجيب أن يمتدّ ظله إلى بلاد بعيدة، فقد لقيت عبادة إيزيس وأوزيريس في أنحاء الأمبراطورية الرومانية الواسعة جماعات يتحمسون لها[١].

ذلك أن الملاحين والتجار المصريين ممن أقاموا في موانىء البحر الأبيض المتوسط أو في مدائنه الكبرى قد عُرفوا وآلهتهم منذ أمد بعيد. فقد كانت تتألف منهم فيها جماعات مصرية، كانت لأعيادها الحافلة بالأسرار أثر كبير فيمن كان ينزل معهم من الإغريق، إذ كانت تجتذبهم وتستميلهم إليها. وإنا لنجد في القرن الرابع قبل مولد المسيح في بيري معبداً لإيزيس، وإن يكن في حقيقة الأمر ذا طابع خاصّ. ولا يكاد الزمن يمضي يسيراً، حتى نجد الآلهة المصرية كذلك في رودس ولسبوس وثيرا وأزمير وفي أماكن أخرى؛ وفي جزيرة ديلوس المقدسة[٢]

---

(١) بل لقد وجدت عبادتهما ذلك أيضاً فيما وراء حدود هذه الإمبراطورية؛ فقد كان الساكيون، ملوك الهند المتبربرون، يعبدون كذلك سارابو إلى جانب بوذا وهرقل. (Mommsen, Roem. Gesch. V, 354, Anm 1).

(٢) في بداية القرن الثالث شيد أحد كهنة سيرابيس من منف هيكلاً صغيراً لسيرابيس في بيته في ديلوس، وقد جعل منه حفيده سيرابيوم بناء على أمر الإله(Wilcken, Urkunden I 84)

كان سيرابيس وإيزيس يعبدان على رأس غيرهما من الآلهة. وقد ساهم تأييد الملوك البطالمة وتشجيعهم مساهمة كبيرة في هذا الانتشار للعقائد المصرية؛ ولا غرابة في ذلك فقد كان سيرابيس وإيزيس هما الإلهان الرسميان في دولتهم فعلاً.

وكان لمن يريد توكيد ولائه لملوك مصر الأقوياء، أن يقيم كذلك في بلده معبداً لآلهتهم[١]؛ وبذلك وجدت هذه الآلهة لأسباب سياسية طريقها إلى قبرص وصقلية وأنطاكيا وأثينا. ولما تقوّضت بعد ذلك قوّة البطالمة، كانت الآلهة المصرية قد تأصل غراسها في العالم الإغريقي بحيث لم تكن في حاجة إلى تأييد خارجي؛ وغدت إيزيس وسيرابيس من عداد الآلهة العظيمة التي كان يعترف بها في كل مكان؛ بل إننا لنجد في القرن الثاني قبل المسيح في أرخومين وخبروني تلك العادة الغريبة، عادة نذر من كان يراد عتقهم من العبيد لإيزيس وسيرابيس، كأنهما كانا الإلهين العظيمين الرئيسين لهاتين المدينتين.

وكثيراً ما كانت الآلهة المصرية تمتزج بالآلهة اليونانية، فهذه إيزيس قد غدت نميزس وديكايوسيني ونيكي وهيجييا؛ وفي ديلوس غدت تسمى إيزيس ـ سوتيرا استارتي ـ أفروديت، وكان إيروس ـ حربوقراط ـ أبوللو لها ولداً.

وشقت الآلهة المصرية فضلاً عن ذلك طريقها إلى أبعد من ذلك غرباً، أي إلى إيطاليا الجنوبية ثم روما، حيث نجد في عهد سَلا جماعة مصرية؛ ولئن كانت هذه الجماعة في بداية الأمر من أرقاء أجانب ومن عبيد معتقين، فقد أخذت الديانة المصرية تنتشر كذلك بين الطبقات العليا من الشعب. وليس في هذا ما يدهش في شيء إذ كانوا جميعاً يقاسون نقصاً روحياً. فقد غدت الديانة القديمة بالنسبة لهم جميعاً شبه ميتة، ولم تستطع الفلسفة، التي كان يحاول أن يجد فيها المثقفون عوناً لهم، أن تكون لها بديلاً كاملاً. وبذلك لم يبقَ هناك غير شوق كامن للتطلع إلى ما وراء الطبيعة، وكان كل ما يمكن أن يطفىء لظى هذا الشوق يلقى لقاء حسناً. وإنا لنستطيع أن نلاحظ ما يماثل هذه الحالة النفسية

(١) انظر كذلك الرسالة الغريبة، التي ورد فيها ذلك صراحة. Wilcken, Urk. der Ptol. 184.

لدى كثير من معاصرينا في الوقت الحاضر، فقد فقدوا الطمأنينة التي تبعثها الديانة التقليدية، ولهذا يبحثون عن بديل لها؛ فمنهم من يقع على الروحية، ومنهم من راح يتعلق بالبوذية أو أية عقيدة أخرى أجنبية. وتتشابه هاتان الظاهرتان كذلك في أن المثقفين لم يتقبلوا الديانة الأجنبية على ما هي عليه في يسر، لأنها لم تكن لترضي نفوسهم المرهفة الحساسة؛ «فالبوذية الخاصة» عند السيدة الحديثة ليست في أساسها إلا خليطاً من فلسفات مختلفة في رداء بوذي، وليس من شك في أن كهنة منف وطيبة كانوا يهزّون رؤوسهم دهشة لو أنهم استمعوا إلى ما كان يعتقده بلوتارك عن إيزيس.

وكما أنه إلى جانب البوذية يعرض في الوقت الحاضر على كل نفس ثائرة حالمة كل ما يمكن تصوّره من شتى العقائد، التي تدعي أنها في استطاعتها أن تأخذ بيدها إلى الخلاص، فقد كان للديانة المصرية كذلك منافسوها العديدون إذ ذاك؛ غير أنه لم يقدّر «للأم العظيمة» في آسيا الصغرى، ولا لمتراس، إله الشمس عند الفرس، ولا لإله اليهود أن ينتزع أيّ منها الأسبقية من الآلهة المصرية، وذلك لأسباب كثيرة. وكان من أوائل هذه الأسباب ذلك الإجلال الغامض، الذي كان يحسّ به المرء نحو هذه البلاد ذات الحضارة القديمة والآثار العجيبة، حتى إن العالمَ الروماني لم يكن ليعجبه أن يرى من مناظر البلدان غير مصر بمعابدها وأكواخها من القصب وتماسيحها. كذلك كان يظن أنه كان للمصريين حكمة عميقة قديمة؛ بل لقد كان يعتقد أن زعماء العالم المفكرين، وهم الفلاسفة الإغريق، قد تلقوا خير تعاليمهم عن الكهنة المصريين. ثم تأتي بعد ذلك تلك الطقوس الخفية أجمع، مما كان يؤدى في أعياد إيزيس وسيرابيس، والتي كانت تكنى بطريقة مدهشة عن أفكار سامية طاهرة. وأخيراً ـ وهو ما كان عند الكثيرين السبب الرئيسي ـ لقد كانت الديانة المصرية تقدّم لأتباعها عزاء أخيراً في كافة المصائب، وكانت تمنحهم الإيمان بحياة أخرى أفضل، يقضونها في مملكة أوزيريس. وبذلك لم تكن عبادة الآلهة المصرية عبادة سطحية ميتة، كما كانت عبادة الآلهة الرومانية، ولم تكن كذلك بديلاً اقتضته الضرورة، كما كانت الفلسفة وإنما كانت ديانة حقيقية، تملأ قلوب البشر

وتسمو بهم، وكان كاهن إيزيس الفقير في قميصه من الكتان يهيء للنفس ما كانت تصبو إليه.



١٧٩ ـ منظر من وادي النيل، وهو حفر روماني على صلصال محروق (في الانتيكواريوم في برلين).

وهكذا أقبل الناس في روما على العقيدة الجديدة في حماسة، حتى إنه ليبدو أنها استولت على طوائف بأكملها من الشعب، كأنها حركة دينية عامة، وإلا لما يتيسر على الأقل فهم السبب الذي من أجله انتهى الأمر بالدولة أن ترى في عبادة الآلهة المصرية خطراً عليها، فجعلت تدمر من وقت إلى آخر وباستمرار معابد إيزيس، وقد قامت بذلك خمس مرات في أحد عشر عاماً بين ٥٩ ـ ٤٨ ق. م.، وأخيرا حرم أغسطس بناء شيء منها داخل المدينة بالذات، ولم يكن يسمح بإقامة معابد لإيزيس إلا في أرباضها. ومع ذلك كان للحكومة أسبابها فيما كان يعتورها من هلع بإزاء عبادة إيزيس وسيرابيس. فقد كان هذان الإلهان من آلهة مصر، ذلك البلد الذي كان يعتبر إذ ذاك عدوّاً بغيضاً لروما.

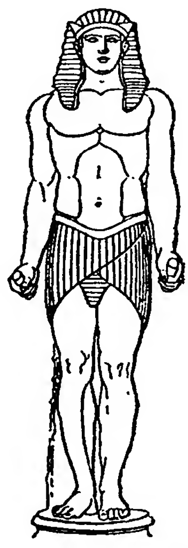
وفضلاً عن ذلك لقد اشتهر عن هذه العبادة الفحشاء، وفي الحق لم يكن ذلك ظلماً. وذلك لأن من يسلم نفسه إلى الوجد الديني ويحرّر نفسه من قيود معتقداته الموروثة، فإنه يحلّ نفسه كذلك بسهولة من القيود التي كانت تقيد الغرائز البهيمية في طبيعته. ومن المحقق أن ذلك لا يبدو واضحاً في كل حالة، وذلك لأن ضروباً مختلفة من التصوّف تحجبه، فإن السيدة الرومانية عندما كانت تسلم نفسها إلى الكاهن فقد كانت تفعل ذلك ليكون لها نصيب من القداسة. ونحن المحدثين لا يشقّ علينا للأسف أن نجد أمثلة هذه الحماقات في الوقت الحاضر، وإنه ليكفيني أن أثير ذكرى راسبوتين وسيدات الطبقة الراقية من الروسيات. ولم تنج عقيدة إيزيس كذلك من مثل هذه الأشياء، وإن المرء ليفهم كيف أن تيبريوس، بعد حادثة جدّ فاضحة في عام ١٩ بعد الميلاد، صلب الكهنة المذنبين ودمر معبدهم وأمر بإلقاءء تمثال الإلهة في التيبر. ولم يكتفِ بذلك بل نفى في الوقت نفسه آلافاً من العبيد المعتقين، ممن نالتهم عدوى العقائد المصرية واليهودية؛ وقد أرسلوا إلى سردينيا ليحاربوا قطاع الطرق فيها. وكان على غيرهم أن يهاجروا من إيطاليا إن لم يرجعوا عن القيام بطقوسهم[١]. على أن هذا الإجراء الشديد لم يكن ذا أثر بعيد، فلم يلبث أن قام في حقول مارس معبد كبير جديد لإيزيس، أقامه هذه المرّة أحد الأباطرة وهو كاليجولا، وزاد فيه أمبراطور آخر، وهو دومتيان. وبهذا التكريم من قبل الأباطرة زال كل رجس عن الآلهة المصرية، وبعد مائة عام أصبحت إيزيس وسيرابيس يُسميان «الإلهان المصريان قديماً والرومانيان الآن»[٢]؛ وبذلك سادت الديانة المصرية العالم. وقد ساهم حكم هادريان كثيراً في هذا التطوّر، فقد زار مصر ومعه الإمبراطورة ورجال البلاط، وكان من المتحمسين لهذه البلاد ولآلهتها. وكان قصره الريفي في تيبور يشتمل كذلك على بستان مصري، كان يسمى كانوب، على نحو اسم ضاحية مشهورة من ضواحي الإسكندرية.

---

(١) Friedlaender, Sittengeschichte I 502.

(٢) Minucius Felix 22,2.

وكان مما يذكِّر بوادي النيل فيه تماثيل آلهة من حجر أسود على طراز نصف مصري؛ وأبهاء تحت الأرض ومعبد لسرابيس. وإذ غرق في النيل أثناء الرحلة أنطينوس، حبيب الإمبراطور، فقد رأى هادريان أن أقصى ما يؤدّى من شرف لهذا الصبيّ المسكين هو أن يرفع إلى مصافّ «شركاء آلهة مصر»[١]. وكان مثل هذا التأليه أمراً قريب الاحتمال، وذلك لأن الغرقى في النيل كانوا يعتبرون من القديسين[٢]. وقد مثل هذا النصف الإله الجديد في مدن بلاد الإغريق في سيماء الشاب الحزين، أما في معبده في مصر فقد كان ينبغي أن يكون إلهاً مصرياً، وكان قبره الذي خصصه له الإمبراطور في روما على طراز مصري، ويحمل نقوشاً هيروغليفية. ولا تزال مسلة مونت بنشيو[٣] الجميلة، تنبئنا حتى اليوم بأن «المتوفى أوزيريس أنطينوس، الذي يستريح في هذه البقعة، التي تقع



١٨٠ ـ أنطينوس. تمثال في باريس

---

(١) Ci I. G. 6007.

(٢) Griffith, Ae. Z. 46, 132.

(٣) Erman, Roemische Obelisken (Abh. Berl. Akad. 1917; Mitt, d. Deutsch. Arch. Inst. Roem. Abt. XI 113).

في منطقة حدود روما السعيدة، معترف به كإله في البقاع المقدسة في مصر. وقد شيدت له المعابد، كما أن الطبقات العليا والدنيا من الكهنة وكافة المصريين يتعبدون إليه. وقد أطلق اسمه على مدينة» يقصدها الإغريق والمصريون، «فيمنحون حقولاً ليتهيأ لهم بذلك حياة طيبة. ويقوم فيها معبد لهذا الإله، الذي يسمى أنطينوس، وقد شيد من حجر جيري جيد، تحيط به تماثيل أبو الهول، وبه تماثيل وأساطين كثيرة جداً، تماثل ما كان يصنعه الأجداد من قبل، وما كان يصنعه الإغريق». وفي هذا المعبد «تودع الأطعمة له على مذابحه»، ويمدحه الكهنة، ويحجّ إليه الناس، «وذلك لأنه يجيب دعوة من يدعوه، ويشفي المريض بما يبعث إليه من أحلام». وكان يحتفل له في هذه المدينة أيضاً بإقامة الألعاب على الطريقة الإغريقية من أجل «الأقوياء، الذين هم في هذه المدينة، ومن أجل المجدفين»؛ وكانوا يتلقون «الجوائز والأكاليل على هاماتهم، ويجزون بكل شيء طيب». هذه المدينة التي يحدثنا هذا النصّ عن تأسيسها هي أنطينوى، المدينة الإغريقية المصرية[١]، وقد تأصلت فيها جذور عبادة هذا الصبيّ الإغريقي؛ وفي القرن الثالث كان أنطينوس في مصر إلهاً يبالغ في تمجيده كثيراً، لأنه كان يشفي المرضى ويصنع العجائب[٢]. وهكذا قدّمت أوروبا من جانبها أيضاً إلهاً إلى مصر، وبذلك من كان يستطيع أن يسمي الديانة المصرية ديانة أجنبية؟ على أنه في حقيقة الأمر كان لا يزال هناك كثيرون لا يستطيعون التغلب تماماً على ما كانت تثيره الآلهة ذات رؤوس الحيوان من مقت ونفور[٣].. وهذا ما يدلّ عليه هجاء لوسيان التهكمي. فهاك الآلهة يجلسون للتشاور على جبل أولمب، على

(١) وفي هرموبولس أقام هادريان كذلك تكريماً لأنطينوس شارعاً جديداً أسماه باسمه. ويبدو أن الإمبراطور التقي لم يكن يعنيه أن يتلف تخطيط هذا الشارع المنطقة المقدمة القديمة. (Roder, Mitt. Deutsch. Inst. Kairo, Bd. II, S. 88).

(٢) Origenes, c. Cels. III, 36.

(٣) هكذا كان فيلوستراتس، معاصر جوليا دومنا، فقد وصم الآلهة المصرية بأنها أهل للسخرية، وأنها خرقاء. Ed, Meyer, Hermes, Bd. 52, S. 393.

أن اجتماعهم لا يخلو من اضطراب؛ وذلك لأن الآلهة الإغريقية الشيوخ لا يستطيعـون أن يكبحوا غضبهم على كل الجمع المريب، الذي تسرّب إلى جماعتهم المبجلة، وعلى رفاق ديونيسيوس الأفظاظ الجفاة، وعلى آلهة البلاد المتبربرة، وعلى الكائنات التافهة، مثل «الفضيلة» و «القدر»، التي ابتدعتها الفلسفة. وإبان الوليمة يندفع متزاحماً جمهور صاخب، يتكلم بكل لغة يمكن تصوّرها، ويسلك سلوكاً غير لائق نحو الآلهة القدامى، فإذا طعام الآلهة ينفد، وشرابهم يغلو ثمنه على الدوام. فيقوم مومومس، الذي كان يجعل من نفسه خطيباً للحانقين، ويعرض الحالة المحزنة في حديث طويل، ويسبّ بصفة خاصة الدهماء البرابرة، أتّس وسابازيوس ومتراس وسائر هذه الجماعة، التي لا تعرف الإغريقية، والتي لا تفهم متى يشرب الإنسان نخب صحته. وهو يقول: «كل هذا يمكن التجاوز عنه، ولكن أنت أيها المصري الملفف في الكتان، يا صاحب رأس الكلب، من عساك تكون؟ وكيف يمكن أن تدعى أيها الكلب النابح بأنك إله؟ ولماذا يعبد ثور منف المرقش، ويعلن النبوءات ويكون له الكهان؟ إني لأفضل ألا أقول شيئاً عن آباء منجل والقردة والتيوس، ولا كذلك عن ذلك الشيء المضحك الذي هرب بطريقة ما من مصر إلى السماء، أيتها الآلهة كيف تطيقون أن تروا هؤلاء يعبدون على نحو ما تعبدون أو أفضل مما تعبدون إذا كان إلى ذلك سبيل؟ وأنت يا زيوس كيف تستطيع صبراً أن يحمّلوك قرني كبش؟» ويسلم زيوس بأن هذه الأشياء المصرية كريهة ممقوتة، ولكنه يضيف إلى هذا في حيطة وحذر: «إن كثيراً منها ألغاز وأحاجي، وما ينبغي أن يهزأ بها من لم يحط بأسرارها»[١].

وما يعترض به زيوس على موموس ليس في حقيقة الأمر سوى ما تعود أن يجيب به أشياع إيزيس المثقفون على من كانوا يهزأون بهم: إنكم لا ترون سوى المظهر الخارجي الغريب لمعتقداتنا، ولستم تعرفون ما يستتر وراءه. وقد قال

(١) Lucian, Deorum Concilium 10.

بلوتارك إن من يأخذ هذه الأشياء بحرفيتها، ولا يعبأ بمعناها السامي، «فإنما ينبغي له أن يتفل وأن يطهر فمه». إذ من هو أوزيريس؟ إن أوزيريس هو عنصر الرطوبة وقوة الإخصاب في التناسل. إنه في الروح العقل، وفي العالم كل رتيب متسق مع القانون؛ أجل إنه باختصار عنصر الخير. أما تيفون (أي ست) فهو الجفاف والإمحال والعقم. إنه يمثل ما في النفس من سفاهة وحماقة، وما في العالم من مرض وتدمير، إنه عنصر الشرّ. وإيزيس هي جسداً الأرض الخصبة؛ وهي في العالم الجزء الأنثوي الذي يتلقى التلقيح، وهي مادة الخير والشرّ، غير أنها تميل إلى الخير طبقاً لطبيعتها[١]. وكل شيء طيب، يتفق مع النظام، هو من عمل إيزيس، وهو صورة لأوزيريس[٢]. ولا شيء أمتع لها من الطموح إلى الحقيقة والمعرفة الصحيحة لكل ما هو مقدّس؛ إنها تشجع التعاليم المقدسة على حين يحاربها تيفون. فمن يخدمها في معبدها في جدّ ونظام واعتدال وعفاف، فإنه يصل إلى معرفة الكائن الأول الأعلى، الذي يمكن إدراكه؛ وإنها لتدعونا إلي ذلك عن طريق معبدها[٣]. وليس في ثياب الكتان ولا في الرأس الحليق ما يجعل المرء من المؤمنين بإيزيس - وإن كان ذلك من العادات ذات المعاني العميقة - وإنما المؤمن حقاً بإيزيس هو الذي يتعمق في معاني الأشياء المقدسة ويتأمل في حقائقها الخفية[٤]. وذلك لأنه ما من شيء في هذه الأمور لا يؤبه له. فإذا كانت «الشخليلة» التي يصلصل بها المرء أمام الإلهة مستديرة عند ذروتها ولها قضبان أربعة كان في ذلك لدى الحكيم العارف إشارة إلى «دائرة القمر»، التي تحيط بكل شيء، وإلى العناصر الأربعة، التي تتحرّك فيها. وإذا آثر الإنسان تحلية ذروة الشخليلة «بقطة»، فإننا نحن العلمانيين نتعقد أن ذلك إنما كان من أجل باستت، الإلهة المرحة التي على هيئة القطة، ولكن بلوتارك يعرف السبب

(١) Plut. Isis et Odir. 33, 38, 39, 49, 53.

(٢) نفس المرجع ص ٦٤.

(٣) نفس المرجع ص ٢.

(٤) نفس المرجع ص ٣.

الحقيقي لذلك: فالقطة ترمز أيضاً إلى القمر، وذلك إما لأنها متغيرة، ومن حيوانات الليل، وكثيرة النسل، أو لأن عينيها تتسع في ليلة البدر. أما رأسا السيدتين، اللذين على المقبض، فهما عنده إيزيس ونفتيس، ويرمزان هنا إلى الميلاد والممات. فإذا هُزّت «الشخليلة»، كان في ذلك ما يدلّ على أن كلّ كائن إنما يجب أن يكون في حركة دائبة[1].

على أن العقيدة في إيزيس لو لم تكن أعمق من مثل هذه الأفكار المضطربة المختلطة، لما أصبح لها بالتأكيد ذلك السلطان، الذي كان لها. ومن المحقق أنه لم يمارس هذه العقيدة على هذا النحو غير أقلية صغيرة، كان من الضروري عندها أن توفق بين مشاعرها الدينية وبين آرائها الفلسفية، بل لقد كان كل منها ينحو نحوه الخاصّ في هذا الشأن. أما أغلبية المؤمنين فكانت لها أسباب أخرى، تدعوها إلى عبادة الآلهة المصرية. فقد كانت ترجو منها أن تتيح لها حياة أخرى مبرورة، كما كانت تجد في عبادتها راحة لضمائرها، وذلك لأن التطهر وتقديم القربان في معبد إيزيس كانا يمثلان كذلك الطهارة الروحة. وكان المرء إذا تأمل في طبيعة الإلهة، يكتفي بتصوّرات غاية في البساطة. وإننا لنعلم ذلك من مصادر مختلفة. فهناك أولاً نصان من الجزر الإغريقية؛ وهما متماثلان فيما يتضمنانه، غير أن أحدهما يقص في شعر هومري ما يحكيه الآخر نثراً: «إنني أنا إيزيس، عاهلة البلاد جميعاً؛ لقد تعلمت على يد هرمز، وابتدعت بالاتفاق مع هرمز الكتابة الشعبية حتى لا يكتب كل شيء بحروف واحدة. لقد سننت للناس القوانين، وأبرمت ما لا يستطيع البشر نقضه. إنني كبرى بنات كرونوس؛ إنني زوج الملك أوزيريس وأخته. إنني أنا التي تشرق في نجمة الكلب: إنني أنا التي يسميها النساء آلهة. من أجلي قد شيدت مدينة بوبسطة. إنني أنا التي فتقت السماء عن الأرض؛ وبينت للنجوم مسالكها؛ واخترعت الملاحة. . . . وعقدت بين الرجل والمرأة. . . وقضيت بأن يحبّ الأبناء آباءهم.

(١) نفس المرجع ص ٦٣.

لقد وضعت مع أخي أوزيريس حدّاً لأكل البشر؛ وأريت الناس الأسرار الخافية؛ وعلمتهم كيف يعبدون تماثيل الآلهة؛ وحددت مناطق معابد الآلهة. لقد أدلت دول الطغاة؛ وحملت الرجال على حبّ النساء؛ وجعلت العدالة أقوى من الذهب والفضة؛ وقضيت بأن يرى الناس الحقّ جميلاً...»[1]، وقد قيل إن كتابة مماثلة تماماً كانت على قبر لإيزيس في بلاد العرب، كما قيل كذلك إنه كتب على قبر لأوزيريس: «إن أبى هو كرونوس، أصغر الآلهة أجمعين، وإنني أنا الملك أوزيريس، الذي أدار الحرب في أنحاء الأرض كلها حتى بقاع الهند الخاوية، وحتى مناطق الشمال إلى منابع الدانوب، ثم إلى المحيط. إنني أنا الابن الأكبر لكرونوس، وقد ولدت جنيناً من بيضة جميلة شريفة...[2] وليس في العالم مكان لم أبلغه، وقد منحت الناس أجمعين ما وجدته»[3].

وقد حفظ لنا نص في كيوس في بثنيا أنشودة صغيرة، تلخص كلّ ما كان يتصوّره الإنسان عن هذه الآلهة[4].

«يا مليك ما في السموات جميعاً، إني
أحييك، يا أنوبيس، يا أزلي،
ووالدك أوزيريس، المقدّس، المتوج بالذهب.
إنه زيوس الكرونيدي، إنه أمون القويّ،
الملك الخالد، ذو الاحترام السامي على نحو سيرابيس.
وأنت كذلك أيتها الإلهة المقدّسة، أيتها الأم إيزيس، ذات الأسماء العديدة،
يا من ولدتها السماء على أمواج البحر المتلألئة،

---

(١) C. I. G. XII, 5, I. p. 217.

(٢) هذا تعبير مصري مشهور، يدل وحده على أن هذا النصر إنما يرجع إلى أصل قديم.

(٣) Diod. I, 27.

(٤) C. I. G. 3724.

وأنشأتها الظلمة على نحو النور لسائر البشر؛
يا من تحمل الصولجان على جبل الأولمب بصفتها أكبر الجميع سناً،
وتحكم الأرض والبحار كسيدة إلهية،
يا من ترين كل شيء - إنك تهبين البشر خيراً كثيراً».

ويتجلى في هذه الأنشودة كيف أن الديانة المصرية بسِّطت إلى حدّ كبير؛ فلم يتبقّ من مجموع الآلهة من غير إيزيس إلا إلهان، هما أوزيريس سيرابيس، وهو في نفس الوقت أمون، ثم حورس، وهو أنوبيس، أما إيزيس فهي منظمة الطبيعة، وهي التي جمعت بين البشر. أما أوزيريس فقد كان في مكان تالٍ لها، إذ على الرغم مما أسنده إليه أصدقاؤه الأوربيون من انتصارت، فإنه في واقع الأمر لم يكن إلاّ الزوج المتوفى، الذي تبكيه إيزيس. وقد قوي في جميع هذه الآلهة الجانب الإنساني الذي كان لهم في الزمن القديم. حتى إنه من اليسير أن نفهم كيف كان غير المؤمنين يسخرون «بالرجل أوزيريس»[١].

وإلى جانب التجلة التي كانت تقتضيها إيزيس من أجل آلائها على الإنسانية، كان كل فرد يشعر كذلك بأنه مدين لها بالشكر. فهي قبل كل شيء بصفتها إلهة لميناء الإسكندرية كانت تساعد ركاب البحر، وكان كل من ينجو من العواصف، ينذر لها صورة في معبدها، يصوّرها له أحد المصوّرين، ولذلك كان يقال إن إيزيس «تطعم المصوّرين»[٢]. وكان الحبيب إذا أزمع السفر، ضاعفت الحبيبة من حميتها في عبادة إيزيس، فتهزّ لها «الشخليلة»، وتتطهر من أجلها، وتنام منفردة؛ فإذا عاد سالماً، كانت تجلس أمام المعبد في ثوب من الكتان وشعرها مرسل، وتغني مرّتين كل يوم بمدح الإلهة[٣]. على أن إيزيس كانت كذلك تعاقب المذنبين؛ فمن اختلس مالاً، فإنه كان يخشى أن تضربه على عينه

(١) Lucan, Pharsal VII 832.
(٢) Juvenal 12, 28.
(٣) Tibull I, 3, 23.

«بالشخليلة الغاضبة»، فتردّه أعمى[١]. والسيدة التي لم تحافظ على عفافها «في الأيام المقدسة، التي تجب رعايتها»، فإنها كانت تشعر بالضيق والحرج، وكان يبدو لها كأن «الثعبان الفضي يحرّك رأسه». حقاً لقد كان الكاهن يهدىء من روعها، إذ كان لا يزال هناك أمل في أن يعفو عنها أوزيريس، إذا هي قدمت له أوزة أو فطيرة[٢]. على أنه لم يكن من المستطاع على الدوام إرضاء الآلهة المصرية بمثل هذه النفقة الرخيصة، إذ تتحدث نصوص النذور عن تقدمات قيمة من معادن ثمينة، وعن ثعابين مرصعة بأحجار كريمة، وشخاليل وصحاف من فضة؛ وقد أهدت سيدة إسبانية إلى إيزيس أدوات من فضة تزن أكثر من ٧٠ رطلاً، وذلك علاوة على ثعبان مرصع بكثير من الأحجار الكريمة، وحليّ أخرى[٣].

وكان أرضى للإلهة بطبيعة الحال أن يعمد رجل تقيّ إلى تجديد بناء معبدها. ومن ذلك ما حدث في مالسسين على بحيرة جاردا من أن رجلاً يدعى ج. مناتيوس «أعاد بناء معبدها وشيد على نفقته الخاصة مبنى من أمامه»[٤]. وفي بِنِفنْت شيد رجل يدعى لوسليوس «قصراً فخماً من أجل إيزيس العظيمة، سيدة بنفنت، ورفاقها الآلهة»، ومن أمامه «أقام مسلتين من الجرانيت الأحمر»؛ وقد حفظا لنا وعليهما كتابة هيروغليفية تنبئنا بذلك. وللآلهة أن تمنحه عن عمله هذا «حياة طويلة سعيدة». وإذ كان في نفس الوقت قد أقام هذا القصر احتفالاً «بالعودة السعيدة» لدومتيان، «الذي عاد من الريف ومن البلاد الأجنبية المهزومة إلى مقرّه روما قاهرة العالم»، فلا بدّ كذلك أن كافأه الإمبراطور على صنيعه هذا[٥]، وبخاصة أن دومتيان، كما رأينا ، كان نفسه صديقاً لإيزيس وسيرابيس،

---

(١) Juvenal 13, 92.

(٢) Jivenal 6, 526 ff.

(٣) C. I. L. II, 3386.

(٤) C. I. L. V, I, 4007.

(٥) Erman, Aegypt. Zeitschr. 34, 149 ff.

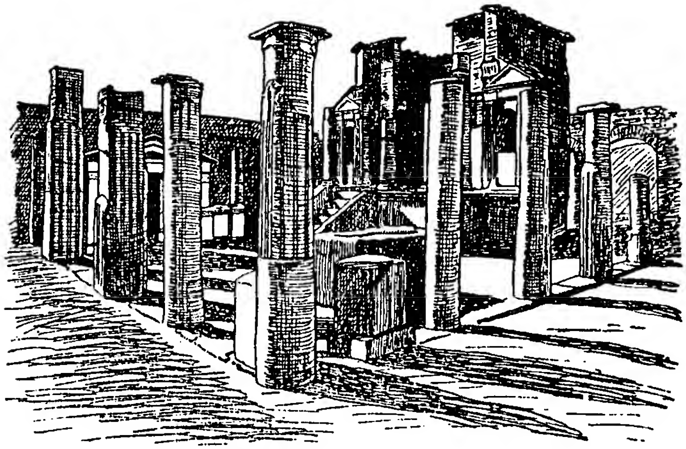
اللذين جدّد لهما معبديهما في روما. وفي بومبي[1]، حيث دمر زلزال معبد إيزيس في عام ٦٣ بعد المسيح، أعادت أسرة بوبديوس بناء ذلك المعبد، وذلك باسم طفل عمره ستّ سنين، هو ن. بوبديوس؛ وهنا أيضاً أضيف إلى المأثرة الدينية فائدة دنيوية، وذلك لأنه كان على مجلس المدينة أن يتقبل في صفوفه ذلك المحسن الصغير اعترافاً له بجميله.



١٨١ ـ الاحتفال بالعيد في المعبد (صورة على جدار من معبد إيزيس في بومبي)

وعلى نحو ما يدلّ عليه معبد بومبي هذا، لم يكن هناك ما يكاد يجمع بين معبد لإيزيس من هذا القبيل وبين معابدها في مصر، على أنه ربما كانت معابد الإسكندرية الأمثلة الأولى التي احتذاها مثل هذا المعبد. ففي فناء تحيط به الأروقة ذات الأساطين كان يقوم المعبد الحقيقي، يؤدي إليه سلم؛ وكان يتألف من جزء أمامي، يعتمد على ستة أساطين، ومن غرفة قدس الأقداس. وفي ركن

(١) عما يلي انظر .Lafaye, Hist. du culte des dieux d'Alexandrie, p. 173 ff



١٨٢ ـ معبد إيزيس في بومبي

من الفناء كان يقوم مبنى صغير وبجانبه مذبح كبير. وكانت تكتنف الفناء من جانبيه غرف كانت تستخدم مساكن للكهنة ومخازن وما أشبه. وكانت زخارف هذا المعبد وملحقاته كذلك خليط من زخارف مصرية وإغريقية، دينية وغير دينية، فإلى جانب إيزيس وأوزيريس وحربوقراط وأنوبيس والحيوانات المقدسة والكهنة كان يرى كذلك ديونيسيوس ونارسس وخيرون مع أشيل ثم القصة الجميلة لآرس وأفروديت. وكانت هناك صوورتان تشغلان مركزاً وسطا، وكانتا تمثلان قصة يو، وذلك لأن الناس منذ مدة طوية رأوا في حبيبة زيوس هذه المسكينة، التي فرت إلى مصر في هيئة بقرة، الإلهة المصرية التي على شكل البقرة[١]، بل لقد أتوا من الخلط ما يضحك، فجعلوها تلد أبيس. وكانت المناظر الطبيعية تمثل أماكن مصرية بهياكلها وتماثيل أبو الهول، أو تمثل كذلك صوراً بحرية بسفنها، وقد كانت إيزيس تعتبر حاميتها. وإلى جانب تماثيل إيزيس كانت توجد كذلك بين تماثيل المعبد الرخامية تماثيل لديونيسوس وأفروديت

(١) وذلك حسب ما جاء في Lucian, Dial. Deorum 3, 207. حيث تسمح يو، باعتبارها إلهة مصرية، بركوب النيل، وحيث تتحكم في الرياح وتنقذ الملاحين.

وبرياب. وفي خمسة تماثل أخرى كان الوجه واليدان والقدمان وحدها من الحجر، أما الجسم فكان من الخشب؛ ومن الجليّ أنها كانت التماثيل التي كانت تكسى بالكتان وتحمل في مواكب الأعياد. وكان أكبرها يحمل في أذنيه قرطاً من ذهب ويمسك في يده «شخليلة».

وكانت المعابد في بنائها وصورها تبدو نصف إغريقية أو إغريقية تماماً، على أنه مع ذلك كان يعني كذلك بأن يكون الفنّ المصري الحقيقي ممثلاً فيها. ولهذا كان يؤتى إلى بومبي، وبنفنت وروما وإلى أيّ بلد آخر، كان يشيد فيه معبد لإيزيس، بما كان يتيسر الحصول عليه من موائد قربان قديمة، وتماثيل أبي الهول، وتماثيل ومنحوتات مختلفة مما كان لا ينقطع مدده من محتويات معابد مصر ومقابرها، حيث كانت تقام لبهجة إيزيس. ولم يكن ليهمّ أن تتحدّث نقوش هذه الأحجار المنحوتة عن غرض آخر مختلف تماماً، فما كان أحد من الجماعة ليستطيع أن يقرأ هذه النقوش الهيروغليفية. وبذلك انتقلت عبر البحر إذ ذاك آثار من جميع عصور مصر القديمة؛ وربح الكهنة المصريون المال من بيع ما رأوا أنه يمكنهم الاستغناء عنه مما كانوا يمتلكون من مجموعات، ولم يجدوا في ذلك أدنى ما يريب أكثر مما كان يجد الكهان الطليان في القرن الثامن عشر، الذين كانوا يبيعون مذابح كنائسهم للبلاد الأجنبية. وإننا لنرى فضلاً عن ذلك، أيّ نوع من الأحجار المنحوتة كان أحظى بالتقدير في هذه التجارة؛ فقد كان ينبغي أن تكون قدر المستطاع من حجر أسود أو قاتم؛ وذلك لأن هذا اللون، الذي كان يناقض لون التماثيل المحلية، إنما كان يبدو أوفق ما يكون للطبيعة الخفية، التي كانت تعزى إلى الديانة المصرية.

ولقد احتفظت الشعائر اليومية العادية في المعابد الأوروبية لإيزيس بالصيغ القديمة التي كانت لها في مصر. ففي الصباح الباكر كان مرتل المعبد يخطو عتبة المعبد ويوقظ الإله باللغة المصرية القديمة[١] ـ وعلى وجه التحقيق بنفس أنشودة

(١) Porphyrius de abstinentia, IV, 9.

الصباح (صفحة ٢٤٨): «إنك تصحو في سلام وصحوك لطيف»، التي كانت تنشد آلافاً من سنين خلت لمثل هذا الغرض. ثم كانت تلي الشعائر المعتادة القديمة من تطهير الإله بالماء وتبخيره وتكسيته وتزيينه وإطعامه.

وكان نظام الكهنة كذلك كما كان في مصر، فكان هناك رؤساء كهنة، وعرافون، ومشرفون على لباس الإله وعلى المظاهر الخارجية للعبادة، وكاتب ومجمع مقدّس(١) من حملة الناووس، وذلك ما كان على ضفاف النيل تماماً. وكانت النساء تأخذ كذلك بنصيب في العبادة كما كان الأمر في الزمن القديم، فيحركن الشخليلة أمام الإلهة. وكان من واجباتهن كذلك على ما يبدو التطهير بالماء، وذلك لأنهنّ كن يمثلن أنفسهن على شواهد مقابرهن بجرة الماء والشخليلة.

وكان من بين الأعياد الكبيرة لإيزيس عيدان يتمتعان بشهرة خاصة؛ وكان أحدهما هو عيد نوفمبر، الذي كان يظلّ ثلاثة أيام، يمثل فيها موت أوزيريس، والبحث عن جثته ثم العثور عليها. وتدلّ التلميحات والإشارات التي يتضمنها الأدب على مدى ما كان لهذا العيد من أثر على من كانوا يلاحظونه من بعيد. وهذا العيد هو المقصود عندما يتحدّث أوفيد عن «أوزيريس الذي لم يُبحث عنه بحثاً كافياً»(٢)، وعندما يذكر جوفينال صياح الشعب «عندما يُهتدى إلى أوزيريس»(٣)، وعندما يستعرض لوكان «الكلاب أنصاف الآلهة و «الشخاليل المثيرة للأشجان»(٤). وإلى هذا العيد كذلك يرجع التصوّر العجيب، الذي يذهب إلى أن آلهة المصريين تجد مسرّتها في أناشيد البكاء والنديب، لا في الرقص المرح، مما كانت تؤثره آلهة الإغريق(٥). ومن الجليّ أن هذا العيد كان يحتفل به

---

(١) Apulejus Metam, XI, 17.

(٢) Ovid, Metam, IX, 693.

(٣) Juvenal VIII, 29.

(٤) Lucan, Pharsal. VIII, 832.

(٥) Apulejus, de deo Socratis XIV.

أمام اشعب كافة، ومع ذلك ربما كانت شعائره السرية قد احتفظ بها لدائرة ضيقة للغاية من الإيزيسيين، أولئك المؤمنون حقاً، الذين كانوا يؤلفون إخوة صالحة، وكانت لهم «مدرستهم» بجوار المعبد.

أما عيد مارس الكبير، الذي كات تفتتح فيه إيزيس ملاحة العام، فلدينا تقرير جليّ من القرن الثاني بعد الميلاد يصف الاحتفال به على نحو ما حدث في كِنْشري، الميناء الشرقية لكورنث(١). ويبدأ موكب الاحتفال بمجموعة في ملابس تنكرية متنوّعة، من بينها الجندي، والصياد، والمبارز، والفيلسوف، وحمار يمثل بجاسوس، ودُبّة تقوم بدور سيدة، وقرد يمثل جانيمد. فإذا استوفى الشعب متعته من هذه المساخر المضحكة، فإنه لا يلبث أن يشاهد موكباً من نساء كاسيات بأثواب بيض ومتوّجات بأزهار الربيع، ينثرن في الطريق زهراً ويسكبن فيه العطور قطرة قطرة، أو يحملن كذلك أمشاطاً ومرايا يحركنها كأنهنّ



١٨٣ ـ أمارلس، كاهنة إيزيس، عن شاهد مقبرتها في أثينا

(١) Apulejus Metamorph. XI, 8 - 17.

يزين ضفائر الإلهة. ثم يتلو ذلك رجال ونساء معهم مصابيح ومشاعل؛ ثم يأتي الموسيقيون ومعهم المزامير والناي، وجوقة من مغنين شبان في ملابس بيضاء، يغنون أغنية نظمت بمناسبة هذا العيد، ويتبع هذه الموسيقى الحديثة الموسيقى القديمة المقدسة؛ وعلى رأسها عازفو الناي لسيرابيس، يعزفون على آلة خاصة نغماً ليس من المعتاد عزفه إلا في المعبد، ثم المكرَّسون، الذين يصلصلون بالشخليلة، وهم رجال ونساء من كل سنّ؛ فأما الرجال فهم حليقون، وأما النساء فحول شعورهن قماش أبيض، ثم الرؤساء الستة ويحملون مصباحاً ومذبحاً وأدوات أخرى مقدسة، وتليهم الآلهة نفسها. وعلى نحو ما كان يقتضي الأمر فإنه يتقدمها جميعاً أنوبيس، وهو أسود برأس مذهبة وشارتاه العصا ذات الثعبانين والمخلة. ويحمل خادم يمشي «بخطى مبرورة»، بقرة واقفة، وهي صورة الإلهة الولود الخصيبة؛ أما الصندوق الذي يحمله خادم ثانٍ فهو يحتوي «أسرار الديانة المجيدة»، في حين أن شخصاً ثالثاً يضمّ إلى «صدره السعيد التمثال الجليل للإله الإعظم»؛ وهو صورة لأثر مقدس، هو جرّة صغيرة من ذهب، مزينة بصور مصرية عجيبة. ومن ورائهم في ختام الموكب أجمع يتقدم الكاهن وفي يده «الشخليلة» وتاج من الورود.



١٨٤ ـ أوزيريس على شكل جرة.
من البرنز (برلين ٩٠٠٨)

ويتجهون شطر البحر حيث تقف على أهبة الاستعداد سفينة جميلة محلاة بصور مصرية. ويتلو رئيس الكهنة «بفم عفّ صلاة تقية»، ويطهر السفينة ويكرّسها للإله. ثم يُنصب الساري، ويفرد الشراع ويسكب الجمهور أجمع

العطور في السفينة. وبعد ذلك تقطع الحبال التي لا تزال تمسكها، فإذا شرعت تبتعد عن الشاطىء، يتبعها الناس بأنظارهم حتى تختفي. ومن ثم يعود الموكب إلى المعبد ويدخل الكاهن والمكرسون غرفة الإلهة، بينما ينتظر الجمهور في الخارج. بعد لحظة يظهر كاتب المعبد ويهتف للإمبراطور ومجلس الشيوخ والشعب الروماني والبحارة وسفائنهم، فيهلل الشعب ويتجمل بالزهر، ويقبل قدمي تمثال الإلهة ثم ينصرف.

وإذا كان يبدو في هذا الوصف شيء من المبالغة، فلهذا سببه الواضح؛ ذلك أنّ لوكيوس، الذي صاغ ذلك الوصف في شكل قصة، كان أحد السعداء، الذين كانوا بصفة خاصة على صلة قوية بالإلهة؛ وكان له مكانة بين أخلص المؤمنين بها. ولقد خصته إيزيس منذ مدة طويلة في حلم أن يكون واحداً من أتباعها، وهو الذي كان يدين لها بأنها أنقذته من محنة شديدة؛ على أن متراس كاهن كنشيري العجوز لم يكن ليجرؤ على قبوله، وذلك لأنه هو نفسه لم يتلقّ الأمر من الإلهة. ولما تمّ له ذلك آخر الأمر قاد في الصباح ذلك المريد السعيد إلى المعبد، ثم أخذ من قدس الأقداس كتباً، كتبت بحروف على أشكال الحيوان وبتنميقات عجيبة (أي كتبت بالخط الهيروغليفي)، وقد تلى منها كل ما يلزم لتكريسه. وعندما اشترى لوكيوس ما كان يدعو الأمر إليه اقتيد في صحبة الأتقياء إلى الحمام وطهر «بسكب الماء» عليه. وبعد الظهر في المعبد أفشيت له الأسرار وذلك عند قدمي الإلهة، ثم فرض عليه أن يمتنع عشرة أيام عن أكل اللحوم وشرب النبيذ. ولما انقضت هذه الفترة اجتمع المؤمنون في المساء، وكان هو يرتدي ثوباً بسيطاً من كتان، وقد اقتاده الكاهن إلى قدس الأقداس. أما عما حدث له هناك فلم يكن له أن يحدثنا عنه إلا تلميحاً: لقد دخل عالم الموتى ثم عاد منه ماراً بكل العناصر؛ وقد رأى الشمس تضيء في حلك الليل، ونظر إلى الآلهة الأعلين والأسفلين وعبدهم. وعلى ذلك فقد أُظهر على مملكة أوزيريس تحت الأرض، وسمح له برؤية الشمس وهي تعبر بالليل هذه المملكة مع حاشيتها، وهذه أشياء تشبه بعض ما يعرضه كتاب إمدوات وما يشبهه من كتب (صفحة ٣١٨). وعندما خرج في الصباح أصعد على مرقاة في وسط المعبد أمام

تمثال إيزيس، ثم ألبس ثياباً مبرقشة ومحلاة بصور الحيوان، وكان في يده مشعل، ويحلي رأسه تاج من خوص، يحيط به كأنه أشعة من نور. وعندئذ رفعت الستائر وراَه الشعب وهو قائم «في زينته كالشمس».

وبعد ذلك كُرّس لوكيوس مرة ثانية في روما، وكان ذلك أيضاً وفق ما رأى في بعض أحلامه؛ وقد لقنه بعد صيام عشرة أيام الكاهن أسنيوس ماركلوس في معبد إيزيس بحقول مارس «المسائل المقدسة للإله الأكبر، الأب الأعلى للآلهة، أوزيريس الذي لا يقهر». وقد ذكرته الآلهة مرّة ثالثة؛ إذ رأت أن تصطفيه بتكريس ثالث، على حين كان غيره لا يحصل على التكريس الأول إلا بصعوبة. وقد تطوّع هذه المرّة وأطال في فترة الصيام النفل أكر مما كان مفروضاً، وما كان أيّ بذل يأخذ نفسه به بالشيء الكثير عنده. وقد ظهر له أوزيريس في هيئته الحقيقية وقبله في عداد جماعة «حملة التماثيل المقدسة»، بل لقد جعله على رأسهم. وهي جماعة قديمة، أُسست في عهد سلاّ، وقد أسعد لوكيوس أن أصبح ينتمي إليها. وكان حيثما يذهب يكشف في زهو عن رأسه الحليق، ليرى بذلك أنه كاهن للآلهة المصرية[١].

من هذه الرواية العجيبة، التي سردناها هنا، نعلم كذلك كيف كان الناس في نهاية القرن الثاني بعد ميلاد المسيح يتصوّرون طبيعة الآلهة المصرية؛ وإنه ليمكن القول بأن الطابع المصري فيها تقهقر وانحسر عنها تماماً. فقد غدت إيزيس «أمّ الأشياء، وسيدة جميع العناصر، والبداية الأولى للأزمنة». وهي «الإلهة العليا، ملكة الموتى ورئيسة أهل السماء». وهي «المظهر الموحد للآلهة والآلهات». وهي «على تعدّد أشكالها واحدة وشخص بذاته، والعالم بأسره يعبدها»؛ وإن كان «بطقوس مختلفة وأسماء متعدّدة». وقد كانت تعتبر في فريجيا أماً مقدسة لبسّينوس، وفي أثينا الإلهة أثينا، وفي قبرص أفروديت افوس، وفي كريت أرتميس، وفي صقلية برسيفون استكس، وفي إلويسس دميتر، التي كانت أهلاً للتقديس منذ أمد بعيد؛ ويسميها البعض هيرا وبللونا، وآخرون يسمونها

(١) Apulejus Metamorph. XI, 19 ff.

هيكات والإلهة الرامنوسية؛ وكان الأثيوبيون، الذين يسكنون أقرب ما يكون للشمس، والمصريون ذوو الخبرة بالحكمة القديمة، يعرفون الطريقة المثلى لعبادتها «واسمها الحقّ: الملكة إيزيس»[١]. وهكذا نرى أن إيزيس ابتلعت جميع الآلهة، التي كانت تعبد في أوروبا، على نحو ما صنعت من قبل بآلهة مصر، وقد أصبح يظنّ بكل بساطة أنها تمثل الطبيعة.

وتتردّد هذه الآراء والتصوّرات في أنشودة طويلة من القرن الثاني كشف عنها في مصر[٢]، وترجع كذلك إلى الأوساط الإغريقية. ولا بد أن كان مؤلفها على دراية جيدة بمصر، وذلك لأنه يسوق أكثر من ثمانين موضعاً من هذا القطر، وبعضها مجهول تماماً، كانت تعبد فيها إيزيس. وكانت لها في كل مدينة صفات خاصة، فهي «عظيمة، طيبة، مقدسة، جميلة الشكل»، وهي «الوحيدة، الملكة، المنتصرة، سيدة البلاد جميعاً، حاكمة المدن». وهي «المخترعة، الخبيرة بالكتابة، الخبيرة بالحساب، زعيمة آلهات الشعر». وهي «سيدة البحار، ومرشدة السفن، والتي تعود بها إلى الميناء»، وهي «تقود الأساطيل». ومن الطبيعي أنها في هذا كله قد حلت مكان آلهة أخرى قديمة، فإيزيس صاحبة سايس إنما هي في حقيقة الأمر نيت؛ وإيزيس صاحبة بوبسطة هي باستت؛ وإيزيس صاحبة بوتو هي أوتو وهكذا. وإذا كانت جميع هذه الإلهات المصرية قد تسمى كذلك أفروديت أو أثينا أو هيرا أو هستيا، فقد كانت كلها مع ذلك تمثل إيزيس «ذات الأشكال المتعددة» وهو ما جرى كذلك مع إلهات سائر العالم، فمن روما وإيطاليا[٣] إلى الهند وفارس، ومن البحر الأسود إلى البحر الأحمر. كانت السيادة في كل مكان للإلهة «ذات الأسماء العديدة»؛ فستون بلداً وقطراً وشعباً كانوا يعبدونها على أنها «الفضلى، الجميلة، الطاهرة، المقدسة، المتصوّفة، حبيبة الآلهة»؛ وفي روما وعند الأمازونيين كانت تعبد على أنها «محاربة»؛ وفي

---

(١) Apulejus Metamorph. XI, 5.　(٢) Oxyrh Pap. XI, 190 ff.

(٣) يلاحظ عدم ذكر الجزء الغربي من الإمبراطورية، فيما عدا روما وإيطاليا؛ وفي هذا يبدو أن العالم لدى هذه الأنشودة هو العالم الإغريقي والعالم الشرقي.

بامبيكي في سوريا على أنها أترجاتس؛ وفي كريت على أنها دكتينّس، وفي صيدا على أنها عشترتي، ولها المعابد «في المدائن جميعاً شيدت لكل الأزمنة، وقد تركت للجميع القوانين. وهي تريد أن يرتبط الرجال والنساء معاً»، وقد أعطت هؤلاء ذات القوّة التي أعطتها لأولئك، وهي «الإلهة ذات الشكل الجميل في أولمب، زينة النساء، المحبة الرؤوف». وإن العالم ليدين لها بالنبيذ؛ فهي أوّل من أحضره في أعياد الآلهة. وهي التي «تقود الشمس منذ شروقها إلى غروبها» لبهجة جميع الآلهة وجميع الكائنات الحية. وهي التي «تجلب فيضان الأنهار، وفيضان النيل» في مصر، وهي النهر الكبير في فينيقيا، والكنج في الهند. وبفضلها يحيا كل شيء عن طريق الأمطار والينابيع والطلّ والثلج؛ ولها السلطان على الرياح والرعد والبروق والعواصف الثلجية. وهكذا يمضي النصّ، وما من شيء في هذا كله يذكرنا بإيزيس المصرية، لولا أنه ورد مرّة ذكر أوزيريس، الذي دفنته، وذكر ابنها حورس أبوللو، الذي «نصبته كحاكم شاب على العالم كله»؛ أما عن زوجها الذي جعلت منه شخصاً خالداً فقد هيأت له أماكن لعبادته في البلاد جميعاً.

وفي هذا نرى أن أوزيريس يتخلف كثيراً عن زوجته، وكذلك كان الحال في حقيقة الأمر في سائر العقائد الإيزيسية. أجل لقد كان يسمى «الإله، الذي له السلطان على الآلهة العظيمة، والأعلى بين الأعظمين، والأعظم بين الأعلين، وحاكم الأعظمين»[(١)]؛ وكان يسمى «الأب الأعلى للآلهة»، وكان يوصف بأنه «لا يقهر»[(٢)]، وهو وصف كان يمنح في هذا العصر فيما عدا ذلك إلى إله الشمس، وقد اشتقه من الفرس؛ كما أننا لنقرأ أكثر من مرّة[(٣)] «زيوس سرابيس هو واحد

---

(١) Apulejus, Metam. XI, 29.

(٢) نفس المرجع ١١، ٢٧. علاوة على هذا لقد كانت إيزيس تسمى «التي لا تقهر»، انظر نفس المرجع ١١، ٢٩ وتمثال كولونيا الوارد ذكره سابقاً.

(٣) هكذا على التميمة المحفوظة في المتحف المصري في برلين برقم ٩٨٣٤ (Ausf. Verz. S. 377) Oxyrhynchus Pap. XI, 235.

أحد» كأنه إقرار ديني بوحدانيته. ولكن ماذا كانت تعنيه مثل هذه العبارات وقد كان أتباع العقيدة المصرية الأتقياء ينسبون أنفسهم دائماً إلى إيزيس لا إلى أوزيريس أو سيرابيس؟ بل لم تعد مملكة الموتى له وحده، وإنما غدا لإيزيس فيها نصيب. فقد كان لكل من استحقّ رضاءها «بتحمسه في طاعتها وتقواه في عبادتها وشدة زهده» أن يطمع في أن تطيل عمره إلى ما يزيد على ما حدّده له القدر؛ ثم بعد ذلك إذا هبط عند الموت إلى العالم السفلي، فإنها هي التي كان ينظر إليها ويتعبدها. «وهي تضيء في نصف الكرة تحت الأرض وسط ظلمات أخيرون، وتحكم على الأماكن التي تقع في أقصى مناطق استكس»[1]. وكانت سعادة الرجل التقيّ بعد الموت في أن يعيش بالقرب من الإلهة «في الحقول الإليزية» وأن ينظر إليها، وهي السعادة نفسها التي كان يحظى بها في حياته إذا سمح له بالإقامة في المعبد وبالنظر إلى تمثال الإلهة. وكان ذلك يملؤه «طرباً ووجداً لا يوصفان»، فيرتمي أمامها، ويقبل قدميها، وتنهمر دموعه، حتى إنه لا يستطيع الكلام من شدة الشهيق، عندما يشكرها على طيب أعمالها: «أيتها القديسة، أيتها الحامية الأزلية للإنسان، يا من تعنين بهم في سخاء، وتزوّدينهم بعطفك الأموي، إن أصابتهم محنة. لا يمضي يوم بل ولا لحظة لا تفيضين فيها عليهم من الخيرات، ولا تحمين فيها البشر في البحر والبرّ، ولا تمدّين فيها يد النجدة لأولئك الذين تدقهم عواصف الحياة... إنك تسكنّين عواصف القدر وتخيفين الحركات المؤذية للنجوم.

إن أهل السماء ليقدّسونك، وسكان العالم السفلي يخدمونك، إنك لتديرين الأرض وتنيرين الشمس وتحكمين العالم وتجوبين تارتارُس. وإن النجوم لتجيبك، والأزمان صائرة إليك؛ وإن الآلهة لتحبك والعناصر تخدمك؛ بأنفاسك تهب الرياح وتُخصب السحب، وينبت الحبّ، وينمو النبت.

(١) Apulejus, XI, 6.

أمام جلالتك تخشع الطيور، التي في السماء، والحيوانات المتوحشة، التي تهيم في الجبال، والأفاعي، التي تختبىء في الثرى، والمردة التي تسبح في البحر.

إني أضعف من أن أستطيع مدحك، وأفقر من أن أقدم إليك القرابين. إنه ليعوزني البيان البليغ للتعبير عما أشعر به نحو جلالتك، وإنه لينبغي أن يكون لي لأداء هذا الواجب ألف فم وألف لسان»[١].

إن الإحساس الوحيد الذي يستطيع أن يقدمه للإلهة هو الشعور الحارّ بعرفان الجميل.

وكانت الأقلية هي التي كانت تستطيع عبادة إيزيس بتقوى بالغة مثل هذا المكرَّس، ولكن إذا كان غيرهم قد عبدوها عبادة سطحية، فيعوّض ذلك أن عددهم كان عظيماً. ولم يكن في الإمبراطورية الرومانية الواسعة الأرجاء مقاطعة واحدة لم تكن تعبد فيها الآلهة المصرية، حتى استطاع ترتوليان أن يقول: «إن الأرض بأسرها تعقد الأيمان اليوم باسم سيرابيس»[٢]. وإننا لنجد في إفريقية الشمالية، وفي أسبانيا، وفي بلاد الدانوب، وفي فرنسا، وحتى في انجلترا نفسها، نقوشاً تكرم فيها إيزيس وسيرابيس. وكان لإيزيس ربوعها كذلك في مناطق جبال الألب وفي ألمانيا[٣]. وتقرّر أحد المصادر المسيحية في تقريع[٤] أن نونسبرج جنوب بوزن كانت كأنها إسكندرية ثانية ملأى «بأنوبيس ذي الشكلين وبصور نصف إنسانية ذات أشكال متعدّدة... ملأى بحماقات إيزيس واختفاء

(١) Apulejus XI 24.

(٢) Tertullian, ad, nat 2, 8.

(٣) ومع ذلك لا نستطيع أن نصدق ما ذكره تاكيتوس في Germ. 9 من أن بعض السويبيين كانوا يعبدون إيزيس؛ وقد استنتج ذلك فقط من أنه كانت لهم سفينة تقوم مقام المعبد.

(٤) Acta S. S. XIX Mai S. 44.

سيرابيس؛ وكان في بُلست، في جلانتال الكارنثية، معبد لإيزيس الشمالية[١]. وكان في مارينهوزن في مقاطعة الرين مذبح لسيرابيس، أقامه ضابط روماني[٢]؛ وقد وجدت مراراً في منطقة الرين تماثيل صغيرة من البرنز للآلهة المصرية. على أن أعجب شاهد على ذلك هو ما حفظته لنا كنيسة أورسولا في كولونيا، وهو تمثال صغير لإيزيس التي لا تقهر، وقد استخدم في العصر الوسيط في تاج أحد أساطينها[٣]. وإذا كان قد كشف غير بعيد من هذه الكنيسة عن مقبرة مصري، يدعى حورس بن بابك، فإن المرء لا يملك إلا أن يسأل عما إذا كان هذا الرجل ذو الإسم المصري، الذي وجد سبيله من النيل إلى الرين، كان كاهناً للإلهة المصرية.



١٨٥ ـ تمثال إيزيس في كولونيا

وهكذا سادت عقيدة إيزيس في كل مكان في أوروبا، وقد كان سلطانها ينمو على الدوام حتى نهاية القرن الثاني، عندما أخذت عقيدة أخرى، وهي

---

(١) CIL III 4806 ff.

(٢) CIL XIII 7610.

(٣) Schaafhausen, Bonn Jahbr. 76,38 __ CIL XIII 8190, 8191.

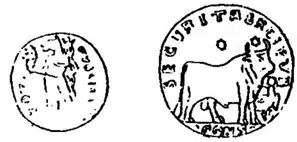
عقيدة متراس الإله الفارسي، تردها إلى الوراء بعض الشيء، على أنها مع ذلك ظلت قائمة طالما كانت تعبد الآلهة الوثنية. وإننا لنجد في أثينا في منتصف القرن الرابع قبراً لكاهن لإيزيس، دفنت معه فيه الأدوات من الفضة التي كان يستخدمها في المعبد(١)؛ وفي نفس العصر نجد في الرين الأمير الألماني مديرش، الذي تلقن هذه «الأسرار الإغريقية» وهو أسير في بلاد الغال، والذي أدّت به حماسته لسيرابيس إلى تسمية ابنه أجنـارش بعد ذلك باسم سيرابيون(٢). وفي المحاولات الأخيرة في إحياء الوثنية المحتضرة كان للعقيدة المصرية دورها أيضاً؛ فكان جوليان يكرم الآلهة المصرية؛ وفي عام ٣٩٢ عندما قام أربو جاست الفرنجي بتنصيب أويجيـن على العرش، وأتاح للأرستقراطية الوثنية نصراً قصير الأمد، لم تنسَ كذلك عبادة إيزيس. وفي عام ٣٩٤ احتفل نيكوماك فلافيان بصفته قنصلاً بآخر الأعياد الرسمية في روما، تمجيداً لماجنا ماتر وإيزيس. على أنه في هذه السنة نفسها انتصر تيودسيوس، وانتهى أمر ذلك جميعاً.

على أنه في الحقّ بقيت في العالم الروماني جماعة هادئة متمسكة بالعقائد المصرية، وهي جماعة الفلاسفة المتصوّفين، الذين ظلوا حتى القرن السادس يقومون بالتعليم في المراكز الكبرى للثقافة. وإذ كانوا يجدون لذة وغبطة في كل ما كان ذا طابع صوفي وفي كل ما يثير الوجد أو الدهشة، فقد كان لا يمكن ألا تثير مصر حماستهم. أجل لقد كانت مصر بلداً «مقدساً»، معابده مزوّدة بكل شيء، وفيه من الكهنة ما لا يحصى عددهم، ممن يسهرون على أداء الطقوس جميعاً، وفيه المذابح لا تخبو نارها أبداً. وقد علم المصريون العالم بأسره تقريباً عبادة الآلهة، «وإننا لنعلم أن الآلهة كانت ولا تزال تقطن هناك»، وذلك على نحو ما يذكر المؤلف الساذج الذي يرجع إليه هذا الوصف في القرن الرابع(٣). ولهذا كان هذا البلد المقدس المثل الأعلى لأولئك المتصوفيـن، وقد عمد أحدهم، وهو أسكلبيادس، الذي عاش في القرن الخامس، إلى الإقامة مدة

(١) Ross, Arch, Aufs, I 37 ff.

(٢) Erman, Ae. Z. 42, 110 وذلك حسب ما جاء في Amm. Marc. XVI 12,35.

(٣) Descr. totius mundi (ed. Lumbroso, Accad. dei Lincei 1898) p. 144 ff.



١٨٦ ـ قطعتان من نقود جوليان
عليهما صورة أبيس وأنوبيس

طويلة في مصر ليدرس التعاليم المقدسة من مصدرها. وقد نظم الأناشيد للآلهة المصرية وألف كتاباً في الديانة المصرية. على أنه على قدر أبحاثه فإنه لم يستطيع أن يحظى بما زوّدت الطبيعة به صديقه المجدود حرايسكوس. حقاً لم يكن هذا الصديق يعرف قدر ما يعرف هو من «حكمة المصريين»، على أنه عوضاً عن ذلك كانت «طبيعته شبيهة بطبيعة الآلهة». فكان ذا موهبة، بحيث كان إذا رأى تمثالاً لإله، فإنه كان يشعر «أحيّ هو أم لا». فآذا كان تمثال الإله آهلاً بروحه (صفحة ٢٣٩)، «فقد كان قلبه يتأثر بمجرّد مشاهدته، وكان جسده وروحه يثوران كأنه حلت به قوّة إلهية». وعندما توفي ودفن، تلألأ جسده فجأة من خلال اللفائف علامة على أنه قد اتحد مع الآلهة. وهكذا غدا ممجداً (صفحة ٣٥٨) كرجل مصري من الزمن الأول[١].

ومع ذلك لم يكن هـؤلاء المتصوّفون ليتصوروا كذلك أن هناك قوّة في العالم يمكن أن ترد للآلهة القديمة سيادتها. وكانوا يعلمون أنهم آخر الوثنيين، وأن مصر المقدسة «صورة السمار... ومعبد الكون بأسره»، غدت تنتمي منذ ذلك الوقت إلى المسيحية. وإننا لنقرأ بشيء من التأثر النبوءة الحزينة التي يتردّد صداها من أوساطهم[٢]؛ «سيأتي زمان يدون فيه أن المصريين عبدوا الإله بتقوى وحماسة دون جدوى... ذلك لأن الإله سيعود من الأرض إلى السماء، وسوف تظل مصر مهجورة، ولن يعود البلد الذي كان مقرّ الديانة، مأوى للآلهة... أيا مصر، يا مصر، إنه لن يبقى من عقائدك غير قصص وروايات، لن تصدقها الأجيال المقبلة، ولن تبقى غير كلمات على الحجر تحكي أعمال تقواك».

* * *

(١) Suidas s. v Heraiskus.

(٢) Pseudoapulejus Asclepius XXIV.

فهرس الموضوعات